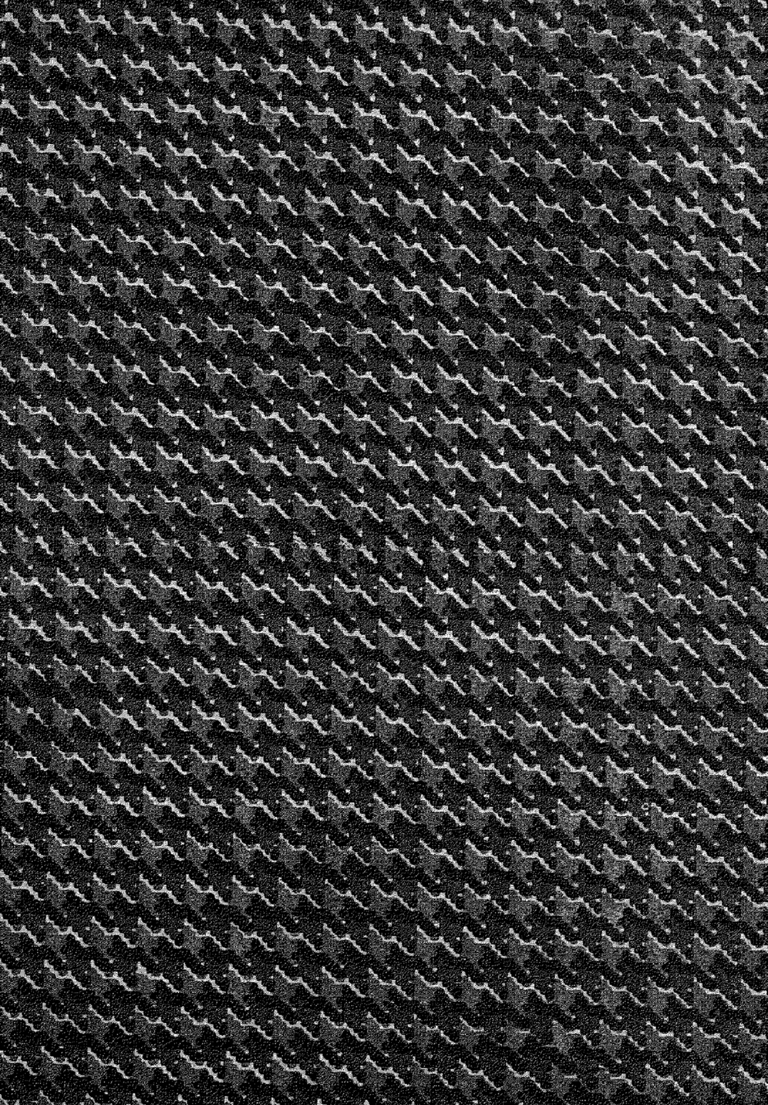
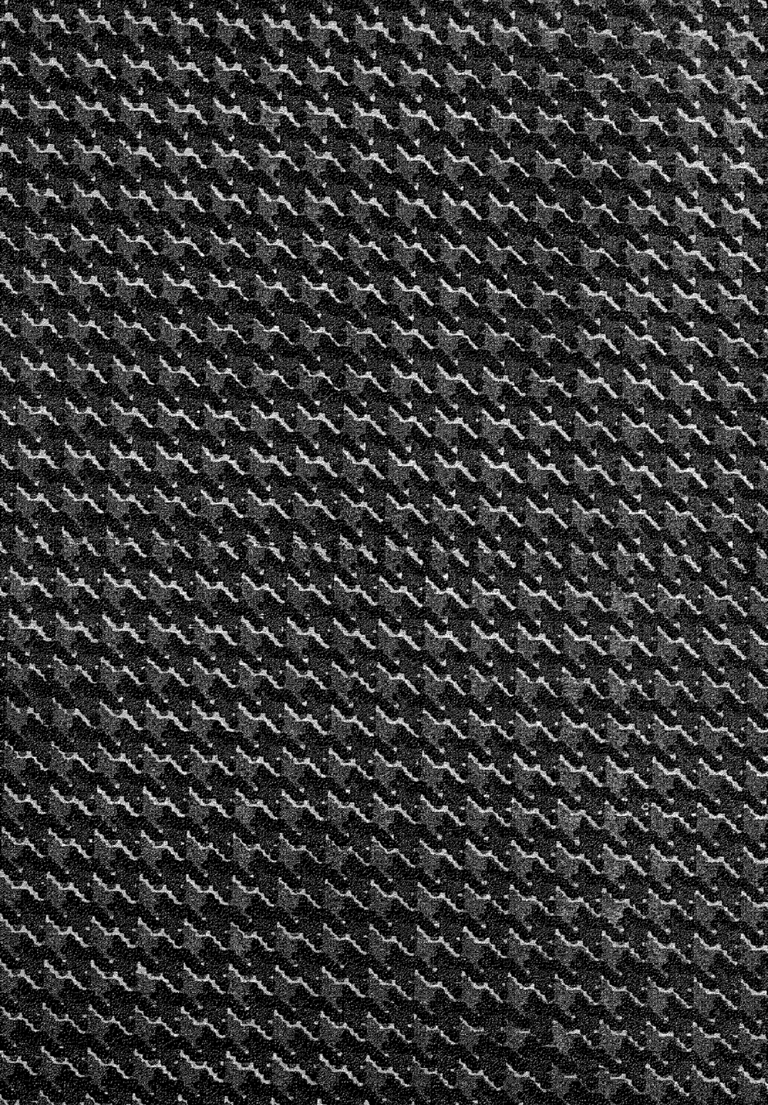






كتاب الشعب



الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خيركم من علم القرآن وعلمه

حديث شريف

٩

اذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

فى أعلا درجات الشهداء . قال الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . وقد روى عكرمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل تكلم بكلمة حق عند سلطان جائر فقتله" . وسيأتى القول فى هذا فى «آل عمران» إن شاء الله تعالى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ أى فى الإنفاق فى الطاعة، أو أحسنوا الظن بالله فى إخلافه عليكم . وقيل : أحسنوا فى أعمالكم بامتثال الطاعات؛ روى ذلك عن بعض الصحابة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء فى المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة لله؛ فقيل : أداؤهما والإتيان بهما؛ كقوله : ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أى ائتوا بالصيام؛ وهذا على مذهب من أوجب العمرة، على ما يأتى . ومن لم يوجبها قال : المراد تمامهما بعد الشروع فيهما، فإن من احرم بنسك وجب عليه المضىّ فيه ولا يفسخه، قال معناه الشعبيّ وابن زيد . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إتمامهما أن تُحرِم بهما من دُوَيْرة أهلك . وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقّاص ، وفعله عمران بن حُصَين . وقال سفيان الثورىّ : إتمامهما أن تخرج قاصدا لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك . ويقوّى هذا قوله «لله» . وقال عمر : إتمامهما أن يُفرد كل واحد منهما من غير تمتع وقران . وقاله ابن حبيب . وقال مقاتل : إتمامهما ألا تستحلوا فيهما مالا ينبغى لكم ؛ وذلك أنهم كانوا يشركون فى إحرامهم فيقولون : لبّيك اللّهمّ لبيك، لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك . فقال : فأتموهما ولا تخلطوهما بشيء آخر .

قلت : أمّا ما روى عن علىّ وفعله عمران بن حصين فى الإحرام قبل المواقيت التى وقّتها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقد قال به عبد الله بن مسعود وجماعة من السلف ، وثبت أن عمر أهلّ من إيلياء[1] . وكان الأسود وعلقمة وعبد الرحمن وأبو اسحاق يُحرمون من بيوتهم ؛

(١) إيلياء (بالمدّ وتقصر) : اسم مدينة بيت المقدس .

ورخّص فيه الشافعيّ . وروى أبو داود والدّارقطنيّ عن أم سَلَمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحرم من بيت المقدس بحجّ أو عُمْرة كان من ذنوبه كيوم[(١)] ولدته أمه" وفي رواية "غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر" . وخرّجه أبو داود وقال : «يرحم الله وكيعا ! أحرم من بيت المقدس؛ يعني إلى مكة» . ففي هذا إجازة الإحرام قبل الميقات، وكره مالك رحمه الله أن يُحرِم أحد قبل الميقات، ويروى ذلك عن عمر بن الخطاب، وأنه أنكر على عمران بن حصين إحرامه من البصرة . وأنكر عثمان على ابن عُمر[(٢)] إحرامه قبل الميقات . وقال أحمد وإسحاق : وجهُ العمل المواقيت ، ومن الحجة لهذا القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّت المواقيت وعينها فصارت بيانا لمجمل الحج ، ولم يُحرِم صلى الله عليه وسلّم من بيته لحجته ، بل أحرم من ميقاته الذى وقّته لأمته . وما فعله صلّى الله عليه وسلّم فهو الأفضل إن شاء الله . وكذلك صنع جمهور الصحابة والتابعين بعدهم . واحتج أهل المقالة الأولى وأن ذلك أفضل بقول عائشة : ما خُيّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين أمرين إلا اختار أيسرهما . وبحديث أم سلمة مع ما ذكر عن الصحابة في ذلك، وقد شهدوا إحرام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى حجته من ميقاته، وعرفوا مغزاه ومراده، وعلموا أن إحرامه من ميقاته كان تيسيرا على أمته .

الثانيـــة — روى الأئمة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقّت لأهل المدينة ذا الحُلَيْفة[(٣)]، ولأهل الشام الجُحْفة[(٤)]، ولأهل نجد قَرْن[(٥)]، ولأهل اليمن يَلَمْلَم[(٦)] ، هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة . ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ؛ حتى أهل مكة من مكة

---

(١) كذا فى الدارقطنى . وفى الأصول : «كهيئة يوم» . (٢) فى شرح الموطأ للزرقانى : «... على عبد الله بن عامر» . وعبد الله بن عامر هذا ، ابن خال عثمان وكان واليا له على البصرة . (٣) ذو الحليفة (مصغر حلفة) : قرية خربة بينها وبين مكة مائتا ميل . (٤) الجحفة (بضم الجيم وسكون المهملة) : قرية خربة بينها وبين مكة خمس مراحل ، ويقرب منها القرية المعروفة برابغ — براء وموحدة وعين معجمة — فيصح الإحرام منها . (٥) قرن (بفتح القاف وسكون الراء) : جبل مشرف على عرفات، وهو على مرحلتين من مكة . (٦) يلملم (بفتح التحتية واللام وسكون الميم وفتح اللام) : مكان على مرحلتين من مكة .

يهلّون منها . وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث واستعماله، لا يخالفون شيئا منه . واختلفوا في ميقات أهل العراق وفيمن وقّته؛ فروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقّت لأهل المشرق العقيق . قال الترمذيّ : هذا حديث حسن . وروى أن عمر وقّت لأهل العراق ذاتَ عِرْق[1] . وفى كتاب أبي داود عن عائشة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقّت لأهل العراق ذات عرق . وهذا هو الصحيح، ومن روى أن عمر وقّته؛ لأن العراق فى وقته افتتحت؛ فغفلة منه، بل وقّته رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما وقّت لأهل الشام الجحفة . والشام كلها يومئذ دار كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان؛ ولم تفتح العراق ولا الشام إلا على عهد عمر، وهذا مالا خلاف فيه بين أهل السير . قال أبو عمر : كل عِراقى أو مشرقى أحرم من ذات عِرْق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته، والعقيق أحوط عندهم وأولى من ذات عرق، وذات عرق ميقاتهم أيضا بإجماع .

الثالثة — أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتى الميقات أنه محرم، وإنما منع من ذلك مَنْ رأى الإحرام عند الميقات أفضل، كراهية أن يضيّق المرء على نفسه ما قد وسّع الله عليه، وأن يتعرض بما لا يؤمن أن يحدث فى إحرامه، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك، لأنه زاد ولم ينقص .

الرابعة — فى هذه الآية دليل على وجوب العمرة، لأنه تعالى أمر بإتمامهما كما أمر بإتمام الحج . قال الصُّبَيّ[2] بن معبد: أتيت عمر رضى الله عنه فقلت إنى كنت نصرانيا فأسلمت، وإنى وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ، وإنى أهللت بهما جميعا. فقال له عمر: هُديتَ لسنة نبيّك . قال ابن المنذر: ولم ينكر عليه قوله : وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ . وبوجوبهما قال علىّ بن أبى طالب وابن عمر وابن عباس . وروى الدّارقطنيّ عن ابن جريج قال: أخبرنى نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : ليس من خلق الله أحد إلا عليه حجة وعمرة واجبتان

(١) ذات عرق : قرية على مرحلتين من مكة .

(٢) الصبي (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وتشديد الياء) .

من استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ فمن زاد بعدها شيئا فهو خير وتطوع . قال : ولم أسمعه يقول فى أهل مكة شيئا . قال ابن جريج : وأخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال : العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إليه سبيلا . وممن ذهب إلى وجوبها من التابعين : عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي وسعيد بن جبير وأبو بردة ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكيين . وقال الثوري : سمعنا أنها واجبة . وسئل زيد بن ثابت عن العمرة قبل الحج ؛ فقال : صلاتان لا يضرك بأيهما بدأت . ذكره الدارقطني . وروى مرفوعا عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت " . وكان مالك يقول : « العمرة سنة ولا نعلم أحدا أرخص فى تركها » . وهو قول النخعى وأصحاب الرأى فيما حكى ابن المنذر . وحكى بعض القزوينيين والبغداديين عن أبى حنيفة أنه كان يوجبها كالحج ، وبأنها سنة ثابتة . قاله ابن مسعود وجابر بن عبد الله . روى الدارقطني حدثنا محمد بن القاسم بن زكريا حدثنا محمد بن العلاء أبو كُرَيب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن محمد بن المُنْكدر عن جابر بن عبد الله قال : سأل رجل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الصلاة والزكاة والحج : أواجب هو ؟ قال : " نعم " فسأله عن العمرة : أواجبة هى ؟ قال : " لا وأن تعتمر خير لك ". رواه يحيى بن أيوب عن حجاج وابن جريج عن ابن المنكدر (١) عن جابر موقوفا من قول جابر . فهذه حجة من لم يوجبها من السنة . قالوا : وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب ، لأن الله سبحانه إنما قرنها فى وجوب الإتمام لا فى الابتداء ، فإنه ابتدأ الصلاة والزكاة فقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ . وابتدأ بإيجاب الحج فقال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ . ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها ، فلو حج عَشْر حِجج ، أو اعتمر عَشْر عُمَر لزم الإتمام فى جميعها ؛ فإنما جاءت الآية لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء . والله أعلم . واحتج المخالف من جهة النظر على وجوبها بأن قال : عماد الحج الوقوف بعرفة ،

(١) فى نسخ الأصل : « محمد » والتصويب عن سنن الدارقطنى .

وليس فى العمرة وقوف؛ فلو كانت كسنّة الحج لوجب أن تساويه فى أفعاله ؛ كما أن سنة الصلاة تساوى فريضتها فى أفعالها .

الخامسة — قرأ الشعبيّ وأبو حيوة برفع التاء فى العمرة ؛ وهى تدل على عدم الوجوب. وقرأ الجماعة « العمرة » بنصب التاء، وهى تدل على الوجوب . وفى مصحف ابن مسعود « وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لله »[1] وروى عنه « وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت » . وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة، ولا حظ بقصد، ولا قربة بمعتقد؛ فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وقضاء حقه ، ثم سامح فى التجارة على ما يأتى .

السادسة — لا خلاف بين العلماء فيمن شهد مناسك الحج وهو لا ينوى حجًّا ولا عمرة — والقلم جارٍ له وعليه — أن شهودها بغير نية ولا قصد غير مُغْنٍ عنه، وأن النية تجب فرضا، لقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا ﴾ ومن تمام العبادة حضور النية ، وهى فرض كالإحرام عند الإحرام ؛ لقوله عليه السلام لما ركب راحلته : "لبّيكَ بحجة وعمرة معا" . على ما يأتى . وذكر الربيع فى كتاب البُوَيْطى عن الشافعيّ قال: ولو لبّى رجل ولم ينو حجا ولا عمرة لم يكن حاجا ولا مُعْتَمِرا، ولو نوى ولم يُلبِّ حتى قضى المناسك كان حجه تاما. واحتج بحديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "إنما الأعمال بالنيات" . قال : ومن فعل مثل ما فعل علىّ حين أهلّ على إهلال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أجزته تلك النية ؛ لأنها وقعت على نية لغيره قد تقدمت ، بخلاف الصلاة .

السابعة — واختلف العلماء فى المراهق والعبد يُحرِمان بالحج ثم يحتلم هذا ويُعتَق هذا قبل الوقوف بعرفة؛ فقال مالك :لا سبيل لهما إلى رفض الإحرام ولا لأحد، متمسّكا بقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ومن رفض إحرامه فلا يتم حجه ولا عمرته . وقال أبو حنيفة : جائز للصبيّ إذا بلغ قبل الوقوف بعرفة أن يجدد إحراما ؛ فإن تمادى على حجه ذلك لم يُجْزه

(١) قال أبو حيان فى البحر ينبغى أن يحمل هذا كله على التفسير لأنه مخالف لسواد المصحف الذى أجمع عليه المسلمون .

من حجة الإسلام . واحتج بأنه لما لم يكن الحج يجزى عنه، ولم يكن الفرض لازما له حين أحرم بالحج ثم لزمه حين بلغ، استحال أن يُشغل عن فرض قد تعيّن عليه بنافلة و يعطل فرضه؛ كمن دخل فى نافلة وأقيمت عليه المكتوبة وخشى فوتها، قطع النافلة ودخل فى المكتوبة . وقال الشافعىّ : إذا أحرم الصبىّ ثم بلغ قبل الوقوف بعرفة فوقف بها محرما أجزأه من حجة الإسلام، وكذلك العبد . قال : ولو عَتَق بمزدلفة وبلغ الصبىّ بها فرجعا إلى عرفة بعد العتق والبلوغ فأدركا الوقوف بها قبل طلوع الفجر أجزت عنهما من حجة الإسلام، ولم يكن عليهما دم؛ ولو احتاطا فأهراقا (١) دمًا كان أحبّ إلىّ، وليس ذلك بالبيّن عندى . واحتج فى إسقاط تجديد الإحرام بحديث علىّ رضى الله عنه إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل من اليمن مُهِلًّا بالحج : "بِمَ أهللت" قال قلت : لبّيك اللّهمّ بإهلالٍ كإهلال نبيّك . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "فإنى أهللتُ بالحج وسقتُ الهَدْىَ". قال الشافعىّ : ولم ينكر عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقالته، ولا أمره بتجديد نيّة لإفرادٍ أو تمتّع أو قِرانٍ. وقال مالك فى النصرانىّ يُسلم عشيّةَ عرفةَ فيُحرِم بالحج : أجزأه من حجة الإسلام، وكذلك العبد يُعتَق، والصبىّ يبلغ إذا لم يكونوا محرمين ولا دَمَ على واحد منهم؛ وإنما يلزم الدم من أراد الحج ولم يحرم من الميقات. وقال أبو حنيفة: يلزم العبد الدم. وهو كالحر عندهم فى تجاوز الميقات بخلاف الصبىّ والنصرانىّ فإنهما لا يلزمهما الإحرام لدخول مكة لسقوط الفرض عنهما . فإذا أسلم الكافر وبلغ الصبىّ كان حكمهما حكم المكىّ، ولا شىء عليهما فى ترك الميقات .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ فيه اثنتا عشرة مسئلة :

الأولى ــ قال ابن العربى : هذه آية مشكلة، عُضْلة من العُضَل .

قلت : لا إشكال فيها ونحن نبيّنها غاية البيان فنقول : الإحصار هو المنع من الوجه الذى تقصده بالعوائق جملة، فجملة بأى عذر كان ، كان حصر عدو أو جور سلطان أو مرض أو ما كان . واختلف العلماء فى تعيين المانع هنا على قولين : الأول ــ قال علقمة وعروة

(١) هراق الماء وأهرقه وأهراقه : صبه . وأصله : أراقه .

ابن الزبير وغيرهما : هو المرض لا العدوّ . وقيل : العدوّ خاصة . قاله ابن عباس وابن عمر وأنس والشافعيّ . قال ابن العربي : وهو اختيار علمائنا . ورأىُ أكثر أهل اللغة ومحصّليها على أن أُحْصِر عُرِّض للمرض، وحُصِر نزل به العدوّ .

قلت : ما حكاه ابن العربي من أنه اختيار علمائنا لم يقل به إلا أشهب وحده، وخالفه سائر أصحاب مالك في هذا وقالوا: الإحصار إنما هو المرض، وأما العدوّ فإنما يقال فيه : حُصِر حصْرًا فهو محصور . قاله الباجي في المنتقى . وحكى أبو إسحاق الزجاج أنه كذلك عند جميع أهل اللغة على ما يأتي . وقال أبو عبيدة والكسائي : أحصر بالمرض وحصر بالعدوّ . وفي المجمل لابن فارس على العكس ، فحصر بالمرض، وأحصر بالعدوّ . وقالت طائفة : يقال أحصر فيهما جميعا من الرباعي . حكاه أبو عمر .

قلت : وهو يشبه قول مالك حيث ترجم في موطاه «احصر» فيهما فتأمله .

وقال الفراء : هما بمعنًى واحد في المرض والعدوّ . قال القشيري أبو نصر : وادعت الشافعية أن الإحصار يستعمل في العدوّ، فأما المرض فيستعمل فيه الحصر، والصحيح أنهما يستعملان فيهما .

قلت : ما ادعته الشافعيّة قد نصّ الخليل بن أحمد وغيره على خلافه . قال الخليل : حصرت الرجل حصرا منعته وحبسته ، وأحصر الحاج عن بلوغ المناسك من مرض أو نحوه . هكذا قال . جعل الأول ثلاثيا من حصرت ، والثاني في المرض رباعيًا، وعلى هذا خرج قول ابن عباس : لا حصر إلا حصر العدوّ . وقال ابن السِّكِّيت : أحصره المرض إذا منعه من السفر أو من حاجة يريدها . وقد حصره العدوّ يحصرونه إذا ضيقوا عليه فأطافوا به . وحاصروه محاصرة وحصارا . قال الأخفش : حصرت الرجل فهو محصور ، أي حبسته . قال: وأحصرني بولي، وأحصرني مرضي، أي جعلني أحصر نفسي. قال أبو عمرو الشيباني : حصرني الشيء، وأحصرني، أي حبسني .

قلت : فالأكثر من أهل اللغة على أن حصر فى العدوّ، وأحصر فى المرض ؛ وقد قيل ذلك فى قول الله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . وقال ابن مَيّادة :

وما هَجْرُ لَيْلَى أن تكونَ تباعَدتْ * عليكَ ولا أنْ أحْصَرتْك شُغُولُ

وقال الزجاج : الإحصار عند جميع أهل اللغة إنما هو من المرض، فأما من العدوّ فلا يقال فيه إلا حُصِر . يقال : حُصِر حصرا ، وفى الأول أحصر إحصارا ، فدلّ على ما ذكرناه . وأصلُ الكلمة من الحبس؛ ومنه الحصير للذى يحبس نفسه عن البوح بسرّه . والحصير : المَلِك لأنه كالمحبوس من وراء الحجاب . والحصير الذى يجلس عليه لانضمام بعض طاقات البَرْدِيّ[1] إلى بعض؛ كحبس الشيء مع غيره .

الثانيــــة ــــ ولما كان أصل الحصر الحبس قالت الحنفية : المُحْصَر من يصير ممنوعا من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدو أو غير ذلك . واحتجوا بمقتضى الإحصار مطلقا . قالوا : وذكر الأمن فى آخر الآية لا يدل على أنه لا يكون من المرض؛ قال صلّى الله عليه وسلّم : " الزكام أمان من الجـذام " . وقال : "مَن سَبَق العاطِسَ بالحمد أَمِنَ الشَّوْص واللَّوْص والعِلَّوْص" . الشّوص : وجع السن . واللّوص : وجع الأذن . والعِلّوص : وجع البطن . أخرجه ابن ماجه فى سننه . قالوا : وإنما جعلنا حبس العدوّ حصارا قياسا على المرض إذا كان فى حكمه ، لا بدلالة الظاهر . وقال ابن عمر وابن الزبير وابن عباس والشافعيّ وأهل المدينة: المراد بالآية حصر العدوّ، لأن الآية نزلت فى سنة ستّ فى عمرة الحديبية حين صدّ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن مكة. قال ابن عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم هَدْيَه وحلق رأسه . ودلّ على هذا قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ ﴾ . ولم يقل : برأتم . والله أعلم .

الثالثـــة ــــ جمهور الناس على أن المُحْصَر بعدوّ يحلّ حيث أُحصر وينْحَر هَـدْيه إن كان ثَمّ هدىٌ ويَحْلِق رأسه . وقال قتادة وإبراهيم : يبعث بهديه إن أمكن، فاذا بلغ مَحِلّه صار حلالا .

---

(١) البردى (بفتح الموحدة وسكون الراء) : نبات يعمل منه الحصر . و بضمها وسكون الراء : ضرب من أجود التمر .

وقال أبو حنيفة: دم الإحصار لا يتوقف على يوم النحر، بل يجوز ذبحه قبل يوم النحر إذا بلغ مَحِلّه . وخالفه صاحباه فقالا : يتوقف على يوم النحر، و إن نحر قبله لم يجزه . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان .

الرابعــة — الأكثر من العلماء على أن من أحصر بعدوّ كافر أو مسلم، أو سلطان حبسه في سجن أن عليه الهَدْى، وهو قول الشافعي، وبه قال أشهب . وكان ابن القاسم يقول : ليس على من صُدّ عن البيت في حج أو عمرة هديٌ إلا أن يكون ساقه معه . وهو قول مالك . ومن حجتهما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إنما نحر يوم الحديبية هدياً قد كان أشعره وقلّده حين أحرم بعمرة، فلما لم يبلغ ذلك الهديُ مَحِلّه للصّدّ، أمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنحر، لأنه كان هديا وجب بالتقليد والإشعار، وخرج لله فلم يجز الرجوع فيه، ولم يَنْحَره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أجل الصدّ، فلذلك لا يجب على من صُدّ عن البيت هَدْيٌ. واحتج الجمهور بأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يحلّ يوم الحديبية ولم يَحْلِق رأسه حتى نحر الهدى ، فدلّ ذلك على أنّ مِنْ شرط إحلال المحصر ذبح هدى إن كان عنـده، و إن كانـ فقيرا فمتى وجده وقَدر عليه لا يَحِلّ إلا به . وهو مقتضى قوله : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ . وقد قيل : يحل و يُهدى إذا قَدَر عليه ؛ والقولان للشافعي ، وكذلك من لا يجد هديا يشتريه قولانـ .

الخامســة — قال عطاء وغيره : المُحْصَر بمرض كالمحصر بعدو . وقال مالك والشافعيّ وأصحابهما : من أحصره المرض فلا يَحِلّه إلا الطواف بالبيت و إن أقام سنين حتى يُفيق . وكذلك من أخطأ العدد أو خفى عليه الهلال . قال مالك : وأهل مكة في ذلك كأهل الآفاق . و إن احتاج المريض إلى دواء تداوى به وافتدى و بقى على إحرامه لا يَحِلّ من شيء حتى يبرأ من مرضه ؛ فإذا برئ من مرضه مضى إلى البيت فطاف به سبعا، وسعى بين الصفا والمروة وحَلّ من حجته أو عمرته . وهذا كله قول الشافعي، وذهب في ذلك إلى ما روى عن عمـر

وابن عباس وعائشة وابن عمر وابن الزبير أنهم قالوا فى المُحْصَر بمرض أو خطأ العدد : إنه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وكذلك من أصابه كسر أو بطن منخرق . وحكم من كانت هذه حاله عند مالك وأصحابه أن يكون بالخيار إذا خاف فوت الوقوف بعرفة لمرضه ، إن شاء مضى إذا أفاق إلى البيت فطاف وتحلّل بعمرة ، و إن شاء أقام على إحرامه إلى قابل ، و إن أقام على إحرامه ولم يواقع شيئا مما نُهى عنه الحاج فلا هَدْى عليه ، ومن حجته فى ذلك الإجماع من الصحابة على أن من أخطأ العدد أن هـذا حكمه لا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وقال فى المكىّ إذا بقى محصورا حتى فرغ الناس من حجهم : فإنه يخرج إلى الحل فيلبّى و يفعل ما يفعله المعتمر ويحل ؛ فإذا كان قابل حجّ وأهدى . وقال ابن شهاب الزهرىّ فى إحصار من أحصر بمكة من أهلها : لا بدّ له من أن يقف بعرفة و إن نُعش نَعْشًا . واختار هذا القول أبو بكر محمد ابن أحمد بن عبد الله بن بكير المالكى فقال : قول مالك فى المُحْصَر المكىّ أن عليه ما على الآفاق من إعادة الحج والهدى خلاف ظاهر الكتاب ، لقول الله عزّ وجلّ : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . قال : والقول عندى فى هذا قول الزهرىّ فى أن الإباحة من الله عزّ وجلّ لمن لم يكن أهـله حاضرى المسجد الحرام أن يقيم لبعد المسافة يتعالج و إن فاته الحج ؛ فأما من كان بينـه وبين المسجد الحرام مالا تقصر فى مثله الصلاة فإنه يحضر المشاهد و إن نُعش نعشا لقرب المسافة بالبيت . وقال أبو حنيفة وأصحابه : كل من منع من الوصول إلى البيت بعدوّ أو مرض أو ذهاب نفقة أو إضلال راحلة أو لدغ هامة فإنه يقف مكانه على إحرامه ويبعث بهديه أو بثمن هديه ، فإذا نحر فقـد حلّ من إحرامه . كذلك قال عروة وقتادة والحسن وعطاء والنخعى ومجاهد وأهل العراق لقوله ، تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ الآية .

السادسـة ـ قال مالك وأصحابه : لا ينفع المحرم الاشتراط فى الحج إذا خاف الحصر بمرض أو عدوّ ، وهو قول الثورىّ وأبى حنيفة وأصحابهم . والاشـتراط أن يقول إذا أهلّ : لبّيك اللهمّ لبيك ، ومَحِلّى حيث حبستنى من الأرض . وقال أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهَوَيْه

وأبو ثور : لا بأس أن يشترط وله شرطه . وقاله غير واحد من الصحابة والتابعين ، وحجتهم حديث ضُبَاعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : يا رسول الله، إني أردت الحج، أشترط؟ قال: "نعم". قالت : فكيف أقول؟ قال: "قولى لبّيك اللّهمّ لبيك ومَحِلّى من الأرض حيث حبستنى". أخرجه أبو داود والدّارقطنيّ وغيرهما. قال الشافعيّ : لو ثبت حديث ضُبَاعة لم أعْدُه، وكان محله حيث حبسه الله .

قلت : قد صحّحه غير واحد ، منهم أبو حاتم البستى وابن المنذر، قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لضباعة بنت الزبير: "حجّى واشترطى". وبه قال الشافعيّ إذ هو بالعراق ، ثم وقف عنه بمصر . قال ابن المنذر : وبالقول الأوّل أقول . وذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال : أخبرنى أبو الزبير أن طاوسا وعكرمة أخبراه عن ابن عباس قال : جاءت ضباعة بنت الزبير إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : إنى امرأة ثقيلة وإنى أريد الحج، فكيف تأمرنى أن أهلّ؟ قال : "أهلّى واشترطى أن مَحِلّى حيث حبستنى". قال : فأدركتْ[1] . وهذا إسناد صحيح .

السابعة – واختلفت العلماء أيضا في وجوب القضاء على من أحصر؛ فقال مالك والشافعي: من أحصر بعدوّ فلا قضاء عليه لحجه ولا عمرته، إلا أن يكون صرورة[2] لم يكن حج؛ فيكون عليه الحج على حسب وجوبه عليه. وكذلك العمرة عند من أوجبها فرضا . وقال أبو حنيفة: المحصر بمرض أو عدوّ عليه حجة وعمرة؛ وهو قول الطبرى . قال أصحاب الرأى : إن كان مُهلّا بحج قضى حجة وعمرة، لأن إحرامه بالحج صار عمرة . وإن كان قارنا قضى حجة وعمرتين . وإن كان مُهلّا بعمرة قضى عمرة . وسواء عندهم المحصر بمرض أو عدوّ على ما تقدّم . واحتجّوا بحديث ميمون بن مهران قال : خرجت معتمرا عامَ حاصرَ أهلُ الشام ابنَ الزبير بمكة وبعث معى رجال من قومى بهدْى؛ فلما انتهيت الى أهل الشام منعونى أن أدخل الحرم؛ فنحرت

(١) قوله : فأدركت . معناه أدركت الحج ولم تحلل حتى فرغت منه . (٢) الصرورة (بالصاد المهملة) : الذى لم يحج قط . ويطلق أيضا على من لم يتزوج . وأصله من الصر : الحبس والمنع .

الهدى مكانى ثم حللت ثم رجعت؛ فلما كان من العام المقبل خرجت لأقضى عمرتى، فأتيت ابن عباس فسألته . فقال : أبدل الهدى، فان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمر أصحابه أن يبدلوا الهدى الذى نحروا عام الحديبية فى عمرة القضاء . واستدلوا بقوله عليه السلام : "من كُسر أو عَرَج فقد حلّ وعليه حجة أخرى أو عمرة أخرى" . رواه عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من عَرَج أو كُسر فقد حلّ وعليه حجة أخرى" . قالوا : فاعتمار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه فى العام المقبل من عام الحديبية إنما كان قضاء لتلك العمرة . قالوا : ولذلك قيل لها عمرة القضاء . واحتج مالك بأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يأمر أحدا من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئا ولا أن يعودوا لشىء، ولا حفظ ذلك عنه بوجه من الوجوه، ولا قال فى العام المقبل : إن عمرتى هذه قضاء عن العمرة التى حُصرتُ فيها، ولم ينقل ذلك عنه . قال : وعمرة القضاء وعمرة القَضيّة سواء، وإنما قيل لها ذلك لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قاضى قريشا وصالحهم فى ذلك العام على الرجوع عن البيت وقصده من قابل؛ فسميت بذلك عمرة القضية .

الثامنة ــ لم يقل أحد من الفقهاء فيمن كسر أو عرج أنه يَحلّ مكانه بنفس الكسر غير أبى ثور على ظاهر حديث الحجاج بن عمرو، وتابعه على ذلك داود بن علىّ وأصحابه . وأجمع العلماء على أنه يحل من كسر؛ ولكن اختلفوا فيما به يحل؛ فقال مالك وغيره : يَحلّ بالطواف بالبيت لا يحلّه غيره . ومن خالفه من الكوفيين يقول : يَحلّ بالنية وفعل ما يتحلل به على ما تقدّم من مذهبه .

التاسعة ــ لاخلاف بين علماء الأمصار أن الإحصار عام فى الحج والعمرة . وقال ابن سيرين : لا إحصار فى العمرة، لأنها غير مؤقتة، وأجيب بأنها وإن كانت غير مؤقتة لكن فى الصبر الى زوال العذر ضرر، وفى ذلك نزلت الآية . وحكى عن ابن الزبير أن من أحصره العدو أو المرض فلا يحلّه إلا الطواف بالبيت . وهذا أيضا مخالف لنص الخبر عام الحديبية .

العاشرة — الحاصر لا يخلو أن يكون كافرا أو مسلما، فان كان كافرا لم يجز قتاله ولو وثق بالظهور عليه، و يتحلل بموضعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما تقدّم. ولو سأل الكافر جُعْلًا لم يجز لأن ذلك وَهْنٌ فى الإسلام. فان كان مسلما لم يجز قتاله بحال، ووجب التحلل. فان طلب شيئا ويتخلى عن الطريق جاز دفعه، ولم يجز القتال لما فيه من إتلاف المهج، وذلك لا يلزم فى أداء العبادات فان الدين أسمح. وأما بذل الجُعْل فلما فيه من دفع أعظم الضررين بأهونهما، ولأن الحج مما ينفق فيه المال، فيُعدّ هذا من النفقة.

الحادية عشرة — والعدوّ الحاصر لا يخلو أن يتيقن بقاؤه واستيطانه لقوته وكثرته أولا؛ فان كان الأول حلّ المحصر مكانه من ساعته. وإن كان الثانى وهو مما يرجى زواله فهذا لا يكون محصورا حتى يبقى بينه وبين الحج مقدار ما يعلم أنه إن زال العدوّ لا يدرك فيه الحج، فيحلّ حينئذ عند ابن القاسم وابن الماجشون. وقال أشهب: لا يحل من حصر عن الحج بعدوّ حتى يوم النحر ولا يقطع التلبية حتى يروح الناس الى عرفة. وجه قول ابن القاسم أن هذا وقت يأس من إكمال حجه لعدوّ غالب، فجاز له أن يحلّ فيه، أصل ذلك يوم عرفة. ووجه قول أشهب أن عليه أن يأتى من حكم الإحرام بما يمكنه [والتزامه[1] له الى يوم النحر، الوقت الذى يجوز للحاج التحلل بما يمكنه] الاتيان به [فكان[1] ذلك عليه].

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ما، فى موضع رفع، أى فالواجب أو فعليكم ما استيسر. ويحتمل أن يكون فى موضع نصب، أى فانحروا أو فاهدوا. وما استيسر عند جمهور أهل العلم شاة. وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير: ما استيسر جمل دون جمل، وبقرة دون بقرة لا يكون من غيرهما. وقال الحسن أعلى الهدى بدنة وأوسطه بقرة وأخسّه شاة. وفى هذا دليل على ماذهب إليه مالك من أن المحصر بعدوّ لا يجب عليه القضاء؛ لقوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ولم يذكر قضاء. والله اعلم.

---

(١) الزيادة عن كتاب «المنتقى للباجى» يقتضيها السياق.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ الهَدْىُ والهَدِىّ لغتان، وهو ما يُهدَى إلى بيت الله من بَدَنة أو غيرها . والعرب تقول : كم هَدِىُّ بنى فلان، أى كم إبلهم . وقال أبو بكر: سُميت هَدْيًا لأن منها ما يُهْدَى إلى بيت الله؛ فسميت بما يلحق بعضها، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ . أراد فإن زنى الإماء فعلى الأمة منهن إذا زنت نصف ما على الحرة البكر إذا زنت . فذكر الله المحصنات وهو يريد الأبكار؛ لأن الإحصان يكون فى أكثرهن فسمّين بأمر يوجد فى بعضهن . والمحصنة من الحرائر هى ذات الزوج، يجب عليها الرجم إذا زنت، والرجم لا يتبعّض، فيكون على الأَمَة نصفه؛ فانكشف بهذا أن المحصنات يراد بهن الأبكار لا أولات الأزواج . وقال الفراء : أهل الحجاز وبنو أسد يخففون الهدى، قال : وتميم وسُفْلَى قَيْس يثقلون فيقولون : هَدِىّ . قال الشاعر :

حَلَفْتُ بربِّ مكّةَ والمُصَلَّى ❊ وأعْناقِ الهَدِىِّ مُقَلَّداتِ

قال : وواحد الهدى هدية . ويقال فى جمع الهدى : أهداء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ الخطاب لجميع الامة : مُحْصَرٍ ومُخَلًّى . ومن العلماء من يراها للمحصَرين خاصة، أى لا تحلّلوا من الإحرام حتى ينحر الهدى . والمَحِل : الموضع الذى يحل فيه ذبحه . فالمَحِلّ فى حصر العدوّ عند مالك والشافعى موضع الحصر؛ اقتداء برسول الله صلّى الله عليه وسلّم زمن الحديبية؛ قال الله تعالى: ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ قيل : محبوسا إذا كان محصرا ممنوعا من الوصول الى البيت العتيق . وعند أبى حنيفة محلّ الهدى فى الإحصار الحرم؛ لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ . وأجيب عن هذا بأن المخاطب به الامن الذى يجد الوصول الى البيت . فأما المحصر فخارج من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ دليل نحر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه هديهم بالحديبية وليست من الحرم . واحتجوا من السنة بحديث ناجية آبن جُنْدُب صاحب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : ابعث معى

الهدى فأنحره بالحرم . قال : "فكيف تصنع به" قال : أخرجه فى الأودية لا يقدرون عليه، فأنطلق به حتى أنحره فى الحرم . وأجيب بأن هذا لا يصح ، وإنما ينحر حيث حل؛ اقتداء بفعله عليه السلام بالحديبية . وهو الصحيح الذى رواه الأئمة، ولأن الهدى تابع للمُهْدِى، والمُهدِى حلّ بموضعه؛ فالمُهدَى أيضا يحلّ معه .

الثانيـة — واختلف العلماء على ما قررناه فى المحصر هل له أن يَحلِق أو يَحلّ بشىء من الحِلّ قبل أن يَنحر ما استيسر من الهدى ؛ فقال مالك : السنة الثابتة التى لا اختلاف فيها عندنا أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من شعره حتى ينحر هديه، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : اذا حلّ المحصر قبل أن ينحر هديه فعليه دَمٌ، ويعود حراما كما كان حتى ينحر هديه . وإن أصاب صيدا قبل أن ينحر الهدى فعليه الجزاء . وسواء فى ذلك الموسر والمعسر لا يحلّ أبدا حتى يَنحر أو يُنحر عنه . قالوا : وأقلّ ما يهديه شاة لا عمياء ولا مقطوعة الأذنين؛ وليس هذا عندهم موضع صيام . قال أبو عمر : قول الكوفيين فيه ضعف وتناقض؛ لأنهم لا يجيزون لمحصر بعدوّ ولا مرض أن يَحلّ حتى ينحر هديه فى الحرم . واذا أجازوا للمحصر بمرض أن يبعث بهدى ويواعد حامله يوما ينحره فيه فيحل ويَحلِق، فقد أجازوا له أن يَحلّ على غير يقين من نحر الهدى وبلوغه ، وحملوه على الإحلال بالظنون . والعلماء متفقون على أنه لا يجوز لمن لزمه شىء من فرائضه أن يخرج منه بالظن؛ والدليل على أن ذلك ظنّ قولهم : لو عَطِب ذلك الهدى أو ضلّ أو سُرِق فحلّ مرسله وأصاب النساء وصاد أن يعود حراما وعليه جزاء ما صاد؛ فأباحوا له فساد الحج وألزموه ما يلزم من لم يَحلّ من إحرامه . وهذا ما لا خفاء فيه من التناقض وضعف المذاهب ، وإنما بنوا مذهبهم هذا كله على قول ابن مسعود ولم ينظروا فى خلاف غيره له . وقال الشافعىّ فى المحصر اذا أعسر بالهدى فيه قولان : لا يحل أبدا إلا بهَدْى . والقول الآخر : أنه مأمور أن يأتى بما قدر عليه؛ فان لم يقدر على شىء كان عليه أن يأتى به اذا قدر عليه . قال الشافعىّ : ومن قال هذا قال : يحل مكانه ويذبح إذا قدر؛ فإن قدر على أن يكون الذبح بمكة لم يجزه أن يذبح إلا بها؛

وان لم يقدر ذبح حيث قدر . قال ويقال : لا يجزيه إلا هدى . ويقال : اذا لم يجد هديا كان عليه الإطعام أو الصيام . وإن لم يجد واحدا من هذه الثلاثة أتى بواحد منها اذا قدر . وقال فى العبد : لا يجزيه إلا الصوم ، تقوم له الشاة دراهم ثم الدراهم طعاما ثم يصوم عن كل مُدّ يوما .

الثالثــة ــ واختلفوا اذا نحر المحصر هديه هل له أن يحلق أو لا ؛ فقالت طائفة : ليس عليه أن يحلق رأسه ؛ لأنه قد ذهب عنه النسك . واحتجوا بأنه لما سقط عنه بالإحصار جميع المناسك كالطواف والسعى ــ وذلك مما يحل به المحرم من إحرامه ــ سقط عنه سائر ما يحلّ به المحرم من أجل أنه محصر . وممن احتج بهذا وقال به أبو حنيفة ومحمد بن الحسن قالا : ليس على المحصر تقصير ولا حلاق . وقال أبو يوسف : يَحلِق المقصّر ، فان لم يحلق فلا شىء عليه . وقد حكى ابن أبى عمران عن ابن سماعة عن أبى يوسف فى نوادره أن عليه الحلاق ، والتقصير لا بد له منه . واختلف قول الشافعىّ فى هذه المسئلة على قولين : أحدهما أن الحلاق للمحصَر من النّسك ؛ وهو قول مالك . والآخر ليس من النّسك كما قال أبو حنيفة . والحجة لمالك أن الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة قد مُنِع من ذلك كله المحصر وقد صدّ عنه ؛ فسقط عنه ما قد حيل بينه و بينه . وأما الحلاق فلم يحل بينه و بينه وهو قادر على أن يفعله ، وما كان قادرا على أن يفعله فهو غير ساقط عنه . ومما يدل على أن الحلاق باق على المحصر كما هو باق على من قد وصل الى البيت سواء ، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ ، وما رواه الأئمة من دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للمحلّقين ثلاثا وللمقصّرين واحدة . وهو الحجة القاطعة والنظر الصحيح فى هذه المسئلة . والى هذا ذهب مالك وأصحابه . والحلاق عندهم نسك على الحاج الذى قد أتم حجه ، وعلى من فاته الحج والمحصر بعدوّ والمحصر بمرض .

الرابعــة ــ روى الأئمة واللفظ لمالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " اللهم ارحم المحلّقين " قالوا : والمقصّرين يا رسول الله ؛ قال : " اللهم ارحم المحلقين " قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؛ قال : " والمقصرين " . قال

علماؤنا : ففى دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة دليل على أن الحلق فى الحج والعمرة أفضل من التقصير، وهو مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ ﴾ الآية، ولم يقل تقصروا . وأجمع أهل العلم على أن التقصير يجزىء عن الرجال، إلا شيء ذكر عن الحسن أنه كان يوجب الحلق فى أوّل حجة يحجها الانسان .

الخامسة — لم تدخل النساء فى الحلق، وإن سنّتهنّ التقصير؛ لما روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " ليس على النساء حلق إنما عليهن التقصير " . خرّجه أبو داود عن ابن عباس . وأجمع أهل العلم على القول به . ورأت جماعة أن حلقها رأسها من المُثْلَة، واختلفوا فى قدر ما تقصّر من رأسها؛ فكان ابن عمر والشافعيّ وأحمد وإسحاق يقولون: تقصر من كل قرن مثل الأنملة . وقال عطاء : قدر ثلاث أصابع مقبوضة . وقال قتادة : تقصر الثلث أو الربع . وفرّقت حفصة بنت سيرين بين المرأة التى قعدت فتأخذ الربع، وفى الشابة أشارت بأنملتها تأخذ وتقلل. وقال مالك : تأخذ من جميع قرون رأسها، وما أخذت من ذلك فهو يكفيها، ولا يجزى عنده أن تأخذ من بعض القرون وتبقى بعضا . قال ابن المنذر : يجزى ما وقع عليه اسم تقصير، وأحوط أن تأخذ من جميع القرون قدر أنملة .

السادسة — لا يجوز لأحد أن يحلق رأسه حتى ينحر هديه؛ وذلك أن سنة الذبح قبل الحلاق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ . وكذلك فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، بدأ فنحر هديه ثم حلق بعد ذلك؛ فمن خالف هذا فقدّم الحلاق قبل النحر فلا يخلو أن يقدّمه خطأ وجهلا أو عمدا وقصدا؛ فإن كان الأوّل فلا شيء عليه؛ رواه ابن حبيب عن ابن القاسم، وهو المشهور من مذهب مالك . وقال ابن الماجشون : عليه الهدى، وبه قال أبو حنيفة . وإن كان الثانى فقد روى القاضى أبو الحسن أنه يجوز تقديم الحلق على النحر، وبه قال الشافعيّ . والظاهر من المذهب المنع، والصحيح الجواز؛ لحديث ابن عباس أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قيل له فى الذبح والحلق والرّمى والتقديم والتأخير فقال : " لا حَرَج " رواه مسلم . وخرّج ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو أن النبى

صلّى الله عليه وسلّم سئل عمن ذبح قبل أن يحلق، أو حلق قبل أن يذبح فقال : "لا حرج" .

السابعة ـ لا خلاف أن حلق الرأس فى الحج نُسك مندوب إليه، وفى غير الحج جائز؛ خلافا لمن قال : إنه مُثلة . ولو كان مُثلة ما جاز فى الحج ولا غيره، لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نهى عن المُثلة، وقد حلق رءوس بنى جعفر بعد أن أتاه قتله بثلاثة أيام، ولو لم يجز الحلق ما حلقهم . وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يحلق رأسه . قال ابن عبد البر : وقد أجمع العلماء على حبس الشعر وعلى إباحة الحلق، وكفى بهذا حجة وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ﴾ استدل بعض علماء الشافعية بهذه الآية على أن المحصر فى أول الآية العدو لا المرض، وهذا لا يلزم؛ فان معنى قوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فحلق ففدية، أى فعليه فدية، وإذا كان هذا واردا فى المرض بلا خلاف، كان الظاهر أن أول الآية ورد فيمن ورد فيه وسطها وآخرها، لاتّساق الكلام بعضه على بعض، وانتظام بعضه ببعض . ورجوع الإضمار فى آخر الآية الى من خوطب فى أولها ؛ فيجب حمل ذلك على ظاهره حتى يدل الدليل على العدول عنه . ومما يدل على ما قلناه سبب نزول هذه الآية، روى الأئمة واللفظ للدارقطنى « عن كعب بن عُجْرَة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقمله يتساقط على وجهه فقال : " أيؤذيك هوامّك " قال : نعم . فأمره أن يحلق وهو بالحديبية، ولم يُبيِّن لهم أنهم يحلون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة ؛ فأنزل الله الفدية، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطعم فَرَقًا(١) بين ستة مساكين، أو يهدى شاة، أو يصوم ثلاثة أيام » . خرّجه البخارى بهذا اللفظ أيضا . فقوله : ولم يُبيِّن لهم أنهم

(١) الفرق (بالتحريك) : مكيال يسع ستة عشر رطلا، وهى اثنا عشر مدّا، أو ثلاثة آصع عند أهل الحجاز . وقيل : خمسة أقساط، والقسط : نصف صاع . والفرق (بالسكون) : مائة وعشرون رطلا . عن نهاية ابن الأثير .

يحلون بها، يدل على أنهم ما كانوا على يقين من حصر العـدو لهم؛ فإذًا الموجب للفدية الحلق للأذى والمرض، والله أعلم .

الثانيـــة ـــ قال الأوزاعيّ في المحرم يصيبه أذًى في رأسه : إنه يجزيه أن يكفر بالفدية قبل الحلق .

قلت : فعلى هذا يكون المعنى : فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسـه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك إن أراد أن يحلق . ومن قدر لحلق ففدية؛ فلا يفتدى حتى يحلق . والله أعلم .

الثالثـــة ـــ قال ابن عبد البر : كل مَن ذَكر النسك في هذا الحديث مفسرا فإنما ذكره بشاة، وهو أمر لا خلاف فيه بين العلماء . وأما الصوم والإطعام فاختلفوا فيه؛ فجمهور فقهاء المسلمين على أن الصوم ثلاثة أيام، وهو محفوظ صحيح في حديث كعب بن عُجْرة . وجاء عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا : الصوم في فدية الأذى عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين . ولم يقل أحد بهـذا من فقهاء الأمصار ولا أئمة الحديث . وقد جاء من رواية أبي الزبير عن مجاهد عن عبد الرحمن عن كعب بن عُجْرة أنه حدّثه أنه كان أهـلّ في ذي القعدة، وأنه قَمِل رأسُه فأتى عليـه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو يوقد تحت قِدْر له؛ فقال له : "كأنك يؤذيك هوامّ رأسك" . فقال : أجل . قال : "أحلِق وآهدِ هديا" . فقال : ما أجد هديا . قال : "فأطعم ستة مساكين" . فقال : ما أجد . فقال : " صم ثلاثة أيام " . قال أبو عمر : كان ظاهر هذا الحديث على الترتيب وليس كذلك، ولو صح هذا كان معناه الاختيار أوّلا فأوّلا؛ وعامة الآثار عن كعب بن عُجْرة وردت بلفظ التخيير ، وهو نص القرآن، وعليه مضى عمل العلماء في كل الأمصار وفتواهم، وبالله التوفيق .

الرابعـــة ـــ اختلف العلماء في الإطعام في فدية الأذى؛ فقال مالك والشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابهم : الإطعام في ذلك مُدّان مُدّان بمـدّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . وهو قول أبي ثور وداود . وروى عن الثـوريّ أنه قال في الفدية : من البُرّ نصف صاع، ومن التمر والشـعير

والزبيب صاع . وروى عن أبى حنيفة أيضا مثله ، جعل نصف صاع بُرٍّ عِدْل صاع تمر . قال ابن المنذر : وهذا غلط ؛ لأن فى بعض أخبار كعب أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال له : " أن تصدّق بثلاثة أصْوُع من تمر على ستة مساكين " . وقال أحمد بن حنبل مرّةً كما قال مالك والشافعى . ومرّة قال : إن أطعم بُرًّا فمدّ لكل مسكين ، وإن أطعم تمرا فنصف صاع .

الخامسة ــ ولا يجزى أن يغدّى المساكين ويعشيهم فى كفارة الأذى حتى يعطى كل مسكين مدّين مدّين بمدّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . وبذلك قال مالك والثورىّ والشافعىّ ومحمد بن الحسن . وقال ابو يوسف : يجزيه أن يغدّيهم ويعشيهم .

السادسة ــ أجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من حلق شعره وجزّه وإتلافه بحلق أو نُورَة[١] أو غير ذلك ، إلا فى حالة العلّة كما نصّ على ذلك القرآن . وأجمعوا على وجوب الفدية على من حلق وهو محرم بغير علة ، واختلفوا فيما على من فعل ذلك ، أو لبس او تطيّب بغير عذر عامدا ؛ فقال مالك : بئس ما فعل ! وعليه الفدية ، وهو مخيّر فيها . وسواء عنده العمد فى ذلك والخطأ ، لضرورة وغير ضرورة . وقال أبو حنيفة والشافعىّ وأصحابهما وأبو ثور : ليس بمخيّر إلا فى الضرورة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ فإذا حلق رأسه عامدا أو لبس عامدا لغير عذر فليس بمخير وعليه دم لا غير .

السابعة ــ واختلفوا فيمن فعل ذلك ناسيا ؛ فقال مالك رحمه الله : العامد والناسى فى ذلك سواء فى وجوب الفدية . وهو قول أبى حنيفة والثورىّ والليث . وللشافعىّ فى هذه المسئلة قولان : أحدهما ــ لا فدية عليه . وهو قول داود وإسحاق . والثانى ــ عليه الفدية . وأكثر العلماء يوجبون الفدية على المحرم بلبس المَخِيط وتغطية الرأس أو بعضه ، ولبس الخفّين وتقليم الأظافر ومس الطيب وإماطة الأذى ، وكذلك اذا حلق شعر جسده أو اطّلى ، أو حلق مواضع المحاجم . والمرأة كالرجل فى ذلك ، وعليها الفدية فى الكحل وان لم يكن فيه طيب . وللرجل أن يكتحل بما لا طيب فيه . وعلى المرأة الفدية إذا غطّت وجهها أو لبست القفّازين ؛

(١) النورة (بضم النون) : حجر الكلس ثم غلبت على أخلاط تضاف إليه من زرنيخ وغيره ؛ يستعمل لازالة الشعر.

والعمد والسهو والجهل فى ذلك سواء ؛ وبعضهم يجعل عليهما دمًا فى كل شيء من ذلك . وقال داود : لا شيء عليهما فى حلق شعر الجسد .

الثامنة — واختلف العلماء فى موضع الفدية المذكورة ؛ فقال عطاء : ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام أو صيام فحيث شاء؛ وبنحو ذلك قال أصحاب الرأى . وعن الحسن أن الدم بمكة . وقال طاوس والشافعيّ : الإطعام والدم لا يكونان إلا بمكة، والصوم حيث شاء؛ لأن الصيام لا منفعة فيه لأهل الحرم؛ وقد قال الله سبحانه : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ رفقا لمساكين جيران بيته . فالإطعام فيه منفعة بخلاف الصيام، والله أعلم . وقال مالك : يفعل ذلك أين شاء؛ وهو الصحيح من القول، وهو قول مجاهد . والذبح هنا عند مالك نسك وليس بهدى لنص القرآن والسنة؛ والنسك يكون حيث شاء، والهدى لا يكون إلا بمكة . ومن حجته أيضا ما رواه عن يحيى بن سعيد فى موطئه ، وفيه : فأمر عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه برأسه — يعنى رأس حسين — فحلق ثم نسك عنه بالسُّقيا[1] فنحر عنه بعيرا . قال مالك قال يحيى بن سعيد: وكان حسين خرج مع عثمان فى سفر الى مكة . ففى هذا أوضح دليل على أن فدية الأذى جائز أن تكون بغير مكة ، وجائز عند مالك فى الهدى اذا نحر فى الحرم أن يعطاه غير أهل الحرم؛ لأن البغية فيه إطعام مساكين المسلمين . قال مالك : ولما جاز الصوم أن يؤتى به بغير الحرم جاز إطعام غير أهل الحرم . ثم أن قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ﴾ الآية، أوضح الدلالة على ما قلناه؛ فانه تعالى لما قال : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ لم يقل فى موضع دون موضع، فالظاهر أنه حيث ما فعل أجزأه . وقال : « أو نسك » فسمى ما يذبح نسكا، وقد سماه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كذلك ولم يسمه هديا؛ فلا يلزمنا أن نرده قياسا على الهدى ، ولا أن نعتبره بالهدى مع ما جاء فى ذلك عن عليّ . وأيضا فإن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما أمر كعبًا بالفدية ما كان فى الحرم؛ فصح أن ذلك كله يكون خارج الحرم . وقد روى عن الشافعيّ مثل هذا فى وجه بعيد .

---

(١) السقيا : منزل بين مكة والمدينة ؛ قيل : هى على يومين من المدينة .

التاسعة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ النسك : جمع نسيكة ، وهى الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى . ويجمع أيضا على نسائك . والنسك : العبادة فى الأصل . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أى مُتعبَّداتنا . وقيل : إن أصل النسك فى اللغة الغسل ومنه نَسَك ثوبَه اذا غسله . فكأن العابد غسل نفسه من أدران الذنوب بالعبادة . وقيل : النُّسُك : سبائك الفضة ، كل سبيكة منها نسيكة . فكأن العابد خلص نفسه من دنس الآثام وسبكها .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ ﴾ قيل : معناه بَرَأتم من المرض . وقيل : من خوفكم من العدو المحصر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وهو أشبه باللفظ إلا أن يتخيل الخوف من المرض فيكون الأمن منه ، كما تقدم . والله أعلم .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ الاية . اختلف العلماء مَن المخاطب بهذا ؟ فقال عبدالله بن الزبير وعلقمة وابراهيم : الآية فى المحصرين دون المُخلَّى سبيلهم . وصورة المتمتع عند ابن الزبير : أن يُحصَر الرجل حتى يفوته الج ، ثم يصل الى البيت فيحل بعمرة ، ثم يقضى الج من قابل ؛ فهذا قد تمتع بما بين العمرة الى حج القضاء . وصورة المتمتّع المحصَر عند غيره : أن يُحصَر فيَحلّ دون عمرة و يؤخرها حتى يأتى من قابل فيعتمر فى أشهر الج ويحج من عامه . وقال ابن عباس وجماعة : الاية فى المُحصَرين وغيرهم ممن خُلِّى سبيله .

الثالثة ــ لا خلاف بين العلماء فى أن التمتع جائز على ما يأتى تفصيله ، وأن الإفراد جائز ، وأن القِرَان جائز ؛ لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رَضىَ كُلًّا ولم ينكره فى حجته على أحد من أصحابه ، بل أجازه لهم ورضيه منهم صلّى الله عليه وسلّم . و إنما اختلف العلماء فيما كان به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُحرِمًا فى حجته وفى الأفضل من ذلك ، لاختلاف الاثار الواردة فى ذلك ؛ فقال قائلون منهم مالك : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُفرِدًا ، والإفراد أفضل من القران . قال : والقران أفضل من التمتع . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : خرجنا

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " من أراد منكم أن يُهِلّ بحج وعمرة فليفعلْ ومن أراد أن يُهِلّ بحج فلْيُهلّ ومن أراد أن يُهلّ بعمرة فليهلّ " . قالت عائشة : فأهلّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحج، وأهلّ به ناس معه، وأهلّ ناس بالعمرة والحج، وأهلّ ناس بعمرة، وكنت فيمن أهلّ بالعمرة . رواه جماعة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة . وقال بعضهم فيه : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " وأما أنا فأهلّ بالحج " . وهذا نص فى موضع الخلاف، وهو حجة من قال بالإفراد وفضله . وحكى محمد بن الحسن عن مالك أنه قال : إذا جاء عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حديثان مختلفان وبلغنا أن أبا بكر وعمر عملا بأحد الحديثين وتركا الآخر كان فى ذلك دلالة على أن الحق فيما عملا به . واستحب أبو ثور الإفراد أيضا وفضّله على التمتع والقِران . وهو أحد قولى الشافعيّ فى المشهور عنه . واستحب آخرون التمتع بالعمرة الى الحج، قالوا : وذلك أفضل . وهو مذهب عبد الله بن عمر وعبدالله بن الزبير، وبه قال أحمد بن حنبل ، وهو أحد قولى الشافعيّ . قال الدّار قطنيّ قال الشافعيّ : اخترت الإفراد ، والتمتع حسن لا نكرهه . احتج من فضّل التمتع بما رواه مسلم عن عمران بن حُصَين قال : نزلت آية المتعة فى كتاب الله — يعنى متعة الحج — وأمرنا بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم لم تنزِل آيةٌ تنسَخ [آيةَ](1) متعة الحج، ولم ينه عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى مات؛ قال رجل برأيه بعدُ ما شاء . وروى الترمذى حدّثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه سمع سعد بن أبى وقّاص والضحاك ابن قيس عام حجّ معاوية بن أبى سفيان وهما يذكران التمتع بالعمرة الى الحج؛ فقال الضحاك بن قيس : لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله تعالى . فقال سعد : بئس ما قلت يا بن أخى ! فقال الضحاك : فإن عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك . فقال سعد : قد صنعها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصنعناها معه . هذا حديث صحيح . وروى ابن إسحاق عن الزهرىّ عن سالم قال : إنى لجالس مع ابن عمر فى المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع

---

(1) زيادة عن صحيح مسلم .

بالعمرة الى الحج ؛ فقال ابن عمر : حسن جميل . قال : فإن أباك كان ينهى عنها . فقال : ويلك ! فان كان أبى نهى عنها وقد فعله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأمر به، أفبقول أبى آخذ، أم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ؟ قم عنى . أخرجه الدارقطنى ، وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سالم . وروى عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعمر وعثمان، وأوّل من نهى عنها معاوية . حديث حسن . قال أبو عمر : حديث ليث هذا حديث منكر، وهو ليث بن أبى سليم ضعيف . والمشهور عن عمر وعثمان أنهما كان ينهيان عن التمتع، وان كان جماعة من أهل العلم قد زعموا أن المتعة التى نهى عنها عمر وضرب عليها فسخ الحج فى العمرة . فأما التمتع بالعمرة الى الحج فلا . وزعم من صحّح نهى عمر عن التمتع أنه إنما نهى عنه لِيُنْتَجَع البيت مرتين أو أكثر فى العام حتى تكثر عمارته بكثرة الزوار له فى غير الموسم ، وأراد إدخال الرفق على أهل الحرم بدخول الناس تحقيقا لدعوة ابراهيم : « وَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ » . وقال آخرون : إنمـا نهى عنها لأنه رأى النـاس مالوا إلى التمتع ليسارته وخفته؛ فخشى أن يضيع الإفراد والقِران وهما سنتان للنبىّ صلّى الله عليه وسـلّم . واحتج أحمـد فى اختياره التمتع بقوله صلّى الله عليه وسلّم : "لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ ما سقتُ الهدى ولجعلتها عمرة" . أخرجه الأئمة . وقال آخرون : القِران أفضـل، منهـم أبو حنيفة والثورى . وبه قال المزنى قال : لأنه يكون مؤدّيا للفرضين جميعا؛ وهو قول إسحـاق . قال إسحاق : كان رسـول الله صلّى الله عليه وسلم قارنا؛ وهو قول علىّ بن أبى طالب . واحتج من استحب القران وفضله بما رواه البخارىّ عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم بوادى العقيق(1) يقول : " أتانى الليلة آت من ربّى فقال صلّ فى هـذا الوادى المبارك وقل عمرة فى حجة " . وروى الترمذىّ عن أنس قال سمعت رسـول الله صلّى الله عليه وسـلّم يقول : "لبّيك بعمرة وحجة" . وقال : حديث حسن صحيح . قال أبو عمر : والإفراد ان شاء الله أفضل؛ لأن رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم كان مُفْرِدا، فلذلك قلنا إنه أفضل ؛ لأن الآثار أصح عنه

(1) العقيق : موضع بينه وبين المدينة أربعة أميال .

فى إفراده صلّى الله عليه وسلّم، ولأن الإفراد أكثر عملا، ثم العمرة عمل آخر. وذلك كله طاعة والأكثر منها أفضل . وقال أبو جعفر النحاس : المفرد أكثر تعبا من المتمتع، لإقامته على الإحرام وذلك أعظم لثوابه . والوجه فى اتفاق الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمرنا بالتمتع والقران جاز أن يقال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرن ، كما قال جلّ وعزّ : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ . وقال عمر بن الخطاب : رجمنا ورجم رسول الله صلّى الله عليه وسلم . وانما أمر بالرجم .

قلت : الأظهر فى حجته عليه السلام القران، وأنه كان قارنا، لحديث عمر وأنس المذكورين. وفى صحيح مسلم عن بكر عن أنس قال: "سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُلَبِّي بالحج والعمرة معا[1]. قال بكر: فحدّثت بذلك ابن عمر فقال: لبّى بالحج وحده؛ فلقيت أنسا فحدّثته بقول ابن عمر، فقال أنس : ما تَعُدُّونَنا إلا صبيانا! سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " لبيك عمرة وحجا " . وفى صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس قال : أهلّ النبى صلّى الله عليه وسلّم بعمرة وأهلّ أصحابه بحج؛ فلم يحلّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ولا من ساق الهدى من أصحابه، وحلّ بقيّتهم . قال بعض أهل العلم : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قارنا، واذا كان قارنا فقد حجّ واعتمر، واتفقت الأحاديث . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلّ بعمرة؛ فقال من رآه : تمتع ثم أهل بحجة . فقال من رآه : أفرد ثم قال: "لبيك بحجة وعمرة". فقال من سمعه: قَرَن . فاتفقت الأحاديث . والدليل على هذا أنه لم يرو أحد عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : أفردت الحج ولا تمتعت. وصح عنه أنه قال: "قرنت" كما رواه النسائى عن علىّ أنه قال : أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال لى : "كيف صنعت" قلت : أهللت بإهلالك . قال : " فإنى سقت الهدى وقرنت " . قال . وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لفعلت كما فعلتم ولكنى سقت الهدى وقرنت" . وثبت عن حفصة قالت قلت : يا رسول الله، ما بالُ الناس

---

(١) عبارة مسلم : « جميعا » .

قد حلّوا من عمرتهم ولم تَحِلّ أنت ؟ قال : " إنى لبّدت رأسى وسقت هديى فلا أحلّ حتى أنحر " . وهـذا يبيّن أنه كان قارنا لأنه لو كان متمتعا أو مفردا لم يمتنع من نحر الهدى .

قلت : ما ذكره النحاس أنه لم يرو أحد أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : أفردت الحج فقد تقدّم من رواية عائشة أنه قال : "وأما أنا فأهل بالحج" . وهذا معناه : فأنا أفرد الحج . إلا أنه يحتمل أن يكون قد أحرم بالعمرة، ثم قال: فأنا أهل بالحج . ومما يبين هذا ما رواه مسلم عن ابن عمر، وفيه : وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج . فلم يبق فى قوله : " فأنا أهل بالحج" دليل على الافراد . وبقى قوله عليه السلام : " فإنى قرنت " . وقول أنس خادمه أنه سمعه يقول : "لبيك بحجة وعمرة معا" نصّ صريح فى القران لا يحتمل التأويل . وروى الدارقطنيّ عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيـه قال : إنما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحج والعمرة، لأنه علم أنه ليس بحاج بعدها .

الرابعـــة ـــ وإذا مضى القول فى الإفراد والتمتّع والقِران وأن كل ذلك جائز بإجماع ، فالتمتع بالعمرة الى الحج عند العلماء على أربعة أوجه، منها وجه واحد مجتمع عليه، والثلاثة مختلف فيهـا . فأما الوجه المجتمع عليه فهو التمتّع المراد بقول الله جلّ وعزّ : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ وذلك أن يحرم الرجل بعمرة فى أشهر الحج ـــ على ما يأتى بيانها ـــ وأن يكون من أهل الآفاق ، وقدم مكة ففرغ منها ثم أقام حَلالًا[1] بمكة الى أن أنشأ الحج منهـا فى عامه ذلك قبـل رجوعه الى بلده أو قبل خروجه الى ميقات أهل ناحيته ؛ فاذا فعل ذلك كان متمتعا وعليـه ما أوجب الله على المتمتع ، وذلك ما استيسر من الهدى، يذبحه ويعطيـه للمساكين بمنًى أو بمكة، فان لم يجد صام ثلاثة أيام، وسبعة اذا رجع الى بلده ـــ على ما يأتى ـــ وليس له صـيام يوم النحر بإجماع المسلمين . واختلف فى صيام أيام التشريق على ما يأتى . فهـذا إجماع أهل العلم قديما وحديثا فى المتعة ، ورابطها ثمانية شروط : الأوّل ـــ أن يجمع بين الحج والعمرة . الثـانى ـــ فى سفر واحد . الثالث ـــ فى عام واحد . الرابع ـــ فى أشهر

(١) الحلال : الخارج من الإحرام .

الحج . الخامس — تقديم العمرة . السادس — ألّا يمزجها، بل يكون إحرام الحج بعد الفراغ من العمرة . السابع — أن تكون العمرة والحج عن شخص واحد . الثامن — أن يكون من غير أهل مكة . وتأمّل هذه الشروط فيما وصفنا من حكم التمتع تجدها .

والوجه الثانى من وجوه التمتع بالعمرة الى الحج: القِران، وهو أن يجمع بينهما فى إحرام واحد فيهلّ بهما جميعا فى أشهر الحج أو غيرها؛ يقول لَبَّيك بحجة وعمرة معا . فاذا قدم مكة طاف بحجته وعمرته طوافاً واحدا وسعى سعياً واحدا عند من رأى ذلك، وهم مالك والشافعيّ وأصحابهما وإسحاق وأبو ثور، وهو مذهب عبدالله بن عمر وجابر بن عبد الله وعطاء بن أبى رباح والحسن ومجاهد وطاوس؛ لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فأهللنا بعمرة، الحديث . وفيه : وأما الذين جمعوا بين الحج والعمرة فإنما طافوا طوافا واحدا . أخرجه البخارى . وقال صلّى الله عليه وسلّم لعائشة يوم النفر(1) ولم تكن طافت بالبيت وحاضت : " يَسعُك طوافك لحَجِّك وعمرتك " فى رواية : " يُجزئ عنك طوافُك بالصّفا والمروة عن حَجِّك وعمرتك " . أخرجه مسلم — أو طاف طوافين وسعى سعيين عند من رأى ذلك، وهو أبو حنيفة وأصحابه والثوريّ والأوزاعىّ والحسن بن صالح وابن أبى ليلى . وروى عن علىّ وابن مسعود، وبه قال الشعبيّ وجابر بن زيد . واحتجوا بأحاديث عن علىّ عليه السلام أنه جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين وسعى لهما سعيين، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعل . أخرجها الدّارقطنى فى سننه وضعّفها كلها . وإنما جعل القِران من باب التمتع، لأن القارن يتمتع بترك النَّصَب فى السفر الى العمرة مرة والى الحج أخرى، ويتمتع بجمعهما، ولم يحرم لكل واحدة من ميقاته، وضم الحج الى العمرة؛ فدخل تحت قول الله عزّ وجلّ : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ . وهذا وجه من التمتع لا خلاف بين العلماء فى جوازه . وأهل المدينة لا يجيزون الجمع بين العمرة والحج إلا بسياق الهدى، وهو عندهم بَدَنة لا يجوز دونها . ومما يدل على أن القران تمتع قول ابن عمر : إنما جعل

(1) يوم النفر (بفتح النون وتسكين الفاء، وفتحها) : اليوم الذى ينفر (ينزل) الناس فيه من منى .

القران لأهل الآفاق ، وتلا قول الله جلّ وعزّ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فمن كان من حاضرى المسجد الحرام وتمتع أو قَرَن لم يكن عليـه دم قِران ولا تمتع . قال مالك : وماسمعت أن مَكِّيًّا قرن،فإن فعل لم يكن عليه هدى ولا صيام . وعلى قول مالك جمهور الفقهاء فى ذلك . وقال عبد الملك بن المـاجشون : إذا قرن المكىّ الحجّ مع العمرة كان عليه دم القران من أجل أن الله إنمـا أسقط عن أهل مكة الدّم والصيام فى التمتع .

الوجه الثالث من التمتع هو الذى توعد عليه عمربن الخطاب وقال : متعتان كانتا على عهد رسـول الله صلّى الله عليـه وسلم إنمـا أنهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة النساء ومتعة الحج . وقد تنازع العلماء فى جواز هذا بعد هلُمّ جرّا[1] ، وذلك أن يحرم الرجل بالحج حتى اذا دخل مكة فسخ حجـه فى عمرة ، ثم حل وأقام حلالًا حتى يهلّ بالحج يوم التّروية[2] . فهذا هو الوجه الذى تواردت به الآثار عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيه أنه أمر الصحابة فى حجته مَنْ لم يكن معه هدى ولم يسقه وقـد كان أحرم بالحج أن يجعلها عمرة . وقـد أجمع العلماء على تصحيح الآثار بذلك عنه صلّى الله عليه وسلّم ولم يدفعوا شيئا منها، إلا أنهم اختلفوا فى القول بها والعمل لعلل؛ فجمهورهم على ترك العمل بها، لأنها عندهم خصوص خصّ بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابَه فى حجته تلك . قال أبو ذَرّ : كانت المتعة لنا فى الحج خاصة . أخرجه مسلم . وفى رواية عنه قال : « لاتصلح المتعتان إلا لنـا خاصة ، يعنى متعة النسـاء ومتعة الحج » . والعلة فى الخصوصية ووجه الفائدة فيهـا ماقاله ابن عباس رضى الله عنه قال : « كانوا[3] يَرون أن العمرة

---

(١) كذا فى الأصل . وفى المنتق للباجى بحث طويل فى هذه المسألة ، فارجع اليه . (٢) يوم التّروية : يوم قبل يوم عرفة ، وهو الثامن من ذى الحجة ؛ سمى به لأن الحجاج يرتوون فيه من المـاء ، و ينهضون الى منى ولا ماء بها .

(٣) الضمير فى كانوا يعود الى الجاهلية . وقوله : ويجعلون المحرّم صفرا . المراد الإخبار عن النسيء الذى كانوا يفعلونه ؛ كانوا يسمون المحرم صفرا و يحلونه ، وينسئون المحرم ، أى يؤخرون تحريمه الى ما بعد صفر لئلا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر محرمة تضيق عليهم أمورهم من الغارة وغيرها . والدبر: الجرح الذى يحصل فى ظهر الإبل من اصطكاك الأقتاب ؛ فانها كانت تدبر بالسير عليها للحج . وعفا الأثر: أى درس وامحى ، والمراد أثر الإبل وغيرها فى سيرها ، عفا أثرها لطول مرور الأيام . وقال الخطابى : المراد أثر الدبر . وهذه الألفاظ تقرأ كلها ساكنة الآخر و يوقف عليها ؛ لأن مرادهم السجع . عن شرح النووى لصحيح مسلم .

فى أشهر الحج من أفجر الفجور فى الأرض ويجعلون المحرم صَفَرًا ويقولون : إذا بَرَأ الدَّبَرْ، وعفا الأثَرْ، وانسلخ صفَرْ، حلّت العمرة لمن اعتمر. فقدم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابُه صبيحةَ رابعة(١) مهلّين بالحج، فأمرهم أن يجعلوها عُمرةً؛ فتعاظم ذلك عندهم فقالوا: يارسول الله، أىُّ الحِلّ(٢)؟ قال: "الحِلُّ كلُّه". أخرجه مسلم. وفى المسند الصحيح لأبى حاتم عن ابن عباس قال: والله ما أعمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عائشة فى ذى الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك؛ فان هذا الحىّ من قريش ومن دان دينهم كانوا يقولون: إذا عفا الوبَرْ وبرأ الدّبرْ وانسلخ صفر، حلّت العمرة لمن اعتمر. فقد كانوا يحرّمون العمرة حتى ينسلخ ذو الحجة؛ فما أعمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم عائشة الا لينقض ذلك من قولهم. ففى هـذا دليل على أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم إنما فسخ الحج فى العمرة ليريهم أن العمرة فى أشهر الحج لا بأس بها. وكان ذلك له ولمن معه خاصة؛ لأن الله عزّ وجلّ قد أمر بإتمام الحج والعمرة كل من دخل فيها أمرا مطلقا، ولا يجب أن يخالف ظاهر كتاب الله إلا إلى مالا إشكال فيه من كتاب ناسخ أو سنة مبيّنة. واحتجوا بما ذكرناه عن أبى ذرّ وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال قلنا: يا رسول الله، فسخ الحج لنا خاصة أم للناس عامة؟ قال: "بل لنا خاصة". وعلى هذا جماعة فقهاء الحجاز والعراق والشام، إلا شىء يروى عن ابن عباس والحسن والسدّى، وبه قال أحمد بن حنبل. قال أحمد: لا أردّ تلك الآثار الواردة المتواترة الصحاح فى فسخ الحج فى العمرة بحديث الحارث بن بلال عن أبيه وبقول أبى ذرّ. قال: ولم يجمعوا على ما قال أبو ذر، ولو أجمعوا كان حجة؛ قال: وقد خالف ابن عباس أبا ذرّ ولم يجعله خصوصا. واحتج أحمد بالحديث الصحيح: حديث جابر الطويل فى الحج، وفيه: أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "لو أنى استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ لم أسُق الهدْىَ وجعلتها عمرة" فقام سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم فقال: يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبّك رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أصابعه واحدةً فى الأخرى و[illegible]: "دَخلتِ العمرةُ فى الحج مرّتين(٣) لا بل لأبدِ أبدٍ". لفظ مسلم. و إلى هذا والله أعلم مال البخارىّ

(١) أى صبح رابعة من ذى الحجة.

(٢) قوله: أى الحل. أى هل هو الحل العام لكل ما حرم بالإحرام حتى بالجماع، أو حل خاص.

(٣) قوله: مرتين. أى قاله مرتين.

حيث ترجم « باب من لبّى بالحج وسمّاه » وساق حديث جابر بن عبد الله : قدمنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونحن نقول : لبيك بالحج، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلناها عمرة. وقال قوم : إن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالإحلال كان على وجه آخر. وذكر مجاهد ذلك الوجه، وهو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا فرضوا الحج أولا، بل أمرهم أن يُهلّوا مطلقا وينتظروا ما يؤمرون به، وكذلك أهلّ علىّ باليمن. وكذلك كان إحرام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ويدل عليه قوله عليه السلام : " لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى وجعلتها عمرة " فكأنه خرج ينتظر ما يؤمر به ويأمر أصحابه بذلك، ويدل على ذلك قوله عليه السلام : " أتانى آت من ربى فى هذا الوادى المبارك وقال قل حجة فى عمرة " .

والوجه الرابع من المتعة — متعة المحصَر ومن صُدّ عن البيت؛ ذكر يعقوب بن شيبة قال حدّثنا أبو سلمة التَّبُوذَكى حدّثنا وهيب حدّثنا إسحاق بن سويد قال سمعت عبد الله بن الزبير وهو يخطب يقول : أيها الناس، إنه والله ليس التمتع بالعمرة الى الحج كما تصنعون، ولكن التمتع أن يخرج الرجل حاجا فيحبسه عدوّ أو أمر يعذر به حتى تذهب أيام الحج، فيأتى البيت فيطوف ويسعى بين الصفا والمروة، ثم يتمتع بحله الى العام المستقبل ثم يحج ويهدى .

وقد مضى القول فى حكم المحصر وما للعلماء فى ذلك مبينا والحمد لله .

فكان من مذهبه أن المحصر لا يحل ولكنه يبقى على إحرامه حتى يذبح عنه الهدى يوم النحر، ثم يحلق ويبقى على إحرامه حتى يقدم مكة فيتحلل من حجه بعمل عمرة. والذى ذكره ابن الزبير خلاف عموم قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ولم يفصل فى حكم الإحصار بين الحج والعمرة، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه حين أحصروا بالحديبية حلّوا وحلّ، وأمرهم بالإحلال .

واختلف العلماء أيضا لمَ سُمّى المتمتع متمتعا؛ فقال ابن القاسم : لأنه تمتع بكل ما لا يجوز للمحرم فعله من وقت حله فى العمرة الى وقت إنشائه الحج . وقال غيره :

سمى متمتعا لأنه تمتع بإسقاط أحد السفرين ، وذلك أن حق العمرة أن تقصد بسفرة، وحق الحج كذلك ؛ فلما تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هديا ؛ كالقارن الذى يجمع بين الحج والعمرة فى سفر واحد، والوجه الأول أعم؛ فانه يتمتع بكل ما يجوز للحلال أن يفعله ، وسقط عنه السفر لحجه من بلده، وسقط عنه الإحرام من ميقاته فى الحج . وهذا هو الوجه الذى كرهه عمر وابن مسعود، وقالا أو قال أحدهما : يأتى أحدكم منًى وذكره يقطر منيًّا . وقد أجمع المسلمون على جواز هذا . وقد قال جماعة من العلماء : إنما كرهه عمر لأنه أحب أن يزار البيت فى العام مرّتين : مرّة فى الحج، ومرّة فى العمرة . ورأى الإفراد أفضل؛ فكان يأمر به و يميل اليه و ينهى عن غيره استحبابا ؛ ولذلك قال : افصلوا بين حجكم وعمرتكم، فانه أتم لحج أحدكم [وأتم] (١) لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج .

الخامسة — اختلف العلماء فى من اعتمر فى أشهر الحج ثم رجع الى بلده ومنزله ثم حج من عامه ؛ فقال الجمهور من العلماء : ليس بمتمتع ولا هدى عليه ولا صيام . وقال الحسن البصرى : هو متمتع وإن رجع الى أهله ، حج أو لم يحج . قال لأنه كان يقال : عمرة فى أشهر الحج متعة . رواه هشيم عن يونس عن الحسن . وقد روى عن يونس عن الحسن ليس عليه هدى . والصحيح القول الأول ، هكذا ذكر أبو عمر حج أو لم يحج ولم يذكره ابن المنذر . قال ابن المنذر : وحجته ظاهر الكتاب قوله عزّ وجلّ : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ . ولم يستثن راجعا الى أهله وغير راجع ، ولو كان لله جلّ ثناؤه فى ذلك مراد لبينه فى كتابه أو على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم . وقد روى عن سعيد بن المسيّب مثل قول الحسن . قال أبو عمر : وقد روى عن الحسن أيضا فى هذا الباب قول لم يُتابع عليه أيضا، ولا ذهب اليه أحد من أهل العلم . وذلك أنه قال : من اعتمر بعد يوم النحر فهى متعة . وقد روى عن طاوس قولان هما أشد شذوذا مما ذكرنا عن الحسن، أحدهما : أن من اعتمر فى غير أشهر الحج، ثم أقام حتى دخل وقت الحج، ثم حج من عامه أنه متمتع . هذا لم يقل به أحد من العلماء غيره، ولا ذهب اليه أحد من فقهاء الأمصار، وذلك — والله أعلم —

(١) الزيادة عن الموطأ .

ان شهور الحج أحق بالحج من العمرة ؛ لأن العمرة جائزة فى السنة كلها ، والحج إنما موضعه شهور معلومة؛ فاذا جعل أحدٌ العمرة فى أشهر الحج فقد جعلها فى موضع كان الحج أولى به، إلا أن الله تعالى قد رخص فى كتابه وعلى لسان رسوله فى عمل العمرة فى أشهر الحج للتمتع وللقارن ولمن شاء أن يفردها، رحمة منه، وجعل منها ما استيسر من الهدى. والوجه الاخر قاله فى المكيّ اذا تمتع من مصر من الأمصار فعليه الهدى، وهذا لم يُعَرَّج عليه؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . والتمتع الجائز عند جماعة العلماء ما أوضحناه بالشرائط التى ذكرناها و بالله توفيقنا .

السادسـة ـ أجمع العلماء على أن رجلا من غير أهل مكة لو قدم مكة معتمرا فى أشهر الحج عازما على الإقامة بها ثم أنشأ الحج من عامه فحج أنه متمتع، عليه ما على المتمتع . وأجمعوا فى المكى يجىء من وراء الميقات مُحرِمًا بعمرة، ثم ينشىء الحج من مكة وأهله بمكة ولم يسكن سواها أنه لا دم عليه. وكذلك اذا سكن غيرها وسكنها وكان له فيها أهل وفى غيرها . وأجمعوا على أنه إن انتقل من مكة بأهله ثم قدمها فى أشهر الحج معتمرا فأقام بها حتى حج من عامه أنه متمتع .

السابعـة ـ واتفق مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم والثورىّ وأبو ثور على أن المتمتع يطوف لعمرته بالبيت ويسعى بين الصّفا والمروة ، وعليه بعدُ أيضا طواف آخر لحجه وسعى بين الصفا والمروة . وروى عن عطاء وطاوس أنه يكفيه سعىٌ واحد بين الصّفا والمروة . والأوّل المشهور، وهو الذى عليه الجمهور ، وأما طواف القارن فقد تقدّم .

الثامنـة ـ واختلفوا فيمن أنشأ عُمرة فى غير أشهر الحج ثم عمل لها فى أشهر الحج؛ فقال مالك : عمرته فى الشهر الذى حلّ فيه . يريد إن كان حلّ منها فى غير أشهر الحج فليس بمتمتع، وان كان حلّ منها فى أشهر الحج فهو متمتع إن حج من عامه . وقال الشافعى : اذا طاف بالبيت فى الأشهر الحُرُم بالعمرة فهو متمتع إن حج من عامه. وذلك أن العمرة إنما تكمل بالطواف بالبيت، وانما ينظر الى كمالها . وهو قول الحسن البصرى والحكم بن عيينة وابن شُبْرُمَة وسفيان الثورى .

وقال قتادة وأحمد وإسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه . وروى معنى ذلك عن جابر بن عبد الله . وقال طاوس : عمرته للشهر الذى يدخل فيه الحرم . وقال أصحاب الرأى : إن طاف لها ثلاثة أشواط فى رمضان، وأربعة أشواط فى شوال فحج من عامه أنه متمتع . وإن طاف فى رمضان أربعة أشواط، وفى شوّال ثلاثة أشواط لم يكن متمتعا . وقال أبو ثور : إذا دخل فى العمرة فى غير أشهر الحج فسواء طاف لها فى رمضان أو فى شوال لا يكون بهذه العمرة متمتعا . وهو معنى قول أحمد وإسحاق : عمرته للشهر الذى أهلّ فيه .

التاسعة — أجمع أهل العلم على أن لمن أهلّ بعمرة فى أشهر الحج أن يُدخل عليها الحج ما لم يفتتح الطواف بالبيت، ويكون قارنا بذلك، يلزمه ما يلزم القارن الذى أنشأ الحج والعمرة معا . واختلفوا فى إدخال الحج على العمرة بعد أن افتتح الطواف؛ فقال مالك: يلزمه ذلك ويصير قارنا مالم يتم طوافه . وروى مثله عن أبى حنيفة، والمشهور عنه أنه لا يجوز إلا قبل الأخذ فى الطواف، وقد قيل: له أن يدخل الحج على العمرة مالم يركع ركعتى الطواف . وكل ذلك قول مالك وأصحابه . فاذا طاف المعتمر شوطا واحدا لعمرته ثم أحرم بالحج صار قارنا، وسقط عنه باقى عمرته ولزمه دم القران . وكذلك من أحرم بالحج فى اضعاف طوافه أو بعد فراغه منه قبل ركوعه . وقال بعضهم : له أن يدخل الحج على العمرة ما لم يكمل السعى بين الصّفا والمروة . قال أبو عمر: وهذا كله شذوذ عند أهل العلم . وقال أشهب : اذا طاف لعمرته شوطا واحدا لم يلزمه الإحرام به ولم يكن قارنا، ومضى على عمرته حتى يتمها ثم يحرم بالحج . وهذا قول الشافعىّ وعطاء، وبه قال أبو ثور .

العاشرة — واختلفوا فى إدخال العمرة على الحج؛ فقال مالك وأبو ثور وإسحاق : لاتدخل العمرة على الحج، ومن أضاف العمرة الى الحج فليست العمرة بشىء . قاله مالك، وهو أحد قولى الشافعىّ، وهو المشهور عنه بمصر . وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ فى القديم : يصير قارنا، ويكون عليه ما على القارن ما لم يطف لحجته شوطا واحدا، فإن طاف لم يلزمه؛ لأنه قد عمل فى الحج . قال ابن المنذر : وبقول مالك أقول فى هذه المسألة .

الحادية عشرة ــ قال مالك : من أهدى هديا للعمرة وهو متمتع لم يجزه ذلك ، وعليه هدى آخر لمتعته ؛ لأنه إنما يصير متمتعا إذا أنشأ الحج بعد أن حلّ من عمرته ، وحينئذ يجب عليه الهدى . وقال أبو حنيفة وأبو ثور وإسحاق : لا ينحر هديه إلا يوم النحر . وقال أحمد : إن قدم المتمتع قبل العشر طاف وسعى ونحر هديه . وإن قدم في العشر لم ينحر إلا يوم النحر . وقاله عطاء . وقال الشافعي : يحل من عمرته اذا طاف وسعى ، ساق هديا أو لم يسقه .

الثانية عشرة ــ واختلف مالك والشافعي في المتمتع يموت ؛ فقال الشافعي : اذا أحرم بالحج وجب عليه دم المتعة إذا كان واجدا لذلك . حكاه الزعفراني عنه . وروى ابن وهب عن مالك أنه سئل عن المتمتع يموت بعد ما يحرم بالحج بعرفة أو غيرها ، أترى عليه هديا ؟ قال : من مات من أولئك قبل أن يرمي جمرة العَقَبة فلا أرى عليه هديا . ومن رمى الجمرة ثم مات فعليه الهدى . قيل له : من رأس المال أو من الثلث ؟ قال : بل من رأس المال .

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ قد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ الى قوله : ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ يعني الهدى ، إما لعدم المال أو لعدم الحيوان ، صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده . والثلاثة الأيام في الحج آخرها يوم عرفة . هذا قول طاوس . وروى عن الشعبي وعطاء ومجاهد والحسن البصري والنخعي وسعيد بن جبير وعلقمة وعمرو بن دينار وأصحاب الرأي ، حكاه ابن المنذر . وحكى أبو ثور عن أبي حنيفة يصومها في إحرامه بالعمرة ، لأنه أحد إحرامى التمتع ؛ فجاز صوم الأيام فيه كإحرامه بالحج . وقال أبو حنيفة أيضا وأصحابه : يصوم قبل يوم التّروية يوما ، ويوم التروية ويوم عرفة . وقال ابن عباس ومالك بن أنس : له أن يصومها منذ يحرم بالحج الى يوم النحر ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ فاذا صامها في العمرة فقد أتاه قبل وقته فلم يجزه . وقال الشافعي وأحمد بن حنبل : يصومهن ما بين أن يُهلّ بالحج الى يوم عرفة . وهو قول ابن عمر .

وعائشة، وروى هـذا عن مالك ، وهو مقتضى قوله فى موطَّاه؛ ليكون يوم عرفة مفطرا ؛ فذلك أتبع للسنة، وأقوى على العبادة . وسيأتى . وعن أحمد أيضا جائز أن يصوم الثلاثة قبل أن يحرم . وقال الثورىّ والأوزاعىّ : يصومهن من أول أيام العشر . وبه قال عطـاء . وقال عروة : يصومها ما دام بمكة فى أيام منًى، وقاله أيضا مالك وجماعة من أهل المدينة .

وأيام مِنًى هى أيام التشريق الثلاثة التى تلى يوم النحر . روى مالك فى الموطأ عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تقول : «الصيام لمن تمتّع بالعمرة الى الحج لمن لم يجد هديًا ما بين أن يهلّ بالحج الى يوم عرفة، فإن لم يصم صام أيام مِنًى» . وهذا اللفظ يقتضى صحة الصوم من وقت يحرم بالحج المتمتع الى يوم عرفة، وأن ذلك مبدأ، إما لأنه وقت الأداء وما بعد ذلك من أيام منى وقت القضاء، على ما يقوله أصحاب الشافعى . وإما لأن فى تقديم الصيام قبل يوم النحر إبراء للذمة، وذلك مأمور به . والأظهر من المذهب أنها على وجه الأداء ، وإن كان الصوم قبلها أفضل؛ كوقت الصلاة الذى فيه سعة للأداء وإن كان أوّله أفضل من آخره . وهذا هو الصحيح وأنها أداء لا قضاء؛ فإن قوله : أيام فى الحج . يحتمل أن يريد موضع الحج ، ويحتمل أن يريد أيام الحج ؛ فإن كان المراد أيام الحج فهذا القول صحيح ؛ لأن آخر أيام الحج يوم النحر ، ويحتمل أن يكون آخر أيام الحج أيام الرمى؛ لأن الرمى عمل من عمل الحج خالصا وإن لم يكن من أركانه . وان كان المراد موضع الحج صامه ما دام بمكة فى أيام مِنًى ؛ كما قال عروة ، ويقوى جدا . وقـد قال قوم : له أن يؤخرها ابتداء الى أيام التشريق، لأنه لا يجب عليـه الصيام إلا بألا يجد الهدى يوم النحر . فإن قيل وهى :

الثانيـة — فقد ذهب جماعة من أهل المدينة والشافعى فى الجديد وعليه أكثر أصحابه إلى أنه لا يجوز صوم أيام التشريق لنهى رسـول الله صلّى الله عليه وسلّم عن صيام أيام منى ؛ قيـل له : إن ثبت النهى فهو عام يخصّص منه المتمتع بما ثبت فى البخارى أن عائشة كانت تصومها . وعن ابن عمر وعائشة قالا : لم يرخّص فى أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهدى . وقال الدّارقطنى : إسناد صحيح، ورواه مرفوعا عن ابن عمر وعائشة من طرق ثلاثة

ضعفها . وإنما رخص فى صومها لأنه لم يبق من أيامه إلا بمقدارها، وبذلك يتحقق وجوب الصوم لعدم الهدى . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : اذا فاته الصوم صام بعد أيام التشريق، وقاله الحسن وعطاء . قال ابن المنذر : وكذلك نقول . وقالت طائفة : اذا فاته الصوم فى العشر لم يجزه إلا الهدى . روى ذلك عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وطاوس ومجاهد، وحكاه أبو عمر عن أبى حنيفة وأصحابه عنه فتأمله .

الثالثة ـ أجمع العلماء على أن الصوم لا سبيل للتمتع إليه اذا كان يجد الهدى ، واختلفوا فيه اذا كان غير واجد للهدى فصام ثم وجد الهدى قبل إكمال صومه؛ فذكر ابن وهب عن مالك قال : اذا دخل فى الصوم ثم وجد هديًا فأحبّ الىّ أن يهدى، فإن لم يفعل أجزاه الصيام . وقال الشافعىّ : يمضى فى صومه وهو فرضه . وكذلك قال أبو ثور، وهو قول الحسن وقتادة، واختاره ابن المنذر . وقال أبو حنيفة : اذا أيسر فى اليوم الثالث من صومه بطل الصوم ووجب عليه الهدى . وإن صام ثلاثة أيام فى الحج ثم أيسر كان له أن يصوم السبعة الأيام لا يرجع الى الهدى، وبه قال الثورىّ وابن أبى نجيح وحمّاد .

الرابعة ـ قوله تعالى : ﴿ وَسَبْعَةٍ ﴾ قراءة الجمهور بالخفض على العطف . وقرأ زيد ابن علىّ « وسبعةً » بالنصب ،على معنى وصوموا سبعة .

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ يعنى الى بلادكم . قاله ابن عمر وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء، وقاله مالك فى كتاب محمد، وبه قال الشافعىّ . قال قتادة والربيع : هذه رخصة من الله تعالى، فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل وطنه ، إلا أن يتشدّد أحد، كما يفعل من يصوم فى السفر فى رمضان . وقال أحمد وإسحاق : يجزيه الصوم فى الطريق . وروى عن مجاهد وعطاء . قال مجاهد : إن شاء صامها فى الطريق، إنما هى رخصة . وكذلك قال عكرمة والحسن . والتقدير عند بعض أهل اللغة : اذا رجعتم من الحج، أى اذا رجعتم الى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحل . وقال مالك فى الكتاب : اذا رجع من منًى فلا بأس

أن يصوم . قال ابن العربى : « إن كان تخفيفا ورخصة فيجوز تقديم الرخص وترك[1] الرفق فيها الى العزيمة إجماعا . وإن كان ذلك توقيتا فليس فيه نص، ولا ظاهر أنه أراد البلاد ، وأنها المراد فى الأغلب[2] » .

قلت : بل فيه ظاهر يقرب الى النص ، يبينه ماروواه مسلم عن ابن عمر قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى ، فساق معه الهدى من ذى الحليفة، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج ، وتمتع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة الى الحج؛ فكان من الناس من أهل فساق الهدى، ومنهم من لم يهد؛ فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس : "من كان منكم أهدى فلا يحل من شيء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج وليهد فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجع الى أهله" الحديث . وهذا كالنص فى أنه لا يجوز صوم السبعة الأيام إلا فى أهله وبلده . والله أعلم . وكذا قال البخارى فى حديث ابن عباس : ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج فاذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وقد تم حجنا وعلينا الهدى ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ . الى أمصاركم . الحديث، وسيأتى . قال النحاس : وكان هذا إجماعا .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقال : كَمَلَ يَكْمُلُ مثل نصر ينصر، وكَمُلَ يكمل مثل عَظُم يَعْظُم، وكَمِلَ يَكْمَل مثل حَمِد يَحْمَد؛ ثلاث لغات . واختلفوا فى معنى قوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾ وقد علم أنها عشرة؛ فقال الزجاج : لما جاز أن يتوهم متوهم التخيير بين ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة اذا رجع بدلا منها ؛ لأنه لم يقل وسبعة أخرى أزيل ذلك بالجملة

(١) كذا فى أحكام القرآن لابن العربى . وفى الأصل : « بدل » .

(٢) عبارة ابن العربى : « ... ولا ظاهر أنه أراد البلاد، وإنما المراد فى الأغلب والأظهر فيه أنه الحج »

من قوله «تلك عشرة» ثم قال : «كاملة» . وقال الحسن : كاملة فى الثواب كمن أهدى . وقيل : كاملة فى البدل عن الهدى ، يعنى العشرة كلها بدل عن الهدى . وقيل: كاملة فى الثواب كمن لم يتمتع . وقيل : لفظها لفظ الإخبار ومعناها الأمر، أى أكملوها فذلك فرضها . وقال المبرد : عشرة دلالة على انقضاء العدد؛ لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقى منه شيء بعد ذكر السبعة. وقيل : هو توكيد؛ كما تقول : كتبت بيدى . ومنه قول الشاعر :

ثلاثٌ واثنتان فهنّ خمسٌ * وسادسةٌ تميل الى شمامى

فقوله : خمس، تأكيد . ومثله قول الآخر :

ثلاث بالغداة فذاك حسبى * وستّ حين يدركنى العشاء

فذلك تسعة فى اليوم ريّى * وشرب المرء فوق الرىّ داء

وقوله : «كاملة» ، تأكيد آخر، فيه زيادة توصية بصيامها وأن لاينقص من عددها؛ كما تقول لمن تأمره بأمر ذى بال : الله الله لا تقصر .

السابعة ــ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى إنما يجب دم التمتع عن الغريب الذى ليس من حاضرى المسجد الحرام . خرّج البخارىّ «عن ابن عباس أنه سئل عن متعة الحج فقال: أهل المهاجرون والأنصار وأزواج النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى حجّة الوداع وأهللنا؛ فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلّد الهدى" . طفنا بالبيت وبالصّفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب . وقال : "من قلّد الهدى فإنه لا يحلّ حتى يبلغ محِلّه" . ثم أمرنا عشيّة التروية أن نهلّ بالحج، فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصّفا والمروة فقد تم حجّنا وعلينا الهدى، كما قال الله تعالى : فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم . إلى أمصاركم، الشاةُ تجزِى . فجمعوا نُسُكَيْن فى عام بين الحج والعمرة ، فإن الله أنزله فى كتابه وسنّهُ نبيُّه صلّى الله عليه وسلّم وأباحه للناس غيرَ أهل مكة، قال الله عز وجل : ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام . وأشهر الحج التى ذكر الله عزّ وجلّ : شوّالٌ وذو القعدة وذو الحجة؛

فمن تمتع فى هذه الأشهر فعليه دمٌ أو صوم . والرفث الجماع . والفسوق المعاصى . والجدال المِرَاء » .

الثامنة — اللام فى قوله «لِمَنْ» بمعنى على، أى وجوب الدم على من لم يكن من أهل مكة؛ كقوله عليه السلام : " اشترطى لهم الولاء " . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أى فعليها . وذلك إشارة الى التمتّع والقِران للغريب عند أبى حنيفة وأصحابه؛ لا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام عندهم . ومن فعل ذلك كان عليه دم جناية لا يأكل منه؛ لأنه ليس بدم تمتع . وقال الشافعىّ : لهم تمتع وقران . والإشارة ترجع الى الهدى والصيام ، فلا هدى ولا صيام عليهم . وفرّق عبد الملك بن الماجشون بين التمتع والقران ، فأوجب الدم فى القران وأسقطه فى التمتع . على ما تقدّم عنه .

التاسعة — واختلف الناس فى حاضرى المسجد الحرام — بعد الإجماع على أن أهل مكة وما اتصل بها من حاضريه . وقال الطبرى : بعد الإجماع على أهل الحرم . قال ابن عطية : وليس كما قال — فقال بعض العلماء : من كان يجب عليه الجمعة فهو حضرىّ، ومن كان أبعد من ذلك فهو بدوىّ ؛ فجعل اللفظة من الحضارة والبداوة . وقال مالك وأصحابه : هم أهل مكة وما اتصل بها خاصة . وعند أبى حنيفة وأصحابه : هم أهل المواقيت ومن وراءها من كل ناحية؛ فمن كان من أهل المواقيت أو من أهل ما وراءها فهم من حاضرى المسجد الحرام . وقال الشافعى وأصحابه : هم من لا يلزمه تقصير الصلاة من موضعه الى مكة، وذلك أقرب المواقيت . وعلى هذه الأقوال مذاهب السلف فى تأويل الآية .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أى فيما فرضه عليكم . وقيل : هو أمر بالتقوى على العموم، وتحذير من شدّة عقابه .

قوله تعالى — ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ . فيه أربع عشرة مسألة .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ لما ذكر الحج والعمرة سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ بيّن اختلافهما في الوقت ، فجميع السَّنة وقتٌ للإحرام بالعمرة ، ووقت العمرة . وأما الحج فيقع في السنة مرة ، فلا يكون في غير هذه الأشهر . والحج أشهر معلومات ، ابتداء وخبر ، وفي الكلام حذف تقديره : أشهر الحج أشهر ، أو وقت الحج أشهر ، أو وقت عمل الحج أشهر . وقيل : التقدير الحج في أشهر . ويلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر ، ولم يقرأ أحد بنصبها ، إلا أنه يجوز في الكلام النصب على أنه ظرف . قال الفراء : الأشهر رفع ، لأن معناه وقت الحج أشهر معلومات . قال الفراء : وسمعت الكسائي يقول : إنما الصيف شهران ، وإنما الطيلسان ثلاثة أشهر . أراد وقت الصيف ، ووقت لباس الطيلسان ، فحذف .

الثانيـــة ــ واختلف في الأشهر المعلومات ؛ فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء والربيع ومجاهد والزهري : أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة كله . وقال ابن عباس والسدي والشعبي والنخعي : هي شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة . وروي عن ابن مسعود ، وقاله ابن الزبير . والقولان مرويان عن مالك ، حكى الأخير ابن حبيب ، والأول ابن المنذر . وفائدة الفرق تعلق الدم ؛ فمن قال : إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم ير دمًا فيما يقع من الأعمال بعد يوم النحر ، لأنها في أشهر الحج . وعلى القول الأخير ينقضي الحج بيوم النحر ، ويلزم الدم فيما عمل بعد ذلك لتأخيره عن وقته .

الثالثـــة ــ لم يُسَمِّ الله تعالى أشهر الحج في كتابه ، لأنها كانت معلومة عندهم . ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين وبعض الثالث ، لأن بعض الشهر يتنزل منزلة كله ؛ كما يقال : رأيتك سنة كذا ، أو على عهد فلان . ولعله إنما رآه في ساعة منها ، فالوقت يذكر بعضه بكله ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أيام مِنًى ثلاثة " . وإنما هي يومان وبعض الثالث . ويقولون : رأيتك اليوم ، وجئتك العام . وقيل : لما كان الاثنان وما فوقهما جمع قال : أشهر . والله أعلم .

الرابعــة — اختلف فى الإهلال بالحج فى غير أشهر الحج؛ فروى عن ابن عباس من سُنّة الحج أن يُحرم به فى أشهر الحج . وقال عطاء ومجاهد وطاوس والأوزاعى : من أحرم بالحج قبل أشهر الحج لم يجزه ذلك عن حجه و يكون عمرة؛ كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فانه لا تجزيه وتكون نافلة . وبه قال الشافعى وأبو ثور . وقال الأوزاعى : يحل بعمرة . وقال أحمد بن حنبل : هذا مكروه . وروى عن مالك . والمشهور عنه جواز الإحرام بالحج فى جميع السنة كلها . وهو قول أبى حنيفة — وقال النخعىّ : لا يحل حتى يقضى حجه ، لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ وقد تقدّم القول فيها . وما ذهب اليه الشافعىّ أصح؛ لأن تلك عامة ، وهذه الآية خاصة . ويحتمل أن يكون من باب النّص على بعض أشخاص العموم ، لفضل هذه الأشهر على غيرها ؛ وعليه فيكون قول مالك صحيحا ، والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ أى ألزمه نفسه بالشروع فيه بالنية قصدا باطنا ، وبالإحرام فعلا ظاهرا ، و بالتلبية نطقا مسموعا . قاله ابن حبيب وأبو حنيفة فى التّلبيـة . وليست التّلبية عنـد الشافعىّ من أركان الحج . وهو قول الحسن بن حَىّ . قال الشافعىّ : تكفى النية فى الإحرام بالحج . وأوجب التّلبية أهل الظاهر وغيرهم . وأصل الفرض فى اللغة : الحزّ والقطع؛ ومنه فُرْضَة القوس والنهر والجبل (١) . ففرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحزّ للقِدْح . وقيل : فرض أى أبان؛ وهذا يرجع الى القطع؛ لأن من قطع شيئا فقد أبانه عن غيره . و«مَنْ» رفع بالابتداء ومعناها الشرط، والخبر قوله : «فَرَض»؛ لأن «من» ليست بموصولة؛ فكأنه قال : رجل فرض . وقال : «فيهن» ولم يقل فيها؛ فقال قوم : هما سواء فى الاستعمال. وقال المـازنى أبو عثمان : الجمع الكثير لمـا لا يعقل يأتى كالواحدة المؤنثة ، والقليـل ليس كذلك؛ تقـول : الأجذاع انكسرن، والجـذوع انكسرت . ويؤيد ذلك قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ ثم قال : ﴿ مِنْهَا ﴾ .

---

(١) فرضة القوس (بضم أوله وسكون ثانيه) : الحز يقع عليه الوتر . وفرضة النهر : مشرب الماء منه . وفرضة الجبل : ما انحدر من وسطه وجانبه .

السادسة ــ قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ قال ابن عباس وابن جبير والسّدى وقتادة والحسن وعكرمة والزهرىّ ومجاهد ومالك : الرفث الجماع ، أى فلا جماع لأنه يفسده . وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج ، وعليه حج قابلٍ والهدى . وقال عبد الله بن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم : الرفث الإفحاش للمرأة بالكلام ، لقوله : إذا أحللنا فعلنا بك كذا ؛ من غير كناية . وقاله ابن عباس أيضا ، وأنشد وهو مُحْرِم :

وهُنّ يمشين بنا هَمِيسَا * ان تَصدُقِ الطيرُ ننِك لَمِيسَا[1]

فقال له صاحبه حصين بن قيس : أترفُث وأنت محرم ؟ فقال : إن الرفث ما قيل عند النساء . وقال قوم : الرفث الإفحاش بذكر النساء ، كان ذلك بحضرتهنّ أم لا . وقيل : الرفث كلمة جامعة لما يريده الرجل من أهله . وقال أبو عبيدة : الرفث اللّغا من الكلام ، وأنشد :

ورُبّ أسرابِ حَجيجٍ كُظَّمِ * عن اللّغا ورَفَث التكلُّمِ

يقال : رفث يرفث بضم الفاء وكسرها . وقرأ ابن مسعود « فلا رفوث » على الجمع . قال ابن العربى : «المراد بقوله : « فلا رفث » نفيه مشروعا لا موجودا ، فإنا نجد الرفث فيه ونشاهده ، وخبر الله سبحانه لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره ، وإنما يرجع النفى الى وجوده مشروعا لا الى وجوده محسوسا ، كقوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ معناه شرعًا لا حِسًّا ، فإنا نجد المطلقات لا يتربصن ؛ فعاد النفى الى الحكم الشرعى لا الى الوجود الحسى ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ إذا قلنا: إنه وارد فى الآدميين ــ وهو الصحيح ــ أن معناه لا يمسّه أحد منهم شرعا ، فان وجد المسّ فعلى خلاف حكم الشرع ؛ وهذه الدقيقة هى التى فاتت العلماء فقالوا : إن الخبر يكون بمعنى النّهى ، وما وجد ذلك قطّ ، ولا يصح أن يوجد ، فإنهما مختلفان حقيقة ومتضادّان وصفا » .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ يعنى جميع المعاصى كلها . قاله ابن عباس وعطاء والحسن . وكذلك قال ابن عمر وجماعة : الفسوق إتيان معاصى الله عزّ وجلّ

(١) اللميس : المرأة اللينة الملمس .

فى حال إحرامه بالحج ؛ كقتل الصيد وقص الظفر وأخذ الشّعر، وشبه ذلك . وقال ابن زيد ومالك : الفسوق الذبح للأصنام؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ . وقال الضحاك : الفسوق التنابز بالألقاب؛ ومنه قوله : ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ ﴾ . وقال ابن عمر أيضا : الفسوق السباب؛ ومنه قوله عليه السلام : "سِبابُ المسلم فسوقٌ وقتاله كفر" . والقول الأول أصح ، لأنه يتناول جميع الأقوال . قال صلى الله عليه وسلم : "من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه" . [قال][(1)] : "والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة" . خرجه مسلم وغيره . وجاء عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : "والذى نفسى بيده ما بين السماء والأرض من عمل أفضل من الجهاد فى سبيل الله أو حجة مبرورة لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال" . وقال الفقهاء : الحج المبرور هو الذى لم يعص الله تعالى فيه أثناء أدائه . وقال الفراء : هو الذى لم يعص الله سبحانه بعده . ذكر القولين ابن العربى رحمه الله .

قلت : الحج المبرور هو الذى لم يُعصَ اللهُ سبحانه فيه ولا بعده . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع صاحبه زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . وقيل غير هذا ، وسيأتى .

الثامنــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ قرئ « فلا رفثٌ ولا فسوقٌ » . بالرفع والتنوين فيهما . وقرئا بالنصب بغير تنوين . وأجمعوا على الفتح فى « ولا جدال »؛ وهو يقوّى قراءة النصب فيما قبله ، ولأن المقصود النفى العام من الرفث والفسوق والجدال ، وليكون الكلام على نظام واحد فى عمـوم المنفى كله . وعلى النصب أكثر القـراء . والأسماء الثلاثة فى موضـع رفع[(2)]، كل واحد مع لا . وقوله « فى الحج » خبر عن جميعها . ووجه قـراءة الرفع أن « لا » بمعنى « ليس » فارتفع الاسم بعـدها ، لأنه اسمهـا ، والخبر محذوف تقـديره : فليس رفث ولا فسوق فى الحج ؛ دل عليـه فى الحج الثـانى الظاهر وهو خبر « لا جدال » . وقال أبو عمرو بن العلاء : الرفع بمعنى فلا يكونن رفث ولا فسوق ، أى شىء يخرج من الحج ، ثم ابتدأ النفى فقال : ولا جدال .

(1) فى الأصول : « كيوم ولدته » . والتصويب عن صحيح مسلم .
(2) هذا على أحد قولين للنحويين والثانى أن لا عاملة فى الاسم النصب وما بعدها خبر .

قلت : فيحتمل أن تكون كان تامة ، مثل قوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ فلا تحتاج الى خبر . ويحتمل أن تكون ناقصة والخبر محذوف، كما تقدم آنفا . ويجوز أن يرفع رفث وفسوق بالابتداء، ولا للنفي، والخبر محذوف أيضا . وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع بالرفع في الثلاثة . ورويت عن عاصم في بعض الطرق ، وعليه يكون « في الحج » خبر الثلاثة ، كما قلنا في قراءة النصب ؛ وإنما لم يحسن أن يكون « في الحج » خبرعن الجميع مع اختلاف القراءة ، لأن خبر ليس منصوب وخبر ولا جدال مرفوع؛ لأن «ولا جدال» مقطوع من الأول وهو في موضع رفع بالابتداء، ولا يعمل عاملان في اسم واحد . ويجوز « فلا رفث ولا فسوق » تعطفه على الموضع . وأنشد النحويون :

لا نَسَبَ اليومَ ولا خُلَّةً (1) * إتّسع الخرقُ على الراقِعِ

ويجوز في الكلام «فلا رفث ولا فسوقا ولا جدالا في الحج» عطفا على اللفظ على ما كان يجب في لا . قال الفراء : ومثله :

فلا أبَ وابْنًا مثلُ مَرْوانَ وابنِهِ * اذا هو بالمَجْـد ارتَدَى وتأزَّرا

وقال أبو رجاء العطاردي : فلا رفث ولا فسوق بالنصب فيهما، ولا جدال بالرفع والتنوين . وأنشد الأخفش :

هــذا وَجدِّكم الصَّغار بعينــه * لا أمَّ لي إن كان ذاك ولا ابُ

وقيل : إن معنى « فلا رفث ولا فسوق » النهي ، أي لا ترفثوا ولا تفسقوا . ومعنى «ولا جدال» النفي، فلما اختلفا في المعنى خولف بينهما في اللفظ . قال القشيري: وفيه نظر، إذ قيل : ولا جدال نهي أيضا، أي لا تجادلوا، فلم فرق بينهما ؟

التاسعة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ ﴾ الجدال وزنه فعال من المجادلة ، وهي مشتقة من الجَدْل وهو الفتل؛ ومنه زمام مجدول . وقيل : هي مشتقة من الجدالة التي هي الأرض .

(1) البيت لأنس بن العباس السلمي . والشاهد فيه : نصب المعطوف وتنوينه على إلغاء «لا» الثانية ، وزيادتها لتأكيد النفي ، ولو رفعت « الخلة » على الموضع لجاز .

فكأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه ، فيكون كمن ضرب به الجدالة .
قال الشاعر :

قد أركب الآلة بعد الآلة (١) * وأترك العاجز بالجداله

* منعفرا ليست له محاله *

العاشرة — واختلف العلماء فى المعنى المراد به هنا على أقوال ستة ؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء : الجدال هنا أن تمارى مسلما حتى تغضبه فينتهى الى السباب ؛ فأما مذاكرة العلم فلا نهى عنها . وقال قتادة : الجدال السباب . وقال ابن زيد ومالك بن أنس : الجدال هنا أن يختلف الناس ، أيهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية حين كانت قريش تقف فى غير موقف سائر العرب ، ثم يتجادلون بعد ذلك . فالمعنى على هذا التأويل : لا جدال فى مواضعه . وقالت طائفة : الجدال هنا أن تقول طائفة : الحج اليوم ، وتقول طائفة : الحج غدا . وقال مجاهد وطائفة معه : الجدال المماراة فى الشهور حسب ما كانت عليه العرب من النسىء ، كانوا ربما جعلوا الحج فى غير ذى الحجة ، ويقف بعضهم بجمع (٢) وبعضهم بعرفة ، ويتمارون فى الصواب من ذلك .

قلت : فعلى هذين التأويلين لا جدال فى وقته ولا فى موضعه ، وهذان القولان أصح ما قيل فى تأويل قوله «ولا جدال» ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" الحديث . وسيأتى فى «براءة» . يعنى رجع أمر الحج كما كان ، أى عاد إلى يومه ووقته . وقال صلى الله عليه وسلم لما حج : "خذوا عنى مناسككم" . فبين بهذا مواقف الحج ومواضعه . وقال محمد بن كعب القرظى : الجدال أن تقول طائفة : حجنا أبر من حجكم . ويقول الآخر مثل ذلك . وقيل : الجدال كان فى الفخر بالآباء . والله أعلم .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ شرط وجوابه . والمعنى : إن الله يجازيكم على أعمالكم ، لأن المجازاة إنما تقع من العالم بالشىء . وقيل :

(١) الآلة : الحالة ، والشدة . (٢) هى المزدلفة .

هو تحريض وحَثٌّ على حَسَنِ الكلام مكان الفحش، وعلى البر والتقوى فى الأخلاق مكان الفسوق والجدال . وقيل : جعل فعل الخير عبارة عن ضبط نفسهم حتى لا يوجد ما نهوا عنه .

الثانية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ أمر باتخاذ الزاد. قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد : نزلت الآية فى طائفة من العرب كانت تجىء إلى الحج بلا زاد ، ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؛ فكانوا يبقون عالة على الناس، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالزاد . وقال عبد الله بن الزبير : كان الناس يتكل بعضهم على بعض بالزاد ؛ فأمروا بالزاد. وكان للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى مسيره راحلة عليها زاد، وقدم عليه ثلثمائة رجل من مُزَيْنة، فلما أرادوا أن ينصرفوا قال : " يا عمر زوّد القوم " . وقال بعض الناس . تزودوا، الرفيق الصالح . قال ابن عطية : وهذا تخصيص ضعيف ، والأولى فى معنى الآية : وتزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة .

قلت : القول الأول أصح، فان المراد الزاد المتّخذ فى سفر الحج المأكول حقيقة كما ذكرناه؛ كما روى البخارىّ عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون . فاذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ وهذا نص فيما ذكرنا وعليه أكثر المفسرين . قال الشعبىّ : الزاد التمر والسويق . ابن جبير : الكعك والسويق . قال ابن العربى : «أمر الله تعالى بالتزود لمن كان له مال، ومن لم يكن له مال فإن كان ذا حرفة تَنْفُق فى الطريق أو سائلا فلا خطاب عليه ، وإنما خاطب الله أهل الأموال الذين كانوا يتركون أموالهم ويخرجون بغير زاد ويقولون : نحن المتوكلون . والتوكل له شروط ، من قام بها خرج بغير زاد ولا يدخل فى الخطاب ، فانه خرج على الأغلب من الخلق وهم المقصرون عن درجة التوكل الغافلون عن حقائقه . والله عزّ وجلّ أعلم » . قال أبو الفرج الجوزىّ : وقد لبّس إبليس على قوم يدعون التوكل، فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ . قال رجل لأحمد بن حنبل : أريد أن أخرج

الى مكة على التوكل بغير زاد . فقال له أحمد : اخرج فى غير القافلة . فقال : لا، إلا معهم .
قال : فعلى جُرُب الناس توكلت .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ أخبر تعالى أن خير الزاد اتقاء المنهيات ، فأمرهم أن يضموا الى التزود التقوى ، وجاء قوله « فإن خير الزاد التقوى » محمولا على المعنى ؛ لأن معنى وتزودوا : اتقوا الله فى اتباع ما أمركم به من الخروج بالزاد . وقيل : يحتمل أن يكون المعنى : فان خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة أو الحاجة الى السؤال والتكفف . وقيل : فيه تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار . قال أهل الإشارات : ذكّرهم الله تعالى سفر الآخرة وحثهم على تزود التقوى ، فان التقوى زاد الآخرة .
قال الأعشى :

إذ أنت لم ترحل بزاد من التقى * ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمتَ على ألّا تكون كمثله * وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وقال آخر :

الموت بحر طامح موجه * تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس إنى قائل فاسمعى * مقالة من مشفق ناصح
لا يصحب الإنسان فى قبره * غير التقى والعمل الصالح

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ خصّ أولى الألباب بالخطاب — وإن كان الأمر يعم الكل — لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم قابلو أوامره والناهضون بها . والألباب : جمع لُبّ . ولُبّ كل شيء : خالصه ؛ ولذلك قيل للعقل : لب . قال النحاس : سمعت أبا إسحاق يقول قال لى أحمد بن يحيى ثعلب : أتعرف فى كلام العرب شيئا من المضاعف جاء على فعُل ؟ قلت : نعم ، حكى سيبويه عن يونس لَبُبْت تَلَب . فاستحسنه وقال : ما أعرف له نظيرا .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أي إثم، وهو اسم ليس . أن تبتغوا، في موضع نصب خبر ليس، أي في أن تبتغوا . وعلى قول الخليل والكسائي أنها في موضع خفض . ولما أمر تعالى بتنزيه الحج عن الرفث والفسوق والجدال رخّص في التجارة . المعنى : لا جناح عليكم في أن تبتغوا فضل الله . وابتغاء الفضل ورَدَ في القرآن بمعنى التجارة، قال الله تعالى : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ . والدليل على صحة هذا ما رواه البخاري عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومَجَنّة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في المواسم فنزلت : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج[(1)] .

الثانيــة ــ إذا ثبت هذا، ففي الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد الى ذلك لا يكون شركا ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه؛ خلافا للفقراء[(2)] أن الحج دون تجارة أفضل، لعروّه عن شوائب الدنيا وتعلق القلب بغيره . وروى الدارقطني في سننه عن أبي أمامة التيمي قال قلت لابن عمر : إني رجل أُكري في هذا الوجه، وإن ناسا يقولون : إنه لا حج لك . فقال ابن عمر : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله مثل هذا الذي سألتني، فسكت حتى نزلت هذه الآية : «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لك حجا " .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ ﴾ الى قوله : ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ فيه ست عشرة مسئلة .

---

(1) الذي في البخاري : « كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس في الجاهلية؛ فلما جاء الاسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت... الخ » . وقوله : في مواسم الحج . زادها أبيّ في قراءته . وعكاظ : نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال . وذو المجاز خلف عرفة . ومجنة بمر الظهران، قرب جبل يقال له : الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها . وهذه أسواق للعرب، وكان أهل الجاهلية يصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منها الى مجنة بعد مضي عشرين يوما من ذي القعدة؛ فاذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا من مجنة الى ذي المجاز، فلبثوا به ثماني ليال، ثم يذهبون الى عرفة . ولم تزل هذه الأسواق قائمة في الاسلام الى أن كان أول ما ترك منها سوق عكاظ في زمن الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة لما خرج الحروري بمكة مع أبي حمزة المختار بن عوف، خاف الناس أن ينهبوا فتركت الى الآن، ثم ترك ذو المجاز ومجنة بعد ذلك، واستغنوا بالأسواق بمكة ومنى وعرفة . (من شرح القسطلاني) .

(2) لعله يريد بالفقراء الصوفية .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم ﴾ أى اندفعتم . ويقال : فاض الإناء اذا امتلأ حتى ينصبّ عن نواحيه . ورجل فيّاض أى مندفق بالعطاء . قال زهير :

وأبيض فيّاض يداه غمامةٌ * على مُعتفيه ماتُغبُّ فواضله (١)

وحديث مستفيض أى شائع .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ قراءة الجماعة «عرفاتٍ» بالتنوين. وكذلك لو سميت امرأة بمسلمات، لأن التنوين هنا ليس فرقا بين ما ينصرف وما لا ينصرف فتحذفه، وإنما هو بمنزلة النون فى مسلمين . قال النحاس : هذا الجيد . وحكى سيبويه عن العرب حذف التنوين من عرفات؛ يقول : هذه عرفات يا هذا، ورأيت عرفات ياهذا ؛ بكسر التاء وبغير تنوين. قال: لما جعلوها معرفة حذفوا التنوين. وحكى الأخفش والكوفيون فتح التاء، تشبيها بتاء فاطمة وطلحة . وأنشدوا :

تنوّرتها من أذرعاتَ وأهلُها * بيثرب أدنى دارها نَظَرٌ عَالِ

والقول الأوّل أحسن ، وأن التنوين فيه على حده فى مسلمات ؛ الكسرة مقابلة الياء فى مسلمين، والتنوين مقابل للنون . وعرفات اسم عَلَم ، سمى بجمع كأذرعات . وقيل : سمى بما حوله ، كأرض سباسب (٢). وقيل : سميت تلك البقعة عرفات، لأن الناس يتعارفون بها . وقيل : لأن آدم لما هبط وقع بالهند، وحوّاء بجُدّة، فاجتمعا بعد طول الطلب بعرفات يوم عرفة وتعارفا؛ فسمّى اليوم عرفة، والموضع عرفات . قاله الضحاك (٣). وقيل غير هذا مما تقدّم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ . قال ابن عطية : والظاهر أن اسمه مرتجل كسائر أسماء البقاع . وعرفة هى نَعْمان الأراك؛ وفيها يقول الشاعر :

تزوّدتُ من نَعْمان عُودَ أراكةٍ * لهندٍ ولكن مَنْ يبلّغه هندَا

(١) الفياض : الكثير العطاء . المعتفون : الطالبون ماعنده . يقال : عفاه واعتفاه : إذا أتاه يطلب معروفه . ماتغب فواضله ، أى عطاياه دائمة لا تنقطع .

(٢) جاء فى اللسان : « وحكى اللحيانى بلد سبسب وبلد سباسب؛ كأنهم جعلوا كل جزء منه سبسبا؛ ثم جمعوه على هذا» . والسبسب : القفر والمفازة . وقيل : الأرض المستوية البعيدة .

(٣) كل هذا يحتاج الى التثبت

وقيل : مأخوذة من العَرْف وهو الطِّيب ؛ قال الله تعالى : ﴿ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ أى طيّبها ؛ فهى طيّبة بخلاف منًى التى فيها الفروث(١) والدماء ؛ فلذلك سميت عرفات . ويوم الوقوف : يوم عرفة . وقال بعضهم : أصل هذين الاسمين من الصبر؛ يقال : رجل عارف، إذا كان صابرا خاشعا . ويقال فى المثل : النفس عروف وما حملتها تتحمل . قال :

* فَصَبَرْتُ عارفةً لذلك حُرَّةً(٢) *

وقال ذو الرمة :

* عَرُوفٌ لما خَطَّتْ عليه المقادرُ(٣) *

أى صبور على قضاء الله ؛ فسمّى بهذا الاسم لخضوع الحاج وتذللهم ، وصبرهم على الدعاء وأنواع البلاء واحتمال الشدائد؛ لإقامة هذه العبادة .

الثالثة — أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتدّ بوقوفه ذلك قبل الزوال . وأجمعوا على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهارا قبل الليل؛ إلا مالك بن أنس فانه قال : لا بدّ أن يأخذ من الليل شيئا . وأما من وقف بعرفة بالليل فانه لا خلاف بين الأمة فى تمام حجه . والحجة للجمهور مطلق قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ ولم يخص ليلا من نهار . وحديث عروة بن مُضَرِّس قال : أتيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو فى الموقف من جَمْع، فقلت: يارسول الله، جئتك من جَبَلَىْ طَيِّء(٤)، أَكْلَلْتُ مطيّتى ، وأتعبت نفسى ، والله إن تركت من جبل إلا وقفت عليه ، فهل لى من حج يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : " من صلّى معنا

---

(١) الفروث : جمع فرث، وهو السرجين (الزبل) ما دام فى الكرش .

(٢) البيت لعنترة، وتمامه : * تَرسو إذا نفس الجبان تطلّع *

(٣) صدر البيت : * اذا خاف شيئا وقرته طبيعة *

(٤) رواية الدارقطنى بالجيم . وفى بعض كتب الحديث ونهاية ابن الأثير بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الموحدة. قال الترمذى فى سننه : « قوله : من حبل . اذا كان من رمل يقال له حبل، واذا كان من حجارة يقال له جبل» . وقال ابن الأثير فى تفسير هذا الحديث : «الحبل : المستطيل من الرمل، وقيل : الضخم منه، وجمعه حبال . وقيل : الحبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل» . وقال الخطابى : الحبال ما دون الجبال فى الارتفاع .

صلاة الغداة بجمع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلا أونهارا فقد قضى تفثه وتم حجه[1]" . أخرجه غير واحد من الأئمة ، منهم أبو داود والنسائى والدارقطنى واللفظ له . وقال الترمذى حديث حسن صحيح . وقال أبو عمر : حديث عروة بن مضرس الطائى حديث ثابت صحيح، رواه جماعة من أصحاب الشعبيّ الثقات عن الشعبيّ عن عروة بن مضرّس ؛ منهم اسماعيل بن أبى خالد وداود بن أبى هند وزكريا بن أبى زائدة وعبد الله بن أبى السَّفَر ومطرف، كلهم عن الشعبيّ عن عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام . وحجة مالك من السنة الثابتة، حديث جابر الطويل، خرّجه مسلم؛ وفيه : فلم يزل واقفا حتى غَرَبت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القُرْص . وأفعاله على الوجوب، لا سيما فى الحج ، وقد قال : " خذوا عنّى مناسككم " .

الرابعة — واختلفت الجمهور فيمن أفاض قبل غروب الشمس ولم يرجع ماذا عليه مع صحة الحج ؛ فقال عطاء وسفيان الثورىّ والشافعىّ وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأى وغيرهم : عليه دم . وقال الحسن البصرى : عليه هَدْيٌ . وقال ابن جريج : عليه بدنة . وقال مالك : عليه حج قابل، والهدى ينحره فى حج قابل، وهو كمن فاته الحج . فان عاد إلى عرفة حتى يَدفع بعد مغيب الشمس، فقال الشافعىّ : لا شيء عليه . وهو قول أحمد واسحاق وداود، وبه قال الطبرى . وقال أبو حنيفة وأصحابه والثورىّ : لا يسقط عنه الدم وان رجع بعد غروب الشمس . وبذلك قال أبو ثور .

الخامسة — ولا خلاف بين العلماء فى أن الوقوف بعرفة راكبا لمن قدر عليه أفضل؛ لأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كذلك وقف الى أن دَفَع منها بعد غروب الشمس، وأردف أسامة بن زيد. وهذا محفوظ فى حديث جابر الطويل، وحديث علىّ، وفى حديث ابن عباس

---

(١) قال صاحب التعليق المغنى على سنن الدارقطنى : «وقوله : وقضى تفثه . قيل : المراد به أنه أتى بما عليه من المناسك، والمشهور أن التفث ما يصنعه المحرم عند حله من تقصير شعر أو حلقه وحلق العانة ونتف الابط وغيره من خصال الفطرة، ويدخل فى ضمن ذلك نحر البدن، وقضاء جميع المناسك؛ لأنه لا يقضى التفث الا بعد ذلك، وأصل التفث الوسخ والقذر . قاله الشوكانى» .

أيضا . قال جابر : ثم ركب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القَصْواءِ الى الصَّخرات[1]، وجعل حَبل المُشاة[2] بين يديه واستقبل القبلة ؛ فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص، وأردف أسامة بن زيد خلفه، الحديث . فان لم يقدر على الركوب وقف قائما على رجليه ، داعيا ما دام يقدر ، ولا حرج عليه فى الجلوس اذا لم يقدر على الوقوف، وفى الوقوف راكبا مباهات وتعظيم للحج «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » . قال ابن وهب فى موطأه : قال لى مالك : الوقوف بعرفة على الدواب والإبل أحبّ الىّ من أن أقف قائما ، قال : ومن وقف قائما فلا بأس ان يستريح .

السادسة ــ ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن أسامة بن زيد أنه عليه السلام كان إذا أفاض من عرفة يسير العَنَق[3] فاذا وجد فَجْوَة نَصَّ . قال هشام بن عروة : والنص فوق العنق. وهكذا ينبغى على أئمة الحاج فَمَن دونهم؛ لأن فى استعجال السير الى المزدلفة استعجال الصلاة بها ، ومعلوم أن المغرب لا تصلّى تلك الليلة إلا مع العشاء بالمزدلفة، وتلك سنتها، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

ظاهر عموم القرآن والسنة الثابتة يدل على أن عرفة كلها موقف ؛ قال صلّى الله عليه وسلّم : "ووَقفتُ هاهنا وعرفة كلها موقف" . رواه مسلم وغيره من حديث جابر الطويل . وفى موطأ مالك أنه بلغه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "عرفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن عُرَنة والمزدلفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن مُحَسِّر" . قال ابن عبد البر : هذا الحديث يتصل من حديث جابر بن عبد الله ، ومن حديث ابن عباس، ومن

---

(١) الصخرات : هى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة ، وهو الجبل الذى بوسط أرض عرفات .

(٢) قال ابن الأثير : « وجعل حبل المشاة بين يديه» أى طريقهم الذى يسلكونه فى الرمل . وقيل : أراد صفهم ومجتمعهم فى مشيهم تشبيها بحبل الرمل » .

(٣) العنق (محركة) : سير سريع فسيح واسع للإبل والدابة . والفجوة : الموضع المتسع بين شيئين .

حديث علىّ بن أبى طالب، وأكثر الآثار ليس فيها استثناء بطن عرنة من عرفة، وبطن محسّر من المزدلفة ؛ وكذلك نقلها الحفّاظ الثّقات الأثبات من أهل الحديث فى حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر. قال أبو عمر: واختلف الفقهاء فيمن وقف بعرفة بعرنة؛ فقال مالك فيما ذكر ابن المنذر عنه : يهريق دما وحجه تام. وهذه رواية رواها خالد بن نزار عن مالك. وذكر أبو المصعب أنه كمن لم يقف وحجه فائت، وعليه الحج من قابل إذا وقف ببطن عرنة. وروى عن ابن عباس قال : من أفاض من عرنة فلا حج له . وهو قول ابن القاسم وسالم. وذكر ابن المنذر هذا القول عن الشافعىّ ، قال وبه أقول : لا يجزيه أن يقف بمكان أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ألا يوقف به . قال ابن عبد البر : الاستثناء ببطن عرنة من عرفة لم يجئ مجيئا تلزم حجته ، لا من جهة النقل ولا من جهة الإجماع . وحجة من ذهب مذهب أبى المصعب أن الوقوف بعرفة فرض مجمع عليه فى موضع معين، فلا يجوز أداؤه إلا بيقين؛ ولا يقين مع الاختلاف . وبطن عرنة يقال بفتح الراء وضمها ، وهو بغربى مسجد عرفة ؛ حتى لقد قال بعض العلماء : إن الجدار الغربى من مسجد عرفة لو سقط سقط فى بطن عرنة . وحكى الباجى عن ابن حبيب أن عرفة فى الحل، وعرنة فى الحرم. قال أبو عمر : وأما بطن محسّر فذكر وكيع : حدثنا سفيان عن أبى الزبير عن جابر أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أوضع (١) فى بطن محسّر.

السابعة — ولا بأس بالتعريف فى المساجد يوم عرفة بغير عرفة، تشبيها بأهل عرفة. روى شعبة عن قتادة عن الحسن قال : أول من صنع ذلك ابن عباس بالبصرة . يعنى اجتماع الناس يوم عرفة فى المسجد بالبصرة . وقال موسى بن أبى عائشة : رأيت عمرو بن حريث يخطب يوم عرفة وقد اجتمع الناس اليه . وقال الأثرم : سألت أحمد بن حنبل عن التعريف فى الأمصار ، يجتمعون يوم عرفة؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس ، قد فعله غير واحد : الحسن وبكر وثابت ومحمد بن واسع كانوا يشهدون المسجد يوم عرفة .

(١) الإيضاع : سير مثل الخبب . يقال : وضع البعير يضع وضعا، وأوضعه راكبه إيضاعا إذا حمله على سرعة السير .

الثامنـــة ــ فى فضل يوم عرفة . يوم عرفة فضله عظيم وثوابه جسيم ، يكفر الله فيه الذنوب العظام، ويضاعف فيه الصالح من الأعمال . قال صلّى الله عليه وسلّم : "صوم يوم عرفة يكفّر السنة الماضية والباقية" . أخرجه الصحيح . وقال صلّى الله عليه وسلّم : "أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" . وروى الدّارقطنى عن عائشة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "ما من يوم أكثرَ أن يُعتق الله فيه عددا من النار من يوم عرفة و إنه ليدنو عزّ وجلّ ثم يُباهى بهم الملائكة يقول ما أراد هؤلاء" . وفى الموطأ عن عبيد الله بن كَرِيز أن رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم قال : "ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدْحَر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لمــا رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر" . قيل : وما رأى [يوم بدر](١) يا رسول الله؟ قال : "أمَا إنه قد رأى جبريل يَزَع(٢) الملائكة" . قال أبو عمر : روى هذا الحديث أبو النضر اسماعيل بن ابراهيم العجلىّ عن مالك عن ابراهيم بن أبى عَبْلة عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن أبيه، ولم يقل فى هذا الحديث عن أبيه غيره وليس بشىء ، والصواب ما فى الموطأ . وذكر الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول ــ حدّثنا حاتم بن نعيم التميمى أبو روح قال حدّثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى قال حدّثنا عبد القاهر بن السرّى السُّلمى قال حدّثنى ابنٌ لكنانة بن عباس بن مرداس عن أبيــه عن جدّه عباس بن مرداس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا لأمته عشيّة عرفة بالمغفرة والرحمة، وأكثرَ الدعاء، فأجابه : أنى قد فعلت الا ظلم بعضهم بعضا فأما ذنوبهم فيما بينى و بينهم فقد غفرتها . قال : "يا رب إنك قادر أن تثيب هذا المظلوم خيرا من مظلمته وتغفر لهذا الظالم" فلم يجبه تلك العشية؛ فلما كان الغداة غداة المزدلفة اجتهد فى الدعاء فأجابه : إنى قد غفرت لهم؛ فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلم؛ فقيل له : تبسمت يا رسول الله فى ساعة لم تكن تتبسّم فيها؟ فقال : "تبسّمت

---

(١) زيادة عن الموطأ .

(٢) قوله : يزع الملائكة ، يرتبهم ويسويهم و يصفهم للحرب؛ فكأنه يكفهم عن التفرق والانتشار .

من عدوّ الله إبليس إنه لما علم أن الله قد استجاب لى فى أمتى أهوى يدعو بالويل والثبور ويحثى التراب على رأسه ويفرّ". وذكر أبو عبد الغنى الحسين (١) بن علىّ حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم عرفة غفر الله للحاج الخالص وإذا كان ليلة المزدلفة غفر الله للتجار وإذا كان يوم منًى غفر الله للجمالين وإذا كان يوم جمرة العقبة غفر الله للسؤال ولا يشهد ذلك الموقف خلق ممن قال لا إله الا الله إلا غفر له" . قال أبو عمر : هذا حديث غريب من حديث مالك ، وليس محفوظا عنه إلا من هذا الوجه، وأبو عبد الغنى لا أعرفه، وأهل العلم ما زالوا يسامحون أنفسهم فى روايات الرّغائب والفضائل عن كل أحد، إنما كانوا يتشدّدون فى أحاديث الأحكام .

التاسعة — استحب أهل العلم صوم يوم عرفة إلا بعرفة . روى الأئمة واللفظ للترمذىّ عن ابن عباس أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أفطر بعرفة ، وأرسلت اليه أمّ الفضل بلبن فشرب . قال : حديث حسن صحيح، وقد روى عن ابن عمر قال : حججت مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فلم يصمه — يعنى يوم عرفة — ومع أبى بكر فلم يصمه، ومع عمر فلم يصمه. والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، يستحبون الإفطار بعرفة ليتقوى به الرجل على الدعاء، وقد صام بعض أهل العلم يوم عرفة بعرفة » . وأسند عن ابن عمر مثل الحديث الأول، وزاد فى آخره : ومع عثمان فلم يصمه، وأنا لا أصومه ولا آمر به ولا أنهى عنه . حديث حسن . وذكره ابن المنذر . وقال عطاء فى صوم يوم عرفة : أصوم فى الشتاء ولا أصوم فى الصيف . وقال يحيى الأنصارى : يجب الفطر يوم عرفة . وكان عثمان بن أبى العاصى وابن الزبير وعائشة يصومون يوم عرفة . قال ابن المنذر : الفطر يوم عرفة بعرفات أحبّ الىّ اتباعا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، والصوم بغير عرفة أحبّ الىّ؛ لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد سئل عن صوم يوم عرفة فقال : "يكفر السنة الماضية والباقية" .

---

(١) فى نسخة من الأصل : « الحسن » . والذى يروى عن عبد الرزاق بن هشام الحميرى — أحد رجال هذا السند — هو الحسن بن علىّ الخلال أبو علىّ، وقيل أبو محمد .

وقد روينا عن عطاء أنه قال : من أفطر يوم عرفة ليتقوى على الدعاء فإن له مثل أجر الصائم .

العاشرة ــ فى قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ أى اذكروه بالدعاء والتلبية عند المشعر الحرام، ويسمى جَمْعًا لأنه يجمع ثَمّ المغرب والعشاء، قاله قتادة . وقيل : لاجتماع آدم فيه مع حواء وازدلف إليها، أى دنا منها، وبه سميت المزدلفة؛ ويجوز أن يقال: سمّيت بفعل أهلها، لأنهم يزدلفون إلى الله، أى يتقربون بالوقوف فيها . وسُمّى مَشْعَرًا من الشّعار وهو العلامة؛ لأنه معلم للحج والصلاة والمبيت به، والدعاء عنده من شعائر الحج؛ ووصف بالحرام لحرمته .

الحادية عشرة ــ ثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلّى المغرب والعشاء بالمزدلفة جميعا . وأجمع أهل العلم ــ لا اختلاف بينهم ــ أن السنة أن يجْمع الحاج بجمع بين المغرب والعشاء . واختلفوا فيمن صلّاها قبل أن يأتى جمعًا؛ فقال مالك : من وقف مع الإمام ودفع بدفعه فلا يصلّى حتى يأتى المزدلفة فيجمع بينهما . واستدل على ذلك بقوله صلّى الله عليه وسلّم لأسامة بن زيد : "الصلاة أمامك" . قال ابن حبيب : من صلّى قبل أن يأتى المزدلفة دون عذر يعيد متى ما عَلِم؛ بمنزلة من قد صلّى قبل الزوال؛ لقوله عليه السلام : "الصلاة أمامك" . وبه قال أبو حنيفة . وقال أشهب : لا إعادة عليه ، إلا أن يصليهما قبل مغيب الشفق فيعيد العشاء وحدها . وبه قال الشافعى ، وهو الذى نصره القاضى أبو الحسن ، واحتج له بأن هاتين صلاتان سنّ الجمع بينهما ، فلم يكن ذلك شرطا فى صحتهما، وإنما كان على معنى الاستحباب؛ كالجمع بين الظهر والعصر بعرفة. واختار ابن المنذر هذا القول، وحكاه عن عطاء ابن أبى رباح وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وسعيد بن جبير وأحمد وإسحاق وأبى ثور ويعقوب . وحكى عن الشافعى أنه قال: لا يصلى حتى يأتى المزدلفة، فإن أدركه نصف الليل قبل أن يأتى المزدلفة صلاهما .

الثانية عشرة — ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق فقد قال ابن حبيب : لا صلاة لمن عجل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق، لا لإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق؛ لقوله عليه السلام : "الصلاة أمامك" . ثم صلاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق . ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشفق ؛ فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما أخرت عنه .

الثالثة عشرة — وأما من أتى عرفة بعد دفع الإمام، أو كان له عذر ممن وقف مع الإمام فقد قال ابن المواز : من وقف بعد الإمام فليصلّ كل صلاة لوقتها . وقال مالك فيمن كان له عذر يمنعه أن يكون مع الإمام : إنه يصلى إذا غاب الشفق الصلاتين يجمع بينهما . وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتى المزدلفة ثلث الليل فليؤخر الصلاة حتى يأتى المزدلفة، وإلا صلى كل صلاة لوقتها . فجعل ابن المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة لمن وقف مع الإمام دون غيره ، وراعى مالك الوقت دون المكان، واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان، فإذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان، وكان مراعاة وقتها المختار أولى .

الرابعة عشرة — اختلف العلماء فى هيئة الصلاة بالمزدلفة على وجهين : أحدهما — الأذان والإقامة . والآخر — هل يكون جمعهما متصلا لا يفصل بينهما بعمل ، أو يجوز العمل بينهما وحطّ الرحال ونحو ذلك؛ فأما الأذان والإقامة فثبت أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلّى المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد وإقامتين . أخرجه الصحيح من حديث جابر الطويل ، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وابن المنذر . وقال مالك : يصليهما بأذانين وإقامتين، وكذلك الظهر والعصر بعرفة ، إلا أن ذلك فى أول وقت الظهر بإجماع . قال أبو عمر : لا أعلم فيما قاله مالك حديثا مرفوعا الى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بوجه من الوجوه، ولكنه روى عن عمر بن الخطاب، وزاد ابن المنذر ابن مسعود . ومن الحجة لمالك فى هذا الباب من جهة النظر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سنّ فى الصلاتين

بمزدلفة وعرفة أن الوقت لهما جميعا وقت واحد، وإذا كان وقتهما واحدا، وكانت كل صلاة تصلى في وقتها لم تكن واحدة منهما أولى بالأذان والإقامة من الأخرى ؛ لأن ليس واحدة منهما نقضى، وإنما هي صلاة تصلى في وقتها، وكل صلاة صليت في وقتها سنّتها أن يؤذّن لها وتقام في الجماعة، وهذا بيّن . والله أعلم . وقال آخرون : أما الأولى منهما فتصلّى بأذان وإقامة، وأما الثانية فتصلى بلا أذان ولا إقامة، وإنما أمر عمر بالتأذين الثاني؛ لأن الناس قد تفرقوا لعشائهم فأذّن ليجمعهم . قالوا : وكذلك نقول إذا تفرق الناس عن الإمام لعَشاء أو غيره، أمر المؤذنين فأذنوا ليجمعهم، وإذا أذن أقام . قالوا : فهذا معنى ما روى عن عمر، وذكروا حديث عبد الرحمن بن يزيد قال : كان ابن مسعود يجعل العَشاء بالمزدلفة بين الصلاتين وفي طريق أخرى، وصلى كل صلاة بأذان وإقامة . ذكره عبد الرزاق . وقال آخرون : تصلى الصلاتان جميعا بالمزدلفة بإقامة ولا أذان في شيء منهما . روى عن ابن عمر وبه قال الثوري . وذكر عبد الرزاق وعبد الملك بن الصباح عن الثوري عن سلمة بن كُهَيل عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء بجَمْع، صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة واحدة . وقال آخرون : تصلى الصلاتان جميعا بين المغرب والعشاء بجَمْع بأذان واحد وإقامة واحدة . وذهبوا في ذلك إلى مارواه هشيم عن يونس ابن عبيد عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه جمع بين المغرب والعشاء بجَمْع بأذان واحد وإقامة واحدة، لم يجعل بينهما شيئا . وروى مثل هذا مرفوعا من حديث خزيمة بن ثابت، وليس بالقوي . وحكى الجُوزْجاني (١) عن محمد بن الحسن عن أبي يوسف عن أبي حنيفة أنهما تصليان بأذان واحد وإقامتين، يؤذن للمغرب ويقام للعشاء فقط . وإلى هذا ذهب الطّحاوي لحديث جابر، وهو القول الأول وعليه المعوّل . وقال آخرون : تصلى بإقامتين دون أذان لواحدة منهما . وممن قال ذلك الشافعي وأصحابه وإسحاقَ وأحمد بن حنبل في أحد قوليه، وهو قول

---

(١) الجوزجاني (بجيم وواو وزاي معجمة ثم جيم أخرى) : هذه النسبة الى مدينة بخراسان مما يلي بلخ ؛ وهو أبو سليمان موسى بن سليمان، صاحب الامام محمد بن الحسن بن فرقد، أخذ الفقه عنه وروى كتبه .

سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد . واحتجوا بما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لما جاء بالمزدلفة جمع بين المغرب والعشاء، صلى المغرب ثلاثا والعشاء ركعتين بإقامة لكل واحدة منهما ولم يصلّ بينهما شيئا. قال أبو عمر: والآثار عن ابن عمر في هذا القول من أثبت ما روى عنه في هذا الباب، ولكنها محتملة للتأويل، وحديث جابر لم يختلف فيه فهو أولى؛ ولا مدخل في هذه المسألة للنظر، وإنما فيها الاتباع .

الخامسة عشرة — وأما الفصل بين الصلاتين بعمل غير الصلاة فثبت عن أسامة بن زيد أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت الصلاة فصلاها، ولم يصلّ بينهما شيئا . في رواية : ولم يحلّوا[(1)] حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ثم حلّوا. وقد ذكرنا آنفا عن ابن مسعود أنه كان يجعل العَشاء بين الصلاتين، ففي هذا جواز الفصل بين الصلاتين بجَمْع . وقد سئل مالك فيمن أتى المزدلفة : أيبدأ بالصلاة أو يؤخر حتى يحطّ عن راحلته ؟ فقال : أما الرَّحْل الخفيف فلا بأس أن يبدأ به قبل الصلاة ، وأما المحامل والزوامل فلا أدرى، وليبدأ بالصلاتين ثم يحط عن راحلته . وقال أشهب في كتبه : له حط رحله قبل الصلاة ، وحطّه له بعد أن يصلي المغرب أحبّ إلىّ ما لم يضطر إلى ذلك؛ لما بدابته من الثقل ، أو لغير ذلك من العذر . وأما التنفّل بين الصلاتين فقال ابن المنذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من السنة ألّا يتطوّع بينهما الجامع بين الصلاتين، وفي حديث أسامة : ولم يصلّ بينهما شيئا .

السادسة عشرة — وأما المبيت بالمزدلفة فليس ركنا من الحج عند الجمهور . واختلفوا فيما يجب على من لم يبت بالمزدلفة ليلة النحر ولم يقف بجَمْع؛ فقال مالك : من لم يبت بها فعليه دم، ومن قام بها أكثر ليله فلا شئ عليه ؛ لأن المبيت بها ليلة النحر سنة مؤكدة عند

(1) قوله : ولم يحلوا . هو من الحل بمعنى الفك ؛ أو من الحلول بمعنى النزول ؛ أى لم يفكوا ما على الجمال ؛ أو ما نزلوا تمام النزول الذى يريده المسافر البالغ منزله .

مالك وأصحابه، لا فرض . ونحوه قول عطاء والزهرىّ وقتادة وسفيان الثورى وأحمد و إسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأى فيمن لم يبت . وقال الشافعىّ : إن خرج منها بعد نصف الليل فلا شىء عليه، و إن خرج قبل نصف الليل فلم يعد الى المزدلفة افتدى، والفدية شاة . وقال عكرمة والشعبىّ والنخعىّ والحسن البصرى : الوقوف بالمزدلفة فرض، ومن فاته جَمْع ولم يقف فقد فاته الحج ، ويجعل إحرامه عُمرة . وروى ذلك عن ابن الزبير وهو قول الأوزاعىّ . وروى عن الثورى مثل ذلك، والأصح عنه أن الوقوف بها سنة مؤكدة . وقال حماد بن أبى سليمان : من فاتته الإفاضة من جَمْع فقد فاته الحج ، وليتحلل بعمرة ثم ليحج قابلًا . واحتجوا بظاهر الكتاب والسنة؛ فأما الكتاب فقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ . وأما السنة فقوله صلّى الله عليه وسلّم : " من أدرك جَمْعًا فوقف مع الناس حتى يُفيض فقد أدرك ومن لم يدرك ذلك فلا حج له " . ذكره ابن المنذر . وروى الدارقطنىّ عن عروة بن مضرّس : قال أتيت النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وهو بجمع فقلت له : يا رسول الله، هل لى من حج؟ فقال : "من صلّى معنا هذه الصلاة ثم وقف معنا حتى نفيض وقد أفاض [قبل][1] ذلك [من عرفات][1] ليلا أو نهارا فقد تم حجه وقضى تفثه" . فقال الشعبىّ : من لم يقف بجمع جعلها عمرة . وأجاب من احتج للجمهور بأن قال : أما الآية فلا حجة فيها على الوجوب فى الوقوف ولا المبيت، إذ ليس ذلك مذكورا فيها، و إنما فيها مجرد الذكر . وكلّ قد أجمع أنه لو وقف بمزدلفة ولم يذكر الله أن حجه تام ، فإذا لم يكن الذكر المأمور به من صلب الحج فشهود الموطن أولى بألا يكون كذلك . قال أبو عمر : وكذلك أجمعوا أن الشمس إذا طلعت يوم النحر فقد فات وقت الوقوف بجمع، وأن من أدرك الوقوف بها قبل طلوع الشمس فقد أدرك ، ممن يقول إن ذلك فرض ، ومن يقول إن ذلك سنة . وأما حديث عروة بن مضرس فقد جاء فى بعض طرقه بيان الوقوف بعرفة دون المبيت بالمزدلفة ، ومثله حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلى قال : شهدت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعرفة، وأتاه ناس من أهل نجد فسألوه عن الحج؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الحج عرفة ومن

(١) الزيادة عن الدارقطنى .

آدركها قبل أن يطلع الفجر من ليلة جَمْع فقد تم حجه" . ورواه النسائى قال : أخبرنا إسحاق ابن إبراهيم قال وكيع قال سفيان — يعنى الثورى — عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمَر الدِّيلى قال : شهدت ، فذكره . ورواه أبو عيينة عن بكير عن عبد الرحمن بن يعمَر الدِّيلى قال : شهدت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "الحج عرفات فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك وأيام مِنًى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا أثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه" . وقوله فى حديث عروة : "من صلّى صلاتنا هذه" . فذكر الصلاة بالمزدلفة ؛ فقد أجمع العلماء أنه لو بات بها ووقف ونام عن الصلاة فلم يصلّ مع الإمام حتى فاتته أن حجه تام . فلما كان حضور الصلاة مع الإمام ليس من صلب الحج كان الوقوف بالموطن الذى تكون فيه الصلاة أحرى أن يكون كذلك . قالوا : فلم يتحقق بهذا الحديث ذلك الفرض إلا بعرفة خاصة .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ كرر الأمر تأكيدا، كما تقول : ارمِ ارمِ . وقيل : الأول أمرٌ بالذكر عند المشعر الحرام . والثانى أمرٌ بالذكر على حكم الإخلاص. وقيل : المراد بالثانى تعديد النعمة وأمرٌ بشكرها . ثم ذكرهم بحال ضلالهم ليظهر قدر الإنعام فقال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ . والكاف فى «كما» نعت لمصدر محذوف، وما مصدرية أو كافة . والمعنى : اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة ، واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه . و إنْ، مخففة من الثقيلة ، يدل على ذلك دخول اللام فى الخبر . قاله سيبويه . الفراء : نافية بمعنى ما، واللام بمعنى الا ؛ كما قال :

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلما * حلّت عليك عقوبة الرحمن

أو بمعنى قد، أى قد كنتم ؛ ثلاثة أقوال . والضمير فى «قبله» عائد إلى الهدى . وقيل الى القرآن ، أى ما كنتم من قبل إنزاله إلا ضالين . وإن شئت على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، كناية عن غير مذكور . والأول أظهر، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ فيه أربع مسائل .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ قيل : الخطاب للحُمْس ، فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات ، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهى من الحرم ، وكانوا يقولون : نحن قطين الله[1] ، فينبغى لنا أن نعظم الحرم ، ولا نعظم شيئا من الحل ؛ وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام لا يخرجون من الحرم ، ويقفون بجمع ويفيضون منه ويقف الناس بعرفة ؛ فقيل لهم : أفيضوا مع الجملة . و « ثم » ليست فى هذه الآية للترتيب ، وإنما هى لعطف جملة كلام هى منها منقطعة . وقال الضحاك : المخاطب بالآية جملة الأمة ، والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام ؛ كما قال : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ وهو يريد واحدا . ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة . ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى ، وهى التى من المزدلفة ؛ فتجىء « ثم » على هذا الاحتمال على بابها . وعلى هذا الاحتمال عوّل الطبرى . والمعنى : أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم من مزدلفة ، أى ثم أفيضوا إلى منًى ؛ لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع .

قلت : ويكون فى هذا حجة لمن أوجب الوقوف بالمزدلفة ، للأمر بالإفاضة منها . والله أعلم . والصحيح فى تأويل هذه الآية من القولين القول الأول . روى الترمذى عن عائشة قالت : كانت قريش ومن كان على دينها وهم الحُمْس يقفون بالمزدلفة يقولون : نحن قطين الله ، وكان من سواهم يقفون بعرفة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ . هذا حديث حسن صحيح . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : الحُمْس هم الذين أنزل الله فيهم : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » . قالت : كان الناس يُفيضون من عرفات ، وكان الحمس يفيضون من المزدلفة ، يقولون : لا نُفيض إلا من الحرم ؛ فلما نزلت : « أفيضوا من حيث أفاض الناس » ، رجعوا إلى عرفات . وهذا نص صريح ، ومثله كثير صحيح ، فلا معوّل على غيره من الأقوال ، والله المستعان . وقرأ سعيد بن جبير « الناسى » وتأويله آدم عليه السلام ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ . ويجوز عند بعضهم تخفيف الياء

---

(١) قطين الله ، أى سكان حرمه ؛ والقطين جمع قاطن كالقطان .

فيقول : الناس ، كالقاض والهادِ . آبن عطيـة : أما جوازه فى العربيـة فذكره سيبويه ، وأما جوازه مقروءا به فلا أحفظه . وأمر تعـالى بالاستغفار لأنها مواطـنه ، ومظانّ القبول ومساقط الرحمة . وقالت فرقة : المعنى واستغفروا الله من فعلكم الذى كان مخالفا لسنة إبراهيم فى وقوفكم بقُزَح من المزدلفة دون عرفة .

الثانيـــة — روى أبو داود عن علىّ قال: فلما أصبح — يعنى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم — وقف على قُزَح فقال : "هذا قُزَحُ وهو الموقف وجَمْعٌ كلها موقف ونحرت هاهنا ومِنًى كلها مَنْحَر فآنحروا فى رحالكم". فحكمُ الحجيج إذا دفعوا من عرفة إلى المزدلفة أن يبيتوا بها، ثم يغلّس بالصبح الإمامُ بالناس ويقفون بالمشعر الحرام . والقُزَح هو الجبل الذى يقف عليه الإمام ، ولا يزالون يذكرون الله ويدعون إلى قرب طلوع الشمس ،ثم يدفعون قبل الطلوع ،على مخالفة العرب؛ فإنهم كانوا يدفعون بعد الطلوع ويقولون : أشْرِق ثَبِير[1]، كيما نُغِير، أى كيما نقرب من التحلّل فنتوصل إلى الإغارة . وروى النحاس عن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمر صلّى بجَمْع الصبح ثم وقف فقال : إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون : أشرق ثبير . وإن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم خالفهم فدفع قبل أن تطلع الشمس . وروى آبن عيينة عن آبن جريج عن محمد بن قيس بن مخرمة عن آبن طاوس عن أبيـه أن أهل الجاهلية كانوا يدفعون من عرفة قبل غروب الشمس ، وكانوا يدفعون من المزدلفة بعد طلوع الشمس ، فأخر رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم هذا، وعجّل هـذا أخر الدفع من عرفة، وعجّل الدفع من المزدلفة مخالفا هَدْى المشركين .

الثالثـــة — فإذا دفعوا قبل الطلوع فحكمهم أن يدفعوا على هيئة الدفع من عرفة، وهو أن يسير الإمام بالناس سير العَنَق، فإذا وجد أحدهم فُرْجة زاد فى العنق شيئا . والعَنَق مشْىٌ للدوابّ معروف لا يجهـل . والنّص فوق العنق، كالخَبَب أو فوق ذلك . وفى صحيح مسلم

(١) ثبير (بفتح المثلثة وكسر الموحدة وسكون التحتية) : جبـل عظيم بالمزدلفة على يسار الذاهب منها الى منى . هذا هو المراد ، وللعرب جبال أخر اسم كل منها ثبير . (عن زهر الربى للسيوطى) .

عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما وسئل : كيف كان يسير رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أفاض من عرفة ؟ قال : كان يسير العَنَق، فإذا وجد فَجْوة نصّ . قال هشام : والنّص فوق العنق . وقد تقدّم . ويستحب له أن يحرك فى بطن مُحَسِّر قدر رمية بحجر، فإن لم يفعل فلا حرج، وهو من مِنًى . روى الترمذى وغيره عن أبى الزبير عن جابر قال : دفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعليه السكينة وقال لهم : "أَوْضِعوا فى وادى مُحَسِّر". وقال لهم : "خذوا عنّى مناسككم". فإذا أتوا مِنًى وذلك غدوة يوم النحر، رموا جمرة العقبة بها ضُحًى ركبانا إن قدروا، ولا يستحب الركوب فى غيرها من الجمار، ويرمونها بسبع حَصَيات كل حصاة منها مثل حصى الخَذْف[1] ـ على ما يأتى بيانه ـ فاذا رموها حلّ لهم كل ما حُرِّم عليهم من اللباس والتّفث كله، إلا النساء والطيب والصيد عند مالك وإسحاق فى رواية أبى داود الخَفّاف عنه . وقال عمر بن الخطاب وابن عمر : يحلّ له كل شىء إلا النساء والطيب . ومن تطيّب عند مالك بعد الرمى وقبل الإفاضة لم ير عليه فدية، لما جاء فى ذلك . ومن صاد عنده بعد أن رمى جمرة العقبة وقبل أن يفيض كان عليه الجزاء . وقال الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور : يحلّ له كل شىء إلا النساء . وروى عن ابن عباس .

الرابعة ـ ويقطع الحاج التلبية بأول حصاة يرميها من جمرة العقبة، وعلى هذا أكثر أهل العلم بالمدينة وغيرها ، وهو جائز مباح عند مالك . والمشهور عنه قطعها عند زوال الشمس من يوم عرفة، على ما ذكر فى موطّاه عن علىّ، وقال : هو الأمر عندنا .

قلت : والأصل فى هذه الجملة من السنة ما رواه مسلم عن الفضل بن عباس ، وكان رديف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال فى عشية عرفة وغداة جَمْع للناس حين دفعوا : "عليكم بالسكينة" وهو كافٌّ[2] ناقته حتى دخل محسّرا ـ وهو من مِنًى ـ قال : "عليكم بحصى

(١) الخذف (بالخاء المعجمة المفتوحة والذال المعجمة الساكنة) : رميك حصاة أو نواة تأخذها بين الابهام والسبابة وترمى بها .

(٢) قوله : كاف ناقته . من الكف بمعنى المنع، أى يمنعها الاسراع .

الحذف الذى يُرمى به الجمرة " . وقال : لم يزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يلبّى حتى رمى جمرة العقبة — فى رواية — والنبىّ صلّى الله عليه وسلّم يشير بيده كما يخذف الإنسان . وفى البخارىّ عن عبد الله أنه أنتهى إلى الجمرة الكبرى جعل البيت عن يساره، ومنًى عن يمينه ورمى بسبع وقال : هكذا رمى الذى أنزلت عليه سورة البقرة صلّى الله عليه وسلّم . وروى الدارقطنىّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إذا رميتم وحلقتم وذبحتم فقد حلّ لكم كل شىء إلا النساء وحلّ لكم الثياب والطّيب " . وفى البخارىّ عن عائشة قالت : طيّبت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيدىّ هاتين ، حين أحْرم ، ولِحلّه حين أحلّ قبل أن يطوف ؛ وبسطت يديها . وهذا هو التحلل الأصغر عند العلماء، والتحلل الأكبر طواف الإفاضة، وهو الذى يحل النساء وجميع محظورات الإحرام، وسيأتى ذكره فى سورة «الحج» إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ قال مجاهد : المناسك الذبائح وهراقة الدماء . وقيل : هى شعائر الحج ؛ لقوله عليه السلام : "خذوا عنى مناسككم" . المعنى : فإذا فعلتم منسكا من مناسك الحج فاذكروا الله واثنوا عليه بآلائه عندكم . وأبو عمرو يدغم الكاف فى الكاف، وكذلك « ما سلككم »، لأنهما مثلان . وقضيتم هنا بمعنى أديتم وفرغتم، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ ﴾ أى أديتم الجمعة . وقد يعبر بالقضاء عما فعل من العبادات خارج وقتها المحدود لها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ كانت عادة العرب إذا قضت حجها تقف عند الجمرة، فتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم، وغير ذلك؛ حتى أن الواحد منهم ليقول : اللهمّ إن أبى كان عظيم القُبّة، عظيم الجَفْنة (١)، كثير المال؛ فاعطنى مثل ما أعطيته . فلا يذكر غير أبيه؛ فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم ذكر أيام الجاهلية . هذا قول جمهور المفسرين . وقال ابن عباس وعطاء والضحاك والربيع :

(١) الجفنة : أعظم ما يكون من القصاع .

معنى الآية واذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم : أبَهْ، أمّهْ، أى فاستغيثوا به والجئوا اليه كما كنتم تفعلون فى حال صغركم بآبائكم . وقالت طائفة: معنى الآية اذكروا الله وعظموه وذُبّوا عن حُرَمه، وادفعوا من أراد الشرك فى دينه ومشاعره، كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غضّ أحد منهم ، وتحمون جوانبهم وتذبّون عنهم . وقال أبو الجوزاء لابن عباس : إن الرجل اليوم لايذكر أباه، فما معنى الآية ؟ قال : ليس كذلك، ولكن أن تغضب لله تعالى اذا عصى أشدّ من غضبك لوالديك إذا شتما . والكاف من قوله «كذكركم» فى موضع نصب ، أى ذكرا كذكركم . أو أشد، قال الزجاج : أو أشدّ، فى موضع خفض عطفا على ذكركم ، المعنى : أو كأشـد ذكرا، ولم ينصرف لأنه أفعل صـفة ، ويجوز أن يكون فى موضـع نصب بمعنى أو اذكروه أشد . وذكرا، نصب على البيان .

قوله تعالى ــ ﴿ فَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾ من، فى موضع رفع بالابتداء، وإن شئت بالصفة . يقول ربنا آتنا فى الدنيا، صلة من ، والمراد المشركون . قال أبو وائل والسّدى وابن زيد: كانت عادة الجـاهلية أن تدعو فى مصالح الدنيا فقـط ، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظّفَر بالعدو، ولا يطلبون الآخرة، إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ، فنهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا . وجاء النهى فى صيغة الخبر عنهم . ويجوز أن يتناول هـذا الوعيد المؤمن أيضا إذا قصر دعواته فى الدنيا، وعلى هـذا فماله فى الآخرة من خلاق ، أى كخلاق الذى يسأل الآخرة . والخلاق النصيب . ومن زائدة، وقد تقدم .

قوله تعالى ــ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أى من النـاس وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة . واختلف فى تأويل الحسَنَتين على أقوال عديدة؛ فروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه أن الحسنة فى الدنيا المرأة الحسناء ، وفى الآخرة الحور العين . وقنا عذاب النـار : المرأة السوء .

قلت : وهذا فيه بُعد، ولا يصح عن عليّ؛ لأن النار حقيقة فى النار المحرقة ، وعبارة المرأة عن النار تجوّز . وقال قتادة : حسنة الدنيا العافية فى الصحة وكفاف المال . وقال الحسن : حسنة الدنيا العلم والعبادة . وقيل غير هذا . والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعم الدنيا والآخرة، وهذا هو الصحيح؛ فان اللفظ يقتضى هذا كله، فإن حسنة نكرة فى سياق الدعاء ، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل ، وحسنة الآخرة الجنة بإجماع . وقيل : لم يرد حسنة واحدة، بل أراد أعطنا فى الدنيا عطيّة حسنة، فحذف الاسم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أصل قنا اوْقِنَا ، حذفت الواو كما حذفت فى يقى ويشى؛ لأنها بين ياء وكسرة ، مثل يعد . هذا قول البصريين، وقال الكوفيون : حذفت فرقا بين اللازم والمتعدى . قال محمد بن يزيد : هذا خطأ لأن العرب تقول : وَرِمَ يَرِم، فيحذفون الواو . والمراد بالآية الدعاء فى ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه وتخرجه الشفاعة . ويحتمل أن يكون دعاء مؤكدا لطلب دخول الجنة ؛ لتكون الرغبة فى معنى النجاة والفوز من الطرفين؛ كما قال أحد الصحابة للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : أنا إنما أقول فى دعائى : اللهمّ أدخلنى الجنة وعافنى من النار، ولا أدرى ما دندنتك ولا دندنة[1] معاذ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حولها ندندن"[2] خرّجه أبو داود فى سننه وابن ماجه أيضا .

الثالثة — هذه الآية من جوامع الدعاء التى عمت الدنيا والآخرة، قيل لأنس : ادع الله لنا ؛ فقال : اللهمّ آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قالوا : زدنا . قال : ما تريدون ! قد سألت الدنيا والآخرة . وفى الصحيحين عن أنس قال : كان

---

(١) الدندنة : ان يتكلم الرجل الكلام تسمع نغمته ولا يفهم؛ وهو أرفع من الهينمة قليلا .

(٢) فى نهاية ابن الأثير واللسان : « حولهما » بالتثنية . فعلى الأوّل معناه حول مقالتك ، أى كلامنا قريب من كلامك . وعلى الثانى معناه حول الجنة والنار، أى فى طلبهما ندندن . ومنه دندن الرجل اذا اختلف فى مكان واحد مجيئا وذهابا .

أكثر دعوة يدعو بها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قال : فكان أنس اذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، فاذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . وفى حديث عمر أنه كان يطوف بالبيت ويقول : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ماله هِجِّيرَى[1] غيرها . ذكره أبو عبيد. وقال ابن جريج: بلغنى أنه كان يأمر أن يكون أكثر دعاء المسلم فى الموقف هذه الآية : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وقال ابن عباس : إن عند الركن ملَكا قائما منذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين ، فقولوا : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . وسئل عطاء بن أبى رَباح عن الركن اليمانىّ وهو يطوف بالبيت، فقال عطاء : حدّثنى أبو هريرة أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "وُكِّل به سبعون ملكا فمن قال اللّهمّ أنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار قالوا آمين " ، الحديث . خرّجه ابن ماجه فى السنن ، وسيأتى بكماله مسندا فى « الحج » إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ هذا يرجع الى الفريق الثانى ، فريق الإسلام ؛ أى لهم ثواب الحج أو ثواب الدعاء ، فان دعاء المؤمن عبادة . وقيل : يرجع «أولئك» الى الفريقين؛ فللمؤمن ثواب عمله ودعائه ، وللكافر عقاب شركه وقَصْرُ نظره على الدنيا . وهو مثل قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ .

الثانية ــ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ من سَرُع يَسْرُع ــ مثل عظم يعظم ــ سرعا وسُرْعة؛ فهو سريع . الحساب مصدر كالمحاسبة . وقد يسمى المحسوب حسابا .

---

(١) الهجير والهجيرى : الدأب والعادة والديدن .

والحساب العدّ ؛ يقال : حسَب يحسُب حِسابا وحِسَابة وحُسبانا وحِسبانا وحَسْباً أى عدّ .
وأنشد ابن الأعرابى :

يا جُمْلُ أسقاكِ بلا حِسابَهْ(١) * سُقْيَا مَليكٍ حَسَنِ الرِّبَابَهْ
* قَتَلْتِنِي بالدَّلّ والخِلابَهْ *

والحَسَب ما عدّ من مفاخر المرء . ويقال : حسبه دينه . ويقال : ماله ؛ ومنه الحديث "الحسب المال والكرم التقوى" رواه سَمُرة بن جندب ، أخرجه ابن ماجه ، وهو فى الشهاب أيضا . والرجل حسيب ، وقد حسُب حَسابة بالضم ، مثل خَطُب خَطابة . والمعنى فى الآية أن الله سبحانه سريع الحساب ، لا يحتاج الى عدّ ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحساب ؛ ولهذا قال وقوله الحق : ﴿ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "اللهمّ منزّل الكتاب سريع الحساب" الحديث . فالله جلّ وعزّ عالم بما للعباد وعليهم ، فلا يحتاج إلى تذكّر وتأمل ، إذ قد علم ما للمحاسَب وعليه ؛ لأن الفائدة فى الحساب علم حقيقته . وقيل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم . وقيل : المعنى لا يشغله شأن عن شأن ، فيحاسبهم فى حالة واحدة ؛ كما قال وقوله الحق : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ . قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر . وفى الخبر « إن الله يحاسب فى قدر حَلْب شاة » . وقيل : هو أنه إذا حاسب واحدا فقد حاسب جميع الخلق . وقيل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : كيف يحاسب الله العباد فى يوم ؟ قال : كما يرزقهم فى يوم . ومعنى الحساب تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ . وقيل : معنى الآية سريعٌ مجىء يوم الحساب . فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة .

---

(١) هكذا أورده الجوهرى فى الصحاح . وصواب انشاده : يا جمل أسقيت . أى أسقيت بلا حساب ولا هنداز . والربابة (بالكسر) : القيام على الشىء باصلاحه وتربيته . وفى الأصول الرياسة . والخلابة (بالكسر) : أن تخلب المرأة قلب الرجل بألطف القول وأعذبه .

قلت : والكل محتمل، فيأخذ العبد لنفسه فى تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخف الحساب فى الآخرة على من حاسب نفسه فى الدنيا .

الثالثة ـ قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ هو الرجل يأخذ مالاً يحج به عن غيره، فيكون له ثواب . وروى عنه فى هذه الآية أن رجلا قال : يا رسول الله، مات أبى ولم يحج، أفأحج عنه ؟ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "لو كان على أبيك دين فقضيته أما كان ذلك يجزى" . قال : نعم . قال : "فدين الله أحق أن يقضى" . قال : فهل لى من أجر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ يعنى من حج عن ميت كان الأجر بينه وبين الميت . قال أبو عبد الله محمد بن خُوَيْز منداد فى أحكامه : قول ابن عباس نحو قول مالك؛ لأن تحصيل مذهب مالك أن المحجوج عنه يحصل له ثواب النفقة والحجة للحاج، فكأنه يكون له ثواب بدنه وأعماله، وللمحجوج عنه ثواب ماله و إنفاقه، ولهذا قلنا : لا يختلف فى هـذا حكم من حج عن نفسه حجة الإسلام أو لم يحج؛ لأن الأعمال التى تدخلها النيابة لا يختلف حكم المستناب فيها بين أن يكون قـد أدّى عن نفسه أو لم يؤدّ، اعتبارا بأعمال الدين والدنيا . ألا ترى أن الذى عليه زكاة أو كفارة أو غير ذلك يجوز أن يؤدّى عن غيره وإن لم يؤدّ عن نفسه، وكذلك من لم يراع مصالحه فى الدنيا يصح أن ينوب عن غيره فى مثلها فتتم لغيره وإن لم تتم لنفسه، و يزوج غيره و إن لم يزوج نفسه .

⁂

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قال الكوفيون : الألف والتاء في « معدودات » لأقل العدد . وقال البصريون : هما للقليل والكثير ؛ بدليل قوله تعالى : « وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ » والغرفات كثيرة . ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام مِنًى ، وهي أيام التّشريق ، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها ، وهي أيام رَمْى الجِمَار ، وهي واقعة على الثلاثة الأيام التي يتعجّل الحاجّ منها في يومين بعد يوم النحر ؛ فقف على ذلك . وقال الثعلبيّ وقال إبراهيم : الأيام المعدودات أيام العشر ، والمعلومات أيام النحر ؛ وكذا حكى مكيّ والمهدويّ أن الأيام المعدودات هي أيام العشر . ولا يصح لما ذكرناه من الإجماع ، على ما نقله أبو عمر بن عبد البر وغيره . قال ابن عطية : وهذا إما أن يكون من تصحيف النّسخة ، وإما أن يريد العشر الذي بعد النحر ؛ وفي ذلك بُعْدٌ .

الثانية — أمر الله سبحانه وتعالى عباده بذكره في الأيام المعدودات ، وهي الثلاثة التي بعد يوم النحر وليس يوم النحر منها ؛ لإجماع الناس أنه لا يَنْفِر أحد يوم النَّفْر وهو ثاني يوم النحر ، ولو كان يوم النحر في المعدودات لساغ أن يَنْفِر من شاء متعجّلا يوم النَّفْر ؛ لأنه قد أخذ يومين من المعدودات . خرّج الدّارَقُطْنِيّ والترمذيّ وغيرهما عن عبد الرحمن ابن يَعْمَر الدِّيلِيّ أن ناسا من أهل نجد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعَرَفة فسألوه ؛

فأمر مناديا فنادى : "الحج عرفة فمن جاء ليلة جمع[1] قبل طلوع الفجر فقد أدرك أيام منى الثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه" أى من تعجل من الحاج فى يومين من أيام منى صار مقامه بمنى ثلاثة أيام بيوم النحر ، ويصير جميع رميه بتسع وأربعين حصاة ، ويسقط عنه رمى يوم الثالث . ومن لم ينفر منها إلا فى آخر اليوم الثالث حصل له بمنى مقام أربعة أيام من أجل يوم النحر ، واستوفى العدد فى الرمى ، على ما يأتى بيانه . ومن الدليل على أن أيام منى ثلاثة ــ مع ما ذكرناه ــ قول العرجى :

ما نلتقى إلا ثلاث منى * حتى يفرق بيننا النفر

فأيام الرمى معدودات ، وأيام النحر معلومات . وروى نافع عن ابن عمر أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام : يوم النحر وثلاثة أيام بعده ؛ فيوم النحر معلوم غير معدود ، واليومان بعده معلومان معدودان ، واليوم الرابع معدود لا معلوم ؛ وهذا مذهب مالك وغيره . وإنما كان كذلك لأن الأول ليس من الأيام التى تختص بمنى فى قوله سبحانه وتعالى : «وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ» ولا من التى عين النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : "أيام منى ثلاثة" فكان معلوما ؛ لأن الله تعالى قال : «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» ولا خلاف أن المراد به النحر ، وكان النحر فى اليوم الأول وهو يوم الأضحى والثانى والثالث ، ولم يكن فى الرابع نحر بإجماع من علمائنا ؛ فكان الرابع غير مراد فى قوله : «معلومات» لأنه لا ينحر فيه وكان مما يرمى فيه ؛ فصار معدودا لأجل الرمى ، غير معلوم لعدم النحر فيه . قال ابن العربى : والحقيقة فيه أن يوم النحر معدود بالرمى معلوم بالذبح ، لكنه عند علمائنا ليس مرادا فى قوله تعالى : «وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ» . وقال أبو حنيفة والشافعى : الأيام المعلومات العشر من أول ذى الحجة ، وآخرها يوم النحر ؛ لم يختلف قولهما فى ذلك ، ورويا ذلك عن ابن عباس . وروى الطحاوى عن أبى يوسف أن الأيام المعلومات أيام النحر . وقال أبو يوسف : روى ذلك عن عمر وعلى ؛ وإليه أذهب ؛

(١) جمع (بفتح فسكون) : علم المزدلفة .

لأنه تعالى قال : « وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ » . وحكى الكَرْخيّ عن محمد بن الحسن أن الأيام المعلومات أيام النحر الثلاثة : يوم الأضحى ويومان بعده . قال الكِيَا الطبريّ : فعلى قول أبي يوسف ومحمد لافرق بين المعلومات والمعدودات ؛ لأن المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف ولا يشك أحد أن المعدودات لا تتناول أيام العشر؛ لأن الله تعالى يقول : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » وليس في العشر حكم يتعلق بيومين دون الثالث . وقد روى عن ابن عباس أن المعلومات العشر، والمعدودات أيام التشريق؛ وهو قول الجمهور .

قلت : وقال ابن زيد : الأيام المعلومات عشر ذي الحجة وأيام التشريق، وفيه بُعْدٌ، لما ذكرناه، وظاهر الآية يدفعه . وجعل الله الذكر في الأيام المعدودات والمعلومات يدل على خلاف قوله، فلا معنى للاشتغال به .

الثالثة — ولا خلاف أن المخاطب بهذا الذكر هو الحاج، خوطب بالتكبير عند رَمْي الجمار وعلى ما رُزِق من بهيمة الأنعام في الأيام المعلومات، وعند أدبار الصلوات دون تلبية؛ وهل يدخل غير الحاج في هذا أم لا ؟ فالذي عليه فقهاء الأمصار والمشاهير من الصحابة والتابعين على أن المراد بالتكبير كل أحد — وخصوصا في أوقات الصلوات — فيكبّر عند انقضاء كل صلاة — كان المصلي وحده أو في جماعة — تكبيرا ظاهرا في هذه الأيام، اقتداء بالسلف رضي الله عنهم. وفي المختصر : ولا يكبّر النساء دُبُرَ الصلوات. والأول أشهر، لأنه يلزمها حكم الإحرام كالرجل؛ قاله في المدوّنة .

الرابعة — ومن نسي التكبير بإثر صلاة كبّر إن كان قريبا، وإن تباعد فلا شيء عليه؛ قاله ابن الجَلّاب. وقال مالك في المختصر : يكبّر ما دام في مجلسه، فإذا قام من مجلسه فلاشيء عليه . وفي المدوّنة من قول مالك : إن نسي الإمام التكبير فإن كان قريبا قعد فكبر، وإن تباعد فلا شيء عليه، وإن ذهب ولم يكبر والقوم جلوس فليكبّروا .

الخامسة ــ واختلف العلماء فى طرفى مدّة التكبير؛ فقال عمر بن الخطاب وعليّ بن أبى طالب وابن عباس : يُكبَّر من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق . وقال ابن مسعود وأبو حنيفة : يُكبّر من غَداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر . وخالفاه صاحباه فقالا بالقول الأوّل، قولِ عمر وعليّ رضى الله عنهم؛ فٱتفقوا فى الابتداء دون الانتهاء . وقال مالك : يكبر من صلاة الظهر يوم النحر الى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق؛ وبه قال الشافعيّ، وهو قول ابن عمر وابن عباس أيضا . وقال زيد بن ثابت : يكبّر من ظهر يوم النحر إلى آخر أيام التشريق . قال ابن العربى : فأما من قال يكبر يوم عرفة ويقطع العصر من يوم النحر فقد خرج عن الظاهر؛ لأن الله تعالى قال : « فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ » وأيامها ثلاثة؛ وقد قال هؤلاء : يُكبّر فى يومين؛ فتركوا الظاهر لغير دليل . وأما من قال يوم عرفة وأيام التشريق، فقال إنه قال : « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ » فذِكر عرفات داخل فى ذِكر الأيام؛ هذا كان يصح لو كان قال : يُكبر من المغرب يوم عرفة؛ لأن وقت الإفاضة حينئذ؛ فأما قبلُ فلا يقتضيه ظاهر اللفظ، ويلزمه أن يكون من يوم التروية عند الحلول بمِنى .

السادسة ــ واختلفوا فى لفظ التكبير؛ فمشهور مذهب مالك أن يكبر إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات؛ رواه زياد بن زياد عن مالك . وفى المذهب رواية يقال بعد التكبيرات الثلاث : لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد . وفى المختصر عن مالك : الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فيه إحدى وعشرون مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ ﴾ التعجيل أبدا لا يكون هنا إلا فى آخر النهار، وكذلك اليوم الثالث، لأن الرمى فى تلك الأيام إنما وقته بعد الزوال . وأجمعوا على أن يوم النحر لا تُرمَى فيه غير جمرة العقبة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرم يوم النحر من الجمرات غيرها، ووقتها من طلوع الشمس إلى الزوال، وكذلك أجمعوا أن وقت رمى الجمرات فى أيام

التشريق بعد الزوال إلى الغروب ؛ واختلفوا فيمن رمى جمرة العقبة قبل طلوع الفجر أو بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس؛ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد و إسحاق : جائز رميها بعد الفجر قبل طلوع الشمس . وقال مالك : لم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخّص لأحد يرمى قبل أن يطلع الفجر ، ولا يجوز رميها قبل الفجر ؛ فإن رماها قبل الفجر أعادها؛ وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه : لا يجوز رميها، و به قال أحمد و إسحاق . ورخّصت طائفة فى الرمى قبل طلوع الفجر؛ رُوى عن أسماء بنت أبى بكر أنها كانت ترمى بالليل وتقول : إنا كنا نصنع هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أخرجه أبو داود. ورُوى هذا القول عن عطاء وابن أبى مُليكة وعكرمة بن خالد، و به قال الشافعى إذا كان الرمى بعد نصف الليل. وقالت طائفة: لا يرمى حتى تطلع الشمس؛ قاله مجاهد والنخعى والثورى . وقال أبو ثور: إن رماها قبل طلوع الشمس فإن اختلفوا فيه لم يجزه، و إن أجمعوا وكانت فيه سنة أجزأه . قال أبو عمر : أما قول الثورى ومن تابعه فحجته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى الجمرة بعد طلوع الشمس وقال : "خذوا عنِّى مناسككم" . وقال ابن المنذر : السنة أن لا ترمى إلا بعد طلوع الشمس، ولا يجزئ الرمى قبل طلوع الفجر؛ فإن رمى أعاد، إذ فاعله مخالف لما سنّه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمّته . ومن رماها بعد طلوع الفجر قبل طلوع الشمس فلا إعادة عليه، إذ لا أعلم أحدا قال لا يجزئه .

الثانيــة — روى معمر قال أخبرنى هشام بن عروة عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سَلمة أن تُصبح بمكة يوم النحر وكان يومها . قال أبو عمر : اختلف على هشام فى هذا الحديث؛ فروته طائفة عن هشام عن أبيه مرسلا كما رواه معمر، ورواه آخرون عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أمّ سلمة بذلك مسندا ، ورواه آخرون عن هشام عن أبيه عن زينب بنت أبى سلمة عن أمّ سلمة مسندا أيضا، وكلهم ثقات . وهو يدل على أنها رمت الجمرة بمنى قبل الفجر؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن تصبح بمكة يوم النحر، وهذا لا يكون إلا وقد رمت

الجمرة بمنًى ليلا قبل الفجر، والله أعلم . و رواه أبو داود قال حدّثنا هارون بن عبد الله قال حدّثنا ابن أبي فُدَيك عن الضحاك بن عثمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمّ سلمة ليلة النحر فرمت الجمرة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت، وكان ذلك اليوم [اليوم](1) الذى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها . و إذا ثبت فالرّمى بالليل جائز لمن فعله؛ والاختيار من طلوع الشمس إلى زوالها . قال أبو عمر : وأجمعوا أنه إن رماها قبل غروب الشمس من يوم النحر فقد أجزأ عنه ولا شيء عليه، إلا مالكا فانه قال : أستحب له إن ترك جمرة العقبة حتى أمسى أن يُهَرِيق دمًا يجيء به من الحل . واختلفوا فيمن لم يرْمها حتى غابت الشمس فرماها من الليل أو من الغد؛ فقال مالك : عليه دم، واحتج بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّت لرمى الجمرة وقتًا وهو يوم النحر، فمن رمى بعد غروب الشمس فقد رماها بعد خروج وقتها ، ومن فعل شيئا فى الحج بعد وقته فعليه دم . وقال الشافعيّ : لا دم عليه؛ وهو قول أبي يوسف ومحمد، وبه قال أبو ثور؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له السائل : يارسول الله، رميتُ بعد ما أمسيتُ . فقال : "لا حرج" قال مالك : من نسى رمى الجمار حتى يمسى فليرم أيّة ساعة ذكر من ليل أو نهار، كما يصلى أيّة ساعة ذَكَر، ولا يرمى إلا مافاته خاصة، وإن كانت جمرة واحدة رماها ثم يرمى مارمى بعدها من الجمار ؛ فان الترتيب فى الجمار واجب، فلا يجوز أن يشرع فى رمى جمرة حتى يكمل رمى الجمرة الأولى كركعات الصلاة ؛ هذا هو المشهور من المذهب . وقيل : ليس الترتيب بواجب فى صحة الرمى ، بل إذا كان الرمى كله فى وقت الأداء أجزأه .

الثالثة — فاذا مضت أيام الرّمى فلا رمى، فإن ذَكَر بعد ما يَصدُر وهو بمكة أو بعد ما يخرج منها فعليه الهَدْيُ، وسواء ترك الجمار كلها أو جمرة منها أو حصاة من جمرة حتى خرجت أيام منًى فعليه دم . وقال أبو حنيفة : إن ترك الجمار كلها فعليه دم، و إن ترك جمرة واحدة

(١) زيادة عن سنن أبي داود .

كان عليه بكل حصاة من الجمرة إطعام مسكين نصف صاع، إلى أن يبلغ دمًا فيطعم ماشاء، إلا جمرة العقبة فعليه دم . وقال الأوزاعيّ : يتصدّق إن ترك حصاة . وقال الثوريّ : يطعم في الحصاة والحصاتين والثلاث، فان ترك أربعة فصاعدًا فعليه دم . وقال الليث : في الحصاة الواحدة دم؛ وهو أحد قولي الشافعي . والقول الآخر وهو المشهور : إن في الحصاة الواحدة مُدًّا من طعام، وفي حصاتين مُدّين وفي ثلاث حصيات دمٌ .

الرابعــة — ولا سبيل عنـد الجميع إلى رَمْي ما فاته من الجمـار في أيام التشريق حتى غابت الشمس من آخرها، وذلك اليوم الرابع من يوم النحر وهو الثـالث من أيام التشريق، ولكن يجزئه الدم أو الاطعام على حسب ما ذكرنا .

الخامســة — ولا تجوز البَيْتُوتة بمكة وغيرها عن مِنًى ليالي التشريق؛ فإن ذلك غيرجائز عند الجميع إلا للرِّعاء ولمن وَلِيَ السِّقاية من آل العباس . قال مالك : من ترك المبيت ليلة من ليـالي مِنًى من غير الرِّعاء وأهل السقاية فعليـه دم . روى البخاريّ عن ابن عمـر أن العباس استأذن النبيّ صلى الله عليـه وسلم ليبيت بمكة ليالي مِنًى من أجل سقايته فأذن له . قال ابن عبد البر : كان العباس ينظر في السقاية ويقوم بأمرها ، ويسقي الحاج شرابهـا أيام الموسم؛ فلذلك أُرخص له في المبيت عن مِنًى، كما أرخص لرعاء الإبل من أجل حاجتهـم لرعي الإبل وضرورتهم إلى الخروج بها نحو المراعي التي تبعد عن مِنًى .

وسُمّيت مِنًى «مِنًى» لمـا يُمْنَى فيها من الدماء، أي يُراق . وقال ابن عباس : انمـا سُمّيت مِنًى لأن جبريل قال لآدم عليـه السلام : تمنّ . قال : أتمنّى الجنة ؛ فسُمِّيت مِنًى . قال : وإنمـا سميت جَمْعًا لأنه اجتمع بها حوّاء وآدم عليهما السلام، والجمع أيضا هو المزدلفة ، وهو المَشْعَر الحرام، كما تقدّم[2] .

السادســة — وأجمع الفقهاء على أن المبيت للحـاجّ غير الذين رُخِّص لهم ليالي مِنًى بمِنًى من شعائر الحج ونُسكه ، والنظر يوجب على كل مسقط لنسكه دمًا؛ قياسا على سائر الحج ونسكه .

---

(١) زيادة من الموطأ . (٢) راجع جـ ٢ ص ... طبعة ثانية .

وفى موطأ مالك عن نافع عن ابن عمر قال قال عمر : لا يبيتنّ أحد من الحاج [ليالى مِنًى](١) من وراء العَقَبة . والعقبة التى منع عمر أن يبيت أحد وراءها هى العقبة التى عند الجمرة التى يرميها الناس يوم النحر مما يلى مكة . رواه ابن نافع عن مالك فى المبسوط ، قال وقال مالك : ومن بات وراءها ليالى مِنًى فعليه الفدية ؛ وذلك أنه بات بغير مِنًى ليالى مِنًى ، وهو مبيت مشروع فى الحج فلزم الدم بتركه كالمبيت بالمزدلفة ، ومعنى الفِدْيَة هنا عند مالك الهَدْىُ . قال مالك : هو هَدْىٌ يُساق من الحِلّ إلى الحرم .

السابعة ــ روى مالك عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه أن أبا البَدّاح بن عاصم بن عدىّ أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرخص لرِعاء الإبل فى البيتوتة عن مِنًى يرمون يوم النحر ثم يرمون الغد ومن بعد الغد ليومين ، ثم يرمون يوم النَّفر . قال أبو عمر : لم يقل مالك بمقتضى هذا الحديث ، وكان يقول : يرمون يوم النحر ــ يعنى جمرة العقبة ــ ثم لا يرمون من الغد ؛ فإذا كان بعد الغد وهو الثانى من أيام التشريق وهو اليوم الذى يتعجّل فيه النفر من يريد التّعجيل أو من يجوز له التعجيل رموا اليومين لذلك اليوم ولليوم الذى قبله ؛ لأنهم يقضون ما كان عليهم ، ولا يقضى أحد عنده شيئا إلا بعد أن يجب عليه ؛ هذا معنى ما فسّر به مالك هذا الحديث فى موطّئه . وغيره يقول : لا بأس بذلك كله على ما فى حديث مالك ، لأنها أيام رمى كلها ، وإنما لم يجز عند مالك للرعاء تقديم الرمى لأن غير الرعاء لا يجوز لهم أن يرموا فى أيام التشريق شيئا من الجمار قبل الزوال ، فإن رمى قبل الزوال أعادها ؛ ليس لهم التقديم . وإنما رخص لهم فى اليوم الثانى إلى الثالث . قال ابن عبد البر : الذى قاله مالك فى هذه المسألة موجود فى رواية ابن جُريج قال : أخبرنى محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه أن أبا البَدّاح بن عاصم بن عدىّ أخبره أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أرخص للرِّعاء أن يتعاقبوا فيرموا يوم النحر ثم يدعوا يوما وليلة ثم يرمون الغد . قال علماؤنا : ويسقط رمى الجمرة الثالثة عمن تعجل . قال ابن أبى زَمَنِين(٢)

(١) زيادة عن الموطأ . (٢) هو محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبى زمنين المرى من أهل ألبيرة ، وهى بلدة بالأندلس . (عن التكملة لكتاب الصلة) .

يرميها يوم النفر الأوّل حين يريد التعجيل . قال ابن المَوّاز : يرمى المتعجل فى يومين بإحدى وعشرين حصاة، كل جمرة بسبع حصيات، فيصير جميع رميه بتسع وأربعين حصاة، لأنه قد رمى جمرة العقبة يوم النحر بسبع . قال ابن المنذر : ويسقط رمى اليوم الثالث .

الثامنــة — روى مالك عن يحيى بن سعيد عن عطاء بن أبى رباح أنه سمعه يذكر أنه أرخص للرِّعاء أن يرموا بالليل ، يقول فى الزمن الأوّل . قال الباجى : «قوله فى الزمن الأوّل يقتضى إطلاقه زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه أوّل زمان هذه الشريعة ؛ فعلى هذا هو مرسل . ويحتمل أن يريد به أوّل زمن أدركه عطاء ؛ فيكون موقوفا متصلا[(١)] » والله أعلم .

قلت : هو مسند من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، خرّجه الدارقطنيّ وغيره، وقد ذكرناه فى « المقتبس فى شرح موطأ مالك بن أنس » ؛ وإنما أبيح لهم الرمى بالليل لأنه أرفق بهم وأحوط فيما يحاولونه من رعى الإبل ؛ لأن الليل وقت لا ترعى فيه ولا تنتشر؛ فيرمون فى ذلك الوقت . وقد اختلفوا فيمن فاته الرمى حتى غربت الشمس؛ فقال عطاء : لا رمى بالليل إلا لرعاء الإبل، فأما التجار فلا . ورُوى عن ابن عمر أنه قال : من فاته الرمى حتى تغيب الشمس فلا يرم حتى تطلع من الغد ، وبه قال أحمد وإسحاق . وقال مالك : إذا تركه نهارا رماه ليلا، وعليه دم فى رواية ابن القاسم، ولم يذكر فى الموطأ أن عليه دمًا . وقال الشافعيّ وأبو ثور ويعقوب ومحمد : إذا نسى الرمى حتى أمسى يرمى ولا دم عليه . وكان الحسن البصرى يرخص فى رمى الجمار ليلا . وقال أبو حنيفة : يرمى ولا شيء عليه، وإن لم يذكرها من الليل حتى يأتى الغد فعليه أن يرميها وعليه دم . وقال الثوريّ : إذا أخر الرمى الى الليل ناسيا أو متعمدا أهرق دمًا .

قلت : أما من رمى من رعاء الإبل أو أهل السِّقاية بالليل فلا دم يجب ، للحديث؛ وإن كان من غيرهم فالنظر يوجب الدم لكن مع العمد؛ والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : « موقوفا مسندا » والتصويب عن شرح الباجى للموطأ .

التاسعة ــ ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى جمرة العقبة يوم النحر على راحلته . واستحب مالك وغيره أن يكون الذى يرميها راكبا . وقد كان ابن عمر وابن الزبير وسالم يرمونها وهم مُشاة ، ويرمى فى كل يوم من الثلاثة بإحدى وعشرين حصاة ، يكبر مع كل حصاة ، ويكون وجهه فى حال رميه إلى الكعبة ، ويرتّب الجمرات ويجمعهنّ ولا يفرّقهنّ ولا ينكسهنّ ؛ يبدأ بالجمرة الأولى فيرميها بسبع حَصَيات رَمْيًا ولا يضعها وَضْعًا ؛ كذلك قال مالك والشافعىّ وأبو ثور وأصحاب الرأى ؛ فإن طرحها طَرْحًا جاز عند أصحاب الرأى . وقال ابن القاسم : لا تجزئ فى الوجهين جميعا ؛ وهو الصحيح ، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يرميها ، ولا يرمى عندهم بحصاتين أو أكثر فى مرّة ؛ فإن فعل عدّها حصاة واحدة ، فإذا فرغ منها تقدّم أمامها فوقف طويلا للدعاء بما تيسّر . ثم يرمى الثانية وهى الوسطى وينصرف عنها ذات الشمال فى بطن المسيل ، ويطيل الوقوف عندها للدعاء . ثم يرمى الثالثة بموضع جمرة العقبة بسبع حصيات أيضا ، يرميها من أسفلها ولا يقف عندها ، ولو رماها من فوقها أجزأه ، ويكبر فى ذلك كله مع كل حصاة يرميها . وسُنّة الذِّكر فى رمى الجمار التكبير دون غيره من الذكر ، ويرميها ماشيا بخلاف جمرة يوم النحر ؛ وهذا كله توقيف رفعه النّسائىّ والدّارَقُطْنىّ عن الزُّهرىّ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رمى الجمرة التى تلى المسجد ــ مسجد مِنًى ــ يرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم تقدّم أمامها فوقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو ، وكان يطيل الوقوف . ثم يأتى الجمرةَ الثانية فيرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ، ثم ينحدر ذات اليسار مما يلى الوادى فيقف مستقبل القبلة رافعا يديه ثم يدعو . ثم يأتى الجمرة التى عند العقبة فيرميها بسبع حصيات ، يكبر كلما رمى بحصاة ثم ينصرف ولا يقف عندها . قال الزهرىّ : سمعت سالم بن عبد الله يحدّث بهذا عن أبيه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : وكان ابن عمر يفعله ، لفظ الدّارَقُطْنِىّ .

العاشرة ــ وحكم الجمار أن تكون طاهرة غير نجسة ، ولا مما رُمى به ؛ فإن رَمى بما قد رُمى به لم يجزه عند مالك ، وقد قال عنه ابن القاسم : إن كان ذلك فى حصاة واحدة أجزأه ، ونزلت بابن القاسم فأفتاه بهذا .

الحادية عشرة — واستحب أهل العلم أخذها من المُزْدلِفة لا من حصَى المسجد، فإن أخذ زيادة على مايحتاج وبقى ذلك بيده بعد الرمى دفنه ولم يطرحه؛ قاله أحمد بن حنبل وغيره.

الثانية عشرة — ولا تُغسل عند الجمهور خلافا لطاوس، وقد رُوى أنه لو لم يغسل الجمار النجسة أو رمى بما قد رُمى به أنه أساء وأجزأ عنه. قال ابن المنذر: يكره أن يرمى بما قد رُمى به، ويجزئ ان رمى به، إذ لا أعلم أحدا أوجب على من فعل ذلك الإعادة، ولا نعلم فى شىء من الأخبار التى جاءت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه غسل الحصا ولا أمر بغسله، وقد روينا عن طاوس أنه كان يغسله.

الثالثة عشرة — ولا يجزئ فى الجمار المَدَر[(١)] ولا شىء غير الحجر؛ وهو قول الشافعىّ وأحمد وإسحاق. وقال أصحاب الرأى: يجوز بالطين اليابس، وكذلك كل شىء رماها من الأرض فهو يجزئ. وقال الثورى: من رمى بالخَزَف والمَدَر لم يُعد الرّمى. قال ابن المنذر: لا يجزئ الرّمى إلا بالحصا، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "عليكم بحصى الخَذْف[(٢)]". وبالحصا رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الرابعة عشرة — واختلف فى قدر الحصا؛ فقال الشافعىّ: يكون أصغر من الأنملة طولا وعرضا. وقال أبو ثور وأصحاب الراى: بمثل حصى الخذف، وروينا عن ابن عمر أنه كان يرمى الجمرة بمثل بعر الغنم؛ ولا معنى لقول مالك: أكبر من ذلك أحبّ الىّ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم سنّ الرّمى بمثل حصى الخذف، ويجوز أن يرمى بما وقع عليه اسم حصاة، واتباع السنة أفضل؛ قاله ابن المنذر.

قلت: وهو الصحيح الذى لا يجوز خلافه لمن اهتدى واقتدى. روى النّسائىّ عن ابن عباس قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم غَداةَ العقبة وهو على راحلته: "هَاتِ ٱلْقُطْ لِى —

---

(١) المدر (بالتحريك): قطع الطين اليابس. وقيل: الطين العِلْك الذى لا رمل فيه.

(٢) الخذف (بفتح الخاء وسكون الذال): رميك بحصاة أو نواة تأخذها بين سبابتيك وترمى بها، أو تجعل مخذفة من خشب ترمى بها بين الإبهام والسبابة. والمراد بحصى الخذف، الحصى المتماثل الى الصغر.

فلقطت له حصيات من حصى الخذف، فلما وضعتهن فى يده قال: — بأمثال هؤلاء و إياكم والغلو فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين". فدلّ قوله: "و إياكم والغلو فى الدين" على كراهة الرمى بالجمار الكبار، وأن ذلك من الغلو، والله أعلم.

الخامسة عشرة — ومن بقى فى يده حصاة لا يدرى من أى الجمار هى جعلها من الأولى، ورمى بعدها الوسطى والآخرة، فإن طال استأنف جميعا.

السادسة عشرة — قال مالك والشافعى وعبد الملك وأبو ثور وأصحاب الرأى فيمن قدّم جمرة على جمرة: لا يجزئه إلا أن يرمى على الوَلاء. وقال الحسن وعطاء وبعض الناس: يجزئه. واحتج بعض الناس بقول النبى صلى الله عليه وسلم: "من قدّم نُسُكا بين يدى نُسُك فلا حرج — وقال: — لا يكون هذا بأكثر من رجل اجتمعت عليه صلوات أو صيام فقضى بعضا قبل بعض". والأوّل أحوط، والله أعلم.

السابعة عشرة — واختلفوا فى رمى المريض والرمى عنه، فقال مالك: يُرمَى عن المريض والصبىّ اللذين لا يطيقان الرمى، ويتحرّى المريض حين رميهم فيكبّر سبع تكبيرات لكل جمرة وعليه الهَدْىُ، و إذا صحّ المريض فى أيام الرمى رمَى عن نفسه، وعليه مع ذلك دمٌ عند مالك. وقال الحسن والشافعى وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى: يُرمَى عن المريض، ولم يذكروا هَدْيا. ولا خلاف فى الصبىّ الذى لا يقدر على الرمى أنه يُرمَى عنه، وكان ابن عمر يفعل ذلك.

الثامنة عشرة — روى الدّارَقُطْنِىّ عن أبى سعيد الخدرى قال قلنا: يا رسول الله هذه الجمار التى يُرمَى بها كلّ عام فنحسب أنها تنقص، فقال: "إنه ما تُقبّل منها رُفع ولولا ذلك لرأيتها أمثال الجبال".

التاسعة عشرة — قال ابن المنذر: وأجمع أهل العلم على أن لمن أراد الخروج من الحاجّ من مِنًى شاخصا إلى بلده خارجا عن الحَرَم غير مقيم بمكة فى النَّفْر الأوّل أن ينفر بعد زوال الشمس إذا رمى فى اليوم الذى يلى يوم النحر قبل أن يمسى (١)؛ لأن الله جلّ ذكره قال: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» فلينفر من أراد النفر ما دام فى شىء من النهار. وقد روينا عن

(١) فى الأصول: «النفر». والتصويب عن الباجى.

النّخعيّ والحسن أنهما قالا : من أدركه العصر وهو بمنًى من اليوم الثانى من أيام التشريق لم ينفر حتى الغد . قال ابن المنذر : وقد يحتمل أن يكونا قالا ذلك استحبابا؛ والقول الأوّل به نقول، لظاهر الكتاب والسنة .

الموفية عشرين ــ واختلفوا فى أهل مكة هل ينفرون النفر الأوّل؛ فروينا عن عمر ابن الخطاب أنه قال : من شاء من الناس كلّهم أن ينفروا فى النفر الأوّل ، إلا آل خُزيمة فلا ينفرون إلا فى النفر الآخر . وكان أحمد بن حنبل يقول : لا يعجبنى لمن نفر النفر الأوّل أن يقيم بمكة، وقال : أهل مكة أخف . وجعل أحمد و إسحاق معنى قول عمر بن الخطاب «إلا آل خزيمة» أى أنهم أهل حَرَم . وكان مالك يقول فى أهل مكة : من كان له عذر فله أن يتعجّل فى يومين، فإن أراد التخفيف عن نفسه مما هو فيه من أمر الحج فلا ؛ فرأى التعجيل لمن بَعُدَ قُطره . وقالت طائفة : الآية على العموم، والرخصة لجميع الناس، أهل مكة وغيرهم، أراد الخارج عن مِنًى المقام بمكة أو الشخوص إلى بلده . وقال عطاء : هى للناس عامة . قال ابن المنذر : وهو يشبه مذهب الشافعيّ ، وبه نقول . وقال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعيّ : من نفر فى اليوم الثانى من الأيام المعدودات فلا حرج ، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج ؛ فمعنى الآية كل ذلك مباح، وعبّر عنه بهذا التقسيم اهتماما وتأكيدا، إذ كان من العرب من يذمّ المتعجل و بالعكس ؛ فنزلت الآية رافعة للجُنَاح فى كل ذلك . وقال علىّ بن أبى طالب وابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعيّ أيضا : معنى من تعجّل فقد غفر له، ومن تأخر فقد غفر له ؛ واحتجوا بقوله عليه السلام : "من حج هذا البيت فلم يَرْفُث ولم يفسُق خرج من خطاياه كيوم ولدته أمه". فقوله : «فلا إثم عليه» نفى عام وتبرئة مطلقة . وقال مجاهد أيضا : معنى الآية من تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام المقبل . وأسند فى هذا القول أثر . وقال أبو العالية فى الآية : لا إثم عليه لمن اتقى بقية عمره، والحاج مغفور له ٱلبتّةَ، أى ذهب إثمه كله إن اتقى الله فيما بقى من عمره . وقال أبو صالح وغيره : معنى الآية لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنّبه فى الحج . وقال أيضا : لمن اتقى فى حجه فأتى به تاما حتى كان مبرورا .

الحادية والعشرون ـ «من» في قوله «فَمَنْ تَعَجَّلَ» رفع بالابتداء، والخبر فلا إثم عليه. ويجوز في غير القرآن فلا إثم عليهم؛ لأن معنى «من» جماعة؛ كما قال جلّ وعزّ: «وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» وكذا «وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ». واللام من قوله «لِمَنِ اتَّقَى» متعلقة بالغفران، التقدير المغفرة لمن اتقى؛ وهذا على تفسير ابن مسعود وعليّ. قال قتادة: ذُكر لنا أن ابن مسعود قال: إنما جعلت المغفرة لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي. وقال الأخفش: التقدير ذلك لمن اتقى. وقال بعضهم: لمن اتقى يعني قتل الصيد في الإحرام وفي الحَرَم. وقيل: التقدير الإباحة لمن اتقى؛ روى هذا عن ابن عمر. وقيل: السلامة لمن اتقى. وقيل: هي متعلقة بالذكر الذي في قوله تعالى: «وَاذْكُرُوا» أي الذكر لمن اتقى. وقرأ سالم بن عبد الله «فلا آثم عليه» بوصل الألف تخفيفا؛ والعرب قد تستعمله. قال الشاعر:

* إن لم أقاتل فالبسوني بُرْقعا *

ثم أمر الله تعالى بالتقوى وذكّر بالحشر والوقوف.

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ لما ذكر الذين قصرت همتهم على الدنيا ـ في قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا» ـ والمؤمنين الذين سألوا خير الدارين ذكر المنافقين؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأسرّوا الكفر. قال السدّي وغيره من المفسرين: نزلت في الأخنس بن شَريق، واسمه أُبيّ، والأخنس لقب لُقّب به؛ لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من حلفائه من بني زُهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ما يأتي في «آل عمران» بيانه. وكان رجلا حلوَ القول والمَنْظر، فجاء بعد ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأظهر الإسلام وقال: الله يعلم أني صادق؛ ثم هرب بعد ذلك، فمرّ بزرع لقوم

من المسلمين وبُحُر فأحرق الزرع وعقر الحمر. قال المهدوى: وفيه نزلت «وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ» و«وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ». قال ابن عطية: ماثبت قط أن الأخنس أسلم. وقال ابن عباس: نزلت فى قوم من المنافقين تكلموا فى الذين قُتلوا فى غزوة الرَّجيع: عاصم بن ثابت، وخُبَيب، وغيرهم؛ وقالوا: وَيْحَ هؤلاء القوم لاهُمْ قعدوا فى بيوتهم، ولاهم أدّوا رسالة صاحبهم؛ فنزلت هـذه الآية فى صفات المنافقين، ثم ذكر المستشهدين فى غزوة الرجيع فى قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ». وقال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء: نزلت فى كل مُبْطن كفرا أو نفاقا أو كذبا أو إضرارا، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك؛ فهى عامة، وهى تشبه ما ورد فى الترمذى أن فى بعض كتب الله تعالى: إن من عباد الله قوما ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمرّ من الصَّبر، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، يشترون الدنيا بالدّين، يقول الله تعالى: أَبِى يغترّون وعلىّ يجترئون فبى حلفت لأتيحنّ لهم فتنة تدع الحليم منهم حيران. ومعنى «وَيُشْهِدُ اللَّهَ» أى يقول: الله يعلم أنى أقول حقا. وقرأ ابن مُحيصن «ويَشْهَد الله على ماف قلبه» بفتح الياء والهاء فى «يشهد» «الله» بالرفع، والمعنى يعجبك قوله، والله يعلم منه خلاف ما قال. دليله قوله: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ». وقراءة ابن عباس «والله يشهد على ما فى قلبه». وقراءة الجماعة أبلغ فى الذم؛ لأنه قوّى على نفسه التزام الكلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافه. وقرأ أُبَى وابن مسعود «ويستشهد الله على ما فى قلبه» وهى حجة لقراءة الجماعة.

الثانيـــة — قال علماؤنا: وفى هذه الآية دليل وتنبيه على الاحتياط فيما يتعلق بأمور الدّين والدنيا، واستبراء أحوال الشهود والقضاة، وأن الحاكم لا يعمل على ظاهر أحوال النـاس وما يبدو من إيمانهم وصلاحهم حتى يبحث عن باطنهم؛ لأن الله تعـالى بيّن أحوال الناس، وأن منهم من يظهر قولا جميلا وهو ينوى قبيحا.

فان قيل: هـذا يعارضه قوله عليه السلام: "أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا لا إله إلا الله" الحديث، وقوله: "فأقضى له على نحو ما أسمع" فالجواب أن هذا كان فى صدر الإسلام، حيث كان إسلامهم سلامتهم، وأمّا وقد عمّ الفساد فلا؛ قاله ابن العربى.

قلت : والصحيح أن الظاهر يعمل عليه حتى يتبين خلافه؛ لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى صحيح البخارى : أيها الناس ، إن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ؛ فمن أظهر لنا خيرا أمّناه وقرّبناه ، وليس لنا من سريرته ، الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمّنه ولم نصدّقه ، وإن قال إن سريرته حسنة .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ الألدّ : الشديد الخصومة؛ وهو رجل ألدّ، وامرأة لدّاء، وهم أهل لدد . وقد لددت ــ بكسر الدال ــ تلَدّ ــ بالفتح ــ لددا، أى صرت ألدّ . ولددته ــ بفتح الدال ــ ألُدّه ــ بضمها ــ اذا جادلته فغلبته . والألدّ مشتق من اللّديدين، وهما صفحتا العنق، أى فى أى جانب أخذ من الخصومة غلب . قال الشاعر :

وألدّ ذى حنق علىّ كأنما * تغلى عداوة صدره فى مرجل

وقال آخر :

إن تحت التراب عزما وحزما * وخصيما ألدّ ذا مغلاق

والخصام فى الآية مصدر خاصم ؛ قاله الخليل . وقيل : جمع خَصْم؛ قاله الزجاج؛ ككلب وكلاب ، وصعب وصعاب ، وضخم وضخام . والمعنى أشدّ المخاصمين خصومة، أى هو ذو جدال ، إذا كلمك وراجعك رأيت لكلامه طلاوةً وباطنه باطل . وهذا يدل على أن الجدال لايجوز إلا بما ظاهره وباطنه سواء . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أبغض الرّجال إلى الله الألَدّ الخَصِم" .

قوله تعالى : وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ قيل : «تولّى وسعى» من فعل القلب؛ فيجىء «تولى» بمعنى ضل وغضب وأنف فى نفسه . و«سعى» أى سعى بحيلة وإدارة

الدوائر على الإسلام وأهله ؛ عن ابن جُريج وغيره . وقيل : هما فعل شخص ؛ فيجيء « تولى » بمعنى أدبر وذهب عنك يامحمد . و «سعى» أى بقدميه فقطع الطريق وأفسدها ؛ عن ابن عباس وغيره . وكلا السعيين فساد . يقال : سعى الرجل يسعى سعيا ، أى عَدَا ، وكذلك إذا عمل وكَسَب . وفلان يسعى على عياله أى يعمل فى نفعهم .

قوله تعالى : ﴿ وَيُهْلِكَ ﴾ عطف على ليفسد . وفى قراءة أُبَىّ « وليهلك » وقرأ الحسن وقتادة « ويهلكُ » بالرفع ؛ وفى رفعه أقوال : يكون معطوفا على يعجبك . وقال أبو حاتم : هو معطوف على سعى ؛ لأن معناه يسعى ويهلك . وقال أبو إسحاق : وهو يهلك . ورُوِى عن ابن كثير «ويَهلِكُ» بفتح الياء وضم الكاف . « الحَرْثُ وَالنَّسْلُ » مرفوعان بيهلك ؛ وهى قراءة الحسن وابن أبى إسحاق وأبى حَيْوَة وابن مُحيصن ، ورواه عبد الوارث عن أبى عمرو . وقرأ قوم «ويَهلَك» بفتح الياء واللام ، ورفع الحرث ؛ وهى لغة هَلَكَ يَهْلَكُ ؛ مثل رَكَن يركَن ، وأَبَى يأبَى ، وسَلَى يَسلَى ، وقلَى يقلَى ، وشبهه . والمعنىُّ فى الآية الأخنس فى إحراقه الزرع وقتله الحمر ؛ قاله الطبرى . قال غيره : ولكنها صارت عامة لجميع الناس ، فمن عمل مثل عمله استوجب تلك اللعنة والعقوبة . قال بعض العلماء : إن من يقتل حمارا أو يحرق كُدْسا[1] استوجب الملامة ، ولحقه الشَّين الى يوم القيامة . وقال مجاهد : المراد أن الظالم يفسد فى الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل . وقيل : الحرثُ النساءُ ، والنَّسلُ الأولاد ؛ وهذا لأن النفاق يؤدِّى إلى تفريق الكلمة ووقوع القتال ، وفيه هلاك الخلق ؛ قال معناه الزجاج . والسعى فى الأرض المشىُ بسرعة ؛ وهذه عبارة عن إيقاع الفتنة والتضريب بين الناس ، والله أعلم . وفى الحديث : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " . وسيأتى بيان هذا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ الحرث فى اللغة : الشق ؛ ومنه المحراث لما يُشق به الأرض . والحرث : كسب المال وجمعه ؛ وفى الحديث : " أُحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش

(١) الكدس (بضم الكاف وفتحها وسكون الدال) : العرمة من الطعام والتمر والدراهم .

أبدا » . والحرث الزرع . والحرّاث الزرّاع . وقد حرث واحترث ؛ مثل زرع وازدرع .
ويقال : احرُث القرآن، أي ادرُسه. وحرثتُ الناقة وأحرثتها، أي سرت عليها حتى هزلت .
وحرثتُ النار حركتها. والمحراث: ما يُحرَّك به نار التنّور؛ عن الجوهري .

والنسل : ما خرج من كل أنثى من ولد . وأصله الخروج والسقوط ؛ ومنه نَسل الشَّعر، وريش الطائر؛ والمستقبل يَنسُل ؛ ومنه « إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ »، « مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسلون » . وقال امرؤ القيس :

* فَسُلِّي ثيابي من ثيابِك تَنسُلِ (١) *

قلت : ودلّت الآية على الحرث وزراعة الأرض ، وغرسها بالأشجار حملا على الزرع، وطلب النسل ، وهو نماء الحيوان، وبذلك يتم قوام الإنسان . وهو يرد على من قال بترك الأسباب، وسيأتي بيانه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ قال العباس بن الفضل : الفساد هو الخراب . وقال سعيد بن المسيّب : قطع الدراهم من الفساد في الأرض . وقال عطاء : إن رجلا كان يقال له عطاء بن منبه أحرم في جُبّة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزعها . قال قتادة قلت لعطاء : إنا كنا نسمع أن يشقها؛ فقال عطاء : إن الله لا يحب الفساد .

قلت : والآية بعمومها تعم كل فساد كان في أرض أو مال أو دين، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . قيل : معنى لا يحب الفساد أي لا يحبه من أهل الصلاح ، أو لا يحبه دينا . ويحتمل أن يكون المعنى لا يأمر به، والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)

(١) صدر البيت : * وإن كنتِ قد ساءتك مني خليقة *
يقول : إن كان في خلق ما لا ترضينه فسُلّي ثيابي من ثيابك، أي انصرفي وأخرجي أمري من أمرك . (عن شرح الديوان) .

هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زَهْوًا، ويُكره للؤمن أن يوقعه الحرج فى بعض هذا . وقال عبد الله : كفى بالمرء إثما أن يقول له أخوه اتق الله، فيقول : عليك بنفسك ؛ مثلك يوصيني ! والعزة : القوة والغلبة؛ من عزّه يعُزّه إذا غلبه . ومنه : «وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ» وقيل : العزة هنا الحَمِيَّة؛ ومنه قول الشاعر :

أخذته عِزَّةٌ من جهله * فتولّى مُغضَبًا فعلَ الضَّجِر

وقيل : العزة هنا المَنَعة وشدّة النفس ، أى اعتز فى نفسه وانحى فأوقعته تلك العزة فى الإثم حين أخذته وألزمته اياه . وقال قتادة : المعنى اذا قيل له مَهْلًا ازداد إقداما على المعصية ؛ والمعنى حملته العزة على الإثم . وقيل : أخذته العزة بما يؤثمه ، أى ارتكب الكفر للعزة وحميّة الجاهلية . ونظيره «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» وقيل : الباء فى «بالإثم» بمعنى اللام، أى أخذته العزة والحَمِيّة عن قبول الوعظ للإثم الذى فى قلبه، وهو النفاق؛ ومنه قول عنترة يصف عَرَق الناقة :

وكأنّ رُبًّا أو كُحيلًا مُعقَدًا * حَشَّ الوَقودُ به جوانبَ قُمْقُمِ (١)

أى حشّ الوقود له . وقيل : الباء بمعنى مع، أى أخذته العزة مع الإثم؛ فمعنى الباء يختلف بحسب التأويلات . وذُكر أن يهوديا كانت له حاجة عند هارون الرشيد فاختلف الى بابه سنة، فلم يقض حاجته ، فوقف على الباب؛ فلما خرج هارون سعى حتى وقف بين يديه وقال : اتق الله يا أمير المؤمنين ! فنزل هارون عن دابته وخرّ ساجدا ، فلما رفع رأسه أمر بحاجته فقُضيت؛ فلما رجع قيل له : ياأمير المؤمنين، نزلت عن دابتك لقول يهودىّ ! قال : لا ولكن تذكرت قول الله تعالى : «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ». حسبه أى كافيه معاقبة وجزاء، كما تقول للرجل : كفاك ما حلّ بك! وأنت تستعظم وتُعظّم عليه ما حلّ . والمهاد جمع المهد، وهو الموضع المهيأ للنوم؛ ومنه مهد الصبيّ،

---

(١) الرب (بضم الراء) : الطلاء الخاثر . والكحيل (مصغرا) : النفط أو القطران تطلى به الابل . والمعقد (بفتح القاف) : الذى أوقد تحته حتى انعقد وغلظ . وحشّ : اتقد ، والقمقم (بالضم) : ضرب من الأوانى .

وسمى جهنم مهادا لأنها مستقر الكفار . وقيل : لأنها بدل لهم من المهاد، كقوله : «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» ونظيره من الكلام قولهم : * تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[1] *

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

« ابتغاء » نصب على المفعول من أجله . ولما ذكر صنيع المنافقين ذكر بعده صنيع المؤمنين . قيل : نزلت فى صُهيب[2] فإنه أقبل مهاجرا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من قريش ، فنزل عن راحلته وانْتَثَل[3] مافى كنانته وأخذ قوسه وقال : لقد علمتم أنى من أرماكم ، وأيْمُ اللهِ لا تصلون الىّ حتى أرمى بما فى كنانتى، ثم أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شىء، ثم افعلوا ما شئتم . فقالوا : لا نتركك تذهب عنا غنيًّا وقد جئتنا صُعْلوكا، ولكن دُلّنا على مالك بمكة ونُخلّى عنك، فعاهدوه على ذلك ففعل ؛ فلما قدم على رسول الله صلى عليه وسلم نزلت : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّه » الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ربح البيعُ أبا يحيى » ، وتلا عليه الآية ، أخرجه رَزين ؛ وقاله سعيد بن المسيّب رضى الله عنهما . وقال المفسرون : أخذ المشركون صُهيبًا فعذبوه، فقال لهم صهيب : إنى شيخ كبير ، لا يضرّكم أمنكم كنت أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى؛ ففعلوا ذلك ، وكان شرط عليهم راحلةً ونفقةً؛ فخرج الى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما و رجال؛ فقال له أبو بكر : ربح بيعك أبا يحيى ، فقال له صُهيب : وبيعُك فلا يخسر، فما ذاك ؟ فقال : أنزل الله فيك كذا، وقرأ عليه هذه الآية. وقال الحسن : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية ، نزلت فى المسلم لقى الكافر فقال له : قل لا إله إلا الله، فإذا قلتها

(١) هذا عجز بيت لمعدى كرب، صدره : * وخيل قد دَلَفْتُ لها بخيل *

(٢) هو صهيب بن سنان بن مالك الرومى، سبته الروم [وهو صغير] بجلب الى مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان . وقيل : بل هرب من الروم فقدم مكة وحالف ابن جدعان . وكان صهيب من السابقين الأولين، شهد بدرا والمشاهد كلها . توفى بالمدينة سنة ثمان وثلاثين . (من النجوم الزاهرة) . (٣) انتثل ما فى كنانته : أى استخرج ما فيها من السهام . والكنانة : جعبة السهام ، تتخذ من جلود لا خشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

عصمت مالك ونفسك؛ فأبى أن يقولها، فقال المسلم : والله لأشرينّ نفسي لله؛ فتقدّم فقاتل حتى قُتـل . وقيل : نزلت فيمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر؛ وعلى ذلك تأوّلها عمر وعليّ وابن عباس رضي الله عنهم، قال عليّ وابن عباس: اقتتل الرجلان، أي قال المُغيِّر[1] للفسد : اتق الله؛ فأبى المفسد وأخذته العِزّة، فشرى المُغيِّر نفسه من الله وقاتله فاقتتلا . وقال أبو الخليل : سمع عمر بن الخطاب إنسانا يقرأ هذه الآية، فقال عمر : إنا لله وإنا اليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقُتل . وقيل : إن عمر سمع ابن عباس يقول : اقتتل الرجلان عند قراءة القارئ هـذه الآية ، فسأله عما قال ففسّر له هذا التفسير، فقال له عمر : لله تِلادك يابن عباس ! وقيل : نزلت فيمن يقتحم القتال . حمل هشام بن عامر على الصّف في القُسْطَنْطِينِيّة فقاتل حتى قُتل، فقرأ أبو هريرة « ومن النـاس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله »؛ ومثله عن أبي أيوب . وقيل : نزلت في شهداء غَزْوة الرَّجِيع . وقال قتادة : هم المهاجرون والأنصار . وقيل : نزلت في عليّ رضي الله عنه حين تركه النبيّ صلى الله عليه وسلم على فراشه ليلةَ خرج الى الغار، على ما يأتي بيانه في « براءة » إن شاء الله تعالى . وقيل : الآية عامة ، تتناول كل مجاهد في سبيل الله أو مستشهد في ذاته أو مغيّر منكر . وقد تقدم حكم من حمل على الصف ، ويأتي ذكر المغيّر للنكر وشروطه وأحكامه في « آل عمران »[2] إن شاء الله تعالى .

ويشرى معناه يبيع؛ ومنه «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ» أي باعوه، وأصله الاستبدال؛ ومنه قوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ » . ومنه قول الشاعر:

وإن كان رَيْبُ الدهرِ أمضاك في الأُلَى * شرَوْا هـذه الدنيا بجناته الخلد

وقال آخر :

وشـريتُ بُرْدًا ليتـني * من بعد بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ

البرد هنا اسم غلام . وقال آخر :

يعطى بها ثمنا فيمنعها * ويقول صاحبها ألا فاشرِ

(١) في بعض نسخ الأصل : « المتقي » . (٢) راجع المسئلة الثانية جـ ٢ ص ٣٦٣ طبعة ثانية .

و بيع النفس هنا هو بذلها لأوامر الله . « ابتغاء » مفعول من أجله . ووقف الكسائى على « مرضاتْ » بالتاء، والباقون بالهاء . قال أبو على : وقف الكسائى بالتاء إمّا على لغة من يقول : طلحتْ وعلقمتْ ؛ ومنه قول الشاعر :

* بل جَوْزِتَيْهاء كظَهْرِ الحَجَفَتْ (١) *

و إما أنه لما كان المضاف إليه فى ضمن اللفظة ولا بدّ أثبت التاء كما ثبتت فى الوصل ليعلم أن المضاف اليه مراد . والمَرْضاة الرِّضَا ؛ يقال رَضِىَ يَرْضَى رِضًا ومَرْضاة . وحكى قوم أنه يقال : شرى بمعنى اشترى ، و يحتاج الى هذا من تأول الآية فى صُهيب؛ لأنه اشترى نفسه بماله ولم يبعها؛ اللهمّ إلا أن يقال : إن عَرْضَ صهيب على قتالهم بيع لنفسه من الله ، فيستقيم اللفظ على معنى باع .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢٠٨)

لما بيّن الله سبحانه الناس الى مؤمن وكافر ومنافق فقال : كونوا على ملة واحدة ، واجتمعوا على الاسلام واثبتوا عليه . فالسِّلم هنا بمعنى الإسلام ؛ قاله مجاهد ، و رواه أبو مالك عن ابن عباس . ومنه قول الشاعر الكندى :

دعوتُ عشيرتى للسِّلم لما * رأيتهمُ تولّوا مدبرينا

أى الى الإسلام لما ارتدّت كِنْدة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم مع الأشعث بن قيس الكِندى ، ولأن المؤمنين لم يُؤمروا قط بالدخول فى المسالمة التى هى الصلح ، وإنما قيل للنبى صلى الله عليه وسلم أن يجنح للسَّلم إذا جنحوا له ، وأما أن يبتدئ بها فلا ؛ قاله الطبرى . وقيل : أمر من آمن بأفواههم أن يدخلوا فيه بقلوبهم . وقال طاوس ومجاهد : ادخلوا فى أمر الدين . سفيان الثورى : فى أنواع البرّ كلها . وقرئ « السِّلم » بكسر السين .

---

(١) الحجفة (بالتحريك و بتقديم الحاء على الجيم) : الترس اذا كان من جلود ليس فيه خشب ولا عقب .

قال الكسائى : السِّلْم والسَّلْم بمعنًى واحد، وكذا هو عند أكثر البصريين، وهما جميعا يقعان للإسلام والمسالمة . وفرق أبو عمرو بن العلاء بينهما، فقرأها هنا : « ادخلوا فى السِّلْم » وقال هو الإسلام . وقرأ التى فى « الأنفال » والتى فى سورة « محمد » صلى الله عليه وسلم «السَّلْم» بفتح السين، وقال : هى بالفتح المسالمة . وأنكر المبرد هذه التفرقة . وقال عاصم الجَحْدَرى : السِّلم الإسلام، والسَّلم الصلح، والسَّلم الاستسلام . وأنكر محمد بن يزيد هذه التفريقات وقال : اللغة لا تؤخذ هكذا، وإنما تؤخذ بالسماع لا بالقياس، ويحتاج من فرق الى دليل . وقد حكى البصريون : بنو فلان سِلْمٌ وسَلْمٌ وسَلَمٌ، بمعنًى واحد . قال الجوهرى : والسِّلْم الصلح، يفتح ويكسر، ويذكر ويؤنث، وأصله من الاستسلام والانقياد، ولذلك قيل للصلح : سِلْم . قال زهير :

وقد قلتما إنْ نُدركِ السِّلْم واسعًا * بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نَسْلَمِ

ورجّح الطبرى حمل اللفظة على معنى الإسلام بما تقدّم . وقال حذيفة بن اليمان : فى هذه الاية الإسلام ثمانية أسهم : الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والعُمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهى عن المنكر سهم ؛ وقد خاب من لا سهم له فى الإسلام . وقال ابن عباس : نزلت الآية فى أهل الكتاب ؛ والمعنى يأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى أدخلوا فى الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم كافة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول صلى الله عليه وسلم قال : " والذى نَفْسُ محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم [يموت و] [1] لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار" . و﴿كَافَّةً﴾ معناه جميعا، فهو نصب على الحال من السلم أو من ضمير المؤمنين ؛ وهو مشتق من قولهم : كففت أى منعت، أى لا يمتنع منكم أحد من الدخول فى الإسلام . والكف المنع ؛ ومنه كُفّة القميص — بالضم — لأنها تمنع الثوب من الانتشار ؛ ومنه كِفة الميزان — بالكسر — التى تجمع الموزون وتمنعه أن ينتشر ؛ ومنه كَفّ الإنسان، الذى يجمع

---

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

منافعه ومضارّه؛ وكل مستدير كِفّة، وكل مستطيل كُفّة . ورجل مكفوف البصر، أى منع عن النظر؛ فالجماعة تُسمّى كافة لامتناعهم عن التفرق . ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ نهى . ﴿ خُطُوَاتِ ﴾ مفعول ، وقد تقدّم (١) . وقال مقاتل : استأذن عبد الله بن سَلَام وأصحابه بأن يقرءوا التوراة فى الصلاة وأن يعملوا ببعض ما فى التوراة ؛ فنزلت « وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ » فإن اتباع السُّنّة أَوْلى بعد ما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم من خطوات الشيطان . وقيل : لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليه الشيطان ؛ ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة؛ وقد تقدّم (٢) .

قوله تعالى : فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)

أى تنحيتم عن طريق الاستقامة . وأصل الزلل فى القَدَم، ثم يستعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك؛ يقال: زلّ يَزِل زَلًّا وزَلَلًا وزُلُولًا، أى دَحَضت قدمُه . وقرأ أبو السّمال العَدَوىّ « زَلِلتم » بكسر اللام، وهما لغتان . وأصل الحرف من الزَّلَق، والمعنى ضللتم وعُجتم عن الحق . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أى المعجزات وآيات القرآن ، إن كان الخطاب للؤمنين، فإن كان الخطاب لأهل الكتابين فالبينات ما ورد فى شرعهم من الإعلام بمحمد صلى الله عليه وسلم والتعريف به . وفى الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به ، ومن لم تبلغه دعوة الإسلام لا يكون كافرا بترك الشرائع . وحكى النقاش أن كعب الأحبار لما أسلم كان يتعلّم القرآن، فأقرأه الذى كان يعلّمه «فاعلموا أن الله غفور رحيم» فقال كعب : إنى لأستنكر أن يكون هكذا؛ ومرّ بهما رجل فقال كعب : كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقال الرجل : «فاعلموا أن الله عزيز حكيم» فقال كعب : هكذا ينبغى . و «عزيز» لا يمتنع عليه ما يريده . «حكيم» فيما يفعله .

---

(١) راجع المسألة الثالثة جـ ٢ ص ٢٠٨ طبعة ثانية .

(٢) راجع المسئلة الرابعة جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

يعنى التاركين الدخول فى السلم، وهل يراد به هنا الجحد، أى ماينتظرون إلا أن يأتيهم فى ظُلَل من الغمام والملائكةُ . نظرته وانتظرته بمعنًى . والنظر الانتظار . وقرأ قتادة وأبو جعفر يزيد بن القَعْقاع والضحّاك « فى ظِلال من الغمام » . وقرأ أبو جعفر « والملائكة » بالخفض عطفا على الغمام، وتقديره مع الملائكة؛ تقول العرب : أقبل الأمير فى العسكر، أى مع العسكر. « ظُلَلٍ » جمع ظُلّة فى التكسير، كظُلْمة وظُلَم وفى التسليم ظُلُلات ؛ وأنشد سيبويه :

إذا الوَحْشُ ضَمَّ الوحشَ فى ظُلُلاتها * سَواقِطُ من حَرٍّ وقد كان أَظْهَرا [(١)]

وظُلات . وظلال جمع ظل فى الكثير، والقليل أظلال . ويجوز أن يكون ظِلال جمع ظُلّة، مثل قوله : قُلّة وقِلال؛ كما قال الشاعر :

* ممزوجة بماء القِلالِ [(٢)] *

قال الأخفش سعيد : والملائكةِ بالخفض بمعنًى وفى الملائكة . قال : والرفع أجود؛ كما قال : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » ، « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » . قال الفرّاء : وفى قراءة عبد الله « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام » . قال قتادة : الملائكة يعنى تأتيهم لقبض أرواحهم ؛ ويقال يوم القيامة، وهو أظهر . قال أبو العالية والربيع : تأتيهم الملائكة فى ظلل من الغمام ، ويأتيهم الله فيما شاء . وقال الزجاج : التقدير فى ظلل من الغمام ومن الملائكة . وقيل : ليس الكلام على ظاهره فى حقه سبحانه، وإنما المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه . وقيل : أى بما وعدهم من الحساب والعذاب فى ظلل ؛ مثل «فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» أى بخذلانه إياهم، هذا قول الزجاج، والأول قول الأخفش سعيد . وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعا الى الجزاء، فسمّى الجزاء إتيانا كما سمّى

---

(١) البيت لجعدى . ومعنى أظهر : صار فى وقت الظهيرة . وصف سيره فى الهاجرة اذا استكن الوحش من حر الشمس واحتدامها ولجق بكُنُسه . (٢) القلال (بالكسر جمع قلة بالضم) : الجرة، وقيل : هو إناء للعرب كالجرة .

التخويف والتعذيب فى قصة نمروذ إتيانا فقال : « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » . وقال فى قصة النّضير : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » ، وقال : « وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا » . وإنما احتمل الإتيان هذه المعانى لأن أصل الإتيان عند أهل اللغة هو القصد إلى الشيء ؛ فمعنى الآية : هل ينظرون إلا أن يظهر الله تعالى فعلا من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى مجازاتهم ويقضى فى أمرهم ما هو قاض ؛ وكما أنه سبحانه أحدث فعلا سمّاه نزولا واستواء كذلك يُحدث فعلا يسميه إتيانا ؛ وأفعاله بلا آلة ولا علّة ، سبحانه ! وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح : هذا من المكتوم الذى لا يُفسّر . وقد سكت بعضهم عن تأويلها ، وتأولها بعضهم كما ذكرنا . وقيل : بمعنى الباء ، أى يأتيهم بظُلَل ، ومنه الحديث : "يأتيهم الله فى صورة" أى بصورة امتحانا لهم . ولا يجوز أن يحمل هذا وما أشبهه مما جاء فى القرآن والخبر على وجه الانتقال والحركة والزوال ، لأن ذلك من صفات الأجرام والأجسام ، تعالى الله الكبير المتعال ، ذو الجلال والإكرام عن مماثلة الأجسام عُلُوًّا كبيرا . والغمام : السحاب الرقيق الأبيض ؛ سُمّى بذلك لأنه يَغُمّ ، أى يستر ؛ كما تقدّم[1] . وقرأ معاذ بن جبل « وقضاء الأمر » . وقرأ يحيى ابن يعمر « وقضى الأمور » بالجمع . والجمهور « وقضِيَ الْأَمْرُ » فالمعنى وقع الجزاء وعذّب أهل العصيان . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى « تَرجع الأمور » على بناء الفعل للفاعل ، وهو الأصل ؛ دليله « أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » ، « إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ » . وقرأ الباقون « تُرْجَع » على بنائه للمفعول ، وهى أيضا قراءة حسنة ؛ دليله « ثُمَّ تُرَدُّونَ » ، « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ » ، « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي » . والقراءتان حسنتان بمعنًى ، والأصل الأولى ، وبناؤه للمفعول توسّع وفرع ، والأمور كلها راجعة إلى الله قبلُ وبعدُ . وإنما نبّه بذكر ذلك فى يوم القيامة على زوال ما كان منها إلى الملوك فى الدنيا .

---

(١) تراجع المسئلة الأولى جـ ١ ص ٤٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾

﴿ سَلْ ﴾ من السؤال بتخفيف الهمزة، فلما تحركت السين لم يحتج الى ألف الوصل . وقيل : إن للعرب فى سقوط ألف الوصل فى « سل » وثبوتها فى « وآسأل » وجهين : أحدهما — حذفها فى أحدهما وثبوتها فى الأخرى، وجاء القرآن بهما، فاتبع خط المصحف فى إثباته للهمزة وإسقاطها . والوجه الثانى — أنه يختلف إثباتها وإسقاطها باختلاف الكلام المستعمل فيه، فتحذف الهمزة فى الكلام المبتدأ، مثل قوله : «سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، وقوله : « سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ » . وتثبت فى العطف، مثل قوله : « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ »، وَٱسْأَلُوا ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِ» قاله علىّ بن عيسى . وقرأ أبو عمرو فى رواية ابن عباس عنه «إسأل» على الأصل . وقرأ قوم « اِسَل » على نقل الحركة إلى السين وإبقاء ألف الوصل، على لغة من قال : ألَاحْمَر . و « كَمْ » فى موضع نصب، لأنها مفعول ثان لآتيناهم . وقيل : بفعل مضمر، تقديره كم آتينا آتيناهم . ولا يجوز أن يتقدمها الفعل لأن لها صدر الكلام .

﴿ مِنْ آيَةٍ ﴾ فى موضع نصب على التميز على التقدير الأول، وعلى الثانى مفعول ثان لآتيناهم ؛ ويجوز أن تكون فى موضع رفع بالابتداء، والخبر فى آتيناهم؛ ويصير فيه عائد على كم، تقديره : كم آتيناهموه، ولم يعرب وهى اسم لأنها بمنزلة الحروف لما وقع فيه معنى الاستفهام؛ وإذا فرقت بين كم وبين الاسم كان الاختيار أن تأتى بمن كما فى هذه الآية، فان حذفتها نصبت فى الاستفهام والخبر، ويجوز الخفض فى الخبر، كما قال الشاعر :

كم بجودٍ مُقْرِفٍ[1] نال العُلا * وكريمٍ بُخْلُه قد وضعهْ

والمراد بالآية كم جاءهم فى أمر محمد عليه السلام من آية مُعَرِّفة به دالة عليه . قال مجاهد والحسن وغيرهما : يعنى الآيات التى جاء بها موسى عليه السلام من فلق البحر والظلل من الغمام والعصا واليد وغير ذلك . وأمر الله تعالى نبيه بسؤالهم على جهة التقريع لهم والتوبيخ .

(١) المقرف : النذل اللئيم الأب .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ لفظ عام لجميع العامة، وإن كان المشار اليه بنى إسرائيل؛ لكونهم بدّلوا ما فى كتبهم وجحدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فاللفظ منسحب على كل مبدّل نعمة الله تعالى . وقال الطبرىّ : النعمة هنا الإسلام؛ وهذا قريب من الأوّل . ويدخل فى اللفظ أيضا كفار قريش؛ فإن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيهم نعمة عليهم ، فبدّلوا قبولها والشكر عليها كفرا .

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ خبر يتضمن الوعيد . والعقاب مأخوذ من العَقِب؛ كأن المعاقب يمشى بالمجازاة له فى آثار عَقِبه؛ ومنه عُقْبة الراكب (١) وعُقْبة القِدْر (٢) . فى الصّحاح والعُقْبة أيضا : شىء من المَرَق يردّه مستعير القِدْر إذا ردّها . فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذنب؛ وقد عاقبه بذنبه .

قوله تعالى : زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ على ما لم يسم فاعله . والمراد رؤساء قريش . وقرأ مجاهد وحُميد بن قيس على بناء الفاعل . قال النحاس : وهى قراءة شاذة؛ لأنه لم يتقدّم للفاعل ذِكر . وقرأ ابن أبى عَبْلة « زُيِّنَت » بإظهار العلامة ؛ وجاز ذلك لكون التأنيث غير حقيقىّ ، والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر، ويزيّنها أيضا الشيطان بوسوسته وإغوائه . وخص الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جملة ، وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها . وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيّهم أحسن عملا؛ فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة ، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون

---

(١) عقبة الراكب (بضم فسكون) : الموضع يركب منه .

(٢) عقبة القدر : ما التزق فى أسفلها من تابل وغيره .

غيرها . وقد قال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين قُدم عليه بالمال : اللّهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنت لنا .

قوله تعالى : ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ إشارة إلى كفار قريش ، فإنهم كانوا يعظمون حالهم من الدنيا ويغتبطون بها ، ويسخرون من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن جُريج : فى طلبهم الآخرة . وقيل : لفقرهم وإقلالهم؛ كبلال وصُهيب وابن مسعود وغيرهم؛ رضى الله عنهم . فنبّه سبحانه على خفض منزلتهم لقبيح فعلهم بقوله : «وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ» . وروى علىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من استذلّ مؤمنا أو مؤمنة أو حقّره لفقره وقلة ذات يده شهره الله يوم القيامة ثم فضحه ومن بهت مؤمنا أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى على تلّ من نار يوم القيامة حتى يخرج مما قال فيه وإن عِظَم المؤمن أعظم عند الله وأكرم عليه من ملَك مقرّب وليس شىء أحبّ إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة وإن الرجل المؤمن يعرف فى السماء كما يعرف الرجل أهله وولده" . ثم قيل : معنى «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» أى فى الدرجة؛ لأنهم فى الجنة والكفار فى النار . ويحتمل أن يراد بالفوق المكان؛ من حيث إن الجنة فى السماء، والنار فى أسفل السافلين . ويحتمل أن يكون التفضيل على ما يتضمنه زعم الكفار؛ فإنهم يقولون : وإن كان معادٌ فلنا فيه الحظ أكثر مما لكم؛ ومنه حديث خبّاب (١) مع العاص بن وائل، قال خبّاب : كان لى على العاص بن وائل دَيْن فأتيته أتقاضاه؛ فقال لى : لن أقضيك حتى تكفُرَ بمحمد صلى الله عليه وسلم . قال : فقلتُ له : إنى لن أكفر به حتى تموتَ ثم تُبعث . قال : وإنى لَمبعوثٌ من بعد الموت ، فسوف أقضيك إذا رجعتُ إلى مالٍ وولد ؛ الحديث . وسيأتى (٢) بتمامه إن شاء الله تعالى . ويقال : سَخِرت منه وسَخِرت به، وضحِكت منه وضحِكت به، وهَزِئتُ منه وبه؛ كل ذلك يقال، حكاه الأخفش . والاسم السُّخرية والسُّخْرِىّ والسِّخْرِىّ،

---

(١) خباب (بفتح الخاء وتشديد الباء) : بن الأرتّ ؛ شهد بدرا ، وكان قينا فى الجاهلية ومن المهاجرين الأوّلين .

(٢) عند قوله تعالى : «أفرأيت الذى كفر بآياتنا ...» آية ٧٧ سورة «مريم» .

وقرئ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » وقوله : « فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا » . ورجل سُخْرَة . يُسْخَر منه ، وسُخَرَة ــ بفتح الخاء ــ يَسْخَر من الناس . وفلان سُخْرة يتسخّر في العمل ، يقال : خادمه سُخْرة ، وسخّره تسخيرا كلّفه عملا بلا أجرة .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الضحاك : يعني من غير تَبِعة في الآخرة . وقيل : هو إشارة الى هؤلاء المستضعَفين ، أي يرزقهم علوّ المنزلة ؛ فالآية تنبيه على عظيم النعمة عليهم . وجعل رزقهم بغير حساب من حيث هو دائم لا يتناهَى ، فهو لا ينعدّ . وقيل : إن قوله «بِغَيْرِ حِسَابٍ» صفة لرزق الله تعالى كيف يصرّف ؛ إذ هو جلّت قدرته لا يُنفق بعَدّ ؛ ففضله كله بغير حساب ، والذي بحساب ما كان على عملٍ قدّمه العبد ؛ قال الله تعالى : « جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا » . والله أعلم . ويحتمل أن يكون المعنى بغير احتساب من المرزوقين ، كما قال : « وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .

قوله تعالى : كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي على دين واحد . قال أُبَيّ بن كعب وابن زيد : المراد بالناس بنو آدم حين أخرجهم الله نَسَمًا من ظهر آدم فأقرّوا له بالوحدانية . وقال مجاهد : الناس آدم وحده ؛ وسُمّي الواحد بلفظ الجمع لأنه أصل النَّسْل . وقيل : آدم وحوّاء . وقال ابن عباس وقتادة : المراد بالناس القرون التي كانت بين آدم ونوح ، وهي عشرة كانوا على الحق حتى اختلفوا فبعث الله نوحا فمَن بعده . وقال ابن أبي خَيثمة : منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى أن بعث محمدا صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف سنة وثمانمائة سنة . وقيل

أكثر من ذلك، وكان بينه وبين نوح ألف سنة ومائتا سنة. وعاش آدم تسعمائة وستين سنة، وكان الناس في زمانه أهل ملة واحدة، متمسكين بالدين، تصافحهم الملائكة، وداموا على ذلك إلى أن رُفع إدريس عليه السلام فاختلفوا. وهذا فيه نظر؛ لأن إدريس بعد نوح على الصحيح. وقال قوم منهم الكلبي والواقدي: المراد نوح ومَن في السفينة، وكانوا مسلمين ثم بعد وفاة نوح اختلفوا. وقال ابن عباس أيضا: كانوا أمّة واحدة على الكفر؛ يريد في مدّة نوح حين بعثه الله. وعنه أيضا: كان الناس على عهد إبراهيم عليه السلام أمة واحدة، كلهم كفار؛ وولد إبراهيم في جاهلية فبعث الله إبراهيم وغيره من النبيين. فـ«كان» على هذه الأقوال على بابها من المضيّ المنقضى. وكل مَن قدّر الناس في الآية مؤمنين قدّر في الكلام فاختلفوا فبعث؛ ودلّ على هذا الحذف «وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ» أي كان الناس على دين الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين، مبشّرين من أطاع ومنذرين من عصى. وكل من قدّرهم كفارا كانت بعثة النبيّين إليهم. ويحتمل أن تكون «كان» للثبوت، والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة في خلوّهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا منّ الله عليهم وتفضّله بالرسل إليهم؛ فلا يختص «كان» على هذا التأويل بالمضيّ فقط، بل معناه معنى قوله: «وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

و «أمّة» مأخوذة من قولهم: أمَمت كذا، أي قصدته؛ فمعنى «أمّة» مقصدهم واحد؛ ويقال للواحد: أمّة؛ أي مقصده غير مقصد الناس؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في قُسّ بن ساعدة: "يُحشر يوم القيامة أمّةً وَحْده". وكذلك قال في زيد بن عمرو بن نُفيل. والأمّة القامة، كأنها مقصد سائر البدن. والإمّة (بالكسر): النعمة؛ لأن الناس يقصدون قصدها. وقيل: إمام؛ لأن الناس يقصدون قصد ما يفعل؛ عن النحاس. وقرأ أُبيّ بن كعب: «كان البشر أمة واحدة». وقرأ ابن مسعود «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث».

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ﴾ وجملتهم مائة وأربعة وعشرون ألفا، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكورون في القرآن بالاسم العلم ثمانية عشر، وأوّل الرسل آدم؛

على ما جاء فى حديث أبى ذَرّ ، أخرجه الآجُرى وأبو حاتم البُسْتى . وقيل : نوح، لحديث الشفاعة ؛ فان الناس يقولون له : أنت أوّل الرسل . وقيل : إدريس ، وسيأتى بيان هـذا فى « الأعراف »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ اسم جنس بمعنى الكتب . وقال الطبرى : الألف واللام فى الكتاب للعهـد ، والمراد التوراة . و ﴿ لِيَحْكُمَ ﴾ مسند الى الكتاب فى قول الجمهور؛ وهو نصب بإضمار أن ، أى لأن يحكم، وهو مجاز مثل « هَـذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » . وقيل : أى ليحكم كل نبى بكتابه، واذا حكم بالكتاب فكأنما حكم الكتابُ . وقراءة عاصم الجَحْدَرى « لِيُحكم بين النـاس » على ما لم يسم فاعله ، وهى قراءة شاذة ؛ لأنه قـد تقدّم ذكر الكتاب . وقيل : المعنى ليحكم الله ، والضمير فى « فيه » عائد على « ما » من قوله « فيما » والضمير فى « فيه » الثانية يحتمل أن يعود على الكتاب، أى وما اختلف فى الكتاب إلا الذين أوتوه. موضع «الذين» رفع بفعلهم. و « أُوتُوهُ » بمعنى أعطوه . وقيل : يعود على المنزّل عليه ؛ وهو محمد صلى الله عليه وسـلم ؛ قاله الزجاج . أى وما آختلف فى النبى عليه السـلام إلا الذين أعطوا علمه . ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾(٣) نصبٌ على المفعول له ، أى لم يختلفوا إلا للبَغى ، وقد تقدّم معناه(٢) . وفى هذا تنبيه على السَّفه فى فعلهم، والقبح الذى واقعوه . و«هدى» معناه أرشد، أى فهدى الله أمة محمد الى الحق بأن بيّن لهم ما اختلف فيه من كان قبلهم . وقالت طائفة : معنى الآية أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض؛ فهدى الله أمة محمد للتصديق بجميعها . وقالت طائفة : إن الله هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيـه أهل الكتابين ؛ من قولهم : إن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا . وقال ابن زيد وزيد بن أسْـلم : مِن قِبلتهم؛ فان اليهود الى بيت المقدس ، والنصارى الى المشرق ؛ ومن يوم الجمعة فان النبى صلى الله عليه وسلم قال : " هـذا اليوم الذى اختلفوا فيـه فهدانا الله له فلليهود غد وللنصارى بعد غد " ومن صيامهم ، ومن جميع ما اختلفوا فيه . وقال ابن زيد :

(١) عند قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه ... » آية ٥٩

(٢) يراجع ج ٢ ص ٢٨ طبعة ثانية . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « الشنعة » .

واختلفوا فى عيسى فجعلته اليهود لفرْية، وجعلته النصارى ربًّا؛ فهدى الله المؤمنين بأن جعلوه عبد الله. وقال الفرّاء: هو من المقلوب — واختاره الطبرى — قال: وتقديره فهدى الله الذين آمنوا للحق مما اختلفوا فيه. قال ابن عطية: «ودعاه الى هذا التقدير خوف أن يحتمل اللفظ أنهم اختلفوا فى الحق فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه، وعساه غير الحق فى نفسه. نحا الى هذا الطبرى فى حكايته عن الفرّاء، وآدّعاء القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة تدفع الى ذلك عجز وسوء نظر؛ وذلك أن الكلام يتخرج على وجهه ووصفه، لأن قوله: «فهدى» يقتضى أنهم أصابوا الحق، وتم المعنى فى قوله «فيه» وتبيّن بقوله: «من الحق» إذ جنس ما وقع الخلاف فيه، قال المهدوى: وقدّم لفظ الاختلاف على لفظ الحق اهتمامًا؛ إذ العناية إنما هى بذكر الاختلاف. قال ابن عطية: وليس هذا عندى بقوىّ. وفى قراءة عبد الله بن مسعود «لما اختلفوا عنه من الحق» أى عن الإسلام. و﴿بإذنه﴾ قال الزجاج: معناه بعلمه. قال النحاس: وهذا غلط، والمعنى بأمره، وإذا أذنت فى الشىء فقد أمرت به؛ أى فهدى الله الذين آمنوا بأن أمرهم بما يجب أن يستعملوه. وفى قوله: «وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ» ردّ على المعتزلة فى قولهم: إن العبد يستبدّ بهداية نفسه.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ حسبتم معناه ظننتم. قال قتادة والسدّى وأكثر المفسرين: نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدّة، والحرّ والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد؛ وكان كما قال الله تعالى: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ». وقيل: نزلت فى حرب أُحُد؛ نظيرها — فى آل عمران — «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ». وقالت فرقة: نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم

وأموالهم بأيدى المشركين ، وآثروا رضا الله ورسوله ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسرّ قوم من الأغنياء النفاق ؛ فأنزل الله تعالى تطييبا لقلوبهم «أَمْ حَسِبْتُمْ» . و«أم» هنا منقطعة ، بمعنى بل ؛ وحكى بعض اللغويين أنها قد تجىء بمثابة ألف الاستفهام ليبتدأ بها ، و «حسبتم» تطلب مفعولين ؛ فقال النحاة : «أن تدخلوا» تسدّ مسدّ المفعولين . وقيل : المفعول الثانى محذوف : أحسبتم دخولكم الجنة واقعا . و «لمّا» بمعنى لم . و «مَثَلُ» معناه شبه ؛ أى ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا . وحكى النَّضْر بن شُميل[(١)] أن « مثل » يكون بمعنى صفة ، ويجوز أن يكون المعنى ولما يصبكم مثل الذى أصاب الذين من قبلكم ، أى من البلاء . قال وهب[(٢)] : وجد فيما بين مكة والطائف سبعون نبيًّا موتى ، كان سبب موتهم الجوع والقمّل ، ونظير هذه الآية « الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» على ما يأتى ؛ فاستدعاهم تعالى إلى الصبر ، ووعدهم على ذلك بالنصر فقال : « أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . والزلزلة : شدّة التحريك ، تكون فى الأشخاص وفى الأحوال ؛ يقال : زَلْزَلَ الله الأرض زَلْزَلَةً و زِلزالا ـــ بالكسر ـــ فتزلزلت إذا تحركت واضطربت ؛ فمعنى « زُلْزِلوا » خُوِّفوا وحُرِّكوا . والزَّلزال ـــ بالفتح ـــ الاسم . والزَّلازل : الشدائد . وقال الزجاج : أصل الزَّلزلة من زلّ الشىء عن مكانه ؛ فاذا قلت : زلزلته فمعناه كررت زلله من مكانه . ومذهب سيبويه أن زلزل رباعى كدحرج . وقرأ نافع « حتى يقولُ » بالرفع ، والباقون بالنصب . ومذهب سيبويه فى « حتى » أن النصب فيما بعدها من جهتين والرفع من جهتين ؛ تقول : سرت حتى أدخلَ المدينة ـــ بالنصب ـــ على أن السير والدخول جميعا قد مضيا ؛ أى سرت إلى أن أدخلها ، وهذه غاية ؛ وعليه قراءة من قرأ بالنصب . والوجه الآخر فى النصب فى غير الآية سرت حتى أدخلَها ، أى كى أدخلها . والوجهان فى الرفع سرت حتى أدخلُها ، أى سرت فأدخلها ،

(١) فى بعض نسخ الأصل : « وحكى البصريون » . (٢) يغفر الله لوهب .

وقد مضيا جميعا، أى كنت سرت فدخلت . ولا تعمل حتى ها هنا بإضمار أن، لأن بعدها جملة، كما قال الفرزدق :

* فيَاعَجبًا حتّى كُليبٌ تَسُبُّنِي (١) *

قال النحاس : « فعلى هـذا القراءةُ بالرفع أبين وأصح معنى ، أى وزلزلوا حتى الرسولُ يقولُ، أى حتى هذه حاله ؛ لأن القول إنما كان عن الزلزلة غير منقطع منها، والنصب على الغاية ليس فيه هذا المعنى» . والرسول هنا شَعْيا فى قول مقاتل، وهو اليَسع . وقال الكلبىّ : هذا فى كل رسول بُعث إلى أمته وأجهد فى ذلك حتى قال : متى نصر الله ؟ . ورُوى عن الضحاك قال: يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم، وعليه يدل نزول الآية، والله أعلم . والوجه الآخر فى غير الآية سرت حتى أدخلُها ، على أن يكون السير قد مضى والدخول الآن . وحكى سيبويه : مرِض حتى لا يَرجونَه ، أى هو الآن لا يُرْجَى ؛ ومثله سرت حتى أدخلُها لا أُمنع . وبالرفع قرأ مجاهد والأعرج وابن مُحَيْصن وشيبة . وبالنصب قرأ الحسن وأبو جعفر وابن أبى إسحاق وشبل وغيرهم . قال مكىّ : وهو الاختيار، لأن جماعة القراء عليه . وقرأ الأعمش «وزلزلوا ويقول الرسول» بالواو بدل حتى . وفى مصحف ابن مسعود « وزلزلوا ثم زلزلوا ويقول » . وأكثر المتأولين على أن الكلام الى آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين ، أى بلغ الجهد بهم حتى استبطئوا النصر؛ فقال الله تعالى : « أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » . ويكون ذلك من قول الرسول على طلب استعجال النصر لا على شك وآرتياب . والرسول اسم جنس. وقالت طائفة : فى الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله ؛ فيقول الرسول : ألا إن نصر الله قريب ؛ فقدّم الرسول فى الرتبة لمكانته، ثم قدّم قول المؤمنين لأنه المتقدّم فى الزمان . قال ابن عطية : وهذا تحكّم، وحمل الكلام على

---

(١) وتمام البيت : * كأن أباها نَهْشَل أو مُجاشع *
هجا كليب بن يربوع رهط جرير، وجعلهم من الضعة بحيث لا يسابون مثله لشرفه . ونهشل ومجاشع : رهط الفرزدق، وهما ابنا دارم (عن شرح الشواهد) .

وجهه غير متعذر . ويحتمل أن يكون « ألا إن نصر الله قريب » إخبارا من الله تعالى مُؤتنفا بعد تمام ذكر القول .

قوله تعالى : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ رُفع بالابتداء على قول سيبويه ، وعلى قول أبى العباس رُفع بفعل، أى متى يقع نصر الله . و«قريب» خبر «إنّ» . قال النحاس : ويجوز فى غير القرآن « قريبا » أى مكانا قريبا . و «قريب » لا تثنّيه العرب ولا تجمعه ولا تؤنّثه فى هذا المعنى؛ قال الله عز وجل : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » . وقال الشاعر[1] :

له الويلُ إن أمسَى ولا أُمُّ هاشمٍ * قريب ولا بَسْبَاسةُ بنـةُ يَشْكُرَا

فإن قلت : فلان قريب لى ثنيت وجمعت؛ فقلت : قريبون وأقرباء وقرباء .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ إن خفّفت الهمزة ألقيت حركتها على السين ففتحتها وحذفت الهمزة فقلت : يَسَلونك . ونزلت الآية فى عمرو بن الجَمُوح ، وكان شيخا كبيرا فقال : يارسول الله إن مالى كثير، فبماذا أتصدّق، وعلى من أنفق؟ فنزلت « يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ » .

الثانيــة ــ قوله تعالى: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ «ما» فى موضع رفع بالابتداء، «وذا» الخبر، وهو بمعنى الذى، وحذفت الهاء لطول الاسم ، أى ما الذى ينفقونه؛ وإن شئت كانت « ما » فى موضع نصب بـ«ينفقون» و«ذا» مع «ما» بمنزلة شىء واحد ولا يحتاج الى ضمير، ومتى كانت اسما مركبا فهى فى موضع نصب؛ إلا ما جاء فى قول الشاعر :

---

(١) هو امرؤ القيس؛ كما فى ديوانه .

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا * سوى أن يقولوا إننى لك عاشق

فإن «عسى» لا تعمل فيه؛ فـ«ماذا» فى موضع رفع وهو مركب، إذ لا صلة لـ«ذا» .

الثالثة — قيل : إن السائلين هم المؤمنون ، والمعنى يسألونك ما هى الوجوه التى ينفقون فيها ، وأين يضعون ما لزم إنفاقه . قال السُّدّى : نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة المفروضة . قال ابن عطية : ووَهِم المهدوىّ على السدّى فى هذا، فنسب إليه أنه قال : إن الآية فى الزكاة المفروضة ثم نسخ منها الوالدان . وقال ابن جُرَيج وغيره : هى ندب ، والزكاة غير هذا الانفاق ؛ فعلى هذا لا نسخ فيها ، وهى مبيّنة لمصارف صدقة التطوع؛ فواجب على الرجل الغنىّ أن ينفق على أبويه المحتاجين ما يصلحهما فى قدر حالهما من حاله ، من طعام وكُسوة وغير ذلك . قال مالك : ليس عليه أن يزوّج أباه، وعليه أن ينفق على آمرأة أبيه ، كانت أمّه أو أجنبية، وإنما قال مالك : ليس عليه أن يزوّج أباه لأنه رآه يستغنى عن التزويج غالبا ، ولو احتاج حاجة ماسة لوجب أن يزوجه ؛ لولا ذلك لم يوجب عليه أن ينفق عليهما . فأما ما يتعلق بالعبادات من الأموال فليس عليه أن يعطيه ما يحج به أو يغزو، وعليه أن يخرج عنه صدقة الفطر؛ لأنها مستحقة بالنفقة والإسلام .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ ﴾ « ما » فى موضع نصب بـ«أنفقتم» وكذا «وما تنفقوا» وهو شرط والجواب «فللوالدين» ، وكذا « وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ » شرط، وجوابه « فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » وقد مضى القول فى اليتيم والمسكين وابن السبيل (1) . ونظير هذه الآية قوله تعالى : «فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ » . وقرأ علىّ بن أبى طالب « يفعلوا» بالياء على ذكر الغائب، وظاهر الآية الخبر، وهى تتضمن الوعد بالمجازاة .

قوله تعالى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

(1) تراجع المسئلة الخامسة وما بعدها جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ ﴾ معناه فرض ، وقد تقدّم مثله[1] . وقرأ قوم « كَتب عليكم القتل » ، وقال الشاعر[2] :

كُتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جرّ الذّيول

هذا هو فرض الجهاد ، بيّن سبحانه أن هذا مما امتُحنوا به وجُعِل وُصْلة إلى الجنة . والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار ، وهذا كان معلوما لهم بقرائن الأحوال ، ولم يؤذن للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى القتال مدة إقامته بمكة ؛ فلما هاجر أُذن له فى قتال من يقاتله من المشركين فقال : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا » ثم أذن له فى قتال المشركين عامة . واختلفوا من المراد بهذه الآية ؛ فقيل : أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان القتال مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فرض عَيْن عليهم ؛ فلما استقرّ الشرع صار على الكفاية ؛ قاله عطاء والأوزاعيّ . قال ابن جُريج : قلت لعطاء : أواجب الغزو على الناس فى هذه الآية ؟ فقال : لا ، إنما كُتب على أولئك . وقال الجمهور من الأمة : أوّل فَرْضه إنما كان على الكفاية دون تعيين ، غير أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا استنفرهم تعيّن عليهم النَّفير لوجوب طاعته . وقال سعيد بن المسيب : إن الجهاد فرض على كل مسلم فى عينه أبدا ؛ حكاه الماورديّ . قال ابن عطية : والذى استمرّ عليه الإجماع أن الجهاد على كل أمة محمد صلى الله عليه وسلم فرض كفاية ، فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين ؛ إلا أن ينزل العدوّ بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عَين ، وسيأتى هذا مبيّنا فى سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وذكر المهدويّ وغيره عن الثوريّ أنه قال : الجهاد تطوّع . قال ابن عطية : وهذه العبارة عندى إنما هى على سؤال سائل وقد قيم بالجهاد ؛ فقيل له : ذلك تطوّع .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ ابتداء وخبر ، وهو كره فى الطباع . قال ابن عرفة : الكُره المشقة ، والكَره ــ بالفتح ــ ما أُكرهتَ عليه ، هذا هو الاختيار ،

---

(١) تراجع المسئلة الثانية جـ ٢ ص ٢٤٤ طبعة ثانية .

(٢) هو عمر بن أبى ربيعة .

ويجوز الضم فى معنى الفتح فيكونان لغتين؛ يقال: كرِهت الشيء كَرْها وكُرْها وكَرَاهة وكراهية، وأكرهته عليه إكراها. وانما كان الجهاد كرها لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والتعرّض بالجسد للشِّجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس؛ فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى . وقال عكرمة فى هذه الآية : إنهم كَرِهوه ثم أحبوه وقالوا : سمعنا وأطعنا ؛ وهذا لأن امتثال الأمر يتضمن مشقة، لكن اذا عُرِف الثواب هان فى جنبه مُقاساة المشقات .

قلت : ومثاله فى الدنيا إزالة ما يؤلم الإنسان ويخاف منه ؛ كقطع عضو وقلع ضرس وفَصد وحِجامة ٱبتغاءَ العافية ودوام الصحة ، ولا نعيم أفضل من الحياة الدائمة فى دار الخلد والكرامة فى مقعد صدقٍ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ قيل: «عسى» بمعنى قد؛ قاله الأصم. وقيل: هى واجبة . و«عسى» من الله واجبة فى جميع القرآن إلا قوله تعالى : «عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ» . وقال أبو عبيدة : «عسى» من الله إيجاب ، والمعنى عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى أنكم تَغلبون وتَظفرون وتَغنمون وتُؤجرون ، ومن مات مات شهيدا، وعسى أن تحبوا الدّعة وترك القتال وهو شرّ لكم فى أنكم تُغلبون وتُذلون ويذهب أمركم .

قلت : وهذا صحيح لا غبار عليه ؛ كما اتفق فى بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وجَبُنوا عن القتال وأكثروا من الفرار؛ فاستولى العدوّ على البلاد ، وأيّ بلاد ! ؟ وأَسَر وقَتل وسَبَى واسترقّ ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدّمت أيدينا وكسبته! وقال الحسن فى معنى الآية : لا تكرهوا الملمّات الواقعة؛ فلَرُبّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، ولَرُبّ أمرٍ تحبّه فيه عطَبك؛ وأنشد أبو سعيد الضّرير :

رُبّ أمرٍ تتقيه * جرّ أمرا ترتضيه
خَفِيَ المحبوبُ منه * وبَدَا المكروه فيه

قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

فيه اثنتا عشرة مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ تقدّم القول فيه (١) . وروى جرير بن عبد الحميد ومحمد بن فُضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة كلهنّ في القرآن : «يسألونك عن المحيض» ، «يسألونك عن الشهر الحرام» ، «يسألونك عن اليتامى» ؛ ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم . قال ابن عبد البر : ليس فى الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث . وروى أبو اليسار عن جندب بن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث رهطا و بعث عليهم أبا عبيدة بن الحارث أو عبيدة بن الحارث ؛ فلما ذهب لينطلق بكى صبابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبعث عبدَ الله بن جحش ، وكتب له كتابا وأمره ألّا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال : ولا تكرهنّ أصحابك على المسير ؛ فلما بلغ المكان قرأ الكتاب فاسترجع وقال : سمعاً وطاعةً لله ولرسوله ، قال : فرجع رجلان ومضى بقيتهم ، فلقوا ابن الحضْرَمِيّ فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب ؛ فقال المشركون : قتلتم فى الشهر الحرام ؛ فأنزل الله تعالى : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ» الآية . ورُوى أن سبب نزولها أن رجلين من بنى كلاب لقيا عمرو بن أُميّة الضَّمْرِيّ وهو لا يعلم أنهما كانا عند النبيّ صلى الله عليه

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الجزء .

وسلم وذلك فى أول يوم من رجب فقتلهما؛ فقالت قريش : قتلهما فى الشهر الحرام؛ فنزلت الآية . والقول بأن نزولها فى قصة عبد الله بن جحش أكثر وأشهر، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه مع تسعة رَهْط، وقيل ثمانية، فى جمادى الآخرة قبل بَدْر بشهرين، وقيل فى رجب .

قال أبو عمر — فى كتاب الدرر له — : ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب كُرْز ابن جابر — وتُعرف تلك الخرجة ببدر الأولى — أقام بالمدينة بقية جمادى الآخرة ورجب، وبعث فى رجب عبد الله بن جحش بن رِئاب الأسدى ومعه ثمانية رجال من المهاجرين، وهم أبو حذيفة بن عُتبة، وعُكّاشة بن مِحْصَن، وعُتْبة بن غَزْوان، وسُهيل بن بَيْضاء الفهرىّ، وسعد بن أبى وَقّاص، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبد الله التميمى، وخالد بن بُكير الليثىّ . وكتب لعبد الله بن جحش كتابا، وأمره ألّا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه [فيمضى لِما أمره به][1] ولا يَسْتَكْرِه أحدا من أصحابه، وكان أميرهم، ففعل عبد الله بن جحش ما أمره به؛ فلما فتح الكتاب وقرأه وجد فيه : «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نَخْلة بين مكة والطائف فترصَّدْ بها قريشا، وتعلّمْ لنا من أخبارهم» . فلما قرأ الكتاب قال : سمعًا وطاعةً؛ ثم أخبر أصحابه بذلك، وبأنه لا يستكره أحدا منهم، وأنه ناهضٌ لوجهه بمن أطاعه، وأنه إن لم يطعه أحد مضى وَحْدَه؛ فمن أحبّ الشهادة فلْيَنْهَض، ومن كره الموت فليرجع . فقالوا : كلنا نرغب فيما ترغب فيه، وما منّا أحدٌ إلا وهو سامعٌ مطيعٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ونهضوا معه؛ فسلك على الحجاز، وشَرَد لسعد بن أبى وَقّاص وعتبة بن غَزْوان جمل كانا يعتقبانه فتخلفا فى طلبه، ونَفَذ عبد الله بن جحش مع سائرهم لوجهه حتى نزل بنخلة؛ فمرّت بهم عِيرٌ لقريش تحمل زبيبا وتجارة فيها عمرو بن الحضرمىّ — واسم الحضرمىّ عبد الله بن عبّاد من الصَّدَف، والصَّدَف بطن من حضرموت — وعثمانُ بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل ابن عبد الله بن المغيرة المخزوميّان، والحكمُ بن كَيْسان مولى بنى المغيرة؛ فتشاور المسلمون وقالوا : نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام؛ فإن نحن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام، وإن

(١) زيادة عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى . راجع سرية عبد الله بن جحش .

تركاهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اتفقوا على لقائهم ، فرمى واقدُ بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى فقتله ، وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كَيْسان ، وأفلتَ نوفلُ بن عبد الله ؛ ثم قدموا بالعير والأسيرين ، وقال لهم عبد الله بن جحش : اعزلوا مما غنمنا الخُمُس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلوا ؛ فكان أوّل خُمس فى الإسلام ، ثم نزل القرآن : «وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» فأقر الله ورسولُه فعلَ عبد الله بن جحش ورضيَه وسنّه للأمة الى يوم القيامة ؛ وهى أوّل غَنيمة غُنمت فى الإسلام ، وأوّل أمير ، وعمرو بن الحضرمى أوّل قتيل . وأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلَ ٱبن الحضرمى فى الشهر الحرام ، فسُقط فى أيدى القوم ؛ فأنزل الله عز وجل : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ » الى قوله : « هُمْ فيها خَالِدُونَ » . وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الفِداء فى الأسيرين ؛ فأما عثمان بن عبد الله فمات بمكة كافرا ، وأما الحكم بن كَيْسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ٱستُشهد ببئر مَعُونَة ، ورجع سعد وعتبة الى المدينة سالمين . وقيل : إن انطلاق سعد ابن أبى وقّاص وعتبة فى طلب بعيرهما كان عن إذْنٍ من عبد الله بن جحش ، وإن عمرو بن الحضرمى وأصحابه لما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم ؛ فقال عبد الله ابن جحش : إن القوم قد فزعوا منكم ، فٱحلِقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهم ، فاذا رأوه محلوقا أمنوا وقالوا : قوم عُمّار لا بأس عليكم ، وتشاوروا فى قتالهم ، الحديث . وتفاءلت اليهودُ وقالوا : واقدٌ وقَدَتِ الحربُ ، وعمرٌو عمرت الحربُ ، والحضرمى حضرت الحربُ . وبعث أهل مكة فى فداء أسيريهم ؛ فقال : لانُفدهم حتى يَقْدَم سعدٌ وعتبة ، وإن لم يَقْدَما قتلناهما بهما ؛ فلما قَدِما فاداهما ؛ فأما الحكم فأسلم وأقام بالمدينة حتى قُتل يوم بئر مَعُونَة شهيدا ، وأما عثمان فرجع الى مكة فمات بها كافرا ، وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخَنْدق على المسلمين فوقع فى الخندق مع فرسه فتحطّما جميعا فقتله الله تعالى ؛ وطلب المشركون جِيفته بالثمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خذوه فانه خبيث الجيفة خبيث الدِّيَة" ؛ فهذا سبب نزول قوله تعالى : «يسألونك عن الشهرِ الحرام» . وذكر ابن إسحاق أن قتل

عمرو بن الحضرمى كان فى آخر يوم من رجب، على ما تقدّم. وذكر الطبرى عن السُّدّى وغيره أن ذلك كان فى آخر يوم من جمادى الآخرة، والأوّل أشهر، على أن ابن عباس قد ورد عنه أن ذلك كان فى أوّل ليلة من رجب، والمسلمون يظنونها من جمادى. قال ابن عطية: وذكر الصاحب بن عبّاد فى رسالته المعروفة بالأسدية أن عبد الله بن جحش سُمّىَ أمير المؤمنين فى ذلك الوقت لكونه مؤمّرا على جماعة من المؤمنين.

الثانيــة — واختلف العلماء فى نسخ هذه الآية؛ فالجمهور على نسخها، وأن قتال المشركين فى الأشهر الحُرُم مباح. واختلفوا فى ناسخها؛ فقال الزهرى: نسخها «وقاتلوا المشركين كافّة». وقيل: نسخها غَزْوُ النبى صلى الله عليه وسلم ثقيفًا فى الشهر الحرام، وإغزاؤه أبا عامر(1) إلى أَوْطَاس(2) فى الشهر الحرام. وقيل: نسخها بيعة الرِّضوان على القتال فى ذى القعدة، وهذا ضعيف؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغه قتل عثمان بمكة وأنهم عازمون على حربه بايع حينئذ المسلمين على دفعهم لا على الابتداء بقتالهم. وذكر البيهقى عن عروة بن الزبير من غير حديث محمد بن إسحاق فى أثر قصة الحضرمى: فأنزل الله عز وجل: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ» الآية قال: فحدّثهم الله فى كتابه أن القتال فى الشهر الحرام حرام كما كان، وأن الذى يستحلّون من المؤمنين هو أكبر من ذلك من صدّهم عن سبيل الله حين يسجنونهم ويعذبونهم ويحبسونهم(3) أن يهاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكفرهم بالله وصدّهم المسلمين عن المسجد الحرام فى الحج والعُمْرة والصلاة فيه، وإخراجهم أهل المسجد الحرام وهم سُكّانه من المسلمين، وفتنتهم إيّاهم عن الدِّين؛ فبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم عَقَل(4) ابنَ الحضرمى وحرّم الشهر الحرام كما كان يحرّمه، حتى أنزل الله عز وجل: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ». وكان عطاء يقول: الآية محكمة، ولا يجوز القتال فى الأشهر الحُرُم، ويحلف على ذلك؛ لأن الآيات التى وردت بعدها عامة فى الأزمنة، وهذا

(1) هو أبو عامر الأشعرى، ابن عم أبى موسى الأشعرى.
(2) أوطاس: واد فى ديار هوازن، وفيه كانت وقعة حنين. راجع طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام فى غزوة حنين.
(3) فى بعض النسخ: «يستحيونهم». (4) عقل القتيل: أعطى ورثته ديته بعد قتله.

خاص والعام لا ينسخ الخاص باتفاق . وروى أبو الزبير عن جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى[1] .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ «قتال» بدل عند سيبويه بدل اشتمال، لأن السؤال اشتمل على الشهر وعلى القتال ، أى يسألك الكفار تعجبًا من هتك حُرْمة الشهر؛ فسؤالهم عن الشهر إنما كان لأجل القتال فيه . قال الزجاج : المعنى يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام . وقال القُتَبىّ : يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام هل يجوز؟ فأبدل قتالا من الشهر؛ وأنشد سيبويه :

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ * ولكنه بُنيانُ قومٍ تهدّما[2]

وقرأ عكرمة «يسألونك عن الشهر الحرام قتلٍ فيه قل قتلٌ» بغير ألف فيهما . وقيل : المعنى يسألونك عن الشهر الحرام وعن قتال فيه ؛ وهكذا قرأ ٱبن مسعود ؛ فيكون مخفوضا بعن على التكرير، قاله الكسائىّ . وقال الفرّاء : هو مخفوض على نية عن . وقال أبو عبيدة: هو مخفوض على الجوار . قال النحاس : لا يجوز أن يُعربَ الشيء على الجوار فى كتاب الله ولا فى شيء من الكلام، وإنما الجوار غلط؛ وإنما وقع فى شيء شاذّ، وهو قولهم: هذا جُحر ضَبٍّ خَرِبٍ؛ والدليل على أنه غلط قول العرب فى التثنية : هذان جحرا ضَبٍّ خربان، وإنما هذا بمنزلة الإقواء ، ولا يجوز أن يحمل شيء من كتاب الله على هذا، ولا يكون إلا بأفصح اللغات وأصحها. قال ٱبن عطية : وقال أبو عبيدة : هو خفض على الجوار؛ وقوله هذا خطأ . قال النحاس : ولا يجوز إضمار عن؛ والقول فيه أنه بدل . وقرأ الأعرج «يسألونك عن الشهر الحرام قتالٌ فيه » بالرفع . قال النحاس : وهو غامض فى العربية، والمعنى فيه يسألونك عن الشهر الحرام أجائز قتال فيه؟ فقوله : «يسألونك» يدل على الاستفهام؛ كما قال ٱمرؤ القيس :

---

(١) كذا فى تفسير الفخر الرازى وكثير من كتب التفسير وفى الاصول : «إلا أن يغزى أو يغزوا » . وفى الطبرى : « إلا أن يغزى أو يغزو حتى اذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ » .

(٢) البيت لعبدة بن الطبيب ؛ وفى فيه قيس بن عاصم المنقرى ، وكان سيد أهل الوبر من تميم . (عن كتاب سيبويه ج ١ ص ٧٧ طبع بولاق) .

أَصَاحِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَهُ * كَلَمْعِ اليَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ (١)

والمعنى : أترى برقا، فحذف ألف الاستفهام ؛ لأن الألف التي في «أصاح» تدل عليها وإن كانت حرف نداء، كما قال الشاعر :

* تَرُوحُ من الحيِّ أم تَبْتَكِرْ *

والمعنى : أتروح، فحذف الألف لأن أم تدل عليها .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ ابتداء وخبر، أي مستنكر ؛ لأن تحريم القتال في الشهر الحرام كان ثابتا يومئذ إذ كان الابتداء من المسلمين . والشهر في الآية اسم جنس، وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قواما تعتدل عنده، فكانت لا تسفك دماء ولا تُغير في الأشهر الحُرُم، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم؛ ثلاثة سرد (٢) وواحد فرد . وسيأتي لهذا مزيد بيان في «المائدة» إن شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ابتداء ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ عطف على «صدّ» ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ عطف على سبيل الله ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ منه ﴾ عطف على صدّ، وخبر الابتداء ﴿ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي أعظم إثما من القتال في الشهر الحرام؛ قاله المبرّد وغيره . وهو الصحيح، لطول منع الناس عن الكعبة أن يطاف بها . وَكُفْرٌ بِهِ أي بالله، وقيل : «وكفر به» أي بالحج والمسجد الحرام . «وإخراج أهله منه أكبر» أي أعظم عقوبة عند الله من القتال في الشهر الحرام . وقال الفرّاء : «صدّ» عطف على «كبير» . «والمسجد» عطف على الهاء في به؛ فيكون الكلام نسقا متصلا غير منقطع . قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأن المعنى يسوق الى أن قوله : «وكفر به» أي بالله عطف أيضا على «كبير» . ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله وهذا بيّن فساده . ومعنى الآية على قول الجمهور :

---

(١) الوميض : لمع البرق . قوله : كلمع اليدين . أراد كحركة اليدين وتقليبهما . والحبى : ما ارتفع من السحاب. وقيل : هو الذي يعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء . والمكلل من السحاب : الملمع بالبرق . ويقال : هو الذي حوله قطع من السحاب. (٢) الثلاثة السرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والسرد التابع . والواحد الفرد : رجب ؛ وصار فردا لأنه يأتي بعده شعبان وشهر رمضان وشوّال .

إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال فى الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصدّ عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله وإخراجكم أهلَ المسجد منه؛ كما فعلتم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر جُرْماً عند الله . وقال عبد الله بن جَحْش رضى الله عنه :

تَعُدُّون قتْلًا فى الحرام عظيمةً * وأعظمُ منه لو يَرَى الرُّشدَ راشدُ
صُدودُكُمُ عما يقول محمدٌ * وكُفرٌ به والله راءٍ وشاهدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهلَه * لئلا يُرَى لله فى البيت ساجدُ
فإنّا وإنْ عيّرتمونا بقتله * وأرجفَ بالاسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنا من آبنِ الحَضْرَمِىّ رماحَنا * بنَخْلةَ لمّا أوْقَدَ الحربَ واقدُ
دَمًا وآبنُ عبد الله عثمان بيننا * يُنازعه غُلٌّ من القِدّ عانِدُ

وقال الزهرىّ ومجاهد وغيرهما : قوله تعالى : « قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ » منسوخ بقوله : « وقاتلوا المشركين كافة » وبقوله : « اقتلوا المشركين » . وقال عطاء : لم ينسخ، ولا ينبغى القتال فى الأشهر الحرم؛ وقد تقدّم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ قال مجاهد وغيره : الفتنة هنا الكفر ، أى كفركم أكبر من قتلنا أولئك . وقال الجمهور : معنى الفتنة هنا فتنتهم المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا، أى أن ذلك أشد اجتراما من قتلكم فى الشهر الحرام .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ ﴾ ابتداء وخبر من الله تعالى، وتحذير منه للؤمنين من شرّ الكفرة . قال مجاهد : يعنى كفار قريش . و«يردوكم» نصب بحتى، لأنها غاية مجرّدة .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ ﴾ أى يرجع من الإسلام الى الكفر ﴿ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ ﴾ أى بطلت وفسدت ؛ ومنه الحَبَط وهو فساد يلحق المواشى فى بطونها من كثرة أكلها الكلأ فتنتفخ أجوافها ، وربّما تموت من ذلك ؛ فالآية تهديد للسلمين ليثبتوا على دين الإسلام .

التاســعة ــ واختلف العلماء فى المرتدّ هل يستتاب أم لا؟ وهل يحبط عمله بنفس الردّة أم لا، إلا على الموافاة على الكفر؟ وهل يورث أم لا؟ فهذه ثلاث مسائل:

الأولى ــ قالت طائفة: يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل. وقال بعضهم: ساعة واحدة. وقال آخرون: يستتاب شهرا. وقال آخرون: يستتاب ثلاثا، على ما رُوى عن عمر وعثمان؛ وهو قول مالك رواه عنه ابن القاسم. وقال الحسن: يُستتاب مائة مرة، وقد رُوى عنه أنه يقتل دون استتابة، وبه قال الشافعىّ فى أحد قوليه، وهو أحد قولى طاوس وعُبيد بن عُمير. وذكر سُحنون أن عبد العزيز بن أبى سَلَمة الماجِشُون كان يقول: يقتل المرتد ولا يستتاب؛ واحتج بحديث معاذ وأبى موسى، وفيــه: أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما بعث أبا موسى الى اليمن أتبعه معاذَ بن جبل فلما قدم عليــه قال: انزل، وألقى اليــه وسادة، وإذا رجل عنده مُوثَق، قال: ما هذا؟ قال: هذا كان يهوديا فأسلم ثم راجع دينه دين السَّوء فتهوّد. قال: لا أجلس حتى يُقتل، قضاءُ الله ورسوله؛ فقال: اجلس. قال: [نعم](1) لا أجلس حتى يُقتل، قضاءُ الله ورسوله ــ ثلاث مرات ــ فأمر به فقُتل؛ خرّجه مسلم وغيره. وذكر أبو يوسف عن أبى حنيفة أن المرتدّ يُعرض عليه الإسلام فان أسلم وإلا قُتل مكانه، إلا أن يطلب أن يُؤجَّل، فإن طلب ذلك أُجِّل ثلاثة أيام؛ والمشهور عنــه وعن أصحابه أن المرتدّ لا يقتل حتى يستتاب. والزنديق عندهم والمرتدّ سواء. وقال مالك: وتقتل الزنادقة ولا يستتابون. وقد مضى هذا أوّل «البقرة»(2). واختلفوا فيمن خرج من كفر الى كفر؛ فقال مالك وجمهور الفقهاء: لا يُتعرض له؛ لأنه انتقل الى ما لو كان عليــه فى الابتداء لأُقرّ عليه. وحكى ابن عبد الحكم عن الشافعىّ أنه يقتل؛ لقوله عليه السلام: "من بدّل دينه فاقتلوه" ولم يخص مسلما من كافر. وقال مالك: معنى الحديث من خرج من الإسلام الى الكفر، وأمّا مَن خرج من كفر الى كفر فلم يُعنَ بهذا الحديث؛ وهو قول جماعة من الفقهاء. والمشهور عن الشافعىّ ما ذكره المُزَنىّ والربيع أن المبدّل لدينــه من أهل الذمّة يُلحقه الإمام

(١) زيادة عن صحيح مسلم. (٢) راجع جـ ١ ص ١٩٨ طبعة ثانية وثالثة.

بأرض الحرب ويُخرجه من بلده ويستحلّ ماله مع أموال الحربيين إن غلب على الدار ؛ لأنه انما جُعل له الذِّمة على الدِّين الذى كان عليه فى حين عقد العهد . واختلفوا فى المرتدّة؛ فقال مالك والأوزاعيّ والشافعيّ والليث بن سعد : تُقتل كما يُقتل المرتدّ سواء ؛ وحجتهم ظاهر الحديث: "من بدّل دينه فاقتلوه". و «مَن» يصلح للذّكَر والأنثى . وقال الثوريّ وأبو حنيفة وأصحابه : لا تقتل المرتدة؛ وهو قول ابن شُبْرُمَة، واليه ذهب ابن عُلَيّة ، وهو قول عطاء والحسن . واحتجوا بأن ابن عباس روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من بدّل دينه فاقتلوه" ثم إن ابن عباس لم يقتل المرتدّة، ومن روى حديثا كان أعلم بتأويله ؛ ورُوى عن عليّ مثله . ونهى صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان . واحتج الأوّلون بقوله عليه السلام: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث كفر بعد إيمان ... " فعمّ كل مَن كفر بعد إيمانه؛ وهو أصح .

العاشرة ــ قال الشافعيّ : إن من ارتدّ ثم عاد الى الاسلام لم يحبط عمله ولا حَجّه الذى فرغ منه؛ بل إن مات على الردّة فحينئذ تحبط أعماله . وقال مالك : تحبط بنفس الردّة؛ ويظهر الخلاف فى المسلم اذا حج ثم ارتدّ ثم أسلم ؛ فقال مالك : يلزمه الحج ، لأن الأوّل قد حبط بالردّة . وقال الشافعيّ : لا إعادة عليه، لأن عمله باق . واستظهر علماؤنا بقوله تعالى : «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» . قالوا : وهو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ لأنه عليه السلام يستحيل منه الردة شرعا . وقال أصحاب الشافعيّ : بل هو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم على طريق التغليظ على الأُمّة ، وبيان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم على شرف منزلته لو أشرك لحبط عمله ؛ فكيف أنتم ! لكنه لا يشرك لفضل مرتبته ؛ كما قال : «يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» وذلك لشرف منزلتهنّ ؛ وإلا فلا يتصوّر إتيانٌ منهنّ صيانة لزوجهنّ المُكَرَّم المُعَظَّم ؛ ابن العربى . وقال علماؤنا : إنما ذكر الله الموافاة شرطا ها هنا لأنه علّق عليها الخلود فى النار جزاء؛ فمن وافى على الكفر خلّده الله فى النار بهذه الآية ، ومن أشرك حبط عمله بالآية الأخرى ، فهما آيتان

مفيدتان لمعنيين وحكمين متغايرين . وما خوطب به عليه السلام فهو لأمته حتى يثبت اختصاصه، وما ورد فى أزواجه فإنما قيل ذلك فيهن ليبيّن أنه لو تصوّر لكان لهتكان أحدهما لحُرْمة الدّين والثانى لحرمة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولكلّ هَتْك حُرْمة عقاب؛ وينزّل ذلك منزلة من عصى فى الشهر الحرام أو فى البلد الحرام أو فى المسجد الحرام؛ يضاعف عليه العذاب بعدد ما هتك من الحرمات . والله أعلم .

الحادية عشرة — وهى اختلاف العلماء فى ميراث المرتدّ ؛ فقال عليّ بن أبى طالب والحسن والشّعبيّ والحَكَم والليث وأبو حنيفة وإسحاق بن رَاهْوَيْه : ميراث المرتدّ لورثته من المسلمين . وقال مالك وربيعة وابن أبى لَيْلَى والشافعيّ وأبو ثور : ميراثه فى بيت المال . وقال ابن شُبْرُمَة وأبو يوسف ومحمد والأوزاعيّ فى إحدى الروايتين : ما اكتسبه المرتدّ بعد الرّدة فهو لورثته المسلمين . وقال أبو حنيفة : ما اكتسبه المرتد فى حال الرّدة فهو فَيْء، وما كان مكتسبا فى حالة الاسلام ثم ارتدّ يرثه ورثته المسلمون ؛ وأما ابن شُبْرُمة وأبو يوسف ومحمد فلا يُفصّلون بين الأمرين ؛ ومطلق قوله عليه السلام : "لا وِراثة بين أهل مِلّتين" يدل على بطلان قولهم . وأجمعوا على أن ورثته من الكفار لا يرثونه ، سوى عمر بن عبد العزيز فانه قال : يرثونه .

الثانية عشرة[1] — قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

قال جُنْدَب بن عبد الله وعروة بن الزبير وغيرهما : لما قتل واقدُ بن عبد الله التميميّ عمرو بنَ الحضرميّ فى الشهر الحرام توقّف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أخذ خُمُسه الذى وُفّق فى فرضه له عبدُ الله بن جحش وفى الأسيرين فعنّف المسلمون عبدَ الله بن جحش وأصحابَه حتى شَقّ ذلك عليهم فتلافاهم الله عز وجل بهذه الآية فى الشهر الحرام وفرّج عنهم ، وأخبر أن لهم ثواب من هاجر وغزا ؛ فالإشارة إليهم فى قوله : «إن الذين آمنوا» . ثم هى باقية فى كل

(١) يلاحظ أن هذه المسئلة من تتمة مسائل الآية السابقة .

من فعل ما ذكره الله عزّ وجل . وقيل : أن لم يكونوا أصابوا وزرا فليس لهم أجر[(١)]، فأنزل الله « إن الذين آمنوا والذين هاجروا » الى آخر الآية .

والهِجْرة معناها الإنتقال من موضع الى موضع، وقصدُ ترك الأول إيثارا للثانى . والهَجْر ضدّ الوصل . وقد هَجَره هَجْرا وهِجرانا، والاسم الهِجْرة . والمهاجرة من أرض الى أرض تركُ الأولى للثانية . والتّهاجُر التقاطع . ومن قال : المهاجرة الانتقال من البادية الى الحاضرة فقد أوهم؛ بسبب أن ذلك كان الأغلب فى العرب، وليس أهل مكة مهاجرين على قوله . « وجاهد » مفاعلة من جَهَد اذا استخرج الجهد، مجاهدة وجهادا . والاجتهاد والتجاهد : بذل الوسع والمجهود . والجَهاد (بالفتح) : الأرض الصُّلبة . و « يرجون » معناه يطمعون ويستقربون . و إنما قال : « يرجون » وقد مدحهم لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر الى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كلّ مبلغ، لأمرين : أحدهما ـ لا يدرى بما يُختم له . والثانى ـ لئلا يتّكل على عمله . والرجاء تنعم، والرجاء أبدا معه خوف ولا بُدّ، كما أن الخوف معه رجاء. والرجاء من الأمل ممدود؛ يقال : رَجَوت فلانا رَجْوا ورَجاء ورَجَاوة، يقال : ما أتيتك إلا رَجَاوَةَ الخير . وترجّيته وارْتجيته ورَجّيته وكله بمعنى رَجَوته، قال بِشر يخاطب بنته :

فرَجِّى الخيرَ وانتظِرى إيابى * إذا ما القارِظُ العنَزِى آبا

ومالِى فى فلان رَجِيّة، أى ما أرجو . وقد يكون الرَّجْو والرجاء بمعنى الخوف، قال الله تعالى : « مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » أى لا تخافون عظمةَ الله؛ قال أبو ذؤيب :

إذا لسعته النّحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها * وخالفها[(٢)] فى بيت نُوبٍ عوامِلِ

أى لم يَخَف ولم يُبالِ . والرجا ـ مقصور ـ : ناحية البئر وحافتاها ، وكل ناحية رَجًا . والعوَام من الناس يخطئون فى قولهم : يا عظيمَ الرّجَا؛ فيقصُرون ولا يمدّون .

(١) يريد أن المسلمين وأهل السرية لما فرج الله عنهم ما كانوا فيه من أمر قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام بانزال قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام » الآية ، ظنوا أنه إنما نفى عنهم الإثم فقط ولا أجر لهم طمعوا فيه فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ وفى رواية : أن لم يكونوا أصابوا وزرا فلا أجر لهم؟ فأنزل الله قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا » الآية فوضعهم الله فى ذلك على أعظم رجاء .

(٢) خالفها (بالخاء المعجمة): خلفها الى عسلها وهى غائبة قد سرحت ترعى . ويروى : « حالفها » بالحاء المهملة ، أى لازمها . والنوب : النحل ، وهو جمع نائب؛ لأنها ترعى ثم تنوب الى موضعها .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ . فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ السائلون هم المؤمنون؛ كما تقدّم . والخمر مأخوذة من خَمَر اذا ستر؛ ومنه خِمار المرأة . وكلُّ شيء غطّى شيئا فقد خَمَره؛ ومنه "خَمِّرُوا آنيتكم"⁽¹⁾. فالخمر تَخْمُر العقلَ، أى تُغطّيه وتستره؛ ومن ذلك الشجر الملتف يقال له :الخَمَر (بفتح الميم) لأنه يغطّى ما تحته ويستره؛ يقال منه : أَخْمَرتِ الأرض كثُر خَمَرُها؛ قال الشاعر :

ألَا يازيدُ والضّحاكَ سِيرَا * فقد جاوزتما خَمَر الطّريق

أى سيرًا مُدِلّين فقد جاوزتما الوَهْدة التى يستتر بها الذّئبُ وغيرُه . وقال العجّاج يصف جيشا يمشى برايات وجيوش غير مستخْفٍ :

فى لامع العِقْبان لا يمشِى الخَمَرْ * يُوجِّه الأرضَ ويَستاقُ الشَّجرْ⁽²⁾

ومنه قولهم : دخل فى غُمار الناس وخُمارهم ؛ أى هو فى مكان خاف . فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطّيه سُمّيت بذلك . وقيل : إنما سميت الخمر خمرا لأنها تُرِكت حتى أدركت ؛ كما يقال : قد اختمر العجين، أى بلغ إدراكه . وخُمِر الرأى، أى تُرِك حتى يتبيّن فيه الوجه . وقيل : إنما سُمّيت الخمر خمرا لأنها تخالط العقل، من المخامرة وهى المخالطة؛ ومنه قولهم : دخلت فى خَمار الناس، أى اختلطت بهم . فالمعانى الثلاثة متقاربة؛ فالخمر تُركت وخُمِرت حتى أدركت، ثم خالطت العقل، ثم خمرته ؛ والأصل الستر .

---

(١) راجع ص ٣٧ من هذا الجزء . (٢) العقبان (جمع عقاب) : الرايات . وقوله : «يوجه الأرض» أى لا يمر بشىء إلا جعله جهة واحدة؛ فيكون وجهه مع وجهه حيث يذهب . وقوله : «ويستاق الشجر» أى يمر بالرِّمث (مرعى من مراعى الابل) والعرفج وسائر الشجر فيستاقه معه؛ يذهب به من كثرته .

والخمر : ماء العنب الذى غَلى أو طُبخ؛ وما خامر العقل من غيره فهو فى حُكمه ، لأن إجماع العلماء أن القِمار كله حرام . وإنما ذُكر المَيْسر من بينه فجُعل كلّه قياسا على الميسر ؛ والميسر إنما كان قِمارا فى الجُزُر خاصّة؛ فكذلك كلّ ما كان كالخمر فهو بمنزلتها .

الثانيــة ــ والجمهور من الأمة على أنّ ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرّم قليله وكثيره، والحدّ فى ذلك واجب. وقال أبو حنيفة والثورىّ وابن أبى لَيْلَى وابن شُبْرُمَة وجماعة من فقهاء الكوفة : ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو[١] حلال ، وإذا سَكر منه أحد دون أن يتعمّد الوصولَ إلى حدّ السُّكر فلا حدّ عليه؛ وهذا ضعيف يردّه النظر والخبر، على ما يأتى بيانه فى «المـائدة والنحل» إن شاء الله تعالى .

الثالثـة ــ قال بعض المفسرين: إنّ الله تعالى لم يَدَعْ شيئا من الكرامة والبِرّ إلا أعطاه هذه الأمة ، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائعَ دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرّة بعد مرّة ؛ فكذلك تحريم الخمر . وهذه الآية أوّل ما نزل فى أمر الخمر، ثم بعده : « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » ثم قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » ثم قوله : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » على ما يأتى بيانه فى « المـائدة » .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْمَيْسِرُ ﴾ الميسر: قِمار العرب بالأَزْلام . قال ابن عباس: كان الرجل فى الجاهليـة يخاطر الرجلَ على أهله وماله فأيّهما قَمَـر صاحبَه ذهب بماله وأهله؛ فنزلت الآية . وقال مجاهـد ومحمد بن سِيرِين والحسن وابن المسيّب وعطاء وقتـادة ومعاوية ابن صالح وطاوس وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وابن عباس أيضا : كل شىء فيـه قمار من نَرْد وشِــطْرَنْج فهو المَيْسر ، حتى لُعَب الصِّبيان بالجَوْز والكِعَاب[٢]؛ إلا ما أبيح من الرِّهان فى الخيل والقُرعة فى إفراز الحقوق؛ على ما يأتى . وقال مالك : المَيْسر مَيْسِران: مَيْسر اللهو،

(١) أى قليله . (٢) الكعاب : فصوص النرد .

وميسر القِمار؛ فمن مَيسر اللهــو النَّرد والشَّطْرنج والملاهى كلها . وميسر القمار : ما يتخاطر الناس عليه . قال علىّ بن أبى طالب : الشِّطْرنج مَيْسر العجم . وكلّ ما قومِر به فهو مَيسر عند مالك وغيره من العلماء . وسيأتى فى « يونس »[1] زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

والميسر مأخوذ من اليسر، وهو وجوب الشيء لصاحبه؛ يقال : يَسَرلى كذا اذا وجب فهو يِيسر يَسَرًا ومَيْسرا . والياسر : اللاعب بالقِداح، وقد يَسَر يِيْسِر؛ قال الشاعر :

فأعِنهُمُ وأيْسِرْ بمـا يَسَرُوا به * وإذا هُمُ نَزلُوا بضَنْك فأنْزِلِ

وقال الأزهرى : الميسر : الجزور الذى كانوا يتقامرون عليــه ؛ سُمِّى ميسرا لأنه يُجَزَّأ جزاء، فكأنه موضع التجزئة، وكلُّ شيء جَزَّأته فقــد يَسَرته . والياسر : الجازر ؛ لأنه يجزِّئ لحم الجَزُور. قال : وهذا الأصل فى الياسر،ثم يقال للضار بين بالقِداح والمتقامرين على الجزور : ياسرون؛ لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك. وفى الصِّحاح : ويَسَر القومُ الجزورَ أى اجتزروها واقتسموا أعضاءها . قال سُحَيم بن وَثِيل اليربوعى :

أقولُ لهم بالشِّــعب إذ يَيْسِرُونَنِى * ألم تَيْأسُوا أنى ابنَ فارِسِ زَهْدَمِ[2]

كان قد وقع عليه سِباء فضُرب عليه بالسهام . ويقال : يَسَر القومُ إذا قامروا . ورجل يَسَر وياسرٌ بمعنًى، والجمع أيسار؛ قال النابغة :

أنى أُتَمِّــمُ أيْسارِى وأمنَحُهــم * مَثْنَى الأيادِى[3] وأَكْسُو الجفْنَةَ الأدَمَا

وقال طَرَفَة :

وهمُ أيْسارُ لقمانَ إذا * أغْلَتِ الشَّتْوةُ[4] أبْداءَ الجُزُرْ

وكان من تطوّع بنحرها ممدوحا عندهم؛ قال الشاعر :

وناجية نَحرتَ لقومِ صدقٍ * وما ناديتُ أيْسارَ الجَزورِ

---

(١) عند قوله تعالى : فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال ...» آية ٣٢ (٢) تيأسوا (من يئس) بمعنى علم . وزهدم (كجعفر) : اسم فرس . (٣) قوله : «مثنى الأيادى» هو أن يعيد معروفه مرتين أو ثلاثا . (٤) الشتوة (واحد جمعه شتاء) والعرب تجعل الشتاء مجاعة ؛ لان الناس يلتزمون فيه البيوت ولا يخرجون للانتجاع . وأبداء (جمع بدء) : خير عظم فى الجزور . وقيل : هو خير نصيب فيها .

الخامسة ـ رَوى مالك فى الموطّأ عن داود بن حُصين أنه سمع سعيد بن المسيّب يقول: كان مِن مَيْسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين؛ وهذا محمول عند مالك وجمهور أصحابه فى الجنس الواحد، حيوانه بلحمه؛ وهو عنده من باب المُزَابنة[1] والغَرر[2] والقِمار، لأنه لا يُدرَى هل فى الحيوان مثل اللحم الذى أعطى أو أقل أو أكثر، وبيع اللحم باللحم لا يجوز متفاضلا؛ فكان بيع الحيوان باللحم كبيع اللحم المُغيَّب فى جلده إذا كانا من جنس واحد، والجنس الواحد عنده الإبل والبقر والغنم والظِّباء والوُعُول وسائر الوحوش، وذوات الأربع المأكولات كلها عنده جنس واحد، لا يجوز بيع شىء من حيوان هذا الصنف والجنس كله بشىء واحد من لحمه بوجه من الوجوه؛ لأنه عنده من باب المُزَابنة، كبيع الزبيب بالعنب والزيتون بالزيت والشَّيْرَج بالسِّمسم، ونحو ذلك. والطير عنده كله جنس واحد، وكذلك الحِيتان من سمك وغيره. ورُوى عنه أن الجراد وحده صِنف. وقال الشافعىّ وأصحابه واللّيث ابن سعد: لا يجوز بيع اللحم بالحيوان على حال من الأحوال من جنس واحد كان أم من جنسين مختلفين؛ على عموم الحديث. ورُوى عن ابن عباس أن جزورا نُحرت على عهد أبى بكر الصدّيق فقُسمت على عشرة أجزاء؛ فقال رجل: أعطونى جزءا منها بشاة؛ فقال أبو بكر: لا يصلح هذا. قال الشافعىّ: ولست أعلم لأبى بكر فى ذلك مخالفا من الصحابة. قال أبو عمر: قد رُوى عن ابن عباس أنه أجاز بيع الشاة باللحم؛ وليس بالقوىّ. وذكر عبد الرزاق عن الثورىّ عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أنه كَرِه أن يُباع حىّ بميت؛ يعنى الشاة المذبوحة بالقائمة. قال سفيان: ونحن لا نرى به بأسا. قال المُزَنىّ: إن لم يصح الحديث فى بيع الحيوان باللحم فالقياس أنه جائز، وإن صح بطل القياس واتُّبع الأثر. قال أبو عمر: وللكوفيين فى أنه جائز بيع اللحم بالحيوان حجج كثيرة من جهة القياس والاعتبار؛ إلا أنه إذا صح الأثر بطل

(١) المزابنة: بيع الرطب فى رءوس النخل بالتمر. وعند مالك: كل جزاف لا يعلم كيله ولا عدده ولا وزنه بيع بمسمى من مكيل وموزون ومعدود؛ أو بيع معلوم بمجهول من جنسه؛ أو بيع مجهول بمجهول من جنسه.

(٢) الغرر: بيع السمك فى الماء والطير فى الهواء. وقيل: ما كان له ظاهر يغر المشترى وباطن مجهول. وقال الأزهرى: ويدخل فى بيع الغرر البيوع المجهولة التى لا يحيط بكنهها المتبايعان حتى تكون معلومة.

القياس والنظر . وروى مالك عن زيد بن أسلم عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الحيوان باللحم . قال أبو عمر : ولا أعلمه يتّصل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت ، وأحسن أسانيده مرسَل سعيد بن المسيّب على ما ذكره مالك في موطّئه ، وإليه ذهب الشافعيّ ؛ وأصله أنه لا يقبل المراسيل إلا أنه زعم أنه افتقد مراسيل سعيد فوجدها أو أكثرها صحاحا . فكرِه بيع أنواع الحيوان بأنواع اللحوم على ظاهر الحديث وعمومه ؛ لأنه لم يأت أثر يخصّصه ولا إجماع . ولا يجوز عنده أن يُخَص النّصّ بالقياس . والحيوان عنده اسم لكل ما يعيش في البرّ والماء وإن اختلفت أجناسه ؛ كالطعام الذي هو اسم لكل مأكول أو مشروب؛ فٱعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ فِيهِمَا ﴾ يعني الخمر والميسر ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ إثمُ الخمر ما يصدر عن الشارب من المخاصمة والمشاتمة وقول الفُحش والزُّور، وزوال العقل الذي يعرف به ما يجب لخالقه ، وتعطيل الصلوات والتعوّق عن ذكر الله ، إلى غير ذلك . روى النّسائيّ عن عثمان رضي الله عنه قال : اجتنبوا الخمر فإنها أُمّ الخبائث ، إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبّد فعلقته ٱمرأة غويّة ، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة؛ فانطلق مع جاريتها فطفِقت كلّما دخل بابا أغلقته دونه ، حتى أفضى الى ٱمرأة وَضِيئة عندها غلام وبَاطِيَةُ خمر؛ فقالت : إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تشرب من هذه الخمر كأسا أو تقتل هذا الغلام . قال : فاسقيني من هذه الخمر؛ كأسا فسقته كأسا . قال : زيدوني ؛ فلم يَرِم (1) حتى وقع عليها ، وقتل النفس ؛ فاجتنبوا الخمر ، فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر؛ إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه؛ وذكره أبو عمر في الاستيعاب . ورُوي أن الأعشى لما توجه الى المدينة ليُسلم فلقيَه بعض المشركين في الطريق فقالوا له : أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمدا صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا : لا تصل اليه، فإنه يأمرك بالصلاة ؛ فقال : إن خدمة الرب واجبة . فقالوا : إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء . فقال :

---

(1) يرم (بفتح الياء وكسر الراء من رام يريم) : أي فلم يبرح .

اصطناع المعروف واجب . فقيل له : إنه ينهى عن الزنا . فقال : هو فحش وقبيح فى العقل، وقد صرت شيخا فلا أحتاج اليه . فقيل له : إنه ينهى عن شرب الخمر . فقال : أما هـذا فإنى لا أصبر عنه ! فرجع وقال : أشرب الخمر سـنة ثم أرجع اليه ؛ فلم يصل الى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات . وكان قيس بن عاصم المِنقرىّ شرّابا لها فى الجاهلية ثم حرّمها على نفسه؛ وكان سبب ذلك أنه غمز عُكْنَة[1] ابنته وهو سكران، وسبّ أبو يه، ورأى القمر فتكلم بشىء، وأعطى الخمّار كثيرا من ماله ؛ فلمـا أفاق أخبر بذلك فحرمها على نفسه ، وفيها يقول :

رأيت الخمر صالحة وفيهـا * خصال تُفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربهـا صحيحا * ولا أشفَى بهـا أبدا سقيما
ولا أعطى بها ثمنا حياتى * ولا أدعو لها أبدا نديمـا
فإنّ الخمر تفضح شاربيها * وتجنيهم بهـا الأمر العظيما

قال أبو عمر : وروى ابن الأعرابىّ عن المفضل الضبىّ أن هذه الأبيات لأبى مِحجن الثقفىّ قالها فى تركه الخمر ، وهو القائل رضى الله عنه :

إذا مُتّ فادفنّى الى جنب كَرْمة * تُروّى عظامى بعد موتى عروقُها
ولا تدفنـنّى بالفَـلاة فإننى * أخاف اذا ما مِتّ أنْ لا أذُوقُها

وجلده عمر الحدّ عليها مرارا، ونفاه الى جزيرة فى البحر؛ فلحق بسعد فكتب اليه عمر أن يحبسه فحبسه ؛ وكان أحد الشجعان البُهَم[2]؛ فلما كان من أمره فى حرب القادسية ما هو معروف حلّ قيوده وقال : لا نجلدك على الخمر أبدا . قال أبو مِحجن : وأنا والله لا أشربها أبدا؛ فلم يشربها بعد ذلك . فى رواية : قد كنت أشربها إذ يقام علىّ الحدّ [وأطهر منها][3]، وأما إذ بهرجتنى[4] فوالله لا أشربها أبدا . وذكر الهيثم بن عدىّ أنه أخبره من رأى قبر أبى مِحجن بأذرَبيجان ،

---

(١) العكنة : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . (٢) البهم (بضم ففتح جمع البهمة) : الفارس الذى لا يدرَى من أين يؤتَى له من شدّة بأسه . (٣) زيادة عن كتاب « الاستيعاب » .
(٤) البهرج (من معانيه) : الشىء المباح . أى أهدرتنى باسقاط الحدّ عنى .

أو قال : فى نواحى جُرجان ، وقد نبتت عليه ثلاثة أصول كَرْم وقد طالت وأثمرت ، وهى معروشة على قبره ، مكتوب على قبره « هذا قبر أبى محجن » قال : فجعلت أتعجب وأذكر قوله :

* اذا مُتّ فادفنّى الى جَنْب كرمة *

ثم إن الشارب يصير مُضحَكة للعقلاء، فيلعب ببوله وعَذِرَته ، وربما يمسح وجهه، حتى رؤى بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول : اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين . ورؤى بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول له : أكرمك الله .

وأما القمار فيورث العداوة والبغضاء، لأنه أكل مال الغير بالباطل .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ ومنافعُ للناس ﴾ أما فى الخمر فربح التجارة؛ فانهم كانوا يجلبونها من الشام برُخص فيبيعونها فى الحجاز بربح؛ وكانوا لا يرون المماكسة فيها ؛ فيشترى طالب الخمرِ الخمرَ بالثمن الغالى . هذا أصح ما قيل فى منفعتها، وقد قيل فى منافعها : إنها تهضم الطعام ، وتقوى الضعف ، وتعين على الباه ، وتسخى البخيل ، وتشجع الجبان ، وتصفى اللونَ، إلى غير ذلك من اللذة بها . وقد قال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

ونشربها فتتركنا ملوكًا * وأُسْدًا ما يُنَهْنِهنا اللقاء[1]

الى غير ذلك من أفراحها . وقال آخر[2] :

فإذا شربتُ فإننى * ربّ الخَوَرْنَق والسّدِير
وإذا صحوتُ فإننى * ربّ الشُّوَيهة والبعير

ومنفعة الميسر مصير الشىء الى الانسان فى القمار بغير كدّ ولا تعب؛ فكانوا يشترون الجزور ويضربون بسهامهم فمن خرج سهمه أخذ نصيبه من اللحم ولا يكون عليه من الثمن شىء، ومن بقى سهمه آخرا كان عليه ثمن الجزور كله ولا يكون له من اللحم شىء . وقيل : منفعته التوسعة على المحاويج فإن من قمر منهم كان لا يأكل من الجزور وكان يفرّقه فى المحتاجين .

---

(١) النهنهة : الكف والمنع . (٢) هو المنخّل اليشكرى .

وسهام الميسر أحد عشر سهما ؛ منها سبعة لها حظوظ وفيها فروض على عدد الحظوظ ، وهى : « الفَذّ » وفيه علامة واحدة وله نصيب وعليه نصيب إن خاب . الثانى ــ « التّوأم » وفيه علامتان وله وعليه نصيبان . الثالث ــ « الرّقيب » وفيه ثلاث علامات على ما ذكرنا . الرابع ــ « الحِلْس » وله أربع . الخامس ــ « النافِز » والنافس أيضا وله خمس . السادس ــ « المُسْبِل » وله ست . السابع ــ « المُعَلَّى » وله سبع . فذلك ثمانية وعشرون فرضا ، وأنصباء الجزور كذلك فى قول الأصمعى . وبقى من السهام أربعة ، وهى الأغفال لا فروض لها ولا أنصباء ، وهى : « المُصَدَّر » و « المُضَعَّف » و « المَنِيح » و « السَّفِيح » . وقيل : الباقية الأغفال الثلاثة : « السَّفيح » و « والمَنِيح » و « الوَغْد » تزاد هذه الثلاثة لتكثر السهام على الذى يُجيلها[1] فلا يجد الى الميل مع أحد سبيلا . ويسمى المجيلُ المفيضَ[2] والضاربَ والضريبَ ، والجمع الضُّرَباء . وقيل : يُجعل خلفه رقيب لئلا يحابى أحدا ، ثم يجثو الضريب على ركبتيه ، ويلتحف بثوب ويخرج رأسه ويدخل يده فى الرِّبابة[3] فيخرج . وكانت عادة العرب أن تضرب الجزور بهذه السهام فى الشَّتوة وضيق الوقت وكَلَب البَرْد على الفقراء ؛ يُشترى الجَزورُ ويضمن الأيسار ثمنها ويرضى صاحبها من حقه ؛ وكانوا يفتخرون بذلك ويذمون من لم يفعل ذلك منهم ، ويسمّونه « البَرَم » قال متمِّم بن نُويرة :

ولا بَرَمًا تُهدِى النساء لعِرسه * إذا القَشْعُ من بَرْد الشتاء تَقَعْقَعا[4]

ثم تنحر وتقسم على عشرة أقسام . قال ابن عطية : وأخطأ الأصمعى فى قسمة الجزور ، فذكر أنها على قدر حظوظ السهام ثمانية وعشرون قسما ، وليس كذلك ؛ ثم يضرب على العشرة فمن فاز سهمه بأن يخرج من الرِّبابة متقدما أخذ أنصباءه وأعطاها الفقراء . والرِّبابة (بكسر الراء) : شبيهة بالكنانة تُجمع فيها سهام الميسر ؛ وربما سمّوا جميع السهام ربابة ؛ قال أبو ذؤيب يصف الحمار وأُتُنَه :

(١) يجيلها : هو من أجال يجيل إجالة إذا حركها ، أى يضع يده فى الخريطة ويحركها مرتين أو ثلاثا .
(٢) الافاضة بالقداح : الضرب بها وإجالتها عند القمار . (٣) سيذكر المؤلف رحمه الله تعالى معنى الربابة .
(٤) البرم (بفتحتين) : الذى يدخل مع القوم فى الميسر . والقشع : بيت من جلد .

وكأنهن رِبابةٌ وكأنه * يَسَرٌ يُفيض على القِداح ويصدعُ (١)

والرِّبابة أيضا: العهد والميثاق؛ قال الشاعر (٢):

وكنتُ امرأً أفضت اليك رِبابتي * وقبلك رَبّتني فضِعتُ رُبوبُ (٣)

وفى أحيان ربما تقامروا لأنفسهم ثم يغرم الثمن من لم يفز سهمه؛ كما تقدم. ويعيش بهذه السِّيرة فقراء الحيّ؛ ومنه قول الأعشى:

المطعمو الضيف اذا ما شتَوْا * والجاعلو القوتَ على الياسِرِ

ومنه قول آخر (٤):

بأيديهمُ مقرومة (٥) ومغالِق * يعود بأرزاق العُفاة (٦) مَنيحها

و«المنيح» فى هذا البيت المستمنح؛ لأنهم كانوا يستعيرون السهم الذى قد امّلس وكثر فوزه؛ فذلك المنيح الممدوح. وأما المنيح الذى هو أحد الأغفال فذلك إنما يوصف بالكرّ، وإياه أراد الأخطل (٧) بقوله:

ولقد عطفن على فزارةَ عطفةً * كرَّ المَنيحِ وجُلْنَ ثَمَّ مجالا

وفى الصحاح: «والمَنِيح سهم من سهام الميسر مما لا نصيب له إلا أن يُمنَحَ صاحبُه شيئًا».

ومن الميسر قولُ لَبيد (٨):

---

(١) يفيض: يدفع؛ ومنه الافاضة. وصدعت الشىء: أظهرته وبينته. (٢) هو علقمة بن عبدة؛ كما فى ديوانه. (٣) ربتنى أى ملكتنى أرباب من الملوك فضعت حتى صرت اليك. والربوب (جمع رب): المالك. (٤) هو عمر بن قيئة؛ كما فى تاج العروس واللسان، مادة «غلق». (٥) المقرومة: الموسومة بالعلامات. والمغالق: قداح الميسر. وقيل: المغالق من نعوت قداح الميسر التى يكون لها الفوز، وليست المغالق من أسمائها، وهى التى تغلق الخطر فتوجبه للقامر الفائز؛ كما يغلق الرهن لمستحقه. (عن اللسان)

(٦) كذا فى الأصول. والعفاة: الأضياف وطلاب المعروف. والذى فى اللسان وتاج العروس: «العيال».

(٧) فى الأصول: «.ربر» والتصويب عن ديوان الأخطل. والبيت من قصيدة يهجو بها جريرا مطلعها:

* كذبتك عينك أم رأيت بواسط *

راجع ديوانه ص ٤١ طبع بيروت.

(٨) كذا فى الأصول. والذى فى كتاب «الميسر والقداح» لابن قتيبة والمفضليات أنه لمرقش الأكبر، وهو من قصيدة له، مطلعها:

* ألا بان جيرانى ولست بعائف *

راجع المفضليات ص ٤٧٤ طبع أوربا.

إذا يَسَروا لم يُورِث اليُسْرُ بينهمْ * فواحشَ يُنعَى ذِكرُها بالمَصايِف

فهذا كله نفع الميسر، إلا أنه أكل المال بالباطل .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ أعلم الله جل وعز أن الإثم أكبر من النفع وأعود بالضرر في الآخرة ؛ فالإثم الكبير بعد التحريم، والمنافع قبل التحريم . وقرأ حمزة والكسائي « كثير » بالثاء المثلثة؛ وحجتهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ولعن معها عشرة : بائعها ومبتاعها والمشتراة له وعاصرها والمعصورة له وساقيها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل ثمنها . وأيضا فجمع المنافع يحسن معه جمع الآثام . و « كثير » بالثاء المثلثة يعطي ذلك . وقرأ باقي القراء وجمهور الناس « كبير » بالباء الموحدة، وحجتهم أن الذنب في القمار وشرب الخمر من الكبائر؛ فوصفه بالكبير أليق . وأيضا فاتفاقهم على « أكبر » حجة لـ « كبير » بالباء بواحدة . وأجمعوا على رفض « أكثر » بالثاء المثلثة، إلا في مصحف عبد الله ابن مسعود فإن فيه « قل فيهما إثم كثير وإثمهما أكثر » بالثاء مثلثة في الحرفين .

التاسعة ــ قال قوم من أهل النظر : حُرِّمت الخمر بهذه الآية ؛ لأن الله تعالى قد قال : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ » فأخبر في هذه الآية أن فيها إثما فهو حرام . قال ابن عطية : ليس هذا النظر بجيد، لأن الإثم الذي فيها هو الحرام، لا هي بعينها على ما يقتضيه هذا النظر .

قلت : وقال بعضهم : في هذه الآية ما دل على تحريم الخمر لأنه سماه إثما، وقد حرّم الإثم في آية أخرى وقوله عز وجل : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ » . وقال بعضهم : الإثم أراد به الخمر؛ بدليل قول الشاعر :

شربتُ الإثم حتى ضلّ عقلي * كذاك الإثمُ يذهب بالعقول

قلت : وهذا أيضا ليس بجيد ، لأن الله تعالى لم يُسمِّ الخمر إثما في هذه الآية ، وإنما قال : « قل فيهما إثم كبير » ولم يقل : قل هما إثم كبير . وأما آية « الأعراف » وبيتُ الشعر فيأتي الكلام فيهما هناك مبيّنا ، إن شاء الله تعالى . وقد قال قتادة : إنما في هذه

الآية ذمُّ الخمر ، فأما التحريم فيُعلم بآية أخرى وهى آية « المائدة »[1] وعلى هذا أكثر المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ قراءة الجمهور بالنصب . وقرأ أبو عمرو وحده بالرفع . واختُلف فيه عن ابن كَثير . وبالرفع قراءة الحسن وقتادة وابن أبى إسحاق . قال النحاس وغيره : إن جعلت « ذا » بمعنى الذى كان الاختيار الرفع ، على معنى : الذى ينفقون هو العفو ؛ وجاز النصب . و إن جعلت « ما » و « ذا » شيئا واحدا كان الاختيار النصب ، على معنى : قل ينفقون العفو ؛ وجازا الرفع . وحكى النحويون : ماذا تعلّمت : أنحوا أم شعرا ؟ بالنصب والرفع ، على أنهما جيدان حسنان ؛ إلا أن التفسير فى الآية على النصب .

الثانيــة — قال العلماء : لما كان السؤال فى الآية المتقدّمة فى قوله تعالى : « وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ » سؤالا عن النفقة إلى مَن تُصرف ؛ كما بيناه ودل عليه الجواب ، والجواب خرج على وَفْق السؤال ؛ كان السؤال الثانى فى هذه الآية عن قدر الانفاق ؛ وهو فى شأن عمرو بن الجموح — كما تقدّم — فإنه لما نزل « قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ » قال : كم أُنفق ؟ فنزل « قل العفو » والعفوُ : ما سهُل وتيسّر وفضَل ، ولم يشق على القلب إخراجه ؛ ومنه قول الشاعر :

خُذِى العفوَ منّى تستديمى مودّتى * ولا تنطِقى فى سَوْرَتى حين أغضبُ

فالمعنى : أنفقوا ما فضَل عن حوائجكم ، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة ؛ هذا أولى ما قيل فى تأويل الآية ، وهو معنى قول الحسن وقتادةَ وعطاءٍ والسُّدّى والقُرَظىِّ محمد بن كعب وابن أبى ليلى وغيرهم ، قالوا : العفو ما فَضَل عن العيال ؛ ونحوه عن ابن عباس . وقال مجاهد : صدقةٌ عن ظَهْرِ[2] غِنًى ، وكذا قال عليه السلام : "خير الصدقة ما أنفقتَ عن غِنًى" وفى حديث

(1) وهو قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ... » آية ٩٠ . (2) قال ابن الأثير : « والظهر قد يزاد فى مثل هذا إشباعا للكلام وتمكينا ؛ كأن صدقته مستندة الى ظهر قوىّ من المال » .

آخر: "خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى". وقال قيس بن سعد: هذه الزكاة المفروضة. وقال جمهور العلماء: بل هي نفقات التطوع. وقيل: هي منسوخة. وقال الكلبيّ: كان الرجل بعد نزول هذه الآية إذا كان له مال من ذهب أو فضة أو زرع أو ضَرْع نظر إلى ما يكفيه وعياله لنفقة سنة أمسكه وتصدّق بسائره، وإن كان ممن يعمل بيده أمسك ما يكفيه وعياله يوما وتصدّق بالباقي، حتى نزلت آية الزكاة المفروضة فنسخت هذه الآية وكلّ صدقة أمروا بها. وقال قوم: هي مُحكَمة، وفي المال حقٌّ سوى الزكاة. والظاهر يدل على القول الأول.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ قال المفضّل بن سلمة: أي في أمر النفقة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فتحبسون من أموالكم ما يصلحكم في معاش الدنيا وتنفقون الباقي فيما ينفعكم في العقبى. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، أي كذلك يبيّن الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها وفنائها فتزهدون فيها، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبون فيها.

قوله تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى — روى أبو داود والنسائيّ عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» و «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا» الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابَه من شرابه فجعل يفضل من طعامه فيحبس له، حتى يأكله أو يفسد، فاشتدّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ» الآية، فخلطوا طعامَهم بطعامه وشرابَهم

بشرابه ؛ لفظ أبي داود . والآية متصلة بما قبلُ ؛ لأنه اقترن بذكر الأموال الأمرُ بحفظ أموال اليتامى . وقيل : إن السائل عبدُ الله بن رواحة . وقيل : كانت العرب تتشاءم بملابسة أموال اليتامى فى مؤاكلتهم؛ فنزلت هذه الآية .

الثانيــة — لما أذن الله جل وعز فى مخالطة الأيتام مع قصد الإصلاح بالنظر إليهم وفيهم كان ذلك دليلا على جواز التصرّف فى مال اليتيم ؛ تصرّف الوصىّ فى البيع والقسمة وغير ذلك ؛ على الاطلاق لهذه الآية . فإذا كَفَل الرجلُ اليتيمَ وحازه وكان فى نظره جاز عليه فعلُه وإن لم يقدّمه وَالٍ عليه ؛ لأن الآية مطلقةٌ والكفالةُ وِلاية عامة . لم يؤثر عن أحد من الخلفاء أنه قدّم أحدا على يتيم مع وجودهم فى أزمنتهم، وإنما كانوا يقتصرون على كونهم عندهم .

الثالثــة — تواترت الآثار فى دفع مال اليتيم مضاربة والتجارة فيه ، وفى جواز خلط ماله بماله؛ دلالة على جواز التصرّف فى ماله بالبيع والشراء إذا وافق الصلاحَ، وجوازِ دفعه مضاربة ، إلى غير ذلك على ما نذكره مبيّنا . واختُلف فى عمله هو قِراضًا ؛ فمنعه أشهب ؛ وقاسه على منعه من أن يبيع لهم من نفسه أو يشترىَ لها . وقال غيره : إذا أخذه على جزء من الربح بنسبةِ قراضِ مثلِه فيه أُمضىَ ؛ كشرائه شيئا لليتيم بتَعَقُّب[1] فيكون أحسنَ لليتيم . قال محمد بن عبد الحكم : وله أن يبيع له بالدَّين إن رأى ذلك نظرا . قال ابن كنانة : وله أن يُنفق فى عُرس اليتيم ما يَصلُح من صنيع وطِيب؛ ومصلحتُه بقدر حاله وحال من يُزوّج اليه، وبقدر كثرة ماله . قال : وكذلك فى خِتانه؛ فإن خشى أن يُتّهم رَفع ذلك إلى السلطان فيأمره بالقصد؛ وكل ما فعله على وجه النّظر فهو جائز، وما فعله على وجه المحاباة وسوء النّظر فلا يجوز. ودلّ الظاهرُ على أن وَلِيّ اليتيم يعلّمه أمرَ الدنيا والآخرة، ويستأجِرُ له ويؤاجره ممن يعلمه الصناعات . وإذا وُهب لليتيم شىءٌ فللوصىّ أن يَقبِضه لما فيه من الإصلاح . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « النساء » إن شاء الله تعالى .

---

(١) بتعقب : أى مع تعقب؛ وهو أنه ينظر فى أمر المشترى برفعه الى السوق لمعرفة ثمنه .

الرابعـــة ـــ ولمـا ينفقه الوصىُّ والكفيلُ من مال اليتيم حالتان : حالة يمكنه الإشهاد عليه؛ فلا يُقبل قولُه إلا ببيِّنة . وحالة لا يمكنه الإشهاد عليــه فقوله مقبول بغير بيّنة؛ فمهما اشترى من العَقَار وما جرت العادة بالتوثّق فيه لم يقبل قولُه بغير بيِّنة . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : ولذلك فرّق أصحابنا بين أن يكون اليتيم فى دار الوصىّ يُنفِق عليه فلا يُكلَّف الإشهادَ على نفقته وكسوته ؛ لأنه يتعذر عليــه الإشهاد على ما يأكله ويلبســه فى كل وقت ؛ ولكن إذا قال : أنفقت نفقة تَشبه قُبِل منه؛ وبين أن يكون عند أمّه أو حاضنته فيدّعى الوصىُّ أنه كان يُنفق عليه، أو كان يُعطِى الأمّ أو الحاضنةَ النفقةَ والكسوةَ فلا يُقبل قولُه على الأم أو الحاضنة إلا ببيّنة أنها كانت تَقبِض ذلك له مشاهرةً أو مُساناةً .

الخامســـة ـــ واختلف العلماء فى الرجل يُنكح نفسَه من يتيمته ، وهل له أن يشترى لنفسه من مال يتيمه أو يتيمته ؛ فقال مالك : ولاية النّكاح بالكفالة والحضانة أقوى منها بالقــرابة ؛ حتى قال فى الأعراب الذين يُسلمون أولادهم فى أيام المجاعة : إنهــم ينكحونهم إنكاحهم؛ فأما إنكاح الكافل والحاضن لنفسه فيأتى فى «النساء» بيانه ، إن شاء الله تعالى . وأما الشراء منه فقال مالك : يشترى فى مشهور الأقوال؛ وكذلك قال أبو حنيفة :له أن يشترى مال الطفل اليتيم لنفســه بأكثر من ثمن المِثْل ؛ لأنه إصلاح دلّ عليــه ظاهرُ القرآن . وقال الشافعىّ : لا يجوز ذلك فى النّكاح ولا فى البيع؛ لأنه لم يُذكر فى الآية التّصرفُ، بل قال : « إصلاح لهم خير » من غير أن يذكر فيه الذى يجوز له النّظر . وأبو حنيفة يقول : إذا كان الإصلاح خيرا فيجوز تزويجُه ويجوز أن يُزوّج منــه . والشافعىّ لا يرى فى التزويج إصلاحا إلا من جهة دفع الحاجة، ولا حاجةَ قبل البلوغ . وأحمد بن حنبل يُجوِّز للوصىّ التزويجَ لأنه إصـــلاح . والشافعىّ يجوِّز للجدّ التزويج مع الوصىّ، وللأب فى حق ولده الذى ماتت أمّه لا بحكم هذه الآية . وأبو حنيفة يجوِّز للقاضى تزويجَ اليتيم بظاهر القرآن . وهذه المذاهب نشأت من هذه الآية؛ فإن ثبت كَوْن التزويج إصلاحا فظاهر الآية يقتضى جوازه . ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى : « ويسئلونك عن اليتامى » أى يسألك القُوّامُ على اليتامى الكافلون لهم ؛ وذلك مُجْمَل لا يُعلم منه عَيْنُ الكافل والقيِّم وما يشترط فيه من الأوصاف .

فان قيل : يلزم تركُ مالكٍ أصلَه فى التُّهمة والذّرائع إذ جوّز له الشراءَ من يتيمه .
فالجواب أن ذلك لايلزم، و إنما يكون ذلك ذريعةً فيما يؤدّى من الأفعال المحظورة إلى محظورة منصوص عليها ؛ وأما ها هنا فقد أذن الله سبحانه فى صورة المخالَطة ووكَل الحاضنين فى ذلك الى أماناتهم بقوله : «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» وكُلُّ أمرٍ مَخُوف وكَلَ الله سبحانه المكلّفَ إلى أمانته لا يقال فيه : إنه يتذرّع الى محظور به فيُمنَع منه ؛ كما جعل الله النساءَ مؤتَمناتٍ على فروجهنّ، مع عظيم ما يترتب على قولهنّ فى ذلك من الأحكام، ويرتبط به من الحِلّ والحُرْمة والأنساب؛ وإن جاز أن يَكذِبْنَ . وكان طاوس إذا سئل عن شىء من أمر اليتامى قرأ : «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» . وكان ابن سيرين أحبُّ الأشياء اليه فى مال اليتيم أن يجتمع نصحاؤه فينظرون الذى هو خير له ؛ ذكره البخارىّ . وفى هذا دلالة على جواز الشراء منه لنفسه؛ كما ذكرنا . والقول الآخر أنه لا ينبغى للولىّ أن يشترىَ مما تحت يده شيئاً ؛ لمـا يلحقه فى ذلك من التُّهمة إلا أن يكون البيع فى ذلك بيعَ سلطان فى ملأ من النـاس . وقال محمد بن عبد الحكم : لا يشترى من التركة ، ولا بأس أن يَدُسّ مَن يشترى له منها إذا لم يُعلم أنه من قِبله .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ هذه المخالطة كخلط المِثْل بالمِثْل كالتمر بالتمر . وقال أبو عَبيد : مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المـالَ ويشقّ على كافله أن يُفرِد طعامه عنه ، ولا يجد بُدًّا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحرّى فيجعله مع نفقة أهله ؛ وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان؛ فجاءت هذه الآية الناسخة بالرخصة فيه . قال أبو عبيد : وهذا عندى أصل لمـا يفعله الرُّفقاء فى الأسفار فإنهم يتخارجون النفقات بينهم بالسويّة، وقد يتفاوتون فى قلّة المطعم وكثرته ؛ وليس كل من قلّ مطعمُه تطيب نفسُه بالتفضّل على رفيقه؛ فلمـا كان هذا فى أموال اليتامى واسعاً كان فى غيرهم أوسعَ ، ولولا ذلك لخفتُ أن يضيق فيه الأمرُ على الناس .

السابعة ــ قوله تعالى: ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى فهم إخوانكم؛ والفاء جواب الشرط . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ تحذير، أى يعلم المفسد لأموال اليتامى من المصلح لها؛ فيجازى كلًّا على إصلاحه وإفساده .

الثامنة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ روى الحكم عن مِقْسَم عن ابن عباس «ولو شاء الله لأعنتكم» قال : لو شاء لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى مُوبِقا . وقيل «لأعنتكم» :لأهلككم؛ عن الزجاج وأبي عبيدة. وقال القُتَبي : لضيّق عليكم وشدّد، ولكنه لم يشأ إلا التسهيلَ عليكم . وقيل : أى لكلّفكم ما يشتدّ عليكم أداؤه وأثَّمكم فى مخالطتهم؛ كما فعل بمن كان قبلكم، ولكنه خفّف عنكم . والعَنَت : المشقّة، وقد عَنِت وأعنته غيرُه . ويقال للعظم المجبور إذا أصابه شيء فهاضه : قد أعنته ، فهو عَنِت ومُعْنِت . وعَنِتَت الدابة تَعْنَتُ عَنَتاً : إذا حدث فى قوائمها كسر بعد جَبْر لا يمكنها معه جريٌ . وأَكَمَةٌ عَنُوت : شاقة المَصْعَد . وقال ابن الأنباري : أصل العَنَت التّشديد؛ فإذا قالت العرب : فلان يتعنَّت فلانا ويُعْنِته فمرادها يُشدِّد عليه ويُلزِمه ما يصعب عليه أداؤه؛ ثم نقلت الى معنى الهلاك . والأصل ما وصفنا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أى لا يمتنع عليه شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يتصرّف فى ملكه بما يريد، لا حَجْرَ عليه جلّ وتعالى عُلُوّاً كبيرًا .

قوله تعالى : وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا ﴾ قراءة الجمهور بفتح التاء . وقُرئت فى الشاذ بالضم ؛ كأن المعنى أن المتزوج لها أنكحها من نفسه . ونكح أصله الجماع، ويستعمل فى التزوج تجوّزا واتساعا، وسيأتى بيانه ان شاء الله تعالى .

الثانيـــة — لمـا أذن الله سبحانه وتعالى فى مخالطة الأيتام ومخالطة النكاح بين أن مناكحة المشركين لا تصح . وقال مُقاتل : نزلت هذه الآية فى أبى مَرْثَد الغَنَوى . وقيل : فى مرثد ابن أبى مرثد، واسمه كَنَّاز بن حُصين الغنوى ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة سرًّا ليُخرج رجلا من أصحابه؛ وكانت له بمكة آمرأةٌ يحبها فى الجاهليـة يقال لهـا « عَنَاق » فجاءته ؛ فقال لها : إن الإسلام حرّم ما كان فى الجاهلية ؛ قالت : فتزوّجنى ؛ قال : حتى أستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فاستأذنه فنهاه عن التزوج بها ؛ لأنه كان مسلما وهى مشركة . وسيأتى فى «النور» بيانه إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى تأويل هـذه الآية ؛ فقالت طائفـة : حرّم الله نكاح المشركات فى سورة « البقرة» ثم نسخ من هـذه الجملة نساءَ أهل الكتاب؛ فأحلهنّ فى سورة « المـائدة » . ورُوى هذا القول عن ابن عباس، وبه قال مالك بنُ أنس وسفيانُ بن سعيد الثوريُّ ، وعبدُ الرحمن بنُ عمرو الأوزاعيُّ . وقال قَتادة وسعيدُ بن جُبير : لفظ الآية العمومُ فى كل كافرة ، والمراد بهـا الخصوص فى الكتابيات ؛ وبيّنت الخصوصَ آيةُ « المـائدة » ولم يتناول العمومُ قطُّ الكتابياتِ . وهـذا أحد قولَى الشافعى ، وعلى القول الأوّل يتناولهن العمومُ ، ثم نَسخت آية « المـائدة » بعضَ العموم . وهذا مذهب مالكٍ رحمه الله، ذكره ابن حبيب قال : ونكاح اليهودية والنصرانية وإن كان قد أحلّه الله تعالى مستثقَل مذموم . وقال إسحاق بنُ ابراهيم الحربىّ : ذهب قوم فجعلوا الآية التى فى « البقرة» هى الناسخة، والتى فى « المـائدة » هى المنسوخة؛ فحرّموا نكاحَ كلّ مشركة كتابية أو غير كتابية . قال النحاس : ومن الحجة لقائلِ هذا مما صح سنده ما حدّثناه محمد بنُ رَيّان قال : حدّثنا محمد بنُ رُمح قال حدّثنا

اللّيث عن نافع،أن عبد الله بنَ عمرَ كان إذا سُئل عن نكاح الرجل النصرانيةَ أو اليهوديةَ قال: حرّم الله المشركاتِ على المؤمنين، ولا أعرف شيئا من الإشراك أعظمَ من أن تقول المرأةُ ربُّها عيسى ،أو عبدٌ من عباد الله! . قال النحاس : وهذا قولٌ خارجٌ عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة؛ لأنه قد قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعةٌ منهم عثمانُ وطلحةُ وابنُ عباسٍ وجابرٌ وحذيفةُ . ومن التابعين سعيدُ بنُ المسيّب وسعيدُ بنُ جُبيرٍ والحسنُ ومجاهدٌ وطاوس وعكرمةُ والشّعبيُّ والضحاكُ ؛ وفقهاءُ الأمصار عليه . وأيضا فيمتنع أن تكون هذه الآيةُ من سورة «البقرة» ناسخةً للآية التي في سورة «المائدة» لأن «البقرة» من اول ما نزل بالمدينة، و«المائدة» من آخر ما نزل. وإنما الآخر ينْسَخ الأوّلَ، وأما حديث ابنِ عمرَ فلا حجة فيه؛ لأن ابنَ عمرَ رحمه الله كان رجلا متوقّفا، فلما سمع الآيتين، في واحدة التحليـلُ، وفي أخرى التحريم ولم يبلغه النسخ توقّف ؛ ولم يؤخذ عنـه ذكر النسخ وإنما تُؤوّل عليـه، وليس يؤخذ النـاسخ والمنسوخ بالتأويل . وذكر ابن عطية : «وقال ابن عباس في بعض مارُوى عنه: إن الآيةَ عامةٌ في الوثنيّات والمجوسيّات والكتابيات ، وكلّ مَن على غير الإسلام حرام؛فعلى هذا هي ناسخة للآية التي في«المائدة»وينظر الى هذا قولُ ابنِ عمرَ في الموطّأ: ولا أعلم إشراكا أعظمَ من أن تقول المرأة ربّها عيسى» . ورُوى عن عمر أنه فرّق بين طلحة ابنِ عبيـد الله وحذيفة بنِ اليمَان وبين كتابيتين وقالا : نُطلّقُ يا أمير المؤمنين ولا تغضَب؛ فقال : لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما ! ولكن أفـرّق بينكما صَغرةً قَمْأة . قال ابن عطيـة : وهـذا لايستند جيدا وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة : أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها ياأمير المؤمنين ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهنّ . ورُوى عن ابن عباس نحوُ هذا» . وذكر ابن المنذر جوازَ نكاح الكتابيات عن عمر ابن الخطاب، ومَن ذكر من الصحابة والتـابعين في قول النحاس . وقال في آخر كلامـه : ولا يصـح عن أحد من الأوائل أنه حرّم ذلك . وقال بعض العلمـاء : وأما الايتان فـلا تعـارض بينهما، فإن ظاهر لفظ الشرك لا يتناول أهـلَ الكتاب؛ لقوله تعـالى « مَا يَوَدُّ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ »، وقال: « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ » ففرق بينهم فى اللفظ؛ وظاهرُ العطف يقتضى مغايرةً بين المعطوف والمعطوف عليه، وأيضا فاسم الشرك عمومٌ وليس بنصّ، وقوله تعالى : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » بعد قوله : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ » نصٌّ؛ فلا تعارض بين المحتمل و بين مالا يحتمل . فان قيل : أراد بقوله : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى أوتوا الكتاب من قبلكم وأسلموا ؛ كقوله : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ » الآية . وقوله : «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» الاية . قيل له : هذا خلاف نصّ الآية فى قوله : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» وخلافُ ما قاله الجمهور ؛ فإنه لا يُشكِل على أحد جوازُ التزويج ممن أسلم وصار من أعيان المسلمين . فإن قالوا : فقد قال الله تعالى : «أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» فجعل العلّةَ فى تحريم نكاحهنّ الدعاءَ الى النار . والجواب أن ذلك علة لقوله تعالى: «وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ» لأن المشرك يدعو إلى النار ؛ وهذه العلة مطّردة فى جميع الكفار ؛ فالمسلمُ خيرٌ من الكافر مطلقا؛ وهذا بيّن .

الرابعــة — وأما نكاح أهل الكتاب إذا كانوا حَرْبا فلا يحلّ ؛ وسئل ابن عباس عن ذلك فقال : لا يحلّ، وتلا قولَ الله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» الى قوله : « صَاغِرُونَ » . قال المحدّث: حدّثت بذلك ابراهيمَ النَّخعيّ فأعجبه . وكَرِه مالكٌ تزوّجَ الحربيّات؛ لعلة ترك الولد فى دار الحرب، ولتصرّفها فى الخمر والخنزير .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ﴾ إخبارٌ بأن المؤمنةَ المملوكةَ خيرٌ من المشركة، وإن كانت ذاتَ الحسب والمال. ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ فى الحسن وغير ذلك؛ هذا قول الطبريّ وغيره . ونزلت فى خَنساءَ وليدة سوداءَ كانت لحذيفةَ بن اليمان؛ فقال لها حذيفة : ياخنساءُ، قد ذُكِرت فى الملأ الأعلى مع سوادِك ودَمامتك، وأنزل الله تعالى ذكرك فى كتابه؛ فأعتقها حذيفةُ وتزوّجها . وقال السُّدّيّ : نزلت فى عبد الله بن رَواحةَ، كانت له أمةٌ سوداءُ

فلطمها فى غضب ثم ندم، فأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فأخبره؛ فقال : "ماهى ياعبدَ الله" قال : تصوم وتُصلّى وتُحسِن الوضوءَ وتَشهد الشهادتين؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذه مؤمنة". فقال ابن رواحة : لأُعتِقنّها ولأَتزوجنّها؛ ففعل؛ فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أَمَةً ؛ وكانوا يريدون أن ينكحوا الى المشركين ، وكانوا ينكحونهم رغبة فى أحسابهم؛ فنزلت هذه الآية . والله أعلم .

السادسة ــ واختلف العلماء فى نكاح إماءِ أهلِ الكتاب؛ فقال مالكٌ : لا يجوز نكاحُ الأَمَة الكتابيّة . وقال أشهبُ فى كتاب محمد، فيمن أسلم وتحته أَمَةٌ كتابية : إنه لا يُفرّق بينهما . وقال أبو حنيفة وأصحابُه : يجوز نكاحُ إماءِ أهلِ الكتاب . قال ابن العربىّ : دَرّسنا الشيخ أبو بكر الشاشىّ بمدينة السلام قال : احتج أصحاب أبى حنيفة (١) على جواز نكاح الأَمَة [الكتابية] (٢) بقوله تعالى : « وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ » . ووجه الدليل من الآية أن الله سبحانه خاير بين نكاحِ الأَمَةِ المؤمنةِ والمشركةِ؛ فلولا أن نكاحَ الأَمة المشركة جائزٌ لما خاير الله تعالى بينهما؛ لأن المخايرة إنما هى بين الجائزين لا بين جائز وممتنع، ولا بين متضادّين . والجواب أن المخايرة بين الضدّين تجوز لغة وقرآنا ؛ لأن الله سبحانه قال : « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » . وقال عمر فى رسالته لأبى موسى : « الرّجوعُ الى الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل » . جواب آخر : قوله : « وَلَأَمَةٌ » لم يُرِد به الرِّقّ المملوكَ وإنما أراد به الآدمية؛ والآدميات والآدميون بأجمعهم عَبيدُ الله وإماؤه؛ قاله القاضى بالبصرة أبو العباس الجُرْجانىّ .

السابعة ــ واختلفوا فى نكاح نساءِ المجوس ؛ فمنع مالكٌ والشافعىّ وأبو حنيفة والأوزاعىُّ وإسحاقُ من ذلك . وقال ابن حنبل : لا يعجبنى . ورُوى أن حذيفة بن اليمان تزوج مجوسية ، وأن عُمرَ قال له : طلّقها . وقال ابنُ القصّار : قال بعض أصحابنا : يجب على أحد القولين أن لهم كتابا أن تجوز مناكحتهم . وروى ابن وهب عن مالكٍ أن الأَمَةَ المجوسيّة لا يجوز أن تُوطأ بملك اليمين ، وكذلك الوثنياتُ وغيرهن من الكافرات ، وعلى هذا جماعة العلماء ،

(١) عبارة ابن العربى فى «أحكام القرآن» له : «احتج أبو حنيفة» . (٢) زيادة عن ابن العربى .

إلا ما رواه يحيى بنُ أيوبَ عن ابنِ جُريج عن عطاءٍ وعمرِو بنِ دينارٍ أنهما سئلا عن نكاح الإماءِ المجوسيات؛ فقالا : لا بأس بذلك . وتأوّلا قول الله عز وجل : « وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ » . فهذا عندهما على عقد النكاح لا على الأَمَة المشتراة؛ واحتجّا بسَبْي أَوْطاس ؛ وأن الصحابة نكحوا الإماءَ منهنّ بِملْك اليمين . قال النحاس : وهـذا قول شاذّ ؛ أما سَبْيُ أَوْطاس فقد يجوز أن يكون الإماءُ أسلمن فجاز نكاحهنّ، وأما الاحتجاج بقوله : « وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ » فغلط؛ لأنهم حملوا النكاح على العَقْد ؛ والنكاح في اللغة يقع على العَقْد وعلى الوَطء ؛ فلما قال : « ولا تنكحوا المشركات » حَرّم كلَّ نكاح يقع على المشركات من نكاح ووطء . وقال أبو عمر بن عبد البر : وقال الأوزاعي : سألت الزُّهريّ عن الرجل يشترى المجوسيّة أيطؤها ؟ فقال : إذا شهدت أن لا إله إلا الله وَطِئها . وعن يونس عن ابنِ شهاب قال : لا يحلّ له أن يطأها حتى تُسلِم . قال أبو عمر : قول ابن شهاب « لا يحل له أن يطأها حتى تُسلِم» هـذا وهو أعلم الناس بالمغازي والسِيَر دليـلٌ على فساد قولِ مَن زعم أن سَبْيَ أَوْطاس وُطِئن ولم يُسلِمْنَ . رُوي ذلك عن طائفـة منهم عطاءٌ وعمرُو بنُ دينارٍ قالا : لا بأس بوطء المجوسية؛ وهذا لم يلتفت إليه أحدٌ من الفقهاء بالأمصار . وقد جاء عن الحسن البصريّ — وهو ممن لم يكن غَزْوُه ولا غَزا ناحيتَـه إلا الفُرس وما وراءهم من خراسان ، وليس منهم أحدٌ أهلَ كتاب — ما يُبيِّن لك كيف كانت السِّـيرة في نسائهم إذا سُبِين قال : أخبرنا عبد الله بنُ محمد بن أسد قال حدّثنا إبراهيمُ بنُ أحمد بن فراس قال حدّثنا عليّ بن عبد العزيز قال حدّثنا أبو عبيد قال حدّثنا هشام عن يونس عن الحسن قال : قال رجل له : يا أبا سعيد كيف كنتم تصنعون إذا سبيتموهنّ ؟ قال : كنا نوجهها الى القبلة ونأمرها أن تُسلِم وتَشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؛ ثم نأمرها أن تغتسل . وإذا أراد صاحبُها أن يصيبَها لم يُصبها حتى يستبرئها . وعلى هذا تأويلُ جماعةِ العلمـاء في قول الله تعالى : « وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ » أنهنّ الوثنيّاتُ والمجوسيّاتُ؛ لأن الله تعالى قد أحلّ الكتابيّات بقوله : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ » يعني العفائف، لا من شُهِر زناها من

المسلمات . ومنهم من كَرِه نكاحَها ووطأها بِملْك اليمين ما لم يكن منهنّ توبة ؛ لمـا في ذلك من إفساد النَّسَب .

قـوله تعالى : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُـوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا ﴾ أي تُزوّجوا المسلمةَ من المشرك . وأجمعت الأمّة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه؛ لمـا في ذلك من الغضاضة على الإسـلام . والقُرّاء على ضم التـاء من « تنكحوا » .

الثانيـــة ـــ في هذه الآية دليل بالنص على أن لا نكاح إلا بولِيّ . قال محمـد بنُ عليّ ابن الحسين : النكاح بوليّ في كتاب الله؛ ثم قرأ « وَلَا تُنكِحُوا المشركين » . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا نكاحَ إلا بوَلِيّ" وقد اختلف أهل العلم في النكاح بغـير وَلِيٍّ؛ فقال كثير من أهـل العلم : لا نكاح إلا بوليٍّ ؛ رُوى هـذا الحديث عن عمـر ابنِ الخطاب رضي الله عنه وعليّ بنِ أبي طالب وابنِ مسعود وابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم، وبه قال سعيدُ بنُ المسيّب والحسنُ البصري وعمرُ بن عبد العزيز وجابرُ بن زيد وسفيان الثـوريُّ وابنُ أبي ليلى وابن شُـبْرُمَة وابنُ المبـارك والشافعيّ وعبيدُ الله بنُ الحسن وأحمـدُ وإسحاقُ وأبو عبيد .

قلت : وهو قول مالكٍ رضي الله عنهم أجمعين وأبي ثور والطبريّ . قال أبو عمـر : حُجّةُ مَن قال : "لانكاح إلا بوليّ" أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه أنه قال : "لا نِكاحَ إلا بولّيّ" . روى هذا الحديثَ شعبةُ والثوريُّ عن أبي إسحاقَ عن أبي بُرْدةَ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم مُرسَلًا؛ فمن يقبل المراسيل يلزمه قَبولُه ، وأما من لا يقبل المراسيل فيلزمه أيضـا ؛ لأن الذين وصـلوه من أهل الحفظ والثقة . وممن وصله إسرائيلُ وأبو عوَانة كلاهما عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وإسرائيلُ ومن تابعه حُفّاظ، والحافظ تُقبل زيادته، وهذه الزيادة يعضُدها أصول؛ قال الله عز وجل:

« فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ». وهذه الآية نزلت فى مَعْقِل بن يَسار إذ عَضَل[1] أخته عن مراجعة زوجها؛ قاله البخارى . ولولا أن له حقًّا فى الإنكاح ما نُهِىَ عن العَضْل .

قلت : ومما يدل على هذا أيضا من الكتاب قوله : « فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ » وقوله : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » فلم يخاطب تعالى بالنكاح غيرَ الرجال؛ ولو كان إلى النساء لذكرهنّ . وسيأتى بيان هذا فى «النور» . وقال تعالى حكاية عن شعيب فى قصة موسى عليهما السلام : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ » على ما يأتى بيانه فى سورة «القصص». وقال تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» ؛ فقد تعاضد الكتاب والسُّنةُ على أن لا نكاح إلا بولىّ . قال الطبرى: فى حديث حفصة حين تأيَّمت وعقد عمرُ عليها النكاحَ ولم تَعقده هى إبطالُ قولِ من قال : إن للمرأة البالغة المالكة لنفسها تزويجَ نفسها وعقدَ النكاح دون وَليِّها ؛ ولو كان ذلك لها لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيَدَعَ خِطبة حفصة لنفسها إذا كانت أَوْلى بنفسها من أبيها ، وخطبها إلى من لا يملك أمرها ولا العقدَ عليها؛ وفيه بيان قوله عليه السلام : "الأَيِّمُ أحقّ بنفسها من وَلِيِّها" أن معنى ذلك أنها أحقّ بنفسها فى أنه لا يُعقد عليها إلا برضاها ، لا أنها أحقّ بنفسها فى أن تَعقِد عقد النكاح على نفسها دون وَليِّها . وروى الدَّارَقُطْنِيُّ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُزَوِّج المرأةُ المرأةَ ولا تُزَوِّج المرأةُ نفسَها فإن الزانيــة هى التى تزوّج نفسها" . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود من حديث سفيان عن الزُّهرى عن عُروةَ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيُّما امرأةٍ نُكِحت بغير إذن وليِّها فنكاحها باطل — ثلاث مرات — فإن دخل بها فالمهر لها بما أصاب منها فإن تشاجروا فالسلطان وليُّ من لا وليَّ له" . وهــذا الحديث صحيح . ولا اعتبار بقول ابن عُلَيَّــةَ عن ابن جريج أنه قال : سألت عنــه الزهرىَّ فلم يعرفه ، ولم يقل هــذا أحد عن ابن جريج غيرُ ابن عُلَيَّةَ ؛ وقد رواه جماعة عن الزهرى لم يذكروا ذلك ، ولو ثبت هذا عن الزهرى لم يكن فى ذلك حجةٌ ؛ لأنه قد نقله عنه ثقات منهم سليمان بن موسى وهو ثقةٌ إمامٌ

---

(١) العضل : المنع

وجعفرُ بنُ ربيعة ؛ فلو نسيه الزهريّ لم يضرّه ذلك ؛ لأن النسيان لا يُعصم منه آبن آدم ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "نَسِيَ آدمُ فنسيت ذرّيتُه". وكان صلى الله عليه وسلم يَنْسَى ؛ فمن سواه أَحْرَى أن يَنْسَى ، ومن حفظ فهو حجة على من نَسِيَ ؛ فاذا رَوى الخبَر ثقةٌ فلا يضرّه نسيانُ من نَسِيَه ؛ هذا لو صح ما حكى ابن عُلَيّة عن ابن جُرَيج ، فكيف وقد أنكر أهل العلم ذلك من حكايته ولم يعرّجوا عليها .

قلت : وقد أخرج هذا الحديثَ أبو حاتم محمدُ بن حِبّان التميمي البُسْتي في المسند الصحيح له ــ على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ، ولا ثبوتِ جَرح في ناقلها ــ عن حفص بن غِيَاث عن ابن جُريج عن سليمان بن موسى عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا نكاحَ إلا بوليٍّ وشاهِدَيْ عَدْل وما كان من نكاح على غير ذلك فهو باطل فإن تشاجروا فالسلطان وَلِيُّ من لا وَلِيَّ له" . قال أبو حاتم : لم يقل أحد في خبر آبن جُريج عن سليمان بن موسى عن الزُّهري هذا : "وشاهِدَيْ عَدْل" إلا ثلاثةُ أَنْفُس : سُويدُ بن يحيى الأموي عن حفص بن غياث وعبدُ الله بنُ عبد الوهاب الجمحي عن خالد بن الحارث وعبدُ الرحمن بن يونس الرقّي عن عيسى بن يونس ؛ ولا يصح في الشاهدين غيرُ هذا الخبر ، وإذا ثبت هذا الخبر فقد صرّح الكتابُ والسنةُ بأن لا نكاح إلا بوليّ ؛ فلا معنى لما خالفهما . وقد كان الزُّهري والشعبي يقولان : إذا زوّجت المرأةُ نفسَها كفؤا بشاهدين فذلك نكاحٌ جائز . وكذلك كان أبو حنيفة يقول : إذا زوّجت المرأةُ نفسَها كفؤا بشاهدين فذلك نكاحٌ جائزٌ ؛ وهو قول زُفَر . وإن زوّجت نفسها غيرَ كُفْء فالنكاحُ جائزٌ ، وللأولياء أن يفرّقوا بينهما . قال ابن المنذر : وأما ما قاله النعمان فمخالف للسُّنة ، خارجٌ عن قول أكثر أهلِ العلم . وبالخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال أبو يوسف : لا يجوز النكاح إلا بوليٍّ ؛ فإن سلّم الوليُّ جاز ، وإن أبَى أن يُسلِّم والزوج كُفْءٌ أجازه القاضي . وإنما يتمّ النكاحُ في قوله حين يجيزه القاضي ؛ وهو قولُ محمد بن الحسن ؛ وقد كان محمدُ بنُ الحسن يقول : يأمر القاضي الوليَّ بإجازته ؛ فإن لم يفعل استأنف عَقْدًا . ولا خلافَ بين أبي حنيفة وأصحابه أنه إذا أذن لها

وليُّها فعقدت النكاحَ بنفسها جاز. وقال الأوزاعيّ: اذا ولّت المرأةُ رجلا فزوّجها كفؤا فالنكاح جائز، وليس للوليّ أن يفرّق بينهما ؛ إلا أن تكون عربية تزوّجت مَوْلًى ؛ وهذا نحو مذهب مالك على ما يأتى . وحمل القائلون بمذهب الزُّهْرِيّ وأبى حنيفة والشعبيّ قولَه عليه السلام: "لا نكاح الا بولِيٍّ" على الكمال لا على الوجوب؛ كما قال عليه السلام: "لا صلاةَ لجار المسجد إلا فى المسجد" و "لا حظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة" . واستدلوا على هذا بقوله تعالى : «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ» ، وقوله تعالى : «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» ، وبما روى الدَّارَقُطْنِيّ عن سِماكِ بنِ حربٍ قال: جاء رجل إلى عليّ رضى الله عنه فقال : امرأةٌ أنا وَلِيُّها تزوّجت بغير إذنى؟ فقال عليّ : يُنظر فيما صنعت، فإن كانت تزوّجت كفؤا أَجَزْنا ذلك لها، وإن كانت تزوّجتْ من ليس لها بكفء جعلنا ذلك إليك. وفى الموطّأ أن عائشة رضى الله عنها زوّجت بنت أخيها عبد الرحمن وهو غائب، الحديث . وقد رواه ابن جُرَيج عن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكحت رجلا هو المُنذِر بن الزُّبير امرأةً من بنى أخيها فضربت بينهم بستر ، ثم تكلّمت حتى اذا لم يبق إلا العقدُ أمرت رجلا فأنكح؛ ثم قالت : ليس على النساء إنكاح . فالوجه فى حديث مالك أن عائشة قررت المهرَ وأحوالَ النكاح ، وتولّى العقدَ أحدُ عَصَبَتِها ، ونُسب العقد الى عائشةَ لمّا كان تقريرُه إليها .

الثالثة — ذكر ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : واختلفت الرواية عن مالكٍ فى الأولياء ؛ من هم؟ فقال مرّة : كل مَن وضع المرأةَ فى مَنْصِب حَسَن فهو وليُّها ، سواءٌ كان من العصبة أو من ذوى الأرحام أو الأجانب أو الإمامِ أو الوصيّ . وقال مرّة : الأولياء من العصبة؛ فمن وضعها منهم فى منصِب حَسَن فهو وَلِيٌّ . وقال أبو عمر : قال مالك فيما ذكر ابنُ القاسم عنه : إن المرأة إذا زوّجها غيرُ وَلِيِّها بإذنها فإن كانت شريفةً لها فى الناس حالٌ كان وليُّها بالخيار فى فسخ النكاح و إقراره ، و إن كانت دنيئة كالمعتَقةِ[1] والسّوداء[2] والسّعاية والمسلمانية[3] ، ومن

(١) قال مالك : هم قوم من القبط يقدمون من مصر الى المدينة . (٢) السعاية : البغىّ .
(٣) فى الأصول : «الاسلامية» والتصويب عن شرح الخرشى وحاشية العدوى .

لا حال لها جاز نكاحُها ، ولا خيارَ لوليِّها لأن كلّ واحدٍ كُفْءٌ لها ، وقد رُوى عن مالك أن الشريفة والدّنيئة لا يزوجها إلا وليُّها أو السلطانُ ، وهذا القول اختاره ابنُ المنذر، قال : وأما تفريق مالكٍ بين المسكينة والتى لها قَدْرٌ فغيرُ جائز ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد سوّى بين أحكامهم فى الدّماء فقال : "المسلمون تتكافؤ دماؤهم" . وإذا كانوا فى الدماء سواءً فهم فى غير ذلك شيء واحدٌ. وقال إسماعيل بنُ إسحاق : لما أمر الله سبحانه بالنكاح جعلَ المؤمنين بعضَهم أولياءَ بعض فقال تعالى: « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » والمؤمنون فى الجملة هكذا يرث بعضهم بعضا ؛ فلو أن رجلا مات ولا وارثَ له كان ميراثُه لجماعةِ المسلمين ؛ ولو جَنَى جنايةً لعَقَل عنه المسلمون ، ثم تكون ولايةٌ أقربُ من ولايةٍ ، وقرابةٌ أقربُ من قرابة . وإذا كانت المرأة بموضع لا سلطانَ فيه ولا وَلِيَّ لها فإنها تصيِّر أمرَها إلى مَن يوثق به من جيرانها ، فيزوّجُها ويكون هو وليَّها فى هذه الحال ؛ لأن الناس لا بُدَّ لهم من التزويج ، وإنما يعملون فيه بأحسنِ ما يمكن ؛ وعلى هذا قال مالكٌ فى المرأة الضعيفة الحال : إنه يزوّجها مَن تُسنِد أمرَها إليه ، لأنها ممن تضعف عن السلطان فأشبهت من لا سلطانَ بحضرتها ؛ فرجعت فى الجملة إلى أن المسلمين أولياؤها ؛ فأمّا إذا صيّرت أمرَها الى رجل وتركت أولياءها فإنها أخذت الأمرَ من غير وجهه ، وفعلتْ ما ينكره الحاكمُ عليها والمسلمون ، فيُفسخ ذلك النكاحُ من غير أن يُعلم أن حقيقته حرام ؛ لما وصفنا من أن المؤمنين بعضُهم أولياءُ بعض ، ولما فى ذلك من الاختلاف ؛ ولكن يُفسخ لتناول الأمر من غير وجهه ، ولأنه أحْوطُ للفروج ولتحصينها ؛ فاذا وقع الدخول وتطاول الأمر وولَدت الأولادَ كان صوابا لم يجز الفسخ ؛ لأن الأمور إذا تفاوتت لم يُرَد منها إلا الحرامُ الذى لا يُشكّ فيه ، ويُشبّه ما فات من ذلك بحكم الحاكم إذا حكم بحكم لم يُفسخ إلا أن يكون خطأ لا شكّ فيه . وأما الشافعيّ وأصحابُه فالنكاح عندهم بغير وليٍّ مفسوخٌ أبدا قبل الدخول وبعده ، ولا يتوارثان إن مات أحدهما . والوليُّ عندهم من فرائض النكاح ؛ لقيام الدليل عندهم من الكتاب والسنة : قال الله تعالى : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » كما قال : « فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ » ، وقال مخاطبا للأولياء :

« فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ » . وقال عليه السلام : « لَا نكاح إلا بولِيٍّ » . ولم يفرّقوا بين دَنِيَّـة الحال والشريفة ، لإجماع العلماء على أن لا فرق بينهما فى الدِّماء؛ لقوله عليه السلام : "المسلمون تتكافؤ دماؤهم" . وسائر الأحكام كذلك . وليس فى شىء من ذلك فرق بين الرفيع والوضيع فى كتاب ولا سُنّة .

الرابعـة — واختلفوا فى النكاح يقع على غير وَلِىّ ثم يُجيزه الولِىّ قبل الدخول؛ فقال مالك وأصحابُه إلا عبد الملك : ذلك جائز، إذا كانت إجازته لذلك بالقرب؛ وسواء دخل أولم يدخل . هذا إذا عقد النكاح غيرُ ولِىّ ولم تعقِده المرأةُ بنفسها؛ فإن زوجت المرأةُ نفسَها وعقدت عُقدة النكاح من غير ولِىّ قريب ولا بعيد من المسلمين فإن هذا النكاح لا يُقَرّ أبدا على حال وإن تطاول وولَدت الأولاد؛ ولكنه يُلحق الولد إن دخل ، ويسقط الحدّ؛ ولا بد من فسخ ذلك النكاح على كلّ حال . وقال ابن نافع عن مالكٍ : الفسخ فيه بغير طلاق .

الخامسـة — واختلف العلماء فى منازل الأولياء وترتيبهم؛ فكان مالكٌ يقول : أولهم البنون وإن سَفَلوا ، ثم الآباء، ثم الإخوة للأب والأم ، ثم للأب، ثم بنو الإخوة للأب والأم، ثم بنو الإخوة للأب، ثم الأجداد للأب وإن عَلَوْا، ثم العمومة على ترتيب الإخوة، ثم بنوهم على ترتيب بنى الإخوة وإن سَفلوا، ثم المولى ثم السلطان أو قاضيه . والوصىُّ مقدّم فى إنكاح الأيتام على الأولياء، وهو خليفة الأب ووكيلُه؛ فأشبه حاله لو كان الأب حيًا. وقال الشافعىّ : لا ولايةَ لأحد مع الأب؛ فإن مات فالجدّ ، ثم أبُ أبِ الجَدّ ؛ لأنهم كلهم آباء . والولاية بعد الجد للإخـوة ، ثم الأقرب . قال المُزَنِىُّ : قال فى الجـديد : من انفرد بأُمٍّ كان أوْلَى بالنكاح ؛ كالميراث . وقال فى القديم : هما سواء .

قلت : وروى المـدنيّون عن مالكٍ مثـلَ قولِ الشافعىّ ، وأنّ الأبَ أوْلى من الابن؛ وهو أحد قولَى أبى حنيفة؛ حكاه الباجىّ . ورُوى عن المغيرة أنه قال : الجدُّ أوْلَى من الإخوة؛ والمشهور من المذهب ما قدّمناه . وقال أحمد : أحقّهم بالمرأة أن يزوّجها أبوها؛ ثم الابن، ثم الأخ ، ثم ابنُـه ، ثم العمّ . وقال إسحاق : الابن أوْلى من الأب؛ كما قاله مالكٌ ، واختاره ابنُ المنذر؛ لأن عمرَ بنَ أمّ سلمة زوّجها بإذنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : أخرجه النَّسائىّ عن أمّ سلمة وترجم له «إنكاح الابن أمّه » .

قلت : وكثيرا ما يستدل بهذا علماؤنا وليس بشىء؛ والدليل على ذلك ما ثبت فى الصّحاح أن عمرَ بنَ أبى سلمة قال : كنت غلاما فى حجر رسـول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدى تطيش فى الصحفة؛ فقال : "يا غلامُ سَمِّ اللهَ وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليـك" . وقال أبو عمـر فى كتاب الاستيعاب : عمر بن أبى سلمة يُكنَى أبا حفص، وُلد فى السنة الثـانية من الهجرة بأرض الحبشة . وقيل : إنه كان يومَ قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ابنَ تسع سنين .

قلت : ومن كان سِنّه هذا لا يصلح أن يكون وليًّـا ، ولكن ذكر أبو عمر أن لأبى سلمة من أمّ سـلمة ابنا آخرَ اسمه سلمة ، وهو الذى عقَـد لرسول الله صلى الله عليـه وسلم على أمّه أمّ سلمة ، وكان سلمةُ أسنّ من أخيه عمر بن أبى سلمة ، ولا أحفظ له روايةً عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وقد روى عنه عمرُ أخوه .

السادســة — واختلفوا فى الرجل يزوّج المرأةَ الأبعَدِ من الأولياء . كذا وقع ، والأقربَ عبارةً أن يقال : اختُلف فى المرأة يزوّجها من أوليائها الأبعدُ[1] والأقربُ حاضر؛ فقال الشافعىّ : النكاح باطل . وقال مالكٌ : النكاح جائز . قال ابن عبـد البر : إن لم ينكر الأقعدُ شيئا من ذلك ولا ردّه نفَـذَ ، وإن أنكره وهى ثيّب أو بِكْرٌ بالغٌ يتيمةٌ ولا وصىّ لهـا فقد اختُلف قول مالكٍ وأصحابِه وجماعةٍ من أهل المدينة فى ذلك؛ فقال منهـم قائلون : لا يُردّ ذلك وينفُـذ؛ لأنه نكاح انعقـد بإذن ولىٍّ من الفخذ والعشيرة . ومن قال هذا منهم لا ينْفُذ قال : إنمـا جاءت الرُّتبة فى الأولياء على الأفضـل والأولى ، وذلك مستحب وليس بواجب . وهـذا تحصيل مذهب مالكٍ عنـد أكثر أصحابه ، وإياه اختار إسماعيل بن إسحاق وأتباعُه . وقيل : ينظر السلطانُ فى ذلك ويسأل الولىّ الأقرب على ما ينكره ، ثم إن رأى إمضاءه أمضاه ، وإن رأى أن يردّه ردّه . وقيـل : بل للأقعد ردّه على كل حال ، لأنه حقٌّ له . وقيـل : له ردّه وإجازته مالم يطل مكثها وتلِد الأولاد ؛ وهذه كلها أقاويل أهل المدينة .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « والأقعد » . يقال : فلان أقعد من فلان : أى أقرب منه الى جده الأكبر

السابعة — فلو كان الولى الأقرب محبوسا أو سفيها زوّجها من يليه من أوليائها، وعُدّ كالميت منهم؛ وكذلك إذا غاب الأقرب من أوليائها غيبة بعيدة أو غيبة لا يُرجى لها أَوْبةٌ سريعةٌ زوّجها من يليه من الأولياء . وقد قيل : إذا غاب أقرب أوليائها لم يكن للذى يليه تزويجها، ويزوّجها الحاكم، والأوّل قول مالك .

الثامنة — وإذا كان الوليّان قد استويا فى القُعْدُد[1] وغاب أحدهما وفوّضت المرأة عقد نكاحها الى الحاضر لم يكن للغائب إن قدم نُكْرُه . وإن كانا حاضرَيْن ففوّضت أمرها إلى أحدهما لم يزوّجها إلا بإذن صاحبه؛ فإن اختلفا نظر الحاكم فى ذلك، وأجاز عليها رأىَ أحسنهما نظرا لها؛ رواه ابن وهب عن مالك .

التاسعة — وأمّا الشهادة على النكاح فليست بركن عند مالك وأصحابه، ويكفى من ذلك شهرتُه والإعلانُ به، وخرج عن أن يكون نكاحَ سِرٍّ . قال ابن القاسم عن مالك : لو زوّج ببيّنة، وأمرهم أن يكتموا ذلك لم يجز النكاح؛ لأنه نكاحُ سِرّ . وإن تزوّج بغير بيّنة على غير استسرار جاز، وأشهدا فيما يستقبلان . وروى ابن وهب عن مالك فى الرجل يتزوّج المرأة بشهادة رجلين ويستكتمهما قال : يُفرّق بينهما بتطليقة ولا يجوز النكاح، ولها صداقها إن كان أصابها، ولا يُعاقب الشاهدان . وقال أبو حنيفة والشافعىّ وأصحابُهما : إذا تزوّجها بشاهدين وقال لهما : آكتما جاز النكاح . قال أبو عمر : وهذا قول يحيى بن يحيى الليثىّ الأندلسىّ صاحبنا، قال : كلّ نكاح شَهِد عليه رجلان فقد خرج من حدّ السرّ؛ وأظنه حكاه عن الليث ابن سعد . والسرّ عند الشافعىّ والكوفيين ومن تابعهم : كلّ نكاح لم يَشهد عليه رجلان فصاعدًا ويفسخ على كل حال .

قلت : قولُ الشافعى أصحُّ للحديث الذى ذكرناه . وروى عن ابن عباس أنه قال : لا نكاح إلا بشاهدَىْ عَدْل ووَلِيّ مُرْشِد؛ ولا مخالف له من الصحابة فيما علمته . واحتج مالك

---

(١) القعدد (بضم القاف وسكون العين وضم الدال المهملة وفتحها) : القريب من الجدّ الأكبر، وقيل : هو أملك القرابة فى النسب .

لمذهبه أن البيوع التي ذكرها الله تعالى فيها الإشهادُ عند العقد؛ وقد قامت الدلالة بأن ذلك ليس من فرائض البيوع. والنكاح الذي لم يَذكر اللهُ تعالى فيه الأشهادَ أَحْرَى بألّا يكون الإشهاد فيه من شروطه وفرائضه، وإنما الغرض الإعلانُ والظهورُ لحفظ الأنساب. والإشهاد يصلح بعد العقد للتداعي والاختلاف فيما ينعقد بين المتناكحين؛ وقد رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعلنوا النكاح". وقول مالكٍ هذا قولُ ابنِ شهاب وأكثرِ أهل المدينة.

العاشرة ــ قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ﴾ أي مملوك. ﴿خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾ أي حسيب. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي حسبه وماله؛ حسب ما تقدّم. وقيل المعنى: ولرجل مؤمن، وكذا ولأَمَة مؤمنة، أي ولا امرأة مؤمنة، كما بيّناه. قال صلى الله عليه وسلم: "كلُّ رجالِكم عَبيد الله وكلُّ نسائكم إماء الله". وقال: "لا تمنعوا إماء الله مساجدَ الله". وقال تعالى: «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». وهذا أحسن ما حُمل عليه القول في هذه الآية، وبه يرتفع النزاع ويزول الخلاف، والله الموفق.

الحادية عشرة ــ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة للمشركين والمشركات. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي إلى الأعمال الموجبة للنار؛ فإن صحبتهم ومعاشرتهم توجب الانحطاط في كثير من هواهم مع تربيتهم النسلَ. ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ أي إلى عمل أهل الجنة. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بأمره؛ قاله الزجاج.

قوله تعالى: وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

فيه أربع عشرة مسألة:

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ عن السُّدِّيّ أن السائل ثابتُ ابن الدحداح. وقيل: أسيد بن حُضير وعبّاد بن بشر؛ وهو قول الأكثرين. وسببه فيما قال

قتادة وغيره : أن العرب فى المدينة وما والاها كانوا قد آستنّوا بسُنّة بنى إسرائيل فى تجنّب مؤاكلة الحائض ومساكنتها؛ فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: كانوا يجتنبون النساء فى الحيض، ويأتونهنّ فى أدبارهن مدّة زمن الحيض؛ فنزلت. وفى صحيح مسلم عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنّ فى البيوت؛ فسأل أصحابُ النبىّ صلى الله عليه وسلم النبىّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى ٱلْمَحِيضِ» إلى آخر الآية؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "اصنعوا كلّ شىء إلا النكاح" فبلغ ذلك اليهودَ فقالوا : ما يريد هذا الرجلُ أن يَدَعَ من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه ؛ فجاء أُسيد بن الحضير وعبّاد بن بشر فقالا : يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنه وَجَد عليهما(١)؛ فخرجا فاستقبلهما هديّةٌ من لَبَنٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل فى آثارهما فسقاهما ؛ فعرفا أنه لم يَجِدْ عليهما . قال علماؤنا : كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض ؛ وكانت النصارى يجامعون الحُيَّض؛ فأمر الله بالقصد بين هذين .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ عنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ المحيض : الحيض؛ وهو مصدر؛ يقال: حاضت المرأة حَيْضا ومَحَاضا ومَحِيضا، فهى حائض، وحائضة أيضا؛ عن الفراء؛ وأنشد:

* كحائضةٍ يُزْنَى بها غيرَ طاهرِ *

ونساء حُيَّض وحوائض . والحَيضة : المرّة الواحدة . والحِيضة (بالكسر) الاسم؛ [والجمع] الحِيض . والحِيضة أيضا : الخِرقة التى تَستثفِر(٢) بها المرأة . قالت عائشة رضى الله عنها: ليتنى كنتُ حِيضَة مُلقاة . وكذلك المَحِيضة ، والجمع المحائض . وقيل : المحيض عبارة عن الزمان والمكان ، وعن الحَيْض نفسه؛ وأصله فى الزمان والمكان مجاز فى الحيض . وقال الطبرى : المحيض اسم للحيض؛ ومثله قول رُؤْبة فى العيش :

إليك أشكو شدّةَ المعيش * ومَرَّ أعوام تَنَفْنَ رِيشِى

(١) وجد عليهما : غضب . ومضارعه بضم الجيم وكسرها . (٢) الاستثفار : أن تشدّ المرأة فرجها بخرقة عريضة ، أو قطنة تحتشى بها وتوثق طرفيها فى شىء تشده على وسطها فتمنع سيلان الدم .

وأصل الكلمة من السيلان والانفجار، يقال : حاض السيل وفاض، وحاضت الشجرة أى سالت رطوبتها، ومنه الحيض، أى الحوض؛ لأن الماء يحيض إليه أى يسيل؛ والعرب تُدخل الواوَ على الياء والياءَ على الواو؛ لأنهما من حيّز واحد. قال ابن عرفة : المحيض والحيض اجتماع الدم إلى ذلك الموضع؛ وبه سُمِّيَ الحوض لاجتماع الماء فيه؛ يقال : حاضت المرأة وتحيّضت ودَرَسَت وعَرَكت وطَمِثَت، تحيض حَيْضا ومَحَاضا ومَحِيضا إذا سال الدم منها فى أوقات معلومة. فإذا سال فى غير أيام معلومة ومن غير عِرْق المحيض قلتَ : آستُحِيضت، فهى مستحاضة. ابن العربى. ولها ثمانية أسماء : الأوّل — حائض. الثانى — عارك. الثالث — فارك. الرابع — طامس(١). الخامس — دارس. السادس — كابر. السابع — ضاحك. الثامن — طامث. قال مجاهد فى قوله تعالى : «فضَحِكت» يعنى حاضت. وقيل فى قوله تعالى : «فلمّا رأينه أكبرنه» يعنى حضن. وسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى.

الثالثة — أجمع العلماء على أن للرأة ثلاثة أحكام فى رؤيتها الدّمَ الظاهرَ السائلَ من فرجها؛ فمن ذلك الحيضُ المعروفُ، ودمُه أسودُ خاثرٌ تعلوه حُمرةٌ؛ تترك له الصلاةَ والصومَ؛ لاخلاف فى ذلك. وقد يتصل وينقطع؛ فإن آتصل فالحكم ثابتٌ له، وإن انقطع فرأت الدمَ يوما والطهرَ يوما، أو رأت الدمَ يومين والطهرَ يومين أو يومًا فإنها تترك الصلاة فى أيام الدم، وتغتسل عند انقطاعه وتُصلّى، ثم تُلفّق أيام الدم وتُلغى أيامَ الطهر المتخللة لها، ولا تحتسب بها طهرا فى عدّة ولا آستبراء. والحيضُ خِلقةٌ فى النساء وطبعٌ معتاد معروف منهنّ. روى البخارىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أضحًى أو فِطرٍ إلى المُصلّى فمرّ على النساء فقال : "يا معشر النساء تصدّقن فإنى أُرِيتُكنّ أكثرَ أهلِ النار — فقلن : وبِمَ يا رسول الله؟ قال — تُكثِرْنَ اللّعنَ وتَكفُرْنَ العشيرَ ما رأيت من ناقصاتِ عقلٍ ودِينٍ أذهبَ لِلُبّ الرجلِ الحازمِ من إحداكنّ — قلن : وما نقصانُ عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال — أليس شهادةُ المرأةِ مِثلَ نصفِ شهادةِ الرجلِ — قلن : بلى؛ قال : فذلكِ من نقصان

---

(١) كذا فى الأصول وأحكام القرآن لابن العربى.

عقلها أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تَصُمْ — قلن : بلى يارسول الله ؛ قال — فذلك من نقصان دينها » .

وأجمع العلماء على أن الحائض تقضي الصومَ ولا تقضي الصلاةَ ؛ لحديث مُعاذةَ قالت : سألت عائشة فقلت : ما بالُ الحائض تقضي الصومَ ولا تقضي الصلاةَ؟ فقالت : أَحَرُورِيَّةٌ[1] أنتِ؟ قلتُ : لستُ بحرورية ، ولكني أسألُ . قالت : كان يصيبنا ذلك فنُؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة ؛ خرّجه مسلم . فإذا انقطع عنها كان طهرها منه الغسل ، على ما يأتي .

الرابعــة — واختلف العلماء في مقدار الحيض ؛ فقال فقهاء المدينة : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسةَ عشرَ يوما ، وجائز أن يكون خمسةَ عشرَ يوما فما دون ، وما زاد على خمسةَ عشرَ يوما لا يكون حيضا وإنما هو استحاضة ؛ هذا مذهب مالكٍ وأصحابِه . وقد رُوى عن مالك أنه لا وقت لقليل الحيض ولا لكثيره الا ما يوجد في النساء ؛ فكأنه ترك قوله الأوّلَ ورجع إلى عادة النساء . وقال محمد بن مسلمة : أقلّ الطهر خمسة عشر يوما ، وهو أكثر اختيار البغداديين من المالكيين ، وهو قول الشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابهما والثوريّ ؛ وهو الصحيح في الباب ؛ لأن الله تعالى قد جعل عِدّة ذواتِ الأقراء ثلاثَ حِيَض ، وجعل عِدّة من لا تحيض من كِبر أو صِغر ثلاثةَ أشهر ؛ فكان كلُّ قَــرْءٍ عِوَضًا من شهر ، والشهر يجمع الطُّهر والحيض . فإذا قلّ الحيض كثر الطّهر ، وإذا كثر الحيض قلّ الطهر ، فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يوما وجب أن يكون بإزائه أقلُّ الطهر خمسة عشر يوما ليكمل في الشهر الواحد حيض وطهر ، وهو المُتعارَف في الأغلب من خِلْقة النساء وجِبِلّتهنّ مع دلائل القرآن والسُّنّة . وقال الشافعيّ : أقلّ الحيض يومٌ وليلة ، وأكثره خمسة عشر يوما . وقد رُوى عنه مثلُ قولِ مالكٍ : إن ذلك مردود الى عُرْف النساء . وقال أبو حنيفــة وأصحابه : أقلّ الحيض ثلاثة أيام ، وأكثره عشرة . قال ابن عبــد البرّ : ما نقص عند هؤلاء عن ثلاثة أيام فهو استحاضة ، لا يمنع من الصلاة إلا عند أوّل ظهوره ؛

---

(١) الحرورية : طائفة من الخوارج نسبوا إلى «حروراء» وهو موضــع قريب من الكوفة ، وهم الذين قاتلهم علي رضي الله عنــه ، وكان عندهم من التشديد في الدين ما هو معروف ؛ فلمـا رأت عائشة هــذه المرأة تشدد في أمر الحيض شبهتها بالحرورية . وقيل : أرادت أنها خالفت السنة وخرجت عن الجماعة .

لأنه لا يُعلم مبلغُ مدّته. ثم على المرأة قضاءُ صلاةِ تلك الأوقات، وكذلك ما زاد على عشرة أيام عند الكوفيين . وعند الحجازيين ما زاد على خمسةَ عشرَ يوما فهو استحاضة، وما كان أقلَّ من يوم وليلة عند الشافعيّ فهو استحاضة؛ وهو قول الأوزاعيّ والطبريّ. وممن قال أقلّ الحيض يومٌ وليلةٌ وأكثره خمسةَ عشرَ يوما عطاءُ بنُ أبي رباح وأبو ثور وأحمدُ بن حنبل . قال الأوزاعي : وعندنا امرأة تحيض غُدْوةً وتطهُر عشيّةً. وقد أتينا على ما للعلماء في هذا الباب ـ من أكثر الحيض وأقلّه وأقلّ الطهر، وفي الاستظهار، والحجة في ذلك ـ في «المقتبَس في شرح موطأ مالك بن أنس» . فإن كانت بِكْراً مبتدَأةً فإنها تجلس أوّلَ ما ترى الدمَ في قول الشافعيّ خمسةَ عشر يوما ، ثم تغتسل وتُعيد صلاة أربعةَ عشرَ يوما . وقال مالك : لا تقضي الصلاةَ ويُمسك عنها زوجُها . عليّ بن زياد عنه : تجلس قدْر لِداتها؛ وهذا قول عطاء والثورى وغيرِهما . ابن حنبل : تجلس يوما وليلة ، ثم تغتسل وتصلي ولا يأتيها زوجُها . أبو حنيفة وأبو يوسف : تَدَعُ الصلاة عشرا، ثم تغتسل وتصلي عشرين يوما، ثم تترك الصلاة بعد العشرين عشرا؛ فيكون هذا حالها حتى ينقطع الدم عنها . أمّا التي لها أيام معلومة فانها تستظهر على أيامها المعلومة بثلاثة أيام؛ عن مالك : مالم تجاوز خمسة عشر يوما . الشافعيّ : تغتسل إذا انقضت أيامُها بغير استظهار .

والثاني من الدّماء : دمُ النفاس عند الولادة؛ وله أيضا عند العلماء حَدٌّ محدود اختلفوا فيه؛ فقيل : شهران؛ وهو قول مالك . وقيل : أربعون يوما ؛ وهو قول الشافعيّ . وقيل غير ذلك . وطُهْرُها عند انقطاعه . والغسل منه كالغسل من الجنابة . قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : ودم الحيض والنفاس يمنعان أحد عشر شيئا : وهي وجوب الصلاة وصحةُ فعلها وفعلُ الصوم دون وجوبه ـ وفائدة الفرق لزوم القضاء للصوم ونفيُه في الصلاة ـ والجماعُ في الفرج وما دونه والعدّةُ والطلاقُ والطوافُ ومسُّ المصحف ودخولُ المسجد والاعتكافُ فيه؛ وفي قراءة القرآن روايتان .

والثالث من الدّماء: دمٌ ليس بعادة ولا طَبْع منهن ولا خِلقة، وإنما هو عِرْق انقطع، سائلُه دمٌ أحمرُ لا انقطاع له إلا عند البُرْء منه؛ فهذا حكمه أن تكون المرأة منه طاهرةً لا يمنعها من صلاة ولا صــوم؛ بإجماع من العلماء واتفاق من الآثار المرفوعة اذا كان معلوما أنه دَمُ عِرْق لا دَمُ حيض. روى مالكٌ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قالت فاطمةُ بنتُ أبى حُبَيش: يارسول الله، إنى لا أطهُر! أفأَدَعُ الصلاةَ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنما ذلكِ عِرْقٌ وليس بالحيضة إذا أقبلتِ الحيضة فدَعِى الصلاة فاذا ذهب قدرها فآغسلى عنكِ الدّمَ وصَلِّى". وفى هذا الحديث مع صحته وقلة ألفاظه ما يفسِّر لك أحكامَ الحائض والمستحاضة؛ وهو أصح ما روِى فى هذا الباب، وهو يرُدُّ ما رُوِى عن عقبة ابن عامر ومكحول أن الحائض تغتسل وتتوضأ عند كل وقت صلاة، وتستقبل القبلة ذاكرةً لله عزّ وجلّ جالسة. وفيه: أن الحائض لا تُصلِّى، وهو إجماع من كافّة العلماء إلا طوائفَ من الخوارج يرون على الحائض الصلاةَ. وفيه ما يدل على أن المستحاضة لا يلزمها غيرُ ذلك الغسلِ الذى تغتسل من حيضها، ولو لزمها غيره لامرها به. وفيه ردّ لقول من رأى ذلك عليها لكل صــلاة. ولقول من رأى عليها أن تجمع بين صلاتَىِ النهار بغُسل واحد، وصلاتَىِ الليل بغسل واحد وتغتسل للصبح. ولقول من قال: تغتسل من طهر الى طهر. ولقول سعيدبن المسيِّب من طهر إلى طهر؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمرها بشىء من ذلك. وفيــه ردّ لقول من قال بالاستظهار؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمرها إذا علمت أن حيضتها قــد أدبرت وذهبت أن تغتسل وتصلى، ولم يأمرها أن تترك الصلاة ثلاثة أيام لانتظار حيض يجىء أو لا يجىء؛ والاحتياط إنما يكون فى عمل الصلاة لا فى تركها.

الخامســـــة ــ قوله تعــالى: ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ أى هو شىء تتأذى به المــرأة وغيرُها، أى برائحة دم الحيض. والأذى كناية عن القَذَر على الجملة. ويُطلق على القول المكروه؛ ومنه قوله تعالى: «لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» أى بما تسمعه من المكروه. ومنه قوله تعــالى: «وَدَعْ أَذَاهُمْ» أى أذَى المنافقين لا تُجازهم إلا أن تؤمر فيهم. وفى الحــديث:

" وأميطوا عنه الأذى " يعني بـ « الأذى » الشعرَ الذي يكون على رأس الصبيّ حين يولد، يُحلق عنه يوم أسبوعه، وهي العقيقة . وفي حديث الإيمان : " وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " أي تنحيته، يعني الشوك والحجر، وما أشبه ذلك مما يتأذى به المارّ . وقوله تعالى : « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ » وسيأتي .

السادسة ـ استدل من منع وطء المستحاضة بسيلان دم الاستحاضة ؛ فقالوا : كلُّ دم فهو أذًى، يجب غَسلُه من الثوب والبدن ؛ فلا فرق في المباشرة بين دم الحيض والاستحاضة لأنه كلّه رجس . وأما الصلاة فرُخصة وردت بها السُّنة كما يُصلَّى بسلس البول، هذا قول إبراهيم النخعيّ وسليمان بن يسار والحكم بن عيينة وعامر الشعبيّ وابن سيرين والزهريّ . واختُلف فيه عن الحسن ، وهو قول عائشة : لا يأتيها زوجُها ؛ وبه قال ابن عُلَيَّة والمغيرة ابن عبد الرحمن ، وكان من أعلى أصحاب مالك، وأبو مصعب، وبه كان يُفتي . وقال جمهور العلماء : المستحاضة تصوم وتُصلِّي وتطوف وتقرأ ، ويأتيها زوجها . قال مالك : جُلُّ أهل الفقه والعلم على هذا، وإن كان دمها كثيرا؛ رواه عنه ابنُ وهب . وكان أحمد يقول: أَحَبُّ اليّ ألّا يطأها إلا أن يطول ذلك بها . وعن ابن عباس في المستحاضة : لا بأس أن يصيبها زوجُها وإن كان الدم يسيل على عقبيها . وقال مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما ذلك عِرْق وليس بالحيضة " . فإذا لم تكن حيضة فما يمنعه أن يصيبها وهي تُصلِّي ! قال ابن عبد البر : لما حكم الله عز وجل في دم المستحاضة بأنه لا يمنع الصلاةَ وتَعبَّد فيه بعبادة غير عبادة الحائض وجب ألّا يُحكَمَ له بشيء من حكم الحيض إلا فيما أجمعوا عليه من غَسله كسائر الدماء .

السابعة ـ قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ أي في زمن الحيض، إن حملت المحيض على المصدر، أو في محل الحيض إن حملته على الاسم . ومقصودُ هذا النهي تركُ المجامعة .

وقد اختلف العلماء في مباشرة الحائض وما يُستباح منها ؛ فروى عن ابن عباس وعَبيدةَ السَّلْماني أنه يجب أن يعتزل الرجلُ فراش زوجته إذا حاضت . وهذا قولٌ شاذٌ خارجٌ عن

قول العلماء، و إن كان عمومُ الآية يقتضيه فالسُّنّة الثابتة بخلافه؛ وقد وقفتْ على ابن عباس خالتُه ميمونةُ وقالت له: أراغب أنت عن سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم! وقال مالك والشافعيّ والأوزاعيُّ وأبو حنيفة وأبو يوسف و جماعةٌ عظيمة من العلماء: له منها ما فوق الإزار؛ لقولِه عليه السلام للسائل حين سأله —: ما يَحِلّ لى من امرأتى وهى حائض؟ فقال —: "لِتشدّ عليها إزارَها ثم شأنَكَ بأعلاها"، وقولِه عليه السلام لعائشة حين حاضت: "شُدّى على نفسك إزارَكِ ثم عُودِى الى مضجعك". وقال الثورى ومحمد بن الحسن و بعض أصحاب الشافعيّ: يجتنب موضعَ الدم؛ لقوله عليه السلام: "اصنعوا كلَّ شىء إلا النكاح". وقد تقدّم. وهو قول داود، وهو الصحيح من قول الشافعيّ. و روى أبو مَعْشر عن ابراهيم عن مسروق قال: سألتُ عائشةَ: ما يحلّ لى من آمرأتى وهى حائض؟ فقالت: كلُّ شىء إلا الفرج. قال العلماء: مباشرةُ الحائض وهى مُتَّزِرة على الاحتياط والقطع للذريعة، ولأنه لو أباح فَخِذَيها كان ذلك منه ذريعةً الى موضع الدم المحرّم بإجماع؛ فأمر بذلك احتياطا، والمُحرَّم نفسُه موضعُ الدم؛ فتتفق بذلك معانى الآثار، ولا تضادّ، و بالله التوفيق.

الثامنة — واختلفوا فى الذى يأتى آمرأته وهى حائض ماذا عليه؛ فقال مالك والشافعيّ وأبو حنيفة: يستغفر الله ولا شىء عليه؛ وهو قول ربيعةَ ويحيى بن سعيد، و به قال داود. ورُوى عن محمد بن الحسن: يتصدّق بنصف دينار. وقال أحمدُ: يتصدّق بدينار أو نصفِ دينار. قال أحمد: ما أحْسنَ حديثَ عبد الحميد عن مِقْسَم عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "يتصدّق بدينار أو نصفِ دينار". أخرجه أبو داود وقال: هكذا الرواية الصحيحة قال: دينار أو نصفُ دينار؛ واستحبه الطبريُّ. فان لم يفعل فلا شىء عليه؛ وهو قول الشافعيّ ببغداد. وقالت فرقة من أهل الحديث: إن وَطِئ فى الدّم فعليه دينار، وإن وطئ فى انقطاعه فنصفُ دينار. وقال الأوزاعيّ: من وطئ امرأته وهى حائض تصدّق بخُمُسى دينار؛ والطُّرُق لهذا كلّه فى «سنن أبى داود والدّارَقُطْنِيّ» وغيرهما. وفى كتاب الترمذى عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان دما أحمرَ فدينارٌ و إن كان دما

اصفرَ فنصفُ دينـار". قال أبو عمر : حجة من لم يوجب عليه كفارةً إلا الاستغفارَ والتوبةَ اضطرابُ هـذا الحديثِ عن ابن عباس، وأن مثلَه لا تقوم به حُجّة، وأن الذّمة على البراءة، ولا يجب أن يثبت فيها شيء لمسكين ولا غيره إلا بدليل لا مدفعَ فيه ولا مَطعنَ عليه؛ وذلك معدوم فى هذه المسئلة .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ قال ابن العـربيّ : سمعت الشاشيّ فى مجلس النَّظر يقول : اذا قيل لا تَقْرَب (بفتح الراء) كان معناه : لا تَلَبَّسْ بالفعل، وإن كان بضم الراء كان معناه : لا تَدْنُ منه . وقرأ نافعٌ وأبو عمرو وابنُ كثير وابنُ عامرٍ وعاصمٌ فى رواية حفص عنـه « يَطْهُرْن » بسكون الطاء وضم الهـاء . وقرأ حمزةُ والكسائىُّ وعاصمٌ فى رواية أبى بكر والمفضّل « يَطَّهَّرن » بتشديد الهاء والطاء وفتحهما . وفى مصحف أُبَىٍّ وعبد الله « يتطهرن » . وفى مصحف أنس بنِ مالكٍ « ولا تقربوا النساء فى محيضهنّ واعتزلوهنّ حتى يتطهرن » . ورجّح الطبرىُّ قراءةَ تشديد الطاء وقال : هى بمعنى يغتسلن ، لإجماع الجميع على أن حراما على الرجل أن يقرَب امرأته بعد انقطاع الدم حتى تطهر . قال : وإنما الخلاف فى الطهر ما هو؛ فقال قوم : هو الاغتسال بالمـاء . وقال قوم : هو وضُوء كوضوء الصلاة . وقال قوم : هو غسل الفرج؛ وذلك يُحلّها لزوجها وإن لم تغتسل من الحيضة، ورجّح أبو علىّ الفارسىّ قراءةَ تخفيف الطاء، إذ هو ثُلاثىٌّ مضادٌّ لطَمِث وهو ثلاثىّ .

العـاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ يعنى بالمـاء؛ وإليـه ذهب مالك وجمهور العلماء، وأن الطهر الذى يَحِلّ به جماعُ الحائض التى يذهب عنها الدمُ هو تطهرها بالمـاء كطهور الجنب، ولا يجزئ من ذلك تيممٌ ولا غيرُه؛ وبه قال مالك والشافعىّ والطبرىّ ومحمدُ بن مسلمة وأهل المدينـة وغيرُهم . وقال يحيى بن بُكير ومحمد بن كعب القُرَظىّ : إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماءَ حلّت لزوجها وإن لم تغتسل . وقال مجاهد وعكرمة وطاوس : انقطاع الدم يحلّها لزوجها، ولكن بأن تتوضأ . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : إن انقطع دمُها بعـد مضىّ عشرة أيام جاز له أن يطأ قبـل الغسل ، وإن كان انقطاعه قبـل العشرة

لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت صلاة . وهذا تحكُّم لا وجه له ؛ وقد حكموا للحائض بعد انقطاع دمها بحكم الحبس فى العدّة وقالوا : لزوجها عليها الرجعةُ ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة ؛ فعلى قياس قولهم هـذا لا يجب أن تُوطأ حتى تغتسل ، مع موافقته أهل المدينـة . ودليلُنا أن الله سبحانه علّق الحكم فيها على شرطين : أحدهما — انقطاع الدم، وهو قوله تعالى « حتى يَطْهُرْنَ» . والثانى — الاغتسال بالمـاء ، وهو قوله تعالى : «حتى يتطهرن» أى يفعلن الغسل بالمـاء ؛ وهذا مثل قوله تعالى : « وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ » الآية، فعلق الحكمَ وهو جواز دفع المـالَ على شرطين : أحدهما — بلوغُ المكلَّف النكاحَ . والثانى — إيناس الرُّشد ، وكذلك قوله تعالى فى المطلقة : « فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» ثم جاءت السنة باشتراط العُسَيْلَة ؛ فوقف التحليل على الأمرين جميعا، وهو انعقاد النكاح ووجودُ الوطء . احتج أبو حنيفة فقال : إن معنى الآية الغايةُ فى الشرط هو المذكور فى الغاية قبلها ؛ فيكون قولهُ : «حتى يطهرن» مخفّفا هو بمعنَى قوله « يطّهّرن » مشدّدا بعينه، ولكنه جمع بين اللغتين فى الآية ؛ كما قال تعالى : « فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ » . قال الكُميت :

وما كانت الأنصار فيهـا أذلّةً * ولا غُيّبًا فيهـا إذ النـاسُ غُيَّبُ

وأيضا فان القراءتين كالآيتين فيجب أن يُعمل بهما، ونحن نحمل كل واحدة منهما على معنًى ، فنحمل المخففة على ما اذا انقطع دَمُها للأقل ، فإنا لا نجوِّز وطأها حتى تغتسل، لأنه لا يؤمن عوده . ونحمل القراءة الأخرى على ما إذا انقطع دمها للأكثر، فيجوز وطؤها وإن لم تغتسل . قال ابن العـربى : وهذا أقوى ما لهم، فالجواب عن الأوّل : أن ذلك ليس من كلام الفصحاء ولا ألسن البلغاء، فان ذلك يقتضى التكرار فى التعداد، واذا أمكن حمل اللفظ على فائدة مجـردة لم يحمل على التكرار فى كلام النـاس ، فكيف فى كلام العليم الحكيم ! وعن الثـانى : أن كل واحد منهما محمول على معنًى دون معنى الآخر، فيلزمهم إذا انقطع الدم ألا يُحكم لها بحكم الحيض قبل أن تغتسل فى الرجعة ، وهم لا يقولون ذلك كما بيّناه ، فهى إذًا حائضٌ

والحائض لا يجوز وطؤها اتفاقا. وأيضا فان ما قالوه يقتضى إباحة الوطء عند انقطاع الدم للأكثر، وما قلناه يقتضى الحَظْرَ، وإذا تعارض ما يقتضى الحظرَ وما يقتضى الإباحة ويُغلَّب باعثاهما غُلِّب باعثُ الحظر؛ كما قال علىٌّ وعثمانُ فى الجمع بين الأختين بملك اليمين، أحلتهما آية وحرمتهما أخرى، والتحريم أولى . والله أعلم .

الحادية عشرة ـ اختلف علماؤنا فى الكتابية هل تُجبَر على الاغتسال أم لا ؛ فقال مالك فى رواية ابن القاسم : نعم، ليحلّ للزّوج وطؤها ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ » يقول بالماء، ولم يخُصّ مسلمة من غيرها . وروى أشهبُ عن مالك أنها لا تجبر على الاغتسال من الحيض ؛ لأنها غير معتقدة لذلك ؛ لقول الله تعالى : « وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » وهو الحيض والحمل، وإنما خاطب الله عز وجل بذلك المؤمنات وقال : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » وبهذا كان يقول محمدُ بنُ عبد الحكم .

الثانية عشرة ـ وصفة غسل الحائض صفة غسلها من الجنابة، وليس عليها نقضُ شَعرِها فى ذلك ؛ لما رواه مسلم عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله إنى أشُدُّ ضَفرَ رأسى أفأنقضه لغسل الجنابة؟ قال : "لا إنما يكفيك أن تَحْثِي على رأسك ثلاثَ حَثَيَاتٍ ثم تُفيضين عليكِ الماءَ فتَطهرين" وفى رواية : أفأنقضه للحيضة والجنابة؟ فقال : "لا" زاد أبو داود : "واغمِزى قرونَك عند كل حَفْنة" .

الثالثة عشرة ـ قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى فجامعوهن . وهو أمر إباحة، وكَنَى بالإتيان عن الوطء، وهذا الأمر يُقوِّى ما قلناه من أن المراد بالتطهر الغسل بالماء ؛ لأن صيغة الأمر من الله تعالى لا تقع الا على الوجه الأكمل . والله أعلم . و« مِن » بمعنى فى، أى فى حيث أمركم الله تعالى وهو القُبُل ؛ ونظيره قوله تعالى : «أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ » أى فى الأرض، وقوله : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ » أى فى يوم الجمعة . وقيل المعنى أى من الوجه الذى أُذِن لكم فيه، أى من غير صوم وإحرام

واعتكاف؛ قاله الأصم . وقال ابن عباس وأبو رزين : من قِبَل الطهر لا من قِبَل الحيض؛ وقاله الضحاك . وقال محمد بن الحنفية : المعنى من قبل الحلال لا من قبل الزنا .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ اختلف فيه؛ فقيل : التوابون من الذنوب والشرك . والمتطهرون أى بالماء من الجنابة والأحداث؛ قاله عطاء وغيره . وقال مجاهد : من الذنوب ؛ وعنه أيضا : من إتيان النساء فى أدبارهن . ابن عطية : كأنه نظر إلى قوله تعالى حكاية عن قوم لوط : « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » . وقيل : المتطهرون الذين لم يُذنبوا .

فإن قيل : كيف قدّم بالذكر الذى أذنب على من لم يذنب ؛ قيل : قدّمه لئلا يقنطَ التائب من الرحمة ولا يعجب المتطهر بنفسه ؛ كما ذكر فى آية أخرى : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

فيه ستّ مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ روى الأئمة واللفظ لمسلم عن جابر ابن عبد الله قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجلُ امرأته من دُبُرها فى قُبُلها كان الولدُ أحولَ؛ فنزلت الآية : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » زاد فى رواية عن الزهرى : إن شاء مُجَبِّيَةً[1] وإن شاء غيرَ مُجَبِّيَةٍ غير أن ذلك فى صِمَام واحد . ويروى : فى سِمَام واحد بالسين؛ قاله الترمذى . وروى البخارى عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرُغَ منه؛ فأخذت[2] عليه يوماً؛ فقرأ سورة « البقرة » حتى انتهى إلى مكانٍ قال : أتدرى فيم أنزلت ؟

---

(١) مجبية : أى منكبة على وجهها؛ تشبيها بهيئة السجود .

(٢) أخذت عليه : أى أمسكت المصحف وهو يقرأ عن ظهر قلب .

قلت : لا . قال : نزلت في كذا وكذا ، ثم مضى . وعن عبد الصمد قال : حدثني أبي قال حدثني أيوب عن نافع عن ابن عمر « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » قال : يأتيها في قُبُلها . قال الحُميدي : يعني الفرج . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : ان ابن عمر والله يغفر له أَوْهم ، إنما كان هذا الحيُّ من الأنصار ، وهمُ أهل وَثَنٍ ، مع هذا الحيِّ من يهود ، وهم أهل كتاب ، وكانوا يرون لهم فضلا عليهم في العلم ؛ فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكتاب ألّا يأتوا النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ؛ فكان هذا الحيُّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحيُّ من قريش يَشْرَحُون النساءَ شَرْحًا(١) مُنكرا و يتلذذون منهنّ مُقْبِلاتٍ ومدبراتٍ ومستلقياتٍ ؛ فلما قدم المهاجرون المدينةَ تزوّج رجل منهم امرأةً من الأنصار ؛ فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه ، وقالت : إنما كنا نُؤْتَى على حَرْف ! فاصْنع ذلك و إلا فاجتنبني ؛ حتى شَرِيَ(٢) أمرُهما ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله عز وجل : « فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » أي مقبلاتٍ ومدبرات ومستلقياتٍ ، يعني بذلك موضع الولد . وروى الترمذيّ عن ابن عباس قال : جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هلكتُ ! قال : "وما أهلكك" قال : حوّلت رحلي الليلة ؛ قال : فلم يَرُدَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ؛ قال : فأُوحيَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيةُ : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ وَاتَّقِ الدُّبُرَ والحَيْضةَ . قال : هذا حديث حسن صحيح(٣) . وروى النسائيّ عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمرَ : قد أُكثر عليك القولُ ! إنك تقول عن ابن عمر : أنه أفتى بأن يُؤْتَى النساءُ في أدبارهن . قال نافع : لقد كذبوا عليّ ! ولكن سأخبرك كيف كان الأمر : إن ابن عمر عَرَض عليّ المصحفَ يوما وأنا عنده حتى بلغ : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » ؛ قال نافع : هل تدري ما أمرُ هذه الآية ؟ إنا كنا معشرَ قريش نُجَبِّي(٤) النساءَ فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساءَ الأنصار أردنا منهن ما كنا نريد

---

(١) شرح الرجل جاريته : إذا وطئها نائمة على قفاها .

(٢) شري أمرهما (من باب رضي) : عظم وتفاقم ولجوا فيه . (٣) الذي في صحيح الترمذي : «حسن غريب» .

(٤) تقدم معنى «التجبية» ص من هذا الجزء فانظره .

من نسائنا؛ فاذاهنّ قد كرِهن ذلك وأعظمنه، وكان نساء الأنصار إنما يُؤتين على جنوبهن؛ فأنزل الله سبحانه : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » .

الثانيـــة — هذه الأحاديث نصٌّ فى إباحة الحال والهيئات كلّها اذا كان الوطء فى موضع الحَرْث ؛ أى كيف شئتم من خلف ومن قُدّام و باركةً ومستلقيةً ومضطجعةً ؛ فأما الإتيان فى غير المَأْتَى فما كان مباحا، ولا يباح! وذكرُ الحرثِ يدل على أن الإتيان فى غيرِ المأْتَى محرّم . و « حرث » تشبيه؛ لأنهن مُزْدَرع الذُّرّيّة؛ فلفظ « الحرث » يعطى أنــ الإباحة لم تقع إلا فى الفرج خاصّةً إذ هو المزدرع . وأنشد ثعلب :

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات * فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات

ففرج المرأة كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات ؛ فالحرث بمعنى المحترث . ووحّد الحرث لأنه مصدر؛ كما يقال : رجلٌ صومٌ، وقومٌ صومٌ .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ معناه عند الجمهور مــن الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى : من أىّ وجهٍ شئتم مقبلة ومدبرة، كما ذكرنا آنفا . و«أنَّى» تجيء سؤالا و إخبارا عن أمرٍ له جهات ؛ فهو أعمّ فى اللغة من « كيف » ومن « أين » ومن « متى »؛ هذا هو الاستعمال العربىّ فى « أنّى » . وقد فسر الناس « أنّى » فى هذه الآية بهذه الألفاظ . وفسرها سيبويه بـ « كيف » و « من أين » باجتماعهما . وذهبت فرقة ممن فسّرها بـ « أين » إلى أن الوطء فى الدبر مباح؛ وممن نُسب إليه هذا القولُ : سعيدُ بنُ المسيّب ونافعٌ وابنُ عمرَ ومحمد ابنُ كعبٍ القرَظىّ وعبـدُ الملك بن المـاجشون . وحُكى ذلك عن مالكٍ فى كتاب له يسمى « كتاب السرّ » . وحذّاقُ أصحابِ مالكٍ ومشايخهم يُنكرون ذلك الكتاب ؛ ومالكٌ أجلّ من أن يكون له « كتابُ سرٍّ » . ووقع هذا القول فى العُتْبِيّة . وذكر ابن العربىّ أنّ ابنَ شعبان أسند جواز هذا القولِ إلى زُمرة كبيرة من الصحابة والتابعين ، وإلى مالكٍ من روايات كثيرة فى كتاب « جماع النّسوان وأحكام القرآن» . وقال الكِيَا الطبرىّ : ورُوى عن محمد بن كعب القرَظىّ أنه كان لا يرى بذلك بأسا؛ ويتأوّل فيه قولَ الله عز وجل : « أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ

العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم» وقال: فتقديره تتركون مثل ذلك من أزواجكم؛ ولو لم يبح مثلُ ذلك من الأزواج لما صح ذلك، وليس المباح من الموضع الآخر مثلاً له؛ حتى يقال: تفعلون ذلك وتتركون مثلَه من المباح. قال الكِيَا: وهذا فيه نظر، إذ معناه: وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم مما فيه تسكينُ شهوتكم، ولذةُ الوقاع حاصلة بهما جميعا، فيجوز التوبيخ على هذا المعنى. وفى قوله تعالى: «فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله» مع قوله: «فأتوا حرثكم» ما يدل على أن فى المأتَى اختصاصا، وأنه مقصور على موضع الولد.

قلت: هذا هو الحق فى المسألة. وقد ذكر أبو عمرَ بن عبد البر أن العلماء لم يختلفوا فى الرَّتْقاء التى لا يوصل إلى وطئها أنه عيب تُرَدّ به؛ إلا شيئا جاء عن عمرَ بن عبد العزيز من وجه ليس بالقوى أنه لا تُرَدّ الرتقاء ولا غيرُها؛ والفقهاء كلُّهم على خلاف ذلك؛ لأن المسيس هو المبتغَى بالنكاح، وفى إجماعهم على هذا دليل على أن الدبُر ليس بموضع وطء، ولو كان موضعا للوطء ماردُت من لا يوصَل إلى وطئها فى الفرج. وفى إجماعهم أيضا على أن العَقِيم التى لا تلد لا ترد. والصحيح فى هذه المسألة ما بيّناه. وما نُسب الى مالك وأصحابه من هذا باطل وهم مبرَّءون من ذلك؛ لأن إباحة الإتيان مختصة بموضع الحرث؛ لقوله تعالى: «فأتوا حرثكم»؛ ولأن الحكمة فى خلق الأزواج بثّ النسل؛ فغير موضع النسل لا يناله مِلْك النكاح، وهذا هو الحق. وقد قال أصحاب أبى حنيفة: إنه عندنا ولائطَ الذكر سواء فى الحكم؛ ولأن القَذَر والأذَى فى موضع النجو[1] أكثرُ من دمِ الحيض، فكان أشنعَ. وأما صِمام البول فغير صِمام الرَّحِم. قال ابن العربى فى قبسه: قال لنا الشيخ الإمام فخرُ الاسلام أبو بكر محمدُ ابنُ احمد بن الحسين فقيه الوقت وإمامه: الفرج أشبه شىء بخمسةٍ وثلاثين؛ وأخرج يده عاقدا بها. وقال: مسلك البول ما تحت الثلاثين، ومسلك الذَّكَر والفرج ما اشتملت عليه الخمسةُ؛ وقد حرّم الله تعالى الفرجَ حالَ الحيض لأجل النجاسة العارضة، فأَوْلى أن يحرم الدُّبُر لأجل النجاسة اللازمة. وقال مالك لابن وهب وعلىّ بن زياد لما أخبراه أن ناسا بمصر

(١) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط.

يتحدّثون عنه أنه يجيز ذلك ؛ فنفر من ذلك ، و بادر الى تكذيب النـاقل فقال : كذبوا علىّ ، كذبوا علىّ ، كذبوا علىّ ! ثم قال : ألستم قوما عَرَبًا ؟ ألم يقل الله تعالى : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » ؟ وهـل يكون الحرث إلا فى موضع المنبت ! وما استدل به المخالف من أن قوله عز وجل : «أنّى شئتم» شامل للسالك بحكم عمومها فلا حُجّة فيها، إذ هى مخصصة بماذكرناه، وبأحاديثَ صحيحةٍ حِسّانٍ شهيرةٍ رواها عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم اثنا عشر صحابيا بمُتُون مختلفة ، كلها متواردة على تحريم إتيان النساء فى الأدبار ؛ ذكرها أحمـد بنُ حنبل فى مسنده، وأبو دواد والنَّسائىّ والترمذىّ وغيرُهم . وقد جمعها أبو الفرج بن الجوزى بطرقها فى جزء سماه « تحريم المحل المكروه » . ولشيخنا أبى العباس أيضا فى ذلك جزء سماه « إظهارُ إدبار، من أجاز الوطء فى الأدبار» .

قلت : وهـذا هو الحق المتّبع والصحيح فى المسألة، ولا ينبغى لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يُعرِّج فى هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنـه . وقد حُذِّرنا من زَلّة العالم . وقـد رُوى عن ابن عمر خلافُ هـذا ، وتكفيرُ مَن فعله ؛ وهـذا هو اللائق به رضى الله عنـه . وكذلك كذّب نافعٌ من أخبر عنه بذلك، كما ذكر النَّسائىّ، وقد تقدّم . وأنكر ذلك مالكٌ واستعظمه ، وكذّب من نسب ذلك اليه . وروى الدّارمىّ أبو محمّـد فى مسنده عن سـعيد ابن يسار أبى الحُبَاب قال: قلت لابن عمـر: ما تقول فى الجوارى حين أُحَمِّضُ لهنّ(1) ؟ قال : وما التّحميض ؟ فذكرت له الدُّبُر؛ فقال : هل يفعل ذلك أحد من المسلمين ! وأسند عن خزيمةَ بن ثابت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أيها الناس إن الله لا يستحيى من الحق لا تأتوا النساء فى أعجازهن" . ومثـله عن علىّ بن طَلْق . وأسند عن أبى هريرة عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم قال : "من أتى آمرأة فى دُبُرِها لم ينظرَ الله تعالى إليـه يوم القيامـة" . وروى أبو داود الطَّيالِسىّ فى مسنده عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبـد الله بن عمرو عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "تلك اللُّوطيّة الصُّغْرى"

(1) التحميض : أن يأتى الرجل المرأة فى غير مأتاها الذى يكون موضع الولد .

يعني إتيان المرأة في دبرها . وروى عن طاوس أنه قال : كان بدءُ عملِ قومِ لوطٍ إتيانَ النساء في أدبارهن . قال ابن المنذر : وإذا ثبت الشيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱستُغني به عما سواه .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي قدموا ما ينفعكم غداً ، فحذف المفعول ، وقد صُرِّح به في قوله تعالى : « وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ » فالمعنى قدموا لأنفسكم الطاعةَ والعملَ الصالحَ . وقيل : ابتغاءَ الولد والنسل ؛ لأن الولد خير الدنيا والآخرة ؛ فقد يكون شفيعا وجُنَّة . وقيل : هو التزوج بالعفائف ؛ ليكون الولد صالحا طاهرا . وقيل : هو تقدّم الأفراط(١) ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من قدّم ثلاثةً من الولد لم يبلغوا الحِنث لم تمسه النارُ إلا تَحِلّةَ القَسَم" الحديث . وسيأتي في «مريم» إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس وعطاء : أي قدّموا ذكر الله عند الجماع ؛ كما قال عليه السلام : "لو أن أحدكم إذا أتى امرأته قال بسم الله اللهمّ جنّبنا الشيطانَ وجنّب الشيطانَ ما رزقتنا فإنه إن يُقدَّر بينهما ولدٌ لم يضرّه شيطانٌ أبدا" . أخرجه مسلم .

الخامسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تحذير ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ خبرٌ يقتضي المبالغةَ في التحذير ؛ أي فهو مجازيكم على البِرّ والإثم . وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار قال : سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب يقول : " إنكم ملاقو الله حُفاةً عُراةً مُشاةً غُرْلًا(٢) ــ ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ « واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه » أخرجه مسلم بمعناه .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تأنيس لفاعل البرّ ومبتغي سنن الهدى .

قوله تعالى : وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

(١) الأفراط (جمع فرط) : هم الأولاد الذين ماتوا قبل أن يبلغوا الحلم .
(٢) الغرل (بضم فسكون جمع الأغرل) : وهو الأقلف الذي لم يختن .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال العلماء : لمّا أمر الله تعالى بالإنفاق وصحبة الأيتام والنساء بجميل المعاشرة قال : لا تمتنعوا عن شيء من المكارم تعلّلا بأنا حلفنا ألا نفعل كذا ؛ قال معناه ابن عباس والنَّخَعِيّ ومجاهد والربيع وغيرُهم . قال سعيد بن جُبير : هو الرجل يحلف ألا يَبَرّ ولا يصل ولا يُصلح بين الناس؛ فيقال له : بَرّ؛ فيقول : قد حلفتُ . وقال بعض المتأولين : المعنى ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البِرّ والتقوى والإصلاحَ؛ فلا يحتاج الى تقدير «لا» بعد «أن» . وقيل : المعنى لا تستكثروا من اليمين بالله فإنه أهيب للقلوب؛ ولهذا قال تعالى : « وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ » . وذَمّ مَن كَثّر اليمين فقال تعالى : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ » . والعرب تمدح بقلة الأيمان؛ حتى قال قائلهم :

قليلُ الأَلَايَا حافظٌ ليمينه * وإن صدرت منه الأَلِيَّةُ بَرّتِ

وعلى هذا « أن تبروا » معناه : أقِلّوا الأيمان لما فيه من البِرّ والتقوى؛ فإن الإكثار يكون معه الحِنْثُ وقلّةُ رَعْيٍ لحقّ الله تعالى؛ وهذا تأويل حسن . مالكُ بنُ أنس : بلغني أنه الحَلِف بالله في كل شيء . وقيل : المعنى لا تجعلوا اليمين مبتذلة في كل حق و باطل . وقال الزّجاج وغيرُه : معنى الآيةَ أن يكون الرجل اذا طُلب منه فعلُ خيرٍ اعتَلّ بالله فقال: عليّ يمين؛ وهو لم يحلف . القُتَبِيّ : المعنى إذا حلفتم على ألّا تصلوا أرحامكم ولا تتصدّقوا ولا تُصلحوا ؛ وعلى أشباه ذلك من أبواب البِرّ فكفّروا اليمين .

قلت : وهذا حسن لما بيّناه، وهو الذى يدلّ عليه سببُ النزول؛ على مانبيّنه في المسألة بعد هذا .

الثانيـة — قيل : نزلت بسبب الصدّيق إذ حلف ألّا يُنفق على مِسْطح حين تكلم في عائشة رضي الله عنها؛ كما في حديث الإفْك؛ وسيأتي بيانه في «النور» ؛ عن ابن جريج . وقيل : نزلت في الصدّيق أيضا حين حلف ألّا يأكل مع الأضياف . وقيل : نزلت في عبدِ الله بنِ رواحة حين حلف ألا يكلّم بشيرَ بنَ النعمان وكان خَتَنَه على أخته ؛ والله أعلم .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ أى نَصْبًا ؛ عن الجوهرىّ . وفلان عُرضةُ ذاك، أى عرضةٌ لذلك، أى مُقْرِنٌ له قوىٌّ عليه . والعُرْضَة : الهِمّة . قال :

* هُمُ الأنصارُ عُرضَتُها اللّقاءُ (١) *

وفلانٌ عُرْضَةٌ للناس: لا يزالون يقعون فيه . وجعلتُ فلانا عُرْضَةً لكذا أى نصبته له . وقيل : العُرْضَة من الشدّة والقوة؛ ومنه قولهم للمرأة : عُرْضَةٌ للنكاح؛ إذا صلَحت له وقَوِيت عليه؛ ولفلان عُرضةٌ : أى قوة على السفر والحرب؛ قال كعب بن زُهير :

من كلِّ نَضّاخة الذِّفْرَى إذا عَرِقت * عُرْضَتُها طامِسُ الأعلامِ مجهولُ

وقال عبد الله بن الزبير :

فهذى لأيام الحروب وهذه * لِلَهْوِى وهذى عُرْضَةٌ لارتحالنا

أى عُدّة . وقال آخر :

* فلا تجعلنّى عُرْضَةً للّوائم *

وقال أوس بن حَجَر :

وأدماء مثل الفحل يوما عرضتها * لرحلى وفيها هِزّة وتقاذُفُ

والمعنى : لا تجعلوا اليمين بالله قوةً لأنفسكم وعُدّة فى الامتناع من البرّ .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا ﴾ مبتدأ وخبره محذوف، أى البرّ والتقوى والاصلاح أوْلى وأمثل؛ مثل «طاعةٌ وقولٌ معروف» ، عن الزّجاج والنحاس . وقيل: محله النصب ، أى لا تمنعكم اليمين بالله عز وجل البرَّ والتقوى والإصلاحَ ؛ عن الزجاج أيضا . وقيل : مفعول من أجله . وقيل : معناه أن لا تبروا؛ فحذف « لا » ؛ كقوله تعالى : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لئلا تضلوا ؛ قاله الطبرىّ والنحاس . ووجه رابع من وجوه النصب: كراهة أن تبرّوا؛ ثم حذفت؛ ذكره النحاس والمهدوىّ . وقيل : هو فى موضع خفض

---

(١) عجز بيت لحسان بن ثابت رضى الله عنه ؛ وصدره : * وقال الله قد أعددت جندا *

على قول الخليل والكسائي؛ التقدير: في أن تبرّوا، فأضمرت «في» وخفضت بها. و(سَمِيعٌ) أي لأقوال العباد. (عَلِيمٌ) بنياتهم.

قوله تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: (بِاللَّغْوِ) اللَّغْوُ: مصدر لغا يلغو ويلغى، ولَغِي يَلْغَى لَغًا إذا أتى بما لا يحتاج إليه في الكلام، أو بما لا خير فيه، أو بما يلغى إثمه؛ وفي الحديث: "إذا قلتَ لصاحبك والإمام يخطب يومَ الجمعة أنصت فقد لغوتَ". ولغة أبي هريرة «فقد لغيت».

وقال الشاعر[1]:

وربَّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّمِ * عن اللَّغا ورَفَثِ التكلُّمِ

وقال آخر[2]:

ولستَ بمأخوذ بلَغْوٍ تقوله * إذا لم تَعَمَّدْ عاقداتِ العزائمِ

الثانيـة — واختلف العلماء في اليمين التي هي لَغْوٌ؛ فقال ابن عباس: هو قول الرجل في دَرْج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله؛ دون قصد لليمين. قال المَرْوَزِيّ: لغوُ اليمينِ التي اتفق العلماء على أنها لَغْوٌ هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله؛ في حديثه وكلامه غير معتقد لليمين ولا مريدها. وروى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب أن عروة حدّثه أن عائشة زوجَ النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت: أيمان اللّغو ما كانت في المراء والهزل والمزاحة والحديث الذي لا ينعقد عليه القلب. وفي البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزل قوله تعالى: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» في قول الرجل: لا والله، وبلى والله. وقيل: اللغو ما يحلف به على الظنّ؛ فيكون بخلافه؛ قاله مالك؛

(١) هو العجاج؛ كما في ديوانه. (٢) هو الفرزدق؛ كما في النقائض ص ٣٤٤ طبع أوربا.

حكاه ابن القاسم عنــه ، وقال به جماعة من السلف . قال أبو هريرة : إذا حلف الرجل على الشيء لا يظنه إلا أنه إياه، فاذا ليس هــو، فهو اللغو، وليس فيــه كفارة ؛ ونحوه عن ابن عباس. وروى أن قوما تراجعوا القولَ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرمون بحضرته؛ فحلف أحدهم لقد أصبتُ وأخطأتَ يافلان، فإذا الأمر بخلاف ذلك؛ فقال الرجل: حَنِث يارسول الله، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أيمان الرُّماة لغو لا حِنْث فيها ولا كفارة" . وفي الموطأ قال مالك : أحسن ما سمعتُ في هــذا أن اللّغو حلف الإنسان على الشيء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد الأمر بخلافه، فلا كفارة فيه. والذى يحلف على الشيء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا أو يعتذر لمخلوق أو يقتطعَ به مالًا فهذا أعظمُ من أن يكون فيه كفارة؛ وإنما الكفارة على من حلف ألّا يفعل الشيءَ المباحَ له فِعلُه ثم يفعله؛ أو أن يفعله ثم لا يفعله؛ مثل إن حَلَفَ ألّا يبيع ثوبَه بعشرة دراهم ثم يبيعه بمثل ذلك ، أو حَلَف ليضربنّ غلامَه ثم لا يضربه . ورُوى عن ابن عباس ــ إن صح عنه ــ قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان؛ وقاله طاوس . و روى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يمينَ في غَضَب" أخرجه مسلم . وقال سعيد بن جُبير : هو تحريم الحلال ؛ فيقول : مالى علىّ حرام إن فعلتُ كذا والحلال علىّ حرام ؛ وقاله مكحول الدمشقيّ، ومالكٌ أيضا، إلا في الزوجة فإنه ألزم فيها التحريمَ إلا أن يخرجها الحالف بقلبه . وقيل : هو يمين المعصية ؛ قاله سعيد بن المسيّب ، وأبو بكر بن عبــد الرحمن وعروة وعبد الله ابنــا الزبير؛ كالذى يُقسم ليشربنّ الخمرَ أو ليقطعنّ الرَّحِم فبِرُّه تركُ ذلك الفعل ولا كفارة عليه؛ وحجتهم حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليتركها فإنّ تَرْكَها كفارتُها" أخرجه ابن ماجه في سننه، وسيأتى في « المــائدة » أيضا . وقال زيد بن أسلم : لغو اليمين دعاء الرجل على نفسه : أعمى الله بصره، أذهب الله ماله ، هو يهوديّ ، هو مشرك، هو لِغَيّة إن فعل كذا . مجاهد : هما الرجلان يتبايعان فيقول أحدهما : والله لا أبيعك بكذا، ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا . النَّخَعيّ: هو الرجل يحلف ألا يفعل الشيء ثم ينسَى فيفعله .

وقال ابن عباس أيضا والضحاك : لغو اليمين هي المكفرة، أي إذا كُفِّرت اليمين سقطت وصارت لغوا، ولا يؤاخذ اللهُ بتكفيرها والرجوع الى الذى هو خير . وحكى ابن عبد البر قولًا : أن اللغو أيمان المكرَه . قال ابن العربيّ : أما اليمين مع النسيان فلا شك فى إلغائها ؛ لأنها جاءت على خلاف قصده ؛ فهى لغو محض .

قلت : ويمين المكرَه بمثابتها . وسيأتى حكم من حلف مُكْرَها فى « النحل » إن شاء الله تعالى. قال ابن العربيّ : وأما من قال إنه يمين المعصية فباطل؛ لأن الحالف على ترك المعصية تنعقد يمينُه عبادةً، والحالف على فعل المعصية تنعقد يمينه معصية؛ ويقال له : لا تفعل وكَفِّر، فإن أقدم على الفعل أثِم فى إقدامه وبرّ فى قسمه . وأما من قال : إنه دعاء الإنسان على نفسه إن لم يكن كذا فينزل به كذا، فهو قول لغو، فى طريق الكفارة ولكنه منعقد فى القصد، مكروه، وربما يؤاخَذ به؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يَدعُوَنّ أحدُكم على نفسه فربما صادف ساعة لا يسأل الله أحدٌ فيها شيئا إلا أعطاه إياه" . وأما من قال إنه يمين الغضب فإنه يردّه حلف النبيّ صلى الله عليه وسلم غاضبا ألّا يحمل الأشعريين وحملهم وكفّر عن يمينه. وسيأتى فى « براءة»(1) . قال ابن العربيّ : وأما من قال : إنه اليمين المكفّرة فلا متعلّق له يُحكَى ؛ وضعّفه ابن عطية أيضا وقال : قد رفع الله عز وجل المؤاخذةَ بالإطلاق فى اللغو، فحقيقتها لا إثم فيه ولا كفارة، والمؤاخذة فى الأيمان هى بعقوبة الآخرة فى اليمين الغموس المصبورة(2)، وفيما تُرِك تكفيره مما فيه كفارة، وبعقوبة الدنيا فى إلزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفَّرة؛ لأن المؤاخذة قد وقعت فيها؛ وتخصيص المؤاخذة بأنها فى الآخرة فقط تحكُّمٌ .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ الأيمان جمع يمين، واليمين الحَلِف، وأصله أن العرب كانت إذا تحالفت أو تعاقدت أخذ الرجل يمينَ صاحبه بيمينه، ثم كثُر ذلك حتى سُمّى

---

(1) فى قوله تعالى : (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم ... الآية ٩٢) .

(2) اليمين المصبورة هى التى ألزم بها الحالف وحبس عليها، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم؛ وقيل لها : « مصبورة» وان كان صاحبها فى الحقيقة هو المصبور؛ لأنه انما صبر من أجلها، أى حبس، فوصفت بالصبر وأضيفت الى اليمين مجازا .

الحلِفُ والعهدُ نفسُه يمينا . وقيل : يمين فعيل من اليُمْن ، وهو البَرَكة ؛ سماها الله تعالى بذلك لأنها تحفظ الحقوق . ويمين تُذكّر وتؤنث ، وتجمع أيمان وأيْمُن ؛ قال زهير :

* فتجمعُ أيْمُنٌ منّا ومنكم (١) *

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ مثلُ قولِه : «وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ» . وهناك يأتى الكلام فيه مستوفًى ، إن شاء الله تعالى . وقال زيد ابن أسلم : قوله تعالى : « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » هو فى الرجل يقول : هو مشرك إن فعل ، أى هذا اللّغو ، إلا أن يعقد الإشراك بقلبه ويكسبه . و ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ صفتان لائقتان بما ذُكر من طرح المؤاخذة ؛ إذ هو باب رفق وتوسعة .

قوله تعالى : لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ «يؤلون» معناه يحلفون ، والمصدر إيلاءٌ وألِيّةٌ وألْوَةٌ وإِلْوةٌ . وقرأ أُبَىّ وابن عباس « للذين يُقسمون » . ومعلوم أن « يقسمون » تفسير «يؤلون» . وقُرئ «للذين آلَوْا» يقال : آلى يُؤْلى إيلاء ، وتألَّى تألِّيا ، وآئتلى آئتلاء ، أى حلف ؛ ومنه « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ » ؛ وقال الشاعر

فآليتُ لا أنفكُّ أحــدو قصيدةً * تكون وإياها بها مثَلًا بعــدى

وقال آخر :

قليــل الألَايَا حافظٌ ليمينــه * وإنْ سَبقت منه الألِيّــةُ برّتِ

وقال ابن دُريد

أليّةً باليعمَلاتِ يَرتمِى * بها النَّجاءُ بين أجوازِ الفَلا

(١) هذا صدر بيت تمامه :

* مقسمة تمور بها الدماء *

قال عبد الله بن عباس: كان إيلاء الجاهلية السنةَ والسنتين وأكثر من ذلك؛ يقصدون بذلك إيذاءَ المرأة عند المساءة؛ فوقّت لهم أربعةَ أشهر، فمن آلى بأقلّ من ذلك فليس بإيلاءٍ حُكميّ.

قلت: وقد آلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وطلّق، وسبب إيلائه سؤالُ نسائه إياه من النفقة ما ليس عنده، كذا في صحيح مسلم. وقيل: لأن زينب ردّت عليه هديته؛ فغضب صلى الله عليه وسلم فآلى منهنّ؛ ذكره ابن ماجه.

الثانيـــة — ويلزم الإيلاءُ كلَّ من يلزمه الطلاق؛ فالحرّ والعبد والسكران يلزمه الإيلاء. وكذلك السفيه والمُوَلَّى عليه إذا كان بالغا غير مجنون، وكذلك الخصيّ إذا لم يكن مجبوبا، والشيخ إذا كان فيه بقيّةُ رَمَقٍ ونشاط. واختلف قول الشافعيّ في المجبوب إذا آلى؛ ففي قولٍ: لا إيلاء له. وفي قول: يصح إيلاؤه؛ والأول أصح وأقرب الى الكتاب والسنة، فإنّ الفَيْءَ هو الذي يُسقط اليمين؛ والفيء بالقول لا يسقطها؛ فاذا بقيت اليمين المانعة من الحِنْث بقيَ حكم الإيلاء. وإيلاء الأخرس بما يفهم عنه من كتابة أو إشارة مفهومةٍ لازمٌ له؛ وكذلك الأعجميّ إذا آلى من نسائه.

الثالثـــة — واختلف العلماء فيما يقع به الإيلاء من اليمين؛ فقال قوم: لا يقع الإيلاء إلا باليمين بالله تعالى وحده لقوله عليه السـلام: "من كان حالفا فليحلف بالله أو لِيَصْمُتْ". وبه قال الشافعيّ في الجديد. وقال ابن عباس: كلّ يمينٍ مَنعتْ جماعا فهي إيلاء؛ وبه قال الشعبيّ والنخعيّ ومالكٌ وأهـلُ الحجاز وسفيان الثوريّ وأهـل العراق، والشافعيّ في القول الآخر، وأبو ثور وأبو عبيد وابن المنذر والقاضي أبو بكر بن العربيّ. قال ابن عبد البر: وكلّ يمين لا يقدر صاحبها على جماع امرأته من أجلها إلا بأن يحنث فهو بها مُولٍ، إذا كانت يمينه على أكثر من أربعة أشهر؛ فكلّ من حلف بالله أو بصفة من صفاته أو قال: أقسم بالله، أو أشهد بالله، أو عليّ عهدُ الله وكفالتُه وميثاقُه وذمّتُه فإنه يلزمه الإيلاء. فإن قال: أقسم أو أعزم ولم يذكر «بالله» فقيل: لا يدخل عليه الإيلاء، إلا أن يكون أراد بـ«ـالله» ونواه.

ومن قال إنه يمين يدخل عليه ؛ وسيأتي بيانه في « المـائدة » إن شاء الله تعالى . فإن حلف بالصيام ألّا يطأ امرأته فقال : إن وطئتك فعليّ صيام شهر أو سنة فهو مُولٍ . وكذلك كل ما يلزمه من حج أو طلاق أو عتق أو صلاة أو صدقة . والأصل في هذه الجملة عموم قوله تعالى : « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ » ولم يفرق ؛ فإذا آلى بصدقة أو عتق عبد معيّن أو غير معيّن لزم الايلاء .

الرابعة — فإن حلف بالله ألّا يطأ واستثنى فقال : إن شاء الله فإنه يكون موليا ، فإن وطئها فلا كفارة عليه في رواية ابن القاسم عن مالك . وقال ابن الماجشون في المبسوط : ليس بمُولٍ؛ وهو أصح لأن الاستثناء يَحُلّ اليمين ويجعل الحالف كأنه لم يحلف ، وهو مذهب فقهاء الأمصار، لانه بيّن بالاستثناء أنه غير عازم على الفعل . ووجه ما رواه ابن القاسم مبنيّ على أن الاستثناء لا يَحُلّ اليمين ، ولكنه يؤثّر في إسقاط الكفارة ، على ما يأتي بيانه في «المائدة» فلما كانت يمينه باقية منعقدة لزمه حكم الإيلاء و إن لم تجب عليه كفارة .

الخامسة — فإن حلف بالنبيّ أو الملائكة أو الكعبة ألّا يطأها ، أو قال هو يهوديّ أو نصرانيّ أو زانٍ إن وطئها؛ فهذا ليس بمول، قاله مالك وغيره . قال الباجي : ومعنى ذلك عندي أنه أورده على غير وجه القَسَم، وأما لو أورده على أنه مُولٍ بما قاله من ذلك أو غيره ففي المبسوط أن ابن القاسم سئل عن الرجل يقول لامرأته : لا مرحبًا ، يريد بذلك الإيلاء يكون موليا . قال قال مالك : كلّ كلامٍ نوى به الطلاق فهو طلاق؛ وهذا والطلاق سواء .

السادسة — واختلف العلماء في الإيلاء المذكور في القرآن ؛ فقال ابن عباس : لا يكون موليا حتى يحلف ألا يمسّها أبدا . وقالت طائفة : إذا حلف ألّا يقرب امرأته يوما أو أقلّ أو أكثر ثم لم يطأ أربعةَ أشهر بانت منه بالإيلاء؛ رُوي هذا عن ابن مسعود والنخعيّ وابن أبي ليلى والحكم وحمادِ بنِ أبي سليمان وقتادة ، وبه قال إسحاق . قال ابن المنذر : وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم . وقال الجمهور : الإيلاء هو أن يحلف ألّا يطأ أكثر من أربعة أشهر، فان حلف على أربعة فما دونها لا يكون موليا،وكانت عندهم يمينا محضا لو وطئ في هذه

المدّة لم يكن عليه شيء كسائر الأيمان؛ هـذا قول مالك والشافعيّ وأحمد وأبى ثور . وقال الثوريّ والكوفيون : الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعدا؛ وهو قول عطاء . قال الكوفيون : جعل الله التربص فى الإيلاء أربعة أشهر كما جعل عدّة الوفاة أربعة أشهر وعشرا، وفى العدّة ثلاثة قروء؛ فلا تربّص بعدُ . قالوا : فيجب بعد المدّة سقوط الإيلاء، ولا يسقط إلا بالفىء وهو الجماع فى داخل المدّة . والطلاق بعد انقضاء الأربعة الأشهر . واحتج مالك والشافعيّ فقالا : جعل الله للمولى أربعة أشهر ؛ فهى له بكمالها لا آعتراض لزوجته عليه فيها؛ كما أن الدّين المؤجل لا يستحق صاحبه المطالبة به إلا بعد تمام الأجل . ووجه قول إسحاق — فى قليل الأمد يكون صاحبه به موليا إذا لم يطأ — القياس على من حلف على أكثر من أربعة أشهر فإنه يكون موليا؛ لأنه قصد الإضرار باليمين؛ وهذا المعنى موجود فى المدّة القصيرة .

السابعــة — واختلفوا أن من حلف ألّا يطأ امرأته أكثرَ من أربعة أشهر فانقضت الأربعةُ الأشهر ولم تطالبه آمرأتُه ولا رفعته الى السلطان ليوقفَه لم يلزمه شيء عند مالك وأصحابه وأكثر أهل المدينة . ومن علمائنا من يقول : يلزمه بانقضاء الأربعة الأشهر طلقةٌ رجعيّةٌ . ومنهم ومن غيرهم من يقول : يلزمه طلقةٌ بائنة بانقضاء الأربعة الأشهر . والصحيح ما ذهب إليه مالكٌ وأصحابُه؛ وذلك أن المُولى لا يلزمه طلاقٌ حتى يوقفه السطان بمطالبة زوجته له ليفىء فيراجع امرأته بالوطء ويكفّر يمينه أو يطلّق، ولا يتركه حتى يفىءَ أو يطلّق . والفىء : الجماع فيمن يمكن مجامعتها . قال سليمان بن يسار : كان تسعة رجال (١) من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوقفون فى الإيلاء؛ قال مالك : وذلك الأمر عندنا؛ وبه قال الليث والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور، واختاره ابن المنذر .

الثامنــة — وأجلُ المُولى من يومَ حلَف لا من يومِ تُخاصمه امرأتُه وترفعه إلى الحاكم؛ فان خاصمته ولم ترض بامتناعه من الوطء ضرب له السلطان أجلَ أربعة أشهر من يوم حلفه؛

(١) فى بعض الأصول : « كان تسعة عشر رجلا ... » .

فإن وطئ فقد فاء الى حق الزوجة وكفّر عن يمينه ، وإن لم يفئ طلّق عليه طلقة رجعيّة . قال مالك : فإن راجع لا تصح رجعته حتى يطأ في العدّة . قال الأبهريّ : وذلك أن الطلاق إنما وقع لدفع الضرر، فمتى لم يطأ فالضرر باقٍ، فلا معنى للرجعة إلا أن يكون له عذر يمنعه من الوطء فتصح رجعته؛ لأن الضرر قد زال، وامتناعه من الوطء ليس من أجل الضرر وإنما هو من أجل العذر .

التاسعة — واختلف العلماء في الإيلاء في غير حال الغضب؛ فقال ابن عباس لا إيلاء إلا بغضب، ورُوي عن عليّ بن أبي طالب في المشهور عنه، وقاله الليث والشعبيّ والحسن وعطاء ، كلهم يقولون : الإيلاء لا يكون إلا على وجه مغاضبة ومشارّة وحرج ومُنَاكدة ألّا يجامعها في فرجها إضرارا بها؛ وسواء كان في ضمن ذلك إصلاح ولد أم لم يكن. فان لم يكن عن غضب فليس بإيلاء . وقال ابن سيرين : سواء كانت اليمين في غضب أو غير غضب هو إيلاء؛ وقاله ابن مسعود والثوريّ ومالكٌ وأهلُ العراق والشافعيّ وأصحابُه وأحمد، إلا أن مالكا قال : ما لم يرد إصلاحَ ولد . قال ابن المنذر : وهذا أصح ؛ لأنهم لما أجمعوا أن الظّهار والطلاق وسائرَ الأيمان سواءٌ في حال الغضب والرضا كان الإيلاء كذلك .

قلت : ويدل عليه عموم القرآن، وتخصيص حالة الغضب يحتاج الى دليل ولا يؤخذ من وجه يُلزِم . والله أعلم .

العاشرة — قال علماؤنا : ومن امتنع من وطء امرأته بغير يمين حلفها إضرارًا بها أُمر بوطئها؛ فإن أبى وأقام على امتناعه مضرّا بها فُرّق بينه وبينها من غير ضرب أجل . وقد قيل : يُضرب أجلُ الايلاء . وقيل : لا يدخل على الرجل الإيلاء في هجرته من زوجته وإن أقام سنين لا يغشاها ، ولكنه يوعظ ويؤمر بتقوى الله تعالى في ألّا يمسكها ضرارا .

الحادية عشرة — واختلفوا فيمن حلف ألّا يطأ امرأته حتى تَفطِمَ ولدها لئلا يُغِلَ[1] ولدَها، ولم يرد إضرارا بها حتى ينقضي أمدُ الرّضاع لم يكن لزوجته عند مالكٍ مطالبةٌ لقصد

(١) المغل (بفتح الميم وسكون الغين وفتحها) : أن ترضع المرأة ولدها وهي حامل .

إصلاح الولد . قال مالك : وقد بلغني أن عليّ بن أبي طالب سُئل عن ذلك فلم يره إيلاء ؛ وبه قال الشافعيّ في أحد قوليه ، والقول الآخر يكون مُولِيًا ، ولا اعتبار برضاع الولد ؛ وبه قال أبو حنيفة .

الثانية عشرة — وذهب مالك والشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابُهم والأوزاعيّ وأحمد ابن حنبل إلى أنه لا يكون موليا من حلف ألّا يطأ زوجته في هذا البيت أو في هذه الدار لأنه يجد السبيل الى وطئها في غير ذلك المكان . قال ابن أبي لَيْلَى وإسحاق : إن تركها أربعةَ أشهر بانت بالإيلاء ؛ ألا ترى أنه يوقف عند الأشهر الأربعة ؛ فإن حلف ألّا يطأها في مصره أو بلده فهو مول عند مالك ؛ وهذا إنما يكون في سفر يتكلّف المئونة والكلفة دون جنته أو مزرعته القريبة .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ يدخل فيه الحرائر والذّميّات والإماء إذا تزوجن . والعبد يلزمه الإيلاء من زوجته . قال الشافعيّ وأحمد وأبو ثور : إيلاؤه مثل إيلاء الحرّ ؛ وحجتهم ظاهر قوله تعالى : «للذينَ يؤلون من نسائهم» فكان ذلك لجميع الأزواج. قال ابن المنذر : وبه أقول . وقال مالك والزهريّ وعطاء بن أبي رَبَاح وإسحاق : أجله شهران . وقال الحسن والنخعيّ : إيلاؤه من زوجته الأَمَة شهران ، ومن الحرّة أربعةُ أشهر ؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشّعبيّ : إيلاء الأَمَة نصفُ إيلاءِ الحرّة .

الرابعة عشرة — قال مالك وأصحابه وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعيّ والنخعيّ وغيرُهم : المدخول بها وغيرُ المدخول بها سواءٌ في لزوم الإيلاء فيهما . وقال الزُّهريّ وعطاء والثوريّ : لا إيلاء إلا بعد الدخول . وقال مالك : ولا إيلاءَ من صغيرة لم تَبْلُغ ، فإن آلى منها فبلغت لزم الإيلاء من يوم بلوغها .

الخامسة عشرة — وأما الذّمّيّ فلا يصح إيلاؤه ؛ كما لا يصح ظِهاره ولا طلاقه ؛ وذلك أن نكاح أهلِ الشّرك ليس عندنا بنكاح صحيح ، وإنما لهم شُبهة يد ، ولأنهم لا يكلَّفون الشرائع فيلزمهم كفارات الأيمان ، فلو ترافعوا الينا في حكم الإيلاء لم يَنْبَغِ لحاكمنا أن يحكم

بينهم ، ويذهبون الى حكامهم؛ فان جرى ذلك مجرى التظالم بينهم حُكم بحكم الإسلام ؛ كما لو ترك المسلمُ وطء زوجته ضرارا من غير يمين .

السادســة عشرة — قوله تعالى : ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ التربص : التأنى والتأخر ؛ مقلوب التصبّر؛ قال الشاعر :

تَرَبَّصْ بهـا رَيْبَ المَنُونِ لعلّهـا * تُطـلَّق يوما أو يمـوت حليلهـا

وأما فائدة توقيت الأربعة الأشهر فيما ذكر ابن عباس عن أهل الجاهلية كما تقدّم فمنع الله من ذلك وجعل للزوج مدّة أربعة أشهر فى تأديب المرأة بالهجر؛ لقوله تعالى : «وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ» وقد آلى النبي صلى الله عليــه وسلم من أزواجه شهرا تأديبا لهنّ . وقد قيل : الأربعة الأشهر هى التى لا تستطيع ذاتُ الزوج أن تصبر عنــه أكثرَ منها؛ وقد رُوى أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان يطوف ليلةً بالمدينة فسمع ٱمرأة تُنشد :

ألَا طال هذا الليلُ وٱسودّ جانبُهْ * وأرّقـنى أن لا حبيبَ ألاعبُــهْ
فوالله لولا اللهُ لا شيءَ غــيرُه * لزُعزِع من هــذا السريرِ جوانبُه
مخافــةَ ربِّى والحيــاءُ يَكُفُّــنِى * وإكرامَ بَعْلِى أن تُنال مراكبُــهْ

فلما كان من الغد استدعى عمرُ بتلك المرأة وقال لها : أين زوجك ؟ فقالت : بعثتَ به الى العراق! فاستدعَى نساءً فسألهنّ عن المرأة كم مقدار ما تصبر عن زوجها؟ فقلن : شهرين، ويقلّ صبرُها فى ثلاثة أشهر، وينفَدُ صبرها فى أربعة أشهر، فجعل عمر مدّةَ غَزْوِ الرجل أربعةَ أشهر ؛ فإذا مضت أربعــة أشهر استردّ الغازين ووجّه بقوم آخرين ؛ وهذا والله أعلم يُقَوِّى اختصاص مدّة الإيلاء بأربعة أشهر .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءُوا ﴾ معناه رجعوا ؛ ومنه « حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » ومنه قيل للظل بعد الزوال : فَيْءٌ ؛ لانه رجع من جانب المشرق إلى جانب المغرب ؛ يقال : فاء يفيء فيئة وفيوءا . وإنه لسريع الفيئة، يعنى الرجوع . قال :

ففـاءت ولم تقض الذى أقبلت له * ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

الثامنة عشرة — قال ابن المنذر : أجمع كلّ من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الفيء الجماعَ لمن لا عذر له ؛ فان كان له عذر مرض أو سجن أو شبه ذلك فإن ارتجاعه صحيح وهي آمرأته ؛ فان زال العذر بقدومه من سفره أو إفاقته من مرضه ، أو انطلاقه من سجنه فأبى الوطءَ فُرّق بينهما إن كانت المدّة قد انقضت ؛ قاله مالك في المدوّنة والمبسوط . وقال عبدالملك: وتكون بائنا منه يوم انقضت المدّة، فإن صدق عذرُه بالفيئة إذا أمكنته حُكم بصدقه فيما مضى؛ فإن أكذب ما آدّعاه من الفيئة بالامتناع حين القدرة عليها حُمل أمره على الكذب فيها واللّدَد ، وأمضيت الأحكام على ما كانت تجب في ذلك الوقت . وقالت طائفة : إذا شهدت بينة بفيئته في حال العذر أجزأه؛ قاله الحسن وعكرمة والنَّخَعيّ، و به قال الأوزاعيّ. وقال النخعيّ أيضا : يصح الفيء بالقول والإشهاد فقط ، ويسقط حكم الايلاء ؛ أرأيت إن لم ينتشر للوطء؛ قال ابن عطية : ويرجع هذا القول إن لم يطأ إلى باب الضّرر . وقال أحمد آبن حنبل : إذا كان له عذر يفيء بقلبه؛ و به قال أبو قِلابة . وقال أبو حنيفة : إن لم يقدر على الجماع فيقول : قد فِئتُ إليها . قال الكِيَا الطبريّ : أبو حنيفة يقول فيمن آلَى وهو مريض و بينه و بينها مدّة أربعة أشهر، وهي رتقاء أو صغيرة أو هو مجبوب: إنه إذا فاء إليها بلسانه ومضت المدّة والعذر قائم فذلك فَيْءٌ صحيح؛ والشافعيّ يخالفه على أحد مذهبيه. وقالت طائفة : لا يكون الفَيْء إلا بالجماع في حال العذر وغيره؛ وكذلك قال سعيد بن جبير ، قال : وكذلك إن كان في سفر أو سجن .

التاسعة عشرة — أوجب مالك والشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابُهم وجمهورُ العلماء الكفارةَ على المُولِي إذا فاء بجماع آمرأته . وقال الحسن : لا كفارة عليه؛ و به قال النّخعيّ؛ قال النخعيّ : كانوا يقولون إذا فاء لا كفارة عليه . وقال إسحاق : قالَ بعض أهل التأويل في قوله تعالى « فان فاءوا » يعني لليمين التي حنثوا فيها ؛ وهو مذهبٌ في الأيمان لبعض التابعين فيمن حلف على بِرٍّ أو تقوى أو باب من الخير ألّا يفعله فإنه يفعله ولا كفارة عليه .

والحجة له قوله تعالى : «فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ، ولم يذكر كفارة؛ وأيضا فإن هذا يتركّب على أن لغو اليمين ما حلف على معصية ، وترْكُ وطء الزوجة معصية .

قلت : وقد يُستدل لهذا القول من السُّنّة بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليتركها فان تركها كفارتها" خرّجه ابن ماجه في سننه . وسيأتي لهذا مزيد بيان في آية الأيمان إن شاء الله تعالى . وحجة الجمهور قولُه عليه السلام : "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفّر عن يمينه" .

الموفية عشرين ــ إذا كفّر عن يمينه سقط عنه الإيلاء؛ قاله علماؤنا . وفي ذلك دليل على تقديم الكفارة على الحنث في المذهب ، وذلك إجماع في مسألة الإيلاء ، ودليل على أبي حنيفة في مسألة الأيمان؛ إذ لا يرى جواز تقديم الكفارة على الحنث؛ قاله ابن العربيّ .

الحادية والعشرون ــ قلت : بهذه الآية استدلّ محمد بن الحسن على امتناع جواز الكفارة قبل الحنث فقال: لما حكم الله تعالى للمُولِي بأحد الحكمين من فيء أو عزيمة الطلاق؛ فلو جاز تقديم الكفارة على الحنث لبطل الإيلاء بغير فيء أو عزيمة طلاق ؛ لأنه إن حَنِث لا يلزمه بالحنث شيء ، ومتى لم يلزم الحانث بالحنث شيء لم يكن مُولِياً . وفي جواز تقديم الكفارة إسقاط حكم الإيلاء بغير ما ذكر الله، وذلك خلاف الكتاب .

الثانية والعشرون ــ قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . العزيمة : تتميم العقد على الشيء ؛ يقال : عَزَم عليه يعزِم عُزما (بالضم) وعزيمة وعزيما وعَزَمانا، واعتزم اعتزاما، وعزمتُ عليك لتفعلَنّ، أي أقسمت عليك . قال شَمِر : العزيمة والعزم ما عقدت عليه نفسك من أمر أنك فاعله . والطلاق من طلَقت المرأة تطلُق (على وزن نصر ينصر) طلاقا؛ فهي طالق وطالقة أيضا . قال الأعشى :

* أيا جارتا بيني فإنك طالقة *

ويجوز طلُقت (بضم اللام) مثل عظم يعظم ؛ وأنكره الأخفش . والطلاق حلّ عُقدة النكاح؛ وأصله الانطلاق . والمطلقات المخلَّيات . والطلاق : التخلية ؛ يقال : نعجة طالق ، وناقة طالق؛ أى مهملة قد تركت فى المرعى لاقيد عليها ولا راعى . وبعير طُلُق (بضم الطاء واللام) غير مقيّد؛ والجمع أطلاق . وحُبس فلان فى السجن طَلْقا أى بغير قيد . والطالق من الإبل : التى يتركها الراعى لنفسه لا يحتلبها على الماء؛ يقال : استطلق الراعى ناقة لنفسه . فسُمِّيت المرأة المخلَّى سبيلها بما سُمِّيت به النعجة أو الناقة المهمل أمرها . وقيل : إنه مأخوذ من طَلَق الفرس، وهو ذهابه شوطا لا يُمنع؛ فسُمِّيت المرأة المخلّاة طالقا لا تُمنع من نفسها بعد أن كانت ممنوعة.

الثالثة والعشرون — فى قوله تعالى : ﴿ وإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ دليل على أنها لا تطلق بمضيّ مدّة أربعة أشهر؛ كما قال مالك ، ما لم يقع إنشاء تطليق بعد المدّة ، وأيضا فإنه قال : «سميع» وسميع يقتضى مسموعا بعد المضيّ. وقال أبو حنيفة : «سميع» لإيلائه ، «عليم» بعزمه الذى دل عليه مضيُّ أربعة أشهر . وروى سهيل بن أبى صالح عن أبيه قال : سألت اثنى عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يُولِى من امرأته ؛ فكلهم يقول : ليس عليه شيء حتى تمضى أربعةُ أشهر فيُوقَف؛ فإن فاء وإلا طلّق . قال القاضى ابن العربيّ : وتحقيق الأمر أن تقدير الآية عندنا : «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا» بعد انقضائها «فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم» . وتقديرها عندهم : «للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا» فيها «فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق» بترك الفيئة فيها، يريد مدّة التربص فيها «فإن الله سميع عليم» . ابن العربيّ : وهذا احتمال متساوٍ، ولأجل تساويه توقّفت الصحابة فيه .

قلت : وإذا تساوى الاحتمال كان قول الكوفيين أقوى قياسا على المعتدّة بالشهور والأقراء، إذ كل ذلك أجلٌ ضربه الله تعالى؛ فبانقضائه انقطعت العصمة وأُبينت من غير خلاف، ولم يكن لزوجها سبيل عليها إلا بإذنها؛ فكذلك الإيلاء ، حتى لو نسى الفيء وانقضت المدّة لوقع الطلاق، والله أعلم .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ دليل على أن الأَمَة بملك اليمين لا يكون فيها إيلاء، إذ لا يقع عليها طلاق، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فيه خمس مسائل

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ لما ذكر الله تعالى الإيلاء وأن الطلاق قد يقع فيه بيّن تعالى حكم المرأة بعد التطليق . وفي كتاب أبي داود والنسائي عن ابن عباس قال في قول الله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلّق امرأته فهو أحقّ بها وإن طلقها ثلاثا ، فنسخ ذلك وقال : «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ» الآية . والمطلقات لفظ عموم، والمراد به الخصوص في المدخول بهنّ، وخرجت المطلقة قبل البناء بآية « الأحزاب » : «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا» على ما يأتي . وكذلك الحاملُ بقوله : «وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» . والمقصود من الأقراء الاستبراء، بخلاف عدّة الوفاة التي هي عبادة . وجعل الله عِدّة الصغيرة التي لم تحِض والكبيرة التي قد يئست الشهورَ على ما يأتي . وقال قوم : إن العموم في المطلقات يتناول هؤلاء ثم نُسخن، وهو ضعيف؛ وإنما الآية فيمن تحيض خاصة . وهو عرف النساء وعليه معظمهنّ .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ التربّص الانتظار، على ما قدّمناه . وهذا خبرٌ والمراد الأمر، كقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ » وجمع رجل عليه ثيابه، وحسبك درهم، أي اكتف بدرهم؛ هذا قول أهل اللسان من غير خلاف بينهم فيما ذكر ابن الشَّجَري . ابن العربي: وهذا باطل، وإنما هو خبر عن حكم الشرع؛ فإن وجدت مطلقة

لا تربص فليس من الشرع، ولا يلزم من ذلك وقوعُ خبر الله تعالى على خلاف مخبره. وقيل: معناه ليتربصن، فحذف اللام.

الثالثة — قرأ جمهور الناس «قروء» على وزن فعول، اللام همزة. ويروى عن نافع «قُرُوّ» بكسر الواو وشدّها من غير همز. وقرأ الحسن «قَرْءٍ» بفتح القاف وسكون الراء والتنوين. وقروء جمع أقرؤ وأقراء، والواحد قرء بضم القاف؛ قاله الأصمعيّ. وقال أبو زيد: «قَرء» بفتح القاف؛ وكلاهما قال: أقرأت المرأةُ اذا حاضت؛ فهي مُقرِئ. وأقرأت طهرت. وقال الأخفش: أقرأت المرأة إذا صارت صاحبة حيض؛ فاذا حاضت قلت: قرأت، بلا ألف. يقال: أقرأت المرأة حيضة أو حيضتين. والقرء: انقطاع الحيض. وقال بعضهم: مابين الحيضتين. وأقرأت حاجتك: دنت؛ عن الجوهريّ. وقال أبو عمرو ابن العلاء: من العرب من يُسمّي الحيض قرءا، ومنهم من يُسمّي الطهر قرءا، ومنهم من يجمعهما جميعا؛ فيُسمّي الطهر مع الحيض قرءا؛ ذكره النحاس.

الرابعة — واختلف العلماء في الأقراء؛ فقال أهل الكوفة: هي الحِيَض؛ وهو قول عمر وعليّ وابن مسعود وأبي موسى ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسُّدّيّ. وقال أهل الحجاز: هي الأطهار؛ وهو قول عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت والزهريّ وأبان بن عثمان والشافعيّ. فمن جعل القرء اسما للحيض سمّاه بذلك؛ لاجتماع الدّم في الرّحم، ومن جعله اسما للطهر فلاجتماعه في البدن؛ والذى يحقق لك هذا الأصل في القُرْء الوقت؛ يقال: هبّت الريح لقرئها وقارئها أى لوقتها؛ قال الشاعر[1]:

كرِهتُ العَقْرَ عَقْرَ بني شَلِيلٍ[2] * اذا هبّت لقارئها الرياحُ

فقيل للحيض: وقت، وللطهر وقت؛ لأنهما يرجعان لوقت معلوم؛ وقال الأعشى في الأطهار:

أفي كل عام أنت جاشم غزوة * تشدّ لأقصاها عزيم عزائكا
مورّثة عِزّا وفي الحيّ رفعةً * لِما ضاع فيها من قروء نسائكا

(١) هو مالك بن الحارث الهذلي (عن اللسان).
(٢) العقر: اسم موضع. وشليل: جد جرير بن عبد الله البجلي.

وقال آخر في الحيض :

يا رُبَّ ذي ضغن عليّ فارض * له قروءٌ كقروء الحائض

يعني أنه طعنه فكان له دم كدم الحائض . وقال قوم : هو مأخوذ من قرء الماء في الحوض ، وهو جمعه ؛ ومنه القرآن لاجتماع المعاني . ويقال لاجتماع حروفه ؛ ويقال : ما قرأتِ الناقةُ سَلًى قطُّ ، أي لم يجتمع في جوفها ؛ وقال عمرو بن كلثوم :

ذِراعَيْ عَيْطَلٍ أدماءَ بِكرٍ * هِجانِ اللّونِ لم تَقرأْ جنينَا

فكأنّ الرّحم يجمع الدم وقتَ الحيض، والجسم يجمعه وقت الطّهر. قال أبو عمر بن عبد البرّ : قول من قال : إن القرء مأخوذ من قولهم : قريت الماء في الحوض ليس بشيء ؛ لأن القرء مهموز وهذا غير مهموز .

قلت : هذا صحيح بنقل أهل اللغة : الجوهريّ وغيره . واسم ذلك الماء قِرًى (بكسر القاف مقصور) . وقيل : القرء، الخروج إما من طهر الى حيض أو من حيض الى طهر؛ وعلى هذا قال الشافعيّ في قولٍ : القرء الانتقال من الطهر الى الحيض ؛ ولا يرى الخروج من الحيض الى الطهر قرءا . وكان يلزم بحكم الاشتقاق أن يكون قرءا، ويكون معنى قوله تعالى : « والمطلقات يتربّصن بأنفسهن ثلاثةَ قُرُوءٍ » . أي ثلاثة أدوار أو ثلاثة انتقالات ؛ والمطلقة متصفة بحالتين فقط ؛ فتارة تنتقل من طهر الى حيض ، وتارة من حيض الى طهر فيستقيم معنى الكلام، ودلالته على الطهر والحيض جميعا فيصير الاسم مشتركا . ويقال : اذا ثبت أن القرء الانتقال فخروجها من طهر الى حيض غير مراد بالآية أصلا ، ولذلك لم يكن الطلاق في الحيض طلاقا سُنِّيًّا مأمورا به ، وهو الطلاق للعدّة ؛ فان الطلاق للعدّة ما كان للطهر ، وذلك يدل على كون القرء مأخوذا من الانتقال ؛ فاذا كان الطلاق في الطهر سُنِّيًّا فتقدير الكلام : فعدّتهن ثلاثة انتقالات ؛ فأوّلها الانتقال من الطهر الذي وقع فيه الطلاق، والذي هو الانتقال من حيض الى طهر لم يجعل قرءا؛ لأن اللغة لا تدلّ عليه ، ولكن عرفنا بدليل آخر؛ أن الله تعالى لم يُرد الانتقال من حيض الى طهر ؛ فاذا خرج أحدهما عن أن يكون

مرادا بقى الآخر وهو الانتقال من الطهر الى الحيض مرادا ؛ فعلى هذا عدتها ثلاثة انتقالات، أولها الطهر؛ وعلى هذا يمكن استيفاء ثلاثة أقراء كاملة اذا كان الطلاق فى حالة الطهر، ولا يكون ذلك حملا على المجاز بوجه ما . قال الكيا الطبرى : وهـذا نظر دقيق فى غاية الاتجاه لمذهب الشافعى ، ويمكن أن يذكر فى ذلك سر لا يبعد فهمه من دقائق حكم الشريعة ، وهو أن الانتقال من الطهر الى الحيض إنما جعل قرءا لدلالته على براءة الرحم؛ فإن الحامل لا تحيض فى الغالب فبحيضها علم براءة رحمها . والانتقال من حيض الى طهر بخلافه ؛ فان الحائض يجوز أن تحبل فى أعقاب حيضها ، واذا تمادى أمد الحامل وقوى الولد انقطع دمها؛ ولذلك تمتدح العرب بحمل نسائها فى حالة الطهر، وقد مدحت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول الشاعر (1) :

ومبرأ من كل غبر حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل

يعنى أن أمه لم تحمل به فى بقية حيضها . فهذا ما للعلماء وأهل اللسان فى تأويل القرء . وقالوا : قرأت المرأة قرءا إذا حاضت أو طهرت . وقرأت أيضا إذا حملت . واتفقوا على أن القرء الوقت ، فاذا قلت : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة أوقات ، صارت الآية مفسرة فى العدد محتملة فى المعدود ، فوجب طلب البيان للمعدود من غيرها ؛ فدليلنا قول الله تعالى : « فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ » ولا خلاف أنه يؤمر بالطلاق وقت الطهر فيجب أن يكون هو المعتبر فى العدة؛ فانه قال : « فطلقوهن » يعنى وقتا تعتد به، ثم قال تعالى : « وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ » . يريد ما تعتد به المطلقة وهو الطهر الذى تطلق فيه ؛ وقال صلى الله عليه وسلم لعمر : " مُرْه فليراجعها ثم يُمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء " . أخرجه مسلم وغيره . وهو نص فى أن زمن الطهر هو الذى يسمى عدة، وهو الذى تطلق فيه النساء . ولا خلاف أن من طلق فى حال الحيض لم تعتد بذلك الحيض ، ومن طلق فى حال الطهر فإنها تعتد عند الجمهور بذلك الطهر ؛ فكان ذلك أولى . قال أبو بكر

---

(1) هو أبو كبير الهذلى (عن اللسان) .

ابن عبد الرحمن: ما أدركنا أحدا من فقهائنا إلا يقول بقول عائشة فى أن الأقراء هى الأطهار . فإذا طلق الرجل فى طهر لم يطأ فيه اعتدّت بمـا بقى منه ولو ساعة ولو لحظة ، ثم استقبلت طهرا ثانيا بعد حيضة، ثم ثالثا بعـد حيضة ثالثة ؛ فاذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلّت للأزواج وخرجت من العدّة . فإن طلق مُطلّق فى طهر قـد مسّ فيه لزمه الطلاق وقدأساء، واعتدّت بما بقى من ذلك الطهر . وقال الزهرى فى آمرأة طُلِّقت فى بعض طهرها : إنهـا تعتـدّ بثلاثة أطهار سوى بقية ذلك الطهر . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا ممن قال : الأقراءُ الأطهارُ يقول هـذا غير ابن شهاب الزهرى ؛ فإنه قال : تُلغى الطهر الذى طُلّقت فيـه ثم تعتدّ بثلاثة أطهار؛ لأن الله عز وجل يقول : « ثلاثة قروء » .

قلت : فعلى قوله لا تحل المطلّقـة حتى تدخل فى الحيضة الرابعـة ؛ وقولُ ابن القـاسم ومالك وجمهور أصحابه والشافعى وعلماء المدينة : إن المطلّقة إذا رأت أوّل نقطة من الحيضة الثالثة خرجت من العِصمة ، وهو مذهب زيد بن ثابت وعائشة وابن عمر ، وبه قال أحمـد ابن حنبل ، واليه ذهب داود بن على وأصحابه . والحجة على الزهرى أن النبى صلى الله عليـه وسلم أذن فى طلاق الطاهر من غير جماع ، ولم يقل أوّل الطهر ولا آخره . وقال أشهب : لا تنقطع العصمة والميراث حتى يُتحقق أنه دم حيض؛ لئلا تكون دفعة دم من غير الحيض . احتج الكوفيون بقوله عليه السلام لفاطمة بنت أبى حُبيش حين شكت اليه الدّم : " إنمـا ذلكِ عرق فانظرى فإذا أتى قرؤك فلا تصلى وإذا مرّ القرء فتطهرى ثم صلى من القرء الى القرء". وقال تعالى : « واللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ » . فجعل المأيوس منه المحيض؛ فدل على أنه هو العِدّة، وجعل العوض منه هو الأشهر اذا كان معدوما. وقال عمر بحضرة الصحابة : عِدّة الأَمة حيضتان ، نصف عِدّة الحرة ، ولو قـدرتُ على أن أجعلها حيضة ونصفا لفعلت ؛ ولم ينكر عليـه أحد . فدل على أنه إجماع منهـم ؛ وهو قول عشرة من الصحابة منهم الخلفاء الأربعة ، وحسبك ما قالوا ! وقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » يدل على ذلك؛ لأن المعنى يتربّصن ثلاثة أقراء، يريد كوامل،

وهذا لا يمكن أن يكون إلا على قولنا بأن الأقراء الحيض ؛ لأن من يقول : إنه الطهر يجوز أن تعتدّ بطهرين وبعض آخر ؛ لأنه اذا طلق حال الطهر اعتدّت عنده ببقية ذلك الطهر قرءا . وعندنا تستأنف من أوّل الحيض حتى يصدق الاسم ؛ فاذا طلق الرجل المرأة فى طهر لم يطأ فيه استقبلت حيضة ثم حيضة ثم حيضة ، فإذا اغتسلت من الثالثة خرجت من العدّة .

قلت : هذا يردّه قوله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ » فأثبت الهاء فى « ثمانية أيام » ، لأن اليوم مذكر وكذلك القرء ، فدل على أنه المراد . ووافقنا أبو حنيفة على أنها إذا طلقت حائضا أنها لا تعتدّ بالحيضة التى طُلِّقت فيها ولا بالطهر الذى بعدها ، وإنما تعتدّ بالحيض الذى بعد الطهر . وعندنا تعتدّ بالطهر ، على ما بيّناه . وقد استجاز أهل اللغة أن يعبّروا عن البعض باسم الجميع ، كما قال تعالى : « اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ » والمراد به شهران وبعضُ الثالث ، فكذلك قوله : « ثلاثة قروء » . والله أعلم . وقال بعض من يقول بالحيض : إذا طهرت من الثالثة انقضت العدّة بعد الغسل وبطلت الرجعة ؛ قاله سعيد بن جُبير وطاوس وابن شُبْرُمة والأوزاعىّ . وقال شُريك : اذا فرطت المرأة فى الغسل عشرين سنة فلزوجها عليها الرجعة مالم تغتسل . ورُوى عن إسحاق بن راهْوَيْه أنه قال : إذا طعنت المرأة فى الحيضة الثالثة بانت وانقطعت رجعة الزوج ، إلا أنها لا يحل لها أن تتزوّج حتى تغتسل من حيضتها . ورُوى نحوه عن ابن عباس ؛ وهو قول ضعيف ، بدليل قول الله تعالى : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » على ما يأتى . وأما ماذكره الشافعىّ من أن نفس الانتقال من الطهر الى الحيضة يسمى قرءا ففائدته تقصير العدّة على المرأة ، وذلك أنه إذا طلق المرأة فى آخر ساعة من طهرها فدخلت فى الحيضة عدّته قرءا ، وبنفس الانتقال من الطهر الثالث انقطعت العصمة وحلّت . والله أعلم .

الخامسة — والجمهور من العلماء على أن عدّة الأَمَة التى تحيض من طلاق زوجها حيضتان . ورُوى عن ابن سيرين أنه قال : ما أرى عدّة الأَمَة إلا كعدّة الحُرّة ، إلا أن

تكون مضت في ذلك سُنَّةٌ، فان السُّنَّة أحقُّ أن تُتَّبع . وقال الأصم عبد الرحمن بن كَيْسان وداود بن عليّ وجماعةُ أهل الظاهر: إن الآيات في عدّة الطلاق والوفاة بالأشهر والأقراء عامةٌ في حق الأَمَة والحرّة ؛ فعدّة الحرّة والأمة سواء . واحتج الجمهور بقوله عليه السلام : "طلاق الأَمَة تطليقتان وعدّتها حيضتان". رواه ابن جُريج عن عطاء عن مظاهر بن أسلم عن أبيه عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "طلاق الأَمَة تطليقتان وقرؤها حيضتان" فأضاف اليها الطلاق والعدّة جميعا؛ إلا أن مظاهر بن أسلم انفرد بهذا الحديث وهو ضعيف . ورُوى عن ابن عمر : أيُّهما رَقَّ نقص طلاقه؛ وقالت به فرقة من العلماء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ أي من الحيض ؛ قاله عكرمة والزهريّ والنخعيّ . وقيل : الحمل؛ قاله عمر وابن عباس . وقال مجاهد : الحيض والحمل معا ؛ وهذا على أن الحامل تحيض . والمعنى المقصود من الآية أنه لما دار أمر العدّة على الحيض والأطهار ولا اطلاع عليهما إلا من جهة النساء جُعل القولُ قولَها اذا ادّعت انقضاء العدّة أو عدمها، وجعلهنّ مؤتمنات على ذلك؛ وهو مقتضى قوله تعالى : «ولا يحل لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ» . وقال سليمان بن يسار : ولم نؤمر أن نفتح النساء فننظر إلى فروجهنّ، ولكن وُكل ذلك إليهنّ إذ كنّ مؤتمنات . ومعنى النّهي عن الكتمان النّهيُ عن الإضرار بالزوج وإذهاب حقه؛ فاذا قالت المطلقة : حضت؛ وهي لم تحض، ذهبت بحقه من الارتجاع . وإذا قالت : لم أحض؛ وهي قد حاضت، ألزمته من النفقة مالم يلزمه فأضرّت به، أو تقصد بكذبها في نفي الحيض الا تُرتجع حتى تنقضي العدّة ويقطع الشرع حقه . وكذلك الحامل تكتم الحمل؛ لتقطع حقه من الارتجاع . قال قتادة : كانت عادتهنّ في الجاهلية أن يكتمن الحمل ليُلحقن الولد بالزوج الجديد، ففي ذلك نزلت الآية . وحُكي أن رجلا من أشجع أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : يارسول الله ، إنى طلقتُ امرأتى وهى حبلى ، ولستُ آمنُ أن تتزوج فيصير ولدى لغيرى؛ فأنزل الله الآية، ورُدّت امرأة الأشجعيّ عليه .

الثانيــة — قال ابن المنذر : وقال كلّ مَن حفظت عنه من أهل العلم : إذا قالت المرأة فى عشرة أيام: قد حضت ثلاثَ حِيَض وانقضت عدتى إنها لا تصدّق ولا يقبل ذلك منها، إلا أن تقول: قد أسقطت سقطا قد آستبان خَلْقه . واختلفوا فى المدّة التى تصدّق فيها المرأة؛ فقال مالك : إذا قالت انقضت عدّتى فى أَمدٍ تنقضى فى مثله العدّة قُبل قولها ؛ فإن أخبرت بانقضاء العدّة فى مدّة تقع نادرا فقولان . قال فى المدوّنة : إذا قالت حضت ثلاث حيض فى شهر صدّقت إذا صدّقها النساء، وبه قال شُريح، وقال له علىّ بن أبى طالب : قَالُون ! أى أصبت وأحسنتَ . وقال فى كتاب محمد : لا تصدّق إلا فى شهر ونصف . ونحوه قول أبى ثور ؛ قال أبو ثور : أقلّ ما يكون ذلك فى سبعة وأربعين يوما ، وذلك أن أقلّ الطهر خمسة عشر يوما، وأقلّ الحيض يوم . وقال النعمان : لا تصـدّق فى أقل من ستين يوما ؛ وقال به الشافعىّ .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ هذا وعيدٌ عظيم شـديد لتأكيد تحريم الكتمان، وإيجابٌ لأداء الأمانة فى الإخبار عن الرَّحِم بحقيقة ما فيـه . أى فسبيل المؤمنات ألا يكتمن الحق؛ وليس قوله : « إن كنّ يؤمنّ بالله » على أنه أبيح لمن لا يؤمن أن يكتم؛ لأن ذلك لا يحل لمن لا يؤمن ، وإنمـا هو كقوله : إن كنت أخى فلا تظلمنى ؛ أى فينبغى أن يحجزك الإيمان عنه؛ لأن هذا ليس من فعل أهل الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ ﴾ البعولة جمع البعل، وهو الزوج؛ سُمِّىَ بَعْلًا لعلوّه على الزوجة بما قد ملكه من زوجيتها؛ ومنـه قوله تعـالى : «أَتَدْعُونَ بَعْلًا» أى رَبًّا؛ لعلوّه فى الربوبية؛ يقال : بعل وبعولة؛ كما يقال فى جمع الذَّكَر : ذَكَر وذُكُورة، وفى جمع الفحل: فحل وفحولة ؛ وهذه الهاء زائدة مؤكّدة لتأنيث الجماعة، وهو شاذٌّ لا يقاس عليه ، ويعتبر فيها

السماع ؛ فلا يقال في لعب : لعوبة . وقيل : هي هاء تأنيث دخلت على فعول . والبعولة أيضا مصدر البعل . وبعَل الرجل يَبْعَل (مثل منع يمنع) بُعولة ، أي صار بعلا . والمباعلة والبعال : الجماع ؛ ومنه قوله عليه السلام لأيام التشريق : "إنها أيام أكل وشرب وبعال" وقد تقدّم . فالرجل بعل المرأة ، والمرأة بعلته . وباعل مباعلة إذا باشرها . وفلان بَعْلُ هذا ؛ أي مالكه وربّه . وله محامل كثيرة تأتي إن شاء الله تعالى .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ أي بمراجعتهن ؛ فالمراجعة على ضربين : مراجعة في العدّة على حديث ابن عمر . ومراجعة بعد العدّة على حديث مَعْقِل ؛ وإذا كان هذا فيكون في الآية دليل على تخصيص ما شمله العموم في المُسمَّيات ؛ لأن قوله تعالى : «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» عام في المطلقات ثلاثا ، وفيما دونها لا خلاف فيه . ثم قوله : « وبعولتهن أحق » حكمٌ خاص فيمن كان طلاقها دون الثلاث . وأجمع العلماء على أن الحرّ إذا طلّق زوجته الحرّة وكانت مدخولا بها تطليقةً أو تطليقتين أنه أحق برجعتها ما لم تنقض عدّتها وإن كرهت المرأة . فإن لم يراجعها المطلّق حتى انقضت عدّتها فهي أحق بنفسها وتصير أجنبية منه ؛ لا تحل له إلا بخطبة ونكاح مستأنف بولّي وإشهاد ، ليس على سُنّة المراجعة . وهذا إجماع من العلماء . قال المهلّب : وكل من راجع في العدّة فإنه لا يلزمه شيء من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط . وهذا إجماع من العلماء ؛ لقوله تعالى . « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » فذكر الإشهاد في الرجعة ولم يذكره في النكاح ولا في الطلاق . قال ابن المنذر : وفيما ذكرناه من كتاب الله مع إجماع أهل العلم كفايةٌ عن ذكر ما رُوي عن الأوائل في هذا الباب ؛ والله تعالى أعلم .

الثالثــة ــ واختلفوا فيما يكون به الرجل مراجعا في العدّة ؛ فقال مالك : إذا وطئها في العدّة وهو يريد الرجعة وجهل أن يُشهد فهي رجعة . وينبغي للمرأة أن تمنعه الوطء حتى يُشهِد ؛ وبه قال إسحاق ، لقوله عليه السلام : "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" .

فإن وطئ فى العدّة لا ينوى الرجعة فقال مالك : يراجع فى العدّة ولا يطأ حتى يستبرئها من مائه الفاسد . قال ابن القاسم : فإن انقضت عدّتها لم ينكحها هو ولا غيره فى بقية مدّة الاستبراء ؛ فإن فعل فسخ نكاحه ، ولا يتأبّد تحريمها عليه لأن الماء ماؤه . وقالت طائفة : إذا جامعها فقد راجعها ؛ هكذا قال سعيد بن المسيّب والحسن البصرىّ وابنُ سيرين والزهرىّ وعطاء وطاوس والثورىّ . قال : ويُشهد ؛ وبه قال أصحاب الرأى والأوزاعىّ وابن أبى لَيْلَى ؛ حكاهُ ابن المنذر . وقال أبو عمر : وقد قيل : وطؤهُ مراجعةٌ على كل حال ، نواها أو لم ينوها ؛ ويُروى ذلك عن طائفة من أصحاب مالك ، وإليه ذهب اللّيث . ولم يختلفوا فيمن باع جاريته بالخيار أن له وطأها فى مدّة الخيار ، وأنه قد ارتجعها بذلك إلى ملكه ، واختار نقض البيع بفعله ذلك . وللطلقة الرجعية حكم من هذا . والله أعلم .

الرابعة — من قبل أو باشر ينوى بذلك الرجعةَ كانت رجعةً ، وإن لم ينو بالقُبلة والمباشرة الرجعةَ كان آثما ، وليس بمُراجع . والسُّنّة أن يُشهد قبل أن يطأ أو قبل أن يُقبّل أو يباشر . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن وطئها أو لمسها بشهوة أو نظر إلى فرجها بشهوة فهى رجعة ؛ وهو قول الثورىّ ، وينبغى أن يُشهد . وفى قول مالك والشافعىّ وإسحاق وأبى عبيد وأبى ثور لا يكون رجعة ؛ قاله ابن المنذر . وفى « المنتقى » قال : ولا خلاف فى صحة الارتجاع بالقول ؛ فأما بالفعل نحو الجماع والقُبلة فقال القاضى أبو محمد : يصح بها وبسائر الاستمتاع للّذة . قال ابن المَوّاز : ومثل الجَسّة اللّذةُ ، أو أن ينظر الى فرجها أو ما قارب ذلك من محاسنها إذا أراد بذلك الرجعة ؛ خلافا للشافعىّ فى قوله : لا تصح الرجعة الا بالقول ؛ وحكاه ابن المنذر عن أبى ثور وجابر بن زيد وأبى قِلابة .

الخامسة — قال الشافعىّ : إن جامعها ينوى الرجعة أو لا ينوى فليس برجعة ، ولها عليه مهر مثلها . وقال مالك : لا شىء لها ؛ لأنه لو ارتجعها لم يكن عليه مهر ، فلا يكون الوطء دون الرجعة أولى بالمهر من الرجعة . وقال أبو عمر : ولا أعلم أحدا أوجب عليه مهر المثل غير الشافعىّ ، وليس قوله بالقوىّ ؛ لأنها فى حكم الزوجات وترثه ويرثها ، فكيف يجب

مهر المثل فى وطء امرأة حكمها فى أكثر أحكامها حكم الزوجة! إلا أن الشبهة فى قول الشافعىّ قويّة؛ لأنها عليه محرّمة إلا برجعة لها . وقد أجمعوا على أن الموطوءة بشُبهة يجب لها المهر، وحسبك بهذا !!

السادســة ــ واختلفوا هل يسافر بها قبل أن يرتجعها ؛ فقال مالك والشافعىّ : لا يسافر بها حتى يراجعها . وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه إلا زُفَر فإنه روى عنه الحسن ابن زياد أن له أن يسافر بها قبل الرجعة ، وروى عنه عمرو بن خالد : لا يسافر بها حتى يراجع .

السابعــة ــ واختلفوا هل له أن يدخل عليها ويرى شيئا من محاسنها، وهل تتزيّن له وتتشرّف[1]؛ فقال مالك : لا يخلو معها، ولا يدخل عليها إلا بإذن ، ولا ينظر إليها إلا وعليها ثيابها ، ولا ينظر الى شعرها ، ولا بأس أن يأكل معها اذا كان معهما غيرهما ، ولا يبيت معها فى بيت وينتقل عنها . وقال ابن القاسم : رجع مالك عن ذلك فقال : لا يدخل عليها ولا يرى شعرها . ولم يختلف أبو حنيفة وأصحابه فى أنها تتزيّن له وتتطيّب وتلبس الحُلِىّ وتتشرّف . وعن سعيد بن المسيّب قال : اذا طلق الرجل امرأته تطليقة فإنه يستأذن عليها ، وتلبس ما شاءت من الثياب والحُلِىّ ؛ فان لم يكن لها إلا بيت واحد فليجعلا بينهما سترا ، ويسلّم اذا دخل ؛ ونحوه عن قتادة ، ويُشعرها اذا دخل بالتنحّم والتنحنح . وقال الشافعىّ : المطلقة طلاقا تملك رجعتها محرّمةٌ على مطلقها تحريم المبتوتة حتى يراجع ، ولا يراجع إلا بالكلام ؛ على ما تقدّم .

الثامنــة ــ أجمع العلماء على أن المطلق إذا قال بعد انقضاء العدّة : إنى كنت راجعتك فى العدّة وأنكرت أن القول قولها مع يمينها ، ولا سبيل له إليها ؛ غير أن النعمان كان لا يرى يمينا فى النكاح ولا فى الرجعة ؛ وخالفه صاحباه فقالا كقول سائر أهل العلم . وكذلك اذا كانت الزوجة أَمَة واختلف المَوْلَى والجارية ، والزوج يدّعى الرجعة فى العدّة بعد انقضاء العدّة

(١) التشرف : التطلع الى الشىء والنظر اليه .

وأنكرتْ فالقول قول الزوجة الأَمَة و إن كذبها مولاها ؛ هذا قول الشافعيّ وأبي ثور والنعمان .
وقال يعقوب ومحمد : القول قول المولى وهو أحق بها .

التاســعة — لفظ الردّ يقتضي زوال العصمة؛ إلا أن علماءنا قالوا : إن الرّجعة محرّمة الوطء ؛ فيكون الردّ عائدا الى الحل . وقال اللّيث بن سعد وأبو حنيفة ومن قال بقولهما — في أن الرجعة محلّلة الوطء ، وأن الطلاق فائدته تنقيص العدد الذي جُعل له خاصة ، وأن أحكام الزوجية باقية لم ينحل منهـا شيء — قالوا : وأحكام الزوجيـة و إن كانت باقية فالمرأة ما دامت في العـدّة سائرةٌ في سبيل الزوال بانقضاء العـدّة؛ فالرجعة ردّ عن هـذه السبيل التي أخذت المرأة في سلوكها ، وهـذا ردّ مجازيّ ، والردّ الذي حكمنا به ردّ حقيقيّ؛ فإن هناك زوال مستنجز وهو تحريم الوطء؛ فوقع الردّ عنه حقيقة، والله أعلم .

العاشرة — لفظ «أحق» يطلق عند تعارض حقّين، ويرجّح أحدهما؛ فالمعنى حقّ الزوج في مدّة التربّص أحقّ من حقها بنفسها؛ فإنها إنما تملك نفسها بعد انقضاء العدّة ؛ ومثل هذا قوله عليه السلام : "الأَيِّمُ أحقّ بنفسها من وَلِيِّها" . وقد تقدّم .

الحادية عشرة — الرجل مندوب الى المراجعة ، ولكن إذا قصـد الإصلاح بإصلاح حاله معها ، وإزالة الوحشة بينهما ؛ فأما إذا قصـد الإضرار وتطويل العدّة والقطع بها عن الخلاص من رِبْقة النكاح فمحرّم؛ لقوله تعالى : «وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا» ثم من فعل ذلك فالرجعة صحيحة ، وإن ارتكب النهي وظلم نفسه ؛ ولو علمنا نحن ذلك المقصد طلقنا عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ أي لهنّ من حقوق الزوجيّة على الرجال مثل ما للرجال عليهنّ ؛ ولهـذا قال ابن عباس : إني لأتزيّن لامرأتي كما تتزيّن لي ، وما أُحبّ أن أستنظف (١) كلّ حقّ الذي لي عليها فتستوجب حقّها الذي لهـا عليّ؛ لأن الله تعالى قال : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » أي زينة من غير مأثم . وعنـه أيضا : أي لهنّ من حسن الصحبة

(١) استنظفت الشيء : إذا أخذته كله .

والعشرة بالمعروف على أزواجهنّ مثل الذى عليهنّ من الطاعة فيما أوجبه عليهنّ لأزواجهنّ .
وقيل : إن لهنّ على أزواجهنّ تركَ مُضارّتهن كما كان ذلك عليهنّ لأزواجهنّ؛ قال الطبرى :
وقال ابن زيد : تتقون الله فيهنّ كما عليهنّ أن يتّقين الله عز وجل فيكم؛ والمعنى متقارب .
والآية تعمّ جميع ذلك من حقوق الزوجية .

الثانيــة ــ قول ابن عباس : « إنى لأتزيّن لامرأتى » قال العلماء : أما زينة الرجال فعلى تفاوت أحوالهم؛ فإنهم يعملون ذلك على اللَّبَق(١) والوفاق، فرُبّما كانت زينة تليق فى وقت ولا تليق فى وقت، وزينة تليق بالشباب، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب؛ الا ترى أن الشيخ والكهل اذا حفّ شاربه ليق به ذلك وزانه، والشابّ اذا فعل ذلك سُمِج ومقت لأن اللحية لم تفِرْ بعدُ، فاذا حف شاربه فى أوّل ما خرج وجهه سُمِج ، وإذا وَفَرت لحيته وحفّ شاربَه زانه ذلك . ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أمرنى ربّى أن أُعفِىَ لحيتى وأُحفِىَ شاربى" . وكذلك فى شأن الكسوة؛ ففى هذا كله ابتغاء الحقوق؛ فإنما يعمل اللائقَ والوفاق ليكون عند امرأته فى زينة تسرّها ويعفّها عن غيره من الرجال . وكذلك الكحل من الرجال منهم من يليق به ومنهم من لا يليق به . فأما الطِّيب والسِّواكُ والخلالُ والرَّمىُ بالدَّرَن وفضولِ الشَّعر والتطهيرُ وقلمُ الأظفار فهو بيّن موافق للجميع . والخضاب للشيوخ والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة؛ وهو حَلْىُ الرجال على ما يأتى بيانه فى سورة « النحل » .
ثم عليه أن يتوخّى أوقات حاجتها الى الرجال فيعفّها ويغنيها عن التطلّع الى غيره . وإن رأى الرجلُ من نفسه عجزا عن إقامة حقّها فى مضجعها أخذ من الأدوية التى تزيد فى باهه وتُقَوّى شهوته حتى يعفّها .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أى منزلة . ومَدرجةُ الطريق : قارعته؛ والأصل فيه الطىّ؛ يقال: دَرَجوا، أى طَوَوْا عمرهم؛ ومنها الدّرجة التى يُرتَقَى عليها . ويقال : رَجُلٌ بيّن الرُّجلة ، أى القوّة . وهو أرجل الرجلين ، أى أقواهما . وفرس رجيل ،

---

(١) اللبق بالفتح : اللباقة والحذق .

أى قوىّ؛ ومنه الزِّجل، لقوّتها على المشى. فزيادة درجة الرجل بعقله وقوّته على الإنفاق وبالدّية والميراث والجهاد . وقال حُميد : الدّرجة اللّحية؛ وهذا إن صحّ عنه فهو ضعيف لا يقتضيه لفظ الآية ولا معناها . قال ابن العربىّ : فطُوبَى لعبد أمسك عمّا لا يعلم، وخصوصا فى كتاب الله تعالى ! ولا يخفى على لبيب فضلُ الرجال على النساء؛ ولو لم يكن إلا أن المرأة خُلقت من الرجل فهو أصلها . وله أن يمنعها من التصرّف إلا بإذنه؛ فلا تصوم إلا بإذنه ولا تحجّ إلا معه . وقيل : الدّرجةُ الصداقُ؛ قاله الشّعبىّ . وقيل : جواز الأدب . وعلى الجملة فدرجة تقتضى التفضيل، وتُشعر بأن حقّ الزوج عليها أوجبُ من حقّها عليه؛ ولهذا قال عليه السلام : "ولو أمرتُ أحدا بالسجود لغير الله لأمرتُ المرأةَ أن تسجد لزوجها" . وقال ابن عباس : الدرجةُ إشارةٌ الى حضّ الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء فى المال والخُلُق؛ أى أن الأفضل ينبغى أن يتحامل على نفسه . قال ابن عطيّة : وهذا قول حسنٌ بارعٌ . قال الماوردىّ : يحتمل أنها فى حقوق النكاح؛ له رفع العَقْد دونها، ويلزمها إجابته إلى الفراش، ولا يلزمه إجابتها .

قلت : ومن هذا قولُهُ عليه السلام : "أيُّما آمرأة دعاها زوجُها إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تُصبح" . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أى منيع السلطان لا معترض عليه . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى عالم مصيب فيما يفعل .

قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٢٩)

قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾ ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكانت عندهم العدّة معلومة مقدّرة؛ وكان هذا في أوّل الاسلام برهة ، يطلّق الرجل آمرأته ماشاء من الطلاق، فإذا كادت تحلّ من طلاقه راجعها ما شاء ؛ فقال رجل لآمرأته على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم : لا آوِيك ولا أدَعُك تحلّين؛ قالت : وكيف؟ قال : أطلّقك فإذا دنا مُضيُّ عدّتِك راجعتك . فشكت المرأة ذلك إلى عائشة؛ فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى هــذه الآية بيانًا لعدد الطلاق الذى للمرء فيه أن يرتجع دون تجديد مهر ووَلِيّ ونسخ ما كانوا عليــه . قال معناه عروة بن الزبير وقتادة وابنُ زيد وغيرُهم . وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرُهم : المراد بالآية التعريفُ بسُنّة الطلاق؛ أى من طلّق اثنتين فليتّق الله فى الثالثة، فإما تَرَكها غير مظلومة شيئا من حقها، وإما أمسكها محسنا عشرتها؛ والآية تتضمّن هذين المعنيين .

الثانيــــة ــ الطلاق هو حَلّ العِصمة المنعقــدة بين الأزواج بألفاظ مخصوصة . والطلاق مباح بهــذه الآية وبغيرها ، وبقوله عليه الســلام فى حديث ابن عمر : " فإن شاء أمسك وإن شاء طلّق " وقد طلّق رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة ثم راجعها ؛ خرّجه ابن ماجه . وأجمع العلماء على أن من طلّق آمرأته طاهرا فى طهرلم يمسها فيه أنه مطلّق للسُّنّة وللعِدّة التى أمر الله تعالى بها ، وأن له الرجعة إذا كانت مدخولا بها قبل أن تنقضىَ عدّتُها؛ فإذا انقضت فهو خاطب من الخُطّاب . فدلّ الكتاب والسنة وإجماع الأُمّة على أن الطلاق مباح غيرُ محظور . قال ابن المنذر : وليس فى المنع منه خبر يَثْبت .

الثالثــــة ــ روى الدّارَقُطْنِيّ « حدّثنى أبو العباس محمــد بن موسى بن علىّ الدُّولابِيّ ويعقوب بن ابراهيم قالا حدّثنا الحسن بن عرفة حدّثنا إسماعيل بن عيّاش عن حُميــد بن مالك اللَّخْمىّ عن مكحول عن معــاذ بن جبل قال قال لى رسول الله صــلى الله عليه وسلم : " يا معاذ ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحبّ إليه من العِتاق ولا خلق الله تعــالى شيئا على وجه الأرض أبغض اليه من الطــلاق فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حُرّ إن شاء الله فهو حُرّ

ولا آستثناء له وإذا قال الرجل لامرأته: أنتِ طالق إن شاء الله فله آستثناؤه ولا طلاق عليه".

حدّثنا محمد بن موسى بن علي حدّثنا حميد بن الربيع حدّثنا يزيد بن هارون أنبأنا إسماعيل بن عياش بإسناده نحوه. قال حميد قال لي يزيد بن هارون: وأيّ حديث لوكان حميد بن مالك اللخمي معروفا! قلت: هو جدّي! قال يزيد: سرّرتني سررتني، ألآن صار حديثا!». قال ابن المنذر: وممن رأى الاستثناء في الطلاق طاوس وحماد والشافعي وأبو ثور وأصحابُ الرأي. ولا يجوز الاستثناء في الطلاق في قول مالك والأوزاعي، وهو قول الحسن وقتادة في الطلاق خاصة. قال: وبالقول الأوّل أقول.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ ابتداء، والخبر أمثل أو أحسن؛ ويصح أن يرتفع على ابتداء خبر محذوف؛ أي فعليكم إمساك بمعروف. أو فالواجب عليكم إمساك بما يُعرف أنه الحق. ويجوز في غير القرآن «فإمساكا» على المصدر. ومعنى «بإحسان» أي لا يظلمها شيئا من حقها، ولا يتعدّى في قول. والإمساك: خلافُ الإطلاق. والتّسريح: إرسال الشيء، ومنه تسريح الشعر، ليخلص البعض من البعض. وسرّح الماشية: أرسلها. والتّسريح يحتمل لفظه معنيين: أحدهما — تركها حتى تتمّ العدّة من الطلقة الثانية، وتكون أملكَ لنفسها؛ وهذا قول السُّدّي والضحاك. والمعنى الآخر أن يطلقها ثالثة فيسرّحها؛ هذا قول مجاهد وعطاء وغيرهما؛ وهو أصح لوجوه ثلاثة:

أحدها — ما رواه الدَّارَقُطْنِيّ عن أنس أن رجلا قال: يا رسول الله، قال الله تعالى: «الطلاق مرّتانِ» فلِمَ صار ثلاثا؟ قال: "إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان — في رواية — هي الثالثة". ذكره ابن المنذر.

الثاني — أن التّسريح من ألفاظ الطلاق؛ ألا ترى أنه قد قُرئ «وإن عزموا السّراح».

الثالث — أنّ فعّل تفعيلا يعطي أنه أحدث فعلا مكرّرا على الطلقة الثانية؛ وليس في الترك إحداث فعل يعبّر عنه بالتفعيل. قال أبو عمر: «وأجمع العلماء على أن قوله تعالى: «أو تسريح بإحسان» هي الطلقة الثالثة بعد الطلقتين؛ وإياها عنى بقوله تعالى: «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ». وأجمعوا على أن من طلق آمرأته طلقة أو طلقتين فله

مراجعتها؛ فان طلقها ثلاثا لم تحل له حتى تنكح زوجا غيره . فكان هذا من محكم القرآن الذى لم يُختلف فى تأويله . وقد رُوى من أخبار العدول مثل ذلك أيضا : حدّثنا سعيد بن نصر قال حدّثنا قاسم بن أصبغ قال حدّثنا محمد بن وضّاح قال حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة قال حدّثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن سُمَيع عن أبى رُزين قال : جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله، أرأيت قول الله تعالى : « الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » فأين الثالثة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان " . ورواه الثّورىّ(1) وغيره عن إسماعيل بن سُمَيع عن أبى رزين مثله .

قلت : وذكر الكِيَا الطبرىّ هذا الخبر وقال : إنه غير ثابت من جهة النقل، ورجّح قول الضحاك والسُّدّىّ وأن الطلقة الثالثة إنما هى مذكورة فى مساق الخطاب فى قوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » . فالثالثة مذكورة فى صلة هذا الخطاب ، مفيدة للبينونة الموجبة للتحريم إلا بعد زوج ؛ فوجب حمل قوله : « أو تسريح بإحسان » على فائدة مجدّدة ، وهو وقوع البينونة بالثنتين عند انقضاء العدّة ، وعلى أن المقصود من الآية بيان عدد الطلاق الموجب للتحريم، ونسخ ما كان جائزا من إيقاع الطلاق بلا عدد محصور ؛ فلو كان قوله : « أو تسريح بإحسان » هو الثالثةَ لما أبان عن المقصد فى إيقاع التحريم بالثلاث ؛ إذ لو اقتصر عليه لما دلّ على وقوع البينونة المحرّمة بها إلّا بعد زوج ؛ وإنما علم التحريم بقوله تعالى : « فإن طلّقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » . فوجب ألا يكون معنى قوله : « أو تسريح بإحسان » الثالثة، ولو كان قوله : « أو تسريح بإحسان » بمعنى الثالثة كان قوله عقيب ذلك : « فإن طلّقها » الرابعةَ؛ لأن الفاء للتعقيب، وقد اقتضى طلاقا مستقبلا بعد ما تقدّم ذكره؛ فثبت بذلك أن قوله : « أو تسريح بإحسان » هو تركها حتى تنقضى عدّتها .

الخامسة — ترجم البخارىّ على هذه الآية « باب من أجاز الطلاق الثلاث بقوله تعالى : الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . وهذا إشارة منه إلى أن هذا

(1) فى بعض الأصول : «الترمذى» والتصويب عن كتاب « الاستذكار » لأبى عمر بن عبد البر .

التعـديد إنما هو فسحة لهم؛ فمن ضيّق على نفسه لزمه . قال علماؤنا : واتفق أئمة الفتوى على لزوم إيقاع الطلاق الثلاث فى كلمة واحدة؛ وهو قول جمهور السلف . وشذّ طاوس وبعض أهل الظاهر إلى أن طلاق الثلاث فى كلمـة واحدة يقع واحدة؛ ويُروى هـذا عن محمد بن إسحاق والحجـاج بن أرطاة . وقيـل عنهما : لا يلزم منـه شىء؛ وهو قول مقاتل . ويحكى عن داود أنه قال لا يقع . والمشهور عن الحجـاج بن أرطاة وجمهـور السلف والأئمـة أنه لازم واقـع ثلاثا . ولا فرق بين أن يوقع ثلاثا مجتمعة فى كلمة أو متفرّقة فى كلمات؛ فأما من ذهب إلى أنه لا يلزم منه شىء فاحتج بدليل قوله تعـالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » . وهذا يعم كلّ مطلقة إلا ما خُصّ منه؛ وقد تقدّم . وقال : « الطلاق مرّتان » والثالثة «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» . ومن طلّق ثلاثا فى كلمة فلا يلزم؛ إذ هو غير مذكور فى القرآن . وأما من ذهب إلى أنه واقع واحدة فاسـتدلّ بأحاديث ثلاثة : أحدها — حديث ابن عباس من رواية طاوس وأبى الصّهباء وعكرمة . وثانيها — حديث ابن عمر على رواية من روى أنه طلّق امرأته ثلاثا ، وأنه عليـه السلام أمره برجعتهـا واحتُسبت له واحدة . وثالثها — أن رُكَانة طلّق امرأته ثلاثا فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم برجعتها؛ والرجعة تقتضى وقوع واحدة . والجواب عن الأحاديث ما ذكره الطحاوى أن سـعيد بن جُبير ومجاهدا وعطاء وعمـرو بن دينار ومالكَ بن الحُوَيرث ومحمد بن إياس بن البُكير والنعمانَ ابن أبى عياش رووا عن ابن عباس فيمن طلّق امرأته ثلاثا أنه قـد عصى ربّه وبانت منه امرأته، ولا ينكحها إلا بعد زوج . وفيما رواه هؤلاء الأئمة عن ابن عباس ممـا يوافق الجماعة ما يدلّ على وَهْن رواية طاوس وغيره؛ وما كان ابن عباس ليخالف الصحابة الى رأى نفسه . قال ابن عبد البر : ورواية طاوس وهم وغلط لم يعرّج عليهـا أحدٌ من فقهاء الأمصار بالحجـاز والشام والعراق والمشرق والمغرب . وقد قيل : إن أبا الصهباء لا يُعرف فى موالى ابن عباس . قال القاضى أبو الوليد الباجى : « وعندى أن الرواية عن ابن طاوس بذلك صحيحة، فقد رواه عنه الأئمة معمر وابن جريج وغيرُهما ؛ وابن طاوس إمامٌ . والحديث الذى يشيرون اليه هو

ما رواه ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر بن الخطاب طلاقُ الثلاث واحدةً ؛ فقال عمر رضي الله عنه : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ؛ فلو أمضيناه عليهم ! فأمضاه عليهم . ومعنى الحديث أنهم كانوا يوقعون طلقة واحدة بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطليقات ؛ ويدل على صحة هذا التأويل أن عمر قال : إن الناس قد آستعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ؛ فأنكر عليهم أن أحدثوا في الطلاق استعجال أمر كانت لهم فيه أناة ؛ فلو كان حالهم ذلك في أول الإسلام في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما قاله ، ولا عاب عليهم أنهم استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة . ويدل على صحة هذا التأويل ما رُوى عن ابن عباس من غير طريق أنه أفتى بلزوم الطلاق الثلاث لمن أوقعها مجتمعة ؛ فإن كان هذا معنى حديث ابن طاوس فهو الذي قلناه ، وإن حُمل حديث ابن عباس على ما يتأول فيه من لا يعبأ بقوله فقد رجع ابن عباس إلى قول الجماعة وانعقد به الإجماع . ودليلنا من جهة القياس أن هذا طلاق أوقعه من يملكه فوجب أن يلزمه . أصل ذلك إذا أوقعه مفترقا » .

قلت : ما تأوله الباجي هو الذي ذكر معناه الكِيَا الطبريّ عن علماء الحديث ؛ أي أنهم كانوا يطلّقون طلقة واحدة هذا الذي يطلّقون ثلاثا ، أي ما كانوا يطلقون في كل قُرْء طلقة ؛ وإنما كانوا يطلقون في جميع العدّة واحدة إلى أن تَبين وتنقضي العدّة . وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : معناه أن الناس كانوا يقتصرون على طلقة واحدة ، ثم أكثروا أيام عمر من إيقاع الثلاث . قال القاضي : وهذا هو الأشبه بقول الراوي : إن الناس في أيام عمر آستعجلوا الثلاث فعجّل عليهم ؛ معناه ألزمهم حكمها . وأما حديث ابن عمر فإن الدَّارَقُطْنيّ روى عن أحمد بن صُبيح عن طريف بن ناصح عن معاوية بن عمّار الدُّهنيّ عن أبي الزبير قال : سألت ابن عمر عن رجل طلّق امرأته ثلاثا وهي حائض ؛ فقال لي : أتعرف ابن عمر ؟ قلت : نعم ؛ قال : طلقت امرأتي ثلاثا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [وهي حائض][1]

---

(١) زيادة عن سنن الدارقطني .

فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السُّنّة . فقال الدّارَقُطْنِيّ : كلهم من الشّيعة ؛ والمحفوظ أن ابن عمر طلق امرأته واحدة فى الحيض . قال عبد الله : وكان تطليقه إياها فى الحيض واحدة غير أنه خالف السُّنّة . وكذلك قال صالح بن كَيْسان وموسى بن عقبة واسماعيل ابن أُميّة وليث بن سعد وابن أبى ذئب وابن جُريج وجابر وإسماعيل بن ابراهيم بن عقبة عن نافع : أن ابن عمر طلّق تطليقة واحدة . وكذا قال الزهرىّ عن سالم عن أبيه ويونس ابن جبير والشّعبىّ والحسن . وأما حديث رُكانة فقيل : إنه حديث مضطرب منقطع ، لا يستند من وجه يحتج به ؛ رواه أبو داود من حديث ابن جُريج عن بعض بنى أبى رافع ، وليس فيهم من يحتج به عن عكرمة عن ابن عباس . وقال فيه : إن رُكانة بن عبد يزيد طلق امرأته ثلاثا ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ارجعها" . وقد رواه أيضا من طُرق عن نافع بن عُجَير أن رُكانة بن عبد يزيد طلق امرأته البتّة فاستحلفه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما أراد بها ؟ فحلف ما أراد إلا واحدة ؛ فردّها اليه . فهذا اضطراب فى الاسم والفعل ؛ ولا يحتج بشىء من مثل هذا .

قلت : قد أخرج هذا الحديث من طُرق الدّارَقُطْنِيّ فى سُننه ؛ قال فى بعضها : « حدّثنا محمد بن يحيى بن مِرداس حدّثنا أبو داود السجستانىّ حدّثنا أحمد بن عمرو بن السرح وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبىّ وآخرون قالوا : حدّثنا محمد بن إدريس الشافعىّ حدّثنى عمّى محمد بن على بن شافع عن عبد الله بن علىّ بن السائب عن نافع بن عُجَير بن عبد يزيد : أن رُكانة ابن عبد يزيد طلّق امرأته سُهَيمة المُزَنية البَتّةَ ؛ فأخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقال : والله ما أردتُ إلا واحدة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والله ما أردتَ إلا واحدة" ؟ فقال رُكانة : والله ما أردتُ إلا واحدة ؛ فردّها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فطلّقها الثانيةَ فى زمان عمر بن الخطاب ، والثالثةَ فى زمان عثمان . قال أبو داود : هذا حديث صحيح » . فالذى صحّ من حديث رُكانة أنه طلق امرأته البَتّةَ لا ثلاثا ؛ وطلاق البَتّة قد اختُلف فيه على ما يأتى بيانه فسقط الاحتجاج بغيره . والله أعلم . قال أبو عمر :

رواية الشافعى لحديث رُكانة عن عمّه أتمّ، وقد زاد زيادة لا تردّها الأصول؛ فوجب قبولها لثقة ناقليها ، والشافعىّ وعمّه وجدّه أهلُ بيت رُكانة ، كلّهم من بنى المطلب بن عبد مناف، وهم أعلم بالقصة التى عَرَضت لهم .

فصـــل ــ ذكر أحمـد بن محمد بن مُغيث الطُّلَيْطِلِىّ هـذه المسألةَ فى وثائقه فقال : الطلاق ينقسم على ضربين : طلاقِ سُنّة ، وطلاقِ بِدْعة . فطلاق السُّنّة هو الواقع على الوجه الذى ندب الشرع اليه . وطلاق البدعة نقيضه، وهو أن يطلّقها فى حيض أو نفاس أو ثلاثا فى كلمة واحدة ؛ فإن فعل لزمه الطلاق . ثم اختلف أهل العلم بعد إجماعهم على أنه مطلّق ، كم يلزمه من الطلاق ؛ فقال علىّ بن أبى طالب وابن مسـعود : يلزمه طلقـة واحدة وقاله ابن عبـاس وقال : قوله ثلاثا لا معنى له لأنه لم يطلق ثلاث مرّات وإنمـا يجوز قوله فى ثلاث إذا كان مخبرا عمـا مضى فيقول : طلقت ثلاثا فيكون مخبرا عن ثلاثة أفعال كانت منـه فى ثلاثة أوقات ، كرجل قال : قرأت أمس سـورة كذا ثلاث مرّات فذلك يصح، ولو قرأها مرّة واحدة فقال : قرأتها ثلاث مرّات كان كاذبا . وكذلك لو حلف بالله ثلاثا يردّد الحلف كانت ثلاث أيمـان، وأما لو حلف فقال : أحلف بالله ثلاثا لم يكن حلف إلا يمينا واحدة والطلاق مثـله . وقاله الزبير بن العوّام وعبـد الرحمن بن عوف . وروينـا ذلك كلّه عن ابن وضّاح؛ وبه قال من شيوخ قرطبة ابن زِنباع شيخ هدى ومحمد بن تقىّ بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الحسنىّ فريد وقته وفقيـه عصره وأصبغ بن الحباب وجماعة سواهم . وكان من حجة ابن عباس أن الله تعالى فرّق فى كتابه لفظ الطلاق فقال عزّ اسمه : « الطلاق مرّتانِ » يريد أكثر الطلاق الذى يكون بعـده الإمساك بالمعروف وهو الرجعة فى العـدّة . ومعنى قوله : « أو تسريحٌ بإحسانٍ » يريد تركها بلا ارتجاع حتى تنقضىَ عدّتهـا ؛ وفى ذلك إحسان إليها إن وقع ندم بينهما ؛ قال الله تعالى : «لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » . يريد الندم على الفرقة والرغبة فى الرجعة ؛ وموقع الثلاث غير حسن ؛ لأن فيه ترك المنـدوحة التى وسّع الله بها ونبّه عليهـا ؛ فذكرُ الله سبحانه الطلاق مفرّقا يدل على أنه إذا جمع أنه لفظ

واحد . وقد يخرج بقياس من غير ما مسألة من المدوّنة ما يدل على ذلك ؛ من ذلك قولُ الإنسان : مالى صدقة فى المساكين أن الثلث يجزيه من ذلك . وفى الإشراف لابن المنذر : وكان سعيد بن جُبير وطاوس وأبو الشّعثاء وعطاء وعمرو بن دينار يقولون : من طلّق البكر ثلاثا فهى واحدة .

قلت : وربما اعتلّوا فقالوا : غيرُ المدخول بها لا عِدّةَ عليها؛ فاذا قال : أنت طالق ثلاثا فقد بانت بنفس فراغه من قوله : أنت طالق ؛ فيرد «ثلاثا» عليها وهى بائن فلا يؤثّر شيئا ؛ ولأن قوله : أنت طالق مستقل بنفسه ؛ فوجب ألا تقف البينونة فى غير المدخول بها على ما يَرِد بعده؛ أصله إذا قال : أنت طالق .

السادسة — استدل الشافعيّ بقوله تعالى : «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» وقوله : «وَسَرِّحُوهُنَّ» على أن هذا اللفظ من صريح الطلاق . وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى؛ فذهب القاضى أبو محمد إلى أن الصّريح ما تضمّن لفظ الطلاق على أىّ وجه ؛ مثل أن يقول : أنت طالق، أو أنت مطلقة، أو قد طلقتك، أو الطلاق له لازم . وما عدا ذلك من ألفاظ الطلاق مما يستعمل فيه فهو كناية؛ وبهذا قال أبو حنيفة . وقال القاضى أبو الحسن : صريح ألفاظ الطلاق كثيرة ، وبعضُها أبينُ من بعض : الطلاق والسّراح والفراق والحرام والخليّة والبريّة . وقال الشافعيّ : الصريح ثلاثة ألفاظ؛ وهو ما ورد به القرآن من لفظ الطلاق والسّراح والفراق؛ قال الله تعالى : «أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» وقال : «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» وقال : «فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ» .

قلت : وإذا تقرر هذا فالطلاق على ضربين : صريح وكناية ؛ فالصّريح ما ذكرنا . والكناية ماعداه . والفرق بينهما أن الصّريح لا يفتقر إلى نيّة؛ بل بمجرّد اللفظ يقع الطلاق . والكناية تفتقر إلى نيّة . والحجة لمن قال : إن الحرام والخليّة والبريّة من صريح الطلاق كثرة استعمالها فى الطلاق حتى عُرفت به ؛ فصارت بيّنة واضحة فى إيقاع الطلاق ؛ كالغائط الذى وُضِع للطمئن من الأرض، ثم استعمل على وجه المجاز فى إتيان قضاء الحاجة، فكان فيه أبين

وأظهر وأشهر منه فيما وضع له، وكذلك في مسألتنا مثله . ثم إن عمر بن عبد العزيز قد قال : «لو كان الطلاق ألفا ما أبقت ٱلبَتّةُ منه شيئا ، فمن قال : البتة ، فقد رمى الغاية القُصْوَى» أخرجه مالك . وقد روى الدَّارَقُطْنِيّ عن عليّ قال : الخليّة والبرية والبتّة والبائن والحرام ثلاث ، لا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره . وقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن ٱلبتّة ثلاث ، من طريق فيه لين، خرّجه الدّارَقُطْنِيّ . وسيأتي عند قوله تعالى : «وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا» إن شاء الله تعالى .

السابعة — لم يختلف العلماء فيمن قال لامرأته : قد طلّقتك، أنه من صريح الطلاق في المدخول بها وغير المدخول بها؛ فمن قال لامرأته : أنت طالق فهي واحدة إلا أن ينوي أكثر من ذلك . فإن نوى اثنتين أو ثلاثا لزمه ما نواه ، فإن لم ينو شيئا فهي واحدة تملك الرجعة . ولو قال : أنت طالق، وقال: أردت من وثاق لم يُقبل قوله ولزمه، إلا أن يكون هناك ما يدل على صدقه . ومن قال : أنت طالق واحدة، لا رجعة لي عليك فقوله : «لا رجعة لي عليك» باطل، وله الرجعة لقوله واحدة؛ لأن الواحدة لا تكون ثلاثا؛ فإن نوى بقوله : «لا رجعة لي عليك» ثلاثا فهي ثلاث عند مالك .

واختلفوا فيمن قال لامرأته : قد فارقتك ، أو سرّحتك ، أو أنت خليّة ، أو برية ، أو بائن، أو حبلك على غاربك، أو أنت عليّ حرام، أو ٱلحقي بأهلك، أو قد وهبتك لأهلك، أو قد خليت سبيلك، أو لا سبيل لي عليك؛ فقال أبو حنيفة وأبو يوسف : هو طلاق بائن . ورُوي عن ابن مسعود قال : إذا قال الرجل لامرأته : ٱستقِلّي بأمرِك ، أو أمرُكِ لكِ ، أو ٱلحقي بأهلك فقبلوها فواحدة بائنة . وروي عن مالك فيمن قال لامرأته : قد فارقتك، أو سرّحتك ، أنه من صريح الطلاق ، كقوله : أنت طالق . ورُوي عنه أنه كناية يُرجع فيها الى نيّة قائلها ، ويُسأل ما أراد من العدد ، مدخولا بها كانت أو غير مدخول بها . قال ابن المَوّاز : وأصحّ قوليه في التي لم يدخل بها أنها واحدة، إلا أن ينوي أكثر ، وقاله ٱبن القاسم وابن عبد الحكم . وقال أبو يوسف : هي ثلاث ، ومثله خلعتك ، أو لا مِلْك لي عليك .

وأمّا سائر الكنايات فهي ثلاث عند مالك في كل من دخل بها لا يُنوَّى فيها قائلها ، ويُنوَّى في غير المدخول بهـا . فإن حلف وقال أردت واحدة كان خاطبا من الخُطّاب؛ لأنه لا يُخلِي المرأة التي قد دخل بهـا زوجها ولا يبينها ولا يبريها إلا ثلاث تطليقات . والتي لم يدخل بها يُخليها ويُبريها ويُبينها الواحدة . وقد رُوِي عن مالك وطائفة من أصحابه وهو قول جماعة من أهل المدينة أنه يُنوَّى في هـذه الألفاظ كلها ويلزم من الطلاق ما نوى . وقد رُوِي عنه في ٱلبَتّة خاصّةً من بين سائر الكنايات أنه لا ينوَّى فيها لا في المدخول بها ولا في غير المدخول بها . وقال الثوريّ وأبو حنيفة وأصحابه : له نيته في ذلك كله، فإن نوى ثلاثا فهي ثلاث، وإن نوى واحدة فهي واحدة بائنـة وهي أحق بنفسها . وإن نوى اثنتين فهي واحدة . وقال زُفَر : إن نوى اثنتين فهي اثنتـان . وقال الشافعيّ : هو في ذلك كلّه غيرُ مطلّق حتى يقول : أردت بمخرج الكلام مني طلاقا فيكون ما نوى . فإن نوى دون الثلاث كان رجعيًّا، ولو طلقها واحدة بائنة كانت رجعيّة . وقال إسحاق : كل كلام يُشبه الطلاقَ فهو ما نوى من الطلاق . وقال أبو ثور : هي تطليقة رجعيـة ولا يُسأل عن نيته . ورُوِي عن ابن مسعود أنه كان لا يرى طلاقا بائنا إلا في خُلْع أو إيلاء وهو المحفوظ عنه؛ قاله أبو عبيد . وقد ترجم البخاريّ « باب إذا قال فارقتك أو سرّحتك أو البريّة أو الخلية أو ما عُنِي به الطلاق فهو على نيته » . وهذا منه إشارة إلى قول الكوفيين والشافعيّ وإسحاق في قوله : « أو ما عُنِي به من الطلاق » والحجة في ذلك أن كلّ كلمة تحتمل أن تكون طلاقا أو غير طلاق فلا يجوز أن يلزم بهـا الطلاق إلا أن يقول المتكلّم : إنه أراد بها الطلاق فيلزمه ذلك بإقراره، ولا يجوز إبطال النكاح لأنهم قد أجمعوا على صحته بيقين . قال أبو عمـر : واختلف قول مالك في معنى قول الرجل لامرأته: اعتدّي، أو قد خلّيتك، أو حبلك على غاربك؛ فقال مرة: لا يُنوَّى فيها وهي ثلاث . وقال مرّة : يُنوَّى فيها كلّها، في المدخول بها وغير المدخول بها ؛ وبه أقول .

قلت : ما ذهب إليه الجمهور ، وما رُوِي عن مالك أنه يُنوَّى في هـذه الألفاظ ويحكم عليه بذلك هو الصحيح ؛ لمـا ذكرناه من الدليل ، وللحديث الصحيح الذي خرّجه أبو داود

وابن ماجه والدّارقطنيّ وغيرهم عن يزيد بن ركانة: أن ركانة بن عبد يزيد طلّق امرأته سُهيمة البتّة فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: "آلله ما أردتَ إلا واحدة"؟ فقال ركانة: والله ما أردتُ الا واحدة، فردّها إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن ماجه: سمعت أبا الحسن الطّنافسيّ يقول: ما أشرف هـذا الحديث! وقال مالك في الرجل يقول لامرأته: أنت عليّ كالميتة والدّم ولحم الخنزير: أراها البتّة وإن لم تكن له نيّة، فلا تحلّ إلا بعدَ زوج. وفي قول الشافعيّ: إن أراد طلاقا فهو طلاق وما أراد من عدد الطلاق؛ وإن لم يرد طلاقا فليس بشيء بعد أن يحلف. وقال أبو عمر: أصل هذا الباب في كل كناية عن الطلاق ما رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال — للتي تزوّجها حين قالت: أعوذ بالله منك —: "قد عُذتِ بمعَاذ الحقِي بأهلك". فكان ذلك طلاقا. وقال كعب ابن مالك لامرأته حين أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتزالها: الحقي بأهلك فلم يكن ذلك طلاقا؛ فدلّ على أن هذه اللفظة مفتقرة إلى النية، وأنها لا يُقضى فيها إلا بما ينوي اللافظ بها، وكذلك سائر الكنايات المحتملات للفراق وغيره. والله أعلم. وأما الألفاظ التي ليست من ألفاظ الطلاق ولا يكنى بها عن الفراق فأكثر العلماء لا يوقعون بشيء منها طلاقا وإن قصده القائل. وقال مالك: كل من أراد الطلاق بأيّ لفظ كان لزمه الطلاق، حتى بقوله: كُلي واشربي وقومي واقعدي؛ ولم يتابع مالكا على ذلك إلا أصحابُه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

فيه خمس عشرة مسألة:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ «أن» في موضع رفع بـ«يحل». والآية خطاب للأزواج، نُهوا أن يأخذوا من أزواجهم شيئا على وجه المضَارّة؛ وهذا هو الخُلع الذي لا يصح إلا بألا ينفرد الرجل بالضرر؛ وخص بالذّكر ما آتى

الأزواجُ نساءهم؛ لأن العرف من الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج من يده لها صداقا وجهازا؛ فلذلك خصّ بالذكر . وقد قيل : إن قوله « ولا يحل » فصل معترض بين قوله تعالى : « الطّلاق مرّتان » وبين قوله : « فإن طلّقها » .

الثانيـــة ــ والجمهور على أن أخذ الفدية على الطلاق جائز . وأجمعوا على تحظير أخذ مالها إلا أن يكون النُّشوز وفساد العشرة من قِبلها . وحكى ابن المنذر عن النعمان أنه قال : اذا جاء الظلم والنشوز من قِبله وخالعته فهو جائز ماض وهو آثم ، لا يحل له ما صنع ، ولا يجبر على ردّ ما أخذه . قال ابن المنذر : وهذا من قوله خلافُ ظاهرِ كتاب الله ، وخلافُ الخبر الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلافُ ما أجمع عليه عامة أهل العلم من ذلك ؛ ولا أحسب أن لو قيل لأحد : اجهد نفسك في طلب الخطأ ما وجد أمرا أعظم من أن ينطق الكتاب بتحريم شيء ثم يقابله مُقابل بالخلاف نصًّا ؛ فيقول : بل يجوز ذلك ، ولا يجبر على ردّ ما أخذ . قال أبو الحسن بن بطّال : وروى ابن القاسم عن مالك مثله . وهذا القول خلافُ ظاهرِ كتاب الله تعالى ، وخلافُ حديث امرأة ثابت ، وسيأتي .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ حرّم الله تعالى في هذه الآية ألا يأخذ إلا بعد الخوف ألّا يقيما حدود الله . وأكّد التحريم بالوعيد لمن تعدّى الحدّ . والمعنى أن يظن كلّ واحد منهما بنفسه ألّا يقيم حق النكاح لصاحبه حسب ما يجب عليه فيه لكراهة يعتقدها ؛ فلا حرج على المرأة أن تفتدي ، ولا حرج على الزوج أن يأخذ . والخطاب للزوجين . والضمير في « أن يخافا » لهما ، و « ألا يقيما » مفعول به . و « خفت » يتعدّى الى مفعول واحد . ثم قيل : هذا الخوف هو بمعنى العلم ، أي أن يعلما ألا يقيما حدود الله ، وهو من الخوف الحقيقي ، وهو الإشفاق من وقوع المكروه ، وهو قريب من معنى الظن . ثم قيل : « إلا أن يخافا » استثناء منقطع ، أي لكن إن كان منهن نشوز فلا جناح عليكم في أخذ الفدية . وقرأ حمزة « إلا أن يُخافا » بضم الياء على ما لم يسمّ فاعله . والفاعل محذوف وهو الولاة والحكام ؛ واختاره أبو عبيد . قال : لقوله عزّ وجلّ « فإن خفتم »

قال : يجعل الخوف لغير الزوجين، ولو أراد الزوجين لقال : «فإن خافا» ، وفى هذا حجة لمن جعل الخلع الى السلطان .

قلت : وهو قول سعيد بن جُبير والحسن وابن سيرين . وقال شُعبة : قلت لقَتَادة : عمن أخذ الحسنُ الخلعَ الى السلطان؟ قال : عن زياد، وكان واليا لعمر وعلي . قال النحاس : وهذا معروف عن زياد، ولا معنى لهذا القول لأن الرجل إذا خالع امرأته فإنما هو على ما يتراضيان به، ولا يجبره السلطان على ذلك، ولا معنى لقول من قال : هذا إلى السلطان . وقد أُنكر اختيار أبي عبيد ورُدّ ، وما علمت فى اختياره شيئا أبعد من هذا الحرف ، لأنه لا يوجبه الإعراب ولا اللفظ ولا المعنى. أما الإعراب فإن عبد الله بن مسعود قرأ «إلا أن يخافا» تخافوا؛ فهذا فى العربية إذا رُدّ إلى ما لم يسم فاعله قيل : إلا أن يُخاف. وأما اللفظ فإن كان على لفظ «يخافا» وجب أن يقال : فإن خيف . وإن كان على لفظ «فإن خفتم» وجب أن يقال : إلا أن تخافوا . وأما المعنى فإنه يبعد أن يقال : لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا، إلا أن يخاف غيركم ولم يقل جلّ وعزّ : فلا جناح عليكم أن تأخذوا له منها فدية؛ فيكون الخلع إلى السلطان . قال الطحاوي : وقد صحّ عن عمر وعثمان وابن عمر جوازه دون السلطان ؛ وكما جاز الطلاق والنكاح دون السلطان فكذلك الخلع؛ وهو قول الجمهور من العلماء .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا ﴾ أى على أن لا يقيما . ﴿ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى فيما يجب عليهما من حسن الصحبة وجميل العشرة . والمخاطبةُ للحُكّام والمتوسّطين لمثل هذا الأمر وإن لم يكن حاكما . وتركُ إقامة حدود الله هو استخفاف المرأة بحق زوجها ، وسوءُ طاعتها إياه ؛ قاله ابن عباس ومالكُ بن أنس وجمهورُ الفقهاء . وقال الحسن بن أبي الحسن وقوم معه : إذا قالت المرأة لا أطيع لك أمرا ، ولا أغتسل لك من جنابة ، ولا أبرّ لك قَسَمًا، حلّ الخلع . وقال الشعبي : «ألا يقيما حدود الله» ألا يطيعا الله، وذلك أن المغاضبة تدعو الى ترك الطاعة . وقال عطاء بن أبي رباح : يُحلّ الخلعَ والأخذَ أن تقول

المرأة لزوجها : إنى أكرهك ولا أحبك ، ونحو هذا ﴿ فلا جناح عليهما فيما آفتدت به ﴾ . روى البخارى من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، ثابتُ بن قيس ما أعتب عليه فى خُلُق ولا دين ولكن لا أطيقه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتردّين عليه حديقته" ؟ قالت : نعم . وأخرجه ابن ماجه عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أن جميلة بنت سَلول أتت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : والله ما أعيب على ثابت فى دين ولا خُلُق ولكنى أكره الكفر فى الإسلام، لا أُطيقه بُغْضًا ! فقال لها النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أتردّين عليه حديقته"؟ قالت : نعم . فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد . فيقال : إنها كانت تُبغضه أشدّ البغض ، وكان يحبها أشدّ الحب ؛ ففرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما بطريق الخلع؛ فكان أوّل خلع فى الإسلام . روى عكرمة عن ابن عباس قال : أول من خالع فى الإسلام أختُ عبد الله بن أُبَىّ ، أتت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله، لا يجتمع رأسى ورأسُه أبدا ، إنى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدّة إذ هو أشدّهم سوادا وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجها ! فقال : "أتردّين عليه حديقته"؟ قالت : نعم، وإن شاء زدته؛ ففرّق بينهما . وهذا الحديث أصل فى الخلع، وعليه جمهور الفقهاء . قال مالك : لم أزل أسمع ذلك من أهل العلم، وهو الأمر المجتمع عليه عندنا، وهو أن الرجل إذا لم يضرّ بالمرأة ولم يسئ إليها ، ولم تُؤتَ من قِبَله ، وأحبّت فراقه فإنه يحلّ له أن يأخذ منها كلّ ما آفتدت به؛ كما فعل النبىّ صلى الله عليه وسلم فى آمرأة ثابت . وإن كان النشوز من قبله بأن يضيّق عليها ويضرّها ردّ عليها ما أخذ منها . وقال عقبة بن أبى الصَّهباء : سألت بكر بن عبد الله المزنىّ عن الرجل تريد آمرأته أن تخالعه فقال : لا يحلّ له أن يأخذ منها شيئا . قلت : فأين قولُ الله عز وجل فى كتابه « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما آفتدت به»؟ قال : نسخت . قلت : فأين جُعلت؟ قال : فى سورة « النساء » : « وَإِنْ أَرَدْتُمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ

قِنطارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا » . قال النحاس : هذا قول شاذٌّ، خارجٌ عن الإجماع لشذوذه؛ وليست إحدى الآيتين دافعةً للأخرى فيقع النسخ؛ لأن قوله « فإن خفتم » الآية ؛ ليست بمنزلة تلك الآية ؛ لأنهما إذا خافا هذا لم يدخل الزوج في « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » لأن هذا للرجال خاصّة . وقال الطبري : الآية مُحْكَمة، ولا معنى لقول بكر : إن أرادت هي العطاء فقد جوّز النبيّ صلى الله عليه وسلم لثابت أن يأخذ من زوجته ما ساق إليها .

الخامســة ــ تمسّك بهذه الآية من رأى اختصاص الخلع بحالة الشقاق والضرر، وأنه شَرْط في الخلع ، وعَضَد هذا بما رواه أبو داود عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت عند ثابت بن قيس بن شمّاس فضربها فكسر نُغْضَها(1) ؛ فأتت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد الصبح فاشتكت إليه؛ فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم ثابتا فقال: "خذ بعض مالها وفارقها". قال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال : "نعم" . قال : فإني أصدقتها حديقتين وهما بيدها(2)؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "خذهما وفارقها" فأخذهما وفارقها . والذي عليه الجمهور من الفقهاء أنه يجوز الخلع من غير اشتكاء ضرر؛ كما دلّ عليه حديث البخاري وغيره. وأما الآية فلا حجة فيها؛ لأن الله عز وجل لم يذكرها على جهة الشرط ، وإنما ذكرها لأنه الغالب من أحوال الخلع؛ فخرّج القول على الغالب ؛ والذي يقطع العذر ويوجب العلم قولُه تعالى : « فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » .

السادســة ــ لما قال الله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ » دلّ على جواز الخلع بأكثر مما أعطاها . وقد اختلف العلماء في هذا؛ فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وأبو ثور : يجوز أن تفتدي منه بما تراضيا عليه ، كان أقل مما أعطاها أو أكثر منه . ورُوي

---

(1) في الأصول : «بعضها» . والتصويب عن سنن أبي داود . والنغض (بضم النون وفتحها وسكون الغين) : أعلى الكتف؛ وقيل : هو العظم الرقيق الذي على طرفه .

(2) في الأصول : «مع ما بيدها» والتصويب عن سنن أبي داود .

هذا عن عثمان بن عفان وابن عمر وقَبيصة والنخعيّ . واحتج قبيصة بقوله : «فَلَا جُنَاحَ عليهما فيما ٱفْتَدَتْ به » . وقال مالك : ليس من مكارم الأخلاق ولم أر أحدا من أهل العلم يكره ذلك . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ أنه قال : كانت أختي تحت رجل من الأنصار تزوّجها على حديقة، فكان بينهما كلام، فارتفعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "تردّين عليه حديقته ويطلّقك"؟ قالت : نعم، وأزيده . قال : "رُدِّي عليه حديقته وزيديه" . وفي حديث ابن عباس «وإن شاء زدته ولم ينكر» . وقالت طائفة : لا يأخذ منها أكثر مما أعطاها؛ كذلك قال طاوس وعطاء والأوزاعيّ ؛ قال الأوزاعيّ : كان القضاة لا يُجيزون أن يأخذ إلا ما ساق إليها؛ وبه قال أحمد وإسحاق. وٱحتجّوا بما رواه ابن جُريج: أخبرني أبو الزبير أن ثابت بن قيس بن شمّاس كانت عنده زينب بنت عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُول، وكان أصدقها حديقة فكرهته؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أما الزيادة فلا ولكن حديقته" ، فقالت : نعم . فأخذها وخلّى سبيلها. فلما بلغ ذلك ثابتَ بن قيس قال : قد قبلت قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ سمعه أبو الزبير من غير واحد؛ أخرجه الدّارقطنيّ . ورُوي عن عطاء مرسلا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاها " .

السابعة — الخلع عند مالك رضي الله عنه على ثمرة لم يبدُ صلاحُها وعلى جمل شارد أو عبد آبق أو جنين في بطن أمّه أو نحو ذلك من وجوه الغَرَر جائز؛ بخلاف البيوع والنكاح. وله المطالبة بذلك كلّه؛ فإن سلِم كان له، وإن لم يسلم فلا شيء له . والطلاق نافذ على حكمه. وقال الشافعيّ : الخلع جائز وله مهر مثلها ؛ وحكاه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك قال : لأن عقود المعاوَضات إذا تضمّنت بدلا فاسدا وفاتت رُجع فيها الى الواجب في أمثالها من البدل. وقال أبو ثور : الخُلْع باطل. وقال أصحاب الرأي : الخلع جائز ؛ وله ما في بطن الأَمَة، وإن لم يكن فيه ولد فلا شيء له . وقال في « المبسوط » عن ابن القاسم : يجوز بما يثمره نخلُه العامَ، وما تلد غنمه العامَ خلافا لأبي حنيفة والشافعيّ ؛ والحجة لما ذهب إليه مالك

وابن القاسم عمومُ قوله تعالى : «فَلَا جُنَاحَ عليهما فيما ٱفتدتْ به» . ومن جهة القياس أنه مما يُملك بالهبة والوصية ؛ فجاز أن يكون عِوَضًا في الخلع كالمعلوم ؛ وأيضا فإن الخلع طلاق ، والطلاق يصح بغير عِوَض أصلا ؛ فإن صحّ على غير شيء فلأَنْ يَصحّ بفاسد العِوَض أَوْلَى ؛ لأن أسوأحالِ المبذول أن يكون كالمسكوت عنه . ولمّا كان النكاح الذي هو عقدُ تحليل لا يفسده فاسدُ العِوض فلأَن لا يَفسُدَ الطلاق الذي هو إتلافٌ وحلّ عقدٍ أَوْلى .

الثامنة ــ ولو اختلعت منه برضاع ٱبنها منه حولين جاز . وفي الخلع بنفقتها على ٱلابن بعد الحولين مدّةً معلومةً قولان : أحدهما ــ يجوز؛ وهو قول المخزوميّ، واختاره سُحْنون . والثاني ــ لا يجوز؛ رواه ابن القاسم عن مالك، وإن شرطه الزوج فهو باطل موضوع عن الزوجة . قال أبو عمر : من أجاز الخلع على الجمل الشارد والعبد الآبق ونحو ذلك من الغَرَر لزمه أن يجوّز هذا . وقال غيره من القَرَويّين : لم يمنع مالك الخلعَ بنفقةِ ما زاد على الحولين لأجل الغَرَر ، وإنما منعه لأنه حقّ يختصّ بالأب على كل حال فليس له أن ينقله إلى غيره؛ والفرق بين هذا وبين نفقة الحولين أن تلك النفقة وهي الرضاع قد تجب على الأمّ حال الزوجية وبعد الطلاق إذا أعسر الأب ؛ فجاز أن تُنقل هذه النفقةُ إلى الأمّ ؛ لأنها محلٌّ لها . وقد احتج مالك في « المبسوط » على هذا بقوله تعالى : « وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » .

التاسعة ــ فإن وقع الخلع على الوجه المباح بنفقة الابن فمات الصبيّ قبل انقضاء المدّة فهل للزوج الرجوعُ عليها ببقيّة النفقة؛ فروى ابنُ المَوّاز عن مالك : لا يتبعها بشيء . وروى عنه أبو الفرج : يتبعها ؛ لأنه حق ثبت له في ذمّة الزوجة بالخُلع فلا يسقط بموت الصبيّ؛ كما لو خالعها بمال متعلّق بذمّتها . ووجه الأوّل أنه لم يشترط لنفسه مالا يتموّله ، وإنما اشترط كفايةَ مُؤْنةِ ولده؛ فإذا مات الولد لم يكن له الرجوع عليها بشيء؛ كما لو تطوّع رجل بالإنفاق على صبيّ سنةً فمات الصبيّ لم يُرجع عليه بشيء ؛ لأنه إنما قصد بتطوّعه تحمّل مؤنته . والله أعلم . قال مالك : لم أر أحدا يتبع بمثل هذا؛ ولو ٱتبعه لكان له في ذلك قول.

واتفقوا على أنها إن ماتت فنفقة الولد فى مالها ؛ لأنه حق ثبت فيه قبل موتها فلا يسقط بموتها .

العاشرة — ومن اشترط على امرأته فى الخلع نفقة حملها وهى لا شىء لها فعليه النفقة إذا لم يكن لها مال تُنفق منه ؛ وإن أيسرت بعد ذلك اتبعها بما أنفق وأخذه منها . قال مالك : ومن الحقّ أن يكلَّف الرجل نفقةَ ولده وإن اشترط على أُمّه نفقته إذا لم يكن لها ما تنفق عليه .

الحادية عشرة — واختلف العلماء فى الخلع هل هو طلاق أو فسخ ؛ فرُوى عن عثمان وعلىّ وابن مسعود وجماعة من التابعين : هو طلاق ؛ وبه قال مالك والثورىّ والأوزاعىّ وأبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ فى أحد قوليه . فمن نوى بالخلع تطليقتين أو ثلاثا لزمه ذلك عند مالك . وقال أصحاب الرأى : إن نوى الزوج ثلاثا كان ثلاثا ، وإن نوى ثنتين فهو واحدة بائنة . وقال الشافعىّ فى أحد قوليه : إن نوى بالخلع طلاقا وسمّاه فهو طلاق ، وإن لم ينو طلاقا ولا سمّى لم تقع فرقة ؛ قاله فى القديم . وقوله الأول أحبّ إلىّ . المزنىّ : وهو الأصح عندهم . وقال أبو ثور : إذا لم يُسمّ الطلاق فالخلع فرقة وليس بطلاق ، وإن سمّى تطليقة فهى تطليقة ؛ والزوج أملك برجعتها مادامت فى العدّة . وممن قال : إن الخلع فسخ وليس بطلاق إلا أن ينويه ابنُ عباس وطاوس وعكرمة وإسحاق وأحمد . واحتجّوا بالحديث عن ابن عُيينة عن عمرو عن طاوس عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن أبى وقّاص سأله : رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها ؟ قال : نعم لينكحها ، ليس الخلع بطلاق ؛ ذكر الله عزّ وجلّ الطلاق فى أوّل الآية وآخرها ، والخلع فيما بين ذلك ؛ فليس الخلع بشىء . ثم قال : «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» . ثم قرأ «فإنْ طَلَّقها فلا تحِلّ له من بعدُ حتى تَنكح زوجا غيره» . قالوا . ولأنه لو كان طلاقا لكان بعد ذكر الطلقتين ثالثا ، وكان قوله : «فإن طلقها» بعد ذلك دالا على الطلاق الرابع ؛ فكان يكون التحريم متعلقا بأربع تطليقات . واحتجّوا أيضا بما رواه الترمذىّ وأبو داود والدّارَقُطْنِىّ عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس

اختلعت من زوجها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعتدّ بحيضة . قال الترمذىّ : حديث حسن غريب . وعن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذ بن عفراء أنها اختلعت على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم فأمرها النبىّ صلى الله عليه وسلم أو أُمرت أن تعتدّ بحيضة. قال الترمذىّ : حديث الرُّبيِّع الصحيحُ أنها أُمرت أن تعتدّ بحيضة . قالوا : فهذا يدلّ على أن الخلع فسخ لا طلاق ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « والمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ » ولو كانت هذه مطلَّقة لم يُقتصر بها على قُرءٍ واحد .

قلت : فمن طلّق امرأته تطليقتين ثم خالعها ثم أراد أن يتزوّجها فله ذلك ـــ كما قال ابن عباس ـــ وإن لم تنكح زوجا غيره ؛ لأنه ليس له غير تطليقتين والخلع لَغْوٌ . ومن جعل الخلع طلاقا قال : لم يجز أن يرتجعها حتى تنكح زوجا غيره ؛ لأنه بالخلع كَمُلَت الثّلاث ؛ وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . قال القاضى إسماعيل بن إسحاق : كيف يجوز القول فى رجل قالت له امرأته : طلِّقنى على مالٍ فطلقها إنه لا يكون طلاقا، وهو لو جعل أمرها بيدها من غير شىء فطلّقت نفسها كان طلاقا ! . وأما قوله تعالى : «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره» فهو معطوف على قوله تعالى : «الطلاق مرّتان» ؛ لأن قوله : « أو تسريح بإحسان » إنما يُعنَى به أو تطليق . فلو كان الخلع معطوفا على التطليقتين لكان لا يجوز الخلع أصلا إلا بعد تطليقتين وهذا لا يقوله أحد . وقال غيره : ما تأوّلوه فى الآية غلط فإن قوله : « الطلاق مرتان » أفاد حكم الاثنتين إذا أوقعهما على غير وجه الخلع ، وأثبت معهما الرجعة بقوله : « فإمساك بمعروف » ثم ذكر حكمهما إذا كان على وجه الخلع فعاد الخلع إلى الثنتين المتقدّم ذكرهما، إذ المراد بذلك بيانُ الطلاق المُطْلَق والطلاقِ بعوضٍ، والطلاق الثالث بعوض كان أو بغير عوض فإنه يقطع الحلّ إلا بعد زوج .

قلت : هذا الجواب عن الآية ، وأما الحديث فقال أبو داود ـــ لما ذكر حديث ابن عباس فى الحيضة ـــ : هذا الحديث رواه عبد الرزاق عن مَعمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرسلا . وحدّثنا القَعْنَبىّ عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال : عدّةُ المختلعة عدة المطلّقة . قال أبو داود : والعمل عندنا على هذا .

قلت : وهو مذهب مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق والثوريّ وأهل الكوفة . قال الترمذيّ : وأكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

قلت : وحديث ابن عباس فى الحيضة مع غرابته كما ذكره الترمذيّ، وإرساله كما ذكر أبو داود فقد قيل فيه : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم جعل عدّتها حيضة ونصفا ؛ أخرجه الدّارَقُطْنِى من حديث معمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس: ان امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها بجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم عدّتها حيضة ونصفا . والراوى عن معمر هنا فى الحيضة والنصف هو الراوى عنه فى الحيضة الواحدة، وهو هشام بن يوسف أبو عبد الرحمن الصنعانى اليمانى ؛ خرّج له البخارى وحده . فالحديث مضطرب من جهة الإسناد والمتن ، فسقط الاحتجاج به فى أن الخلع فسخ، وفى أن عدة المطلقة حيضة ؛ وبقى قوله تعالى : « والمُطلَّقاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهن ثلاثة قروء » نصًّا فى كل مطلقة مدخولٍ بها كما تقدّم. قال الترمذيّ : «وقال بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم: عدة المختلعة حيضة، قال إسحاق: وإن ذهب ذاهب الى هذا فهو مذهبٌ قوىّ» . قال ابن المنذر: قال عثمان بن عفان وابن عمر : عدّتها حيضة ؛ وبه قال أبان بن عثمان وإسحاق ، وقال علىّ بن أبى طالب : عدّتها عدّة المطلّقة . وبقول عثمان وابن عمر أقول ، ولا يثبت حديث علىّ .

قلت : قد ذكرنا عن ابن عمر أنه قال : عدّة المختلعة عدّة المطلقة ، وهو صحيح .

الثانية عشرة — واختلف قول مالك فيمن قصد إيقاع الخلع على غير عوض؛ فقال عبد الوهاب: هو خلع عند مالك، وكان الطلاق بائنا . وقيل عنه : لا يكون بائنا إلا بوجود العوض؛ قاله أشهب والشافعيّ؛ لأنه طلاق عَرِىَ عن عوض واستيفاء عدد فكان رجعيًّا كما لو كان بلفظ الطلاق . قال ابن عبد البر : وهذا أصح قوليه عندى وعند أهل العلم فى النظر . ووجه الأوّل أن عدم حصول العوض فى الخلع لا يخرجه عن مقتضاه؛ أصل ذلك إذا خالع بخمر أوخنزير .

الثالثة عشرة — المختلعة هى التى تختلع من كلّ الذى لها . والمفتدية أن تفتدىَ ببعضه وتأخذ بعضه . والمبارئة هى التى بارأت زوجها من قبل أن يدخل بها فتقول : قد أبرأتك

فبارِئنى ؛ هـذا قول مالك . وروى عيسى بن دينـار عن مالك : المبارِئة هى التى لا تأخذ شيئا ولا تُعطِى . والمختلعة هى التى تعطِى ما أعطاها وتزيد من مالها . والمفتدية هى التى تفتدى ببعض ما أعطاها وتمسك بعضه ؛ وهذا كله يكون قبل الدخول وبعده ؛ فما كان قبل الدخول فلا عِدّة فيه . والمصالِحة مثل المبارِئة . قال القاضى أبو محمد وغيره : هذه الألفاظ الأربعة تعود إلى معنًى واحد وإن اختلفت صفاتها من جهة الإيقاع ، وهى طلقة بائنة سمّاها أو لم يُسمّها؛ لا رجعة له فى العدّة ، وله نكاحها فى العدّة وبعدها برضاها بولىّ وصداق قبل زوج وبعـده ؛ خلافا لأبى ثور ؛ لأنها إنما أعطته العِوض لتملك نفسها . ولو كان طلاق الخلع رجعيًّا لم تملك نفسها ؛ فكان يجتمع للزوج العِوض والمعوّض عنه .

الرابعة عشرة — وهـذا مع إطلاق العقد نافذ؛ فلو بذلت له العِوض وشرط الرّجعة ؛ ففيهـا روايتان رواهما ابن وهب عن مالك : إحداهما ثبوتها؛ وبهـا قال سُحنون . والأخرى نفيها . قال سحنون : وجه الرواية الأولى أنهما قد اتفقا على أن يكون العوض فى مقابلة ما يسقط من عدد الطلاق ، وهـذا جائز . ووجه الرواية الثانية أنه شرط فى العقـد ما يمنع المقصود منه فلم يثبت ذلك ؛ كما لو شرط فى عقد النكاح أنى لا أطأ .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ لما بيّن تعالى أحكام النكاح والفراق قال : « تِلك حدودُ الله » التى أمرت بامتثالهـا ؛ كما بيّن تحريمات الصـوم فى آية أخرى فقال : « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا » فقسّم الحدود قسمين ؛ منهـا حدود الأمر بالامتثال ، وحدود النهى بالاجتناب ؛ ثم أخبر تعـالى فقال : « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

قوله تعـالى : فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْـدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ فيه إحدى عشرة مسـألة :

الأولى — احتج بعض مشايخ خراسان من الحنفية بهذه الآية على أن المختلعة يلحقها الطلاق ؛ قالوا : فشرع الله سبحانه صريحَ الطلاق بعد المفاداة بالطلاق ؛ لأن الفاء حرف تعقيب ؛ فيبعد أن يرجع إلى قوله : « الطّلاق مرّتان» لأن الذى تخلّل من الكلام يمنع بناء قوله «فإن طلّقها» على قوله «الطلاق مرتان» بل الأقرب عوده على ما يليه كما فى الاستثناء ، ولا يعود إلى ما تقدمه إلا بدلالة ؛ كما أن قوله تعالى : «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » فصار مقصورا على ما يليه غير عائد على ما تقدمه حتى لا يشترط الدخول فى أمّهات النساء .

وقد اختلف العلماء فى الطلاق بعد الخلع فى العدّة ؛ فقالت طائفة : إذا خالع الرجل زوجته ثم طلقها وهى فى العدّة لحقها الطلاق ما دامت فى العدّة ؛ كذلك قال سعيد بن المسيّب وشُريح وطاوس والنّخعىّ والزّهرىّ والحكم وحمّاد والثّورىّ وأصحاب الرأى . وفيه قول ثان وهو أن الطلاق لا يلزمها ؛ وهو قول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة والحسن وجابر بن زيد والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأبى ثور ؛ وهو قول مالك إلا أن مالكا قال : إن افتدت منه على أن يطلقها ثلاثا متتابعا نَسَقًا حين طلقها فذلك ثابت عليه ، وإن كان بين ذلك صُمات فما أتبعه بعد الصمات فليس بشىء ، وإنما كان ذلك لأن نسق الكلام بعضه على بعض متصلا يوجب له حكما واحدا ، وكذلك إذا اتصل الاستثناء باليمين بالله أثّر وثبت له حكم الاستثناء ، وإذا انفصل عنه لم يكن له تعلّق بما تقدّم من الكلام .

الثانيـة — المراد بقوله تعالى : « فَإِنْ طَلَّقَهَا » الطلقةُ الثالثـةُ فلا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره . وهذا مجمع عليه لا خلاف فيه .

واختلفوا فيما يكفى من النكاح ، وما الذى يبيح التحليل ؛ فقال سعيد بن المسيّب ومن وافقه : مجرّد العقد كاف . وقال الحسن بن أبى الحسن : لا يكفى مجرّد الوطء حتى

يكون إنزال . وذهب الجمهور من العلماء والكافةُ من الفقهاء إلى أن الوطء كاف فى ذلك ، وهو ٱلتقاء الختانين الذى يوجب الحدّ والغسل ، ويفسد الصوم والحج ويُحصن الزوجين ويوجب كمال الصداق . قال ابن العربىّ : ما مرّت بى فى الفقه مسألةٌ أعسرُ منها، وذلك أن من أصول الفقه أن الحكم هل يتعلق بأوائل الأسماء أو بأواخرها؟ فإن قلنا : إن الحكم يتعلق بأوائل الأسماء لزمنا أن نقول بقول سعيد بن المسيّب . و إن قلنا: إن الحكم يتعلق بأواخر الأسماء لزمنا أن نشترط الإنزال مع مغيب الحشفة فى الإحلال ، لأنه آخر ذوق العُسَيلة على ما قاله الحسن . قال ابن المنذر : ومعنى ذوق العسيلة هو الوطء؛ وعلى هذا جماعة العلماء إلا سعيد ابن المسيِّب فقال : أما الناس فيقولون : لا تحل للأوّل حتى يجامعها الثانى ؛ وأنا أقول : اذا تزوّجها تزوّجا صحيحا لا يريد بذلك إحلالَها فلا بأس أن يتزوّجها الأوّل . وهذا قول لا نعلم أحدا وافقه عليه إلا طائفة من الخوارج ؛ والسُّنّة مستغنًى بها عما سواها .

قلت : وقد قال بقول سعيد بن المسيّب سعيدُ بن جُبير ؛ ذكره النحاس فى كتاب «معانى القرآن» له . قال : وأهل العلم على أن النكاح هاهنا الجماع؛ لأنه قال : «زوجا غيره» فقد تقدّمت الزوجية فصار النكاح الجماع؛ إلا سعيد بن جبير فإنه قال : النكاح هاهنا التزوج الصحيح اذا لم يُرد إحلالها .

قلت : وأظنهما لم يبلغهما حديثُ العُسيلة أو لم يصح عندهما فأخذا بظاهر القرآن، وهو قوله تعالى : «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» والله أعلم . روى الأئمة واللفظ للدَّارَقُطْنِىّ عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا لا تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره ويذوق كلٌّ منهما عُسيلةَ صاحبه " . قال بعض علماء الحنفيّة : مَن عقد على مذهب سعيد بن المسيِّب فللقاضى أن يفسخه ؛ ولا يعتبر فيه خلافه لأنه خارج عن إجماع العلماء . قال علماؤنا : ويفهم من قوله عليه السلام: "حتى يذوق كل منهما عُسيلة صاحبه" استواؤهما فى إدراك لذة الجماع؛ وهو حجة لأحد القولين عندنا فى أنه لو وطئها نائمة أو مُغمًى عليها لم تحلّ لمطلقها؛ لأنها لم تذق العُسيلة إذ لم تدركها .

الثالثــة — روى النّسائى عن عبد الله قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشِمة والواصــلة والمستوصِلة وآكلَ الربا ومؤكلَه والمحلِّل والمحلَّل له . وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلِّل والمحلَّل له . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقد رُوى هذا الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير وجه . والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان وعبد الله بن عمرو وغيرهم ؛ وهو قول الفقهاء من التابعين ، وبه يقول سفيان الثورى وابن المبارك والشافعيّ ومالك وأحمد وإسحاق ، وسمعت الجارود يذكر عن وكيع أنه قال بهذا ، وقال : ينبغى أن يرمى بهــذا الباب من قول أصحاب الرأى . وقال سفيان : اذا تزوّج الرجل المرأة ليحلّها ثم بدا له أن يمسكها فلا تحِلّ له حتى يتزوّجها بنكاح جديد » . —

قال أبو عمر بن عبد البر : اختلف العلماء فى نكاح المحلل ؛ فقال مالك : المحلِّل لا يقيم على نكاحه حتى يستقبل نكاحا جديدا ؛ فإن أصابها فلها مهر مثلها ، ولا تُحلّها إصابته لزوجها الأوّل ؛ وســواء علما أو لم يعلما اذا تزوّجها ليحلّها ، ولا يُقَرّ على نكاحه ويُفسخ ؛ وبه قال الثورىّ والأوزاعىّ . وفيــه قولٌ ثانٍ رُوى عن الثورىّ فى نكاح الخيار والمحلِّل أن النكاح جائز والشرط باطل ؛ وهو قول ٱبن أبى لَيْلَى فى ذلك وفى نكاح المُتعة . ورُوى عن الأوزاعىّ فى نكاح المحلِّل : بئس ما صنــع والنكاح جائز . وقال أبو حنيفــة وأبو يوسف ومحمــد : النكاح جائز إن دخل بها ، وله أن يمسكها إن شاء . وقال أبو حنيفة مرة هو وأصحابه : لا تَحِلّ للأوّل إن تزوّجها ليُحلّها . ومرّة قالوا : تَحِلّ له بهــذا النكاح اذا جامعها وطلّقها . ولم يختلفوا فى ان نكاح هــذا الزوج صحيح ، وأن له أن يقيم عليه . وفيه قول ثالث — قال الشافعىّ : اذا قال أتزوّجكِ لأحِلّكِ ثم لا نكاح بيننا بعد ذلك فهذا ضربٌ من نكاح المتعة ، وهو فاســد لا يُقَرّ عليــه ويُفسخ ؛ ولو وطئ على هــذا لم يكن تحليلا . فان تزوّجها تزوّجا مطلقا لم يشترط ولا ٱشتُرط عليــه التحليل فللشافعىّ فى ذلك قولان فى كتابه القديم : أحدهما

مثل قول مالك، والآخر مثل قول أبى حنيفة . ولم يختلف قوله فى كتابه الجديد المصرى أن النكاح صحيح اذا لم يشترط ؛ وهو قول داود .

قلت : وحكى الماوردى عن الشافعى أنه إن شُرط التحليلُ قبل العقد صح النكاح وأحلّها للأوّل، وإن شرطاه فى العقد بطل النكاح ولم يحلها للأوّل، قال : وهو قول الشافعى . وقال الحسن وإبراهيم : اذا همّ أحد الثلاثة بالتحليل فسد النكاح ؛ وهذا تشديد . وقال سالم والقاسم : لا بأس أن يتزوّجها ليُحلها إذا لم يعلم الزوجان وهو مأجور ؛ وبه قال ربيعة ويحيى بن سعيد، وقاله داود بن علىّ اذا لم يُظهر ذلك فى اشتراطه فى حين العقد .

الرابعة ـــ مدار جواز نكاح التحليل عند علمائنا على الزوج الناكح ، وسواء شرط ذلك أو نواه ؛ ومتى كان شىء من ذلك فسد نكاحه ولم يُقَرّ عليه ، ولم يُحلّل وطؤه المرأة لزوجها . وعلمُ الزوج المطلّق وجهلُه فى ذلك سواء . وقد قيل : إنه ينبغى له اذا علم أن الناكح لها لذلك تزوّجها أن يتنزّه عن مراجعتها ، ولا يُحلها عند مالك إلا نكاحُ رغبة لحاجته اليها ، ولا يُقصد به التحليل، ويكون وطؤه لها وطأ مباحا ، لا تكون صائمة ولا مُحرِمة ولا فى حيضتها، ويكون الزوج بالغا مسلما . وقال الشافعى : اذا أصابها بنكاح صحيح وغيّب الحَشَفة فى فرجها فقد ذاقا العُسيلة ؛ وسواء فى ذلك قوىّ النكاح وضعيفُه ، وسواء أدخله بيده أم بيدها ؛ وكان من صبىّ أو مراهق أو مجبوب بقى له ما يُغيّبه كما يُغيب غير الخصىّ . وسواء أصابها الزوج مُحرِمة أو صائمة؛ وهذا كلّه ـــ على ما وصف الشافعى ـــ قولُ أبى حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى والحسن بن صالح، وقول بعض أصحاب مالك .

الخامسة ـــ قال ابن حبيب : وإن تزوّجها فإن أعجبته أمسكها، وإلا كان قد احتسب فى تحليلها الأجر لم يجز؛ لما خالط نكاحه من نية التحليل ، ولا تحلّ بذلك للأوّل .

السادسة ـــ وطء السيّد لأَمَته التى قد بَتّ زوجُها طلاقَها لا يُحلّها؛ إذ ليس بزوج؛ رُوى عن علىّ بن أبى طالب ، وهو قول عبيدة ومسروق والشعبى وإبراهيم وجابر بن زيد وسليمان بن يسار وحماد بن أبى سليمان وأبى الزناد؛ وعليه جماعة فقهاء الأمصار . ويُروى عن

عثمان وزيد بن ثابت والزبير خلافُ ذلك ، وأنه يُحلها إذا غشيها سيِّدها غِشيانا لا يريد بذلك مخادعة ولا إحلالا، وترجع إلى زوجها بخطبة وصداق . والقول الأوّل أصح ؛ لقوله تعالى : «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» والسيِّد إنما تسلط بملك اليمين وهذا واضح .

السابعــة — فى موطأ مالك أنه بلغه أن سعيد بن المسيِّب وسليمان بن يسار سُئلا عن رجل زوّج عبدا له جارية له فطلّقها العبد البَتّة ثم وهبها سيِّدها له هل تحل له بملك اليمين؟ فقالا : لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره .

الثامنــة — رُوى عن مالك أنه سأل ٱبن شهاب عن رجل كانت تحته أَمة مملوكة فاشتراها وقد كان طلقها واحدة؛ فقال : تَحِلّ له بملك يمينه ما لم يَبُتّ طلاقها ؛ فإن بَتّ طلاقها فلا تحل له بملك يمينه حتى تنكح زوجا غيره . قال أبو عمر : وعلى هذا جماعة العلماء وأئمة الفتوى : مالكٌ والثورىّ والأوزاعىّ والشافعىّ وأبو حنيفة وأحمد و إسحاق وأبو ثور. وكان ابن عباس وعطاء وطاوس والحسن يقولون : إذا اشتراها الذى بَتّ طلاقها حلّت له بملك اليمين؛ على عموم قوله عز وجل : «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» . قال أبو عمر : وهذا خطأ من القول؛ لأن قوله عز وجل : « أو ما ملكت أيمانكم » لا يبيح الأمهات ولا الأخوات، فكذلك سائر المحرّمات .

التاسعــة — إذا طلق المسلم زوجته الذّمّيّة ثلاثا فنكحها ذِمّىّ ودخل بها ثم طلقها؛ فقالت طائفة: الذّمّىّ زوج لها، ولها أن ترجع إلى الأوّل؛ هكذا قال الحسن وسفيان والثورىّ (١) والشافعىّ وأبو عبيد وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : وكذلك نقول؛ لأن الله تعالى قال : « حتى تنكح زوجا غيره » والنصرانىّ زوج . وقال مالك وربيعة : لا يحلّها .

العاشرة — النكاح الفاسد لا يُحِلّ المطلقة ثلاثا فى قول الجمهور : مالكٍ والثورىّ والشافعى والأوزاعىّ وأصحاب الرأى وأحمد و إسحاق وأبى عبيد؛ كلهم يقولون : لا تحل للزوج الأوّل إلا بنكاح صحيح؛ وكان الحكم يقول : هو زوج . قال ابن المنذر : ليس بزوج،

(١) فى بعض الأصول : « ... وسفيان الثورى بدون واو العطف »

لأن أحكام الأزواج فى الظّهار والإيلاء واللّعان غير ثابتة بينهما . وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم أن المرأة اذا قالت للزوج الأوّل : قد تزوّجتُ ودخل عليّ زوجى وصدّقها أنها تحلّ للأوّل . قال الشافعيّ : والورع ألّا يفعل إذا وقع فى نفسه أنها كذبته .

الحادية عشرة — جاء عن عمر بن الخطاب فى هذا الباب تغليظ شديد وهو قوله : لا أوتَى بمحلِّل ولا محلَّل له إلا رجمتهما . وقال أبو عمر : التحليل سفاح؛ لا يزالان زانيين ولو أقاما عشرين سنة . قال أبو عمر : لا يحتمل قول عمر إلا التغليظ؛ لأنه قد صح عنه أنه وضع الحدّ عن الواطئ فرجًا حراما قد جهل تحريمه وعذره بالجهالة ؛ فالتأويل أولى بذلك، ولا خلاف أنه لا رجم عليه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ يريد المتزوّج الثانى . ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أى المرأة والزّوج الأوّل ؛ قاله ابن عباس ، ولا خلاف فيه . قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الحرّ إذا طلّق زوجته ثلاثا ثم انقضت عدّتها ونكحت زوجا آخر ودخل بها ثم فارقها وانقضت عدّتها ثم نكحها الأوّل أنها تكون عنده على ثلاث تطليقات .

واختلفوا فى الرجل يطلّق امرأته تطليقة أو تطليقتين ثم تتزوّج غيره ثم ترجع إلى زوجها الأوّل؛ فقالت طائفة : تكون على ما بقى من طلاقها؛ وكذلك قال الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : عمرُ بن الخطاب وعليّ بن أبى طالب وأُبَيّ بن كعب وعمران بن حصين وأبو هريرة . ورُوِى ذلك عن زيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمرو بن العاص، وبه قال عَبِيدة السّلمانى وسعيد بن المسيّب والحسن البصريّ ومالك وسفيان الثوريّ وابنُ أبى ليلى والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور ومحمد بن الحسن وابن نصر . وفيه قول ثان وهو أن النكاح جديد والطلاق جديد؛ هذا قول ابن عمر وابن عباس،

و به قال عَطاء والنّخعيّ وشُريح والنعمان و يعقوب . وذكر أبو بكر بن أبي شَيْبة قال : حدّثنا أبو معاوية ووَكيع عن الأعمش عن ابراهيم قال : كان أصحاب عبد الله يقولون : أيَهدِم الزّوجُ الثلاث، ولا يَهدِم الواحدة والاثنتين! . قال: وحدثنا حَفْص عن حجّاج عن طلحة عن إبراهيم أن أصحاب عبد الله كانوا يقولون : يَهدِم الزوج الواحدةَ والاثنتين كما يهدم الثلاث؛ إلا عَبيدة فانه قال : هي على ما بقي من طلاقها؛ ذكره أبو عمر . قال ابن المنذر : وبالقول الأوّل أقول . وفيه قول ثالث وهو : إن كان دخل بها الأخيرُ فطلاقٌ جديد ونكاحٌ جديد ، وإن لم يكن دخل بها فعلى ما بقي؛ هذا قول إبراهيم النخعيّ .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ﴾ شرط . قال طاوس : إن ظنّا أن كل واحد منهما يُحسن عشرة صاحبه . وقيل : حدود الله فرائضــه؛ أي إذا علما أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثاني . فمتى علم الزوج أنه يَعجز عن نفقة زوجته أو صداقها أو شيء من حقوقها الواجبة عليه فلا يحلّ له أن يتزوّجها حتى يُبيِّن لها، أو يعلم من نفسه القدرة على أداء حقوقها . وكذلك لو كانت به عِلّة تمنعه من الاستمتاع كان عليــه أن يبيّن؛ كيلا يغرّ المرأة من نفسه . وكذلك لا يجوز أن يَغرّها بنَسَب يدّعيــه ولا مال ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها . وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج، أو كان بها علّةٌ تمنع الاستمتاع من جنون أو جُذام أو بَرَص أو داء في الفرج لم يجز لها أن تَغُرّه ، وعليها أن تبيّن له ما بها من ذلك ؛ كما يجب على بائع السّلعة أن يبيّن ما بسلعته من العيوب . ومتى وجد أحدُ الزوجين بصاحبه عيبا فله الرّدّ؛ فإن كان العيب بالرجل فلها الصداق إن كان دخل بها، وإن لم يدخل بها فلها نصفه . وإن كان العيب بالمرأة ردّها الزوج وأخذ ما كان أعطاها من الصداق. وقد رُوي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تزوّج آمرأة من بني بَيَاضة فوجد بكَشْحها بَرَصًا فردّها وقال : "دَلّستم عليّ" .

واختلفت الرواية عن مالك فى امرأة العِنّين إذا سلّمت نفسها ثم فُرّق بينهما بالعُنّة، فقال مرّة : لها جميع الصداق . وقال مرّة : لها نصف الصداق ، وهذا ينبنى على اختلاف قوله : بِمَ تَستحِقّ الصداق بالتسليم أو بالدخول؟ قولان .

الثالثة ــ قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : واختلف أصحابنا هل على الزوجة خدمة أو لا ؟ فقال بعض أصحابنا : ليس على الزّوجة خدمة، وذلك أن العقد يتناول الاستمتاع لا الخدمة، ألا ترى أنه ليس بعقد إجارة ولا تملّك رقبة و إنما هو عقد على الاستمتاع ، والمستحق بالعقد هو الاستمتاع دون غيره ؛ فلا تطالب بأكثر منه ؛ ألا ترى الى قوله تعالى : « فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً » . وقال بعض أصحابنا : عليها خدمة مثلها، فإن كانت شريفةَ المحل ليسار أبوّة أو تَرَفُّه فعليها التدبير للنزل وأمر الخادم . و إن كانت متوسطة الحال فعليها أن تفرش الفراش ونحو ذلك . و إن كانت دون ذلك فعليها أن تَقُمّ البيت وتطبُخ وتغسل . و إن كانت من نساء الكُرْد والدَّيْلم والجبل فى بلدهن كُلّفت ما يكلفه نساؤهم ؛ وذلك أن الله تعالى قال : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » . وقد جرى عُرف المسلمين فى بلدانهم فى قديم الأمر وحديثه بما ذكرنا؛ ألا ترى أن أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يتكلّفون الطحين والخبيز والطبيخ وفرش الفراش وتقريب الطعام وأشباه ذلك، ولا نعلم امرأة امتنعت من ذلك، ولا يسوغ لها الامتناع، بل كانوا يضربون نساءهم إذا قصّرن فى ذلك، ويأخذونهن بالخدمة؛ فلولا أنها مستَحقّة لما طالبوهنّ .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ حدود الله : ما منع منه . والحدّ مانع من الاجتراء على الفواحش. وأحدّت المرأة : امتنعت من الزينة . ورجل محدود : ممنوع من الخير . والبوّاب حدّاد أى مانع . وقد تقدّم هذا مستوفًى[(1)] . و إنما قال : « لقوم يعلمون » لأن الجاهل اذا كثر له أمره ونهيه فانه لا يحفظه ولا يتعاهده . والعالم يحفظ ويتعاهد ؛ فلهذا المعنى خاطب العلماء ولم يخاطب الجهال .

---

(١) تراجع المسألة الخامسة والثلاثون جـ ٢ ص ٢٣٧ طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ معنى « بلغن » قاربن، بإجماع من العلماء . ولأن المعنى يضطر إلى ذلك ؛ لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له فى الإمساك . وهو فى الآية التى بعدها بمعنى التناهى ؛ لأن المعنى يقتضى ذلك ، فهو حقيقة فى الثانية مجاز فى الأولى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ الإمساك بالمعروف هو القيام بما يجب لها من حقّ على زوجها ؛ ولذلك قال جماعة من العلماء : إن من الإمساك بالمعروف أن الزوج إذا لم يجد ماينفق على الزوجة أن يطلقها ؛ فإن لم يفعل خرج عن حدّ المعروف ، فيطلّق عليه الحاكم من أجل الضرر اللاحق لها من بقائها عند من لا يقدر على نفقتها ، والجوعُ لا صبر عليه ؛ وبهــذا قال مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد ويحيى القطّان وعبــد الرحمن ابن مهــديّ ، وقاله من الصحابة عمر وعليّ وأبو هريرة ، ومن التابعين سـعيد بن المسيّب وقال : إن فى ذلك سُنّة . ورواه أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم . وقالت طائفة : لا يُفرّق بينهما ، ويلزمها الصبر عليه، وتتعلّق النفقة بذمّته بحكم الحاكم ؛ وهــذا قول عطاء والزُّهْرِيّ ، وإليه ذهب الكوفيون والثّوريّ ؛ واحتجوا بقوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ » وقال : « وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ » الآية ؛ فندب تعالى إلى إنكاح الفقير، فلا يجوز أن يكون الفقر سببا للفرقة ، وهو مندوب معه الى النكاح . وأيضا فإن النكاح بين الزوجين قد انعقد بإجماع فلا يُفرّق بينهما إلا بإجماع مثله ، أو بسُنّة عن الرسول صلى الله عليه وسلم

لا معارض لهـا . والحجة للأول قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري : " تقول المرأة إما أن تُطعمني وإمّا أن تطلّقني " فهذا نص في موضع الخلاف . والفرقة بالإعسار عندنا طلقة رجعية خلافا للشافعي في قوله إنها طلقة بائنة ؛ لأن هذه فرقة بعد البناء لم يستكمل بهـا عدد الطلاق ولا كانت لعوض ولا لضرر بالزوج فكانت رجعية ؛ أصلُه طلاق المُولي .

الثالثـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يعني فطلّقوهنّ ؛ وقد تقدّم .

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ﴾ روى مالك عن ثور بن زيد الدِّيلي أن الرجل كان يطلّق امرأته ثم يراجعها ولا حاجة له بها ولا يريد إمساكها ؛ كيما يُطوّل بذلك العدّة عليها وليُضارها ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » يعظُهم الله به . وقال الزّجاج : «فقد ظلم نفسه» يعني عرض نفسه للعذاب ، لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرُّض لعذاب الله . وهذا الخبر موافق للخبر الذي نزل بترك ما كان عليه أهـل الجاهلية من الطلاق والارتجاع حسب ما تقدّم بيانه عند قوله تعـالى : « الطلاق مرّتان » . فأفادنا هـذان الخبران أن نزول الآيتين المذكورتين كان في معنًى واحد متقارب وذلك حبسُ الرجل المرأةَ ومراجعته لها قاصدا إلى الإضرار بها ؛ وهذا ظاهر .

الرابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ معناه لا تأخذوا أحكام الله تعالى في طريق الهـزء فإنها جدٌّ كلّها ؛ فمن هزأ فيهـا لزمته . قال أبو الدرداء : كان الرجل يطلق في الجاهلية ويقول : إنمـا طلقت وأنا لاعب ؛ وكان يُعتق وينكح ويقول : كنت لاعبا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ فقال عليه السلام : "من طلّق أو حرّر أو نكح أو أنكح فزعم أنه لاعب فهو جادّ" . رواه معمر قال : حدّثنا عيسى بن يونس عن عمرو عن الحسن عن أبي الدرداء فذكره بمعناه . وفي موطأ مالك أنه بلغـه أن رجلا قال لابن عباس : إني طلّقت امرأتي مائة مرة فماذا ترى عليّ ؟ فقال ابن عباس : طلقتْ منك بثلاث ، وسبعٌ وتسعون اتّخذتَ بها آيات الله هزوًا . وخرّج الدّارَقُطْني من حديث إسماعيل بن أميّة القرشي عن عليّ قال : سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا طلّق البَتّة فغضب وقال : " تتخذون آيات الله هزوًا أو دينَ الله هزوًا

ولعبا من طلّق ألبتّة ألزمناه ثلاثا لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ". إسماعيل بن أميّة هذا كُوفيّ ضعيف الحديث . ورُوى عن عائشة أن الرجل كان يطلّق امرأته ثم يقول : والله لا أورّثك ولا أدعك . قالت : وكيف ذاك ؟ قال : إذا كِدتِ تقضين عدّتك راجعتك ؛ فنزلتْ : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا » . قال علماؤنا : والأقوال كلها داخلة فى معنى الآية ؛ لأنه يقال لمن سخِر من آيات الله : اتخذها هزوًا . ويقال ذلك لمن كفر بها، ويقال ذلك لمن طرحها ولم يأخذ بها وعمل بغيرها ؛ فعلى هذا تدخل هذه الأقوالُ فى الآية . وآياتُ الله : دلائله وأمره ونهيه .

الخامسة — ولا خلاف بين العلماء أن من طلّق هازلا أن الطلاق يلزمه . واختلفوا فى غيره على ما يأتى بيانه فى « براءة » إن شاء الله تعالى . وخرّج أبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثٌ جِدّهن جِدّ وهزلهن جِدٌّ النكاحُ والطّلاق والرجعة " . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب وابن مسعود وأبى الدرداء كلهم قالوا : ثلاث لا لعب فيهنّ واللاعب فيهنّ جادٌّ : النكاحُ والطلاق والعِتاق . وقيل : المعنى لا تتركوا أوامر الله فتكونوا مقصّرين لاعبين . ويدخل فى هذه الآية الاستغفارُ من الذنب قولا مع الإصرار فعلا؛ وكذا كل ما كان فى هذا المعنى فاعلمه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أى بالإسلام وبيان الأحكام . ﴿ والحكمة ﴾ : هى السُّنّة المبيِّنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرادَ الله فيما لم يُنصّ عليه فى الكتاب . ﴿ يَعِظُكُمْ به ﴾ أى يخوّفكم . ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ رُوى أن مَعقِل بن يَسار كانت أخته تحت أبي البَدّاح[1] فطلّقها وتركها حتى انقضت عدّتها ، ثم ندم فخطبها فرضيت وأبى أخوها أن يزوّجها وقال : وَجْهِي من وجهك حرام إن زوّجتيه فنزلت الآية . قال مقاتل : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَعْقِلا فقال : " إنْ كنتَ مؤمنا فلا تمنع أختك عن أبي البَدّاح " فقال : آمنت بالله وزوّجتها منه . وروى البخاريّ عن الحسن أن أخت مَعْقِل بن يسار طلقها زوجها حتى انقضت عدّتها فخطبها فأبى مَعْقِل فنزلت : « فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ » . وأخرجه أيضا الدَّارَقُطْنِيّ عن الحسن قال : حدّثني مَعْقِلُ بن يسار قال : كانت لي أختٌ فخُطِبت إليّ فكنت أمنعها الناس، فأتى ابن عم لي فخطبها فأنكحتها إياه ، فاصطحبا ما شاء الله ثم طلقها طلاقا رجعيا ثم تركها حتى انقضت عدّتها فخطبها مع الخطّاب ؛ فقلتُ : منعتُها الناسَ وزوّجتك إياها ثم طلقتَها طلاقا له رجعة ثم تركتَها حتى انقضت عدّتها فلمّا خُطبت إليّ أتيتَني تخطبها مع الخطاب! لا أزوّجك أبدا ! فأنزل الله أو قال أنزلت : « وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ » فكفّرتُ عن يميني وأنكحتها إيّاه . في رواية للبخاريّ : « فَحَمِيَ مَعْقِل من ذلكَ أَنَفا وقال خلا عنها وهو يقدر عليها ثم يخطبها ! فأنزل الله الآية ؛ فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه الآية فترك الحميّة وانقاد لأمر الله تعالى . وقيل : هو معقل بن سنان (بالنون) . قال النحاس : رواه الشافعيّ في كتبه عن معقل بن يسار أو سنان . وقال الطحاويّ : هو معقل بن سنان .

الثانيـة ـ إذا ثبت هذا ففي الآية دليل على أنه لا يجوز النكاح بغير وليّ لأن أخت معقل كانت ثيّبا ، ولو كان الأمر إليها دون وليّها لزوّجت نفسها ، ولم تحتج إلى وليّها معقل. فالخطاب إذًا في قوله تعالى : «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ» للأولياء، وأن الأمر إليهم في التزويج

(١) في الأصول : « أبي الدحداح » وهو تحريف .

مع رضاهنّ . وقد قيل : إن الخطاب فى ذلك للأزواج، وذلك بأن يكون الارتجاع مضارّة عَضْلا عن نكاح الغير بتطويل العدّة عليها . واحتج بها أصحاب أبى حنيفة على أن تزوج المرأة نفسها قالوا : لأن الله تعالى أضاف ذلك اليها كما قال : « فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ » ولم يذكر الولىّ . وقد تقدّم القول فى هذه المسألة مستوفى . والأوّل أصح لما ذكرناه من سبب النزول . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ بلوغ الأجل فى هذا الموضع : تناهيه؛ لأن ابتداء النكاح إنما يُتصوّر بعد انقضاء العدّة . و « تعضلوهنّ » معناه تحبسوهنّ . وحكى الخليل : دجاجة مُعْضِلٌ : قد احتبس بيضها . وقيل : العضل التضييق والمنع وهو راجع إلى معنى الحبس؛ يقال : أردتُ أمرا فعضلتنى عنه أى منعتنى عنه وضيّقت علىّ . وأعضل الأمرُ : إذا ضاقت عليك فيه الحيل؛ ومنه قولهم : إنه لَعُضْلَةٌ من العُضَل إذا كان لا يُقدَر على وجه الحيلة فيه . وقال الأزهرىّ : أصل العضل من قولهم : عَضّلت الناقةُ إذا نُشِب ولدها فلم يسهل خروجه . وعَضّلت الدجاجةُ : نَشِب بيضها . وفى حديث معاوية : — «مُعْضِلة ولا أبا حَسَنٍ»؛ أى مسألة صعبة ضيّقة المخارج . وقال طاوس : لقد وردت عُضَلُ أقضيةٍ ما قام بها إلا ابن عباس . وكل مُشْكِل عند العرب مُعْضِل ؛ ومنه قول الشافعىّ :

إذا المعضلاتُ تصدّيْنَنى * كشفتُ حقائقها بالنظرْ

ويقال : أعضل الأمرُ اذا اشتدّ . وداءٌ عُضال أى شديدٌ عَسِرُ البُرْءِ أعيا الأطباءَ . وعَضَل فلانٌ أَيِّمَه أى منعها، يَعْضُلُها ويَعضِلُها (بالضم والكسر) لغتان .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ ﴾ ولم يقل « ذلكم » لأنه محمول على معنى الجمع . ولو كان « ذلكم » لجاز؛ مثل ﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أى ما لكم فيه من الصلاح . ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

فيه ثمان عشرة مسألة :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ ﴾ ابتداء . ﴿ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ في موضع الخبر . ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ ظرف زمان . ولما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ذكر الولد لأن الزوجين قد يفترقان وثَمّ ولد ؛ فالآية إذًا في المطلّقات اللاتي لهنّ أولاد من أزواجهنّ ؛ قاله السُّدّيّ والضّحاك وغيرهما ، أي هنّ أحق برضاع أولادهنّ من الأجنبيات لأنهنّ أحنى وأرقّ ، وانتزاع الولدِ الصغير إضرارٌ به وبها ؛ وهذا يدل على أن الولد وإن فُطِم فالأم أحق بحضانته لفضل حنوها وشفقتها ؛ وإنما تكون أحقّ بالحضانة إذا لم تتزوّج على ما يأتي . وعلى هذا يُشكِل قوله : «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ» لأن المطلقة لاتستحقّ الكسوة إذا لم تكن رجعية بل تستحق الأجرة إلا أن يُحمل على مكارم الأخلاق فيقال : الأَوْلى ألّا تنقص الأجرة عما يكفيها لقوتها وكسوتها . وقيل : الآية عامة في المطلّقات اللواتي لهنّ أولاد وفي الزوجات . والأظهر أنها في الزوجات في حال بقاء النكاح ؛ لأنهنّ المستحقّات للنفقة والكسوة ؛ والزوجة تستحق النفقة والكسوة أرضعت أو لم تُرضع ؛ والنفقة والكسوة مقابلة التمكين ، فاذا اشتغلت بالإرضاع لم يكمل التمكين ؛ فقد يُتوهّم أن النفقة تسقط فأزال ذلك الوهم بقوله تعالى : « وَعَلَى الْمَوْلُودِ له » أي الزوج رزقهنّ وكسوتهنّ في حال الرضاع لأنه اشتغال في مصالح الزوج ؛ فصارت كما لو سافرت لحاجة الزوج بإذنه فان النفقة لا تسقط .

الثانيــــة — قوله تعالى : ﴿ يُرْضِعْنَ ﴾ خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، وعلى جهة النّدب لبعضهنّ على ما يأتى . وقيل : هو خبر عن المشروعية كما تقدّم .

الثالثــــة — واختلف الناس فى الرّضاع هل هو حقّ للأمّ أو هو حق عليها ؛ واللفظ محتمل لأنه لو أراد التّصريح بكونه عليها لقال : وعلى الوالدات رضاع أولادهنّ كما قال تعالى : « وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ » ولكن هو عليها فى حالّ الزوجية، وهو عُرْف يلزم إذ قد صار كالشرط، إلا أن تكون شريفة ذات تَرَفُّه فعُرْفها ألّا تُرضع وذلك كالشرط . وعليها إن لم يقبل الولدُ غيرَها واجب، وهو عليها إذا عدم لاختصاصها به . فإن مات الأب ولا مال للصبيّ فمذهب مالك فى « المدوّنة » أن الرضاع لازم للأمّ بخلاف النفقة . وفى كتاب ابن الجَلّاب : رضاعه فى بيت المال . وقال عبد الوهاب : هو فقير من فقراء المسلمين . وأما المطلّقة طلاق بينونة فلا رضاع عليها، والرضاع على الزوج إلا أن تشاء هى؛ فهى أحق بأجرة المِثْل ؛ هذا مع يسر الزوج فإن كان مُعدِما لم يلزمها الرضاع الا أن يكون المولود لا يقبل غيرها فتُجبَر حينئذ على الإرضاع . وكل من يلزمها الإرضاع فان أصابها عذر يمنعها منه عاد الإرضاع على الأب . ورُوى عن مالك أن الأب إذا كان مُعدِما ولا مال للصبيّ أن الرضاع على الأم ؛ فإن لم يكن لها لبن ولها مال فالإرضاع عليها فى مالها . قال الشافعى : لا يلزم الرضاع إلا والدا أو جدًّا و إن علا ؛ وسيأتى ما للعلماء فى هذا عند قوله تعالى : «وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ » . يقال : رَضِع يَرْضَع رَضاعة و رَضاعا ، و رَضَع يَرضِع رِضاعا و رَضاعة (بكسر الراء فى الأوّل وفتحها فى الثانى) واسم الفاعل راضع فيهما . والرَّضاعة : اللّؤم (مفتوح الراء لا غير) .

الرابعــــة — قوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ ﴾ أى سنتين ، من حال الشىء إذا انقلب فالحول منقلب من الوقت الأوّل إلى الثانى . وقيل : سُمّى العام حولا لاستحالة الأمور فيه فى الأغلب . ﴿ كَامِلَيْنِ ﴾ قيد بالكمال لأن القائل قد يقول : أقمت عند فلان حولين وهو يريد حولا وبعض حول آخر؛ قال الله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ » وإنما يتعجل

فى يوم و بعض الثانى . وقوله تعالى : « لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » دليـل على أن إرضاع الحولين ليس حتما فانه يجوز الفطام قبل الحولين ، ولكنه تحـديد لقطع التنازع بين الزوجين فى مدّة الرّضاع ، فلا يجب على الزوج إعطاء الأجرة لأكثر من حولين . و إن أراد الأب الفَطْم قبل هذه المدّة ولم ترض الأمّ لم يكن له ذلك . والزيادة على الحوالين أو النقصانُ إنمـا يكون عند عدم الإضرار بالمولود وعند رضا الوالدين . وقرأ مجاهد وابن مُحَيْصِن « لمن أراد أن تَتِمّ الرّضاعةُ » بفتح التاء ورفع « الرّضاعة » على إسناد الفعل إليها . وقرأ أبو حَيْوَة وابن أبى عَبْلة والجارود بن أبى سَبْرَة بكسر الراء من « الرّضاعة » وهى لغة كالحَضارة والحِضارة . ورُوى عن مجاهد أنه قرأ « الرضعة » على وزن الفعلة . ورُوى عن ابن عباس أنه قرأ « أن يكمل الرضاعة » . النحاس : لا يعرف البصريون « الرضاعة » إلّا بفتح الراء، ولا «الرضاع» إلا بكسر الراء، مثل القتال . وحكى الكوفيون كسر الراء مع الهاء وفتحها بغير هاء .

الخامســـة — انتزع مالك رحمه الله تعالى ومن تابعه و جماعة من العلماء من هذه الآية أن الرّضاعة المحرِّمة الجارِيةَ مجرى النّسب إنمـا هى ما كان فى الحولين لأنه بانقضاء الحولين تمّت الرضاعة، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة. هذا قوله فى موطّئه، وهى رواية محمد بن عبد الحكم عنه، وهو قول عمر وآبن عباس، و رُوى عن ابن مسعود، و به قال الزهرى وقَتادة والشّعبيّ وسفيان الثورىّ والأوزاعىّ والشافعىّ وأحمد و إسحاق وأبو يوسف ومحمد وأبو ثور . وروى ابن عبد الحكم عنه الحولين وزيادة أيام يسيرة . عبدُ الملك : كالشّهر ونحوه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : الرّضاع الحولين والشهرين بعد الحولين . وحَكى عنه الوليد بن مسلم أنه قال : ما كان بعـد الحولين من رضاع بشهر أو شهرين أو ثلاثة فهو من الحولين، وما كان بعد ذلك فهو عبَث . وحُكى عن النعمان أنه قال : وما كان بعد الحولين إلى ستة أشهر فهو رضاع ؛ والصحيح الأوّل لقوله تعـالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » وهذا يدلّ على أن لاحكم لمـا ارتضع المولودُ بعد الحولين . وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا رضاع إلا ما كان فى الحولين". قال الدّارَقُطْنِيّ : لم يسنده عن ابن عيينة غيرُ الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ .

قلت : وهذا الخبر مع الآية والمعنى ينفى رضاعة الكبير وأنه لا حُرمة له . وقد رُوى عن عائشة القولُ به . وبه يقول الليث بن سعد من بين العلماء . ورُوى عن أبى موسى الأشعرىّ أنه كان يرى رضاع الكبير . ورُوى عنه الرجوع عنه . وسيأتى فى سورة « النساء » مبيّنا إن شاء الله تعالى .

السادسة — قال جمهور المفسرين : إن هذين الحولين لكل ولد . ورُوى عن ابن عباس أنه قال: هى فى الولد يمكث فى البطن ستة أشهر، فان مكث سبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا ، فان مكث ثمانية أشهر فرضاعه اثنان وعشرون شهرا، فان مكث تسعة أشهر فرضاعه أحد وعشرون شهرا لقوله تعالى : « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » . وعلى هذا تتداخل مدّة الحمل ومدّة الرضاع ويأخذ الواحد من الآخر .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ أى وعلى الأب . ويجوز فى العربية « وعلى المولود لهم » كقوله تعالى : « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ » لأن المعنى وعلى الذى وُلد له و «الذى» يُعبَّر به عن الواحد والجمع كما تقدّم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ الرزق فى هذا الحكم الطعامُ الكافى، وفى هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لضعفه وعجزه . وسمّاه الله سبحانه للأمّ لأن الغذاء يصل إليه بواسطتها فى الرّضاع كما قال : « وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ » لأن الغذاء لا يصل إلا بسببها .

وأجمع العلماء على أن على المرء نفقةَ ولده الأطفال الذين لا مال لهم . وقال صلى الله عليه وسلم لهند بنت عتبة وقد قالت له : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنه لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بَنِىّ إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه فهل علىّ فى ذلك جُناح؟ فقال — : " خُذى ما يكفيكِ وولدَك بالمعروف " . والكسوة : اللباسُ . وقوله : « بالمعروف » أى بالمتعارف فى عُرف الشرع من غير تفريط ولا إفراط . ثم بيّن تعالى أن الإنفاق على قدر غِنَى الزوج ومَنْصِبها من غير تقدير مُدّ ولا غيره بقوله تعالى : « لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا »

على ما يأتي بيانه في الطلاق إن شاء الله تعالى . وقيل المعنى أي لا تكلف المرأة الصبر على التقتير في الأجرة ولا يكلف الزوج ما هو إسراف بل يُراعَى القصد .

التاسعة ـ في هذه الآية دليل لمالك على أن الحضانة للأم؛ فهي في الغلام إلى البلوغ، وفي الجارية إلى النكاح؛ وذلك حق لها، وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : إذا بلغ الولد ثمان سنين وهو سن التمييز خُيِّر بين أبويه فإنه في تلك الحالة تتحرك همته لتعلم القرآن والأدب ووظائف العبادات، وذلك يستوي فيه الغلام والجارية . وروى النسائي وغيره عن أبي هريرة أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له : زوجي يريد أن يذهب بابني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "هذا أبوك وهذه أمك فخذ أيهما شئت" فأخذ بيد أمه . وفي كتاب أبي داود عن أبي هريرة قال: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قاعد عنده فقالت : يارسول الله، إن زوجي يريد أن يذهب بابني ، وقد سقاني من بئر أبي عِنَبة، وقد نفعني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "استَهِمَا عليه" فقال زوجها : من يُحَاقُّني في ولدي ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هذا أبوك وهذه أمك فخذ بيد أحدهما شئت" فأخذ بيد أمه فانطلقت به. ودليلنا ما رواه أبو داود عن الأوزاعي قال : حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو أن امرأة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحِجْري له حِواء، و إن أباه طلقني وأراد أن ينتزعه مني؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنت أحق به ما لم تنكحي" . قال ابن المنذر : أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الزوجين إذا افترقا ولهما ولد أن الأم أحق به ما لم تنكح . وكذا قال أبو عمر : لا أعلم خلافا بين السلف من العلماء في المرأة المطلقة إذا لم تتزوج أنها أحق بولدها من أبيه ما دام طفلا صغيرا لا يُميِّز شيئا إذا كان عندها في حرز وكفاية ولم يثبت فيها فسق ولا تبرُّج .

ثم اختلفوا بعد ذلك في تخييره إذا ميز وعقل بين أبيه وأمه وفيمن هو أولى به ؛ قال ابن المنذر : وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى في ابنة حمزة للخالة من غير تخيير .

روى أبو داود عن عليّ قال : خرج زيد بن حارثة الى مكة فقدم بابنة حمزة، فقال جعفر : أنا آخذها أنا أحق بها ، ابنة عمّي وخالتها عندى والخالة أمّ . فقال عليّ : أنا أحق بها ، ابنة عمّي وعندى ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أحق بها . فقال زيد : أنا أحق بها ، أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها . فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا قال : "وأما الجارية فأقضي بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخالة أمّ" .

العاشرة — قال ابن المنذر : وقد أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن لا حق للأمّ في الولد إذا تزوّجت .

قلت : كذا قال في كتاب الإشراف له . وذكر القاضي عبد الوهاب في شرح الرسالة له عن الحسن أنه لا يسقط حقها من الحضانة بالتزوج . وأجمع مالك والشافعيّ والنعمان وأبو ثور على أن الجَدّة أمّ الأم أحقُّ بحضانة الولد . واختلفوا إذا لم يكن لها أمّ وكان لها جَدّة هي أم الأب؛ فقال مالك : أُمّ الأبِ أحقّ إذا لم يكن للصبيّ خالة . وقال ابن القاسم قال مالك : وبلغني ذلك عنه أنه قال : الخالة أَوْلى من الجَدة أمّ الأب . وفي قول الشافعيّ والنعمان : أمُّ الأب أحقّ من الخالة . وقد قيل : إن الأب أَوْلى بابنه من الجَدّة أمّ الأب . قال أبو عمر : وهذا عندى إذا لم يكن له زوجة أجنبية . ثم الأخت بعد الأب ثم العمة . وهذا اذا كان كل واحد من هؤلاء مأمونا على الولد ، وكان عنده في حِرْز وكفاية ؛ فاذا لم يكن كذلك لم يكن له حق في الحضانة، وإنما يُنظر في ذلك الى من يحوط الصبيّ ومن يحسن إليه في حفظه وتعلمه الخير . وهذا على قول من قال إن الحضانة حقُّ الولد؛ وقد رُوي ذلك عن مالك وقال به طائفة من أصحابه ؛ وكذلك لا يرون حضانة لفاجرة ولا لضعيفة عاجزة عن القيام بحق الصبيّ لمرض أو زَمانة . وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وابن الماجشون عن مالك أن الحضانة للأم ثم الجدّةِ للأمّ ثم الخالة ثم الجدّةِ للأب ثم أخت الصبيّ ثم عمة الصبيّ ثم ابنة أخي الصبيّ ثم الأب . والجَدّة للأب أَوْلى من الأخت والأخت أَوْلى من العمة والعمة أَوْلى ممن بعدها وأَوْلى من جميع الرجال الأولياء . وليس لابنة الخالة ولا لابنة العمة ولا لبنات أخوات الصبيّ من حضانته شيء . فاذا كان الحاضن لا يُخاف منه على الطفل

تضييع أو دخولُ فساد كان حاضنا له أبدا حتى يبلغ الحُلُمَ . وقد قيل : حتى يَثَّغِر[1] ، وحتى تتزوّج الجارية ؛ إلا أن يريد الأب نُقلة سفر وإيطان فيكون حينئذ أحقّ بولده من أمّه وغيرها إن لم تُرِد الانتقال . وإن أراد الخروج لتجارة لم يكن له ذلك . وكذا أولياء الصبيّ الذين يكون مآله[2] إذا انتقلوا للاستيطان . وليس للأمّ أن تنقل ولدها عن موضع سكنى الأب إلا فيما يقرُب نحو المسافة التي لا تُقصر فيها الصلاة . ولو شرط عليها في حين انتقاله عن بلدها أنه لا يترك ولده عندها إلا أن تلتزم نفقته ومئونته سنين معلومة فإن التزمت ذلك لزمها ؛ فإن ماتت لم تُتْبَع بذلك ورثتها في تركتها . وقد قيل : ذلك دين يؤخذ من تركتها ؛ والأوّل أصح إن شاء الله تعالى ؛ كما لو مات الولد أو كما لو صالحها على نفقة الحمل والرّضاع فأسْقطت لم تُتْبَع بشيء من ذلك .

الحادية عشرة — إذا تزوّجت الأمّ لم يُنزع منها ولدها حتى يدخل بها زوجها عند مالك . وقال الشافعيّ : إذا نكحت فقد انقطع حقها . فإن طلقها لم يكن لها الرجوع فيه عند مالك في الأشهر عندنا من مذهبه . وقد ذكر القاضي إسماعيل وذكره ابن خُوَيْزِمَنْدَاد أيضا عن مالك أنه اختلف قوله في ذلك ؛ فقال مرّة : يردّ إليها . وقال مرّة : لا يردّ . قال ابن المنذر : فإذا خرجت الأمّ عن البلد الذي به ولدها ثم رجعت إليه فهي أحقّ بولدها في قول الشافعيّ وأبي ثور وأصحاب الرأي . وكذلك لو تزوّجت ثم طُلّقت أو تُوفّي عنها زوجها رجعت في حقّها من الولد .

قلت : وكذلك قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب ؛ فإن طلّقها الزوج أو مات عنها كان لها أخذه لزوال العذر الذي له جاز تركه .

الثانية عشرة — فإن تركت المرأة حضانة ولدها ولم تُرِد أخذه وهي فارغة غير مشغولة بزوج ثم أرادت بعد ذلك أخذه نُظِر لها ؛ فإن كان تركها له من عذر كان لها أخذه ، وإن كانت تركته رَفْضًا له ومَقْتًا لم يكن لها بعد ذلك أخذه .

---

(١) الاثغار : سقوط سن الصبي ونباتها . وفي بعض الأصول : حتى « يميز » .

(٢) كذا في الأصول ، ولعله مآله إليهم .

الثالثة عشرة — واختلفوا فى الزوجين يفترقان بطلاق والزوجة ذمّيـة ؛ فقالت طائفة : لا فرق بين الذمّية والمسلمة وهى أحق بولدها ؛ هذا قول أبى ثور وأصحاب الرأى وابن القاسم صاحب مالك . قال ابن المنذر : وقد روينا حديثا مرفوعا موافقا لهذا القول ؛ وفى إسناده مقال . وفيه قول ثان أن الولد مع المسلم منهما ؛ هذا قول مالك وسوّار وعبد الله بن الحسن . وحُكى ذلك عن الشافعىّ . وكذلك اختلفوا فى الزّوجين يفترقان ؛ أحدُهما حُرّ والآخر مملوك ؛ فقالت طائفة : الحُرّ أولى ؛ هذا قول عطاء والثورىّ والشافعىّ وأصحاب الرأى . وقال مالك : فى الأب إذا كان حرا وله ولد حُرّ والأمّ مملوكة : إن الأمّ أحقّ به إلا أن تُباع فتنتقل فيكون الأب أحقّ به .

الرابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ المعنى : لا تأبى الأمّ أنْ ترضعه إضرارا بأبيـه أو تطلب أكثر من أجر مثلها ، ولا يَحِلّ للأب أن يمنع الأم من ذلك مع رغبتها فى الإرضاع ؛ هذا قول جمهور المفسرين . وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى « تُضارَّ » بفتح الراء المشدّدة وموضعه جزم على النهى ؛ وأصله تضارر على الأصل ، فأدغمت الراء الأولى فى الثانية وفتحت الثانية لالتقاء السـاكنين ؛ وهكذا يُفعل فى المضاعف إذا كان قبـله فتح أو ألف ؛ تقول : عَضَّ يارجل ، وضارَّ فلانا يارجل . أى لا ينزع الولد منها إذا رضيت بالإرضاع وألِفها الصبىّ . وقرأ أبو عمرو وابن كَثير وأبان عن عاصم وجماعة « تُضارُّ » بالرفع عطفا على قوله : « تكلّف نفس » وهو خبر والمراد به الأمر . وروى يونس عن الحسن قال يقول : لا تضارّ زوجها ، تقول : لا أرضعه ؛ ولا يضارّها فينزعه منها وهى تقول : أنا أرضعه . ويحتمل أن يكون الأصـل « تُضارِر » بكسر الراء الأولى ؛ ورواها أبان عن عاصم ، وهى لغة أهل الحجاز . فـ « والدة » فاعله ؛ ويحتمل أن يكون « تضارر » فـ « والدة » مفعول ما لم يسم فاعله . ورُوى عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه أنه قرأ « لا تُضارَر » براءين الأولى مفتوحة . وقـرأ أبو جعفر بن القَعْقاع « تضار » بإسكان الراء وتخفيفها . وكذلك « لا يضار كاتب » وهذا بعيد لأن المثلين إذا اجتمعا وهما أصليان لم يجز

حذف احدهما للتخفيف ؛ فإما الإدغام و إما الإظهار . ورُوى عنه الإسكان والتشديد .
ورُوى عن ابن عباس والحسن « لا تُضارِر » بكسر الراء الأولى .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ هو معطوف على قوله : « وَعَلَى المولود » واختلفوا فى تأويل قوله : « وعلى الوارث مثل ذلك » فقال قَتادة والسُّدِّىّ والحسن وعمر بن الخطاب رضى الله عنه : هو وارث الصبىّ أن لومات . قال بعضهم : وارثه من الرجال خاصة يلزمه الإرضاع ؛ كما كان يلزم أبا الصبىّ لو كان حيًّا ؛ وقاله مجاهد وعطاء . وقال قَتادة وغيره : هو وارث الصبىّ من كان من الرجال والنساء ، و يلزمهم إرضاعه على قدر مواريثهم منه ؛ و به قال أحمد و إسحاق . وقال القاضى أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق فى كتاب « معانى القرآن » له : فأما أبو حنيفة فانه قال : تجب نفقة الصغير ورضاعه على كل ذِى رَحِم مَحْرَم ؛ مثل أن يكون رجل له ٱبن أختٍ صغير محتاج وابنُ عم صغير محتاج وهو وارثه ؛ فان النفقة تجب على الخال لابن أخته الذى لا يرثه ، وتسقط عن ابن العم لابن عمه الوارث . قال أبو إسحاق : فقالوا قولا ليس فى كتاب الله ولا نعلم أحدا قاله . وحكى الطبرىّ عن أبى حنيفة وصاحبيه أنهم قالوا : الوارث الذى يلزمه الإرضاع هو وارثه إذا كان ذا رَحِم مَحْرَم منه ؛ فان كان ابن عَمٍّ وغيره ليس بذى رَحِم مَحْرَم فلا يلزمه شىء . وقيل : المراد عَصَبة الأب عليهم النفقة والكسوة . قال الضحاك : إن مات أبو الصبىّ وللصبىّ مال أخذ رضاعه من المال ، و إن لم يكن له مال أخذ من العصبة ، وان لم يكن للعصبة مال أجبرت الأمّ على رضاعه . وقال قَبيصة بن ذؤيب والضّحّاك و بشر بن نصر قاضى عمر بن عبد العزيز : الوارث هو الصبىّ نفسُه ؛ وتأولوا قوله : «وَعَلَى ٱلْوَارِثِ» المولود ، مثلُ ما على المولود له ، أى عليه فى ماله إذا ورث أباه إرضاعُ نفسه . وقال سفيان : الوارث هنا هو الباقى من والدى المولود بعد وفاة الآخر منهما ؛ فإن مات الأب فعلى الأمّ كفاية الطفل إذا لم يكن له مال ، و يشاركها العاصب فى إرضاع المولود على قدر حظه من الميراث . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : ولو كان اليتيم فقيرا لا مال له وجب على الإمام القيام به من بيت المال ؛ فإن لم يفعل الإمام وجب ذلك على المسلمين ، الأخصّ به

فالأخصّ ، والأم أخصّ به فيجب عليها إرضاعه والقيام به ، ولا ترجع عليه ولا على أحد . والرضاع واجب والنفقة استحباب؛ ووجه الاستحباب قوله تعالى : «وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ» وواجب على الأزواج القيام بهنّ ؛ فاذا تعذّر استيفاء الحق لهنّ بموت الزّوج أو إعساره لم يسقط الحقّ عنهنّ؛ ألا ترى أن العدّة واجبة عليهنّ والنفقة والسكنى على أزواجهنّ، وإذا تعذرت النفقة لهن لم تسقط العدّة عنهنّ . وروى عبد الرحمن بن القاسم عن مالك فى الأسدية أنه قال : لا يلزم الرجلَ نفقةُ أخٍ ولا ذِي قرابة ولا ذِي رَحِم منه . قال وقول الله عز وجل «وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ» هو منسوخ . قال النحاس : هذا لفظ مالك، ولم يبيّن ما الناسخ لها ولا عبدُ الرحمن بن القاسم، ولا علمت أن أحدا من أصحابهم بيّن ذلك ؛ والذى يشبه أن يكون الناسخ لها عنده والله أعلم أنه لما أوجب الله تعالى للمتوفّى عنها زوجها من مال المتوفّى نفقةَ حول والسكنى ثم نسخ ذلك ورفعه ؛ نسخ ذلك أيضا عن الوارث .

قلت : فعلى هذا تكون النفقة على الصبيّ نفسه من ماله، لا يكون على الوارث منها شيء على ما يأتى . قال ابن العربى : قوله «وعلى الوارث مثل ذلك» قال ابن القاسم عن مالك هى منسوخة ؛ وهذا كلام تشمئز منه قلوب الغافلين ، وتحار فيه ألباب الشاذّين، والأمر فيه قريب ! وذلك أن العلماء المتقدّمين من الفقهاء والمفسرين كانوا يسمّون التخصيص نسخا لأنه رفعٌ لبعض ما يتناوله العموم مسامحةً ، وجرى ذلك فى ألسنتهم حتى أشكل ذلك على من بعدهم؛ وتحقيق القول فيه أن قوله تعالى: «وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ» إشارةً إلى ما تقدّم؛ فمن الناس من ردّه إلى جميعه من إيجاب النفقة وتحريم الإضرار، منهم أبو حنيفة من الفقهاء، ومن السلف قتادة والحسن ويسند إلى عمر . وقالت طائفة من العلماء : إن معنى قوله «وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ» لا يرجع إلى جميع ما تقدّم ، وإنما يرجع الى تحريم الإضرار ؛ والمعنى : وعلى الوارث من تحريم الإضرار بالأم ما على الأب؛ وهذا هو الأصل ، فمن ادّعى أنه يرجع العطف فيه الى جميع ما تقدّم فعليه الدليل .

قلت : قوله «وهـذا هو الأصل» يريد في رجوع الضمير إلى أقرب مذكور، وهو صحيح؛ اذ لو أراد الجميع الذى هو الإرضاع والإنفاق وعدمُ الضرر لقال وعلى الوارث مثل هـؤلاء؛ فدلّ على أنه معطوف على المنع من المضارّة؛ وعلى ذلك تأوله كافة المفسرين فيما حكى القاضي عبد الوهاب، وهو أن المراد به أن الوالدة لا تضارّ ولدها في أن الأب إذا بذل لهـا أجرة المثل ألّا ترضعه ، ولا مولود له بولده في أن الأم إذا بذلت أن ترضعه بأجرة المثل كان لها ذلك؛ لأن الأم أرفق وأحنّ عليه، ولبنها خير له من لبن الأجنبية . قال ابن عطية : وقال مالك رحمه الله وجميع أصحابه والشّعبيّ أيضا والزُّهريّ والضّحاك وجماعة من العلماء: المراد بقوله «مثـل ذلك» ألّا تضار؛ وأما الرزق والكسوة فلا يجب شيء منـه . وروى ابن القاسم عن مالك أن الآية تضمّنت أن الرزق والكسوة على الوارث، ثم نسخ ذلك بالإجماع من الأمة في ألا يضارّ الوارث؛ والخلاف هل عليه رزق وكسوة أم لا . وقرأ يحيى بن يَعْمُر «وعلى الورثة» بالجمع، وذلك يقتضي العموم؛ فان استدلوا بقوله عليه السلام . "لا يقبل الله صـدقةً وذو رَحِم محتاجٌ" قيـل لهم الرحم عموم في كل ذي رَحِم ، مَحْرَمًا كان أو غير مَحْرَم ، ولا خلاف أن صرف الصدقة إلى ذي الرحم أولى لقوله عليه السلام : "اجعلها في الأقربين" فحُمِل الحديث على هـذا، ولا حجة فيه على ما راموه؛ والله اعلم . وقال النحاس : وأما قول من قال «وعلى الوارث مثل ذلك» ألّا يضارّ فقول حسن؛ لأن أموال الناس محظورة فلا يخرج شي منهـا إلا بدليـل قاطع . وأما قول من قال على ورثة الأب فالحجة أن النفقـة كانت على الأب فورثتـه أولى من ورثة الابن . وأما حجة من قال على ورثة الابن فيقول كما يرثونه يقومون به . قال النحاس : وكان محمـد بن جرير يختار قول من قال الوارث هنا الابن؛ وهو وإن كان قولا غريبا فالاستدلال به صحيح والحجة به ظاهرة لأن ماله أولى به . وقـد أجمع الفقهاء إلا من شذّ منهم أن رجلا لو كان له ولد طفل وللولد مال والأب موسر أنه لا يجب على الأب نفقة ولا رضاع، وأن ذلك من مال الصبي . فان قيل قد قال الله عز وجل «وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ»؛ قيل : هذا الضمير للمؤنث، ومع هذا فان الإجماع

حدٌّ للآية مبينٌ لها، لا يسع مسلما الخروج عنه . وأما من قال ذلك على من بقي من الأبوين فحجته أنه لا يجوز للأم تضييع ولدها وقد مات من كان ينفق عليه وعليها . وقد ترجم البخاريّ على رد هذا القول «بابٌ — وعلى الوارث مثل ذلك، وهل على المرأة منه شيء» وساق حديث أمّ سلمة وهند . والمعنى فيه : أن أمّ سلمة كان لها أبناء من أبي سلمة ولم يكن لهم مال، فسألتِ النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبرها أن لها في ذلك أجرا . فدلّ هذا الحديث على أن نفقة بنيها لا تجب عليها ، ولو وجبت عليها لم تقل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ولستُ بتاركتهم . وأما حديث هند فان النبيّ صلى الله عليه وسلم أطلقها على أخذ نفقتها ونفقة بنيها من مال الأب، ولم يوجبها عليها كما أوجبها على الأب . فاستدلّ البخاريّ من هذا على أنه لمّا لم يلزم الأمهاتِ نفقاتُ الأبناء في حياة الآباء فكذلك لا يلزمهنّ بموت الآباء . وأما قول من قال إن النفقة والكسوة على كل ذي رَحِم مَحْرَم فحجّته أن على الرجل أن ينفق على كل ذي رَحِم مَحْرم إذا كان فقيرا. قال النحاس : وقد عُورِض هذا القول بأنه لم يؤخذ من كتاب الله تعالى ولا من إجماع ولا من سُنّة صحيحة ، بل لا يُعرف من قولٍ سوى ما ذكرناه . فأما القرآن فقد قال الله عز وجل : « وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ » فإن كان على الوارث النفقة والكسوة فقد خالفوا ذلك فقالوا : إذا ترك خاله وابنَ عمه فالنفقة على خاله وليس على ابن عمه شيء ؛ فهذا مخالف نصّ القرآن لأن الخال لا يرث مع ابن العم في قول أحد، ولا يرث وحده في قول كثير من العلماء . والذى احتجوا به من النفقة على كل ذي رَحِم مَحْرم أكثرُ أهل العلم على خلافه .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا ﴾ الضمير في « أرادا » للوالدين . و « فِصَالًا » معناه فطاما عن الرضاع ، أي عن الاغتذاء بلبن أمه الى غيره من الأقوات . والفِصال والفَصْل : الفطام، وأصله التفريق، فهو تفريق بين الصبيّ والثّدي، ومنه سُمّيَ الفَصِيل ، لأنه مفصول عن أمه . ﴿ عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا ﴾ أي قبل الحولين . ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي في فصله ، وذلك أن الله سبحانه لما جعل مدّة الرضاع حولين بيّن أن فطامهما

هو الفطام ، وفصالها هو الفصال ليس لأحد عنـه مَنْزَع؛ إلا أن يتفق الأبوان على أقلّ من ذلك العدد من غير مضارّة بالولد ؛ فذلك جائز بهذا البيان . وقال قَتادة : كان الرضاع واجبا فى الحولين وكان يحـرم الفطام قبـله ، ثم خُفّف وأبيح الرضاع أقلّ من الحولين بقوله : « فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا » الآية . وفى هذا دليل على جواز الاجتهاد فى الأحكام بإباحة الله تعالى للوالدين التّشاوُرَ فيما يؤدّى إلى صـلاح الصغير ؛ وذلك موقوف على غالب ظنونهما لا على الحقيقة واليقين . والتّشاور : اسـتخراج الرأى ، وكذلك المشاورة . والمَشُـورة كالمعونة . وشُرْت العسل : اسـتخرجته . وشُرْت الدابة وشـوّرتها أى أجريتها لاستخراج جريهـا . والشُّـوار : متاع البيت ؛ لأنه يظهر للناظر . والشّارة : هيئة الرجل . والإشارة : إخراج ما فى نفسك وإظهاره .

السابعة عشرة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ أى لأولادكم غير الوالدة ؛ قاله الزجاج . قال النحاس : التقدير فى العربية أن تسترضعوا أجنبيّةً لأولادكم؛ مثل « كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ » أى كالوا لهم أو وزنوا لهم؛ وحذفت اللام لأنه يتـعدى الى مفعولين أحدهما بحرف؛ وأنشد سيبويه :

أَمَرْتكَ الخير فافعل ما أُمرتَ به * فقد تركتك ذا مال وذا نَشَبِ

ولا يجوز : دعوت زيدا، أى دعوت لزيد ؛ لأنه يؤدّى الى التلبيس ، فيعتبر فى هذا النوع السّماع .

قلت : وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز اتخاذ الظِّئْر إذا اتفق الآباء والأمهات على ذلك . وقد قال عِكرمة فى قوله تعالى « لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ » معناه الظِّئر؛ حكاه ابن عطية . والأصل أن كل أم يلزمها رضاع ولدها كما أخبر الله عز وجل ؛ فأمر الزوجات بإرضاع أولادهن ، وأوجب لهن على الأزواج النفقة والكسوة والزوجيّة قائمة ؛ فلوكان الرضاع على الأب لذكره مع ما ذكره من رزقهنّ وكسوتهنّ ؛ إلا أن مالكا رحمه الله دون فقهاء الأمصار استثنى الحَسيبة فقال : لا يلزمها رضاعة ؛ فأخرجها من الآية وخصّصها بأصل من أصـول الفقه وهو العمل بالعادة . وهذا أصل لم يتفطّن له إلا مالك . والأصل البديع فيه أن

هـذا أمر كان في الجاهلية في ذوي الحسب وجاء الإسلام فلم يُغيره، وتمادى ذوو الثروة والأحساب على تفريغ الأمهات للمتعة بدفع الرضعاء للمراضع إلى زمانه فقال به وإلى زماننا فتحققناه شرعا .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم ﴾ يعني الآباء، أي سلمتم الأجرة الى المرضعة الظِّئر؛ قاله سفيان . مجاهد : سلمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما أرضعن الى وقت إرادة الاسترضاع . وقرأ الستة من السبعة «ما آتيتم» بمعنى ما أعطيتم . وقرأ ابن كثير «أتيتم» بمعنى ما جئتم وفعلتم؛ كما قال زهير :

وما كان من خيرٍ أتوه فإنما * توارثه آباءُ آبائهم قبل

قال قَتادة والزُّهريّ : المعنى سلمتم ما أتيتم من إرادة الاسترضاع ، أي سلّم كل واحد من الأبوين ورضيَ، وكان ذلك على اتفاق منهما وقصدِ خيرٍ وإرادةِ معروفٍ من الأمر . وعلى هـذا الاحتمال فيدخل في الخطاب سلمتم الرجالُ والنساء . وعلى القولين المتقدمين الخطابُ للرجال . قال أبو عليّ : المعنى إذا سلمتم ما آتيتم نقده أو إعطاءه؛ فحذف المضافُ وأقيم الضمير مقامه، فكان التقدير : ما آتيتموه، ثم حذف الضمير من الصلة؛ وعلى هذا التأويل فالخطاب للرجال لأنهم الذين يُعطون أجر الرضاع . قال أبو عليّ : ويحتمل أن تكون «ما» مصدرية، اى اذا سلمتم الإتيـان ، والمعنى كالأول ، لكن يستغني عن الصفة من حذف المضاف ثم حذف الضمير .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

فيه خمس وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ لما ذكر عز وجل عدّة الطلاق واتصل بذكرها ذكرُ الإرضاع ذكرَ عدّة الوفاة أيضا؛ لئلا يتوهم أن عدّة الوفاة مثلُ عدّة الطلاق .

« والذين » أى والرجال الذين يموتون منكم . ﴿ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ أى يتركون أزواجا، أى ولهم زوجات؛ فالزوجات يتربّصن؛ قال معناه الزجاج واختاره النحاس . وحذفُ المبتدا فى الكلام كثير؛ كقوله تعالى : « قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ » أى هو النار . وقال أبو علىّ الفارسى : تقديره والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بعدهم ؛ وهو كقولك : السَّمْن مَنَوَانِ بدرهم ، أى منوان منه بدرهم . وقيل : التقدير وأزواج الذين يُتوفّون منكم يتربّصن ؛ فجاءت العبارة فى غاية الإيجاز . وحكى المَهْدَوِىّ عن سيبويه أن المعنى : وفيما يُتلى عليكم الذين يتوفّون . وقال بعض نحاة الكوفة : الخبر عن «الذين» متروك، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهنّ يتربّصن؛ وهذا اللفظ معناه الخبر عن المشروعية فى أحد الوجهين كما تقدّم .

الثانيــة ــ هذه الآية فى عدّة المتوفّى عنها زوجها، وظاهرها العموم ومعناها الخصوص . وحكى المَهْـدَوِىّ عن بعض العلماء أن الآية تناولت الحوامل ثم نُسخ ذلك بقوله « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » . وأكثر العلماء على أن هذه الآية ناسخة لقوله عز وجل : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » لأن الناس أقاموا بُرْهة من الإسلام إذا تُوفّىَ الرجل وخلّف امرأته حاملا أوصى لها زوجها بنفقة سَنَة وبالسكنى ما لم تخرج فتتزوج ؛ ثم نُسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر وبالميراث . وقال قوم : ليس فى هـذا نسخ وإنما هو نقصان من الحول ؛ كصلاة المسافر لما نقصت من الأربع الى الاثنتين لم يكن هـذا نسخا . وهذا غلط بيّن ؛ لأنه إذا كان حكمها أن تعتدّ سَنَة إذا لم تخرج فإن خرجت لم تُمنع، ثم أزيل هـذا ولزمتها العدّة أربعةَ أشهر وعشرا . وهذا هو النسخ، وليست صلاة المسافر من هذا فى شىء . وقالت عائشة : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيد فى صلاة الحضر وأُقرّت صلاة السفر بحالها؛ وسيأتى .

الثالثــة ــ عدّةُ الحامل المتوفّى عنها زوجها وضعُ حملها عند جمهور العلماء . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب وابن عباس أن تمام عدّتها آخرُ الأجلين ؛ واختاره سحنون من علمائنا .

وقد رُوى عن ابن عباس أنه رجع عن هذا . والحجة لما رُوى عن علىّ وابن عباس رَوْمُ الجمع بين قوله تعالى : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» وبين قوله : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » وذلك أنها إذا قعدت أقصى الأجلين فقد عملت بمقتضى الآيتين ، و إن اعتدت بوضع الحمل فقد تركت العمل بآية عدّة الوفاة ، والجمع أولى من الترجيح باتفاق أهل الأصول . وهذا نظر حسن لولا ما يعكّر عليه من حديث سُبَيعة الأسلميّة وأنها نَفِست بعد وفاة زوجها بليال، وأنها ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها أن تتزوّج؛ أخرجه الصحيح . فبيَّن الحديثُ أن قوله تعالى : « وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » محمول على عمومه فى المطلَّقات والمُتَوفَّى عنهن أزواجهن ، وأن عدّة الوفاة مختصة بالحائل من الصّنفين ؛ و يَعتضد هذا بقول ابن مسعود: ومن شاء باهلته أن آية النساء القصرى نزلت بعد آية عدّة الوفاة . قال علماؤنا : وظاهر كلامه أنها ناسخة لها وليس ذلك مراده والله أعلم . و إنما يَعنى أنها مخصصة لها، فإنها أخرجت منها بعض متناولاتها . وكذلك حديث سُبَيعة متأخر عن عدّة الوفاة؛ لأن قصة سُبيعة كانت بعد حجّة الوَداع ، وزوجها هو سعد بن خَوْلة وهو من بنى عامر بن لُؤَىّ وهو ممن شهد بدرا، تُوفّىَ بمكة حينئذ وهى حامل، وهو الذى رَثَى له رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن تُوفّى بمكة، وولدت بعده بنصف شهر . وقال البخارىّ : بأربعين ليلة . وروى مسلم من حديث عمر بن عبد الله بن الأرقم أن سُبيعة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك قالت : فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى ، وأمرنى بالتزوج إن بدالى . قال ابن شهاب : ولا أرى بأسا أن تتزوج حين وضعت و إن كانت فى دمها، غير أن زوجها لا يقربها حتى تطهر؛ وعلى هذا جمهور العلماء وأئمة الفقهاء . وقال الحسن والشَّعبىّ والنَّخَعىّ وحماد : لا تنكح النفساء ما دامت فى دم نِفاسها . فاشترطوا شرطين : وضع الحمل، والطهر من دم النفاس . والحديث حُجّة عليهم ، ولا حُجة لهم فى قوله : « فلما تعلّت من نفاسها تجمّلت للخُطّاب » كما فى صحيح مسلم وأبى داود ؛ لأن « تعلت » وإن كان أصله طهرت من دم نفاسها

ـ على ما قاله الخليل ـ فيحتمل أن يكون المراد به هاهنا تعلّت من آلام نفاسها؛ اى استقلت من أوجاعها . ولو سُلّم أن معناه ما قال الخليل فلا حُجة فيه؛ وإنما الحجة فى قوله عليه السلام لسبيعة : " قد حَلَلت حين وضعت " فأوقع الحِلّ فى حين الوضع وعلّقه عليه، ولم يقل إذا انقطع دمك ولا إذا طهرت؛ فصح ما قاله الجمهور .

الرابعة ـ ولا خلاف بين العلماء على أن أجل كلّ حامل مطلّقة يملك الزوج رجعتها أو لا يملك، حُرّة كانت أو أَمَة أو مُدَبَّرة أو مُكاتَبة أن تضع حملها .

واختلفوا فى أجل الحامل المُتوفَّى عنها كما تقدّم ؛ وقد أجمع الجميع بلا خلاف بينهم أن رجلا لو تُوفِّيَ وترك امرأة حاملا فانقضت أربعة أشهر وعشر أنها لا تحلّ حتى تلد؛ فعُلم أن المقصود الولادة

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ التربّص : التأنّى والتصبر عن النكاح، وترك الخروج عن مسكن النكاح وذلك بألّا تفارقه ليلا . ولم يذكر الله تعالى السكنى للتوفَّى عنها فى كتابه كما ذكرها للطلقة بقوله تعالى : «أَسْكِنُوهُنَّ» وليس فى لفظ العدّة فى كتاب الله تعالى ما يدل على الإحداد ، وإنما قال : « يتربصن » فبيّنت السنّة جميع ذلك . والأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم متظاهرةٌ بأن التربّص فى الوفاة إنما هو بإحداد ، وهو الامتناع من الزينة ولُبْس المصبوغ الجميل والطِّيب ونحوه؛ وهذا قول جمهور العلماء . وقال الحسن ابن أبى الحسن : ليس الإحداد بشىء، إنما تتربص عن الزوج، ولها أن تتزيّن وتتطيّب ؛ وهذا ضعيف لأنه خلاف السنّة على ما نبيّنه إن شاء الله تعالى . وثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال للفُرَيعة بنت مالك بن سنان وكانت متوفًّى عنها : " أمكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله " قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا؛ وهذا حديث ثابت أخرجه مالك عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرة، رواه عنه مالك والثورىّ ووُهيب[1] بن خالد وحماد ابن زيد وعيسى بن يونس وعدد كثير وابن عُيينة والقطّان وشعبة، وقد رواه مالك عن ابن شهاب

(١) فى الأصول : «وهب» والتصويب عن شرح الموطأ وتهذيب التهذيب .

وحَسْبُك ! قال الباجىّ : لم يرو عنه غيره ، وقد أخذ به عثمان بن عفّان . قال ابو عمر : وقضى به فى اعتداد المتوفَّى عنها فى بيتها ، وهو حديث معروف مشهور عند علماء الحجاز والعراق أن المتوفَّى عنها زوجها عليها أن تعتدّ فى بيتها ولا تخرج عنه ؛ وهو قول جماعة فقهاء الأمصار بالحجاز والشام والعراق ومصر . وكان داود يذهب إلى أن المتوفَّى عنها زوجها ليس عليها أن تعتدّ فى بيتها وتعتدّ حيث شاءت؛ لأن السكنى إنما ورد بها القرآن فى المطلّقات؛ ومن حجته أن المسألة مسألة خلاف . قالوا : وهذا الحديث إنما ترويه امرأة غير معروفة بحمل العلم؛ و إيجابُ السكنى إيجابُ حكم، والأحكام لا تجب الا بنصّ كتابِ الله أو سُنّة أو إجماع . قال أبو عمر : أما السنّة فثابتة بحمد الله، وأما الاجماع فمستغنىً عنه بالسنّة؛ لأن الاختلاف إذا نزل فى مسألة كانت الحجة فى قول من وافقته السنة ، وبالله التوفيق . ورُوى عن علىّ وابن عباس وجابر وعائشة مثلُ قولِ داود؛ وبه قال جابر بن زيد وعطاء والحسن البصرىّ . قال ابن عباس : إنما قال الله تعالى : « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» ولم يقل يعتددن فى بيوتهن ولتعتدّ حيث شاءت ؛ ورُوى عن أبى حنيفة . وذكر عبد الرزاق قال : حدّثنا مَعْمر عن الزُّهرىّ عن عُروة قال : خرجت عائشة بأختها أم كلثوم — حين قُتل عنها زوجها طلحة بن عبيد الله — إلى مكة فى عُمْرة، وكانت تُفتِى المتوفَّى عنها بالخروج فى عدّتها . قال : وحدّثنا الثّورىّ عن عبيد الله بن عمر أنه سمع القاسم بن محمد يقول : أَبَى الناس ذلك عليها . قال وحدّثنا معمر عن الزّهرىّ قال : أخذ المترخّصون فى المتوفَّى عنها زوجها بقول عائشة ، وأخذ أهل الوَرَع والعَزْم بقول ابن عمر . وفى الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يردّ المتوفَّى عنهنّ أزواجهن من البيداء يمنعهن الحج . وهذا من عمر رضى الله عنه اجتهادَ ؛ لأنه كان يرى اعتداد المرأة فى منزل زوجها المتوفَّى عنها لازما لها ؛ وهو مقتضى القرآن والسّنة ، فلا يجوز لها أن تخرج فى حج ولا عمرة حتى تنقضى عدّتها . وقال مالك : تُرَدّ مالم تُحْرِم .

السادسة — إذا كان الزوج يملك رقبة المسكن فإن للزوجة العدّة فيه ؛ وعليه أكثر الفقهاء : مالك وأبو حنيفة والشافعىّ وأحمد وغيرهم لحديث الفُرَيعة . وهل يجوز بيع الدار

إذا كانت ملكا للتوفَّى وأراد ذلك الورثة؛ فالذى عليه جمهور أصحابنا أن ذلك جائز، ويشترط فيه العدّة للرأة . قال ابن القاسم : لأنها أحق بالسكنى من الغُرماء . وقال محمد بن عبد الحكم : البيع فاسد لأنها قد ترتاب فتمتدّ عدّتها . وجه قول ابن القاسم : أن الغالب السلامة، والرِّيبة نادرة، وذلك لا يؤثر فى فساد العقود ؛ فان وقع البيع فيه بهذا الشرط فارتابت قال مالك فى كتاب محمد : هى أحق بالمُقام حتى تنقضى الرِّيبة ، وأحبّ إلينا أن يكون للشترى الخيار فى فسخ البيع أو إمضائه ولا يرجع بشىء ؛ لأنه دخل على العدّة المعتادة ، ولو وقع البيع بشرط زوال الرِّيبة كان فاسدا . وقال سُحْنون : لا حجة للشترى وإن تمادت الرِّيبة الى خمس سنين ؛ لأنه دخل على العدّة والعدّةُ قد تكون خمس سنين؛ ونحو هذا روى أبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة — فإن كان للزوج السُّكنى دون الرَّقبة فلها السكنى فى مدة العدّة، خلافا لأبى حنيفة والشافعى؛ لقوله عليه السلام للفُرَيعة وقد علم أن زوجها لا يملك رقبة المسكن : "امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله " . لا يقال إن المنزل كان لها فلذلك قال لها : "امكثى فى بيتك " فإن معمرا روى عن الزُّهرىّ أنها ذكرت للنبىّ صلى الله عليه وسلم أن زوجها قُتل ، وأنه تركها فى مسكن ليس لها واستأذنته؛ وذكر الحديث . ولنا من جهة المعنى أنه ترك دارا يملك سكناها مِلْكا لا تَبِعة عليه فيه؛ فلزم أن تعتدّ الزوجة فيه؛ أصل ذلك إذا ملك رقبتها .

الثامنة — وهذا إذا كان قد أدّى الكراء ؛ وأما إذا كان لم يؤدّ الكراء فالذى فى المدوّنة أنه لا سكنى لها فى مال الميت وإن كان موسرا؛ لأن حقها إنما يتعلق بما يملكه من السكنى ملكا تاما، ومالم ينقد عوضه لم يملكه ملكا تاما ، وإنما ملك العوض الذى بيده، ولا حق فى ذلك للزوجة إلا بالميراث دون السكنى ؛ لأن ذلك مالٌ وليس بسكنى . وروى محمد عن مالك أن الكراء لازم للميت فى ماله .

التاسعة — قوله صلى الله عليه وسلم للفُرَيعة : "امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله " يحتمل أنه أمرها بذلك لما كان زوجها قد أدى كراء المسكن ، أو كان أسكن فيه

إلى وفاته، أو أن أهل المنزل أباحوا لها العدّة فيه بكراء أو غير كراء، أو ما شاء الله تعالى من ذلك مما رأى به أن المُقام لازم لها فيه حتى تنقضي عدّتها .

العاشرة — واختلفوا في المرأة يأتيها نَعْيُ زوجها وهي في بيت غير بيت زوجها؛ فأمرها بالرجوع إلى مسكنه وقراره مالكُ بن أنس؛ ورُوي ذلك عن عمر بن عبد العزيز . وقال سعيد بن المسيّب والنّخعيّ : تعتدّ حيث أتاها الخبر، لا تبرح منه حتى تنقضي العدّة . قال ابن المنذر : قول مالك صحيح، إلا أن يكون نَقَلها الزوج إلى مكان فتلزم ذلك المكان .

الحادية عشرة — ويجوز لها أن تخرج في حوائجها من وقت انتشار الناس بُكْرَةً إلى وقت هدوئهم بعد العَتَمة، ولا تبيت إلا في ذلك المنزل . وفي البخاريّ ومسلم عن أم عطيّة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تُحِدّ امرأةٌ على ميت فوقَ ثلاثٍ إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ولا تلبَس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عَصْبٍ (١) ولا تكتحل ولا تَمَسّ طِيبًا إلا إذا طَهُرت نُبْذَةً (٢) من قُسْط أو أظفار" . وفي حديث أم حَبيبة : "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تُحِدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" الحديث . الإحداد : ترك المرأة الزينةَ كلَّها من اللباس والطِّيب والحَلْي والكحل والخضاب بالحناء ما دامت في عدّتها؛ لأن الزينة داعية إلى الأزواج فنُهِيَت عن ذلك قطعا للذرائع وحمايةً لحُرُمات الله تعالى أن تنتهك . وليس دَهْن المرأة رأسها بالزيت والشَّيرج من الطيب في شيء . يقال : امرأة حادٌّ ومُحِدّ . قال الأصمعيّ : ولم نعرف « حدّت » . وفاعل « لا يحل » المصدر الذي يمكن صياغته من « تُحِد » مع « أن » المرادة؛ فكأنه قال : الإحداد .

الثانية عشرة — وَصْفُه عليه السلام المرأةَ بالإيمان يدل على صحة أحد القولين عندنا في الكتابية المتوفَّى عنها زوجها إنها لا إحداد عليها؛ وهو قول ابن كنانة وابن نافع، ورواه أشهب عن مالك، وبه قال أبو حنيفة وابن المنذر . وروى عنه ابن القاسم أن عليها الإحداد

(١) العصب (بفتح العين وسكون الصاد المهملتين) : من برود اليمن يعصب غزلها، أي يربط ثم يصبغ ثم ينسج معصوبا فيخرج موشيا لبقاء ما عصب منه أبيض ولم ينصبغ، وإنما يعصب السدى دون اللحمة .

(٢) النبذة : الشيء اليسير . القسط والأظفار : نوعان من البخور .

كالمسلمة ؛ وبه قال الليث والشافعيّ وأبو ثور وعامة أصحابنا ؛ لأنه حكم من أحكام العدّة فلزمت الكتابيةَ للمسلم كلزوم المسكن والعدّة .

الثالثة عشرة — وفي قوله عليه السلام : " فوقَ ثلاث إلا على زوج " دليل على تحريم إحداد المسلمات على غير أزواجهن فوق ثلاث ، و إباحة الإحداد عليهم ثلاثا تبدأ بالعدد من الليلة التي تستقبلها إلى آخر ثالثها ؛ فإن مات حميمها في بقية يوم أو ليلة ألغته وحسبته من الليلة القابلة .

الرابعة عشرة — هذا الحديث بحكم عمومه يتناول الزوجات كلّهن المتوفَّى عنهنّ أزواجهنّ فيدخل فيه الإماء والحرائر والكبار والصغار ؛ وهو مذهب الجمهور من العلماء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا إحداد على أَمَة ولا على صغيرة ؛ حكاه عنه القاضي أبو الوليد الباجي . قال ابن المنذر : أما الأَمَة الزوجة فهي داخلة في جملة الأزواج وفي عموم الأخبار ؛ وهو قول مالك والشافعيّ وأبي ثور وأصحاب الرأي ؛ ولا أحفظ في ذلك عن أحد خلافا ، ولا أعلمهم يختلفون في الإحداد على أم الولد إذا مات سيّدها ؛ لأنها ليست بزوجة والأحاديث إنما جاءت في الأزواج . قال الباجيّ : الصغيرة إذا كانت ممن يعقل الأمر والنّهي وتلتزم ما حُدّ لها أُمرت بذلك ، وإن كانت لا تدرك شيئا من ذلك لصغرها فروى ابن مُزَين عن عيسى يُجَنّبها أهلها جميع ما تجتنبه الكبيرة ، وذلك لازم لها . والدليل على وجوب الإحداد على الصغيرة ما رُوي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سألته آمرأة عن بنت لها تُوفّيَ عنها زوجها فاشتكت عينَها أفنكحلها ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا " مرّتين أو ثلاثا ؛ كل ذلك يقول " لا " ولم يسأل عن سِنّها ؛ ولو كان الحكم يفترق بالصغر والكبر لسأل عن سِنّها حتى يبيّن الحكم ، وتأخير البيان في مثل هذا لا يجوز ، وأيضا فإن كل من لزمتها العدّة بالوفاة لزمها الإحداد كالكبيرة .

الخامسة عشرة — قال ابن المنذر : ولا أعلم خلافا أن الخضاب داخل في جملة الزينة المنهيّ عنها . وأجمعوا على أنه لا يجوز لها لباس الثياب المصبوغة والمعصفرة ، إلا ما صبغ

بالسواد فإنه رَخّص فيه عروة بن الزبير ومالك والشافعى، وكرهه الزهرى وقال : لا تلبس ثوب عصب وهو خلاف الحديث . وفى المدوّنة قال مالك : لا تلبس رقيق عَصْب اليمن ؛ ووسّع فى غليظه . قال ابن القاسم : لأن رقيقه بمنزلة الثياب المصبغة، وتلبس رقيق الثياب وغليظه من الحرير والكَتّان والقطن . قال ابن المنذر : ورخّص كل من أحفظ عنه فى لباس البياض . قال القاضى عِياض : ذهب الشافعى إلى أن كل صبغ كان زينة لا تمسّه الحادّ رقيقا كان أو غليظا ؛ ونحوه للقاضى عبد الوهاب قال : كل ما كان من الألوان تتزين به النساء لأزواجهن فلتمتنع منه الحادّ . ومنع بعض مشايخنا المتأخرين جيّد البياض الذى يُتزيّن به ، وكذلك الرفيع من السواد . وروى ابن المَوّاز عن مالك : لا تلبس حُلِيّاً وإن كان حديدا؛ وفى الجملة أن كل ما تلبسه المرأة على وجه ما يستعمل عليه الحلى من التجمّل فلا تلبسه الحادّ . ولم ينص أصحابنا على الجواهر واليواقيت والزمرّد وهو داخل فى معنى الحُلِىّ . والله أعلم .

السادسة عشرة — وأجمع الناس على وجوب الإحداد على المتوفَّى عنها زوجها إلا الحسن فانه قال : ليس بواجب ؛ واحتج بما رواه عبد الله بن شَدّاد بن الهاد عن أسماء بنت عُميس قالت : لما أصيب جعفر بن أبى طالب قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَسَلَّبى(1) ثلاثا ثم اصنعى ما شئت" . قال ابن المنذر : كان الحسن البصرى من بين سائر أهل العلم لا يرى الإحداد، وقال : المطلقة ثلاثا والمتوفَّى عنها زوجها يكتحلان ويختضبان ويصنعان ما شاءا . وقد ثبتت الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم بالإحداد ، وليس لأحد بلغته إلا التسليمُ ؛ ولعلّ الحسن لم تبلغه، أو بلغته فتأوّلها بحديث أسماء بنت عُميس أنها استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم أن تُحِدّ على جعفر وهى امرأته ؛ فأذن لها ثلاثة أيام ثم بعث إليها بعد ثلاثة أيام أن تَطهّرى واكتحلى . قال ابن المنذر : وقد دفع أهل العلم هذا الحديث بوجوه؛ وكان أحمد بن حنبل يقول : هذا الشاذ من الحديث لا يؤخذ به؛ وقاله إسحاق .

---

(1) تسلبى : البسى ثياب الحداد السود، وهى السلاب (ككتاب) .

السابعة عشرة ــ ذهب مالك والشافعيّ إلى أنْ لا إحداد على مطلّقة رجعيةً كانت أو بائنة واحدة أو أكثر؛ وهو قول ربيعة وعطاء. وذهب الكوفيون: أبو حنيفة وأصحابه والثوريّ والحسن بن حَيّ وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن المطلقة ثلاثا عليها الإحداد؛ وهو قول سعيد ابن المسيب وسليمان بن يَسار وابن سيرين والحكم بن عيينة. قال الحكم: هو عليها أوكد وأشدّ منه على المتوفَّى عنها زوجها؛ ومن جهة المعنى أنهما جميعا في عدّة يحفظ بها النّسب. وقال الشافعيّ وأحمد وإسحاق: الاحتياط أن تتّقي المطلقة الزينة. قال ابن المنذر: وفي قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحِدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" دليلٌ على أن المطلقة ثلاثا والمطلّق حيٌّ لا إحداد عليها.

الثامنة عشرة ــ أجمع العلماء على أن من طلّق زوجته طلاقا يملك رجعتها ثم تُوفِّيَ قبل انقضاء العدة أن عليها عدّة الوفاة وترثه. واختلفوا في عدّة المطلقة ثلاثا في المرض؛ فقالت طائفة: تعتد عدّة الطلاق؛ هذا قول مالك والشافعيّ ويعقوب وأبي عبيد وأبي ثور. قال ابن المنذر: وبه نقول؛ لأن الله تعالى جعل عدة المطلقات الأقراء، وقد أجمعوا على المطلقة ثلاثا لو ماتت لم يرثها المطلّق، وذلك لأنها غير زوجة؛ وإذا كانت غير زوجة فهو غير زوج لها. وقال الثوريّ: تعتدّ بأقصى العدّتين. وقال النُّعمان ومحمد: عليها أربعة أشهر وعشر تستكمل في ذلك ثلاث حِيَض.

التاسعة عشرة ــ واختلفوا في المرأة يبلغها وفاة زوجها أو طلاقه؛ فقالت طائفة: العدّة في الطلاق والوفاة من يوم يموت أو يطلّق؛ هذا قول ابن عمر وابن مسعود وابن عباس، وبه قال مسروق وعطاء وجماعة من التابعين، وإليه ذهب مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو عبيد والثوريّ وأبو ثور وأصحاب الرأي وابن المنذر. وفيه قول ثانٍ وهو أن عدّتها من يوم يبلغها الخبر؛ رُوِيَ هذا القول عن عليّ، وبه قال الحسن البصريّ وقتادة وعطاء الخراسانيّ وجُلاس ابن عمرو. وقال سعيد بن المسيّب وعمر بن عبد العزيز: إن قامت بيّنة فعدّتها من يوم مات أو طلّق، وإن لم تقم بيّنة فمن يوم يأتيها الخبر؛ والصحيح الأوّل لأنه تعالى علّق العدّة

بالوفاة أو الطلاق، ولأنها لو علمت بموته فتركت الإحداد انقضت العدّة ، فاذا تركته مع عدم العلم فهو أهون ؛ ألا ترى أن الصغيرة تنقضى عدّتها ولا إحداد عليها . وأيضا فقد أجمع العلماء على أنها لو كانت حاملا لا تعلم طلاق الزوج أو وفاته ثم وضعت حملها أن عدّتها منقضية . ولا فرق بين هذه المسألة و بين المسألة المختلف فيها . ووجه من قال بالعدّة من يوم يبلغها الخبر أن العدّة عبادة بترك الزينة وذلك لا يصح إلا بقصد ونيّة ، والقصدُ لا يكون إلا بعد العلم . والله أعلم .

الموفية عشرين — عدّة الوفاة تلزم الحرّة والأَمَة والصغيرة والكبيرة والتى لم تبلغ المحيض والتى حاضت واليائسة من المحيض والكتابية دخل بها أو لم يدخل بها إذا كانت غير حامل — [وعدّة جميعهن إلا الأمة] [1] أربعةُ أشهر وعشرةُ أيام ؛ لعموم الآية فى قوله تعالى : « يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » . وعدّة الأَمَة المتوفَّى عنها زوجها شهران وخمس ليال . قال ابن العربىّ : نصف عدّة الحرة إجماعا ، إلا ما يُحكى عن الأصم فإنه سوّى فيها بين الحرّة والأَمَة وقد سبقه الإجماع ، لكن لصممه لم يسمع . قال الباجىّ : ولا نعلم فى ذلك خلافا إلا ما يُروَى عن ابن سيرين ، وليس بالثابت عنه أنه قال : عدّتها عدّة الحرّة .

قلت : قول الأصم صحيح من حيث النّظر ؛ فإن الآيات الواردة فى عدة الوفاة والطلاق بالأشهر والأقراء عامةٌ فى حق الأَمَة والحرّة ؛ فعدّة الحرّة والأَمَة سواء على هذا النظر ؛ فإن العمومات لا فصل فيها بين الحُرّة والأَمَة ؛ وكما استوت الأَمَة والحرّة فى النكاح فكذلك تستوى معها فى العدّة . والله أعلم . قال ابن العربىّ : ورُوِى عن مالك أن الكتابيّة تعتدّ بثلاث حيض إذ بها يبرأ الرّحم ؛ وهذا منه فاسد جدا ، لأنه أخرجها من عموم آية الوفاة وهى منها وأدخلها فى عموم آية الطلاق وليست منها [2] .

قلت : وعليه بناء ما فى المدوّنة لا عدّة عليها إن كانت غير مدخول بها ؛ لأنه قد عُلم براءة رَحِمها ، وهذا يقتضى أن تتزوّج مسلما أو غيره إثر وفاته ؛ لأنه إذا لم يكن عليها عدّة للوفاة ولا استبراءٌ للدخول فقد حلّت للأزواج .

---

(١) الزيادة عن الباجى .

(٢) هذه عبارة ابن العربى كما وردت فى أحكام القرآن . وقد وردت مضطربة فى الأصول .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى عدّة أمّ الولد إذا توفّىَ عنها سيّدها ؛ فقالت طائفة : عدّتها أربعة أشهر وعشر ؛ قاله جماعة من التابعين منهم سعيد والزهرىّ والحسن البصرىّ وغيرهم، وبه قال الأوزاعىّ وإسحاق. وروى أبو داود والدّارَقُطْنِىّ عن قَبيصة بن ذؤيب عن عمرو بن العاص قال : لا تلبسوا علينا سُنّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، عدّة المتوفّى عنها أربعة أشهر وعشر؛ يعنى فى أمّ الولد؛ لفظ أبى داود . وقال الدارقطنىّ : موقوف وهو الصواب، وهو مرسل لأن قبيصة لم يسمع من عمرو . قال ابن المنذر: وضعّف أحمد وأبو عبيد هذا الحديث . ورُوى عن على وابن مسعود أن عدّتها ثلاث حيض؛ وهو قول عطاء وإبراهيم النّخعىّ وسفيان الثورىّ وأصحاب الرأى ؛ قالوا : لأنها عدة تجب فى حال الحرية فوجب أن تكون عدة كاملة ؛ أصله عدة الحرة . وقال مالك والشافعىّ وأحمد وأبو ثور : عدتها حيضة ؛ وهو قول ابن عمر . ورُوى عن طاوس أن عدّتها نصف عدّة الحرّة المتوفَّى عنها ؛ وبه قال قَتادة . قال ابن المنذر : وبقول ابن عمر أقول ؛ لأنه الأقل مما قيل فيه وليس فيه سُنّة تتبع ولا إجماع يعتمد عليه . وذكر اختلافهم فى عدّتها فى العتق كهو فى الوفاة سواء، إلا أن الأوزاعىّ جعل عدّتها فى العتق ثلاث حيض .

قلت : أصحّ هذه الأقوال قولُ مالك ، لأن الله سبحانه قال : « والمطلّقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » فشرط فى تربّص الأقراء أن يكون عن طلاق؛ فانتفى بذلك أن يكون عن غيره . وقال : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » فعلّق وجوب ذلك بكون المتربّصة زوجة؛ فدلّ على أن الأَمَة بخلافها . وأيضًا فإن هذه أَمَة موطوءة بملك اليمين فكان استبراؤها بحيضة؛ أصل ذلك الأَمَة .

الثانية والعشرون — إذا ثبت هذا فهل عدّة أم الولد استبراءٌ محض أو عدّة ؛ فالذى ذكره أبو محمد فى معونته أن الحيضة استبراء وليست بعدّة . وفى المدوّنة أن أم الولد عليها العدّة، وأن عدتها حيضة كعدّة الحرة ثلاث حيض . وفائدة الخلاف أنا إذا قلنا هى عدة فقد

قال مالك لا أحبّ أن تواعد أحدا ينكحها حتى تحيض حيضة . قال ابن القاسم : وبلغني عنه أنه قال : لا تبيت إلا في بيتها؛ فأثبت لمدّة استبرائها حكم العدّة .

الثالثة والعشرون — أجمع أهل العلم على أن نفقة المطلقة ثلاثا أو مطلقة للزّوج عليها رجعة وهي حامل واجبة؛ لقوله تعالى : « وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ » .

واختلفوا في وجوب نفقة الحامل المتوفّى عنها زوجها ؛ فقالت طائفة : لا نفقة لها ؛ كذلك قال جابر بن عبد الله وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء والحسن وعكرمة وعبد الملك ابن يَعْلَى ويحيى الأنصاري وربيعة ومالك وأحمد وإسحاق، وحكى أبو عبيد ذلك عن أصحاب الرأي . وفيه قول ثانٍ وهو أن لها النفقة من جميع المال؛ رُوي هذا القول عن عليّ وعبد الله، وبه قال ابن عمر وشُريح وابن سيرين والشّعبيّ وأبو العالية والنّخعيّ وجُلاس بن عمرو وحمّاد بن أبي سليمان وأيوب السَّختياني وسفيان الثوريّ وأبو عبيد . قال ابن المنذر : وبالقول الأوّل أقول ؛ لأنهم أجمعوا على أن نفقة كل من كان يجبر على نفقته وهو حيّ مثلُ أولاده الأطفال وزوجته ووالديه تسقط عنه؛ فكذلك تسقط عنه نفقة الحامل من أزواجه . وقال القاضي أبو محمد : لأن نفقة الحمل ليست بدَين ثابت فتتعلّق بماله بعد موته، بدليل انها تسقط عنه بالإعسار فبأن تسقط بالموت أولى وأحرى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ اختلف العلماء في الأربعة الأشهر والعشر التي جعلها الله ميقاتا لعدّة المُتوفَّى عنها زوجها ، هل تحتاج فيها إلى حيضة أم لا؛ فقال بعضهم : لا تبرأ إذا كانت ممن توطأ إلا بحيضة تأتي بها في الأربعة الأشهر والعشر، وإلا فهي مُسترابة . وقال آخرون : ليس عليها أكثر من أربعة أشهر وعشر، إلا أن تستريب نفسها ريبة بيّنة ؛ لأن هذه المدّة لابدّ فيها من الحيض في الأغلب من أمر النساء إلا أن تكون المراة ممن لا تحيض أو ممن عَرفت من نفسها أو عُرف منها أن حيضتها لا تأتيها إلا في أكثر من هذه المدة .

الخامسة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَعَشْرًا ﴾ روى وكيع عن ابى جعفر الرازيّ عن الربيع بن أنس عن أبى العالية أنه سئل : لمَ ضُمّت العشرُ إلى الأربعة الأشهر ؟ قال : لأن الروح تنفخ فيها ؛ وسيأتى فى « الحج » بيان هذا إن شاء الله تعالى . وقال الأصمعيّ : ويقال إن ولد كل حامل يرتكض فى نصف حملهـا فهى مُرْكِض . وقال غيره : أركضت فهى مُرْكِضة ؛ وأنشد :

ومُرْكِضةٌ صريحيٌّ أبوها * تهان لها الغلامةُ والغلامُ (١)

وقال الخطّابيّ : قوله «وعشرا» يريد ــ والله أعلم ــ الأيام بلياليها . وقال المبرّد : إنما أنث العشر لأن المراد به المدة . المعنى وعشر مُدَد ، كلّ مدّة من يوم وليلة ؛ فالليلة مع يومها مدّة معلومة من الدهر . وقيل : لم يقل عشرة تغليبا لحكم الليالى إذ الليلة أسبق من اليوم والأيام فى ضمنها . « وعشرا » أخف فى اللفظ ؛ فتُغلّب الليالى على الأيام إذا اجتمعت فى التاريخ ؛ لأن ابتداء الشهور بالليل عند الاستهلال ، فلما كان أول الشهر الليلة غلّب الليلة ؛ تقول : صمنا خمسا من الشهر ، فتغلّب الليالى وإن كان الصوم بالنهار . وذهب مالك والشافعيّ والكوفيون إلى أن المراد بها الأيام والليالى . قال ابن المنذر : فلو عقد عاقد عليها النكاح على هذا القول وقد مضت أربعة أشهر وعشر ليال كان باطلا حتى يمضى اليوم العاشر . وذهب بعض الفقهاء الى أنه إذا انقضى لها أربعة أشهر وعشر ليال حلّت للأزواج ، وذلك لأنه رأى العدّة مبهمة فغلّب التأنيث وتأولها على الليالى . والى هذا ذهب الأوزاعيّ من الفقهاء وأبو بكر الأصم من المتكلمين . ورُوى عن ابن عباس أنه قرأ « أربعةَ أشهر وعشرَ ليال » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ أضاف تعالى الأجل إليهنّ إذ هو محدود مضروب فى أمرهن ، وهو عبارة عن انقضاء العدة .

(١) البيت لأوس بن غلفاء الهجيمى يصف فرسا . والصريحى : نسبة الى الصريح وهو فحل من خيل العرب معروف . (عن اللسان)

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ خطاب لجميع النـاس، والتلبّس بهـذا الحكم هـو للحكام والأوليـاء . ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ ﴾ يريد به التزوج فما دونه من التزيّن وأطراح الإحداد . ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي بمـا أذن فيه الشرع من اختيار أعيان الأزواج وتقدير الصّداق دون مباشرة العقد لأنه حقٌّ للأوليـاء كما تقدّم .

الثالثــة — فى هذه الآية دليـل على أن للأوليـاء منعهنّ من التبرج والتشوّف للزوج فى زمان العدّة . وفيها ردّ على إسحاق فى قوله : إن المطلقة إذا طعنت فى الحيضة الثالثة بانت وانقطعت رجعة الزوج الأوّل إلا أنه لا يحل لها أن تتزوّج حتى تغتسل . وعن شُريك أن لزوجها الرجعة ما لم تغتسل ولو بعـد عشرين سنة ؛ قال الله تعالى : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَـلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ » وبلوغ الأجل هنا انقضاء العدة بدخولهـا فى الدّم من الحيضة الثالثة ولم يذكر غسلا ؛ فإذا انقضت عدّتها حلّت للأزواج ولا جناح عليها فيما فعلت من ذلك . والحديث عن ابن عباس لو صح يحتمل أن يكون منه على الاستحباب، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٢٣٥)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ الى قوله ﴿ معروفا ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ولا جُنَاح﴾ أى لا إثم . والجناح الإثم، وهو أصح فى الشرع . وقيل : بل هو الأمر الشاقّ، وهو أصح فى اللغة؛ قال الشماخ :

إذا تعـلو براكبها خليجا * تذكّر ما لديه من الجناح

وقوله : ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم﴾ المخاطبة لجميع الناس، والمراد بحكمها هو الرجل الذى فى نفسه تزوج معتدة؛ أى لا وِزْرَ عليكم فى التعريض بالخطبة فى عدة الوفاة . والتعريض : ضد التصريح، وهو إفهام المعنى بالشىء المحتمل له ولغيره وهو من عُرْض الشىء وهو جانبه؛ كأنه يحوم به على الشىء ولا يظهره . وقيل : هو من قولك عرّضت الرجل، أى أهديت إليه تُحْفة؛ وفى الحديث : أن ركبا من المسلمين عرّضوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثيابا بيضا؛ أى أهدَوْا لهما . فالمعرّض بالكلام يوصل إلى صاحبه كلاما يفهم معناه .

الثانيـــة ـــ قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نصّ فى تزوجها وتنبيهٌ عليه لايجوز . وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رَفَث وذِكر جماع أو تحريضٍ عليه لا يجوز وكذلك ما أشبهه . وجوز ما عدا ذلك . ومن أعظمه قربا الى التصريح قول النبى صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس : "كونى عند أم شَريك ولا تسبقينى بنفسك" . ولا يجوز التعريض لخطبة الرجعية إجماعا لأنها كالزوجة . وأما من كانت فى عدة البينونة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها والله أعلم . ورُوى فى تفسير التعريض ألفاظ كثيرة جماعها يرجع الى قسمين : الأوّل ـــ أن يذكرها لوليها يقول له لا تسبقنى بها . والثانى ـــ أن يشير بذلك إليها دون واسطة؛ فيقول لها : إنى أريد التزويج؛ أو إنك لجميلة، إنك لصالحة، إن الله لسائق إليك خيرا، إنى فيك لراغب، ومن يرغب عنك؟ إنك لنافقة[(1)]، وإن حاجتى فى النساء، وإن يُقدّر الله أمرا يكن . هـذا هو تمثيل مالك وابن شهاب . وقال ابن عباس : لا بأس أن يقول : لا تسبقينى بنفسك، ولا بأس أن يهدى اليها، وأن يقوم بشغلها فى العدة إذا كانت من شأنه ؛ قاله ابراهيم . وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على وجه التعريض بالزواج؛ وقد فعله أبو جعفر محمد بن على بن حسين، قالت سكينة بنت حنظلة استأذن علىّ محمد بن علىّ ولم تنقض عدتى من مهلك زوجى فقال: قد عرفت قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابتى من علىّ وموضعى فى العرب . قلت :

(1) نفقت الأيم : اذا كثر خطابها ورغب فيها .

غفر الله لك يا أبا جعفر ! إنك رجل يؤخذ عنك، تخطبني في عدّتي ! قال : إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عليّ . وقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وهي متأيّمة من أبي سلمة فقال : "لقد علمتِ أني رسول الله وخيرته وموضعي في قومي" كانت تلك خِطبة؛ أخرجه الدّارَقُطْنِيّ . والهديّة الى المعتدّة جائزة ، وهي من التعريض؛ قاله سُحنون وكثير من العلماء وقاله إبراهيم . وكره مجاهد أن يقول لها : لا تسبقيني بنفسك ورآه من المواعدة سرًّا . قال القاضي أبو محمد بن عطيّة : وهذا عندي على أن يتأوّل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لفاطمة أنه على جهة الرأي لها فيمن يتزوّجها لا أنه أرادها لنفسه و إلا فهو خلاف لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ الخِطبة (بكسر الخاء) : فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول . يقال : خطبها يخطُبها خَطْبا وخِطبة . ورجل خطّاب كثير التصرّف في الخِطبة؛ ومنه قول الشاعر :

برّح بالعينين خطّابُ الكُثَبْ ﴿ يقول إني خاطب وقد كذَبْ

﴿ وإنما يَخطُبُ عُسًّا من حلَبْ (١) ﴿

والخطيب : الخاطب . والخِطّيبَى : الخِطبة . قال عديّ بن زيد يذكر قصد جَذيمة الأبرش لخطبة الزّبّاء :

لِخِطّيبَى التي غَدَرَتْ وخانَتْ ﴿ وهنّ ذوات غائلة لُحِينا

والخِطْب : الرجل الذي يخطب المرأة؛ ويقال أيضا : هي خِطْبُه وخِطبته التي يخطبها . والخِطبة فِعلة كجِلسة وقِعْدة : والخُطبة (بضم الخاء) هي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره . قال النحاس : والخطبة ما كان لها أوّل وآخر ، وكذا ما كان على فُعلة نحو الأُكلة والضُّغطة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ معناه سترتم وأضمرتم من التزوّج بها بعد انقضاء عدّتها . والإكنان : السرّ والإخفاء؛ يقال : كننته وأكننته بمعنى واحد . وقيل :

(١) الكثب بضم ففتح جمع كثبة ، وهي كل قليل جمعته من طعام أو لبن أو غير ذلك . والعس (بضم العين) : القدح الضخم . يريد أن الرجل يجيء بعلة الخطبة وهو يريد القرى . قال ابن الأعرابي يقال للرجل اذا جاء يطلب القرى بعلة الخطبة : إنه ليخطب كثبة . (عن اللسان) .

كننته أى صنته حتى لا تصيبه آفة و إن لم يكن مستورا؛ ومنه بَيْض مَكْنُون ودُرٌّ مكنون . وأكننته أسررته وسترته . وقيل : كَنَنْتُ الشيء (من الأجرام) إذا سترته بثوب أو بيت أو أرض ونحوه . وأكننت الأمر فى نفسى . ولم يسمع من العرب « كننته فى نفسى » . ويقال : أَكَنَّ البيتُ الإنسانَ؛ ونحو هذا . فرفع الله الجناح عمن أراد تزوّج المعتدّة مع التعريض ومع الإكنان، ونهى عن المواعدة التى هى تصريح بالتزويج وبناءٌ عليه واتفاق على وَعْد . ورخّص لعلمه تعالى بغلبة النفوس وطَمَحها وضعف البشر عن ملكها .

الخامســة — استدلّت الشافعية بهذه الآية على أن التّعريض لا يجب فيه حدٌّ؛ وقالوا : لما رفع الله تعالى الحَرَج فى التعريض فى النكاح دلّ على أن التّعريض بالقذف لا يوجب الحدّ ؛ لأن الله سبحانه لم يجعل التعريض فى النكاح مقام التصريح . قلنا : هذا ساقط لأن الله سبحانه وتعالى لم يأذن فى التصريح بالنكاح فى الخطبة وأذن فى التعريض الذى يُفهم منه النكاح فهذا دليل على أن التّعريض يُفهم منه القذف؛ والأعراض يجب صيانتها؛ وذلك يوجب حدّ المعرِّض لئلا يتطرّق الفَسَقة إلى أخذ الأعراض بالتّعريض الذى يُفهم منه ما يُفهم بالتصريح .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ أى إمّا سِرًّا و إمّا إعلانا فى نفوسكم وبألسنتكم؛ فرخّص فى التعريض دون التصريح . الحسن معناه ستخطبونهنّ .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ أى على سرّ فحذف الحرف لأنه مما يتعدى الى مفعولين أحدهما بحرف جر .

واختلف العلماء فى معنى قوله تعالى : « سِرًّا » فقيل: معناه نكاحا، أى لا يقل الرجل لهذه المعتدة تزوّجينى؛ بل يعرّض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها ألا تنكح غيره فى استسرار وخفية ؛ هذا قول ابن عباس وابن جُبير ومالك وأصحابه والشّعبى ومجاهد وعكرمة والسُّدّى وجمهور أهل العلم . « وسِرًّا » على هذا التأويل نصب على الحال، أى مُسْتسِرّين . وقيل : السر الزنا ؛ أى لا يكونن منكم مواعدة على الزنا فى العدّة ثم التزوج بعدها . قال معناه جابر بن

زيد وأبو مجلز لاحق بن حميد والحسن بن أبى الحسن وقتادة والنخعى والضحاك وأن السر فى هذه الآية الزنا ، أى لا تواعدوهن زنا ، واختاره الطبرى؛ ومنه قول الأعشى :

فلا تقربن جارة إن سرها * عليك حرام فانكحن أو تأبدا

وقال الحطيئة :

ويحرم سر جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنف القصاع

وقيل : السر الجماع، أى لا تصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ترغيبا لهن فى النكاح فإن ذكر الجماع مع غير الزوجة فحش ؛ هذا قول الشافعى . وقال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى * كبرت وألا يحسن السر أمثالى

وقال رؤبة :

* فكف عن إسرارها بعد العسق *

أى كف عن جماعها بعد ملازمته لذلك . وقد يكون السر عقدة النكاح، سرا كان أو جهرا، قال الأعشى :

فلن يطلبوا سرها للغنى * ولن يسلموها لإزهادها

وأراد لن يطلبوا نكاحها لكثرة مالها ولن يسلموها لقلة مالها . وقال ابن زيد : معنى قوله «ولكن لا تواعدوهن سرا» أى لا تنكحوهن وتكتمون ذلك؛ فاذا حلت أظهرتموه ودخلتم بهن ؛ وهذا هو معنى القول الأول ؛ فابن زيد على هذا قائل بالقول الأول، وإنما شذ فى أن سمى العقد مواعدة، وذلك قلق . وحكى مكى والثعلبى عنه أنه قال : الآية منسوخة بقوله تعالى : « وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ » .

الثامنة — قال القاضى أبو محمد بن عطية : أجمعت الأمة على كراهة المواعدة فى العدة للمرأة فى نفسها وللأب فى ابنته البكر وللسيد فى أمته . قال ابن المواز : وأما الولى الذى لا يملك الجبر فأكرهه وإن نزل لم أفسخه . وقال مالك رحمه الله فيمن يواعد فى العدة ثم يتزوج بعدها : فراقها أحب إلى ، دخل بها أو لم يدخل ، وتكون تطليقة واحدة ؛ فاذا

حلت خطبها مع الخُطّاب ؛ هذه رواية ابن وهب . وروى أشهب عن مالك أنه يفرّق بينهما إيجابا ؛ وقاله ابن القاسم . وحكى ابن الحارث مثله عن ابن الماجشون ، وزاد ما يقتضى أن التحريم يتأبد . وقال الشافعيّ : إن صرح بالخطبة وصرحت له بالإجابة ولم يعقد النكاح حتى تنقضى العدّة فالنكاح ثابت والتصريح لهما مكروه؛ لأن النكاح حادث بعد الخطبة؛ قاله ابن المنذر .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن؛ كقوله إلا خطأ أى لكن خطأ. والقول المعروف هو ما أبيح من التعريض. وقد ذكر الضحّاك أن من القول المعروف أن يقول للمعتدة : احبسى على نفسك فان لى بك رغبة؛ فتقول هى : وأنا مثل ذلك؛ وهذا شبه المواعدة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْزِمُوا ﴾ قد تقدّم القول فى معنى العزم؛ يقال: عزم الشىءَ وعزم عليه . والمعنى هنا : لا تعزموا على عقدة النكاح . ومن الأمر البيّن أن القرآن أفصح كلام؛ فما ورد فيه فلا معترض عليه، ولا يشك فى صحته وفصاحته؛ وقد قال الله تعالى : « وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ » وقال هنا : « وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ » والمعنى : لا تعزموا على عقدة النكاح فى زمان العدّة ثم حذف على ما تقدّم . وحكى سيبويه : ضرب فلان الظهرَ والبطنَ ؛ أى على . قال سيبويه : والحذف فى هذه الأشياء لا يقاس عليه . قال النحاس : ويجوز أن يكون «ولا تعقدوا عقدة النكاح» ؛ لأن معنى «تعزموا وتعقدوا» واحد . و يقال : « تعزُموا » بضم الزاى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ يريد تمام العدّة . والكتاب هنا هو الحدّ الذى جُعل والقدر الذى رسم من المدّة؛ سماه كتابا إذ قد حدّه وفرضه كتاب الله كما قال : « كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » وكما قال : « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » . فالكتاب . الفرض ؛ أى حتى يبلغ الفرض أجله ؛ كتب عليكم الصيام أى فُرض . وقيل:

فى الكلام حذف ، أى حتى يبلغ فرض الكتاب أجله ؛ فالكتاب على هذا التأويل بمعنى القرآن . وعلى الأول لا حذف فهو أولى ، والله أعلم .

الثالثة — حرّم الله تعالى عقد النكاح فى العدّة بقوله تعالى: «وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» وهذا من المحكم المجمع على تأويله أن بلوغ أجله انقضاءُ العدّة. وأباح التعريض فى العدّة بقوله : « وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ » الآية . ولم يختلف العلماء فى إباحة ذلك ، واختلفوا فى ألفاظ التعريض على ما تقدّم . واختلفوا فى الرجل يخطب امرأة فى عدّتها جاهلا ، أو يواعدها و يعقد بعد العدّة ؛ وقد تقدّم هذا فى الآية التى قبلها . واختلفوا إن عَزم العُقدة فى العدّة وعُثر عليه ففسخ الحاكم نكاحه ، وذلك قبل الدخول وهى :

الرابعة — فقول عمر بن الخطاب وجماعة من العلماء أن ذلك لا يؤبّد تحريما ، وأنه يكون خاطبا من الخُطّاب ؛ وقاله مالك وابن القاسم فى المدوّنة فى آخر الباب الذى يليه « ضرب أجل المفقود » . وحكى ابن الجلّاب عن مالك رواية أن التحريم يتأبّد فى العقد و إن فسخ قبل الدخول ؛ ووجهه أنه نكاح فى العِدّة فوجب أن يتأبّد به التحريم ؛ أصله إذا بنى بها . وأما إن عقد فى العِدّة ودخل بعد انقضائها وهى :

الخامسة — فقال قوم من أهل العلم : ذلك كالدخول فى العِدّة ؛ يتأبّد التحريم بينهما . وقال قوم من أهل العلم : لا يتأبّد بذلك تحريم . وقال مالك : يتأبّد التحريم . وقال مرّة : وما التحريم بذلك بالبيّن ؛ والقولان له فى المدوّنة فى طلاق السُّنّة . وأما إن دخل فى العدّة وهى :

السادسة — فقال مالك والليث والأوزاعىّ : يُفرّق بينهما ولا تحل له أبدا . قال مالك والليث : ولا بملك اليمين؛ مع أنهم جوّزوا التزويج بالمزنىّ بها . واحتجّوا بأن عمر ابن الخطاب قال : لا يجتمعان أبدا . قال سعيد : ولها مهرها بما استحل من فرجها؛ أخرجه مالك فى موطّئه وسيأتى . وقال الثورىّ والكوفيون والشافعىّ : يُفرّق بينهما ولا يتأبّد

التحريم بل يفسخ بينهما ثم تعتدّ منه، ثم يكون خاطبا من الخطاب . واحتجوا بإجماع العلماء على أنه لو زنى بها لم يحرم عليه تزويجها ؛ فكذلك وطؤه إياها في العِدّة . قالوا : وهو قول عليّ ؛ ذكره عبد الرزاق . وذكر عن ابن مسعود مثله ؛ وعن الحسن أيضا . وذكر عبد الرزاق عن الثوريّ عن أشعث عن الشّعبيّ عن مسروق أن عمر رجع عن ذلك وجعلهما يجتمعان . وذكر القاضي أبو الوليد الباجيّ في المنتقى فقال : لا يخلو الناكح في العدّة إذا بنى بها أن يبني بها في العِدّة أو بعدها ؛ فإن كان بنى بها في العدّة فإن المشهور من المذهب أن التحريم يتأبد ؛ وبه قال أحمد بن حنبل . وروى الشيخ أبو القاسم في تفريعه أن في التي يتزوّجها الرجل في عدّة من طلاق أو وفاة عالما بالتحريم روايتين ؛ إحداهما — أن تحريمه يتأبّد على ما قدمناه . والثانية — أنه زانٍ وعليه الحدّ ، ولا يُلحق به الولد ، وله أن يتزوجها إذا انقضت عدّتها ؛ وبه قال الشافعيّ وأبو حنيفة . ووجه الرواية الاولى وهي المشهورة ما ثبت من قضاء عمر بذلك ، وقيامه بذلك في الناس ، وكانت قضاياه تسير وتنتشر وتنقل في الأمصار ولم يُعلم له مخالف ؛ فثبت أنه إجماع . قال القاضي أبو محمد : وقد رُوي مثل ذلك عن عليّ بن أبي طالب ، ولا مخالف لهما مع شهرة ذلك وانتشاره ؛ وهذا حكم الإجماع . ووجه الرواية الثانية أن هذا وطء ممنوع فلم يتأبّد تحريمه ؛ كما لو زوّجت نفسها أو تزوّجت مُتْعة أو زنت . وقد قال القاضي أبو الحسن : إن مذهب مالك المشهور في ذلك ضعيف من جهة النظر . والله أعلم . وأسند أبو عمر : حدّثنا عبد الوارث بن سفيان حدّثنا قاسم بن أَصْبَغ عن محمد ابن إسماعيل عن نعيم بن حماد عن ابن المبارك عن أشعث عن الشعبيّ عن مسروق قال : بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوّجها رجل من ثقيف في عدّتها فأرسل إليها ففرّق بينهما وعاقبهما وقال : لا تنكحها أبدا وجعل صداقها في بيت المال ؛ وفشا ذلك في الناس فبلغ عليًّا فقال : يرحم الله أمير المؤمنين ! ما بالُ الصداق وبيت المال ! إنما جهلا فينبغي للإمام أن يردّهما إلى السُّنّة . قيل : فما تقول أنت فيهما ؟ فقال : لها الصداق بما استحلّ من فرجها ، ويفرّق بينهما ولا جلد عليهما ، وتكمل عدّتها من الأوّل ثم تعتدّ من

الثاني عدّة كاملة ثلاثة أقراء ثم يخطبها إن شاء . فبلغ ذلك عمر فخطب الناس فقال : أيها الناس، ردّوا الجهالات الى السُّنّة . قال الكِيَا الطبريّ : ولا خلاف بين الفقهاء أن من عقد على آمرأة نكاحها وهي في عدّة من غيره أن النكاح فاسد . وفي اتفاق عمر وعليّ على نفي الحدّ عنهما ما يدلّ على أن النكاح الفاسد لا يوجب الحدّ ؛ إلا أنه مع الجهل بالتحريم متفق عليه ومع العلم به مختلف فيه . واختلفوا هل تعتدّ منهما جميعا ، وهذه مسألة العِدّتين وهي :

السابعة — فروى المدنيّون عن مالك أنها تتم بقيّة عدّتها من الأوّل وتستأنف عدّة أخرى من الآخر ؛ وهو قول اللّيث والحسن بن حيّ والشافعيّ وأحمد و إسحاق . ورُوِي عن عليّ كما ذكرنا ، وعن عمر على ما يأتي . وروى محمد بن القاسم وابن وهب عن مالك أن عدّتها من الثاني تكفيها من يوم فرّق بينه و بينها ، سواء كانت بالحمل أو بالأقراء أو بالشهور ؛ وهو قول الثوريّ والأوزاعيّ وأبي حنيفة . وحجتهم الإجماع على أن الأوّل لا ينكحها في بقيّة العدّة منه ؛ فدلّ على أنها في عدّة من الثاني ولولا ذلك لنكحها في عدّتها منه . أجاب الأوّلون فقالوا : هذا غير لازم لأن مَنْع الأوّل من أن ينكحها في بقيّة عدّتها إنما وجب لما يتلوها من عدّة الثاني ؛ وهما حقّان قد وجبا عليها لزوجين كسائر حقوق الآدميين لا يدخل أحدهما في صاحبه . وخرّج مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب وعن سليمان بن يسار أن طُليحة الأسدية كانت تحت رشيد الثقفيّ فطلّقها فنكحت في عدّتها فضربها عمر وضرب زوجها بالمخفقة(١) ضربات وفرّق بينهما ؛ ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أيُّما آمرأة نكحت في عدّتها فإن كان زوجها الذي تزوّج بها لم يدخل بها فُرّق بينهما ثم اعتدّت بقية عدّتها من الزوج الأوّل ، ثم كان الآخر خاطبا من الخُطّاب ؛ وإن كان دخل بها فُرّق بينهما ثم اعتدّت بقية عدّتها من الأوّل ثم اعتدّت من الآخر ثم لا يجتمعان أبدا . قال [مالك](٢) : وقال سعيد بن المسيّب : ولها مهرها بما استحلّ من فرجها . قال أبو عمر : وأما طُليحة هذه فهي طُليحة

---

(١) المخفقة : الدرة . (٢) زيادة عن الموطأ .

بنت عبيد الله أخت طلحة بن عبيد الله التّيمي، وفي بعض نسخ الموطأ من رواية يحيى طُليحة الأسدية وذلك خطأ وجهل، ولا أعلم أحدا قاله.

الثامنــة ـــ قوله « فضربها عمر بالمخفقة وضرب زوجها ضربات » يريد على وجه العقوبة لمَا ارتكباه من المحظور وهو النكاح في العـدّة. وقال الزُّهري: فلا أدرى كم بلغ ذلك الجلد. قال: وجلد عبدُ الملك في ذلك كلَّ واحد منهما أربعين جلدة. قال: فسئل عن ذلك قَبيصة بن ذؤيب فقال: لو كنتم خفّفتم بجلدتم عشرين! وقال ابن حبيب في التي تتزوج في العـدّة فيمسّها الرجل أو يُقبّل أو يباشر أو يغمز أو ينظر على وجه اللّذة أن على الزوجين العقوبة وعلى الوليّ وعلى الشهود ومن علم منهم أنها في عدّة، ومن جهل منهم ذلك فلا عقوبة عليه. وقال ابن الموّاز: يجلد الزوجان الحدّ إن كانا تعمّدا ذلك، فيحمل قول ابن حبيب على من علم بالعدة، ولعلّه جهل التحريم ولم يتعمّد ارتكاب المحظور فذلك الذي يعاقب؛ وعلى ذلك كان ضرب عمر المرأة وزوجها بالمخفقة ضربات. وتكون العقوبة والأدب في ذلك بحسب حال المعاقَب. ويحمل قول ابن الموّاز على أنهما علما التحريم واقتحما ارتكاب المحظور جُرأة وإقداما. وقد قال الشيخ أبو القاسم: إنهما روايتان في العَمْد، إحداهما يُحدّ. والثانية يعاقب ولا يحدّ.

التاســعة ـــ قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ هـذا نهاية التحذير من الوقوع فيما نهى عنه.

قوله تعالى: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَـٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى ـــ قوله تعالى: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ هـذا أيضا من أحكام المطلّقات؛ وهو ابتداء إخبار برفع الحَرَج عن المطلّق قبل البناء والجماع، فَرَض مهرا أو لم

يفرض؛ ولمـا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التزوج لمعنى الذّوق وقضاء الشهوة وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتمـاس ثواب الله وقصدِ دوام الصُّحبة وقع فى نفوس المؤمنين أنّ من طلّق قبل البناء قد واقع جزءا من هذا المكروه ؛ فنزلت الآية رافعة للجُناح فى ذلك اذا كان أصل النكاح على المقصد الحسَن . وقال قوم : « لا جناح عليكم » معناه لا طلب لجميع المهر بل عليكم نصف المفروض لمن فُرِض لها والمُتْعة لمن لم يُفرَض لها . وقيل : لمـا كان أمر المهر مؤكّدا فى الشرع فقد يُتوهّم أنه لا بدّ من مهر إما مُسَمًّى وإما مهر المِثْـل ؛ فرفع الحرج عن المطلق فى وقت التطليق وإن لم يكن فى النكاح مهر . وقال قوم : « لا جناح عليكم » معناه فى أن ترسلوا الطلاق فى وقت الحيض ، بخلاف المدخول بها إذ غيرُ المدخول بها لا عدّة عليها .

الثانيـــة — المطلّقات أربع : مطلّقة مدخول بها مفروض لهـا وقـد ذكر الله حكمها قبل هـذه الآية ، وأنه لا يُسترَدّ منها شيء من المهر ، وأن عدّتهـا ثلاثة قروء . ومطلّقة غير مفروض لها ولا مدخول بها فهذه الآية فى شأنها ولا مهر لها ، بل أمر الربُّ تعالى بإمْتاعها ، وبيّن فى سورة «الأحزاب» أن غير المدخول بها اذا طُلّقت فلا عدّة عليها ، وسيأتى . ومطلّقة مفروض لهـا غير مدخول بها ذكرها بعد هذه الآية إذ قال : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً » ، ومطلّقة مدخول بها غير مفروض لها ذكرها الله فى قوله : « فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » ؛ فذكر تعالى فى هذه الآية والتى بعدها مطلّقة قبل المَسِيس وقبل الفرض ، ومطلّقةً قبل المسيس وبعـد الفرض ؛ فجعل للاولى المُتْعة ، وجعل للثانية نصف الصداق لمـا لحق الزوجة من دحض العقد ، ووصْم الحل الحاصل للزّوج بالعقد ؛ وقابل المسيسَ بالمهر الواجب .

الثالثـــة — لمـا قسّم الله تعـالى حال المطلّقة هنا قسمين : مطلّقة مسمًّى لهـا المهر ، ومطلّقة لم يسم لها دلّ على أن نكاح التفويض جائز ، وهو كلّ نكاح عُقد من غير ذكر الصداق ، ولا خلاف فيـه ، ويُفرض بعـد ذلك الصداقُ ، فإن فُرض التحق بالعقد وجاز ، وإن لم يُفرَض لهـا وكان الطلاق لم يجب صداق إجماعا ؛ قاله القـاضى أبو بكر بن العربىّ . وحكى

المَهْدوِىّ عن حماد بن أبى سليمان أنه اذا طلّقها ولم يدخل بها ولم يكن فرض لها أجبر على نصف صداق مثلها . وإن فرض بعد عقد النكاح وقبل وقوع الطلاق فقال أبو حنيفة : لا يتنصّف بالطلاق لأنه لم يجب بالعقد ، وهذا خلاف الظاهر من قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً » وخلافُ القياس أيضا ؛ فإن الفرض بعد العقد يلحق بالعقد فوجب أن يتنصّف بالطلاق ؛ أصله الفرض المقترن بالعقد .

الرابعــة ــ إن وقع الموت قبل الفرض فذكر الترمذىّ عن ابن مسعود « أنه سئل عن رجل تزوّج امرأة لم يَفرِض لهــا ولم يدخل بهــا حتى مات ؛ فقال ابن مسعود : لهــا مثل صداق نسائها ، لا وَكْس ولا شطط ، وعليها العدّة ولها الميراث ؛ فقام مَعْقِل بن سِنان الأشجعىّ فقال : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بَرْوَعَ بنتِ واشِقٍ امرأةٍ منّا مثلَ الذى قضيت ؛ ففرح بها ابن مسعود . قال الترمذى : حديث ابن مسعود حديث حَسَن صحيح ، وقد رُوى عنه من غير وَجه ، والعملُ على هذا عند بعض أهلِ العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، وبه يقول الثّورىّ وأحمد وإسحاق ، وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم منهم علىّ بن أبى طالب وزيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر : إذا تزوّج الرجل امرأة ولم يدخل بها ولم يَفرِض لهــا صداقا حتى مات قالوا : لهــا الميراث ولا صداق لهــا وعليها العدّة ؛ وهو قول الشافعىّ . قال : ولو ثبت حديث بَرْوَعَ بنت واشــق لكانت الحجة فيما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وســلم . وروى عن الشافعىّ أنه رجع بمصرَ بعدُ عن هــذا القول ، وقال بحديث بَرْوَعَ بنت واشق » .

قلت ــ اختلف فى تثبيت حديث بَرْوَعَ ؛ فقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب فى شرح رسالة ابن أبى زيد : وأما حديث بَرْوَعَ بنت واشق فقد ردّه حُفّاظ الحديث وأئمة أهل العلم . وقال الواقدىّ : وقع هــذا الحديث بالمدينة فلم يقبله أحد من العلماء ؛ وصحّحه الترمذىّ كما ذكرنا عنه وابنُ المنذر . قال ابن المنذر : وقد ثبت مثل قول ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه نقول . وذكر أنه قول أبى ثور وأصحاب الرأى . وذُكر عن الزهرى والأوزاعىّ

ومالك والشافعيّ مثلُ قول عليّ وابن زيد وابن عباس وابن عمر . وفى المسألة قول ثالث وهو انه لا يكون ميراث حتى يكون مهر؛ قاله مسروق .

قلت : ومن الحجة لما ذهب اليه مالك أنه فراق فى نكاح قبل الفرض فلم يجب فيه صداق؛ أصله الطلاق؛ لكن إذا صح الحديث فالقياس فى مقابلته فاسد . وقد حكى أبو محمد عبد الحميد عن المذهب ما يوافق الحديث ، والحمد لله . وقال أبو عمر : حديث بَرْوَع رواه عبد الرزاق عن الثّوريّ عن منصور عن ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود، الحديث . وفيه : فقام معقل ابن سنان . وقال فيه ابن مَهدىّ عن الثّورىّ عن فِراس عن الشعبيّ عن مسروق عن عبد الله فقال معقل بن يسار ، والصواب عندى قول من قال معقل بن سِنان لا معقل بن يسار ؛ لأن معقل بن يسار رجل من مُزَينة ، وهذا الحديث إنما جاء فى آمرأة من أَشْجَع لا من مُزَينة ؛ وكذلك رواه داود عن الشعبيّ عن علقمة ؛ وفيه : فقال ناس من أشجع ، ومعقل بن سنان قُتل يوم الحَرّة؛ وفى يوم الحَرّة يقول الشاعر :

أَلَا تلكُمُ الأنصارُ تبكى سَرَاتَها * وأشجعُ تبكى مَعْقِلَ بنَ سِنَانِ

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ « ما » بمعنى الذى ، أى إن طلقتم النساء اللّاتى لم تمسوهن . و « تمسوهن » قرئ بفتح التاء من الثلاثىّ ، وهى قراءة نافع وابن كَثير وأبى عمرو وعاصم وابن عامر . وقرأ حمزة والكسائىّ « تماسوهن » من المفاعلة ؛ لأن الوطء تمّ بهما ؛ وقد يَرِد فى باب المفاعلة فاعل بمعنى فعل ؛ نحو طارقت النعل ، وعاقبت اللصّ . والقراءة الأولى تقتضى معنى المُفاعلة فى هذا الباب بالمعنى المفهوم من المَسّ ؛ ورجّحها أبو علىّ لأن أفعال هذا المعنى جاءت ثلاثية على هذا الوزن ، جاء : نَكَح وسَفَد وقَرَع ودفط[1] وضرب الفحل ؛ والقراءتان حسنتان . و « أو » فى « أو تفرضوا » قيل هو بمعنى الواو ؛ أى ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن ؛ كقوله تعالى : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ » أى وهم قائلون . وقوله : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » أى ويزيدون .

(١) دفط (بالدال المهملة والفاء . وقيل بالذال المعجمة والقاف) وهى بمعنى سفد .

وقوله : «ولا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا» أي وكفورا. وقوله : «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» معناه وجاء أحد منكم من الغائط وأنتم مرضى أو مسافرون . وقوله : «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» وما كان مثله . ويعتضد هذا بأنه تعالى عطف عليها بعد ذلك المفروضَ لها فقال : «وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً» . فلو كان الأوّل لبيان طلاق المفروض لهـا قبل المسيس لمـا كرّره .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ معناه أعطوهن شيئا يكون متاعًا لهن . وحمله ابن عمر وعليّ بن أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وسعيد بن جُبير وأبو قلابة والزُّهريّ وقَتادة والضحّاك بن مُزاحم على الوجوب . وحمله أبو عبيد ومالك بن أنس وأصحابه والقاضي شُريح وغيرهم على النَّدب . تمسّك أهل القول الأوّل بمقتضى الأمر . وتمسك أهل القول الثاني بقوله تعالى : «حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ» و «عَلَى الْمُتَّقِينَ» ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين . والقول الأوّل أَوْلى لأن عمومات الأمر بالإمتاع في قوله : «متِّعوهنّ» و إضافةَ الإمتاع إليهن بلام التمليك في قوله : «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ» أظهرُ في الوجوب منه في النَّدب . وقوله : «عَلَى الْمُتَّقِينَ» تأكيد لإيجابهـا لأن كل واحد يجب عليه أن يتّقي الله في الإشراك به ومعاصيه؛ وقد قال تعالى في القرآن : «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» .

السابعة ــ واختلفوا في الضمير المتّصل بقوله «ومتّعوهنّ» مَن المراد به من النساء؛ فقال ابن عباس وابن عمر وجابر بن زيد والحسن والشافعيّ وأحمد وعطاء و إسحاق وأصحاب الرأي : المُتْعَة واجبة للمطلّقة قبل البناء والفرض ومندوبة في حق غيرها . وقال مالك وأصحابه : المتعة مندوب إليهـا في كل مطلقة و إن دخل بها ، إلا في التي لم يدخل بهـا وقد فرض لها فحسبها ما فرض لها ولا مُتعة لها . وقال أبو ثور : لها المتعة ولكل مطلقة . وأجمع أهل العلم على أن التي لم يفرض لها ولم يدخل بها لا شيء لها غيرُ المتعة . قال الزُّهريّ : يقضي لهابهـا القاضي . وقال جمهور الناس : لا يقضي بها لها .

قلت : هـذا الإجماع إنمـا هو فى الحرّة، فأما الأَمَة إذا طُلّقت قبل الفرض والمسيس فالجمهور على أن لها المُتعة . وقال الأوزاعىّ والثورىّ : لا متعة لها لأنهـا تكون لسيدها وهو لا يستحق مالًا فى مقابلة تأذّى مملوكته بالطلاق . وأما رَبط مذهب مالك فقـال ابن شعبان : المتعة بإزاء غمّ الطلاق، ولذلك ليس للمُختلِعة والمُبارِئة والملاعنة مُتْعةٌ قبل البناء ولا بعده لأنهـا هى التى اختارت الطـلاق . وقال الترمذىّ وعطاء والنّخَعىّ : للمختلعة متعة . وقال أصحاب الرأى : للملاعنة متعة . قال ابن القاسم : ولا متعة فى نكاح مفسوخ . قال ابن المَوّاز : ولا فيما يدخله الفسخ بعـد صحة العقد، مثـل ملك أحد الزوجين صاحبه . قال ابن القاسم : وأصل ذلك قوله تعالى : « وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ » فكان هذا الحكم مختصاً بالطلاق دون الفسخ . وروى ابن وهب عن مالك أن المخيَّرة لهـا المتعة بخلاف الأَمَة تَعتِق تحت العبد فتختار هى نفسها، فهذه لا متعة لها . وأما الحرة تُخيَّر أو تُملَّك أو يتزوّج عليها أَمَة فتختار هى نفسها فى ذلك كلّه فلها المتعة ؛ لأن الزوج سبب للفراق .

الثامنـــة — قال مالك : ليس للمتعة عنـدنا حدّ معروف فى قليلها ولا كثيرها . وقد اختلف الناس فى هـذا ؛ فقال ابن عمر : أدنى ما يجزئ فى المُتعة ثلاثون درهما أو شبهها . وقال ابن عباس : أرفع المتعة خادم ثم كسوة ثم نفقة . عطاء : أوسطها الدّرع والخمار والملحفة . أبو حنيفة : ذلك أدناها . وقال ابن مُحَيْرِيز : على صاحب الديوان ثلاثة دنانير، وعلى العبد المتعة . وقال الحسن : يُمتِّع كلٌّ بقدره، هذا بخادم وهـذا بأثواب وهذا بثوب وهـذا بنفقة ؛ وكذلك يقول مالك بن أنس ، وهو مقتضى القرآن فإن الله سـبحانه لم يقدّرها ولا حدّدها وإنمـا قال : « عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ » . ومتّع الحسن بن علىّ بعشرين ألفا وزِقاق من عسل . ومتّع شُريح بخمسمائة درهم . وقـد قيل : إن حالة المرأة معتبرة أيضا ؛ قاله بعض الشافعيّة قالوا : لو اعتبرنا حال الرجل وحده لزم منه أنه لو تزوّج امرأتين إحداهما شريفة والأخرى دَنيّة ثم طلقهما قبل المَسيس ولم يُسمّ لهما أن يكونا متساويتين فى المتعة فيجب للدّنيّة ما يجب للشريفة وهـذا خلاف ما قال الله تعالى : « مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ » ويلزم منه أن

الموسر العظيم اليسار إذا تزوج امرأة دنيّة أن يكون مثلها؛ لأنه إذا طلقها قبل الدخول والفرض لزمته المتعة على قدر حاله ومهر مثلها ؛ فتكون المتعة على هذا أضعاف مهر مثلها ؛ فتكون قد استحقّت قبل الدخول أضعاف ما تستحقه بعد الدخول من مهر المثل الذي فيه غاية الابتذال وهو الوطء . وقال أصحاب الرأي وغيرهم : مُتعة التي تُطلّق قبل الدخول والفرض نصفُ مهر مثلها لا غير؛ لأن مهر المثل مستحق بالعقد والمتعة هي بعض مهر المثل؛ فيجب لها كما يجب نصف المسمّى إذا طلّق قبل الدخول ، وهذا يرده قوله تعالى : « عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ » وهذا دليل على رفض التحديد؛ والله بحقائق الأمور عليم .

وقد ذكر الثعلبيّ حديثا قال : نزلت « لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » الآية، في رجل من الأنصار تزوّج امرأة من بني حَنيفة ولم يسم لهـا مهرا ثم طلقها قبل أن يَمسّها فنزلت الآية ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " مَتّعها ولو بقَلَنْسُوتك " . وروى الدارَقُطْنيّ عن سُويد بن غَفَلة قال : كانت عائشة الخَثْعَميّة عند الحسن بن عليّ بن أبي طالب فلما أصيب عليّ وبُويع الحسن بالخلافة قالت : لِتَهْنِكَ الخلافةُ يا أمير المؤمنين! فقال : يُقتل عليّ وتُظهرين الشماتة! إذهبي فأنت طالق ثلاثا . قال : فتلفّعت بساجها (١) وقعدت حتى انقضت عدّتها، فبعث إليها بعشرة آلافٍ مُتعةً، وبقيّةِ ما بقي لها من صداقها . فقالت :

* متاعٌ قليل من حَبيب مُفارِقِ *

فلما بلغه قولها بكى وقال : لولا أني سمعت جدّي ــ أو حدثني أبي أنه سمع جدّي ــ يقول : أيّما رجل طلّق امرأته ثلاثا مُبهمة أو ثلاثا عند الأقراء لم تحلّ له حتى تنكح زوجا غيره لراجعتُها . وفي رواية : أخبره الرسول فبكى وقال : لولا أني أبنْتُ الطلاق لهـا لراجعتُها ، ولكنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أيّما رجل طلّق امرأته ثلاثا عند كل طهر تطليقةً أو عند رأس كل شهر تطليقةً أو طلّقها ثلاثا جميعا لم تحِل له حتى تنكح زوجا غيره " .

---

(١) في بعض الأصول : « بجلبابها » . والساج : الطيلسان الضخم الغليظ . وقيل هو الطيلسان المقوّر ينسج كذلك .

التاسعة — من جهل المتعة حتى مضت أعوامٌ فليدفع ذلك إليها وإن تزوّجت، وإلى ورثتها إن ماتت؛ رواه ابن المَوّاز عن ابن القاسم . وقال أَصْبغ : لا شيء عليه إن ماتت لأنها تسلية للزوجة عن الطلاق وقد فات ذلك . ووجه الأوّل أنه حق ثبت عليه وينتقل عنها إلى ورثتها كسائر الحقوق، وهذا يشعر بوجوبها في المذهب، والله أعلم .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ دليل على وجوب المتعة . وقرأ الجمهور «الموسِع» بسكون الواو وكسر السين، وهو الذي اتسعت حاله؛ يقال: فلان ينفق على قدره، أي على وسعه . وقرأ أبو حَيْوَة بفتح الواو وشد السين وفتحها . وقرأ ابن كَثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر «قدْره» بسكون الدال في الموضعين . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بفتح الدال فيهما . قال أبو الحسن الأخفش وغيره : هما بمعنًى، لغتان فصيحتان؛ وكذلك حكى أبو زيد، يقول : خذ قدْر كذا وقدَر كذا، بمعنًى . ويقرأ في كتاب الله : « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » وقدْرِها، وقال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » ولو حركت الدال لكان جائزا . و « المُقْتِر » المُقِل القليل المال . و « متاعا » نصب على المصدر، أي متعوهن متاعا بالمعروف، أي بما عرف في الشرع من الاقتصاد .

الحادية عشر — قوله تعالى : ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي يحقّ ذلك عليهم حقا؛ يقال: حققت عليه القضاء وأحققت، أي أوجبت؛ وفي هذا دليل على وجوب المتعة مع الأمر بها؛ فقوله : « حقا » تأكيد للوجوب . ومعنى « على المحسنين، وعلى المتقين » أي على المؤمنين، إذ ليس لأحد أن يقول : لست بمحسن ولا متّقٍ، والناس مأمورون بأن يكونوا جميعا محسنين متّقين؛ فيحسنون بأداء فرائض الله ويجتنبون معاصيه حتى لا يدخلوا النار؛ فواجب على الخلق أجمعين أن يكونوا محسنين متقين . و « حقا » صفة لقوله « متاعا » أو نصب على المصدر، وذلك أدخل في التأكيد للأمر؛ والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

فيه ثمان مسائل .

الأولى ــ اختلف الناس فى هــذه الآية ؛ فقالت فرقة منها مالك وغيره : إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من حكم التمتع إذ يتناولها قولُه تعالى : «وَمَتِّعُوهُنَّ» . وقال ابن المسيّب : نسخت هذه الآيةَ الآيةُ التى فى « الأحزاب » لأن تلك تضمنت تمتيع كلّ من لم يدخل بها . وقال قتادة : نسخت هذه الآيةُ الآيةَ التى قبلها .

قلت : قول سعيد وقتادة فيه نظر، إذ شروط النّسخ غير موجودة والجمع ممكن . وقال ابن القاسم فى المدوّنة : كان المَتاع لكل مطلقة بقوله تعالى : « وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ» ولغير المدخول بها بالآية التى فى سورة « الأحزاب » فاستثنى الله تعالى المفروضَ لها قبل الدخول بها بهذه الآية، وأثبت للفروض لهــا نصفَ ما فُرض فقط . وقال فريق من العلمــاء منهم أبو ثور : المتعة لكل مطلّقة عموما، وهذه الآية إنما بيّنت أن المفروض لها تأخذ نصف مافُرض لها، ولم يُعن بالآية إسقاط متعتها بل لها المتعة ونصف المفروض .

الثــانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ أى فالواجب نصف ما فرضــتم ، أى من المهر فالنصف للزوج والنصف للــرأة بإجماع . والنصف الجزء من اثنين ؛ فيقال : نَصَفَ المــاءُ القدحَ أى بلغ نصفه . ونَصَفَ الإزارُ الساقَ؛ وكلّ شيء بلغ نصف غيره فقــد نَصَفه . وقرأ الجمهور «فنصفُ» بالرفع . وقرأت فرقة «فنصفَ» بنصب الفاء؛ المعنى فادفعوا نصفَ . وقرأ عليّ بن أبى طالب وزيد بن ثابت «فنُصف» بضم النون فى جميع القرآن وهى لغة . وكذلك روى الأصمعى قراءةً عن أبى عمــرو بن العــلاء يقال : نِصْف ونُصْف ونَصِيف ،

لغاتٌ ثلاث فى النصف؛ وفى الحديث: "لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه" أى نصفه. والنَّصيف أيضا القِناع.

الثالثــة — إذا أصدقها ثم طلّقها قبل الدخول ونَمَا الصداق فى يدها فقال مالك: كلّ عَرَض أصدقها أو عبد فنماؤهما لها جميعا ونقصانه بينهما، وتَوَاه (1) عليهما جميعا ليس على المرأة منه شىء. فإن أصدقها عَيْناً ذهبا أو وَرِقا فاشترت به عبدا أو دارا أو اشترت به منه أو من غيره طِيباً أو شُوارا أو غيرَ ذلك مما لها التصرّف فيه لجهازها وصلاح شأنها فى بقائها معه فذلك كله بمنزلة ما لو أصدقها إيّاه، ونماؤه ونقصانه بينهما. وإن طلّقها قبل الدخول لم يكن لها إلا نصفه، وليس عليها أن تَغْرَم له نصف ماقبضته منه، وإن اشترت به أو منه شيئا تختصّ به فعليها أن تغرَم له نصف صداقها الذى قبضت منه، وكذلك لو اشترت من غيره عبدا أو دارا بالألف الذى أصدقها ثم طلّقها قبل الدخول رجع عليها بنصف الألف.

الرابعــة — لا خلاف أن من دخل بزوجته ثم مات عنها وقد سمّاها أن لها ذلك المسمّى كاملا والميراث وعليها العدّة.

واختلفوا فى الرجل يَخْلُو بالمرأة ولم يجامعها حتى فارقها؛ فقال الكوفيون ومالك: عليه جميع المهر وعليها العدة لخبر ابن مسعود قال: قضى الخلفاء الراشدون فيمن أغلق بابا أو أرخى سترا أن لها الميراث وعليها العدّة؛ ورُوِى مرفوعا خرّجه الدّارَقُطْنِيّ وسيأتى فى «النساء». والشافعىّ لا يوجب مهرا كاملا، ولا عدّة إذا لم يكن دخول لظاهر القرآن. قال شُرَيح: لم أسمع الله تعالى ذكر فى كتابه بابا ولا سترا، إذا زعم أنه لم يمسّها فلها نصف الصداق؛ وهو مذهب ابن عباس. وسيأتى ما لعلمائنا فى هذا فى سورة «النساء» إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: «وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ».

الخامســة — قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ الآية. «إلّا أن يعفون» استثناء منقطع لأن عفوهن عن النصف ليس من جنس أخذهن. و «يعفون»

---

(1) تواه: هلاكه.

معناه يتركن ويصفحن ، ووزنه يفعلن . والمعنى إلا أن يتركن النصف الذى وجب لهن عند الزوج ، ولم تسقط النون مع « أنْ » لأن جمع المؤنث فى المضارع على حالة واحدة فى الرفع والنصب والجزم ، فهى ضمير وليست بعلامة إعراب فلذلك لم تسقط ، ولأنه لو سقطت النون لاشتبه بالمذكّر . والعافيات فى هذه الآية كلّ امرأة تملك أمر نفسها ، فأذن الله تعالى لهن فى إسقاطه بعد وجوبه إذ جعله خالص حقهن فيتصرفن فيه بالإمضاء والإسقاط كيف شئن ، إذا ملكن أمر أنفسهن وكنّ بالغات عاقلات راشدات . وقال ابن عباس وجماعة من الفقهاء والتابعين : ويجوز عفو البكر التى لا وَلِىّ لها ؛ وحكاه سُحنون فى المدوّنة عن غير ابن القاسم بعد أن ذكر لابن القاسم أن وضعها نصف الصداق لا يجوز . وأما التى فى حجر أب أو وصىّ فلا يجوز وضعها لنصف صداقها قولا واحدا ، ولا خلاف فيه فيما أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ ﴾ معطوف على الأوّل مبنىّ وهذا معرب . وقرأ الحسن « أوْ يعفْو » ساكنة الواو ، كأنه استثقل الفتحة فى الواو . واختلف الناس فى المراد بقوله تعالى : « أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » فروى الدّارَقُطْنِىّ عن جُبير ابن مُطعِم أنه تزوّج امرأة من بنى نصر فطلّقها قبل أن يدخل بها فأرسل إليها بالصداق كاملا وقال : أنا أحق بالعفو منها ، قال الله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » وأنا أحق بالعفو منها . وتأوّل قوله تعالى : « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » يعنى نفسه فى كل حال قبل الطلاق وبعده ، أى عقدة نكاحه ؛ فلما أدخل اللام حذف الهاء كقوله : « فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى » أى مأواه . قال النابغة :

لهم شيمةٌ لم يُعطِها اللهُ غيرَهم * من الجُود والأحلامُ غيرُ عَوَازِبِ

أى أحلامهم . وكذلك قوله : « عُقْدَةُ النِّكَاحِ » أى عقدة نكاحه . وروى الدّارَقُطْنِىّ مرفوعا من حديث قُتيبة بن سعيد حدّثنا ابن لَهِيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وَلِىّ عُقدة النكاح الزوج " . وأسند هذا عن علىّ وابن عباس وسعيد بن المسيّب وشُريح . قال : وكذلك قال نافع بن جُبير ومحمد بن كعب وطاوس ومجاهد

والشعبيّ وسعيد بن جُبير، زاد غيره ومجاهد والثوريّ؛ واختاره أبو حنيفة وهو الصحيح من قول الشافعي، كلهم لا يرى سبيلا للوليّ على شيء من صداقها للإجماع على أن الوليّ لو أبرأ الزوج من المهر قبل الطلاق لم يجز فكذلك بعده . وأجمعوا على أن الوليّ لا يملك أن يهب شيئا من مالها، والمهر مالها . وأجمعوا على أن من الأولياء من لا يجوز عفوهم وهم بنو العمّ وبنو الإخوة، فكذلك الأب ، والله أعلم . ومنهم من قال هو الوليّ ، أسنده الدّارقُطْنيّ أيضا عن ابن عباس قال ؛ وهو قول ابراهيم وعلقمة والحسن، زاد غيره وعِكرمة وطاوس وعطاء وأبي الزّناد وزيد بن أسلم وربيعة ومحمد بن كعب وابن شهاب والأسود بن يزيد والشّعبيّ وقتادة ومالك والشافعيّ في القديم . فيجوز للأب العفو عن نصف صداق ابنته البكر اذا طُلّقت، بلغت المحيض أم لم تبلغه . قال عيسى بن دينار : ولا ترجع بشيء منه على أبيها، والدليل على أن المراد الوليّ أن الله سبحانه وتعالى قال في أوّل الآية : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » فذكر الأزواج وخاطبهم بهذا الخطاب، ثم قال : « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ» فذكر النّسوان، «أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ» فهو ثالث فلا يُردّ إلى الزوج المتقدم إلا لو لم يكن لغيره وجود وقد وُجد وهو الوليّ فهو المراد. قال معناه مكيّ وذكره ابن العربيّ . وأيضا فإن الله تعالى قال : « إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ » ومعلوم أنه ليس كل امرأة تعفو، فإن الصغيرة والمحجور عليها لا عفو لها، فبيّن الله القسمين فقال : «إلا أن يعفون» أي إن كنّ لذلك أهلا، «أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح» وهو الوليّ لأن الأمر فيه إليه . وكذلك روى ابن وهب وأشهب وابن عبد الحكم وابن القاسم عن مالك أنه الأب في ابنته البكر والسيّد في أمته . وإنما يجوز عفو الوليّ إذا كان من أهل السّداد، ولا يجوز عفوه إذا كان سفيها . فإن قيل: لا نسلّم أنه الوليّ بل هو الزوج، وهذا الاسم أولى به لأنه أملك للعقد من الوليّ على ما تقدّم. فالجواب — أنا لا نُسلّم أن الزوج أملك بالعقد من الأب في ابنته البكر، بل أب البكر يملكه خاصة دون الزّوج؛ لأن المعقود عليه هو بُضع البكر ولا يملك الزوج أن يعقد على ذلك بل الأب يملكه . وقد أجاز شُريح عفو الأخ عن نصف المهر؛ وكذلك قال عكرمة : يجوز عفو الذي

عقد عقدة النكاح بينهما ، كان عمًّا أو أبا أو أخا ، وإن كرهتْ . وقرأ أبو نَهيك والشعبيّ «أو يعفو» بإسكان الواو على التشبيه[1] بالألف، ومثله قول الشاعر :

فما سوّدتنى عامرٌ عن وراثة * أبى الله أن أسمو بأمّ ولا أب

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ ابتداء وخبر، والأصل تعفوُوا أسكنت الواو الأولى لثقل حركتها ثم حذفت لالتقاء الساكنين، وهو خطاب للرجال والنساء فى قول ابن عباس فغلّب الذكور ، واللام بمعنى إلى، أى أقرب إلى التقوى . وقرأ الجمهور « تعفوا » بالتاء باثنتين من فوق . وقرأ أبو نَهيك والشعبيّ « وأن يعفوا » بالياء ، وذلك راجع إلى الذى بيده عقدة النكاح .

قلت : ولم يُقرأ «وأن تعفون» بالتاء فيكون للنساء . وقرأ الجمهور «ولا تَنْسَوُا الفضل» بضم الواو، وكسرها يحيى بن يعمر . وقرأ علىّ ومجاهد وأبو حَيْوَة وابن أبى عَبْلَة «ولا تناسوا الفضل» وهى قراءة متمكنة المعنى؛ لأنه موضع تناس لا نسيان إلا على التشبيه . قال مجاهد: الفضل إتمام الرجل الصداقَ كلّه، أو ترك المرأة النصفَ الذى لها .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ خبر فى ضمنه الوعد للمحسن والحرمان لغير المحسن، أى لا يخفى عليه عفوكم واستقضاؤكم .

قوله تعالى : حَـٰفِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

فيه ثمان مسائل

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا ﴾ خطاب لجميع الأمة، والآية أمر بالمحافظة على إقامة الصلوات فى أوقاتها بجميع شروطها . والمحافظة هى المداومة على الشىء والمواظبة عليه .

(١) فى الأصول : «على النسبة بالألف» . وعبارة الكشاف : «وقرأ الحسن (أو يعفو الذى) بسكون الواو، وإسكان الواو والياء فى موضع النصب تشبيه لهما بالألف لأنهما أختاها » .

والوسطى تأنيث الأوسط . ووسط الشيء خيره وأعدله ؛ ومنه قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »[1] وقد تقدم . وقال أعرابي يمدح النبي صلى الله عليه وسلم

يا أوسط الناس طراً في مفاخرهم * وأكرم الناس أماً برّة وأبا

ووسط فلانٌ القومَ يسطُهم أي صار في وسطهم . وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر وقد دخلت قبلُ في عموم الصلوات تشريفا لها ؛ كقوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » ، وقوله : « فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمانٌ » . وقرأ أبو جعفر الواسطي « والصلاةَ الوسطى » بالنصب على الإغراء ، أي والزموا الصلاة الوسطى ؛ وكذلك قرأ الحلواني . وقرأ قالُون عن نافع « الوصطى » بالصاد لمجاورة الطاء لها لأنهما من حيز واحد ؛ وهما لغتان كالصراط ونحوه .

الثانيــة ــ واختلف الناس في تعيين الصلاة الوسطى على عشرة أقوال :

الأول ــ أنها الظهر لأنها وسط النهار على الصحيح من القولين أن النهار أوله من طلوع الفجر كما تقدم ، وإنما بدأنا بالظهر لأنها أول صلاة صُلِّيت في الإسلام . وممن قال إنها الوسطى زيد بن ثابت وأبو سعيد الخُدري وعبد الله بن عمر وعائشة رضي الله عنهم . ومما يدل على أنها وُسطى ما قالته عائشة وحفصة حين أملتا « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر » بالواو . وروى أنها كانت أشقّ على المسلمين لأنها كانت تجيء في الهاجرة وهم قد تَفّهتهم[2] أعمالُهم في أموالهم . وروى أبو داود عن زيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي الظهر بالهاجرة ولم تكن تُصلّى صلاةٌ أشدّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، فنزلت : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقال : إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين . وروى مالك في موطئه وأبو داود الطيالسي في مسنده عن زيد بن ثابت قال : الصلاة الوسطى صلاة الظهر ؛ زاد الطيالسي : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّيها بالهجير .

---

(١) تراجع المسألة الأولى جـ ٢ ص ١٥٣ طبعة ثانية . (٢) تفهه : أتعبه حتى انقطع .

الثانى — أنها العصر لأن قبلها صلاتى نهار و بعدها صلاتى ليل . قال النحاس : وأجود من هذا الاحتجاج أن يكون إنما قيل لها وُسْطى لأنها بين صلاتين إحداهما أوّل ما فُرض والأخرى الثانية مما فُرض . وممن قال إنها وسطى علىّ بن أبى طالب وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد الخُدْرىّ ، وهو اختيار أبى حنيفة وأصحابه ، وقاله الشافعىّ وأكثر أهل الأثر ؛ وإليه ذهب عبد الملك بن حبيب واختاره ابن العربىّ فى قَبَسه وابن عطيّة فى تفسيره وقال : وعلى هذا القول الجمهور من الناس و به أقول . واحتجوا بالأحاديث الواردة فى هذا الباب خرّجها مسلم وغيره، وأنصها حديث ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الصلاة الوسطى صلاة العصر " خرّجه الترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح . وقد أتينا زيادة على هذا فى المقتبس فى شرح موطّأ مالك بن أنس .

الثالث — أنها المغرب؛ قاله قَبيصة بن أبى ذُؤيب فى جماعة . والحجة لهم أنها متوسطة فى عدد الركعات ليست بأقلها ولا أكثرها ولا تُقصر فى السفر، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤخرها عن وقتها ولم يعجلها، و بعدها صلاتا جهر وقبلها صلاتا سر . ورُوى من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يَحُطّها عن مسافر ولا مقيم فتح الله بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلّى المغرب وصلّى بعدها ركعتين بَنَى الله له قصرا فى الجنة ومن صلّى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنب عشرين سنة — أو قال — أربعين سنة " .

الرابع — صلاة العشاء الآخرة لأنها بين صلاتين لا تقصران، وتجىء فى وقت نوم ويستحب تأخيرها وذلك شاقّ فوقع التأكيد فى المحافظة عليها .

الخامس — أنها الصبح لأن قبلها صلاتى ليل يجهر فيهما و بعدها صلاتى نهار يسرّ فيهما ؛ ولأن وقتها يدخل والناس نيام ، والقيام اليها شاقّ فى زمن البرد لشدّة البرد وفى زمن الصيف لقصر الليل . وممن قال إنها وسطى علىّ بن أبى طالب وعبد الله بن عبّاس ، أخرجه

الموطأ بلاغا[1]، وأخرجه الترمذيّ عن ابن عمر وابن عباس تعليقا[2]، ورُوى عن جابر بن عبد الله وهو قول مالك وأصحابه، واليه مَيْـل الشافعيّ فيما ذكر عنه القُشيريّ، والصحيح عن عليّ أنها العصر، ورُوى عنه ذلك من وجه معروف صحيح. وقد استدلّ من قال إنها الصبح بقوله تعالى: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» يعني فيهـا، ولا صلاةَ مكتوبةٌ فيها قُنوت إلا الصبح. قال أبو رَجاء: صلّى بنا ابن عباس صلاة الغـداة بالبصرة فقَنَت فيها قبل الركوع ورفع يديه، فلما فرغ قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا الله تعالى أن نقوم فيها قانتين. وقال أنس: قَنَت النبيّ صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح بعد الركوع؛ وسيأتي حكم القنوت وما للعلماء فيه في «آل عمران» عند قوله تعالى: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ»[3].

السادس — صلاة الجمعة لأنهـا خُصّت بالجمع لهـا والخطبة فيها وجُعلت عيدا؛ ذكره ابن حبيب ومكيّ. وروى مسلم عن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لقوم يتخلّفون عن الجمعة: "لقد هَمَمت أن آمُر رجلا يصلّي بالناس ثم أُحَرِّق على رجال يتخلّفون عن الجمعة بيوتهـم".

السابع — أنها الصبح والعصر معا؛ قاله الشيخ أبو بكر الأَبْهَريّ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار" الحديث، رواه أبو هريرة. وروى جَرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر الى القمر ليلة البدر فقال: "أَمَا إنكم سترَوْن ربكم كما تَرَوْن هذا القمر لا تَضَامُّون[4] في رؤيته فإن آستطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها" يعني العصر والفجر، ثم قرأ جرير «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». وروى عُمارة بن رُؤَيْبة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لن يَلِج النار أحد صلّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها" يعني

---

(١) أي قال مالك في الموطأ إنه بلغه عنهما. (٢) التعليق: رواية الحديث من غير سند.

(٣) آية ١٢٨ (٤) قال النووي: «تضامون» بتشديد الميم وتخفيفها، فن شدّدها فتح التاء، ومن خففها ضم التاء، ومعنى المشدّد أنكم لا تتضامون وتتلطفون في التوصل الى رؤيته، ومعنى المخفف أنه لا يلحقكم ضيم، وهو المشقة والتعب.

بالفجر والعصر . وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ صلّى البَرْدَين دخل الجنة" . كلّه ثابت فى صحيح مسلم وغيره . وسُمِّيتا البَرْدين لأنهما يُفعلان فى وقت البَرْد .

الثامن ــ أنها العَتَمة والصبح . قال أبو الدَّرْداء رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه : اسمعوا وبلِّغوا مَن خلفكم حافظوا على هاتين الصلاتين ــ يعنى فى جماعة ــ العشاء والصبح ، ولو تعلمون مافيهما لأتيتموهما ولو حَبْوًا على مرافقكم ورُكَبكم ؛ وقاله عمر وعثمان . وروى الأئمة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ولو يعلمون ما فى العَتَمة والصبح لأتوهما ولو حَبْوًا ــ وقال ــ إنهما أشدّ الصلوات على المنافقين " وجعل لمصلّى الصبح فى جماعة قيام ليلة والعَتَمة نصف ليلة ؛ ذكره مالك موقوفا على عثمان ورفعه مسلم ، وخرّجه أبو داود والترمذىّ عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من شَهِد العشاء فى جماعة كان له قيامُ نصف ليلة ومن صلّى العشاء والفجر فى جماعة كان له كقيام ليلة " وهذا خلاف مارواه مالك ومسلم .

التاسع ــ أنها الصلوات الخمس بجملتها ؛ قاله معاذ بن جبل ، لأن قوله تعالى : «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ» يعمّ الفرض والنفل ، ثم خصّ الفرض بالذكر .

العاشر ــ أنها غير معيّنة ؛ قاله نافع عن ابن عمر ، وقاله الربيع بن خُثَيْم ؛ خبأها الله تعالى فى الصلوات كما خبأ ليلة القَدْر فى رمضان ، وكما خبأ ساعة يوم الجمعة وساعات الليل المستجاب فيها الدعاء ليقوموا بالليل فى الظلمات لمناجاة عالم الخفيّات . ومما يدلّ على صحة أنها مبهمة غير معيّنة مارواه مسلم فى صحيحه فى آخر الباب عن البَرَاء بن عازب قال : نزلت هذه الآية «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر» فقرأناها ما شاء الله ، ثم نسخها الله فنزلت : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » فقال رجل : هى إذًا صلاة العصر ؟ فقال البَرَاء : قد أخبرتك كيف نزلت وكيف نسخها الله تعالى ، والله أعلم . فلزم من هذا أنها بعد أن عُيِّنت نُسخ تعيينها وأبهمت فارتفع التعيين ، والله أعلم . هذا اختيار مُسْلم لأنه أتى به فى آخر الباب ،

وقال به غير واحد من العلماء المتأخرين، وهو الصحيح ان شاء الله تعالى لتعارض الأدلة وعدم الترجيح، فلم يبق الا المحافظة على جميعها وأدائها فى أوقاتها، والله أعلم .

الثالثة — وهذا الاختلاف فى الصلاة الوسطى يدل على بطلان من أثبت « وصلاة العصر » المذكور فى حديث أبى يونس مولى عائشة حين أمرته أن يكتب لها مصحفا قرآنا. قال علماؤنا : وإنما ذلك كالتفسير من النبيّ صلى الله عليه وسلم، يدل على ذلك حديث عمرو ابن رافع قال : أمرتنى حفصة أن أكتب لها مصحفا، الحديث . وفيه : فأملت عليّ « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى العصر وقوموا لله قانتين » وقالت : هكذا سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها . فقولها « وهى العصر » دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر الصلاة الوسطى من كلام الله تعالى بقوله هو "وهى العصر" . وقد روى نافع عن حفصة « وصلاة العصر » كما روى عن عائشة وعن حفصة أيضا « صلاة العصر » بغير واو . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا الخلاف فى هذا اللفظ المزيد يدل على بطلانه وصحة ما فى الإمام مصحف جماعة المسلمين . وعليه حجة أخرى وهو أن من قال : والصلاة الوسطى وصلاة العصر جعل الصلاة الوسطى غير العصر ؛ وفى هذا دفعٌ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه عبد الله قال: شغل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب عن صلاة العصر حتى آصفرت الشمس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "شغلونا عن الصلاة الوسطى ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا" الحديث .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ دليل على أن الوتر ليس بواجب ؛ لأن المسلمين آتفقوا على أعداد الصلوات المفروضات أنها تنقص عن سبعة وتزيد على ثلاثة ؛ وليس للثلاثة والسبعة فرد الا الخمسة ، والأزواج لا وسط لها فثبت أنها خمسة . وفى حديث الإسراء "هى خمس وهى خمسون لا يبدّل القول لدىّ".

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ معناه فى صلاتكم . واختلف الناس فى معنى قوله «قانتين» فقال الشعبىّ : طائعين؛ وقاله جابر بن زيد وعطاء وسعيد بن جُبير .

وقال الضحاك : كل قنوت فى القرآن فإنما يعنى به الطاعة . وقال أبو سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وإن أهل كل دِين فهم اليوم يقومون عاصين فقيل لهذه الأمة فقوموا لله طائعين". وقال مجاهد : معنى قانتين خاشعين . والقنوت طول الركوع والخشوع وغضّ البصر وخفض الجناح . وقال الربيع : القنوت طول القيام ؛ وقاله ٱبن عمر وقرأ « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا » . وقال عليه السلام : "أفضل الصلاة طول القنوت" خرّجه مسلم وغيره. وقال الشاعر :

قانتًا لله يــدعو ربَّــه * وعلى عَمْد من الناس آعتزلْ

وقــد تقدّم[(١)] . وروى ابن عبـاس « قانتين » أى داعين . وفى الحديث : قنت رسـول الله صلى الله عليه وسلم شهرا يدعو على رِعْلٍ وذَكْوان[(٢)] . قال قوم: معناه دعا ، وقال قوم: معناه طولُ قيامه . وقال السُّدّى : قانتين ساكتين؛ دليله أن الآية نزلت فى المنع من الكلام فى الصلاة وكان ذلك مُباحا فى صـدر الإسلام؛ وهـذا هو الصحيح لمـا رواه مسلم وغيره عن عبد الله ابن مسعود قال : كنّا نُسلّم على رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وهو فى الصـلاة فيردّ علينا ، فلمـا رجعنا من عند النّجاشيّ سلّمنا عليـه فلم يردّ علينا فقلنا : يا رسول الله ، كنّا نُسلّم عليك فى الصلاة فتردّ علينا؟ فقال : "إن فى الصلاة شُغُلا" . وروى زيد بن أرقم قال : كنّا نتكلم فى الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه فى الصلاة حتى نزلت : « وقوموا لله قانتين » فأمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام . وقيل : إن أصل القنوت فى اللغة الدوام على الشيء . ومن حيث كان أصـل القنوت فى اللغة الدوام على الشيء جاز أنْ يُسمّى مديم الطاعة قانتا ، وكذلك من أطال القيام والقراءة والدعاء فى الصلاة ، أو أطال الخشوع والسكوت ، كلُّ هؤلاء فاعلون للقنوت .

السادسـة ـ قال أبو عمر : أجمع المسلمون طُرًّا أن الكلام عامدا فى الصلاة إذا كان المصلّى يعلم أنه فى صـلاة ولم يكن ذلك فى إصلاح صلاته أنه يفسد الصلاة إلا ما رُوى عن

(١) راجع المسألة الخامسة جـ ٢ ص ٨٦ طبعة ثانية .

(٢) رعل وذكوان : قبيلتان من سليم وإنما دعا عليهم لقتلهم القراء .

الأوزاعيّ أنه قال : من تكلم لإحياء نفس أو مثل ذلك من الأمور الجسام لم تفسد صلاته بذلك . وهو قول ضعيف فى النظر؛ لقول الله عز وجل : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » وقال زيد ابن أرقم: كنا نتكلم فى الصلاة حتى نزلت: «وقوموا لله قانتين» الحديث. وقال ابن مسعود: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله أحدث من أمره ألا تكلّموا فى الصلاة". وليس الحادث الجسيم الذى يجب له قطع الصلاة ومن أجله يمنع من الاستئناف . فمن قطع صلاته لما يراه من الفضل فى إحياء نفس أو مال أو ما كان بسبيل ذلك استأنف صلاته ولم يبن . هذا هو الصحيح فى المسألة إن شاء الله تعالى .

السابعة — واختلفوا فى الكلام ساهيا فيها؛ فذهب مالك والشافعيّ وأصحابهما الى أن الكلام فيها ساهيا لا يفسدها ، غير أن مالكا قال : لا يفسد الصلاة تعمّد الكلام فيها اذا كان فى شأنها و إصلاحها ؛ وهو قول ربيعة وابن القاسم . وروى سحنون عن ابن القاسم عن مالك قال : لو أن قوما صلّى بهم الإمام ركعتين وسلّم ساهيا فسبّحوا به فلم يفقه فقال له رجل من خلفه ممن هو معه فى الصلاة : إنك لم تُتم فأتمّ صلاتك؛ فالتفت الى القوم فقال : أحقٌّ ما يقول هذا ؟ فقالوا ، نعم قال : يُصلّى بهم الإمام ما بقى من صلاتهم و يُصلّون معه بقيّة صلاتهم مَن تكلّم منهم ومن لم يتكلم ، ولا شىء عليهم ، و يفعلون فى ذلك مافعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم ذى اليدين (١) . هذا قول ابن القاسم فى المدوّنة وروايته عن مالك ، وهو المشهور من مذهب مالك و إياه تقلّد إسماعيل بن إسحاق واحتج له فى كتاب ردّه على محمد بن الحسن . وذكر الحارث بن مسكين قال : أصحاب مالك كلّهم على خلاف قول مالك فى مسألة ذى اليدين إلا ابن القاسم وحده فانه يقول فيها بقول مالك، وغيرهم يأبونه يقولون : إنما كان هذا فى صدر الإسلام ، فأما الآن فقد عرف الناس صلاتهم فمن تكلّم فيها أعادها ؛ وهذا هو قول العراقيين : أبى حنيفة وأصحابه والثورىّ فإنهم ذهبوا الى أن الكلام فى الصلاة يفسدها على أىّ حال كان سهوا أو عمدا لصلاة كان أو لغير ذلك؛ وهو قول إبراهيم النّخعىّ

---

(١) ذو اليدين اسمه الخرباق ، وقد كان يصلى خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من اثنتين — وكانت رباعية — فقال له ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ ... الخ .

وعطاء والحسن وحماد بن أبى سليمان وقتادة . وزعم أصحاب أبى حنيفة أن حديث أبى هريرة هذا فى قصة ذى اليدين منسوخ بحديث ابن مسعود وزيد بن أرقم، قالوا : وإن كان أبو هريرة متأخر الإسلام فإنه أرسل حديث ذى اليدين كما أرسل حديث من أدركه الفجر جنبا فلا صوم له، قالوا : وكان كثير الإرسال . وذكر علىّ بن زياد قال حدثنا أبو قُرّة قال سمعت مالكا يقول : يُستحبّ إذا تكلم الرجل فى الصلاة أن يعود لها ولا يَبني . قال : وقال لنا مالك إنما تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلّم أصحابه معه يومئذ لأنهم ظنّوا أن الصلاة قَصُرت ولا يجوز ذلك لأحد اليوم . وقد روى سُحنون عن ابن القاسم فى رجل صلّى وحده ففرغ عند نفسه من الأربع، فقال له رجل الى جَنْبه : إنك لم تصلّ إلا ثلاثا، فالتفت إلى آخر فقال : أحقٌّ ما يقول هذا ؟ قال نعم، قال : تفسد صلاته ولم يكن ينبغى له أن يكلّمه ولا أن يلتفت اليه . قال أبو عمر : فكانوا يفرّقون فى هذه المسألة بين الإمام مع الجماعة والمنفرد فيجيزون من الكلام فى شأن الصلاة للإمام ومَن معه ما لا يجيزونه للنفرد ؛ وكان غير هؤلاء يحملون جواب ابن القاسم فى المنفرد فى هذه المسألة وفى الإمام ومن معه على اختلاف قوله فى استعمال حديث ذى اليدين كما اختلف قول مالك فى ذلك . وقال الشافعىّ وأصحابه : من تعمّد الكلام وهو يعلم أنه لم يتمّ الصلاة وأنه فيها أفسد صلاته، فإن تكلّم ساهيا أو تكلم وهو يظن أنه ليس فى الصلاة لأنه قد أكملها عند نفسه فإنه يَبْنِي . واختلف قول أحمد فى هذه المسألة فذكر الأَثْرم عنه أنه قال : ما تكلم به الانسان فى صلاته لإصلاحها لم تفسد عليه صلاته، فإن تكلّم لغير ذلك فسدت؛ وهذا قول مالك المشهورُ . وذكر الخِرَقىّ(١) عنه أن مذهبه فيمن تكلّم عامدا أو ساهيا بطلت صلاته، إلا الإمام خاصة فإنه اذا تكلم لمصلحة صلاته لم تبطل صلاته . واستثنى سُحنون من أصحاب مالك أن من سلّم من اثنتين فى الرباعية فوقع الكلام هناك لم تبطل الصلاة، وإن وقع فى غير ذلك بطلت الصلاة . والصحيح ما ذهب اليه مالك فى المشهور تمسّكا بالحديث وحملا له على الأصل الكُلّى من تعدّى الأحكام

---

(١) الخرق (بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء) : أبو القاسم عمر بن الحسين شيخ الحنابلة .

وعموم الشريعة ودفعا لما يتوهّم من الخصوصية إذ لا دليل عليها . فإن قال قائل : فقد جرى الكلام فى الصلاة والسهو أيضا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : "التسبيح للرجال والتصفيق للنساء" فلِمَ لم يُسبّحوا؟ فيقال : لعلّ فى ذلك الوقت لم يكن أمرهم بذلك، ولئن كان كما ذكرتَ فلم يسبّحوا لأنهم توهّموا أن الصلاة قصُرت؛ وقد جاء ذلك فى الحديث، قال : وخرج سَرَعانُ(١) الناس فقالوا : أقصُرت الصلاة ؟ فلم يكن بُدٌّ من الكلام لأجل ذلك. والله أعلم .

– وقد قال بعض المخالفين : قول أبى هريرة « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » يحتمل أن يكون مراده أنه صلّى بالمسلمين وهو ليس منهم ؛ كما رُوى عن النزال بن سَبْرة أنه قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّا وإيّاكم كنّا نُدْعَى بنى عبد مناف وأنتم اليوم بنو عبد الله ونحن بنو عبد الله " وإنما عنى به أنه قال ذلك لقومه وهذا بعيد؛ فانه لا يجوز أن يقول صلّى بنا وهو إذ ذاك كافر ليس من أهل الصلاة ويكون ذلك كذبا ، وحديث البراء هو كان من جملة القوم وسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ماسمع . وأما ما ادّعته الحنفية من النسخ والإرسال فقد أجاب عن قولهم علماؤنا وغيرهم وأبطلوه ، وخاصة الحافظ أبا عمر ابن عبد البر فى كتابه المسمّى بـ « التمهيد » وذكر أن أبا هريرة أسلم عام خَيْبَر وقدم المدينة فى ذلك العام وصحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعة أعوام، وشهد قصة ذى اليدين وحضرها وانها لم تكن قبل بدْر كما زعموا، وأن ذا اليدين قُتل فى بدر . قال : وحضور أبى هريرة يوم ذى اليدين محفوظ من رواية الحُفّاظ الثقات، وليس تقصير من قصّر عن ذلك بحجة على من علم ذلك وحفظه وذكره .

الثامنــة – القنوت: القيام، وهو أحد أقسامه فيما ذكر أبو بكر بن الأنبارى. وأجمعت الأمّة على أن القيام فى صلاة الفرض واجب على كل صحيح قادر عليه، منفردا كان أو إماما. وقال صلى الله عليه وسلم : "إنما جُعل الإمام ليؤتمّ به فإذا صلّى قائما فصلّوا قياما" الحديث،

(١) السرعان (بفتح السين والراء ويجوز تسكين الراء) : أوائل الناس الذين يتسابقون الى الشيء ويقبلون عليه بسرعة .

أخرجه الأئمة، وهو بيان لقوله تعالى : «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» . واختلفوا فى المأموم الصحيح يُصلّى قاعدا خلف إمام مريض لا يستطيع القيام؛ فأجازت ذلك طائفة من أهل العلم بل جمهورهم لقوله صلى الله عليه وسلم فى الإمام : "وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون" وهذا هو الصحيح فى المسألة على ما نبّينه آنفا إن شاء الله تعالى . وقد أجاز طائفة من العلماء صلاةَ القائم خلف الإمام المريض لأن كُلّا يؤدّى فرضه على قدر طاقته تأسّيا برسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صلّى فى مرضه الذى تُوفّى فيه قاعدا وأبو بكر إلى جنبه قائما يصلّى بصلاته والناس قيام خلفه، ولم يُشر إلى أبى بكر ولا إليهم بالجلوس، وأكمل صلاته بهم جالسا وهم قيام؛ ومعلوم أن ذلك كان منه بعد سقوطه عن فرسه؛ فعُلِم أن الآخر من فعله ناسخ للاوّل . قال أبو عمر : وممن ذهب الى هذا المذهب واحتج بهذه الحجة الشافعىُّ وداود بن علىّ، وهى رواية الوليد بن مسلم عن مالك . قال : وأحبّ الىّ أن يكون الى جنبه من يُعلم الناس بصلاته ، وهذه الرواية غريبة عن مالك . وقال بهذا جماعة من أهل المدينة وغيرهم وهو الصحيح إن شاء الله تعالى لأنها آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمشهور عن مالك أنه لا يَؤُمّ القُيّام أحد جالسا، فإن أمّهم قاعدا بطلت صلاته وصلاتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يؤمّنّ أحد بعدى قاعدا" . قال : فإن كان الإمام عليلا تمّت صلاة الإمام وفسدت صلاة مَن خلفه . قال : ومن صلّى قاعدا من غير علة أعاد الصلاة؛ هذه رواية أبى مُصعب فى مختصره عن مالك، وعليها فيجب على مَن صلّى قاعدا الإعادةُ فى الوقت وبعده . وقد رُوى عن مالك فى هذا أنهم يعيدون فى الوقت خاصة، وقول محمد بن الحسن فى هذا مثلُ قول مالك المشهور . واحتج لقوله ومذهبه بالحديث الذى ذكره أبو مصعب ، أخرجه الدَّارَقُطْنِى عن جابر عن الشَّعبىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يؤمّنّ أحد بعدى جالسا" . قال الدَّارَقُطْنِىّ : لم يروه غير جابر الجُعْفِىّ عن الشّعبىّ وهو متروك الحديث مُرْسَل لا تقوم به حُجّة . قال أبو عمر : جابر الجُعْفِىّ لا يحتجّ بشىء يرويه مُسنَدًا فكيف بما يرويه مُرْسلا؟ قال محمد بن الحسن : إذا صلى الإمام المريضُ جالسا بقوم أصحّاء ومرضى

جلوسا فصلاته وصلاة مَن خلفه ممن لا يستطيع القيام صحيحةٌ جائزة، وصلاةُ مَن صلّى خلفه ممن حكمه القيام باطلة . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : صلاته وصلاتهم جائزة . وقالوا : لو صلّى وهو يُومِئ بقوم وهم يركعون و يسجدون لم تجزهم فى قولهم جميعا وأجزأت الإمامَ صلاتُه . وكان زُفَر يقول : تجزئهم صلاتهم لأنهم صلّوا على فرضهم وصلّى إمامهم على فرضه، كما قال الشافعيّ .

قلت : أما ما ذكره أبو عمر وغيره من العلماء قبله و بعده من أنها آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رأيت لغيرهم خلاف ذلك ممن جمع طرق الأحاديث فى هذا البـاب وتكلم عليها وذكر اختلاف الفقهاء فى ذلك ، ونحن نذكر ما ذكره ملخَّصا حتى يتبين لك الصواب إن شاء الله تعالى . وصحة قول من قال إن صلاة المأموم الصحيح قاعدا خلف الإمام المريض جائزة، فذكر أبو حاتم محمد بن حِبّان البُسْتِيّ فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى نفر من أصحابه فقال : "ألستم تعلمون أنى رسول الله اليكم" ؟ قالوا : بلى، نشهد أنك رسول الله! قال : "ألستم تعلمون أنه من أطاعنى فقد أطاع الله ومن طاعة الله طاعتى" ؟ قالوا : بلى، نشهد أنه من أطاعك فقد أطاع الله ومن طاعة الله طاعتك . قال : " فإن من طاعة الله أن تطيعونى ومن طاعتى أن تطيعوا أمراءكم فإن صلّوا قعودا فصلّوا قعودا " . فى طريقه عُقبة بن أبى الصَّهباء وهو ثقة؛ قاله يحيى بن مَعين . قال أبو حاتم : فى هذا الخبر بيانٌ واضح أن صلاة المأمومين قعودا اذا صلّى إمامهم قاعدا من طاعة الله جلّ وعلا التى أمر الله بها عبادة ، وهو عندى ضرب من الإجماع الذى أجمعوا على إجازته؛ لأن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعةً أفتَوْا به : جابر بن عبد الله وأبو هريرة وأُسيد بن حُضير وقيس بن قهد[1] ، ولم يُرو عن أحد من الصحابة الذين شهدوا هبوط الوَحْى والتنزيل وأعيذوا من التحريف والتبديل خلاف لهؤلاء الأربعة لا بإسناد متّصل ولا منقطع ؛ فكأنّ الصحابة أجمعوا على أن الإمام اذا صلّى قاعدا كان على المأمومين أن يصلّوا قعودا. وبه قال جابر بن زيد والأوزاعيّ ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل و إسحاق

(١) قهد بالقاف وفى آخره دال .

ابن ابراهيم وأبو أيوب سليمان بن داود الهاشمي وأبو خيثمة وابن أبي شيبة ومحمد بن إسماعيل ومن تبعهم من أصحاب الحديث مثل محمد بن نصر ومحمد بن إسحاق بن خزيمة . وهذه السُّنّة رواها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أنس بن مالك وعائشة وأبو هريرة وجابر بن عبد الله وعبدالله بن عمر بن الخطاب وأبو أُمامة الباهليّ . وأول من أبطل في هذه الأمة صلاةَ المأموم قاعداً اذا صلّى إمامه جالسا المغيرةُ بن مِقْسَم صاحبُ النّخعيّ ، وأخذ عنه حماد بن أبي سليمان ثم أخذ عن حماد أبو حنيفة وتبعه عليه مَن بعده من أصحابه . وأعلى شيء احتجوا به فيه شيء رواه جابر الجُعْفِيّ عن الشّعبيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمّنّ أحد بعدي جالسا " وهذا لو صح إسناده لكان مُرْسَلا ، والمرسَل من الخبر وما لم يُرْوَ سيّان في الحكم عندنا ؛ ثم إن أبا حنيفة يقول : ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء ولا فيمن لقيت أكذب من جابر الجُعفيّ ، وما أتيته بشيء قطّ من رأى إلا جاءني فيه بحديث ، وزعم أن عنده كذا وكذا ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينطق بها ، فهذا أبو حنيفة يجرّح جابرًا الجُعْفيّ ويكذّبه ضدّ قول من انتحل من أصحابه مذهبه . قال أبو حاتم : وأما صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم في مرضه فجاءت الأخبار فيها مجملة ومختصرة ، وبعضها مفصلة مبيّنة ؛ ففي بعضها : فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم الى جنب أبي بكر فكان أبو بكر يأتمّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم والناس يأتمون بأبي بكر . وفي بعضها : فجلس عن يسار أبي بكر وهذا مفسّر . وفيه : فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلّي بالناس قاعدا وأبو بكر قائما . قال أبو حاتم : وأما إجمال هذا الخبر فإن عائشة حكت هذه الصلاة الى هذا الموضع ، وآخر القصة عند جابر ابن عبد الله : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمرهم بالقعود أيضا في هذه الصلاة كما أمرهم به عند سقوطه عن فرسه ؛ أنبأنا محمد بن الحسن بن قُتيبة قال أنبأنا يزيد بن مَوْهَب قال حدّثني اللّيث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّينا وراءه وهو قاعد وأبو بكر يُسمع الناس تكبيره ، قال : فالتفت الينا فرآنا قياما فأشار الينا فقعدنا فصلّينا بصلاته قعودا ، فلما سلم قال : " كدتم أن تفعلوا فعل فارس والروم

يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم إن صلّى قائما فصلّوا قياما وإن صلّى قاعدا فصلوا قعودا ". قال أبو حاتم : ففى هذا الخبر المفسّر بيانٌ واضح أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم لما قعد عن يسار أبى بكر وتحوّل أبو بكر مأموما يقتدى بصلاته ويكبر يسمع الناس التكبير ليقتدوا بصلاته أمرهم صلى الله عليه وسلم حينئذ بالقعود حين رآهم قياما ، ولما فرغ من صلاته أمرهم أيضا بالقعود إذا صلّى إمامهم قاعدا . وقد شهد جابر بن عبد الله صلاته صلى الله عليه وسلم حين سقط عن فرسه فجُحِش شقّه الأيمن[1]، وكان سقوطه صلى الله عليه وسلم فى شهر ذى الحجة آخر سنة خمس من الهجرة، وشهد هذه الصلاة فى علّته صلى الله عليه وسلم فى غير هذا التاريخ فأدّى كلّ خبر بلفظه ؛ ألا تراه يذكر فى هذه الصلاة : رفع أبو بكر صوته بالتكبير ليقتدى به الناس، وتلك الصلاة التى صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته عند سقوطه عن فرسه لم يحتج إلى أن يرفع صوته بالتكبير ليسمع الناس تكبيره على صغر حُجرة عائشة ، وإنما كان رفعه صوته بالتكبير فى المسجد الأعظم الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علّته، فلما صحّ ما وصفنا لم يجز أن نجعل بعض هذه الأخبار ناسخا لبعض؛ وهذه الصلاة كان خروجه إليها صلى الله عليه وسلم بين رجلين ، وكان فيها إماما وصلى بهم قاعدا وأمرهم بالقعود . وأما الصلاة التى صلاها آخر عمره فكان خروجه اليها بين بَرِيرَةَ وثَوْبَةَ وكان فيها مأموما وصلى قاعدا خلف أبى بكر فى ثوب واحد مُتَوَشِّحًا به . رواه أنس ابن مالك قال : آخر صلاة صلاها رسول الله مع القوم فى ثوب واحد متوشحا به قاعدا خلف أبى بكر ؛ فصلى عليه السلام صلاتين فى المسجد جماعة لا صلاة واحدة . وإن فى خبر عبيد الله عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج بين رجلين يريد أحدهما العباس والآخر عليّا . وفى خبر مسروق عن عائشة : ثم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خِفّة فخرج بين بَريرَة وثَوْبة، إنى لأنظر إلى نعليه تخطّان فى الحصى وأنظر إلى بطون قدميه ؛ الحديث . فهذا يدلّك على أنهما كانتا صلاتين لا صلاة واحدة . قال أبو حاتم : أخبرنا محمد

---

(١) جحش شقه : أى انخدش جلده ؟

أبن إسحاق بن خزيمة قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا بَدَل بن المُحَبَّر قال حدثنا شُعبة عن موسى بن أبى عائشة عن عبيد الله بن عبد الله عن عائشة أن أبا بكر صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف خلفه . قال أبو حاتم : خالف شُعبةُ بن الحجاج زائدةَ بن قُدامة فى متن هذا الخبر عن موسى بن أبى عائشة فجعل شُعبةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مأموما حيث صلى قاعدا والقوم قيام، وجعل زائدة النبى صلى الله عليه وسلم إماما حيث صلى قاعدا والقوم قيام، وهما مُتقنان حافظان . فكيف يجوز أن يجعل إحدى الروايتين اللتين تضادّتا فى الظاهر فى فعل واحد ناسخا لأمر مطلق متقدم! فمن جعل أحد الخبرين ناسخا لمـا تقدم من أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وترك الآخر من غير دليل ثبت له على صحته سوّغ لخصمه أخذ ما ترك من الخبرين وترك ما أخذ منهما . ونظير هـذا النوع من السُّنَن خبر ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نكح ميمونة وهو مُحرِم، وخبر أبى رافع أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نكحها وهما حلالان فتضادّ الخبران فى فعل واحد فى الظاهر من غير أن يكون بينهما تضادّ عندنا؛ فجعل جماعة من أصحاب الحديث الخبرين اللذين رُويا فى نكاح ميمونة متعارضين، وذهبوا الى خبر عثمان بن عفّان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا ينكح المُحْرِم ولا ينكح" فأخذوا به، إذ هو يوافق إحدى الروايتين اللّتين رُويتا فى نكاح ميمونة ، وتركو خبر ابن عبـاس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نكحها وهو مُحْرِم ؛ فمن فعل هذا لزمه أن يقول : تضادّ الخبران فى صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى عِلّته على حسب ما ذكرناه قبلُ ، فيجب أن يجيء الى الخبر الذى فيـه الأمر بصلاة المأمومين قعودا اذا صـلّى إمامهم قاعدا فيأخذ به ، إذ هو يوافق احدى الروايتين اللّتين رُويتا فى صـلاة النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى علته ويترك الخبر المنفرد عنهما كما فعـل ذلك فى نكاح ميمونة . قال أبو حاتم : زعم بعض العراقيّين ممن كان ينتحل مذهب الكوفيّين أن قوله : " وإذا صـلّى قاعدا فصلوا قعودا " أراد به واذا تشهّد قاعدا فتشهّدوا قعودا أجمعون فحرّف الخبر عن عموم ما ورد الخبر فيه بغير دليل ثبت له على تأويله .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٣٩)

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ من الخوف الذى هو الفزع . ﴿ فَرِجَالًا ﴾ أى فصلّوا رجالا . ﴿ أَوْ رُكْبَانًا ﴾ معطوف عليه . والرجال جمع راجل أو رَجُل من قولهم : رَجِل الإنسان يَرْجَل رَجَلا اذا عدم المركوب ومشى على قدميه ، فهو رَجِل وراجِل ورَجُل — (بضم الجيم) وهى لغة أهل الحجاز؛ يقولون : مشى فلان الى بيت الله حافيا رَجُلا ؛ حكاه الطبرىّ وغيره — ورَجْلان ورَجيل ورَجْل ، ويجمع على رِجَال ورَجْلى ورُجّال ورَجّالة ورُجالى ورُجْلان ورَجْلة ورِجَلة (بفتح الجيم) وأَرْجِلة وأَراجِل وأَراجِيل . والرَّجُل الذى هو اسم الجنس يُجمع أيضا على رجال .

الثانيــة — لمّا أمر الله تعالى بالقيام له فى الصلاة بحال قُنوت وهو الوقار والسَّكينة وهدوء الجوارح وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطُّمأنينة ذكر حالة الخوف الطارئة أحيانا ، وبيّن أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد فى حال ، ورخّص لعبيده فى الصلاة رجالا على الأقدام ورُكبانا على الخيل والإبل ونحوها ، إيماءً وإشارة بالرأس حيثما توجّه ؛ هذا قول العلماء ، وهذه هى صلاة الفَذّ الذى قد ضايقه الخوف على نفسه فى حال المُسايفة أو من سَبُع يطلبه أو من عدوّ يتبعه أو سَيْل يحمله ، وبالجملة فكل أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح ما تضمّنته هذه الآية .

الثالثــة — هذه الرخصة فى ضمنها إجماع العلماء أن يكون الإنسان حيثما توجه من السُّمُوت ويتقلّب ويتصرّف بحسب نظره فى نجاة نفسه .

الرابعــة — واختُلف فى الخوف الذى تجوز فيه الصلاة رِجالا ورُكبانا؛ فقال الشافعىّ : هو إطلال العدوّ عليهم فيتراءون معا والمسلمون فى غير حصن حتى ينالهم السلاح من الرمى

أو أكثر من أن يقرب العدو فيه منهم من الطعن والضرب ، أو يأتي من يصدق خبره فيخبره بأن العدو قريب منه ومسيرهم جادّين اليه ؛ فإن لم يكن واحد من هذين المعنيين فلا يجوز له أن يصلّي صلاة الخوف . فإن صلّوا بالخبر صلاة الخوف ثم ذهب العدو لم يعيدوا ، وقيل : يعيدون ؛ وهو قول أبي حنيفة . قال أبو عمر : فالحال التي يجوز للخائف أن يصلي راجلا أو راكبا مستقبل القبلة أو غير مستقبلها هي حال شدّة الخوف . والحال التي وردت الآثار فيها هي غير هذه وهي صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس وليس حكمها في هذه الاية، وهذا يأتي بيانه في سورة « النساء » إن شاء الله تعالى[1] . وفرّق مالك بين خوف العدو المقاتل وبين خوف السبع ونحوه من جمل صائل أو سَيْل أو ما الأغلب من شأنه الهلاك فانه استحب من غير خوف العدو الإعادةَ في الوقت إن وقع الأمن . وأكثر فقهاء الأمصار على أن الأمر سواء .

الخامســة ــ قال أبو حنيفة : إن القتال يفسد الصلاة ؛ وحديث ابن عمر يردّ عليه ، وظاهر الآية أقوى دليل عليه ، وسيأتي هذا في « النساء » إن شاء الله تعالى . قال الشافعيّ : لما رخّص تبارك وتعالى في جواز ترك بعض الشروط دلّ ذلك على أن القتال في الصلاة لا يفسدها ، والله أعلم .

السادســة ــ لا نقصان في عدد الركعات في الخوف عن صلاة المسافر عند مالك والشافعيّ وجماعة من العلماء . وقال الحسن بن أبي الحسن وقَتادة وغيرهما : يصلّي ركعة إيماء . روى مسلم عن بُكير بن الأخنس عن مجاهد عن ابن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحَضَر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة . قال ابن عبد البَرّ : انفرد به بكُير بن الأخنس وليس بحجة فيما ينفرد به ، والصلاة أولى ما احتيط فيه ، ومن صلّى ركعتين في خوفه وسفره خرج من الاختلاف الى اليقين . وقال الضحاك ابنُ مزاحم : يصلّي صاحب خوف الموت في المُسايفة وغيرها ركعة فإن لم يقدر فليكبّر تكبيرتين . وقال إسحاق بن رَاهَوَيْه : فان لم يقدر إلا على تكبيرة واحدة أجزأت عنه ؛ ذكره ابن المنذر .

---

(١) في قوله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ... » آية ١٠٢

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ ﴾ أى ارجعوا الى ما أمرتم به من إتمام الأركان . وقال مجاهد : « أمنتم » خرجتم من دار السفر الى دار الإقامة؛ وردّ الطبرىّ على هذا القول . وقالت فرقة : «أمنتم» زال خوفكم الذى ألجأكم إلى هذه الصلاة .

السابعــة — واختلف العلماء من هذا الباب فى بناء الخائف إذا أَمِن؛ فقال مالك : إن صلى ركعة آمِنًا ثم خاف ركب وبَنَى، وكذلك ان صلى ركعة راكبا وهو خائف ثم أَمِن نزل وبَنَى؛ وهو أحد قولى الشافعىّ، وبه قال المُزَنِىّ . وقال أبو حنيفة : إذا افتتح الصلاة آمنا ثم خاف استقبل ولم يَبْنِ، فإن صلّى خائفا ثم أَمِن بَنَى . وقال الشافعىّ : يبنى النازل ولا يبنى الراكب . وقال أبو يوسف : لا يبنى فى شىء من هذا كله .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ قيل : معناه اشكروه على هــذه النعمة فى تعليمكم هذه الصلاة التى وقع بها الإجزاء، ولم تفتكم صلاة من الصلوات وهو الذى لم تكونوا تعلمونه . فالكاف فى قوله « كما » بمعنى الشكر؛ تقول : افعـل بى كما فعلت بك كذا مكافأة وشكرا . و « ما » فى قوله « ما لم » مفعولة بعلمكم .

التاســعة — قال علماؤنا : الصـلاة أصلها الدعاء ، وحالة الخوف أَوْلى بالدعاء فلهذا لم تسقط الصلاة بالخوف، فإذا لم تسقط الصلاة بالخوف فأَحْرى ألّا تسقط بغيره من مرض أو نحوه، فأمر الله سـبحانه وتعالى بالمحافظة على الصلوات فى كل حال من صحـة أو مرض وحضر أو سفر وقدرة أو عجز وخوف أو أمن لا تسقط عن المكلف بحال ، ولا يتطرق الى فرضيتها اختلال . وسـيأتى بيان حكم المريض فى آخر « آل عمران »[1] إن شاء الله تعـالى . والمقصود من هــذا أن تفعل الصلاة كيف أمكن، ولا تسـقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلا بالإشارة بالعين لزم فعلها، و بهذا تميزت عن سائر العبادات كلها ، تسقط بالأعذار و يترخص فيها بالرخص . قال ابن العربىّ : ولهذا قال علماؤنا : وهى مسألة عظمى إن تارك الصلاة يقتل لأنها أشبهت الإيمان الذى لا يسقط بحال، وقالوا فيها : إحدى دعائم الإسلام لا تجوز

---

(١) فى قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياما ... » آية ١٩١.

النيابة عنها ببدن ولا مال ، فيقتل تاركها . أصله الشهادتان . وسيأتى ما للعلماء فى تارك الصلاة فى « براءة »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

فيه أربع مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ ذهب جماعة من المفسرين فى تأويل هذه الآية أنّ المُتوفَّى عنها زوجها كانت تجلس فى بيت المتوفَّى عنها حولا ويُنفَق عليها من ماله ما لم تخرج من المنزل، فإن خرجت لم يكن على الورثة جُناح فى قطع النفقة عنها؛ ثم نُسخ الحول بالأربعة الأشهر والعشر، ونُسخت النفقة بالرُّبُع والثُّمُن فى سورة «النساء»؛ قاله ابن عباس وقَتادة والضّحّاك وابن زيد والرّبيع . وفى السُّكْنَى خلاف للعلماء، روى البخارىّ عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان هذه الآية فى « البقرة » : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ـ الى قوله ـ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال : يابن أخى لا أُغيِّر(٢) شيئا منه من مكانه . وقال الطبرىّ عن مجاهد : إن هذه الآية مُحكَمة لا نسخ فيها ، والعِدّة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشرا ، ثم جعل الله لهن وصيّة منه سُكْنَى سبعة أشهر وعشرين ليلة ، فإن شاءت المرأة سكنت فى وصيّتها و إن شاءت خرجت ، وهو قول الله عز وجل : « غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » . قال ابن عطيّة : وهذا كله قد زال حكمه بالنسخ المتّفق عليه إلا ما قوله الطبرىّ مجاهدا رحمهما الله تعالى ، وفى ذلك نَظَر على الطبرىّ . وقال القاضى عِياض : والإجماع منعقد على أن الحول منسوخ

(١) فى قوله تعالى : « فاذا انسلخ الأشهر ... » آية ٥ .

(٢) كذا فى صحيح البخارى . والذى فى الأصول : «... فلم تكتبها؟ قال : تدعها يابن أخى ... الخ» . قوله « أوتدعها » أى تتركها فى المصحف ، والشك من الراوى ، وكأن ابن الزبير ظن أن الذى ينسخ حكمه لا يكتب .

وأن عِدّتها أربعة أشهر وعشر . قال غيره : معنى قوله « وصيّةً » أى من الله تعالى تجب على النساء بعد وفاة الزوج بلزوم البيوت سنة ثم نسخ ».

قلت : ما ذكره الطبرىّ عن مجاهد صحيح ثابت، خرّج البخارىّ قال : حدّثنا إسحاق قال حدّثنا رَوْح قال حدّثنا شِبْل عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا » قال : كانت هذه العدة تعتدّ عند أهل زوجها واجبا(١) فأنزل الله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا — الى قوله — من معروف » قال : جعل الله لها تمام السّنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وَصيّة، إن شاءت سكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت، وهو قول الله تعالى : « غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ » إلا أن القول الأوّل أظهر لقوله عليه السلام : " إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة عند رأس الحول" الحديث . وهذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم عن حالة المُتوفَّى عنهن أزواجهن قبل ورود الشرع، فلما جاء الإسلام أمرهن الله تعالى بملازمة البيوت حولا ثم نسخ بالأربعة الأشهر والعشر. هذا مع وضوحه فى السُّنّة الثابتة المنقولة بأخبار الآحاد إجماعٌ من علماء المسلمين لا خلاف فيه؛ قاله أبو عمر قال: وكذلك سائر الآية . فقوله عز وجل : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » منسوخ كله عند جمهور العلماء ثم نسخ الوصية بالسكنى للزوجات فى الحول، إلا رواية شاذّة مهجورة جاءت عن ابن أبى نجيح عن مُجاهد لم يتابَع عليها، ولا قال بها فيما زاد على الأربعة الأشهر والعشر أحد من علماء المسلمين من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم(٢) فيما علمت . وقد روى ابن جُريج عن مُجاهد مثل ما عليه الناس، فانعقد الإجماع وارتفع الخلاف، وبالله التوفيق .

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَصِيَّةً﴾ قرأ نافع وابن كَثِير والكسائىّ وعاصم فى رواية أبى بكر «وصيةٌ» بالرفع على الابتداء، وخبره «لأزواجهم» . ويحتمل أن يكون المعنى عليهم وصية، ويكون قوله «لأزواجهم» صفة . قال الطبرىّ قال بعض النحاة : المعنى كتب عليهم وصية،

---

(١) أى أمرا واجبا . (٢) فى الأصول : « ... ومن بعدهم من المخالفين فيما علمت » .

ويكون قوله «لأزواجهم» صفة . قال : وكذلك هى فى قراءة عبــد الله بن مسعود . وقرأ أبو عمرو وحمزة وابن عامر «وصيةً» بالنصب، وذلك حُمِل على الفعل، أى فليُوصُوا وصية . ثم الميت لا يوصى ولكنه أراد إذا قَرُبوا من الوفاة . و « لأزواجهم » على هذه القراءة أيضا صفة . وقيل : المعنى أوصى الله وصية . ﴿ مَتَاعًا ﴾ أى متّعوهنّ متاعا، أو جعل الله لهن ذلك متاعا لدلالة الكلام عليه . ويجوز أن يكون نصبا على الحال أو بالمصــدر الذى هو الوصية؛ كقوله «أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا» . والمتاع ها هنا نفقة سَنَتها .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ معناه ليس لأولياء الميت ووارثى المنزل إخراجها . و « غير » نصب على المصدر عند الأخفش، كأنه قال لا إخراجا . وقيل : نصب لأنه صفة المتــاع . وقيل : نصب على الحال من المُوصين ، أى متعوهن غير مُخْرَجات . وقيل : بنزع الخافض، أى من غير إخراج .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ ﴾ الآية . معناه باختيارهن قبل الحول . ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى لا حرج على أحد ، وَلِيٍّ أو حاكم أوغيره، لأنه لا يجب عليهــا المقام فى بيت زوجها حَوْلًا . وقيل : أى لا جناح فى قطع النفقة عنهن ، أو لا جناح عليهن فى التشرّف إلى الأزواج إذ قد انقطعت عنهن مراقبتكم أيها الورثة، ثم عليها ألا تتزوّج قبل انقضاء العدّة بالحول ، أو لا جناح فى تزويجهن بعد انقضاء العدّة لأنه قال « من معروف » وهو ما يوافق الشرع . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ صفة تقتضى الوعيد بالنسبة لمن خالف الحدّ فى هذه النازلة فأخرج المرأة وهى لا تريد الخروج . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى مُحْكِم لمــا يريد من أمور عباده .

قوله تعــالى : وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّـا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

اختلف الناس فى هــذه الآية؛ فقال أبو ثَور : هى مُحْكَمة والمُتْعَة لكل مطلقة؛ وكذلك قال الزُّهرىّ حتى للأَمَة يطلّقها زوجها . وكذلك قال ســعيد بن جُبير : لكل مطلقة مُتْعةٌ ،

وهو أحد قول الشافعيّ لهذه الآية . وقال مالك : لكل مطلقة اثنتين أو واحدة بنى بها أم لا، سمى لها صداقا أم لا المُتْعَةُ ، إلا المطلقة قبل البناء وقد سمّى لها صداقا فحسبها نصفه، ولو لم يكن سمّى لها كان لها المتعة كانت أقل من صداق المِثْل أو أكثر ، وليس لهذه المتعة حدّ ؛ حكاه عنه ابن القاسم . وقال ابن القاسم فى إرخاء الستور من المدوّنة : جعل الله تعالى المُتْعَة لكل مطلقة بهذه الآية ثم استثنى فى الآية الأخرى التى قد فرض لها ولم يدخل بها فأخرجها من المتعة ، وزعم ابن زيد أنها نسختها . قال ابن عطيّة : ففرّ ابن القاسم من لفظ النسخ الى لفظ الاستثناء والاستثناء لا يتّجه فى هذا الموضع بل هو نسخ محض كما قال زيد بن أسلم، واذا التزم ابن القاسم أن قوله : « وللطلقات » يعم كل مطلقة لزمه القول بالنسخ ولا بدّ . وقال عطاء بن أبى رَبَاح وغيره : هذه الآية فى الثيِّبات اللّواتى قد جُومعن ، إذ تقدّم فى غير هذه الآية ذكر المتعة للواتى لم يدخل بهن ؛ فهذا قول بأن التى قد فرض لها قبل المَسيس لم تدخل قط فى العموم . فهذا يجيء على أن قوله تعالى : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تمسوهن » مخصصة لهذا الصنف من النساء، ومتى قيل إن العموم تناولها فذلك نسخ لا تخصيص . وقال الشافعيّ فى القول الاخر : لا مُتعَةَ إلا للتى طُلّقت قبل الدخول وليس ثَمّ مسيس ولا فرض، لأن من استحقت شيئا من المهر لم يحتج فى حقها الى المتعة . وقول الله عز وجل فى زوجات النبيّ صلى الله عليه وسلم : « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ » محمول على أنه تطوّع من النبيّ صلى الله عليه وسلم لا وجوب له . وقوله : « فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ » محمول على غير المفروضة أيضا . قال الشافعى : والمفروض لها المهر إذا طُلّقت قبل المَسيس لا متعة لها لأنها أخذت نصف المهر من غير جَرَيان وَطْء ، والمدخول بها اذا طُلّقت فلها المتعة، لأن المهر يقع فى مقابلة الوطء والمتعة بسبب الابتذال بالعقد . وأوجب الشافعيّ المتعة للمختلِعة والمبارِئة . وقال أصحاب مالك : كيف يكون للمُفْتَدِيَة متعة وهى تعطى، فكيف تأخذ متاعا! لا متعة لمختارة الفراق من مختلِعة أو مفتَدِية أو مبارِئة أو مصالحة أو ملاعنة أو معتقة تختار الفراق، دخل بها أم لا ، سمّى لها صداقا أم لا ؛ وقد مضى هذا مبيّنا .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هـذه رؤية القلب بمعنى ألم تعلم ، والمعنى عند سيبويه تنبّه الى أمر الذين . ولا تحتاج هـذه الرؤية إلى مفعولين . وقرأ أبو عبد الرحمن السّلمىّ « ألم ترْ » بجزم الراء ، وحذفت الهمزة حذفا من غير إلقاء حركة لأن الأصل ألم تره . وقصة هؤلاء أنهم قوم من بنى إسرائيل وقع فيهم الوَبَاء وكانو بقرية يقال لها « دَاوَرْدَان »(١) فخرجوا منها هاربين فنزلوا واديا فأماتهم الله تعالى . قال ابن عباس : كانو أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون وقالوا : نأتى أرضًا ليس بها موت ، فأماتهم الله تعالى ؛ فمرّ بهم نبىّ فدعا الله تعالى فأحياهم . وقيل : إنهم ماتوا ثمانية أيام . وقيل سبعة، والله أعلم . قال الحسن : أماتهم الله قبل آجالهم عقوبة لهم، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم . وقيل : إنما فعل ذلك بهم مُعجزة لنبىّ من أنبيائهم ، قيل كان اسمه شمعون . وحكى النقّاش أنهم فرّوا من الحُمَّى . وقيل : إنهم فرّوا من الجهاد لمّا أمرهم الله به على لسان حِزْقِيل النبىّ عليه السلام، فخافوا الموت بالقتل فى الجهاد فخرجوا من ديارهم فرارا من ذلك . فأماتهم الله ليعرّفهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد بقوله تعالى : «وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ»؛ قاله الضحّاك . قال ابن عطيّة : وهـذا القصص كله ليّن الأسانيد ، وإنما اللازم من الاية أن الله تعالى أخبر نبيّه محمدا صلى الله عليه وسلم إخبارا فى عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروْا هم وكلُّ مَن خَلَف مِن بعدهم أن الإماتة إنما هى بيد الله تعالى لا بيد غيره؛ فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار

(١) داوردان (بفتح الواو وسكون الراء وآخره نون) : من نواحى شرقى واسط بينهما فرسخ . (معجم ياقوت) .

مُغْتَرٍ. وجعل الله تعالى هذه الاية مقدّمة بين يدى أمر المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالجهاد؛ هذا قول الطبرىّ وهو ظاهرُ وصف الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ قال الجمهور : هى جمع ألف . قال بعضهم : كانوا ستمائة ألف . وقيل : كانوا ثمانين ألفا . ابن عباس : أربعين ألفا . أبو مالك : ثلاثين ألفا . السُّدِّى : سبعة وثلاثين ألفا . وقيل : سبعين ألفا ؛ قاله عطاء بن أبى رَبَاح . وعن ابن عباس أيضا أربعين ألفا وثمانية آلاف؛ رواه عنه ابن جُرَيج . وعنه أيضا ثمانية آلاف؛ وعنه أيضا أربعة آلاف ، وقيل ثلاثة آلاف . والصحيح أنهم زادوا على عشرة آلاف لقوله تعالى : « وَهُمْ أُلُوفٌ » وهو جمع الكثرة، ولا يقال فى عشرة فما دونها ألوف . وقال ابن زيد فى لفظة ألوف : إنما معناها وهم مؤتلفون، أى لم تخرجهم فُرقة قومهم ولا فتنة بينهم إنما كانوا مؤتلفين، فخالفت هذه الفرقة فخرجت فرارا من الموت وابتغاءَ الحياة بزعمهم فأماتهم الله فى منجاهم بزعمهم . فألوف على هذا جمع آلف؛ مثل جالس وجلوس . قال ابن العربىّ : أماتهم الله تعالى [مدة](١) عقوبة لهم ثم أحياهم؛ وميتة العقوبة بعدها حياة، وميتة الأجل لا حياة بعدها . قال مجاهد : إنهم لما أُحيوا رجعوا إلى قومهم يُعرفون [أنهم كانوا موتى](٢) سَحنة الموت على وجوههم، ولا يلبَس أحد منهم ثوبا إلا عاد كفنا دَسِماً(٣) حتى ماتوا لآجالهم التى كُتبت لهم . ابن جُريج عن ابن عباس : وبقيت الرائحة على ذلك السِّبْط من بنى إسرائيل إلى اليوم. ورُوى أنهم كانوا بواسط العراق . ويقال : إنهم أُحيوا بعد أن أنتنوا؛ فتلك الرائحة موجودة فى نسلهم اليوم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أى لحذر الموت ؛ فهو نصب لأنه مفعول له . و « مُوتُوا » أمر تكوين، ولا يبعد أن يقال : نودوا وقيل لهم موتوا . وقد حُكى أن ملَكين صاحا بهم : موتوا فماتوا؛ فالمعنى قال لهم الله بواسطة الملكين موتوا، والله أعلم .

---

(١) زيادة عن كتاب أحكام القرآن لابن العربىّ . (٢) زيادة عن الطبرى .

(٣) الدسم : الدنس والوساخة .

الثالثة ـ أصح هذه الأقوال وأشهرها أنهم خرجوا فرارا من الوباء؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : خرجوا فرارا من الطاعون فماتوا، فدعى اللهَ نبيٌّ من الأنبياء أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم الله . وقال عمرو بن دينار فى هذه الآية : وقع الطاعون فى قريتهم فخرج أناس وبقى أناس ومن خرج أكثر ممن بقى ، قال : فنجا الذين خرجوا ومات الذين أقاموا ؛ فلما كان فى الثانية خرجوا بأجمعهم إلا قليلا فأماتهم الله ودوابَّهم ، ثم أحياهم فرجعوا الى بلادهم وقد توالدت ذريتهم . وقال الحسن : خرجوا حذارا من الطاعون فأماتهم الله ودوابَّهم فى ساعة واحدة وهم أربعون ألفا .

قلت : وعلى هذا تترتب الاحكام فى هذه الآية ؛ فروى الأئمة واللفظ للبخارى من حديث عامر بن سعد بن أبى وقّاص أنه سمع أُسامة بن زيد يحدّث سعدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذَكر الوجعَ فقال : "رِجْزٌ وعذاب عُذِّب به بعضُ الأمم ثم بَقِيَ منه بقيةٌ فيَذْهب المرّة ويأتى الأخرى فمن سمع به بأرض فلا يَقْدَمنّ عليه ومن كان بأرض وقع بها فلا يَخْرج فِرارا منه" . وأخرجه أبو عيسى الترمذى فقال : حدّثنا قُتيبة أنبأنا حماد بن زيد عن عمرو ابن دينار عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الطاعون فقال : "بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بنى إسرائيل فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبِطوا عليها" قال : حديث حَسَن صحيح . وبمقتضى هذه الأحاديث عمل عمر والصحابة رضوان الله عليهم لما رجعوا من سَرْغَ[1] حين أخبرهم عبد الرحمن بن عَوْف بالحديث، على ما هو مشهور فى الموطّأ وغيره . وقد كَرِه قوم الفِرار من الوباء والأرض السقيمة . رُوى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : الفِرار من الوباء كالفرار من الزَّحْف . وقصة عمر فى خروجه الى الشام مع أبى عُبيدة معروفة ، وفيها : أنه رجع . وقال الطبرى : فى حديث سعد دلالة على أن على المرء توَقِّىَ المكاره قبل نزولها، وتجنُّبَ الأشياء المَخُوفة قبل هجومها، وأن عليه الصبرَ وتركَ الجزع بعد نزولها؛ وذلك أنه عليه

(١) سرغ : موضع من الشام؛ قيل انه وادى تبوك، وقيل بقرب تبوك .

السلام نهى مَن لم يكن فى أرض الوباء عن دخولها إذا وقع فيها ، ونهى مَن هو فيها عن الخروج منها بعد وقوعه فيها فرارا منه . فكذلك الواجب أن يكون حكم كل متّقٍ من الأمور غوائلها ، سبيله فى ذلك سبيل الطاعون . وهذا المعنى نظير قوله عليه السلام : " لا تمنّوا لقاء العدوّ وسَلُوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا " .

قلت : وهذا هو الصحيح فى الباب ، وهو مقتضى قول الرسول عليه السلام وعليه عمل أصحابه البَرَرة الكرام ، وقد قال عمر لأبى عُبيدة محتجًّا عليه لما قال له : أفرارا من قَدَر الله ! فقال عمر : لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة ! نعم ، نفِرّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله . المعنى : أى لا محيص للإنسان عما قدّره الله له وعليه ، لكن أمرنا الله تعالى بالتحرّز من المخاوف والمَهْلَكات ، وباستفراغ الوسع فى التّوقى من المكروهات . ثم قال له : أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديا له عُدْوَتان[1] إحداهما خِصْبة والأخرى جَدْبة ، أليس إن رَعيتَ الخصبة رَعيتَها بقَدَر الله ، وإن رعيتَ الجدبةَ رَعيتها بقَدَر الله . فرجع عمر من موضعه ذلك إلى المدينة . قال الكِيَا الطبرىّ : ولا نعلم خلافا أن الكفار أو قُطّاعَ الطريق إذا قصدوا بلدة ضعيفة لا طاقة لأهلها بالقاصدين فلهم أن يتنحَّوا من بين أيديهم ، وإن كانت الآجال المقدّرة لا تزيد ولا تنقص . وقد قيل : إنما نهى عن الفرار منه لأن الكائن بالموضع الذى الوباء فيه لعلّه قد أخذ بحظ منه لاشتراك أهل ذلك الموضع فى سبب ذلك المرض العام ، فلا فائدة لفراره بل يضيف إلى ما أصابه من مبادىء الوباء مشقات السفر فتتضاعف الآلام ويكثر الضرر فيهلكون بكل طريق ويُطرحون فى كل فجوة ومَضيق ، ولذلك يقال : ما فرّ أحد من الوباء فسَلِم ؛ حكاه ابن المدائنى . ويكفى فى ذلك موعظةً قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا » ولعلّه إن فرّ ونجا يقول : إنما نجوت من أجل خروجى عنه فيسوء اعتقاده . وبالجملة فالفرار منه ممنوع لما ذكرناه ولما فيه من تخلية البلاد ، ولا تخلو من مستضعَفين يصعب عليهم الخروج منها ، ولا يتأتّى لهم ذلك ،

(١) العدوة (بضم العين وكسرها وسكون الدال) : شاطئ الوادى وحافته .

ويتأذون بخلوّ البلاد من المياسير الذين كانوا أركاناً للبلاد ومعُونةً للمستضعفين . وإذا كان الوباء بأرض فلا يَقدَم عليه أحد أخْذًا بالحَزْم والحذَر والتحرُّز من مواضع الضرر، ودَفْعًا للأوهام المشوّشة بنفس الإنسان؛ وفي الدخول عليه الهلاك، وذلك لا يجوز في حكم الله تعالى، فإن صيانة النفس عن المكروه واجبة، وقد يخاف عليه من سوء الاعتقاد بأن يقول : لولا دخولي في هذا المكان لما نزل بي مكروه . فهذه فائدة النّهي عن دخول أرض بها الطاعون أو الخروج منها، والله أعلم . وقد قال ابن مسعود : الطاعون فتنة على المقيم والفارّ؛ أما الفار فيقول : بفراري نجوت، وأما المقيم فيقول : أقمت فمتّ؛ وإلى نحو هذا أشار مالك حين سئل عن كراهة النظر إلى المجذوم فقال : ما سمعت فيه بكراهة، وما أرى ما جاء من النهي عن ذلك إلا خيفة أن يُفزعه أو يُخيفه شيء يقع في نفسه؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في الوباء : "إذا سمعتم به في أرض فلا تقدَموا عليه وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" . وسُئل أيضا عن البلدة يقع فيها الموت وأمراضٌ، هل يكره الخروج منها؟ فقال: ما أرى بأسًا خرج أو أقام .

الرابعة — في قوله عليه السلام: "إذا وقع الوباء بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا فرارا منه" دليل على أنه يجوز الخروج من بلدة الطاعون على غير سبيل الفرار منه، إذا اعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وكذلك حكم الداخل إذا أيقن أن دخوله لا يجلب إليه قَدَرا لم يكن الله قدّره له؛ فيباح له الدخول إليه والخروج منه على هذا الحدّ الذي ذكرناه، والله علم .

الخامسة — في فضل الصبر على الطّاعون وبيانه . الطّاعون وزنه فاعول من الطّعْن، غير أنه لما عُدل به عن أصله وُضع دالاً على الموت العام بالوباء؛ قاله الجوهريّ . ويُروى من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "فَناء أمّتي بالطّعن والطاعون" قالت : الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال : "غُدّة[1] كغُدّة البعير تخرج في المَرَاقّ[2]

---

(١) الغدة : طاعون الإبل، وقلما تسلم منه . (٢) المراق : ماسفل من البطن فما تحته من المواضع التي ترق جلودها، واحدها مرق . وقال الجوهري : لا واحد لها .

والاباط " . قال العلماء : وهذا الوباء قد يُرسله الله نقمة وعقوبة على من يشاء من العُصاة من عبيده وكَفَرتهم، وقد يُرسله شهادة ورحمة للصالحين، كما قال معاذ فى طاعون عمَوَاس (١) : إنه شهادةٌ ورحمة لكم ودعوةُ نبيِّكم ، اللّهمّ أعط معاذا وأهله نصيبهم من رحمتك . فطُعن فى كفّه رضى الله عنه . قال أبو قِلابة : قد عرفت الشهادة والرحمة ولم أعرف مادعوة نبيّكم فسألت عنها فقيل : دعا عليه السلام أن يجعل فناء أمته بالطعن والطاعون حين دعا ألّا يجعل بأس أمّته بينهم فمُنِعها فدعا بهذا . ويُروى من حديث جابر وغيره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الفارّ من الطاعون كالفارّ من الزّحف والصابرُ فيه كالصابر فى الزحف". وفى البخارىّ عن يحيى بن يَعْمُر عن عائشة أنها أخبرته أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون فأخبرها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " أنه كان عذابا يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمة للؤمنين فليس من عبد يقعُ الطّاعونُ فيمكثُ فى بلده صابرا يعلم أنه لن يُصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثلُ أجر الشهيد " . وهذا تفسير لقوله عليه الصلاة والسلام : " الطاعون شهادة والمطعون شهيد" أى الصابر عليه المحتسب أجرَه على الله العالمُ أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله عليه؛ ولذلك تمنّى معاذٌ أن يموت فيه لعلمه أن من مات فهو شهيد . وأما مَن جَزِع من الطاعون وكَرِهه وفرّ منه فليس بداخل فى معنى الحديث، والله أعلم .

السادسة — قال أبو عمر : لم يبلغنى أن أحدا من حَمَلة العلم فرّ من الطاعون إلا ما ذكره ابن المدائنىّ أن علىّ بن زيد بن جُدْعان هرب من الطاعون الى السَّيَالة (٢) فكان يُجمِّع كلّ جمعة ويرجع ؛ فكان إذا جمع صاحوا به : فرّ من الطاعون ! فمات بالسَّيَالة . قال : وهَرَب عمرو بن عبيد ورباط بن محمد الى الرباطية فقال ابراهيم بن على الفُقَيمى فى ذلك :

ولما استفزّ الموت كلّ مكذّب * صَبَرتُ ولم يَصبِر رباط ولا عمرو

---

(١) عمواس (روى بكسر أوّله وسكون ثانيه ، وروى بفتح أوّله وثانيه وآخره سين مهملة) : كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، ومنها كان ابتداء الطاعون فى أيام عمر رضى الله عنه ثم فشا فى أرض الشام فمات منه خلق كثير لا يحصى من الصحابة رضى الله عنهم ومن غيرهم ، وذلك فى سنة ١٨ للهجرة .

(٢) السيالة (بفتح أوله وتخفيف ثانيه) : موضع بقرب المدينة ، وهى أول مرحلة لأهل المدينة اذا أرادوا مكة ، وقيل : هى بين ملل والروحاء فى طريق مكة الى المدينة . (عن شرح القاموس) .

وذكر أبو حاتم عن الأصمعى قال : هَرَب بعض البصريين من الطاعون فركب حمارا له ومضى بأهله نحو سَفَوان[1]، فسمع حاديًا يَحْدُو خلفه :

لن يُسبقَ الله على حمار * ولا على ذى مَنْعة طيّار

أو يأتىَ الحتف على مقدار * قد يُصبح الله أمام السّارى

وذكر المدائنى قال : وقع الطاعون بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مَرْوان فخرج هاربا منه فنزل قرية من قُرَى الصعيد يقال لها « سُكَر »[2] . فقدم عليه حين نزلها رسولٌ لعبدِ الملك ابن مروان . فقال له عبد العزيز : ما اسمك؟ فقال له : طالب بن مدرك . فقال : أَوْه[3] ! ما أرانى راجعا إلى الفُسطاط ! فمات فى تلك القرية .

قوله تعالى : وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

هذا خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالقتال فى سبيل الله فى قول الجمهور . وهو الذى ينوى به أن تكون كلمة الله هى العليا . وسُبُل الله كثيرة فهى عامة فى كل سبيل ؛ قال الله تعالى : « قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِى » . قال مالك : سُبُل الله كثيرة، وما من سبيل إلا يُقاتَل عليها أو فيها أو لها ، وأعظمها دين الإسلام ، لا خلاف فى هذا . وقيل : الخطاب للذين أُحْيُوا من بنى إسرائيل ؛ رُوى عن ابن عباس والضّحاك . والواو على هذا فى قوله «وقاتلوا» عاطفة على الأمر المتقدم، وفى الكلام متروك تقديره وقال لهم قاتلوا . وعلى القول الأوّل عاطفة جملة كلام على جملة ما تقدّم ، ولا حاجة إلى إضمار فى الكلام . قال النحاس : « وقاتلوا » أمر

---

(١) سفوان (بالتحريك) : ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة . (معجم ياقوت) .

(٢) سكر (وزان زفر) : موضع بشرقية الصعيد بينه وبين مصر يومان ؛ كان عبد العزيز بن مروان يخرج اليه كثيرا . (عن ياقوت) . وقد ورد فى الأصول : «سكن» بالنون وهو تحريف .

(٣) أوه : كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجع وهى ساكنة الواو مكسورة الهاء ، وربما قلبوا الواو ألفا فقالوا : « آه من كذا » ، وربما شددوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء فقالوا : « أوّه » ، وبعضهم يفتح الواو مع التشديد فيقول : « أوَّه » . (عن النهاية) .

من الله تعالى للمؤمنين ألا تهربوا كما هرب هؤلاء . ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى يسمع قولكم إن قلتم مثل ما قال هؤلاء ويعلم مرادكم به . وقال الطبرى : لا وجه لقول من قال إن الأمر بالقتال للذين أحيوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥)

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ لما أمر الله تعالى بالجهاد والقتال على الحق، إذ ليس شيء من الشريعة إلا ويجوز القتال عليه وعنه وأعظمها دين الإسلام كما قال مالك، حرّض على الإنفاق فى ذلك. فدخل فى هذا الخبر المقاتل فى سبيل الله فإنه يُقرض به رجاءَ الثواب كما فعل عثمان رضى الله عنه فى جيش العُسْرة[1] . و « مَنْ » رفع بالابتداء، و « ذا » خبره، و « الذى » نعت لذا، وإن شئت بدل. ولما نزلت هذه الآية بادر أبو الدَّحْداح الى التصدّق بماله ابتغاءَ ثواب ربّه . أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام المحدّث القاضى أبو عامر يحيى بن عامر بن أحمد بن منيع الأشعرى[2] نسبا ومذهبا بقُرْطُبة أعادها الله فى ربيع الآخر عام ثمانية وعشرين وستمائة قراءة منّى عليه قال: أخبرنا أبى إجازة قال قرأت على أبى بكر عبدالعزيز بن خلف بن مدين الأزدى عن أبى عبد الله بن سعدون سماعا عليه قال حدثنا أبو الحسن على بن مهران قال حدّثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن زكريا بن حيوة النيسابوريّ سنة ست وستين وثلاثمائة قال أنبأنا عمى أبو زكريا يحيى بن زكريا قال حدّثنا محمد بن معاوية ابن صالح قال حدّثنا خلف بن خليفة عن حُميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله

---

(١) جيش العسرة : جيش غزوة تبوك، سمى بها لانه كان فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب البلاد؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس بالجهاز وحض أهل الغنى على النفقة فى سبيل الله، فأنفق عثمان رضى الله عنه فى ذلك نفقة عظيمة . قال ابن هشام : حدثنى من أثق به أن عثمان أنفق ألف دينار غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " اللهم ارض عن عثمان فانى عنه راض " .

(٢) فى بعض الأصول : «أبو عامر يحيى بن أحمد بن ربيع الأشعرى» .

ابن مسعود قال : لمـا نزلت « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » قال أبو الدّحداح : يا رسول الله: أوَإن الله تعالى يريد منا القَرْض ؟ قال : "نعم يا أبا الدَّحْداح"! قال : أرِنى يدك فناوله؛ قال : فإنى أقرضت الله حائطا فيه ستمائة نخلة . ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدّحْداح فيه وعياله؛ فناداها : يا أمّ الدّحداح ؛ قالت : لَبَّيك؛ قال : اخرجى، قد أقرضت ربِّى عزّ وجلّ حائطا فيه ستمائة نخلة . وقال زيد بن أسلم : لمـا نزل «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» قال أبو الدّحداح : فِداكَ أبى وأمّى يا رسول الله! إن الله يستقرضنا وهو غنى عن القرض؟ قال : "نعم يريد أن يدخلكم الجنة به".قال : فإنى إن أقرضت ربى قرضا يضمن لى به ولِصبْيتى الدّحداحة معى الجنة؟ قال : " نعم " قال : ناولنى يدك؛ فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده. فقال: إن لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضا لله تعالى . قال رسول الله صلى عليه وسلم : " اِجعل إحداهما لله والأخرى دَعْها مَعيشةً لك ولعيالك".قال : فأشهدك يارسول الله أنى قد جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخـلة . قال : "إذًا يجـزيك الله به الجنة" . فانطلق أبو الدّحداح حتى جاء أُمّ الدّحداح وهى مع صبيانها فى الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول :

هَـداكِ ربِّى سُـبُلَ الرّشادِ ٭ إلى سبيل الخير والسّـدادِ
بِينى من الحائـط بالـوِداد ٭ فقد مَضَى قَرْضًا الى التّناد
أقرضـتُه الله على اعتمادى ٭ بالطّـوع لامَنَّ ولا ارتدادِ
إلا رجاء الضِّعف فى المَعادِ ٭ فارْتحِـلِى بالنّفس والأولادِ
والبِرّ لا شـكّ فخـيرُ زادِ ٭ قـدّمه المـرء الى المَعـادِ

قالت أمّ الدّحداح : ربح بيعُك ! بارك الله لك فيما اشتريت ! وأجابتـه أمّ الدّحداح وأنشأت تقول :

بَشّـرَكَ الله بخـيرٍ وفـرَحْ ٭ مِثلُك أدّى ما لديه ونَصَـحْ
قـــد مَتّـع الله عِيالى ومَنَحْ ٭ بالعَجْوة السّوداءِ والزَّهْوِ البَلَحْ
والعبدُ يسعَى وله ما قد كَدَحْ ٭ طولَ الليالى وعليه ما اجْترحْ

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كم من عِذْقٍ[1] رَدَاح ودارٍ فَيَاح[2] لأبى الدَّحداح" .

الثانيــة — قال ابن العربى : « انقسم الخلق بحكم الخالق وحكمته وقدرته ومشيئته وقضائه وقدره حين سمعوا هذه الآية أقساما فتفرّقوا فرقا ثلاثة : الفرقة الأولى الرَّذْلَى قالوا: إن ربّ محمد محتاج فقير إلينا ونحن أغنياء، فهذه جهالة لا تخفى على ذى لُبّ، فردّ الله عليهم بقوله : « لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ» . الفرقة الثانية لما سمعت هذا القول آثرت الشُّحّ والبخل وقدّمت الرّغبة فى المال، فما أنفقت فى سبيل الله ولا فكّت أسيرا ولا أعانت أحدا، تكاسُلًا عن الطاعة ورُكُونا الى هذه الدار . الثالثة لما سمعت بادرت الى آمتثاله وآثر المجيب منهم بسرعة بماله كأبى الدّحداح وغيره » .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القَرْض : اسم لكل ما يُلتمَس عليه الجزاء. وأقرض فلان فلانا أى أعطاه ما يتجازاه؛ قال الشاعر وهو لَبِيد :

وإذا جُوزِيتَ قَرْضًا فَآجْزِهِ * إنما يَجزِى ٱلفتى ليس الجَمَلْ

والقِرْض بالكسر لغة فيه حكاها الكسائىّ . وآستقرضت من فلان أى طلبت منه القَرْض فأقرَضَنِى . وأقْرَضت منه أى أخذت القرض . وقال الزجاج : القَرْض فى اللغة البلاء الحَسَن والبلاء السيئ؛ قال أُمَيّة :

كلّ آمرئٍ سوف يُجْزَى قَرْضَه حَسَنًا * أو سيّئًا ومَدِينًا مِثْلَ ما دَانَا

وقال آخر :

تُجازَى القروض بأمثالها * فبالخير خيرا وبالشر شرا

وقال الكسائى : القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ . وأصل الكلمة القطع؛ ومنه المِقْراض . وأقرضته أى قطعتُ له من مالى قطعة يُجازَى عليها . وآنقرض القوم : انقطع

(١) العذق (بفتح فسكون) : النخلة . وبكسر فسكون : العرجون بما فيه من الشماريخ . ورداح ثقيلة .
(٢) الفياح (بالتشديد والتخفيف) : الواسع .

أثرهم وهلكوا. والقرض ههنا : اسم، ولولاه لقال إقراضا . واستدعاء القرض فى هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغنىّ الحميد؛ لكنه تعالى شبّه عطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء، حسب ما يأتى بيانه فى « براءة »(١) . وقيل المراد بالآية الحثّ على الصدقة وإنفاق المال على الفقراء المحتاجين والتوسعة عليهم ، وفى سبيل الله بنصرة الدّين . وكَنَى الله سبحانه عن الفقير بنفسه العليّة المنزّهة عن الحاجات ترغيبًا فى الصدقة ، كما كَنَى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام . ففى صحيح الحديث إخبارا عن الله تعالى : " يا بنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْنِى واستطعمتك فلم تُطعِمنى واستسقيتك فلم تسقِنى" قال : يا رب كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين !؟ قال : "استسقاك عبدى فلان فلم تَسقه أمَا إنك لو سقيتَه وجدتَ ذلك عندى" . وكذا فيما قبلُ؛ أخرجه مسلم والبخارىّ وهذا كله خرجَ مخرج التّشريف لِمن كَنَى عنه ترغيبا لمن خُوطب به .

الرابعة — يجب على المستقرض ردّ القرض ، لأنّ الله تعالى بيّن أنّ من أنفق فى سبيل الله لا يضيع عند الله بل يردّ الثواب قطعًا وأبهم الجزاء . وفى الخبر : " النفقة فى سبيل الله تُضاعَف إلى سبعمائة ضعف وأكثر" على ما يأتى بيانه فى هذه السورة عند قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ »(٢) الآية . وقال هاهنا « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » ، وهذا لا نهاية له ولا حدّ .

الخامسة — ثواب القَرْض عظيم لأنّ فيه توسعة على المسلم وتفريجا عنه . خرّج ابن ماجه فى سُننه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت ليلةَ أُسرِىَ بى على باب الجنة مكتوبا الصّدقةُ بعشر أمثالها والقرضُ بثمانية عشر فقلت لجبريل ما بالُ القَرْض أفضل من الصدقة قال لأنّ السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة " . قال : حدّثنا محمد بن خلف العسقلانىّ حدّثنا يَعْلَى حدّثنا سليمان بن يُسَيْر

---

(١) فى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » آية ١١١ (٢) آية ٢٦١

عن قيس بن رومى قال : كان سليمان بن أُذْنَان(١) يُقرِض عَلقمة ألف درهم إلى عطائه، فلما خرج عطاؤه تقاضاها منه واشتد عليه فقضاه ، فكأن علقمة غضب فمكث أشهرا ثم أتاه فقال: أقرِضني ألف درهم إلى عطائى، قال: نعم وكرامة! يا أمّ عُتبة هَلُمِّى تلك الخريطةَ المختومة التى عندك، قال : فجاءت بها فقال : أمَا والله إنها لَدراهمُكَ التى قضيتَنِي ما حرّكت منها درهما واحدا؛ قال: فلله أبوكَ؟ ما حملك على ما فعلتَ بى ؟ قال : ما سمعتُ منك؛ قال: ما سمعتَ منى ؟ قال : سمعتك تذكر عن ابن مسعود أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن مُسْلِم يُقرِض مُسْلما قَرْضًا مرّتين إلا كان كصدقتها مرّة " قال : كذلك أنبأنى آبن مسعود .

السادســـة — قرض الآدمىّ للواحد واحد، أى يردّ عليه مثل ما أقرضه. وأجمع أهل العلم على أن استقراض الدنانير والدراهم والحنطة والشعير والتمر والزبيب وكلّ ما له مِثْل من سائر الأطعمة جائز. وأجمع المسـلمون نقلا عن نبيّهم صلى الله عليه وسلم أن اشتراط الزيادة فى السَّلَف رِبًا ولو كان قَبْضة من عَلَف — كما قال ابن مسعود — أو حبّة واحدة . ويجوز أن يردّ أفضلَ مما يستلِف إذا لم يشترط ذلك عليه، لأن ذلك من باب المعروف استدلالا بحديث أبى هريرة فى البَكْر : " إنّ خِيارَكم أحسنُكم قضاء " رواه الأئمة : البخارىّ ومسلم وغيرهما . فأثنى صلى الله عليه وسلم على مَن أحسَن القضاء، وأطلق ذلك ولم يقيّــده بصفة . وكذلك قَضَى هو صلى الله عليه وسلم فى البَكْرِ وهو الفتى المختار من الإبل جَمَلا خِيارًا رباعِيا. والخِيار : المختار . والرَّباعِى هو الذى دخل فى السنة الرابعــة لأنه يُلقِى فيها رَباعيته وهى التى تَلِى الثَّنايا وهى أربع رَباعِيات ، مخفَّفة الياء . وهــذا الحديث دليــل على جواز قرض الحيوان، وهو مذهب الجمهور، ومنع من ذلك أبو حنيفة وقد تقدّم .

السابعـــة — ولا يجوز أن يُهدِى من آستقرض هديّة لِلْمُقرِض، ولا يحِل لِلْمُقرِض قبولها إلا أن يكون عادتهما ذلك، بهذا جاءت السنة : خرّج آبن ماجه حدّثنا هشام بن عمار قال حدّثنا إسماعيل بن عَيّاش حدّثنا عتبة بن حُميد الضبّى عن يحيى بن أبى إسحاق الهنائى قال :

(١) فى القاموس وشرحه : سليمان بن أذنان (مثنى أذن) .

سألت أنس بن مالك عن الرجل منّا يُقرض أخاه المالَ فيهدِى إليه؟ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أقرض أحدكم أخاه قرضا فأهدى له أو حمله على دابته فلا يقبلها ولا يركبها إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك".

الثامنــة ـ القرض يكون من المـال ـ وقد بيّنا حكمه ـ ويكون من العِرْض؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أيعجِز أحدكم أن يكون كأبي ضَمْضَم كان إذا خرج من بيته قال اللهمّ إني قد تصدّقت بعِرْضي على عبادك". ورُوي عن ابن عمر: أقرِض من عِرْضك ليوم فقرك؛ يعني من سبّك فلا تأخذ منه حقّا ولا تُقِم عليه حدًّا حتى تأتيَ يوم القيامة مُوفر الأجر. وقال أبو حنيفة: لا يجوز التصدّق بالعِرْض لأنه حق الله؛ ورُوي عن مالك. ابن العربي: وهذا فاسد، قال عليه السلام في الصحيح: "إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" الحديث. وهذا يقتضي أن تكون هذه المحرّمات الثلاث تَجري مَجْرًى واحدا في كونها باحترامها حقًّا للآدميّ.

التاسعة ـ قوله تعالى: ﴿حَسَناً﴾ قال الواقديّ: محتسبا طيّبة به نفسُه. وقال عمرو ابن عثمان الصَّدَفي: لا يَمُنّ به ولا يؤذي. وقال سهل بن عبد الله: لا يعتقد في قرضه عوضًا.

العاشرة ـ قوله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قرأ عاصم وغيره «فيضاعفه» بالألف ونصب الفاء. وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتشديد في العين مع سقوط الألف ونصب الفاء. وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وشيبة بالتشديد ورفع الفاء. وقرأ الآخرون بالألف ورفع الفاء. فمن رفعه نسقه على قوله: «يقرض» وقيل: على تقدير هو يضاعفه. ومن نصب فجوابا للاستفهام بالفاء. وقيل: بإضمار «أن» والتشديد والتخفيف لغتان. دليل التشديد «أضعافا كثيرة» لأن التشديد للتكثير. قال الحسن والسُّدّي: لا نعلم هذا التضعيف إلا لله وحده، لقوله تعالى: «وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا». قال أبو هريرة: هذا في نفقة الجهاد، وكنا نَحْسُب والنبيّ صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا نفقة الرجل على نفسه ورفقائه وظَهْرِه بألفَيْ ألف.

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ هذا عام فى كل شيء فهو القابض الباسط، وقد أتينا عليهما فى « شرح الأسماء الحسنى فى الكتاب الأسنى » .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وعيد، فيجازى كلًّا بعمله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)

ذكر فى التحريض على القتال قصة أخرى جرت فى بنى إسرائيل . والملأ : الأشراف من الناس، كأنهم ممتلئون شرفا . وقال الزجاج : سموا بذلك لأنهم ممتلئون مما يحتاجون إليه منهم . والملأ فى هذه الآية القوم؛ لأن المعنى يقتضيه . والملأ : اسم للجمع كالقوم والرهط . والملأ أيضا : حسن الخلق، ومنه الحديث "أحسنوا الملأ فكلكم سيروى" خرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ أى من بعد وفاته . ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ قيل : هو شمويل بن بال[1] بن علقمة ويعرف بابن العجوز . ويقال فيه : شمعون، قاله السدى : وإنما قيل : ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزا فسألت الله الولد وقد كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها . ويقال له : سمعون لأنها دعت الله أن يرزقها الولد فسمع دعاءها فولدت غلاما فسمته « سمعون »، تقول : سمع الله دعائى ، والسين تصير شينا بلغة العبرانية، وهو من ولد يعقوب . وقال مقاتل : هو من نسل هارون عليه السلام . وقال قتادة : هو يوشع بن نون . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن مدة داود هى من بعد موسى بقرون من

---

(١) كذا فى ج و ز و ح . وفى ه : تال . وفى أ : بان . والذى فى الطبرى وابن عطية : « بالى » .

النـاس، و يوشع هو فتى موسى . وذكر المحاسبي أن اسمه إسميل ، والله أعلم . وهذه الآية هى خبر عن قوم من بنى إسرائيل نالتهم ذلة وغلبة عدو فطلبوا الإذن فى الجهاد وأن يؤمروا به ، فلما أمروا كَعَّ (١) أكثرهم وصبر الأقل فنصرهم الله . وفى الخبر أن هؤلاء المذكورين هم الذين أُميتوا ثم أُحيوا، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ نُقَاتِلْ ﴾ بالنون والجزم وقراءة جمهور القرّاء على جواب الأمر . وقرأ الضحاك وابن أبى عَبْلة بالياء ورفع الفعل، فهو فى موضع الصفة للملك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ و « عَسِيْتُم » بالفتح والكسر لغتان، و بالثانية قرأ نافع، والباقون بالأولى وهى الأشهر . قال أبو حاتم : وليس للكسر وجه، و به قرأ الحسن وطلحة . قال مكىّ فى اسم الفاعل : عَسٍ، فهـذا يدل على كسر السين فى المـاضى . والفتح فى السين هى اللغـة الفاشية . قال أبو علىّ : ووجه الكسر قول العرب : هو عسٍ بذلك ، مثل حرٍ وشجٍ، وقد جاء فَعَل وفَعِل فى نحو نَعَم ونعِم ، وكذلك عَسَيت وعَسِيت، فإن أسـند الفعل إلى ظاهر فقياس عسيتم أن يقال : عَسِىَ زيد ، مثل رضِىَ زيد، فإن قيل فهو القياس ، و إن لم يقل، فسائغ أن يؤخذ باللغتين فتستعمل إحداهما موضع الأخرى . ومعنى هـذه المقالة : هل أنتم قريب مرب التولى والفرار؟ . ﴿ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ قال الزجاج : « أَلَّا تُقَاتِلُوا » فى موضع نصب ، أى هل عسيتم مقاتلة . ﴿ قَالُوا وَمَالَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ قال الأخفش : « أن » زائدة . وقال الفرّاء : هو محمول على المعنى ، أى وما منعنا ، كما تقول : مالكَ ألّا تصلّىَ؟ أى ما منعك . وقيل: المعنى وأىّ شىء لنا فى ألّا نقاتل فى سبيل الله ! قال النحاس : وهذا أجودها . « وأن » فى موضع نصب . ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا ﴾ تعليل، وكذلك ﴿ وَأَبْنَائِنَا ﴾ أى بسبب ذرارينا .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ﴾ أى فرض عليهم ﴿ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا ﴾ أخبر تعالى أنه لمـا فَرض عليهـم القتال ورَأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب وأن نفوسهم

(١) يقال : رجل كع وكاع إذا جبن عن القتال . وقيل : هو الذى لا يمضى فى عزم ولا حزم وهو الناكص على عقبيه .

ربما قد تذهب « تَوَلَّوْا » أى اضطربت نياتُهم وفترت عزائمهم، وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدَّعة تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب كَعَّت وانقادت لطبعها .

وعن هذا المعنى نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : "لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فَٱثْبُتُوا" رواه الأئمة. ثم أخبرالله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال فى سبيل الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ أى أجابكم إلى ماسألتم، وكان طالوت سَقَّاء . وقيل: دبّاغا . وقيل: مُكَارِيا، وكان عالما فلذلك رفعه الله على ماياتى : وكان من سِبط بِنْيامين ولم يكن من سِبط النبوّة ولا من سِبط المُلْك، وكانت النبوّة فى بنى لاوى ، والملك فى سِبط يهوذا فلذلك أنكروا . قال وهب بن منبّه : لما قال الملأ من بنى إسرائيل لشمويل بن بال ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث إليهم ملكا ويدلّه عليه؛ فقال الله تعالى له : آنظر إلى القَرَن(١) الذى فيه الدُّهْن فى بيتك فإذا دخل عليك رجل فَنَشَّ(٢) الدّهنُ الذى فى القَرَن، فهو مَلِك بنى إسرائيل فآدهنْ رأسه منه ومَلِّكه عليهم . قال : وكان طالوت دبّاغا فخرج فى ابتغاء دابة أضلّها، فقصد شمويل عسى أن يدعو له فى أمر الدابة أو يجد عنده فرجا، فَنَشَّ الدُّهنُ على ما زعموا(٣)، قال : فقام إليه شمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت ، وقال له : أنت ملك بنى إسرائيل الذى أمرنى الله تعالى بتقديمه ، ثم قال لبنى إسرائيل : «إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا» . وطالوت وجالوت آسمان أعجميان معرّبان؛ ولذلك

(١) القرن (بالتحريك) : الجعبة من جلود تكون مشقوقة ثم تخرز . (٢) نش : صوّت .
(٣) فى ه و جـ : «فيما يزعمون» .

لم ينصرفا ، وكذلك داود ، والجمع طواليت وجواليت ودواويد ، ولو سميت رجلا بطاوس وراقود[(١)] لصرفت وإن كانا أعجميين . والفرق بين هذا والأول أنك تقول : الطاوس ، فتدخل الألف واللام فيُمكِّن في العربية ولا يمكّن هذا في ذاك .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أى كيف يملكنا ونحن أحق بالملك منه ؟. جَروا على سنّتهم في تَعنيتهم الأنبياء وحَيْدهم عن أمر الله تعالى فقالوا : «أَنَّى» أى من أىّ جهة ، فـ«أَنَّى» في موضع نصب على الظرف ، ونحن من سِبط الملوك وهو ليس كذلك وهو فقير ، فتركوا السبب الأقوى وهو قَدَر الله تعالى وقضاؤه السابق حتى احتج عليهم نبيُّهم بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ ﴾ أى اختاره وهو الحجة القاطعة ، وبَيَّن لهم مع ذلك تعليل اصطفاء طالوت ، وهو بسطته في العلم الذى هو مِلاك الإنسان ، والجسم الذى هو مُعينه في الحرب وعدّته عند اللقاء ؛ فتضمّنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة ، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوّة لا بالنسب ، فلا حظّ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس وأنها متقدّمة عليه ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوّته ، وإن كانوا أشرف منتسبا . وقد مضى في أوّل السورة من ذكر الإمامة وشروطها ما يكفي ويغني[(٢)] . وهذه الآية أصل فيها . قال ابن عباس : كان طالوت يومئذ أعلم رجل في بني إسرائيل وأجملَه وأتمّه ؛ وزيادة الجسم مما يَهيب العدوّ . وقيل : سمى طالوت لطوله . وقيل : زيادة الجسم كانت بكثرة معاني الخير والشجاعة ، ولم يرد عِظم الجسم ؛ ألم تر إلى قول الشاعر[(٣)] :

ترى الرجُلَ النحيف فتزدريه * وفى أثوابه أسَدٌ هَصُور[(٤)]
ويُعجبك الطَّرير فتبتليه * فيُخلِف ظنَّك الرجلُ الطَّرير[(٥)]
وقد عَظُم البعير بغير لُبٍّ * فلم يَستغنِ بالعِظَم البعيرُ

---

(١) الراقود : الدن الكبير ، أو هو دن طويل الأسفل ، والجمع الرواقيد معرّب .

(٢) راجع المسألة الرابعة وما بعدها جـ ١ ص ٢٦٤ . (٣) هو العباس بن مرداس ؛ كما في الحماسة وغيرها .

(٤) في اللسان في مادة مزر : « مزير » . والمزير : الشديد القلب القوى النافذ ، والهصور : الشديد الذى يفترس ويكسر .

(٥) الطرير : ذو الرواء والمنظر . في ه : فما يغنى بجنه .

قلت : ومن هــذا المعنى قوله صلى الله عليه وسـلم لأزواجه : " أسرعكنّ لحـاقا بى، أطولكنّ يدا " فكنّ يتطاولن، فكانت زينب أولهن موتا؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدّق؛ خرّجه مسلم . وقال بعض المتأولين : المراد بالعلم علم الحروب، وهذا تخصيص العموم من غير دليل . وقد قيل : زيادة العلم بأن أوحى الله إليه ، وعلى هذا كان طالوت نبيا ، وسيأتى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ ذهب بعض المتأولين إلى أن هذا من قول الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو من قول شَمْويل وهو الأظهر . قال لهم ذلك لمـا علم من تعنّتهم وجـدالهم فى الحجج ، فأراد أن يتم كلامه بالقطعىّ الذى لا اعتراض عليه فقال الله تعالى : « وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ » . و إضافة ملك الدنيا إلى الله تعـالى إضافة مملوك إلى مِلك . ثم قال لهم على جهة التغبيط والتنبيه من غير سؤال منهم : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ » . ويحتمل أن يكونوا سألوه الدّلالة على صـدقه فى قوله : « إِنَّ ٱللَّهَ قَـدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا » . قال ابن عطيــة : والأوّل أظهر بمساق الآية ، والثانى أشــبه بأخلاق بنى إسرائيل الذميمة ، و إليه ذهب الطبرىّ .

قوله تعـالى : وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾ أى إتيانُ التابوت، والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام، فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام ، فكان فى بنى إسرائيل يَغلبون به من قاتلهم حتى عَصَوْا فغُلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة : جالوت وأصحابه فى قول السدى ، وسلبوا التابوت منهم .

قلت : وهذا أدل دليل على أن العصيان سبب الخذلان ، وهذا بيّن . قال النحاس : والآية فى التابوت على ما رُوى أنه كان يسـمع فيه أنينٌ ، فإذا سمعوا ذلك ساروا لحربهـم ،

وإنا هدأ الأنين لم يسيروا ولم يسر التابوت . وقيل : كانوا يضعونه في مأزق الحرب فلا تزال تغلب حتى عصوا فغلبوا وأخذ منهم التابوت وذل أمرهم ؛ فلما رأوا آية الاصطلام (١) وذهاب الذكر، أنف بعضهم وتكلموا في أمرهم حتى اجتمع ملؤهم أن قالوا لنبي الوقت : ابعث لنا ملكا؛ فلما قال لهم : ملككم طالوت راجعوه فيه كما أخبر الله عنهم؛ فلما قطعهم بالحجة سألوه البيّنة على ذلك، في قول الطبري. فلما سألوا نبيهم البينة على ما قال، دعا ربه فنزل بالقوم الذين أخذوا التابوت داءٌ بسببه ، على خلاف في ذلك . قيل : وضعوه في كنيسة لهم فيها أصنام فكانت الأصنام تصبح منكوسة . وقيل : وضعوه في بيت أصنامهم تحت الصنم الكبير فأصبحوا وهو فوق الصنم، فأخذوه وشدّوه إلى رجليه فأصبحوا وقد قُطعت يدا الصنم ورجلاه وألقيت تحت التابوت؛ فأخذوه وجعلوه في قرية قوم فأصاب أولئك القوم أوجاع في أعناقهم . وقيل : جعلوه في مخرأة قوم فكانوا يُصيبهم الباسور (٢)؛ فلما عظم بلاؤهم كيفما كان، قالوا : ما هذا إلا لهذا التابوت ! فلنردّه إلى بني إسرائيل فوضعوه على عجلة بين ثورين وأرسلوهما في الأرض نحو بلاد بني إسرائيل ، وبعث الله ملائكة تسوق البقرتين (٣) حتى دخلتا على بني إسرائيل ، وهم في أمر طالوت فأيقنوا بالنصر؛ وهذا هو حمل الملائكة للتابوت في هذه الرواية . ورُوي أن الملائكة جاءت به تحمله وكان يوشع بن نون قد جعله في البرية ؛ فروي أنهم رأوا التابوت في الهواء حتى نزل بينهم ؛ قاله الربيع بن خيثم . وقال وهب بن منبه : كان قدر التابوت نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين . الكلبي : وكان من عود شمسار (٤) الذي يتخذ منه الأمشاط . وقرأ زيد بن ثابت « التابوه » وهي لغته ، والناس على قراءته بالتاء وقد تقدّم . وروي عنه « التيبوت » ذكره النحاس . وقرأ حميد بن قيس « يحمله » بالياء .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ ﴾ اختلف الناس في السكينة والبقية؛ فالسكينة فعيلة مأخوذة من السكون والوقار والطمأنينة . فقوله « فِيهِ سَكِينَةٌ » أي هو سبب سكون

---

(١) الاصطلام : الاستئصال والإبادة . (٢) في ز، وابن عطية : « الناسور » بالنون .

(٣) كذا في الأصول ، وفي الطبري : الثورين . (٤) في ح و أ و ج بالشين المعجمة والميم والسين المهملة . والذي في هـ والبحر بالمعجمتين بينهما ميم وفي معجم أسماء النبات «شمساد» ص ٣٤

قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت؛ ونظيره « فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ »(١) أى أنزل عليه ما سكن [به](٢) قلبه . وقيل : أراد أن التابوت كان سبب سكون قلوبهم، فأينما كانوا سكنوا إليه ولم يفروا من التابوت إذا كان معهم فى الحرب . وقال وهب بن منبه : السكينة روح من الله تتكلم، فكانوا إذا اختلفوا فى أمر نطقت ببيان ما يريدون، و إذا صاحت فى الحرب كان الظفر لهم . وقال على بن أبى طالب : هى ريح هَفَّافة(٣) لها وجه كوجه الإنسان . وروى عنه أنه قال : هى ريح خَجُوج(٤) لها رأسان . وقال مجاهد : حيوان كالهر له جناحان وذَنَب ولعينيه شُعاع، فإذا نظر إلى الجيش انهزم . وقال ابن عباس : طَسْت من ذهب من الجنة، كان يُغسل فيه قلوب الأنبياء؛ وقاله السدى . وقال ابن عطية : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى .

قلت : وفى صحيح مسلم عن البَرَاء قال : كان رجل يقرأ سورة « الكهف » وعنده فرس مربوط بشَطَنَين(٥) فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسُه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : " تلك السَّكِينة تنزّلت للقرآن " . وفى حديث أبى سعيد الخدرى : أن أُسَيد بن الحُضَير بينما هو ليلة يقرأ فى مِرْبَده(٦) الحديث . وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأتَ لأصبحتْ يراها الناس ما تستتر منهم " خرجه البخارى ومسلم . فأخبر صلى الله عليه وسلم عن نزول السكينة مرة، ومرة عن نزول الملائكة؛ فدل على أن السكينة كانت فى تلك الظُّلّة، وأنها تنزل أبدا مع الملائكة . وفى هذا حجة لمن قال إن السكينة روح أو شىء له روح ؛ لأنه لا يصح استماع القرآن إلا لمن يعقل، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَبَقِيَّةٌ ﴾ اختلف فى البقية على أقوال ، فقيل : عصا موسى وعصا هارون ورُضَاض(٧) الألواح؛ لأنها انكسرت حين ألقاها موسى، قاله ابن عباس . زاد عكرمة :

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤٨ (٢) الزيادة من ز . (٣) هفافة : سريعة المرور فى هبوبها .
(٤) ريح خجوج : شديدة المرور فى غير استواء . (٥) الشطن : الحبل، وجمعه أشطان .
(٦) المربد (بكسر فسكون ففتح) : الموضع الذى ييبس فيه التمر . (٧) رضاض الشىء (بضم الراء) : فتاته .

التوراة .وقال أبو صالح : البقية : عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة[١]. وقال عطية بن سعد : هى عصا موسى [وعصا][٢] هارون وثيابهما ورُضَاض الألواح . وقال الثوريّ : من الناس من يقول البقية قفيزا مَنٍّ[٣] فى طست من ذهب وعصا موسى وعمامة هارون ورضاض الألواح . ومنهم من يقول : العصا والنعلان . ومعنى هذا ما روى من أن موسى لمـا جاء قومه بالألواح فوجدهم قد عبدوا العجْل، ألقى الألواح غضبا فتكسرت ، فنزع منها ما كان صحيحا وأخذ رُضَاض ما تكسر فجعله فى التابوت . وقال الضحاك : البقية : الجهاد وقتال الأعداء . قال ابن عطية : أى الأمر بذلك فى التابوت ، إمّا أنه مكتوب فيه ، وإمّا أن نفس الإتيان به [هو][٤] كالأمر بذلك ، وأسند الترك إلى [آل][٤] موسى و [آل][٤] هارون من حيث كان الأمر مندرجا من قوم إلى قوم وكلهم آل موسى وآل هارون . وآل الرجل قرابته . وقد تقدّم[٥] .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ « فَصَلَ » معناه خرج بهم . فصلت الشيء فانفصل ، أى قطعته فانقطع . قال وهب بن منبه : فلما فصل طالوت قالوا له إن المياه لا تحملنا فادع الله أن يجرى لنا نهرا، فقال لهم طالوت : إن الله مبتليكم بنهر . وكان عدد الجنود ــ فى قول السدّيّ ــ ثمانين ألفا . [وقال وهب][٦]: لم يتخلف عنه إلا ذو

(١) فى ز وابن عطية : والمن . (٢) من ه و ج و ز . (٣) كذا فى ج و ه وابن عطية وفى ه : قفيز، وهو الزبيل . (٤) الزيادة من ز ، وابن عطية . (٥) راجع المسألة الثانية والثالثة ج١ ص ٣٨١ (٦) من ج و ه .

عذر من صغر أو كبر أو مرض . والابتلاء الاختبار . والنَّهَر والنَّهْر لغتان . واشتقاقه من السعة ، ومنه النهار وقد تقدم[1] . قال قتادة : النهر الذى ابتلاهم الله به هو نهر بين الأُرْدُن وفلسطين . وقرأ الجمهور « بنهر » بفتح الهاء . وقرأ مجاهد وحُمَيد الأعرج « بنهر » بإسكان الهاء . ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم ، فمن ظهرت طاعته فى ترك الماء عُلم أنه مطيع فيما عدا ذلك ، ومن غلبته شهوته [فى الماء[2]] وعصى الأمر فهو فى العصيان فى الشدائد أحرى ، فرُوى أنهم أتوا النهر وقد نالهم عطش وهو فى غاية العذوبة والحسن ، فلذلك رُخِّص للطيعين فى الغَرْفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع وليكسِروا نزاع النفس فى هذه الحال . وبين أن الغَرْفة كافَّةٌ ضررَ العطش عند الحَزَمة الصابرين على شَظَف العيش الذين هَمُّهم فى غير الرفاهية ، كما قال عروة :

* وأحْسُوا قَراح الماءِ والماءُ باردُ *

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : "حسْب المرء لُقَيْمات يُقِمن صلبه" . وقال بعض من يتعاطى غوامض المعانى : هذه الآية مثلٌ ضربه الله للدنيا فشبهها الله بالنهر والشارب منه والمائل إليها والمستكثر منها ، والتارك لشربه بالمنحرف عنها والزاهد فيها ، والمغترف بيده غرفة بالآخذ منها قدر الحاجة ، وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة .

قلت : ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف فى التأويل والخروج عن الظاهر ، لكن معناه صحيح من غير هذا

الثانية — استدل من قال إن طالوت كان نبيا بقوله : « إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ » وأن الله أوحى إليه بذلك وألهمه ، وجعل الإلهام ابتلاء من الله لهم . ومن قال لم يكن نبيا قال : أخبره نبيهم شمويل بالوحى حين أخبر طالوتُ قومه بهذا ، وإنما وقع هذا الابتلاء ليتميّز الصادق من الكاذب . وقد ذهب قوم إلى أن عبد الله بن حُذَافة السَّهْمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أمر أصحابه بإيقاد النار والدخول فيها تجربة لطاعتهم ، لكنه حمل مزاحه على تخشين الأمر الذى كلفهم ، وسيأتى بيانه فى « النساء[3] » إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ (٢) من جـ و هـ و ز . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٥٨

الثالثة ــ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ شرب قيل معناه كَرَع . ومعنى «فَلَيْسَ مِنِّى» أى ليس من أصحابى فى هذه الحرب ، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان . قال السدّى : كانوا ثمانين ألفا ، ولا محالة أنه كان فيهم المؤمن والمنافق والمجِدّ والكسلان ، وفى الحديث "من غشنا فليس منا" أى ليس من أصحابنا ولا على طريقتنا وهَدْينا . قال : (١)

إذا حاولتَ فى أسَد فجوراً * فإنى لستُ منك ولستَ مِنِّى

وهذا مَهْيَع (٢) فى كلام العرب؛ يقول الرجل لابنه إذا سلك غير أسلوبه : لست مِنِّى .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى﴾ يقال : طعِمت الشيء أى ذقته . وأطعمته الماء أى أذقته ، ولم يقل ومن لم يشربه لأن من عادة العرب إذا كرروا شيئا أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات ، فلا عبرة بقدح من يقول : لا يقال طعمت الماء .

الخامسة ــ استدل علماؤنا بهذا على القول بسدّ الذرائع؛ لأن أدنى الذوق يدخل فى لفظ الطعم ، فإذا وقع النهى عن الطعم فلا سبيل إلى وقوع الشرب ممن يتجنب الطعم ؛ ولهذه المبالغة لم يأت الكلام «ومن لم يشرب منه» .

السادسة ــ لما قال تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ دلّ على أن الماء طعام وإذا كان طعاما كان قوتا لبقائه واقتيات الأبدان به فوجب أن يجرى فيه الربا ، قال ابن العربى : وهو الصحيح من المذهب . قال أبو عمر قال مالك : لا بأس ببيع الماء على الشَّطّ بالماء متفاضلا و إلى أجل ، وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف . وقال محمد بن الحسن : هو مما يكال و يوزن، فعلى هذا القول لا يجوز عنده التفاضل، وذلك عنده فيه ربا؛ لأن علته فى الربا الكيل والوزن . وقال الشافعى : لا يجوز بيع الماء متفاضلا ولا يجوز فيه الأجل ، وعلته فى الربا أن يكون مأكولا جنسا .

---

(١) هو النابغة الذبيانى، يقول هذا لعيينة بن حصن الفزارى ، وكان قد دعاه وقومه إلى مقاطعة بنى أسد ونقض حلفهم فأبى عليه وتوعده بهم ، وأراد بالفجور نقض الحلف . (عن شرح الشواهد) .

(٢) المهيع : الطريق الواضح الواسع البين .

السابعة — قال ابن العربيّ قال أبو حنيفة : من قال إن شرِب عبدى فلان من الفُرات فهو حُرّ فلا يعتق إلا أن يكْرَع فيه، والكرع أن يشرب الرجل بفيه من النهر، فإن شرب بيده أو اغترف بالإناء منه لم يعتق؛ لأن الله سبحانه فرّق بين الكرع فى النهر وبين الشرب باليد . قال : وهذا فاسد؛ لأن شرب الماء يطلق على كل هيئة وصفة فى لسان العرب من غَرْف باليد أو كَرْع بالفم انطلاقا واحدا ، فإذا وُجد الشَّرب المحلوفُ عليه لغة وحقيقة حنث، فاعلمه .

قلت : قول أبى حنيفة أصح ، فإن أهل اللغة فرّقوا بينهما كما فرّق الكتاب والسنة . قال الجوهرى وغيره : وكَرَع فى الماء كُروعا إذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء، وفيه لغة أخرى « كرِع » بكسر الراء [يكرَع][(1)] كَرَعا . والكَرَع : ماء السماء يكرع فيه . وأما السنة فذكر ابن ماجه فى سننه : حدّثنا واصل بن عبد الأعلى حدّثنا ابن فُضيل عن ليث عن سعيد بن عامر عن ابن عمر قال : مررنا على بركة فجعلنا نكرع فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَكرَعوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناء أطيب من اليد" وهذا نص . وليث بن أبى سليم خرّج له مسلم وقد ضُعِّف .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ الاغتراف : الأخذ من الشيء باليد وبآلة ، ومنه المِغْرَفة ، والغَرْف مثل الاغتراف . وقرئ « غَرْفة » بفتح الغين وهى مصدر، ولم يقل اغترافة؛ لأن معنى الغَرْف والاغتراف واحد . والغَرْفة المرة الواحدة . وقرئ « غُرْفة » بضم الغين وهى الشيء المُغْتَرَف . وقال بعض المفسرين : الغَرْفة بالكفّ الواحد والغُرفة بالكفَّين . وقال بعضهم : كلاهما لغتان بمعنى واحد . وقال علىّ رضى الله عنه : الأكُفّ أنظَفُ الآنية، ومنه قول الحسن :

لا يَدلِفون إلى ماء بآنية * إلا اغترافا من الغُدْران بالرّاح

الدليف : المشى الرويد .

(1) فى ه و ج و ز .

قلت : ومن أراد الحلال الصِّرف فى هذه الأزمان دون شبهة ولا امتراء ولا ارتياب فليشرب بكفّيه الماء من العيون والأنهار المسخَّرة بالجَرَيان آناء الليل و [آناء][1] النهار، مبتغيا بذلك من الله كسب الحسنات ووضع الأوزار واللّحوق بالأئمة الأبرار، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من شرب بيده وهو يقدر على إناء يريد به التواضع كتب الله له بعدد أصابعه حسنات وهو إناء عيسى بن مريم عليهما السلام إذ طرح القدح فقال أفّ هذا مع الدنيا" . خرّجه ابن ماجه من حديث ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشرب على بطوننا وهو الكَرْع، ونهانا أن نغترف باليد الواحدة، وقال : "لا يلغ أحدكم كما يلغ الكلب ولا يشرب باليد الواحدة كما يشرب القوم الذين سخط الله عليهم ولا يشرب بالليل فى إناء حتى يحركه إلا أن يكون إناء مُخَمَّرا ومن شرب بيده وهو يقدر على إناء ... " الحديث كما تقدّم، وفى إسناده بَقِيّة بن الوليد، قال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به . وقال أبو زرعة : إذا حدّث بَقِيّة عن الثقات فهو ثقة .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال ابن عباس : شربوا على قدر يقينهم، فشرب الكفار شرب الهِيم[2] وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفا وبقى بعض المؤمنين لم يشرب شيئا وأخذ بعضهم الغُرْفة، فأما من شرب فلم يَرْوَ، بل برّح به العطش، وأما من ترك الماء فحسُنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغُرفة .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ﴾ الهاء تعود على النهر، و«هو» توكيد . ﴿والذين﴾ فى موضع رفع عطفا على المضمر فى «جاوزه» يقال : جاوزت المكان مجاوزة وجوازا . والمجاز فى الكلام ما جاز فى الاستعمال ونفذ واستمر على وجهه . قال ابن عباس والسدى : جاز معه فى النهر أربعة آلاف رجل فيهم من شرب، فلما نظروا إلى جالوت وجنوده وكانوا مائة ألف كلهم شاكون فى السلاح رجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة و بضعة وثمانون ؛ فعلى هذا القول قال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله تعالى عند ذلك وهم عدّة أهل

(١) كذا فى هـ و ح وفى ز : أطراف .
(٢) الهيم : الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء، واحدها أهيم، والأنثى هيماء .

بدر : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ » . وأكثر المفسرين : على أنه إنما جاز معه النهر من لم يشرب جملة ، فقال بعضهم : كيف نطيق العدوّ مع كثرتهم ! فقال أُولوا العزْم منهم : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ » . قال البراء بن عازب : كنا نتحدّث أن عدّة أهل بدر كعدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ثلاثمائة و بضعة عشر رجلا — وفي رواية : وثلاثة عشر رجلا — وما جاز معه إلا مؤمن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ والظن هنا بمعنى اليقين ؛ ويجوز أن يكون شكّا لا علما ، أي قال الذين يتوهّمون أنهم يُقتلون مع طالوت فيلقون الله شهداء ؛ فوقع الشك في القتل .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ الفئة : الجماعة من الناس والقطعة منهم ؛ من فاوْتُ رأسه بالسيف وفأيته أي قطعته . وفي قولهم رضي الله عنهم : « كم من فئة قليلة » الآية ؛ تحريضٌ على القتال واستشعارٌ للصبر واقتداءٌ بمن صدّق ربه .

قلت : هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدّام اليسير من العدوّ كما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا ! وفي البخاريّ : وقال أبو الدرداء : إنما تقاتلون بأعمالكم . وفيه مُسْنَد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم " . فالأعمال فاسدة والضعفاء مُهْمَلون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة ! . قال الله تعالى : « اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ »(1) وقال : « وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا »(2) وقال : « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »(3) وقال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ »(4) وقال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(5) . فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله و إنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلّ بنا ! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ، ولا من الدِّين إلا رَسْمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدوّ شرقا وغربا برا و بحرا ، وعمّت الفتن وعظُمت المحن ولا عاصم إلا من رحِم ! .

(1) راجع جـ ٤ ص ٣٢٢ (2) راجع جـ ٦ ص ١٢٧ (3) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٢
(4) راجع جـ ١٢ ص ٧٢ (5) راجع جـ ٨ ص ٢٣

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾

« بَرَزُوا » صاروا في البراز وهو الأفيح(1) من الأرض المتسع . وكان جالوت أمير العمالقة وملكهم ظله ميل . ويقال : إن البربر من نسله ، وكان فيما روى في ثلاثمائة ألف فارس . وقال عكرمة : في تسعين ألفا ، ولما رأى المؤمنون كثرة عدوهم تضرعوا إلى ربهم ، وهذا كقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ » إلى قوله : « وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا(2) » الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقى العدو يقول فى القتال : " اللهم بك أصول وأجول " وكان صلى الله عليه وسلم يقول إذا لقى العدو : " اللهم إني أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم " ودعا يوم بدر حتى سقط رداؤه عن منكبيه يستنجز(3) الله وعده على ما يأتي بيانه في « آل عمران(2) » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى فأنزل الله عليهم النصر ، « فَهَزَمُوهُمْ » : فكسروهم . والهزم : الكسر ، ومنه سقاء مُتَهَزِّم ، أى انثنى بعضه على بعض مع الجفاف ، ومنه ما قيل فى زمزم : إنها هَزْمَةُ جبريل ، أى هزمها جبريل برجله فخرج الماء . والهزم : ما انكسر من يابس الحطب .

قوله تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ وذلك أن طالوت الملك اختاره من بين قومه لقتال جالوت ، وكان رجلا قصيرا مسقاما مصفارا أصغر أزرق ، وكان جالوت من أشد الناس وأقوام وكان يهزم الجيوش وحده ، وكان قتل جالوت وهو رأس العمالقة على يده . وهو داود

(1) كذا في ه و ج و ز ، وفي ا : الأفسح . (2) راجع ج ٤ ص ٢٢٨ فما بعد و ص ١٩٠ فما بعد .
(3) في ه : ويستنجزه وفي ا ، ح ، و : ليستنجز وما أثبتناه في ز .

ابن إيشى[1] — بكسر الهمزة، ويقال : داود بن زكريا بن رشوى، وكان من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وكان من أهل بيت المقدس جمع له بين النبوّة والملك بعد أن كان راعيا وكان أصغر إخوته وكان يرعى غنما، وكان له سبعة إخوة فى أصحاب طالوت؛ فلما حضرت الحرب قال فى نفسه : لأذهبنّ إلى رؤية هذه الحرب ، فلما نهض فى طريقه مر بحجر فناداه : يا داود خذنى فبى تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر ثم آخر فأخذها وجعلها فى مخلاته وسار ، فخرج جالوت يطلب مبارزا فكَعّ[2] الناس عنه حتى قال طالوت : من يبرُز إليه ويقتله فأنا أزوجه ابنتى وأحكّمه فى مالى ؛ فجاء داود عليه السلام فقال : أنا أبرز إليه وأقتله ، فآزدراه طالوت حين رآه لصغر سنّه وقصره فردّه ، وكان داود أزرق قصيرا؛ ثم نادى ثانية وثالثة فخرج داود، فقال طالوت له : هل جرّبت نفسك بشىء ؟ قال نعم؛ قال بماذا ؟ قال : وقع ذئب فى غنمى فضربته ثم أخذت رأسه فقطعته من جسده . قال طالوت : الذئب ضعيف، هل جرّبت نفسك فى غيره؟ قال : نعم، دخل الأسد فى غنمى فضربته ثم أخذت بلحييه فشققتهما ، أفترى هذا أشدّ من الأسد؟ قال لا ؛ وكان عند طالوت دِرْعٌ لا تستوى إلا على من يقتل جالوت، فأخبره بها وألقاها عليه فآستوت ؛ فقال طالوت : فآركب فرسى وخذ سلاحى ففعل ؛ فلما مشى قليلا رجع فقال الناس : جَبُن الفتى! فقال داود : إن الله إن لم يقتله لى ويُعِنّى عليه لم ينفعنى هذا الفرس ولا هذا السلاح، ولكنّى أحب أن أقاتله على عادتى . قال : وكان داود من أرمى الناس بالمِقْلاع، فنزل وأخذ مخلاته فتقلّدها وأخذ مقلاعه وخرج إلى جالوت، وهو شاكٍ فى سلاحه على رأسه بيضة فيها ثلاثمائة رطل، فيما ذكر الماوردى وغيره؛ فقال له جالوت : أنت يا فتى تخرج إلىّ! قال نعم؛ قال : هكذا كما تخرج إلى الكلب ! قال نعم ، وأنت أهون . قال : لأطعمنّ لحمك اليوم للطّير والسّباع ؛ ثم تدانيا وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده استخفافا به، فأدخل داود يده إلى الحجارة ، فرُوِى أنها التأمت فصارت حجرا واحدا ، فأخذه فوضعه فى المقلاع وسمّى الله

---

(١) كذا فى الأصول، والذى فى البحر وغيره : إيشا . (٢) كع : جبن وضعف .

وأداره ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله ، وحز رأسه وجعله فى مخلاته ، واختلط الناس وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة . وقد قيل : إنما أصاب بالحجر من البيضة موضع أنفه؛ وقيل : عينه[1] وخرج من قفاه ، وأصاب جماعة من عسكره فقتلهم . وقيل : إن الحجر تفتّت حتى أصاب كل من فى العسكر شىء منه؛ وكان كالقبضة التى رمى بها النبي صلى الله عليه وسلم هوازن يوم حنين ، والله أعلم . وقد أكثر الناس فى قصص هذه الآى ، وقد ذكرت لك منها المقصود والله المحمود .

قلت : وفى قول طالوت : « من يبرز له ويقتله فأنى أزوّجه ابنتى وأحكّمه فى مالى » معناه ثابت فى شرعنا ، وهو أن يقول الإمام : من جاء برأس فله كذا ، أو أسير فله كذا على ما يأتى بيانه فى « الأنفال »[2] إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على أن المبارزة لا تكون إلا بإذن الإمام ؛ كما يقوله أحمد وإسحاق وغيرهما . واختلف فيه عن الأوزاعىّ فحكى عنه أنه قال : لا يحمل أحد إلا بإذن إمامه . وحكى عنه أنه قال : لا بأس به ، فإن نهى الإمام عن البراز فلا يبارز أحد إلا بإذنه . وأباحت طائفة البراز ولم تذكر بإذن الإمام ولا بغير إذنه ؛ هذا قول مالك . سئل مالك عن الرجل يقول بين الصفين : من يبارز ؟ فقال : ذلك إلى نيته إن كان يريد بذلك الله فأرجو ألا يكون به بأس ، قد كان يُفعل ذلك فيما مضى . وقال الشافعىّ : لا بأس بالمبارزة . قال ابن المنذر : المبارزة بإذن الإمام حسن ، وليس على من بارز بغير إذن الإمام حرج ، وليس ذلك بمكروه لأنى لا أعلم خبرا يمنع منه .

﴿ وَآتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ قال السدى : آتاه الله ملك طالوت ونبوّة شمعون . والذى علّمه هو صنعة الدروع ومنطق الطير وغير ذلك من أنواع ما علمه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : هو أن الله أعطاه سلسلة موصولة بالمجرّة والفلك ورأسها عند صومعة داود ؛ فكان لا يحدث فى الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث ، ولا يمسها ذو عاهة إلا برئ ؛ وكانت علامة دخول قومه فى الدين أن يمسوها بأيديهم ثم يمسحون أكفهم على صدورهم ، وكانوا يتحاكمون إليها بعد داود عليه السلام إلى أن رفعت .

(١) فى ه و ز « عينه » وفى ا : « وفقأ عينه » .   (٢) راجع ج ٧ ص ٣٦٢

قوله تعالى : ﴿ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ أى مما شاء، وقد يوضع المستقبل موضع الماضى، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فيه مسألتان[1] :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ كذا قراءة الجماعة، إلا نافعا فإنه قرأ « دِفَاعُ » ويجوز أن يكون مصدراً لفعل كما يقال : حسبت الشيء حسابا ، وآبَ إيابا ، ولقيته لقاء ، ومثله كتبه كتابا ، ومنه « كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ »[2] . النحاس : وهذا حسن؛ فيكون دفاع ودفع مصدرين لِدَفَعَ وهو مذهب سيبويه . وقال أبو حاتم : دافع ودَفَع بمعنى واحد؛ مثل طرقت النعل وطارقت؛ أى خَصَفْت إحداهما فوق الأخرى ، والخصف : الخرز . واختار أبوعبيدة قراءة الجمهور « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ » . وأنكر أن يقرأ « دِفَاعُ » وقال : لأن الله عز وجل لا يغالبه أحد . قال مكيّ : هذا وَهْمٌ توهّم فيه باب المفاعلة وليس به ؛ واسم «الله» فى موضع رفع بالفعل، أى لولا أن يدفع الله . و « دِفَاعُ » مرفوع بالابتداء عند سيبويه . « النَّاسَ » مفعول ، « بَعْضَهُم » بدل من الناس ، « بِبَعْضٍ » فى موضع المفعول الثانى عند سيبويه ، وهو عنده مثل قولك : ذهبت بزيد، فزيد فى موضع مفعول فاعلمه .

الثانيــة — واختلف العلماء فى الناس المدفوع بهم الفساد من هم؟ فقيل : هم الأبدال وهم أربعون رجلا كلما مات واحد بدّل الله آخر ، فإذا كان عند القيامة ماتوا كلهم؛ اثنان وعشرون منهم بالشام وثمانية عشر بالعراق . وروى عن عليّ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء ويصرف بهم عن أهل الأرض البلاء" ذكره الترمذيّ الحكيم فى « نوادر الأصول » . وخرّج أيضا عن أبى الدرداء قال : إن الأنبياء كانوا أوتاد الأرض ، فلما انقطعت النبوّة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقال لهم الأبدال؛ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بحسن الخلق وصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم ولب

(١) كذا فى جـ ، وليس فى بقية الأصول : تقسيم ، وفيها بدل الثانية مسألة . (٢) جـ ٥ ص ١٢٤

وتواضع فى غير مَذلّة ، فهم خلفاء الأنبياء قوم اصطفاهم الله لنفسه واستخلصهم بعلمه لنفسه، وهم أربعون صِدّيقا منهم ثلاثون رجلا على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن ، يدفع الله بهم المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس، وبهم يُمطَرون ويُرزَقون، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه . وقال ابن عباس : ولولا دفع الله العدوّ بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخرّبوا البلاد والمساجد . وقال سفيان الثورى : هم الشهود الذين تُستخرج بهم الحقوق . وحكى مكى أن أكثر المفسرين على أن المعنى : لولا أن الله يدفع بمن يصلّى عمن لا يصلّى وبمن يتقى عمن لا يتقى لأهلك الناس بذنوبهم، وكذا ذكر النحاس والثعلبى أيضا . [قال الثعلبى](١) وقال سائر المفسرين : ولولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجار والكفار لفسدت الأرض ، أى هلكت . وذكر حديثا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يدفع العذاب بمن يصلّى من أمتى عمن لا يصلى وبمن يزكّى عمن لا يزكى وبمن يصوم عمن لا يصوم وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يجاهد عمن لا يجاهد، ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم(٢) الله طرفة عين — ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم — وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ " . وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن لله ملائكة تنادى كل يوم لولا عباد رُكَّع وأطفال رُضَّع وبهائم رُتَّع لصبّ عليكم العذاب صبا " خرّجه أبو بكر الخطيب بمعناه من حديث الفضيل بن عياض . حدّثنا منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا فيكم رجال خُشّع وبهائم رتّع وصبيان رضّع لصب العذاب على المؤمنين صبا " . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال :

لولا عبادٌ للإله رُكَّعُ * وصِبْيَةٌ من اليتامى رُضَّعُ
ومُهْمَلاتٌ فى الفَلاة رُتَّعُ * صُبَّ عليكم العذابُ الأوجعُ

وروى جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم ". وقال قتادة : يبتلى الله المؤمن بالكافر ويعافى الكافر بالمؤمن . وقال ابن عمر قال النبى صلى الله عليه وسلم :

(١) فى ه و ج . (٢) فى ه : ما أمطرهم .

" إن الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مائة من أهل بيته وجيرانه البلاء". ثم قرأ ابن عمر «وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» . وقيل : هذا الدفع بما شرع على ألسنة الرسل من الشرائع ، ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا ، وهذا قول حسن فإنه عموم في الكف والدفع وغير ذلك فتأمله . ﴿ وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ . بين سبحانه أن دفعه بالمؤمنين شر الكافرين فضل منه ونعمة .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿ تِلْكَ ﴾ ابتداء ﴿ آيَاتُ اللهِ ﴾ خبره ، وإن شئت كان بدلا والخبر ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ . ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، خبر إن أي وإنك لمرسل . نبه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن هذه الآيات التي تقدم ذكرها لا يعلمها إلا نبي مرسل .

قوله تعالى : تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾ قال : «تلك» ولم يقل : ذلك مراعاة لتأنيث لفظ الجماعة ، وهي رفع بالابتداء . و« الرُّسُلُ » نعته ، وخبر الابتداء الجملة . وقيل : الرسل عطف بيان ، و﴿ فَضَّلْنَا ﴾ الخبر . وهذه آية مشكلة والأحاديث ثابتة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا تخيروا بين الأنبياء" و"لا تفضلوا بين أنبياء الله" رواها الأئمة الثقات ، أي لا تقولوا : فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان . يقال : خير فلان بين فلان وفلان ، وفضل

(مشددا) إنما قال ذلك . وقد اختلف العلماء فى تأويل هذا المعنى، فقال قوم : إن هذا كان قبل أن يُوحى إليه بالتفضيل ، وقبل أن يعلم أنه سيّد ولد آدم ، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل . وقال ابن قتيبة : إنما أراد بقوله : " أنا سيد ولد آدم " يوم القيامة؛ لأنه الشافع يومئذ وله لواء الحمد والحوض ، وأراد بقوله : « لا تخيّرونى على موسى » على طريق التواضع؛ كما قال أبو بكر : وليتكم ولست بخيركم . وكذلك معنى قوله : " لا يقل أحد أنا خير من يونس بن مَتّى " على معنى التواضع . وفى قوله تعالى : «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ»[1] ما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه؛ لأن الله تعالى يقول : ولا تكن مثله؛ فدلّ على أن قوله : " لا تفضّلونى عليه " من طريق التواضع . ويجوز أن يريد لا تفضلونى عليه فى العمل فلعله أفضل عملا منّى ، ولا فى البلوى والامتحان فإنه أعظم محنة منّى . وليس ما أعطاه الله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من السُّودَد والفضل يوم القيامة على جميع الأنبياء والرسل بعمله بل بتفضيل الله إياه واختصاصه له ، وهذا التأويل اختاره المهلّب . ومنهم من قال : إنما نهى عن الخوض فى ذلك، لأن الخوض فى ذلك ذريعة إلى الجدال وذلك يؤدّى إلى أن يذكر منهم ما لا ينبغى أن يذكر ويقلّ احترامهم عند المُماراة . قال شيخنا : فلا يقال : النبيّ أفضل من الأنبياء كلهم ولا من فلان ولا خيرٌ، كما هو ظاهر النهى[2] لما يتوهم من النقص فى المفضول؛ لأن النهى اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى؛ فإن الله تعالى أخبر بأن الرسُل متفاضلون ، فلا تقول : نبينا خير من الأنبياء ولا من فلان النبيّ اجتنابا لما نُهى عنه وتأدّبا به وعملا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل ، والله بحقائق الأمور عليم .

قلت : وأحسن من هذا قول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوّة التى هى خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات، وأما النبوّة فى نفسها فلا تتفاضل وإنما تتفاضل بأمور أُخَر زائدة عليها؛ ولذلك منهم رُسُل وأولوا عَزْم، ومنهم مَن اتُّخذ خليلا، ومنهم مَن كلّم الله

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٥٣ (٢) فى هـ : النص .

ورفع بعضهم درجات، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً »(١) وقال : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : وهذا قول حسن، فإنه جمع بين الآى والأحاديث من غير نسخ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما مُنح من الفضائل وأُعطىَ من الوسائل، وقد أشار ابن عباس إلى هذا فقال : إن الله فضل محمدا على الأنبياء وعلى أهل السماء، فقالوا : بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء ؟ فقال : إن الله تعالى قال : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ »(٢) . وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً . لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »(٣) . قالوا : فما فضله على الأنبياء؟ قال قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »(٤) وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ »(٥) فأرسله إلى الجن والإنس «ذكره أبو محمد الدارمى فى مسنده . وقال أبو هريرة : خير بنى آدم نوح و إبراهيم وموسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم، وهم أولو العزم من الرسل، وهذا نص من ابن عباس وأبى هريرة فى التعيين. ومعلوم أن من أُرسل أفضل ممن لم يُرسل ، فإن من أُرسل فُضِّل على غيره بالرسالة واستووا فى النبوة إلى مايلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم، وهذا مما لا خفاء فيه، إلا أن ابن عطية أبا محمد عبد الحق قال : إن القرآن يقتضى التفضيل، وذلك فى الجملة دون تعيين أحد مفضول ، وكذلك هى الأحاديث، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أنا أكرم ولد آدم على ربى" وقال : "أنا سيد ولد آدم" ولم يعيِّن ، وقال عليه السلام : "لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى" وقال: "لا تفضلونى على موسى" . وقال ابن عطية : وفى هذا نهى شديد عن تعيين المفضول ، لأن يونس عليه السلام كان شابا وتفسّخ(٦) تحت أعباء النبوة . فإذا كان التوقيف لمحمد صلى الله عليه وسلم فغيره أحرى .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧٨ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٧٢ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٠
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٤٠ (٥) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٠
(٦) يقال : تفسخ البعير تحت الحمل الثقيل إذا لم يطقه .

قلت : ما اخترناه أولى إن شاء الله تعالى ؛ فإن الله تعالى لما أخبر أنه فضل بعضهم على بعض جعل يبين بعض المتفاضلين ويذكر الأحوال التي فضلوا بها فقال : « مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ » وقال « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا »(١) وقال تعالى : « وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ »(٢) ، « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ »(٣) وقال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا »(٤) وقال : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ »(٥) فعم ثم خص وبدأ بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا ظاهر .

قلت : وهكذا القول في الصحابة إن شاء الله تعالى ، اشتركوا في الصحبة ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل ، فهم متفاضلون بتلك مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليهم ، وحسبك بقوله الحق : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ »(٦) إلى آخر السورة . وقال : « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا »(٦) ثم قال : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ »(٢) وقال : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ »(٦) فعم وخص ، ونفى عنهم الشين والنقص ، رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بحبهم آمين .

قوله تعالى : ﴿ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ ﴾ المكلم موسى عليه السلام ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبي مرسل هو ؟ فقال : " نعم نبي مكلم " . قال ابن عطية : وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة ، فعلى هذا تبقى خاصية موسى . وحذفت الهاء لطول الاسم ، والمعنى من كلمه الله .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ قال النحاس : بعضهم هنا على قول ابن عباس والشعبي ومجاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : "بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ونصرت بالرعب(٧) مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم وأعطيت

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٧ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٢ وص ٢٣٩ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٥
(٤) راجع جـ ١٣ ص ١٦٣ (٥) راجع جـ ١٤ ص ١٢٦ (٦) راجع جـ ١٦ ص ٢٩٢ وص ٢٨٨ وص ٢٧٤ . (٧) الرعب : الخوف والفزع . كان أعداء النبي صلى الله عليه وسلم قد أوقع الله تعالى في قلوبهم الخوف ، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوه وفزعوا منه . (عن النهاية) .

الشفاعة " . ومن ذلك القرآن وانشقاق القمر وتكليمه الشجر وإطعامه الطعام خلقا عظيما من تُمَيْرات ودُرُور شاة أم مَعْبَد بعد جَفَاف. وقال ابن عطية معناه، وزاد: وهو أعظم الناس أمّة وخُتِم به النبيون إلى غير ذلك من الخُلُق العظيم الذى أعطاه الله . ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظمت آياته ، ويكون الكلام تأكيدا . ويحتمل أن يريد به رفع أدريس المكان العلىّ، ومراتب الأنبياء فى السماء كما فى حديث الإسراء، وسيأتى . وبيّنات عيسى هى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين كما نص عليه فى التنزيل . ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾[1] قوّيناه . ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ جبريل عليه السلام ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى من بعد الرسل . قيل : الضمير لموسى وعيسى، والاثنان جمع . وقيل : من بعد جميع الرسل ، وهو ظاهر اللفظ . وقيل : إن القتال إنما وقع من الذين جاءوا بعدهم وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبىّ، وهذا كما تقول : اشتريت خيلا ثم بعتها، فجائز لك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرسا وبعته ثم آخر وبعته ثم آخر وبعته ، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبىّ فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا ، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسرّ الحكمة فى ذلك الفعل لما يريد . وكسرت النون من « وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا » لالتقاء الساكنين، ويجوز حذفها فى غير القرآن ، وأنشد سيبويه :

فلستُ بآتيه ولا أستطيعه * ولاكِ اسْقِنى إن كان ماؤُك ذا فَضْلِ[2]

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ «مَنْ» فى موضع رفع بالابتداء والصفة .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

(١) جـ ٢ ص ٢٤ (٢) البيت للنجاشى، وصف أنه اصطحب ذئبا فى فلاة مضلة لا ماء فيها، وزعم أن الذئب ردّ عليه فقال : لست بآت ما دعوتنى إليه من الصحبة ولا أستطيعه لأنى وحشى وأنت إنسى ولكن أسقنى إن كان ماؤك فاضلا عن ريك (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

قال الحسن : هي الزكاة المفروضة . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير : هذه الآية تجمع الزكاة المفروضة والتطوع . قال ابن عطية . وهذا صحيح ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله ، ويقوى ذلك في آخر الآية قوله : « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أي فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال .

قلت : وعلى هذا التأويل يكون إنفاق الأموال مرة واجبا ومرة ندبا بحسب تعين الجهاد وعدم تعينه . وأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم الله وأنعم به عليهم ، وحذرهم من الإمساك إلى أن يجيء يومٌ لا يمكن فيه بيعٌ ولا شراءٌ ولا استدراك نفقة ، كما قال : « فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ »(١) . والخُلَّة : خالص المودة ، مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين . والخِلالة والخَلالة والخُلالة : الصداقة والمودة ، قال الشاعر(٢) :

وكيف تُواصِلُ مَنْ أصْبحَتْ * خِلالَتُه كأبِي مَرْحَبِ

وأبو مرحب كُنية الظِّل ، ويقال : هو كنية عرقوب الذي قيل فيه : مواعيد عرقوب . والخُلة (بالضم أيضا) : ما خلا من النبت ، يقال : الخُلَّة خُبز الإبل والحَمْض فاكهتها . والخَلة (بالفتح) : الحاجة والفقر . والخَلَّة : ابن مَخَاض ، عن الأصمعي . يقال : أتاهم بقُرص كأنه فِرسن(٣) خَلَّة . والأنثى خلة أيضا . ويقال للميت : اللهم أصلح خَلّته ، أي الثُلمة التي ترك . والخَلّة : الخمرة الحامضة . والخِلّة (بالكسر) : واحدة خِلل السيوف ، وهي بطائن كانت تغشى بها أجفان السيوف منقوشة بالذهب وغيره ، وهي أيضا سُيُور تلبس ظهر سِيَتي(٤) القَوس . والخِلة أيضا : ما يبقى بين الأسنان . وسيأتي في « النساء »(٥) اشتقاق الخليل ومعناه . فأخبر الله تعالى ألا خُلّة في الآخرة ولا شفاعة إلا بإذن الله . وحقيقتها رحمة منه تعالى شرّف بها الذي أذن له في أن يشفع . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « لا بيعَ فيه ولا خُلةَ

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٣٠ . - (٢) هو النابغة الجعدي ، كما في اللسان .

(٣) الفرسن (بكسر الفاء والسين وسكون الراء) : عظم قليل اللحم ، وهو خف البعير ، كالحافر للدابة .

(٤) سية القوس : ما عطف من طرفيها . (٥) راجع جـ ٥ ص ٣٩٩ .

ولا شَفاعَةَ » بالنصب من غير تنوين، وكذلك فى سورة « إبراهيم » « لا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ »[1] وفى « الطور » «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ »[2] وأنشد حسان بن ثابت :

أَلَا طِعانَ ولا فُرْسانَ عادِيَةً * إِلَّا تَجَشُّؤُكُمْ عنـد التَّنـانِيرِ[3]

وألف الاستفهام غير مغيِّرة عمـلَ « لا » كقولك : ألا رجلَ عنـدك ، ويجوز ألا رجلٌ ولا امرأةٌ كما جاز فى غير الاستـفهام فاعلمه . وقرأ الباقون جميع ذلك بالرفـع والتنوين ، كما قال الراعىّ :

وما صَرَمْتُكِ حتى قُلْتِ مُعْلِنَةً * لا ناقةٌ لِيَ فى هـذا ولا جَمَلُ

ويروى « وما هجرتكِ » فالفتح على النفى العـام المستغرق لجميع الوجوه من ذلك الصنف ، كأنه جواب لمن قال: هل فيه من بيع ؟ فسأل سؤالا عاما فأجيب جوابا عاما بالنفى . و « لا » مع الأسم المنفى بمنزلة أسم واحد فى موضع رفع بالأبتداء، والخبر « فيه » . وإن شئت جعلته صفة ليوم ، ومَن رفع جعـل « لا » بمنزلة ليس . وجعل الجواب غير عام ، وكأنه جواب مَن قال: هل فيه بيع ؟ بإسـقاط من ، فأتى الجواب غير مغـير عن رفعه ، والمرفوع مبتدأ أو اسم ليس و « فيه » الخبر . قال مكىّ : والاختيار الرفع؛لأن أكثر القراء عليه، ويجوز فى غير القرآن لا بيعَ فيه ولا خلةٌ ، وأنشد سيبويه لرجل من مَذْحِج :

هـذا لَعَمْرُكُمُ الصَّـغار بعَيْنِه * لا أُمَّ لِي إن كان ذاك ولا أَبُ

ويجوز أن تبنى الأوّل وتنصب الثـانى وتنونه فتقول : لا رجلَ فيه ولا امرأةً ، وأنشـد سـيبويه :

لا نَسَبَ اليـومَ ولا خُـلةً * اتَّسَـعَ الخَـرْقُ على الرّاقِـعِ

فلا زائدة فى الموضعين ، الأوّل عطف على الموضع والثـانى على اللفظ . ووجه خامس أن ترفع الأوّل وتبنى الثانى كقولك : لا رجل فيها ولا امرأة ، قال أمَيَّةُ :

فلا لَغْوٌ ولا تَأْثِيمَ فيهـا * وما فَاهُوا به أَبَدًا مُقيمُ

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٦٦ = (٢) راجع جـ ١٧ ص ٦٦ (٣) يقول هـذا لبنى الحارث بن كعب ومنهم النجاشى وكان يهاجيه فجعلهم أهل نهم وحرص على الطعام لا أهل غارة وقتال . والعادية : المستطيلة . ويروى غادية (بالغين المعجمة) وهى التى تغدو للغارة؛ وعادية أعم لأنها تكون بالغداة وغيرها . (عن شرح الشواهد للشنمرى) .

وهذه الخمسة الأوجه جائزة في قولك : لا حول ولا قوة إلا بالله، وقد تقدّم هذا والحمد لله .
﴿ وَالْكَافِرُونَ ﴾ ابتداء . ﴿ هُمُ ﴾ ابتداء ثان ، ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ خبر الثاني ، وإن شئت كانت « هم » زائدة للفصل و « الظالمون » خبر « الكافرون » . قال عطاء بن دينار : والحمد لله الذي قال : « والكافرون هم الظالمون » ولم يقل والظالمون هم الكافرون .

قوله تعالى : ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هذه آية الكرسي سيدة آي القرآن وأعظم آية، كما تقدّم بيانه في الفاتحة، ونزلت ليلا ودعا النبي صلى الله عليه وسلم زيدا فكتبها . روى عن محمد ابن الحنفية أنه قال: لما نزلت آية الكرسي خرّ كل صنم في الدنيا، وكذلك خرّ كل ملك في الدنيا وسقطت التيجان عن رءوسهم، وهربت الشياطين يضرب بعضهم على بعض[(1)] إلى أن أتوا إبليس فأخبروه بذلك فأمرهم أن يبحثوا عن ذلك، فجاءوا إلى المدينة فبلغهم أن آية الكرسي قد نزلت . وروى الأئمة عن أُبيّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم "؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : " يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم "؟ قال قلت : «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» فضرب في صدري وقال : " ليهنك العلم يا أبا المنذر" . زاد الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله : " فوالذي نفسي بيده إن لهذه الآية للسانا وشفتين تقدّس الملك عند ساق العرش" . قال أبو عبد الله : فهذه آية أنزلها الله جل ذكره، وجعل ثوابها لقارئها عاجلا وآجلا ، فأما في العاجل فهي حارسة لمن قرأها من الآفات ، ورُوي لنا عن نَوْف البِكالي أنه قال : آية الكرسي تدعى في التوراة

---

(1) في ه : فاجتمعوا إلى إبليس .

وَلِيَّة الله . يريد يدعى قارئها فى ملكوت السموات والأرض عزيزا، قال : فكان عبد الرحمن ابن عوف إذا دخل بيته قرأ آية الكرسى فى زوايا بيته الأربع، معناه كأنه يلتمس بذلك أن تكون له حارسا من جوانبه الأربع، وأن تنفى عنه الشيطان من زوايا بيته . ورُوى عن عمر أنه صارع جنيا فصرعه عمر رضى الله عنه ، فقال له الجنى : خلِّ عنى حتى أعلمك ما تمتنعون به منا، فخلى عنه وسأله فقال : إنكم تمتنعون منا بآية الكرسى .

قلت : هذا صحيح، وفى الخبر : من قرأ آية الكرسى دُبُر كل صلاة كان الذى يتولى قبض روحه ذو الجلال والإكرام، وكان كمن قاتل مع أنبياء الله حتى يستشهد . وعن علىّ رضى الله عنه قال : سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول وهو على أعواد المنبر : "من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله". وفى البخارىّ عن أبى هريرة قال : وكّلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة وفيها: فقلت يارسول الله، زعم أنه يعلّمنى كلمات ينفعنى الله بها فخلّيت سبيله ،قال: "ماهى"؟ قلت قال لى : إذا آويت إلى فراشك فآقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا[(1)] أحرص شىء على الخير . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "أمّا إنه قد صَدَقك وهو كَذُوب تعلم مَن تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة"؟ قال: لا، قال :"ذاك شيطان". وفى مسند الدّارمىّ أبى محمد قال الشعبىّ قال عبد الله بن مسعود : لقِى رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم رجلا من الجنّ فصارعه فصرعه الإنسىّ، فقال له الإنسى: إنى لأراك ضئيلا شخيتا كأنّ ذُرَيْعتيك ذُرَيْعتا كلب فكذلك أنتم معشر الجن، أم أنت من بينهم كذلك؟ قال: لا والله! إنى منهم لضَليع ولكن عاودْنى الثانية فإن صرعتنى علمتك شيئا ينفعك، قال نعم، فصرعه، قال :

---

(١) الضمير فى « كانوا » راجع إلى الصحابة . قال القسطلانى : « وكان الأصل أن يقول "كنا" لكنه على طريق الالتفات، وقيل هو مدرج من كلام بعض رواته » .

تقرأ آية الكرسي: «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»؟ قال: نعم؛ قال: فإنك لاتقرأها فى بيت إلا خرج منه الشيطان له خَبج كخَبج الحمار ثم لا يدخله حتى يصبح. أخرجه أبو نعيم عن أبى عاصم الثقفى عن الشعبى. وذكره أبوعبيدة فى غريب حديث عمر حدّثناه أبو معاوية عن أبى عاصم الثقفى عن الشعبى عن عبدالله قال: فقيل لعبد الله: أهو عمر؟ فقال: ماعسى أن يكون الا عمر!. قال أبو محمد الدرامى: الضّئيل: الدقيق، والشّخيت: المهزول، والضّليع: جيد الأضلاع، والخَبج: الريح. وقال أبو عبيدة: الخَبج: الضراط، وهو الحَبج أيضا بالحاء. وفى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ حم ـ المؤمن ـ إلى إليه المصير وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح" قال: حديث غريب. وقال أبو عبد الله الترمذى الحكيم: وروى أن المؤمنين ندبوا إلى المحافظة على قراءتها دبر كل صلاة. عن أنس رفع الحديث إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال: "أوحى الله إلى موسى عليه السلام مَن داوم على قراءة آية الكرسى دبر كل صلاة أعطيته فوق ما أعطى الشاكرين(١) وأجر النبيّين وأعمال الصدّيقين وبسطت عليه يمينى بالرحمة ولم يمنعه أن أدخله الجنة إلا أن يأتيه ملك الموت" قال موسى عليه السلام: يا رب من سمع بهذا لا يداوم عليه؟ قال: "إنى لا أعطيه من عبادى إلا لنبى أو صدّيق أو رجل أحبه(٢) أو رجل أريد قتله فى سبيلى". وعن أبى بن كعب قال قال الله تعالى: "يا موسى من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة أعطيته ثواب الأنبياء" قال أبو عبد الله: معناه عندى أعطيته ثواب عمل الأنبياء، فأما ثواب النبوّة فليس لأحد إلا للأنبياء. وهذه الآية تضمنت التوحيد والصفات العُلا، وهى خمسون كلمة، وفى كل كلمة خمسون بركة، وهى تعدل ثلث القرآن، ورَد بذلك الحديث، ذكره ابن عطية. و«اللهُ» مبتدأ، و«لَا إِلَٰهَ» مبتدأ ثان وخبره محذوف تقديره معبود أو موجود. و«إِلَّا هُوَ» بدل من موضع لا إله. وقيل: «اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» ابتداء وخبر، وهو مرفوع محمول على المعنى، أى ما إله إلا هو، ويجوز فى غير القرآن لا إله إلا إياه، نصب على

(١) فى الأصول: «... أعطيته قلوب الشاكرين» والتصويب عن كتاب «السر القدسى فى تفسير آية الكرسى».
(٢) فى ه: اجتبيه.

الاستثناء . قال أبو ذر فى حديثه الطويل : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى آية أنزل الله عليك من القرآن أعظم ؟ فقال : « اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » . وقال ابن عباس : أشرف آية فى القرآن آية الكرسى . قال بعض العلماء : لأنه يكرر فيها اسم الله تعالى بين مضمر وظاهر ثمان عشرة مرة .

﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ نعت لله عز وجل ؛ وإن شئت كان بدلا من « هو » ؛ وإن شئت كان خبرا بعد خبر ، وإن شئت على إضمار مبتدأ . ويجوز فى غير القرآن النصب على المدح . و « الحيّ » اسم من أسمائه الحسنى يسمى به ؛ ويقال : إنه اسم الله تعالى الأعظم . ويقال : إن عيسى ابن مريم عليه السلام كان إذا أراد أن يحيى الموتى يدعو بهذا الدعاء : ياحيّ ياقيوم . ويقال : إن آصف بن بَرْخِيَا لما أراد أن يأتى بعرش بلقيس إلى سليمان دعا بقوله يا حيّ يا قيوم . ويقال : إن بنى إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم فقال لهم : أيا هيا شرا هيا ؛ يعنى يا حيّ يا قيوم . ويقال : هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق يدعون به . قال الطبرىّ عن قوم : إنه يقال حيّ قيوم كما وصف نفسه ، ويُسلّم ذلك دون أن يُنْظَر فيه . وقيل : سمى نفسه حيا لصرفه الأمور مصاريفها وتقديره الأشياء مقاديرها . وقال قتادة : الحيّ الذى لا يموت . وقال السدى : المراد بالحيّ الباقى . قال لبيد :

فإمّا تَرَينِى اليومَ أصبحتُ سالما * فلستُ بأحْيَا من كِلابٍ وجَعْفَرِ

وقد قيل : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم . ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ من قام ؛ أى القائم بتدبير ما خلق ؛ عن قتادة . وقال الحسن : معناه القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بعملها ، من حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شىء منها . وقال ابن عباس : معناه الذى لا يحول ولا يزول ؛ قال أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

لم تُخْلَقِ السماءُ والنجومُ * والشمس مَعْها قمرٌ يقومُ
قدّره مُهَيْمِنٌ قَيُّومُ * والحَشْرُ والجنّةُ والنَّعِيمُ
* إلّا لأمرٍ شأنُه عظيمُ *

قال البيهقى : ورأيت فى « عيون التفسير » لإسماعيل الضرير فى تفسير القيُّوم قال : ويقال هو الذى لا ينام ؛ وكأنه أخذه من قوله عز وجل عقيبه فى آية الكرسى : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » . وقال الكلبىّ : القيوم الذى لا بدىء له (١) ؛ ذكره أبو بكر الأنبارىّ . وأصل قيوم قَيْوُوم اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى فى الثانية بعد قلب الواو ياء ؛ ولا يكون قيوم فعولا ؛ لأنه من الواو فكان يكون قووما . وقرأ ابن مسعود وعلقمة والأعمش والنخعى « الحى القيام » بالألف ، وروى ذلك عن عمر . ولا خلاف بين أهل اللغة فى أن القيوم أعرف عند العرب وأصح بناء وأثبت علة . والقيام منقول عن القوّام إلى القيام ، صرف عن الفعال إلى الفيعال ، كما قيل للصوّاغ الصياغ ؛ قال الشاعر :

إن ذا العرش للّذى يرزُقُ النا * س (٢) وحَىٌّ عليهِـم قيُّـومُ

ثم نفى عز وجل أن تأخذه سِنة ولا نوم . والسِّنة : النعاس فى قول الجميع . والنعاس ما كان من العين فإذا صار فى القلب صار نوما ؛ قال عدىّ بن الرقاع يصف امرأة بفتور النظر : (٣)

وسْنانُ أقصدَه النُّعاسُ فرنّقتْ (٤) * فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم

وفرق المفضل بينهما فقال : السنة من الرأس ، والنعاس فى العين ، والنوم فى القلب . وقال ابن زيد : الوَسْنان الذى يقوم من النوم وهو لا يعقل ، حتى ربما جرّد السيف على أهله . قال ابن عطية : وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر ، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب . وقال السدى : السِّنَة : ريح النوم الذى يأخذ فى الوجه فينعس الإنسان .

قلت : وبالجملة فهو فُتُور يعترى الإنسان ولا يفقد معه عقله . والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال . والأصل فى سِنَة وَسْنَة حذفت الواو

---

(١) فى الأصول : « لا بديل له » والتصويب عن اللسان . (٢) فى ج : الخلق .

(٣) هذا البيت فى وصف ظبى ؛ وقبل هذا البيت :

لولا الحياء وأن رأسى قد عسا * فيه المشيب لزرت أم القاسم
وكأنها وسط النساء أعارها * عينيه أحور من جآذر جاسم

(٤) رنق النوم فى عينه : خالطها .

كما حذفت من يَسِن[١] . والنوم هو المستثقل الذى يزول معــه الذّهن فى حق البشر . والواو للعطف و « لا » توكيد .

قلت : والناس يذكرون فى هذا الباب عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى على المنبر قال : "وقع فى نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه فأرسل الله إليه مَلَكا فأرّقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين فى كل يَد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فينحّى أحديهما عن الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان — قال — ضرب الله له مثلا أن لو كان ينام لم تَمسك[٢] السماء والأرض" ولا يصح هذا الحديث، ضعّفه غير واحد منهم البيهقى .

قوله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى بالملك فهو مالكُ الجميع وربه . وجاءت العبارة بـ«ـما» وإن كان فى الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود . قال الطبرى : نزلت هذه الآية لما قال الكفار : ما نعبد أوثانا إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى .

قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ «مَنْ» رفع بالابتداء و «ذا» خبره؛ و«الذى» نعت لـ«ـذا»، وإن شئت بدل، ولا يجوز أن تكون «ذا» زائدة كما زيدت مع «ما» لأن «ما» مُبْهَمَة فزيدت «ذا» معها لشبهها بها . وتقرر فى هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء فى الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم وشرفهم الله، ثم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، كما قال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى »[٣] قال ابن عطية : والذى يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلتين، أو وصل ولكن له أعمال صالحة . وفى البخارى فى « بابُ بقيَّةٌ من أبواب الرؤية » : إن المؤمنين يقولون : ربنــا إن إخواننا كانوا يُصلّون معنا ويصومون معنا . وهــذه شفاعة فيمن يقرب أمره، وكما يشــفع الطفل المُحْبَنْطِئ[٤] على باب الجنة . وهذا إنما هو فى قراباتهم ومعارفهم . وإن الأنبياء يشفعون فيمن

---

(١) الذى فى كتب اللغة أن الفعل من باب « فرح » .

(٢) فى ابن عطية : تستمسك . وفى ه، جـ، ز : تمسك . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١

(٤) المحبنطىء : اللازق بالأرض . وفى الحديث « إن السقط يظل محبنطئا على باب الجنة » قال ابن الأثير : المحبنطىء (بالهمز وتركه) : المتغضب المستبطىء للشىء . وقيل : هو الممتنع امتناع طلبة لا امتناع إباء .

حصل فى النار من عصاة أممهم بذنوب دون قُربى ولا معرفة إلا بنفس الإيمان ، ثم تبق شفاعة أرحم الراحمين فى المستغرقين [فى الخطايا و](1) الذنوب الذين لم تعمل فيهم شفاعة الأنبياء . وأما شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فى تعجيل الحساب فخاصّة له .

قلت : قد بيّن مسلم فى صحيحه كيفية الشفاعة بيانا شافيا ، وكأنه رحمه الله لم يقرأه وأن الشافعين يدخلون النار ويُخرجون منها أناسا استوجبوا العذاب ؛ فعلى هذا لا يبعد أن يكون للمؤمنين شفاعتان: شفاعة فيمن لم يصل إلى النار، وشفاعة فيمن وصل إليها ودخلها؛ أجارنا الله منها . فذكر من حديث أبى سعيد الخدرى: "ثم يُضرب الجسرُ على جهنم وتحلّ الشفاعة ويقولون اللهم سلِّم سلِّم — قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال : دَحْضٌ(2) مَزِلّةٌ فيها خَطاطيف وكَلاليب وحَسَكَةٌ(3) تكون بنجد فيها شُوَيْكة يقال لها السَّعْدان فيمرّ المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب(4) فناجٍ مُسلَّمٌ ومخدوشٌ(5) مُرْسَل ومكدوس(6) فى نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشدّ مناشدة لله فى استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار، يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحُجّون، فيقال لهم أخرجوا من عرفتم ، فتُحرّم صورُهم على النار فيُخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيْه وإلى ركبتيْه ثم يقولون ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به ، فيقول عز وجل ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا به، ثم يقول ارجعوا

---

(1) فى هـ .   (2) قال النووى : هو بتنوين «دحض» ودال مفتوحة والحاء ساكنة ، و «مزلة» بفتح الميم وفى الزاى لغتان الفتح والكسر ، والدحض والمزلة بمعنى واحد وهو الموضع الذى تزل فيه الأقدام ولا تستقر .

(3) الحسكة (بالتحريك) : واحدة الحسك وهو نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم يعمل من الحديد على مثاله ، وهو من آلات العسكر يلقى حوله لتنشب فى رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له . والسعدان منبته سهول الأرض وهو من أطيب مراعى الإبل مادام رطبا .   (4) الركاب : الإبل التى يسار عليها ، ولا واحد لها من لفظها .   (5) مخدوش مرسل أى مجروح مطلق من القيد .

(6) مكدوس أى مدفوع فى جهنم . قال ابن الأثير : وتكدس الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط . ويروى بالشين المعجمة من الكدش وهو السوق الشديد ، والطرد والجرح أيضا .

فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا به، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا" — وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا»(1) — " فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قطّ قد عادوا حُمَمًا(2)" وذكر الحديث. وذكر من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: "فأقول يارب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله قال ليس ذلك لك — أو قال ليس ذلك إليك — وعزتى وكبريائى وعظمتى [وجبريائى](3) لأخرجنّ من قال لا إله إلا الله". وذكر من حديث أبى هريرة عنه عليه الصلاة والسلام: "حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار يعرفونهم بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود" الحديث بطوله.

قلت: فدلّت هذه الأحاديث على أن شفاعة المؤمنين وغيرهم إنما هى لمن دخل النار وحصل فيها، أجارنا الله منها! وقول ابن عطية: «ممن لم يصل أو وصل» يحتمل أن يكون أخذه من أحاديث أُخَر، والله أعلم. وقد خرّج ابن ماجه فى سننه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُصفّ الناسُ يوم القيامة صُفُوفا — وقال ابن نمير أهل الجنة — فيمرّ الرجل من أهل النار على الرجل فيقول يا فلان أما تذكر يوم استسقيتَ فسقيتُك شَربة؟ قال فيشفع له ويمرّ الرجل على الرجل فيقول أما تذكر يوم ناولتك طهورا؟ فيشفع له — قال ابن نمير — ويقول يا فلان أما تذكر يوم بعثتنى لحاجة كذا وكذا فذهبت لك؟ فيشفع له".

(1) راجع جـ ٥ ص ١٩٤ (2) الحمم (بضم الحاء وفتح الميم الأولى المخففة): الفحم، الواحدة حممة كحطمة. (3) فى هـ و ب و جـ.

وأما شفاعات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فاختلف فيها؛ فقيل ثلاث ، وقيل اثنتان، وقيل : خمس، يأتي بيانها في « سبحان »[1] إن شاء الله تعالى . وقد أتينا عليها في كتاب « التذكرة » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الضميران عائدان على كل من يعقل ممن تضمّنه قوله : « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » . وقال مجاهد : « مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » الدنيا « وَمَا خَلْفَهُمْ » الآخرة . قال ابن عطية : وكل هذا صحيح في نفسه لا بأس به؛ لأن ما بين اليد هو كل ما تقدّم الإنسان ، وما خلفه هو كل ما يأتي بعده ؛ وبنحو قول مجاهد قال السدي وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ العلم هنا بمعنى المعلوم ، أي ولا يحيطون بشيء من معلوماته ؛ وهذا كقول الخضر لموسى عليه السلام حين نقر العصفور في البحر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر . فهذا وما شاكله راجع إلى المعلومات ؛ لأن علم الله سبحانه وتعالى الذي هو صفة ذاته لا يتبعض[2] . ومعنى الآية لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه .

قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ذكر ابن عساكر في تاريخه عن عليّ رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكرسي لؤلؤة والقلم لؤلؤة وطول القلم سبعمائة سنة وطول الكرسيّ حيث لا يعلمه إلا الله[3] ". وروى حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة ـ وهو عاصم بن أبي النجود ـ عن زرّ بن حُبيش عن ابن مسعود قال : بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي وبين العرش مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش يعلم ما أنتم فيه وعليه . يقال : كُرسيّ وكِرسيّ والجمع الكراسيّ . وقال ابن عباس : كرسيه علمه . ورجحه الطبري، قال : ومنه الكُرّاسة التي تضم العلم ؛ ومنه قيل للعلماء : الكراسيّ ؛ لأنهم المعتمد عليهم ؛ كما يقال : أوتاد الأرض .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٩ (٢) في هـ : لا يتغير . (٣) في هـ و ب و جـ : حيث لا يعلمه العالمون.

قال الشاعر :

يَحُفّ بهم بِيضُ الوُجوه وعُصْبَةٌ * كَراسيّ بالأحْداث حين تَنُوبُ

أي علماء بحوادث الأمور . وقيل : كُرسيّه قدرته التي يمسك بها السموات والأرض ، كما تقول : اجعل لهذا الحائط كرسيا ، أي ما يعمده . وهذا قريب من قول ابن عباس في قوله « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ » قال البيهقيّ : وروينا عن ابن مسعود[1] وسعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله «وسع كرسيه» قال : علمه . وسائر الروايات عن ابن عباس وغيره تدل على أن المراد به الكرسي المشهور مع العرش . وروى إسرائيل عن السدى عن أبي مالك في قوله « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » قال: إن الصّخْرة التي عليها الأرض السابعة ومنتهى الخلق على أرجائها، عليها أربعة من الملائكة لكل واحد منهم أربعة وجوه : وجه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر؛ فهم قيام عليها قد أحاطوا بالأرضين والسموات، ورؤسهم تحت الكرسيّ والكرسيّ تحت العرش والله واضع كرسيه فوق العرش . قال البيهقيّ : في هذا إشارة إلى كرسيين : أحدهما تحت العرش ، والآخر موضوع على العرش . وفي رواية أسباط عن السديّ عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرّة الهمدانيّ عن ابن عباس ، وعن مُرّة الهَمَدانيّ عن ابن مسعود عن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» فإن السموات والأرض في جوف الكرسيّ والكرسيّ بين يدي العرش . وأرباب الإلحاد يحملونها على عِظَم المُلْك وجلالة السلطان، وينكرون وجود العرش والكرسيّ وليس بشيء . وأهل الحق يجيزونهما؛ إذ في قدرة الله متّسع فيجب الإيمان بذلك . قال أبو موسى الأشعري : الكرسيّ موضع القدمين وله أطِيطٌ كأطِيط الرّحْل[2] . قال البيهقيّ : قد روينا أيضا في هذا عن ابن عباس وذكرنا أن معناه فيما يُرى أنه موضوع من العرش موضع القدمين من السرير، وليس فيه إثبات المكان لله تعالى . وعن ابن بُريدة عن أبيه قال : لما قدم جعفر من الحبشة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أعجب شيء رأيته" ؟ قال : رأيت امرأة على رأسها مِكْتَل طعام فمرّ فارس فأذراه[3] فقعدت تجمع

---

(١) ليس في ج و ب و ه عن ابن مسعود .

(٢) كذا في ب وهامش ه . وفي : ه و ا و بحوه : المرجل . والأطيط للرحل لا للرجل كما في اللغة .

(٣) كذا في ج و ب ، وأذراه : رمى به وأطاره .

طعامها ، ثم التفتت إليــه فقالت له : ويل لك يوم يضع الملك كرسيه فيأخذ للظلوم من الظالم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقا لقولها : " لا قُدِّست أمّةٌ ــ أو كيف تقدس أمة ــ لا يأخذ ضعيفُها حقَّه من شديدها " . قال ابن عطية : فى قول أبى موسى « الكرسى موضع القدمين » يريد هو من عرش الرحمن كموضع القدمين من أسرة الملوك ، فهو مخلوق عظيم بين يدى العرش نسبته إليه كنسبة الكرسىّ إلى سرير الملك . وقال الحسن ابن أبى الحسن : الكرسىّ هو العرش نفسه ؛ وهذا ليس بمرضىّ ، والذى تقتضيه الأحاديث أن الكرسىّ مخلوق بين يدىّ العرش والعرش أعظم منــه . وروى أبو إدريس الخولانى عن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله ، أىّ ما أنزل عليك أعظم؟ قال : " آية الكرسىّ ــ ثم قال ــ يا أبا ذرّ ما السموات السبع مع الكرسىّ إلا كحلقة ملقاة فى أرض فلاة وفضل العرش على الكرسىّ كفضل الفــلاة على الحلقة " . أخرجه الآجُرّى وأبو حاتم البستىّ فى صحيح مسنده والبيهقىّ وذكر أنه صحيح . وقال مجاهد : ما السموات والأرض فى الكرسىّ إلا بمنزلة حلقة ملقاة فى أرض فلاة . وهــذه الآية منبئة عن عِظم مخلوقات الله تعالى ، ويستفاد من ذلك عِظم قدرة الله عز وجل إذ لا يَؤُودُه حفظ هذا الأمر العظيم .

و﴿ يَئُودُهُ ﴾ معناه يُثقله ؛ يقال : آدَنى الشىء بمعنى أثقلنى وتحملت منه المشقة ، وبهذا فسر اللفظة ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم . قال الزجاج : فجائز أن تكون الهــاءُ لله عز وجل ، وجائز أن تكون للكرسىّ ؛ وإذا كانت للكرسىّ ؛ فهو من أمر الله تعالى . و﴿ العَلِىُّ ﴾ يراد به علو القــدر والمنزلة لا علو المكان ؛ لأن الله منزّه عن التحيّز . وحكى الطبرىّ عن قوم أنهم قالوا : هو العلىّ عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه . قال ابن عطية : وهذا قول جهلة مجسِّمين ، وكان الوجه ألا يُحكى . وعن عبــد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم ليلة أسرى به سمع تسبيحا فى السموات العلى : سبحان الله العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى . والعلِى والعالِى : القاهر الغالب للأشياء ؛ تقول العرب : علا فلان فلانا أى غلبه وقهره ؛ قال الشاعر :

فلمّــا عَلَوْنا واسْــتَوَيْنا عليهم * تَرَكْنَاهُمُ صَرْعَى لِنَسْرٍ وكاسِرِ

ومنه قوله تعالى : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ »(١) . و﴿ الْعَظِيمُ ﴾ صفة بمعنى عظيم القدر والخطر والشرف، لا على معنى عِظَم الأجرام . وحكى الطبري عن قوم أن العظيم معناه المعظَّم، كما يقال : العتيق بمعنى المعتق، وأنشد بيت الأعشى :

فكأنّ الخمرَ العتيقَ من الإسـ * ـفنط(٢) ممزوجةٌ بماءٍ زُلالِ

وحكى عن قوم أنهم أنكروا ذلك وقالوا : لو كان بمعنى مُعظَّم لوجب ألّا يكون عظيما قبل أن يخلق الخلق وبعد فنائهم؛ إذ لا معظِّم له حينئذ .

قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ . فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ الدين في هذه الآية المعتقد والملّة بقرينة قوله : ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ . والإكراه الذي في الأحكام من الإيمان والبيوع والهبات وغيرها ليس هذا موضعه، وإنما يجيء في تفسير قوله : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ »(٣) . وقرأ أبو عبد الرحمن « قَدْ تَبَيَّنَ الرَّشَدُ مِنَ الْغَيِّ » وكذا روى عن الحسن والشعبي؛ يقال : رَشَد يَرْشُد رُشْدا، ورَشِد يَرْشَد رَشَدا : إذا بلغ ما يُحِبّ . وغَوَى ضِدّه؛ عن النحاس . وحكى ابن عطية عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قرأ «الرشاد» بالألف . وروى عن الحسن أيضا ﴿ الرُّشُدُ ﴾ بضم الراء والشين . ﴿ الْغَيِّ ﴾ مصدر من غَوَى يَغْوِي إذا ضلّ في معتقَد أو رأي؛ ولا يقال الغيّ في الضلال على الإطلاق .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٨ (٢) الإسفنط ضرب من الأشربة : فارسي معرّب .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠

الثانيــة ـ اختلف العلماء في [معنى][1] هذه الآية على ستة أقوال :

(الأول) قيـل إنها منسوخة ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهـم إلا بالإسلام ؛ قاله سليمان بن موسى ؛ قال : نسختها « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ »[2] . وروى هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين .

(الثـانى) ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصةً، وأنهم لا يُكرهون على الإسلام إذا أدّوا الجزية ، والذين يُكرهون أهلُ الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهـم « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » . هـذا قول الشعبيّ وقتـادة والحسن والضحاك . والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقـول لعجوز نصرانية : اسـلمي أيتها العجوز تسلمي ، إن الله بعث محمدا بالحق . قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إليّ قريب ! فقال عمر : اللهم اشهد ، وتلا « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » .

(الثـالث) ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال : نزلت هذه في الأنصار ، كانت تكون المرأة مِقلاتًا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده ؛ فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا : لاندع أبناءنا ! فأنزل الله تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » . قال أبو داود : والمِقلاتُ التي لا يعيش لها ولدٌ . في رواية : إنمـا فعلنا مافعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه ، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنُكرِههم عليه فنزلت : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » من شاء التحق بهم ومن شاء دخل في الإسلام . وهـذا قول سعيد ابن جبير والشعبيّ ومجاهد إلا أنه قال : كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع . قال النحاس : قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده ، وأن مثله لا يؤخذ بالرأي .

(الرابـع) قال السدى : نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين كان له ابنان ، فقدم تجارٌ من الشام إلى المدينة يحملون الزيت ، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصّرا ومضيا معهم إلى الشام ، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكيا أمرهما ، ورغب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردّهما فنزلت : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ »

(١) في هـ و جـ و ب . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٠٤

ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب ، وقال : " أبعدهما الله هما أول من كفر " ! فوجد أبو الحصين فى نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث فى طلبهما فأنزل الله جل ثناؤه «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ»(١) الآية ثم إنه نسخ «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» فأمر بقتال أهل الكتاب فى سورة «براءة»(٢) . والصحيح فى سبب قوله تعالى : «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ» حديث الزبير مع جاره الأنصارى فى السَّقْى ، على ما يأتى فى «النساء»(١) بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مُجْبَرا مُكْرَها ؛ وهو القول الخامس . وقول سادس ، وهو أنها وردت فى السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا إذا كانوا كبارا(٣) ، وإن كانوا مجوسا صغارا أو كبارا أو وثنيين فإنهم يجبرون على الإسلام ؛ لأن من سباهم لا ينتفع بهم مع كونهم وثنيين ؛ ألا ترى أنه لا تؤكل ذبائحهم ولا توطأ نساؤهم ، ويدينون بأكل الميتة والنجاسات وغيرهما ، ويستقذرهم المالك لهم ويتعذّر عليه الانتفاع بهم من جهة الملك فجاز له الإجبار . ونحو هذا روى ابن القاسم عن مالك . وأما أشهب فإنه قال : هم على دين من سباهم ، فإذا امتنعوا أُجبروا على الإسلام ، والصغار لا دين لهم فلذلك أجبروا على الدخول فى دين الإسلام لئلا يذهبوا إلى دين باطل . فأما سائر أنواع الكفر متى بذلوا الجزية لم نكرههم على الإسلام سواء كانوا عربا أم عجما قريشا أو غيرهم . وسيأتى بيان هذا وما للعلماء فى الجزية ومن تقبل منه فى «براءة»(٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ جزم بالشرط . والطاغوت مؤنثة من طغى يَطْغَى . — وحكى الطبرى يطغو — إذا جاوز الحد بزيادة عليه . ووزنه فعلوت ، ومذهب سيبويه أنه اسم مذكر مفرد كأنه اسم جنس يقع للقليل والكثير . ومذهب أبى علىّ أنه مصدر كرَهَبُوت وجَبَرُوت ، وهو يوصف به الواحد والجمع ، وقلبت لامه إلى موضع العين وعينه موضع اللام كجَبَذ وجَذَب ، فقلبت الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها فقيل طاغوت ؛ واختار هذا القول النحاس . وقيل : أصل طاغوت فى اللغة مأخوذة من الطغيان يؤدّى معناه من غير اشتقاق ، كما قيل : لآلٍ من اللؤلؤ . وقال المبرّد : هو جمع . وقال ابن عطية : وذلك

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٦٦ (٢) راجع جـ ٨ ص ١٠٩ (٣) فى ب و جـ و ا : وإن كانوا صغارا لم يجبروا له

مردود . قال الجوهرى : والطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس فى الضلال، وقد يكون واحدا قال الله تعالى : « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ »[1] . وقد يكون جمعا قال الله تعالى : « أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ » والجمع الطواغيت . « وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ » عطف . ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ جواب الشرط ، وجمع الوُثْقَى الوُثَق مثل الفُضْلَى والفُضَل؛ فالوُثْقَى فُعْلَى من الوَثاقة، وهذه الآية تشبيه. واختلفت عبارة المفسرين فى الشىء المشبه به؛ فقال مجاهد : العروة الإيمان . وقال السُّدِّى : الإسلام . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير والضحّاك : لا إله إلا الله؛ وهذه عبارات ترجع إلى معنًى واحد . ثم قال : ﴿ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾[2] قال مجاهد : أى لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم؛ أى لا يزيل عنهم اسم الإيمان حتى يكفروا . والانفصام : الانكسار من غير بينونة . والقصم : كسرٌ ببينونة ؛ وفى صحيح الحديث " فيُفصِم عنه الوحىُ وإن جبينه ليتفصّد عرَقًا " أى يُقلِع . قال الجوهرى : فصم الشىء كسره من غير أن يَبين، تقول : فصمته فانفصم ؛ قال الله تعالى « لَا انْفِصَامَ لَهَا » وتفصّم مثله ؛ قال ذو الرُّمَّة يذكر غزالا يشبّهه بدُمْلُج فضّة :

كأنه دُمْلُجٌ من فضّة نَبَهٌ[3] * فى ملعب من جوارى الحىّ مفصومُ

وإنما جعله مفصوما لتثنّيه وانحنائه إذا نام . ولم يقل « مقصوم » بالقاف فيكون بائنا باثنين . وأفصم المطر : أقلع . وأفصمت عنه الحمى . ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن فى الصفات ﴿ سَمِيعٌ ﴾ من أجل النطق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ من أجل المعتقد .

قوله تعالى : ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٦٣ و ٢٨٠ (٢) فى جـ : الإبلام . (٣) النبه (بفتح النون والباء) كل شىء سقط من إنسان فنسيه ولم يهتد إليه . شبه الغزال وهو نائم بدملج فضة قد طرح ونسى . وفى الديوان : عذارى .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الولىّ فعيل بمعنى فاعل . قال الخطابىّ : الولىّ الناصر ينصر عباده المؤمنين ، قال الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ، وقال : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » (١) . قال قتادة : الظلمات الضلالة ، والنور الهدى ، و بمعناه قال الضحاك والربيع . وقال مجاهد وعبدة بن أبى لُبَابة : قوله « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا » نزلت فى قوم آمنوا بعيسى فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم كفروا به ، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات . قال ابن عطيّة : فكأن هذا المعتقد أحرز نورا فى المعتقد خرج منه إلى الظلمات (٢) ، ولفظ الآية مستغنٍ عن هذا التخصيص ، بل هو مترتب فى كل أمة كافرة آمن بعضها كالعرب ، وذلك أن من آمن منهم فالله وليه أخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن كفر بعد وجود النبىّ صلى الله عليه وسلم الداعى المرسل فشيطانه مغويه ، كأنه أخرجه من الإيمان إذ هو [معه] (٣) معدّ وأهل للدخول فيه ، وحكم عليهم بالدخول فى النار لكفرهم ، عدلا منه ، لا يسأل عما يفعل . وقرأ الحسن « أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّوَاغِيتُ » يعنى الشياطين ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هذه ألف التوقيف ، وفى الكلام معنى التعجب (٤) ، أى اعجبوا له . وقال الفرّاء : « ألم تر » بمعنى هل رأيت ، أى هل رأيت الذى حاجّ إبراهيم ، وهل رأيت الذى مرّ على قرية ، وهو النُّمْرُوذ (٥) بن كوش بن كنعان بن سام بن نوح ملك زمانه

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٤ (٢) فى هـ و ب و جـ و ابن عطيه : فكأن هذا القول .
(٣) الزيادة فى جـ . (٤) أى التعجيب . (٥) نمروذ بضم النون و بالذال المعجمة . شهاب .

وصاحبُ النار والبَعُوضَة ! هذا قول ابن عباس ومجاهد وقَتادة والرّبيع والسُّدّى وابن إسحاق وزيد بن أسلم وغيرهم . وكان إهلاكه لما قصد المحاربة مع الله تعالى بأن فتح الله تعالى عليه بابا من البَعُوض فستروا عين الشمس وأكلوا عسكره[1] ولم يتركوا إلا العظام، ودخلت واحدة منها فى دماغه فأكلته حتى صارت مثل الفأرة؛ فكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عَتِيدَة لذلك، فبقى فى البلاء أربعين يوما . قال ابن جُرَيج : هو أوّل ملك فى الأرض . قال ابن عطية : وهذا مردود . وقال قتادة : هو أوّل من تجبّر وهو صاحب الصَّرْح ببَابِلَ . وقيل : إنه ملك الدنيا بأجمعها؛ وهو أحد الكافرَيْن[2] ؛ والآخر بُخْتَنَصَّر . وقيـل : إن الذى حاجّ إبراهيم نمروذ بنْ فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشـد بن سام ؛ حكى جميعه ابن عطية . وحكى السهيلى أنه النمروذ بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح وكان ملكا على السـواد[3] وكان ملّكه الضحاك الذى يعـرف بالازدهاق واسمـه بيوراسب بن أندراست وكان ملك الأقاليم كلها، وهو الذى قتله أفريدون بن أثفيان؛ وفيه يقول حبيب[4] :

وكأنه الضّـحّاك من فَتَكاتِه ... فى العـالمين وأنتَ أفْرِيدُونُ

وكان الضحاك طاغيا جبّارا ودام ملكه ألف عام فيما ذكروا . وهو أوّل من صلب وأوّل من قطع الأيدى والأرجل، وللنمروذ ابن لصلبه يسمى «كوشا» أو نحو هذا الاسم، وله ابن يسمى نمروذ الأصغر . وكان ملك نمروذ الأصغر عاما واحدا ، وكان ملك نمروذ الأكبر أربعمائة عام فيما ذكروا . وفى قصص هذه المحاجّة روايتان : إحداهما أنهم خرجوا إلى عيـد لهم فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها؛ فلما رجعوا قال لهم : أتعبدون ماتنحتون؟ فقالوا : فمن تعبد؟ قال : أعبد [ربى][5] الذى يُحْيِي ويُمِيت . وقال بعضهم : إن نمروذ كان يحتكر الطعام فكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منـه، فإذا دخلوا عليه سجدوا له ؛ فدخل إبراهيم فلم يسجد له ، فقال : مالك لا تسجد لى ! قال : أنا لا أسجد إلا لربّى . فقال له نمروذ : من ربك ! ؟ قال إبراهيم : ربى الذى يحيي ويميت . وذكر زيد بن أسلم أن النمروذ هـذا قعد

(١) كذا فى الأصول جميعا، والصحيح ما فى الطبرى : فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم .

(٢) فى البحر : «ملك الأرض مؤمنان سليمان وذو القرنين وكافران نمروذ و بختنصر» .

(٣) أى سواد العراق، وفى هـ : السودان . (٤) ابن أوس أبو تمام . (٥) من هـ و ب .

يأمر الناس بالميرة[1] ، فكلما جاء قوم يقول : من ربكم وإلهكم ؟ فيقولون أنت ؛ فيقول ميروهم . وجاء إبراهيم عليه السلام يمتار فقال له : من ربك وإلهك؟ قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت؛ فلما سمعها نمروذ قال : أنا أحيي وأميت؛ فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبُهت الذي كفر، وقال لا تميروه ؛ فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء فمرّ على كثيب رمل كالدقيق فقال في نفسه : لو ملأت غرارتيّ من هذا فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهم ، فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الغرارتين ونام هو من الإعياء؛ فقالت امرأته : لو صنعتُ له طعاما يجده حاضرا إذا انتبه ، ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الحُوّارى[2] فخبزته ، فلما قام وضعته بين يديه فقال : من أين هذا ؟ فقالت : من الدقيق الذي سُقتَ . فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسر لهم ذلك .

قلت : وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي صالح قال : انطلق إبراهيم النبيّ عليه السلام يمتار فلم يقدر على الطعام ، فمرّ بسهلة[3] حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله فقالوا : ما هذا ؟ فقال : حنطة حمراء؛ ففتحوها فوجدوها حنطة حمراء، قال : وكان إذا زرع منها شيئا جاء سنبله من أصلها إلى فرعها حبًّا متراكبًا . وقال الربيع وغيره في هذا القصص : إن النمروذ لما قال أنا أحيي وأميت أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر فقال : قد أحييت هذا وأمت هذا؛ فلما ردّ عليه بأمر الشمس بُهت . وروى في الخبر : أن الله تعالى قال وعزتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى آتي بالشمس من المغرب ليعلم أني أنا القادر على ذلك . ثم أمر نمروذ بإبراهيم فأُلقيَ في النار، وهكذا عادة الجبابرة فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة، فأنجاه الله من النار، على ما يأتي[4] . وقال السدي : إنه لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك — ولم يكن قبل ذلك دخل عليه — فكلمه وقال له : من ربك ؟ فقال : ربي

---

(١) الميرة : جلب الطعام ، قاله ابن سيده .

(٢) الحوارى (بضم الحاء وتشديد الواو وفتح الراء) : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .

(٣) السهلة (بكسر السين) : رمل خشن ليس بالدقاق الناعم . والسهلة (بفتح السين) نقيض الحزنة ، وهو ما غلظ من الأرض .

(٤) راجع جـ ١١ ص ٣٠٣

الذى يحيى ويميت . قال النمروذ : أنا أحيى وأميت ، وأنا آخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتا ولا يطعمون شيئا ولا يسقون حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحيا وتركت اثنين فماتا . فعارضه إبراهيم بالشمس فبهت . وذكر الأصوليون فى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة لكنه أمر له حقيقة ومجاز، قصد إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة ، وفزع نمروذ إلى المجاز وموه على قومه ؛ فسلم له إبراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ أى انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول أنا الآتى بها من المشرق؛ لأن ذوى الألباب يكذبونه .

الثانيــة ـ هذه الآية تدل على جواز تسمية الكافر ملكا إذا آتاه الله الملك والعز والرفعة فى الدنيا، وتدل على إثبات المناظرة والمجادلة و إقامة الحجة . وفى القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله ؛ قال الله تعالى : «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»(١) . «إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ»(٢) أى من حجة . وقد وصف خصومة إبراهيم عليه السلام قومه ورده عليهم فى عبادة الأوثان كما فى سورة «الأنبياء» وغيرها . وقال فى قصة نوح عليه السلام : « قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا »(٣) الآيات إلى قوله : « وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ » . وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآى . فهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة فى الدين؛ لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق ودحض حجة الباطل . وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وباهلهم(٤) بعد الحجة ، على ما يأتى بيانه فى «آل عمران» . وتحاج آدم وموسى فغلبه آدم بالحجة . وتجادل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم السقيفة وتدافعوا وتقرروا(٥) وتناظروا حتى صدر الحق فى أهله ، وتناظروا بعد مبايعة أبى بكر فى أهل الردة، إلى غير ذلك مما يكثر إيراده . وفى قول الله عز وجل : « فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ »(٤) دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع(٦) لمن تدبر . قال المزنى صاحب الشافعى : ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل وأن يقبل منها ما تبين . وقالوا :

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٤ . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٦١ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٢٧ .
(٤) المباهلة الملاعنة . ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا فى شىء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا . راجع جـ ٤ ص ١٠٣ ، وص ١٠٨ (٥) فى ب : ظهر . (٦) فى هـ و ب : سائغ .

لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو مِرَاءٌ ومكابرة .

قراءات — قرأ عليّ بن أبي طالب « أَلَمْ تَرْ » بجزم الراء، والجمهور بتحريكها، وحذفت الياء للجزم . « أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ » في موضع نصب، أي لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله . وقرأ جمهور القراء « أَنَا أُحْيِي » بطرح الألف التي بعد النون من « أَنَا » في الوصل، وأثبتها نافع وابن أبي أويس، إذا لقيتها همزة في كل القرآن إلا في قوله تعالى : « إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ »[1] فإنه يطرحها في هـذا الموضع مثل سائر القراء لقلة ذلك، فإنه لم يقع منه في القرآن إلا ثلاثة مواضع أجراها مجرى ما ليس بعده همزة لقلته فحذف الألف في الوصل . قال النحويون : ضمير المتكلم الاسم فيه الهمزة والنون، فإذا قلت : أنا أو أنَهْ فالألف والهاء لبيان الحركة في الوقف، فإذا اتصلت الكلمة بشيء سقطتا؛ لأن الشيء الذي تتصل به الكلمة يقوم مقام الألف، فلا يقال : أنا فعلت بإثبات الألف إلا شاذًّا في الشعر كما قال الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفوني * حُمَيْدًا[2] قد تذرّيتُ السّناما

قال النحاس : على أن نافعا قـد أثبت الألف فقرأ ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ ولا وجه له . قال مكي : والألف زائدة عند البصريين، والاسم المضمر عندهم الهمزة والنون وزيدت الألف للتقوية . وقيل : زيدت للوقف لتظهر حركة النون : والاسم عند الكوفيين « أنا » بكماله؛ فنافع في إثبات الألف على قولهم على الأصل، وإنما حذف الألف مَن حذفها تخفيفا؛ ولأن الفتحة تدل عليها . قال الجوهري : وأما قولهم « أنا » فهو اسم مكنيّ وهو للمتكلم وحده، وإنما بُني على الفتح فرقا بينه وبين « أن » التي هي حرف ناصب للفعل، والألف الأخيرة إنما هي لبيان الحركة في الوقف، فإن توسطت الكلام سقطت إلا في لغة رديئة[3]؛ كما قال :

أنا سيف العشيرة فاعرفوني * حُمَيْدًا[4] قـد تذرّيتُ السّناما

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٣٦ (٢) كذا في جـ و ا و هـ وفي ب و جـ : حميدا . مرة، وجميعا، أخرى . وفي التاج : جميعا .
(٣) في السمين : إثبات الألف وصلا ووقفا لغة تميم .
(٤) في ابن عطية : أنا شيخ . وحميد هو ابن بجدل

وبُهِت الرجل وبَهِت وبَهُت إذا انقطع وسكت متحيّرا؛ عن النحاس وغيره. وقال الطبري: وحكى عن بعض العرب في هذا المعنى «بَهَت» بفتح الباء والهاء. قال ابن جني قرأ أبو حَيْوَة: «فَبَهُتَ الذى كفر» بفتح الباء وضم الهاء، وهي لغة في «بُهِتَ» بكسر الهاء. قال: وقرأ ابن السميقع «فبَهَت» بفتح الباء والهاء على معنى فبهت إبراهيمُ الذى كفر؛ فالذي في موضع نصب. قال: وقد يجوز أن يكون بَهَت بفتحها لغة في بَهُت. قال: وحكى أبو الحسن الأخفش قراءة «فبَهِت» بكسر الهاء كغَرِق(١) ودَهِش. قال: والأكثرون بالضم في الهاء. قال ابن عطية: وقد تأوّل قوم في قراءة من قرأ «فبهت» بفتحها أنه بمعنى سَبّ وقذف، وأن نمروذ هو الذى سب حين انقطع ولم تكن له حيلة.

قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ «أو» للعطف حملا على المعنى والتقدير عند الكسائي والفراء: هل رأيت كالذى حاجّ إبراهيم في ربّه، أو كالذى مر على قرية. وقال المبرد: المعنى ألم تر إلى الذى حاجّ إبراهيم في ربه، ألم تر من هو! كالذى مرّ على قرية. فأضمر في الكلام من هو. وقرأ أبو سفيان بن حسين «أَوَ كَالَّذِى مَرَّ» بفتح الواو، وهي واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام الذى معناه التقرير. وسُمّيت القرية قرية لاجتماع الناس فيها؛ من قولهم: قَرَيت الماءَ أى جمعته؛ وقد تقدّم(٢). قال سليمان بن بُرَيدة

(١) في جـ و هـ و ب: كحرق. أى انقطعت خارقته وهي عصبته أو عرق في الرجل. (٢) راجع جـ ١ ص ٤٠٩

وناجية بن كعب وقتادة وابن عباس والربيع وعكرمة والضحاك: الذى مرّ على القرية هو عُزَيْر. وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عُبَيْد بن عمير وعبد الله بن بكر بن مضر: هو إرْمِيَاء وكان نبيا. وقال ابن إسحاق: إرمياء هو الخضر، وحكاه النقاش عن وهب بن منبه. قال ابن عطية: وهذا كما تراه، إلا أن يكون اسما وافق اسما؛ لأن الخضر معاصر لموسى؛ وهذا الذى مرّ على القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فيما رواه وهب بن منبه.

قلت: إن كان الخضر هو إرمياء فلا يبعد أن يكون هو؛ لأن الخضر لم يزل حيا من وقت موسى حتى الآن على الصحيح فى ذلك، على ما يأتى بيانه فى سورة «الكهف»[1]. وإن كان مات قبل هذه القصة فقول ابن عطية صحيح، والله أعلم. وحكى النحاس ومكىّ عن مجاهد أنه رجل من بنى إسرائيل غير مسمًّى. قال النقّاش: ويقال هو غلام لوط عليه السلام. وحكى السّهيلىّ عن القُتَبِى هو شَعْيا فى أحد قوليه. والذى أحياها بعد خرابها كوشك الفارسى. والقرية المذكورة هى بيت المقدس فى قول وهب بن منبه وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم. قال: وكان مقبلا من مصر وطعامه وشرابه المذكوران تينٌ [أخضر][2] وعنب ورَكْوة[3] من خمر. وقيل من عصير. وقيل: قُلَّةُ ماء هى شرابه. والذى أخلى بيت المقدس حينئذ بُخْتَنَصَّر وكان واليا على العراق لِلَهْرَاسِب ثم لِيَسْتَاسب بن لَهْرَاسب والد اسبنديار[4]. وحكى النقاش أن قوما قالوا: هى المُؤْتَفِكَةُ. وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح: إن بختنصر غزا بنى إسرائيل فسَبَى منهم أناسا كثيرة فجاء بهم وفيهم عُزَيْر بن شَرْخَيَا وكان من علماء بنى إسرائيل فجاء بهم إلى بابل، فخرج ذات يوم فى حاجة له إلى دير هِرَقْل على شاطئ الدّجلة، فنزل تحت ظل شجرة وهو على حمار له، فربط الحمار تحت ظل الشجرة ثم طاف بالقرية فلم ير بها ساكنا وهى خاوية على عروشها فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها. وقيل: إنها القرية التى خرج منها الألوف حذر الموت؛ قاله ابن زيد. وعن ابن زيد أيضا أن القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا، مرّ رجل عليهم وهم عظام [نَخِرَة][5] تلوح فوقف ينظر فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها! فأماته الله

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦ (٢) الزيادة من ب وجـ و أ و هـ . (٣) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء، والدلو صغيرة . (٤) فى ب: استندياد . (٥) من هـ .

مائة عام . قال : ابن عطية : وهذا القول من ابن زيد مناقض لألفاظ الآية ، إذ الآية إنما تضمنت قرية خاوية لا أنيس فيها ، والإشارة بـ«هذه» إنما هى إلى القرية . وإحياؤها إنما هو بالعمارة ووجود البناء والسكان . وقال وهب بن منبه وقتادة والضحاك والربيع وعكرمة : القرية بيت المقدس لما خربها بختنصر البابلى . وفى الحديث الطويل حين أحدثت بنو إسرائيل الأحداث وقف إرمياء أو عزير على القرية وهى كالتل العظيم وسط بيت المقدس ، لأن بختنصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل ، ورأى إرمياء البيوت قد سقطت حيطانها على سقفها فقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها .

والعريش : سقف البيت . وكل ما يتهيأ ليظل أو يكن فهو عريش ؛ ومنه عريش الدالية ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِمَّا يَعْرِشُونَ »(١) . قال السدى : يقول هى ساقطة على سقفها ، أى سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليها ؛ واختاره الطبرى . وقال غير السدى : معناه خاوية من الناس والبيوت قائمة ، وخاوية معناها خالية ؛ وأصل الخواء الخلو ؛ يقال : خوت الدار وخويت تخوى خواء (ممدود) وخويا : أقوت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا»(٢) أى خالية ، ويقال ساقطة ؛ كما يقال : «فهى خاوية على عروشها»(٣) أى ساقطة على سقفها . والخواء الجوع لخلو البطن من الغذاء . وخوت المرأة وخويت أيضا خوى أى خلا جوفها عند الولادة . وخويت لها تخوية إذا عملت لها خوية تأكلها وهى طعام . والخوى البطن السهل من الأرض على فعيل . وخوى البعير إذا جافى بطنه عن الأرض فى بروكه ، وكذلك الرجل فى سجوده .

قوله تعالى : ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ معناه من أى طريق وبأى سبب ، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان ، كما يقال الآن فى المدن الخربة التى يبعد أن تعمر وتسكن : أنى تعمر هذه بعد خرابها . فكأن هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته . وضرب له المثل فى نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه ، والمثال الذى ضرب له فى نفسه يحتمل أن يكون على أن سؤاله إنما كان على إحياء الموتى من بنى آدم ،

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٣٣ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢١٦ (٣) كذا فى كل الأصول ، والصواب قال ، إذ هذه آية . راجع جـ ١٢ ص ٧٣

أى أنّى يحيي الله موتاها . وقد حكى الطبرى عن بعضهم أنه قال : كان هذا القول شكًّا فى قدرة الله تعالى على الإحياء؛ فلذلك ضرب له المثل فى نفسه . قال ابن عطيّة : وليس يدخل شكٌّ فى قدرة الله تعالى على إحياء قرية بجلب العمارة إليها وإنما يتصوّر الشك [من جاهل][1] فى الوجه الآخر، والصواب ألّا يتأوّل فى الآية شك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ « مائة » نصب على الظرف . والعام : السنة ؛ يقال : سنون عُوَّم وهو تأكيد للأوّل؛ كما يقال : بينهم شُغْلٌ شاغلٌ . وقال العجّاج :

* من مرّ أعوام السّنين العُوَّم *

وهو فى التقدير جمع عائم؛ إلا أنه لا يفرد بالذّكر؛ لأنه ليس باسم وإنما هو توكيد؛ قاله الجوهرى . وقال النقاش : العام مصدر كالعَوْم؛ سُمّى به هذا القدر من الزمان لأنها عومة من الشمس فى الفَلَك . والعَوْم كالسَّبْح ؛ وقال الله تعالى : « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »[2] . قال ابن عطية : هذا بمعنى قول النقاش ، والعامُ على هذا كالقول والقال، وظاهر هذه الإماتة أنها بإخراج الروح من الجسد . وروى فى قصص هذه الآية أن الله تعالى بعث لها مَلكا من الملوك يعمرها ويجدّ[3] فى ذلك حتى كان كمال عمارتها عند بعث القائل . وقد قيل : إنه لما مضى لموته سبعون سنة أرسل الله مَلِكا من ملوك فارس عظيما يقال له « كوشك » فعمّرها فى ثلاثين سنة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ معناه أحياه ، وقد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ اختُلف فى القائل له « كم لبثت » ؛ فقيل : الله جل وعز؛ ولم يقل له إن كنت صادقا كما قال للملائكة على ما تقدّم . وقيل : سمع هاتفا من السّماء[4] يقول له ذلك . وقيل : خاطبه جبريل . وقيل : نبيّ . وقيل : رجل مؤمن ممن شاهده من قومه عند موته وعمر إلى حين إحيائه فقال له : كم لبثت .

قلت : والأظهر أن القائل هو الله تعالى ؛ لقوله « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا » والله أعلم . وقرأ أهل الكوفة « كَمْ لَبِثّ » بإدغام الثاء فى التاء لقربها منها

(١) زيادة عن ابن عطية . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢ (٣) فى هـ : ويجددها . (٤) فى هـ : من البلد .

فى المخرج . فإن مخرجهما من طرف اللسان وأصول الثنايا وفى أنهما مهموستان[١] . قال النحاس : والإظهار أحسن لتباين مخرج الثاء من مخرج التاء . ويقال : كان هـذا السؤال بواسطة الملك على جهة التقرير . و « كم » فى موضع نصب على الظرف .

﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ إنما قال هذا على ما عنده وفى ظنه، وعلى هذا لا يكون كاذبا فيما أخبر به؛ ومثله قول أصحاب الكهف « قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »[٢] وإنما لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين ــ على ما يأتى ــ ولم يكونوا كاذبين لأنهم أخبروا عما عندهم، كأنهم قالوا : الذى عندنا وفى ظنوننا أننا لبثنا يوما أو بعض يوم . ونظيره قول النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قصة ذى اليدين : " لم أقصر ولم أنس " . ومن الناس من يقول : إنه كذبٌ على معنى وجود حقيقة الكذب فيه ولكنه لا مؤاخذة به، وإلا فالكذب الإخبار عن الشىء على خلاف ما هو عليـه وذلك لا يختلف بالعلم والجهل ، وهـذا بيّن فى نظر الأصول . فعلى هـذا يجوز أن يقال : إن الأنبياء لا يُعصمون عن الإخبار عن الشىء على خلاف ما هو عليه إذا لم يكن عن قصد، كما لا يعصمون عن السهو والنسيان . فهذا ما يتعلق بهذه الآية ، والقول الأوّل أصح . قال ابن جُريج وقَتادة والربيع : أماته الله غُدوةَ يوم ثم بُعث قبـل الغروب فظن هذا اليومَ واحدا فقـال : لبثتُ يوما ، ثم رأى بقيـةً من الشمس فخشى أن يكون كاذبا فقال : أو بعض يوم . فقيل : بل لبثتَ مائةَ عام؛ ورأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها ما دلّه على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ ﴾ وهو التّين الذى جمعه من أشجار القرية التى مرّ عليها . ﴿ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ وقرأ ابن مسعود « وهذا طعامك وشرابك لم يتسنّه » . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وغيره « وانظر لطعامك وشرابك لمـائة سنة » . وقرأ الجمهور بإثبات الهاء فى الوصل إلا الأخوان[٣]

(١) الحروف المهموسة عشرة أحرف يجمعها قولك « حثه شخص فسكت » قال ابن جنى : فأما حروف الهمس فإن الصوت الذى يخرج معها نفس وليس من صوت الصدر إنما يخرج منسلا وليس كنفخ الزاى والظاء .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٤

(٣) عبارة البحر : وقرأ حمزة والكسائى بحـذف الهاء فى الوصل على أنها هاء السكت وقرأ باقى السبعة بإثبات الهاء فى الوصل والوقف . فى ب وهـ وجـ : الأخوان ، وصوابه الأخوين .

فإنهما يحذفانها، ولا خلاف أن الوقف عليها بالهاء . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف أيضا « لم يَسَّنَّ» «وانظر» أدغم التاء فى السين؛ فعلى قراءة الجمهور الهاء أصلية، وحذفت الضمة للجزم، ويكون « يَتَسَنَّهْ » من السَّنة أى لم تُغيِّره السِّنون . قال الجوهرىّ : ويقال سُنون، والسَّنَة واحدة السِّنين، وفى نقصانها قولان : أحدهما الواو، والآخر الهاء . وأصلها سَنْهَة مثل الجَبْهَة؛ لأنه من سَنَهت النخلةُ وتسنَّهت إذا أتت عليها السِّنون . ونخلة سَنَّاء أى تحمل سنة ولا تحمل أخرى؛ وسَنْهَاء أيضا، قال بعض الأنصار[1] :

فليست بسَنْهَاءٍ ولا رُجَبِيَّةٍ[2] * ولكن عَرَايَا[3] فى السِّنين الجوائح[4]

وأَسْنَهتُ عند بنى فلان أقمت عندهم ، وتَسنَّيت أيضا . واستأجرته مساناة ومُسانهة أيضا . وفى التصغير سُنَيَّة وسُنَيْهَة . قال النحاس : من قرأ « لم يتسنّ » و« انظر » قال فى التصغير : سُنَيَّة وحذفت الألف للجزم، ويقف على الهاء فيقول: « لم يتسنهْ» تكون الهاء لبيان الحركة . قال المَهْدَوِىّ : ويجوز أن يكون أصله من سانَيْتُه مساناة، أى عاملته سَنَةً بعد سنة، أو من سانهت [بالهاء][5]؛ فإن كان من سانيت فأصله يتسنّى فسقطت الألف للجزم؛ وأصله من الواو بدليل قولهم سَنَوات والهاء فيه للسكت، وإن كان من سانَهْت فالهاء لام الفعل؛ وأصل سنة على هذا سَنْهة . وعلى القول الأوّل سَنَوَة . وقيل : هو من أسِنَ الماء إذا تغيّر، وكان يجب أن يكون على هذا يتأسّن . أبو عمرو الشيبانىّ : هو من قوله « حَمَإٍ مَسْنُونٍ »[6] فالمعنى لم يتغيّر . الزجاج، ليس كذلك؛ لأن قوله «مسنون» ليس معناه متغيّر وإنما معناه مصبوب على سُنَّة الأرض . قال المهدوى : وأصله على قول الشيبانى « يتسنّن » فأبدلت إحدى

---

(١) هو سويد بن الصامت (عن اللسان) . (٢) نخلة رجبية (كعمرية وتشدد الجيم، وكلاهما نسب نادر) وترجيبها أن تضم أعذاقها (عراجينها) إلى سعفاتها ثم تشدّ بالخوص لئلا ينفضها الريح . وقيل : هو أن يوضع الشوك حوالى الأعذاق لئلا يصل إليها آكل فلا تسرق، وذلك إذا كانت غريبة طريفة . (٣) العرايا (واحدتها عرية) : النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا . (٤) فى الأصول : «المواحل» والتصويب عن كتب اللغة . وقبل هذا البيت :

أدين وما دينى عليكم بمغرم * ولكن على الشم الجلاد القراوح

والجوائح : السنون الشداد التى تجيح المال . (٥) من ه . (٦) راجع ج ١٠ ص ٢١

النونين ياءً كراهة التضعيف فصار يتسنى، ثم سقطت الألف للجزم ودخلت الهاء للسكت.

وقال مجاهد : « لم يَتَسَنَّهْ » لم ينتن . قال النحاس : أصح ماقيل فيه أنه من السَّنة، أى لم تغيره السنون . ويحتمل أن يكون من السَّنة وهى الجدب ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ »[(١)] وقوله عليه السلام : "اللَّهم اجعلها عليهم سِنين كسِنِي يوسف" . يقال منه : أسنَتَ القومُ أى أجدبوا ؛ فيكون المعنى لم يغيِّر طعامك القحوط والجدوب ، أو لم تغيره السنون والأعوام، أى هو باق على طراوته وغضارته .

قوله تعالى : ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ قال وهب بن مُنَبِّه وغيره : وانظر إلى اتصال عظامه وإحيائه جزءا جزءا . ويُروى أنه أحياه الله كذلك حتى صار عظاما ملتئمة ، ثم كساه لحما حتى كمل حمارا، ثم جاءه ملك فنفخ فيه الروح فقام الحمار ينهق؛ على هذا أكثر المفسرين . ورُوى عن الضحاك ووهب بن منبه أيضا أنهما قالا : بل قيل له : وانظر إلى حمارك قائما فى مربطه لم يصبه شىء مائةَ عام؛ وإنما العظام التى نظر إليها عظام نفسه بعد أن أحيا الله منه عينيه ورأسه، وسائرُ جسده ميت، قالا : وأعمى الله العيون عن إرمياء وحماره طول هذه المدة .

قوله تعالى : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ قال الفرّاء : إنما أُدخل الواو فى قوله « وَلِنَجْعَلَكَ» دلالة على أنها شرط لفعل بعده، معناه « وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ» ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك . وإن شئت جعلت الواو مُقْحمةً زائدة . وقال الأعمش : موضع كونه آيةً هو أنه جاء شابا على حاله يوم مات، فوجد الأبناء والحَفَدة شيوخا . عكرمة : وكان يوم مات ابنَ أربعين سنة . ورُوى عن على رضوان الله عليه أن عُزيرا خرج من أهله وخلّف امرأته حاملا، وله خمسون سنة فأماته الله مائةَ عام، ثم بعثه فرجع إلى أهله وهو ابن خمسين سنة وله ولد من مائة سنة فكان ابنه أكبر منه بخمسين سنة . ورُوى عن ابن عباس قال : لما أحيا الله عُزيرا ركب حماره فأتى محلّته فأنكر الناسَ وأنكروه، فوجد فى منزله عجوزا عمياء كانت أمَةً لهم، خرج عنهم عُزير وهى بنت عشرين سنة ، فقال لها : أهذا منزل عُزير؟ فقالت نعم ! ثم بكت وقالت : فارقنا عُزير منذ كذا وكذا سنة ! قال : فأنا عُزير؛ قالت : إن عزيرا فقدناه منذ

(١) راجع ج ٧ ص ٢٦٣

مائة سنة . قال : فالله أماتني مائة سنة ثم بعثني . قالت : فعزير كان مستجاب الدعوة للمريض وصاحب البلاء فيُفيق، فادع الله يرد عليّ بصرى ؛ فدعا الله ومسح على عينيها بيده فصحّت مكانّها كأنها أُنشطت من عِقال . قالت : أشهد أنك عُزير ! ثم انطلقت إلى ملإ بنى إسرائيل وفيهم ابنٌ لعزير شيخٌ ابن مائة وثمانية وعشرين سنة، وبنو بنيه شيوخ، فقالت : ياقوم ، هذا والله عُزير ! فأقبل إليه ابنه مع الناس فقال ابنه : كانت لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه ؛ فنظرها فإذا هو عُزير . وقيل : جاء وقد هلك كل من يعرف، فكان آيةً لمن كان حيًّا من قومه إذ كانوا موقنين بحاله سماعا . قال ابن عطية : وفى إماتته هذه المدّة ثم إحيائه بعدها أعظم آية، وأمره كلّه آية غابر الدهر، ولا يحتاج إلى تخصيص بعض ذلك دون بعض .

قوله تعالى : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاى والباقون بالراء، وروى أَبَانُ عن عاصم « نَنْشُرُهَا » بفتح النون وضم الشين والراء، وكذلك قرأ ابن عباس والحسن وأبو حَيْوة ؛ فقيل : هما لغتان فى الإحياء بمعنًى، كما يقال : رَجَع ورَجَعْتُه، وغاض الماء وغِضْته ، وخسِرت الدابةُ وخَسِرتها ؛ إلا أن المعروف فى اللغة أنشر الله الموتى فنَشَروا، أى أحياهم الله فحيوا ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ »(١) ويكون نَشْرها مثل نشر الثوب . نشَر الميّتُ ينشُر نُشورا أى عاش بعد الموت، قال الأعشى :

حتى يقولَ الناسُ مما رأوْا * يا عَجَبا للميّت النّاشِرِ

فكأن الموت طيٌّ للعظام والأعضاء ، وكأن الإحياء وجمعَ الأعضاء بعضها إلى بعض نشرٌ . وأما قراءة « نُنشِزُهَا » بالزاى فمعناه نرفعها . والنَّشْز : المرتفع من الأرض ؛ قال :

تَرى الثعلب الحَوْلِىّ فيها كأنه * إذا ما علا نَشْزًا حَصانٌ مجلَّلُ

قال مكّىّ : المعنى : ٱنظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض فى التركيب للإحياء ؛ لأن النشز الارتفاع، ومنه المرأة النُّشوز، وهى المرتفعة عن موافقة زوجها، ومنه قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا »(٢) أى ارتفعوا وانضموا . وأيضا فإن القراءة بالراء بمعنى الإحياء، والعظام لا تحيا على الانفراد حتى ينضم بعضها إلى بعض ، والزاى أولى بذلك المعنى، إذ هو

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢١٥ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٩٦

بمعنى الانضمام دون الإحياء . فالموصوف بالإحيـاء هو الرجل دون العظام على انفرادها، ولايقال : هذا عظم حىّ، وإنما المعنى فانظر إلى العظام كيف نرفعها من أماكنها من الأرض إلى جسم صاحبها للإحياء . وقرأ النخعى « نَشْزُها » بفتح النون وضم الشين والزاى ؛ ورُوى ذلك عن ابن عباس وقتادة . وقرأ أبَىّ بن كعب « ننشيها » بالياء .

والكسوة : ما وارى من الثياب، وشُبّه اللحم بها . وقد استعاره لبيد[1] للإسلام فقال :

* حتى اكتسَيْتُ من الإسلام سِرْبالا *

وقد تقدّم أوّل السورة[2] .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بقطع الألف . وقد رُوى أن الله جل ذكره أحيا بعضه ثم أراه كيف أحيا باقى جسـده . قال قتادة : إنه جعل ينظر كيف يوصل بعض عظامه إلى بعض؛ لأن أوّل ما خلق الله منه رأسه وقيل له : انظر، فقال عند ذلك : «أعلم» بقطع الألف، أى أعلم هذا. وقال الطبرى : المعنى فى قوله « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ » أى لـما اتضح له عيانا ما كان مستنكرا فى قدرة الله عنده قبل عيانه قال : أعلم . قال ابن عطية : وهذا خطأ؛ لأنه ألزم ما لا يقتضيه اللفظ، وفسّر على القول الشاذ والاحتمال الضعيف ، وهذا عندى ليس بإقرار بمـا كان قبلُ ينكره كما زعم الطبرىّ، بل هو قول بعثه الاعتبار ؛ كما يقول الإنسان المؤمن إذا رأى شيئا غريبا من قدرة الله تعالى : لا إله إلا الله ونحو هذا . وقال أبو علىّ : معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذى لم أكن علمته .

قلت : وقد ذكرنا هذا المعنى عن قتادة ، وكذلك قال مكّىّ رحمه الله ، قال مكّىّ : إنه أخبر عن نفسه عند ما عاين من قدرة الله تعالى فى إحيائه الموتى، فتيقّن ذلك بالمشاهدة، فأقرّ أنه يعلم أن الله على كل شىء قدير، أى أعلم [أنا][3] هذا الضرب من العلم الذى لم أكن أعلمه على معاينة ؛ وهذا على قراءة من قرأ « أَعْلَمُ » بقطع الألف وهم الأكثر من القراء . وقرأ حمزة والكسائىّ بوصل الألف، ويحتمل وجهين : أحدهما قال له الملك : اَعلم ، والآخر هو أن

---

(١) فى الأصول وابن عطية : النابغة المعروف المشهور ما أثبتناه وصدره : * الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى *

(٢) راجع جـ ١ ص ١٥٣ (٣) فى جـ ، ب ، هـ .

ينزّل نفسه منزلة المخاطَب الأجنبي المنفصل ؛ فالمعنى فلما تبين له قال لنفسه : أعلمى يانفس هذا العلم اليقين الذى لم تكونى تعلمين معاينة؛ وأنشد أبو علىّ فى مثل هذا المعنى :

* ودّع هريرةَ إن الركب مُرتحِلُ[1] *

* ألم تغتمِض عيناك ليلةَ أرْمَدا *

قال ابن عطية : وتأنّس أبو علىّ فى هذا المعنى بقول الشاعر :

تذكّر من أنّى ومن أين شُربُه * يُؤامِرُ نفسَيه كذى الهَجْمةِ الأبِل[2]

قال مكّىّ : ويبعد أن يكون ذلك أمرا من الله جل ذكره له بالعلم، لأنه قد أظهر إليه قدرته، وأراه أمرا أيقن صحته وأقر بالقدرة فلا معنى لأن يأمره الله بعلم ذلك ، بل هو يأمر نفسه بذلك وهو جائز حسَن . وفى حرف عبد الله ما يدل على أنه أمرٌ من الله تعالى له بالعلم على معنى الزم هذا العلم لما عاينت وتيقنت ، وذلك أن فى حرفه : قيل أعلم . وأيضا فإنه موافق لما قبله من الأمر فى قوله « انْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ » و « انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ » و « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ » فكذلك و « واعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ » وقد كان ابن عباس يقرؤها « قيل اعلم » ويقول أهو خير أم إبراهيم؟ إذ قيل له : « واعلم أن الله عزيز حكيم » . فهذا يبين أنه من قول الله سبحانه له لمّا عاين من الإحياء .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

اختلف الناس فى هذا السؤال هل صدر من إبراهيم عن شكّ أم لا؟ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكّا فى إحياء الله الموتى قطّ وإنما طلب المعاينة، وذلك أن النفوس

(١) البيتان للأعشى، وعجز الأول : وهل تطيق وداعا أيها الرجل . والثانى عجزه : وعادك ما عاد السليم المسهدا .

(٢) الهجمة (بفتح فسكون) : القطعة الضخمة من الإبل ، وقيل : هى ما بين الثلاثين والمائة . ورجل أبل (ككتف) : حذق مصلحة الإبل .

مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به؛ ولهذا قال عليه السلام: "ليس الخبر كالمعاينة" رواه ابن عباس لم يروه غيره ؛ قاله أبو عمر . قال الأخفش : لم يُرد رؤية القلب و إنما أراد رؤية العين . وقال الحسن وقَتادة وسعيد بن جُبير والربيع : سأل ليزداد يقينا إلى يقينه [1] . قال ابن عطية : وترجم الطبرى فى تفسيره فقال: وقال آخرون سأل ذلك ربّه؛لأنه شك فى قدرة الله تعالى . وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس قال : ما فى القرآن آية أرجى عندى منها . وذُكر عن عطاء بن أبى رَباح أنه قال : دخل قلبَ إبراهيم بعضُ مايدخل قلوب الناس فقال : رب أرنى كيف تحيي الموتى . وذكر حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "نحن أحق بالشك من إبراهيم " الحديث، ثم رجّح الطبرى هذا القول .

قلت: حديث أبى هريرة خرّجه البخارى ومُسْلم عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الدّاعى " . قال ابن عطية : وما ترجم به الطبرى عندى مردود ، وما أدخل تحت الترجمة متأوّل؛فأما قول ابن عباس: «هى أرجى آية» فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء فى الدنيا وليست مظنة ذلك. ويجوز أن يقول: هى أرجى آية لقوله «أوَ لم تؤمن» أى إن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير وبحث . وأما قول عطاء: «دخل قلبَ إبراهيم بعضُ ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدّم . وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم : "نحن أحق بالشك من إبراهيم" فمعناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ونحن لانشك فإبراهيم عليه السلام أحْرَى ألّا يشك؛فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم،والذى روى فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :"ذلك محض الإيمان" إنما هو فى الخواطر التى لا تثبت ، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر ، وذلك هو المنفى عن الخليل عليه السلام . وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به، يدلّك على ذلك قوله «رَبِّىَ الّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ» فالشك يبعد على من

(١) فى ج و ه : إلى نفسه .

تثبت قدمه فى الإيمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة، والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التى فيها رذيلة إجماعا . وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، نحو قولك : كيف علمُ زيد ؟ وكيف نَسْجُ الثوب؟ ونحو هذا. ومتى قلت : كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله . وقد تكون « كيف » خبرا عن شيء شأنه أن يُستفهم عنه بكيف ، نحو قولك : كيف شئت فكن ، ونحو قول البخاري : كيف كان بدء الوحي . و« كيف » فى هذه الآية إنما هى استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياءُ متقرِّر ، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبّرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح ، فيلزم من ذلك أن الشيء فى نفسه لا يصح ؛ مثال ذلك أن يقول مدّع : أنا أرفع هذا الجبل ؛ فيقول المكذِّب له : أرنى كيف ترفعه ! فهذه طريقة مجاز فى العبارة، ومعناها تسليم جَدَلِيٌّ، كأنه يقول : افرض أنك ترفعه، فأرنى كيف ترفعه ! فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازى ، خلص الله له ذلك وحمله على أن بيّن له الحقيقة فقال له : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى » فكمل الأمر وتخلّص من كل شك ، ثم علّل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة .

قلت : هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث . وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »(1) وقال اللعين : إلا عبادك منهم المخلصين، وإذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم ، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها ؛ فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى علم اليقين؛ فقوله : «أرنى كيف » طلب مشاهدة الكيفية . وقال بعض أهل المعانى : إنما أراد إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى القلوب ؛ وهذا فاسد

(1) راجع جـ ١٠ ص ٢٨

مردود بما تعقبه من البيان ، ذكره الماوردي. وليست الألف في قوله « أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ » ألف استفهام وإنما هي ألف إيجاب وتقرير كما قال جرير :

* ألستم خيرَ من ركب المَطايَا *

والواو واو الحال . و «تُؤْمِنْ» معناه إيمانا مطلقا، دخل فيه فضل إحياء الموتى .

﴿قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي سألتك ليطمئن قلبي بحصول الفرق بين المعلوم برهانا والمعلوم عيانا . والطمأنينة : اعتدال وسكون ، فطمأنينة الأعضاء معروفة ، كما قال عليه السلام : "ثم اركع حتى تطمئنّ راكعا" الحديث . وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد. والفكر في صورة الإحياء غير محظور، كما لنا نحن اليوم أن نفكر [فيها] [1] إذ هي فِكَر فيها عِبَر فأراد الخليل أن يعاين فيذهب فِكْرُه [2] في صورة الإحياء . وقال الطبري: معنى «ليطمئن قلبي» ليوقن، وحُكي نحو ذلك عن سعيد بن جُبير ، وحُكي عنه ليزداد يقينا ؛ وقاله إبراهيم وقتادة . وقال بعضهم : لأزداد إيمانا مع إيماني . قال ابن عطية : ولا زيادة في هذا المعنى تمكن إلا السكون عن الفكر وإلا فاليقين لا يتبعّض . وقال السُّدّي وابن جُبير أيضا : أو لم تؤمن بأنك خليلي ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي بالخُلّة . وقيل : دعا أن يريه كيف يحيي الموتى ليعلم هل تستجاب دعوته ، فقال الله له : أولم تؤمن أني أجيب دعاءك، قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي أنك تجيب [3] دعائي .

واختلف في المحرك له على ذلك ؛ فقيل : إن الله وعده أن يتخذه خليلا فأراد آيةً على ذلك؛ قاله السائب بن يزيد [4] . وقيل: قول النمروذ : أنا أحيي وأميت . وقال الحسن : رأى جيفة نصفها في البر توزّعها السباع ونصفها في البحر توزعها دواب البحر ، فلما رأى تفرّقها أحبّ [5] أن يرى انضمامها فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى كيفية التفريق؛ فقيل له : ﴿خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ قيل: هي الدِّيك والطاووس والحمام والغراب؛ ذكر ذلك ابن إسحاق عن بعض أهل العلم ، وقاله مجاهد وابن جُريج وعطاء بن يسار وابن زيد . وقال ابن عباس مكان الغراب الكُرْكيّ، وعنه أيضا مكان الحمام النَّسر. فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكّاها

---

(١) في جـ و هـ و ب . (٢) في ب و جـ : فتذهب فكرة . بصيغة الجمع . (٣) في جـ : تستجيب .
(٤) كذا في هـ و ب و جـ وهو الصواب كما في التهذيب والاستيعاب، وفي جـ و أ : زيد . (٥) في هـ : اختار .

ثم قطعها قِطعا صغارا ، وخلط لحوم البعض إلى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب ، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءا على كل جبل ، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رءوس الطير فى يده، ثم قال : تعالين بإذن الله، فتطايرت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى التأمت مثل ما كانت أولا وبقيت بلا رءوس، ثم كرر النداء فجاءته سَعْيًا ، أى عَدْوًا على أرجلهنّ. ولا يقال للطائر: «سعى» إذا طار إلا على التمثيل؛ قاله النحاس . وكان إبراهيم إذا أشار إلى واحد منها بغير رأسه تباعد الطائر، وإذا أشار إليه برأسه قربُ حتى لقى كل طائر رأسه، وطارت بإذن الله . وقال الزجاج : المعنى ثم ٱجعل على كل جبل من كل واحد جزءا . وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو جعفر « جُزُؤًا » على فُعُل . وعن أبى جعفر أيضا « جُزًّا » مشدّدة الزاى . الباقون مهموز مخفّف ، وهى لغات، ومعناه النصيب . ﴿ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ نصب على الحال . و ﴿ صُرْهُنَّ ﴾ معناه قطعهن ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وأبو عبيدة وابن الأنبارى؛ يقال : صار الشيءَ يَصُوره أى قطعه ؛ وقاله ابن إسحاق . وعن أبى الأسود الدؤلى : هو بالسريانية التقطيع ؛ قال تَوْبة بن الحُمَيِّر يصفه :

فلمّا جذبت الحبل أطّت نُسوعُه * بأطراف عيدان شديد سيورها

فأدنت لىَ الأسباب حتى بلغتُها * بنهضى وقد كاد ارتقائى يصورها

أى يقطعها . والصَّوْر : القطع . وقال الضّحاك وعكرمة وابن عباس فى بعض ما روى عنه : إنها لفظة بالنبطية معناه قَطِّعهن . وقيل : المعنى أمِلْهُنّ إليك، أى اضممهنّ وٱجمعهنّ إليك؛ يقال : رجل أَصْور إذا كان مائل العنق . وتقول : إنى إليكم لأَصْور، يعنى مشتاقا مائلا . وٱمرأة صَوْراء ، والجمع صور مثل أَسْود وسُود ؛ قال الشاعر :

الله يعلم أنّا فى تلفّتنا * يومَ الفِراق إلى جيراننا صُورُ

فقوله «إلَيْكَ» على تأويل التقطيع متعلق بـ«خُذْ» ولا حاجة إلى مضمر، وعلى تأويل الإمالة والضم متعلق بـ«صُرْهُنّ» وفى الكلام متروك : فأَمِلْهُنّ إليك ثم قطعهن . وفيها خمس قراءات : ثنتان فى السبع وهما ضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء . وقرأ قوم « فصُرَّهن » بضم الصاد

وشدّ الراء المفتوحة ، كأنه يقول فشدّهن ؛ ومنه صُرّة الدنانير . وقرأ قوم « فصِرّهن » بكسر الصاد وشدّ الراء المفتوحة ، ومعناه صيّحهن ؛ من قولك : صرّ البابُ والقلمُ إذا صوّت ؛ حكاه النّقاش . قال ابن جنّى : هى قراءة غريبة ، وذلك أن يفعِل بكسر العين فى المضاعف المتعدّى قليل ، و إنما بابه يفعُل بضم العين ؛ كشدّ يشدّ ونحوه ، لكن قد جاء منه نمّ الحديثَ ينُمّه وينِمّه ، وهرّ الحرب يهرها و يهرّها ؛ ومنه بيت الأعشى :

* ليعتورنك القولُ حتى تَهِرّه (١) *

إلى غير ذلك فى حروف قليلة . قال ابن جنى : وأما قراءة عكرمة بضم الصاد فيحتمل فى الراء الضم والفتح والكسر [كمدّ وشدّ (٢)] والوجه ضم الراء من أجل ضمة الهاء من بعد .

القراءة الخامسة « صَرِّهِنّ » بفتح الصاد وشدّ الراء مكسورة ؛ حكاها المهدوىّ وغيره عن عكرمة ، بمعنى فاحبسهن ؛ من قولهم : صَرَّى يُصَرِّى إذا حبس ؛ ومنه الشاة المُصَرَّاة . وهنا اعتراض ذكره الماوردىّ [وهو (٣)] يقال : فكيف أجيب إبراهيم إلى آيات الآخرة دون موسى فى قوله « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ (٤) » ؟ فعنه (٥) جوابان : أحدهما أن ما سأله موسى لا يصح مع بقاء التكليف ، وما سأله إبراهيم خاص يصح معه بقاء التكليف . الثانى أن الأحوال تختلف فيكون الأصلح فى بعض الأوقات الإجابة ، وفى وقت آخر المنع فيما لم يتقدّم فيه إذن . وقال ابن عباس : أمر الله تعالى إبراهيم بهذا قبل أن يولد له وقبل أن يُنزل عليه الصحف ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦١)

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ لما قص الله سبحانه ما فيه من البراهين ، حث على الجهاد ، وأعلم أن من جاهد بعد هذا البرهان الذى لا يأتى به إلا نبىّ فله فى جهاده الثواب العظيم . روى البستىّ

(١) الذى فى الديوان : ليستدرجنك القول حتى تهره * وتعلم أنى عنك لست بمجرم
(٢) الزيادة من هـ وب وجـ وابن عطية . (٣) من هـ وب وجـ .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٧٨ (٥) فى ب : ففيه .

فى صحيح مسنده عن ابن عمر قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رب زد أمتى " فنزلت « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً »[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رب زد أمتى " فنزلت « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وهذه الآية لفظها بيان مثال لشرف النفقة فى سبيل الله ولحسنها ، وضمنها التحريض على ذلك . وفى الكلام حذف مضاف تقديره مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة . وطريق آخر : مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع فى الأرض حبة فأنبتت الحبة سبع سنابل ، يعنى أخرجت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ؛ فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصدقة بالبذر فيعطيه الله بكل صدقة له سبعمائة حسنة ، ثم قال تعالى : ﴿ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ يعنى على سبعمائة ؛ فيكون مثل المتصدق مثل الزارع ، إن كان حاذقا فى عمله ، ويكون البذر جيدا وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر ؛ فكذلك المتصدق إذا كان صالحا والمال طيبا ويضعه موضعه فيصير الثواب أكثر ؛ خلافا لمن قال : ليس فى الآية تضعيف على سبعمائة ، على ما نبينه إن شاء الله .

الثانيـة ــ روى أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تَبُوكَ جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال : يا رسول الله ، كانت لى ثمانية آلاف فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها لربى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت " . وقال عثمان : يا رسول الله علىّ جهاز من لا جهاز له ؛ فنزلت هذه الآية فيهما . وقيل : نزلت فى نفقة التطوع . وقيل : نزلت قبل آية الزكاة ثم نسخت بآية الزكاة ، ولا حاجة إلى دعوى النسخ ؛ لأن الإنفاق فى سبيل الله مندوب إليه فى كل وقت . وسبل الله كثيرة وأعظمها الجهاد لتكون كلمة الله هى العليا .

---

(١) راجع ص ٢٣٧ من هذا الجزء وجـ ١٥ ص ٢٤٠

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ الحبة اسم جنس لكل ما يزدرعه ابن آدم ويقتاته، وأشهر ذلك البُرّ فكثيرا ما يراد بالحَبّ؛ ومنه قول المتلمِّس :

آليتُ حَبَّ العراقِ الدهرَ أطعمه * والحَبُّ يأكلُه فى القريةِ السُّوسُ

وحبة القلب : سويداؤه، ويقال ثمرته وهو ذاك . والحِبة (بكسر الحاء) : بذور البقول مما ليس بقوت؛ وفى حديث الشفاعة : "فينبتون كما تنبت الحِبة فى حَمِيل السيل"[1] والجمع حِبب . والحبة (بضم الحاء) الحُبّ؛ يقال : نَعَم وحُبّة وكرامة[2] . والحُبُّ المحبّة، وكذلك الحِب (بالكسر) . والحِب أيضا الحبيب؛ مثل خِدْن وخَدِين . وسنبلة فُنعلة من أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل، أى استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالإسبال ؛ وقيل : معناه صار فيه حَبّ مستور كما يستر الشىء بإسبال الستر عليه . والجمع سنابل . ثم قيل : المراد سنبل الدُّخْن فهو الذى يكون فى السنبلة منه هذا العدد .

قلت : هذا ليس بشىء فإن سنبل الدُّخْن يجىء فى السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر، على ما شاهدناه . قال ابن عطية : وقد يوجد فى سنبل القمح ما فيه مائة حبة، فأما فى سائر الحبوب فأكثر ولكن المثال وقع بهذا القدر . وقال الطبرى فى هذه الآية : إن قوله ﴿ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ معناه إن وجد ذلك، وإلا فعلى أن يفرضه؛ ثم نقل عن الضحاك أنه قال : « فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » معناه كل سنبلة أنبتت مائة حبة . قال ابن عطية : فجعل الطبرى قول الضحاك نحو ما قال، وذلك غير لازم من قول الضحاك . وقال أبو عمرو الدانى : وقرأ بعضهم « مائة » بالنصب على تقدير أنبتت مائة حبة .

قلت : وقال يعقوب الحضرمى : وقرأ بعضهم « فى كل سنبلة مائة حبة » على : أنبتت مائة حبة؛ وكذلك قرأ بعضهم «وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ» على «وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ»[3] وأعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى « أنبتت سبع سنابل » بإدغام التاء فى السين؛ لأنهما مهموستان، ألا ترى أنهما يتعاقبان . وأنشد أبو عمرو :

---

(١) حميل السيل : ما يحمل من الغثاء والطين . (٢) فى هـ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢١١

يا لعنَ الله بني السَّعلاة[1] * عمرو بنَ ميمون[2] لئام النات

أراد الناس فحوّل السين تاء . الباقون بالإظهار على الأصل لأنهما كلمتان .

الرابعة — ورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البر بعشر أمثالها، واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمائة ضعف . واختلف العلماء في معنى قوله ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فقالت طائفة : هي مبيّنة مؤكدة لما تقدم من ذكر السبعمائة، وليس ثَمّ تضعيف فوق السبعمائة . وقالت طائفة من العلماء : بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف .

قلت : وهذا القول أصحّ لحديث ابن عمر المذكور أول الآية . وروى ابن ماجه حدثنا هارون بن عبد الله الحمال حدثنا ابن أبي فُديك عن الخليل بن عبد الله عن الحسن [عن][3] علي ابن أبي طالب وأبي الدرداء وعبد الله بن عمر وأبي أمامة الباهلي وعبد الله بن عمرو وجابر ابن عبد الله وعمران بن حصين كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه[4] فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم — ثم تلا [هذه الآية][3] — والله يضاعف لمن يشاء الله " . وقد روى عن ابن عباس أن التضعيف [ينتهي][5] لمن شاء الله إلى ألفي ألف . قال ابن عطية : وليس هذا بثابت الإسناد عنه .

الخامسة — في هذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس والمكاسب التي يشتغل بها العمال؛ ولذلك ضرب الله به المثل فقال : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ » الآية . وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة". وروى هشام بن عروة

---

(١) السعلاة : أخبث الغيلان . فإذا كانت المرأة قبيحة الوجه سيئة الخلق شبهت بالسعلاة .

(٢) الذي في كتب اللغة (مادة ن وت) : « عمرو بن يربوع » . (٣) عن جـ و ب، وابن ماجه، وفيه في السند : وأبي هريرة . (٤) في ابن ماجه : « في وجه ذلك » . (٥) عن ب و هـ و جـ .

عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "التمسوا الرزق في خبايا الأرض" يعني الزرع، أخرجه الترمذيّ . وقال صلى الله عليه وسلم في النخل: "هي الراسخات في الوَحَل المُطْعِمات في المَحْل" . وهذا خرج مخرج المدح . والزراعة من فروض الكفاية فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها وما كان في معناها من غرس الأشجار . ولقي عبد الله بن عبد الملك آبنَ شهاب الزُّهْرِيّ فقال : دُلّني على مالٍ أعالجه ؛ فأنشأ آبن شهاب يقول :

أقول لعبد الله يوم لقيته * وقد شدّ أحْلاسَ المطيّ مُشرِّقا

تتبَّع خَبايا الأرض وآدع مليكها * لعلّك يوما أن تُجاب فتُرزَقا

فيؤتيك مالا واسعًا ذا مَثابة * إذا مامياهُ الأرض غارتْ تدفّقا

وحُكي عن المعتضد أنه قال : رأيت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام يُناولني مِسْحاة وقال : خذها فإنها مفاتيح خزائن الأرض .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٦٢)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيل : إنها نزلت في عثمان آبن عفان رضي الله عنه . قال عبد الرحمن بن سَمُرة : جاء عثمان بألف دينار في جيش العُسْرة فصبّها في حِجْر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدخل يده فيها ويقلبها ويقول : "ما ضَرّ آبن عفان ما عمل بعد اليوم اللهم لا تنس هذا اليومَ لعثمان" . وقال أبو سعيد الخدريّ : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم رافعا يديه يدعو لعثمان يقول : "يا ربّ عثمان إني رضيت عن عثمان فآرض عنه" فما زال يدعو حتى طلع الفجر فنزلت : « ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى » الآية .

الثانيــة ــ لما تقدّم فى الآية التى قبلُ ذِكْرُ الإنفاق فى سبيل الله على العموم بيّن فى هذه الآية أن ذلك الحكم والثواب إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه منّا ولا أذًى[1]؛ لأن المنّ والأذى مبطلان لثواب الصدقة كما أخبر تعالى فى الآية بعد هذا، وإنما على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوابه بإنفاقه على المنفَق عليه، ولا يرجو منه شيئا ولا ينظر من أحواله فى حال سوى أن يراعى استحقاقه؛ قال الله تعالى : «لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا»[2] . ومتى أنفق ليريد من المنفَق عليه جزاء بوجهٍ من الوجوه فهذا لم يُرد وجهَ الله؛ فهذا إذا أخلف ظنه فيه منّ بإنفاقه وآذى . وكذلك من أنفق مضطرا دَافع غُرْم إمّا لمسانّة للمنفَق عليه أو لقرينة أخرى من اعتناء معتن فهذا لم يرد وجه الله . وإنما يُقبل ما كان عطاؤه لله وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله؛ كالذى حُكى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أعرابيا أتاه فقال :

يا عُمَر الخيرِ جُزِيت الجنّهْ * اُكْسُ بُنَيّاتى وأمّهُنّهْ
وكُنْ لنا من الزمان جُنّهْ * أُقسم بالله لتفعلنّهْ

قال عمر : إن لم أفعل يكون ماذا ؟! قال :

* إذًا أبا حفص لأذهبنّهْ *

قال : إذا ذهبت يكون ماذا ؟! قال :

تكون عن حالى لَتُسألَنّهْ * يوم تكون الأُعْطيات هَنّهْ
ومَوْقفُ المسئول بَيْنَهُنّهْ * إمّا إلى نار وإمّا جَنّهْ

---

(١) عبارة ابن عطية كما فى تفسيره : « ... وذلك أن المنفق فى سبيل الله إنما يكون على أحد ثلاثة أوجه : إما أن يريد وجه الله تعالى ويرجو ثوابه فهذا لا يرجو من المنفق عليه شيئا ، ولا ينظر من أحواله فى حال سوى أن يراعى استحقاقه .

وإما أن يريد من المنفق عليه جزاء بوجه من الوجوه فهذا لم يرد وجه الله ، بل نظر إلى هذه الحال من المنفق عليه . وهذا هو الذى متى أخلف ظنه منّ بإنفاقه وآذى .

وإما أن ينفق مضطرا دافع غرم إما لمسانّة للمنفق عليه أو قرينة أخرى من اعتناء معتن ونحوه؛ فهذا قد نظر فى حال ليست لوجه الله، وهذا هو الذى متى توبع وجرح بوجه من وجوه الجرح آذى . فالمن والأذى يكشفان ممن ظهرا منه أنه إنما كان على ما ذكرناه من المقاصد، وأنه لم يخلص لوجه الله تعالى . فلهذا كان المن والأذى مبطلين للصدقة من حيث بيّن كل واحد منهما أنها لم تكن صدقة » .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٨

فبكى عمر حتى اخضَلّت لحيته، ثم قال : يا غلام، أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعْره ! والله لا أملك غيره . قال المـاوردى : و إذا كان العطاء على هذا الوجه خاليا من طلب جزاء وشكر وعُرْيا عن آمتنان ونشر كان ذلك أشرف للباذل وأهْنأ للقابل . فأما المعطى إذا التمس بعطائه الجزاء، وطلب به الشكر والثناء، كان صاحب سُمْعة ورياء، وفى هذين من الذم ما ينافى السخاء . و إن طلب الجزاء كان تاجرا مُرْبِحاً لا يستحق حمدا ولا مدحا . وقد قال ابن عباس فى قوله تعالى : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ »(1) أى لا تُعطِى عطية تلتمس بها أفضـل منها . وذهب آبن زيد إلى أن هذه الآية إنمـا هى فى الذين لا يخرجون فى الجهاد بل ينفقون وهم قعود ، وأن الآية التى قبلها هى فى الذين يخرجون بأنفسهم، قال : ولذلك شرط على هؤلاء ولم يشترط على الأوّلين . قال ابن عطية : وفى هذا القول نظر؛ لأن التحكّم فيه بادٍ .

الثالثــة ــ قوله تعالى: ﴿ مَنًّا وَلَا أَذًى ﴾ المَنّ : ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها؛ مثل أن يقول: قد أحسنت إليك ونعَشْتُك وشبهه . وقال بعضهم: المنّ : التحدّث بما أَعطى حتى يبلغ ذلك المعطَى فيؤذيه . والمنّ من الكبائر، ثبت ذلك فى صحيح مسلم وغيره، وأنه أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم؛ وروى النسائى عن ابن عمـر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاقّ لوالديه والمرأة المترجِّلة تتشبّه بالرجال والديُّوث، وثلاثة لا يدخلون الجنة العاقّ لوالديه والمدمن الخمر والمنّان بما أعطى". وفى بعض طرق مسلم: "المنان هو الذى لا يعطى شيئا إلا مِنّة". والأذى : السب والتشكّى ، وهو أعمّ من المنّ ؛ لأن المنّ جزء من الأذى لكنه نص عليـه لكثرة وُقُوعه . وقال ابن زيد: لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلم عليه . وقالت له امرأة : يا أبا أسامة دلنى على رجل يخرج فى سبيل الله حقا فإنهم إنمـا يخرجون يأكلون الفواكه فإن عندى أسهما وجعبة . فقال : لا بارك الله فى أسهمك وجعبتك فقد آذيتهم قبل أن تعطيهم . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فمن أنفق فى سبيل الله ولم يتبعه منّا ولا أذى كقوله : ما أشدّ إلحاحك ! وخلّصنا الله منك ! وأمثال هذا فقد تضمّن الله له بالأجر، والأجر الجنة،

(1) راجع جـ ١٩ ص ٦٦

وقى عنه الخوف بعد موته لما يستقبل، والحزن على ما سلف من دنياه؛ لأنه يغتبط بآخرته فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وكفى بهذا فضلا وشرفا للنفقة فى سبيل الله تعالى. وفيها دلالة لمن فضل الغنىّ على الفقير حسب ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ إبتداء والخبر محذوف، أى قول معروف أولى وأمثل؛ ذكره النحاس والمهدوىّ. قال النحاس: ويجوز أن يكون «قَوْلٌ مَعْرُوفٌ» خبر ابتداء محذوف، أى الذى أُمرتم به قولٌ معروف. والقول المعروف هو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند الله، خير من صدقة هى فى ظاهرها صدقة وفى باطنها لا شىء؛ لأن ذكر القول المعروف فيه أجر وهذه لا أجر فيها. قال صلى الله عليه وسلم: "الكلمة الطيبة صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طَلْق" أخرجه مسلم. فيتلقَّ السائل بالبشر والترحيب، ويقابله بالطلاقة والتقريب؛ ليكون مشكورا إن أعطى ومعذورا إن منع. وقد قال بعض الحكماء: ٱلق صاحب الحاجة بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره. وحكى ابن لنكك[1] أن أبا بكر بن دُرَيْد قصد بعض الوزراء فى حاجة لم يقضها وظهر له منه ضجر فقال:

لا تدخلنّك ضَجْرةٌ من سائلٍ * فلَخيرُ دهرِك أن تُرى مسئولا
لا تَجْبهَنْ بالردّ وجهَ مُؤمِّلٍ * فبقاءُ عِزِّك أن تُرى مأمولا
تلقَ الكريمَ فتستدلّ ببِشْره * وتَرى العُبوس على اللّئيم دَليلا
وٱعلمْ بأنك عن قليلٍ صائرٌ * خبرا فكُنْ خَبرا يَروق جَميلا

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن محمد؛ فرد البصرة وصدر أدبائها. (عن يتيمة الدهر ج ٢ ص ١١٦).

وروى من حديث عمر رضى الله عنه قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ثم رُدّوا عليه بوَقار ولِين أو ببَذْلٍ يسير أو ردّ جميل فقد يأتيكم من ليس بإنس ولا جانّ ينظرون صنيعكم فيما خوّلكم الله تعالى " .

قلت : دليله حديث أبرص وأقرع وأعمى، خرّجه مسلم وغيره . وذلك أن ملكا تصوّر فى صورة أَبْرَص مرةً وأقْرَع أخرى وأعْمى أخرى امتحانا للمسئول . وقال بِشْر بن الحارث : رأيت عليا فى المنام فقلت : يا أمير المؤمنين ! قل لى شيئا ينفعنى الله به ؛ قال : ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء رغبة فى ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بموعود الله . فقلت : يا أمير المؤمنين زدنى ؛ فولّى وهو يقول :

قد كنتَ مَيْتًا فصرتَ حيًّا * وعن قليل تصير مَيْتَا

فأخرب بدار الفناء بيْتًا * وابْنِ بدار البقاء بيتا

الثانيــة ــ قوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ المغفرة هنا: الستر للخَلّة وسوء حالة المحتاج؛ ومن هذا قول الأعرابىّ ــ وقد سأل قوما بكلام فصيح فقال له قائل : مِمّن الرجل؟ فقال له : اللهم غُفْرًا(١) ! سُوءُ الاكتساب يمنع من الانتساب . وقيل : المعنى تجاوزٌ عن السائل إذا ألحّ وأغلظ وجفَى خيرٌ من التصدّق(٢) عليه مع المنّ والأذى ؛ قال معناه النقّاش . وقال النحاس : هذا مشكل يبيّنه الإعراب . «مَغْفِرَةٌ» رفع بالابتداء والخبر ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ﴾ . والمعنى والله أعلم وفعل يؤدى إلى المغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، وتقديره فى العربية وفعل مغفرة . ويجوز أن يكون مثل قولك : تفضُّلُ الله عليك أكبرُ(٣) من الصدقة التى تَمُنّ بها ، أى غفران الله خير من صدقتكم هذه التى تَمُنّون بها .

الثالثــة ــ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ أخبر تعالى عن غناه المطلق أنه غنى عن صدقة العبـاد ، وإنما أمر بها ليُثيبهم ، وعن حلمه بأنه لا يعاجل بالعقوبة مَنْ مَنّ وأذى بصـدقته .

(١) فى ه : عفوا . (٢) فى ج : الصدقة . (٣) فى ب : « أفضل » .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ قد تقدّم معناه . وعبّر تعالى عن عدم القبول وحرمان الثواب بالإبطال، والمراد الصدقة التي يُمَنّ بها ويُؤذى، لا غيرها . والعقيدة أن السيئات لا تُبطل الحسنات ولا تُحبطها ؛ فالمنّ والأذى في صدقة لا يُبطل صدقةً غيرها .

قال جمهور العلماء في هذه الآية : إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ أو يؤذى بها فإنها لا تُقبل . وقيل : بل قد جعل الله للملك عليها أمارة فهو لا يكتبها؛ وهذا حسن . والعرب تقول لما يُمَنّ به : يَدٌ سوداء . ولما يُعطى عن غير مسألة : يَدٌ بيضاء . ولما يُعطى عن مسألة : يَدٌ خضراء . وقال بعض البلغاء : مَنْ مَنّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أُعجب بعمله حَبِط أجره . وقال بعض الشعراء :

وصاحب سلفتْ منه إلىّ يَدٌ * أبطا عليه مُكافاتى فعادانى

لما تيقّن أن الدهر حاربنى * أبدَى النّدامة فيما كان أولانى

وقال آخر :

أفسدتَ بالمنّ ما أسديْتَ من حَسَنٍ * ليس الكريم إذا أسدَى بمنّانِ

وقال أبو بكر الورّاق فأحسن :

أحسَنُ من كلِّ حَسَنْ * فى كل وقت وزَمَنْ

صنيعةٌ مَرْبُوبَةٌ * خاليةٌ من المِنَنْ

وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل : فعلت إليك وفعلت ! فقال له : اسكت فلا خير فى المعروف إذا أُحصى . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إياكم والآمتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر — ثم تلا — ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ " .

الثانيـــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم: كره مالك لهذه الآية أن يُعطى الرجل صدقته الواجبة أقاربه لئلا يَعتاض منهم الحمد والثناء ، ويظهر منته عليهم ويكافئوه عليها فلا تخلص لوجه الله تعالى . واستحب أن يعطيها الأجانب، واستحب أيضا أن يولى غيره تفريقها إذا لم يكن الإمام عدلا؛ لئلا تحبط بالمن والأذى والشكر والثناء والمكافأة بالخدمة من المُعْطَى . وهذا بخلاف صدقة التطوع السر؛ لأن ثوابها إذا حبط سلم من الوعيد وصار فى حكم من لم يفعل، والواجب إذا حبط ثوابه توجه الوعيد عليه لكونه فى حكم من لم يفعل .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ الكاف فى موضع نصب ، أى إبطال « كالذى » فهى نعت للمصدر المحذوف . ويجوز أن تكون موضع الحال . مثّل الله تعالى الذى يمنّ ويؤذى بصدقته بالذى ينفق ماله رئاء الناس لا لوجه الله تعالى، وبالكافر الذى ينفق ليقال جواد وليُثنَى عليه بأنواع الثناء . ثم مثّل هذا المنفق أيضا بصفوان عليه تراب فيظنه الظان أرضا مُنبتة طيبة ، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقى صلدا ؛ فكذلك هذا المرابى . فالمنّ والأذى والرياء تكشف عن النية فى الآخرة فتبطل الصدقة كما يكشف الوابل عن الصفوان، وهو الحجر الكبير الأملس . وقيل: المراد بالآية إبطال الفضل دون الثواب، فالقاصد بنفقته الرياء غير مُثاب كالكافر؛ لأنه لم يقصد به وجه الله تعالى فيستحق الثواب. وخالف صاحب المنّ والأذى القاصد وجه الله المستحق ثوابه — وإن كرر عطاءه — وأبطل فضله . وقد قيل : إنما يبطل من ثواب صدقته من وقت منّه وإيذائه، وما قبل ذلك يكتب له ويضاعف؛ فإذا منّ وآذى انقطع التضعيف؛ لأن الصدقة تُرَبَّى لصاحبها حتى تكون أعظم من الجبل، فإذا خرجت من يد صاحبها خالصة على الوجه المشروع ضوعفت، فإذا جاء المنّ بها والأذى وقف بها هناك وانقطع زيادة التضعيف عنها ؛ والقول الأول أظهر[1] والله أعلم .

(١) فى هـ : أولى .

والصَّفْوَانُ جمعٌ واحده صَفْوانة؛ قاله الأخفش . قال وقال بعضهم : صفوان واحد؛ مثل حجر . وقال الكسائى : صَفوان واحد وجمعه صِفْوان وصُفِيّ وصِفِيّ، وأنكره المبرّد وقال : إنمـا صُفِيّ جمع صَفًا كقفا وقُفِيّ(١)، ومن هـذا المعنى الصَّفْواء والصَّفَا، وقـد تقدّم . وقرأ سعيد بن المسيب والزهرى « صَفَوان » بتحريك الفاء، وهى لغة . وحكى قُطْرُب صِفْوان . قال النحاس : صَفْوان وصَفَوان يجوز أن يكون جمعا ويجوز أن يكون واحدا، إلا أن الأولى به أن يكون واحدا لقوله عز وجل ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ و إن كان يجوز تذكير الجمع إلا أن الشيء لايخرج عن بابه إلا بدليل قاطع؛ فأما ماحكاه الكسائى فى الجمع فليس بصحيح على حقيقة النظر، ولكن صِفْوان جمع صَفًا، وصفًا بمعنى صَفْوان، ونظيره وَرَل(٢) و وِرْلان وأخ وإخْوان وكَرًا وكِرْوَان؛ كما قال الشاعر :

لنـا يوم وللكِرْوَان يومٌ ✽ تَطـيرُ البائسات ولا نَطيرُ

والضعيف فى العربية كِرْوَان جمع كَرَوَان؛ وصُفِيّ وصِفِيّ جمع صَفًا مثل عِصًا . والوابل : المطر الشديد . وقد وَبَلَت السماء تَبِل، والأرض مَوْبُولة . قال الأخفش : ومنه قوله تعالى : «أَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا»(٣) أى شديدا . وضرب وَبِيل، وعذاب وَبِيل أى شديد . والصَّلْد : الأملس من الحجـارة . قال الكسائى : صَلِد يَصْلَد صَلَدًا بتحريك اللام فهو صَلْد بالإسكان؛ وهو كل ما لا ينبت شيئا؛ ومنه جَبِينٌ أَصْلَد؛ وأنشد الأصمعىّ لرؤبة :

✽ بَرَّاقُ أَصْلادِ الجَبِينِ الأَجْلَهِ(٤) ✽

قال النقاش : الأصلد الأجرد بلغة هُذَيْل . ومعنى ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعنى المرائى والكافر والمـانّ ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى على الانتفاع بثواب شىء من إنفاقهم وهو كسبهم عند حاجتهم إليه؛ إذ كان لغير الله ؛ فعبّر عن النفقة بالكسب؛ لأنهم قصدوا بها الكسب . وقيل : ضرب هـذا مثلا للمرائى فى إبطال ثوابه، ولصاحب المنّ والأذى فى إبطال فضله؛ ذكره المـاوردى .

(١) راجع المسألة الثانية جـ ٢ ص ١٧٩ (٢) الورل (بالتحريك) : دابة على خلقة الضب إلا أنها أعظم منه تكون فى الرمال والصحارى، والعرب تستخبث الورل وتستقذره فلا تأكله . (٣) راجع جـ ١٩ ص ٤٧
(٤) الجله : أشد من الجلح وهو ذهاب الشعر من مقدّم الجبين .

قوله تعالى : وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ «ابْتِغَاءَ» مفعول من أجله . «وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» عطف عليه . وقال مكيّ في المُشْكِل : كلاهما مفعول من أجله . قال ابن عطية : وهو مردود، ولا يصح في «تَثْبِيتًا» أنه مفعول من أجله ؛ لأن الإنفاق ليس من أجل التثبيت . و « ابْتِغَاءَ » نصب على المصدر في موضع الحال، وكان يتوجّه فيه النصب على المفعول من أجله ، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو « تَثْبِيتًا » عليه . ولما ذكر الله تعالى صفة صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم ، ونهى المؤمنين عن مواقعة ما يشبه ذلك بوجه ما ، عقب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين تزكو صدقاتهم إذ كانت على وفق الشرع ووجهه . و «ابْتِغَاءَ» معناه طلب . و « مَرْضَاتِ » مصدر من رَضِيَ يَرْضَى . «وَتَثْبِيتًا» معناه أنهم يتثبتون أين يضعون صدقاتهم ؛ قاله مجاهد والحسن . قال الحسن : كان الرجل إذا همّ بصدقة تثبت ، فإن كان ذلك لله أمضاه و إن خالطه شك أمسك . وقيل : معناه تصديقا و يقينا ؛ قاله ابن عباس . وقال ابن عباس أيضا وقتادة : معناه واحتسابا من أنفسهم . وقال الشعبي والسدّي وقتادة أيضا وابن زيد وأبو صالح وغيرهم : « وتثبيتا » معناه وتيقنا أي أن نفوسهم لها بصائر فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تعالى تثبيتا . وهذه الأقوال الثلاث أصوب من قول الحسن ومجاهد؛ لأن المعنى الذي ذهبا إليه إنما عبارته «وتثبتا» مصدر على غير المصدر . قال ابن عطية : وهذا لا يسوغ إلا مع ذكر المصدر والإفصاح بالفعل المتقدّم؛ كقوله تعالى : « وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا »[1] ، « وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا »[2] . وأما إذا لم يقع إفصاح بفعل فليس لك أن تأتي بمصدر في غير معناه ثم تقول : أحمله على معنى كذا وكذا ، لفعل لم يتقدّم له ذكر . قال ابن عطية : هذا مَهْيَعُ كلام العرب فيما علمته . وقال النحاس :

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣٠٥ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٤٢

لو كان كما قال مجاهد لكان وتثبّتا من تثبّت كتكرّمت تكرُّما، وقول قتادة : احتسابا، لا يعرف إلا أن يراد به أن أنفسهم تثبّتهم محتسبةً، وهذا بعيد . وقول الشعبي حسن، أي تثبيتا من أنفسهم لهم على إنفاق ذلك في طاعة الله عز وجل ؛ يقال : ثبّتُّ فلانا في هذا الأمر ؛ أي صححت عزمه، وقوّيت فيه رأيه، أثبته تثبيتا، أي أنفسهم موقنة بوعْد الله على تثبيتهم في ذلك . وقيل : « وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أي يقرّون بأن الله تعالى يُثبت عليها ، أي وتثبيتا من أنفسهم لثوابها، بخلاف المنافق الذى لا يحتسب الثواب .

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ الجنة : البستان، وهي قطعة أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيها ، فهي مأخوذة من لفظ الجنّ والجنين لاستتارهم . وقد تقدّم . والرُّبوة : المكان المرتفع ارتفاعا يسيرا، معه في الأغلب كثافة تراب ، وما كان كذلك فنباته أحسن ، ولذلك خص الربوة بالذكر . قال ابن عطية : ورياض الحزن ليست من هذا كما زعم الطبري، بل تلك هي الرياض المنسوبة إلى نجْد؛ لأنها خير من رياض تهامة، ونبات نجد أعطر، ونسيمه أبرد وأرقّ، ونجد يقال لها حزن . وقلما يصلح هواء تهامة إلا بالليل؛ ولذلك قالت الأعرابية : «زوجي كليل تهامة» . وقال السدي : «بِرَبوة» أي برباوة، وهو ما انخفض من الأرض. قال ابن عطية : وهذه عبارة قلقة، ولفظ الربوة هو مأخوذ من رَبَا يرْبو إذا زاد .

قلت : عبارة السدي ليست بشيء؛ لأن بناء « رَ بَ وَ » معناه الزيادة في كلام العرب؛ ومنه الرَّبْو للنَّفس العالي . رَبَا يَرْبُو إذا أخذه الرّبو . وربا الفرس إذا أخذه الربو من عَدْو أو فزع . وقال الفرّاء في قوله تعالى : « أَخْذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١) » أي زائدة؛ كقولك : أرْبيت إذا أخذت أكثر مما أعطيت . ورَبَوْتُ في بني فلان ورَبِيت أي نشأت فيهم . وقال الخليل : الرّبْوة أرض مرتفعة طيبة وخص الله تعالى بالذكر التي لا يجرى فيها ماء من حيث العُرْف في بلاد العرب، فمثّل لهم ما يحسّونه ويدركونه . وقال ابن عباس : الرَّبْوة المكان المرتفع الذى لا تجرى فيه الأنهار؛ لأن قوله تعالى ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ إلى آخر الآية يدل على أنها ليس فيها ماء جار، ولم يرد جنس التي تجري فيها الأنهار؛ لأن الله تعالى قد ذكر ربوة

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٢

ذات قرار ومَعين . والمعروف من كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر . وفيها خمس لغات « رُبْوَةٌ » بضم الراء، وبها قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى ونافع وأبو عمرو . و « رَبْوَةٌ » بفتح الراء، وبها قرأ عاصم وابن عامر والحسن . « ورِبْوَة » بكسر الراء، وبها قرأ ابن عباس وأبو إسحاق السبيعى . و «رَبَاوَة» بالفتح، وبها قرأ أبوجعفر وأبو عبد الرحمن؛ وقال الشاعر :

مَن مُنزلِى فى رَوْضة برَباوة * بين النخيل إلى بَقيع الغَرْقَدِ؟

و « رِبَاوَة » بالكسر، وبها قرأ الأشهب العقيلى . قال الفراء : ويقال بِرَباوة و بِرِباوة، وكله من الرَّابية، وفعله رَبَا يَرْبُو .

قوله تعالى : ﴿ أَصَابَهَا ﴾ يعنى الربوة . ﴿ وَابِلٌ ﴾ أى مطر شديد؛ قال الشاعر[(١)]

ما رَوْضَةٌ من رِياض الحَزْن مُعْشِبَةٌ * خضراء جَادَ عليها وَابِلٌ هَطِلُ

﴿ فَآتَتْ ﴾ أى أعطت . ﴿ أُكُلَهَا ﴾ بضم الهمزة : الثمر الذى يؤكل؛ ومنه قوله تعالى : « تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ »[(٢)] . والشىء المأكول من كل شىء يقال له أُكُل . والأُكْلَة : اللقمة ؛ ومنه الحديث : " فإن كان الطعام مَشْفُوها[(٣)] قليلا فليضع فى يده منه[(٤)] أُكْلَة أو أُكْلَتين " يعنى لقمة أو لقمتين، خرّجه مسلم . و إضافته إلى الجنة إضافة آختصاص، كسرج الفرس و باب الدار . و إلا فليس الثمر مما تأكله الجنة . وقرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو « أُكْلَها» بضم الهمزة وسكون الكاف، وكذلك كل مضاف [إلى][(٥)] مؤنث، وفارقهما أبو عمرو فيما أضيف إلى مذكَّر مثل أُكُلَه أو كان غير مضاف إلى شىء مثل «أُكُلٍ خَمْطٍ»[(٦)] فثقّل أبوعمرو ذلك وخففاه . وقرأ عاصم

---

(١) هو أعشى ميمون : والذى فى ديوانه والطبرى واللسان والتاج فى (حزن) : مسبل هطل .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٣٥٨ (٣) المشفوه : القليل؛ وأصله الماء الذى كثرت عليه الشفاه حتى قل . وقيل : أراد فإن كان مكثورا عليه، أى كثرت أكلته . النهاية . (٤) فى الأصول : « فليطعمه منه ...» والتصويب عن صحيح مسلم . (٥) الزيادة من ابن عطية لازمة . (٦) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٥ .

وابن عامر وحمزة والكسائى فى جميع ما ذكرناه بالتثقيل . ويقال : أُكْل وأُكُل بمعنًى .
﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أى أعطت ضعفى ثمر غيرها من الأرضين . وقال بعض أهل العلم : حملت مرتين فى السنة؛ والأوّل أكثر، أى أخرجت من الزرع ما يخرج غيرها فى سنتين .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ تأكيد منه تعالى لمدح هذه الربوة بأنها إن لم يصبها وابل فإن الطل يكفيها وينوب مناب الوابل فى إخراج الثمرة ضعفين ، وذلك لكرم الأرض وطيبها . قال المبرّد وغيره : تقديره فطلٌّ يكفيها . وقال الزجاج : فالذى يصيبها طل . والطل: المطر الضعيف المستدق من القطر الخفيف؛ قاله ابن عباس وغيره، وهو مشهور اللغة. وقال قوم منهم مجاهد : الطَّلّ : النَّدَى . قال ابن عطية : وهو تجوّز وتشبيه . قال النحاس : وحكى أهل اللغة وَبَلَت وأَوْبَلَت، وطَلّت وأَطلّت . وفى الصحاح : الطَّلّ أضعف المطر والجمع الطِّلال ؛ تقول منه : طُلّت الأرض وأطلّها الندى فهى مَطْلولة . قال الماوردىّ : وزرع الطل أضعف من زرع المطر وأقل ريعا، وفيه — وإن قلّ — تماسك ونفع . قال بعضهم : فى الآية تقديم وتأخير، ومعناه كمثل جنة بربوة أصابها وابل فإن لم يصبها وابل فطل فآتت أكلها ضعفين . يعنى اخضرت أوراق البستان وخرجت ثمرتها ضعفين .

قلت : التأويل الأوّل أصوب ولا حاجة إلى التقديم والتأخير . فشبّه تعالى نمو نفقات هؤلاء المخلصين الذين يُرَبِّى الله صدقاتهم كتربية الفُلُوّ[(1)] والفَصِيل بنمو نبات الجنة بالربوة الموصوفة؛ بخلاف الصَّفْوَان الذى انكشف عنه ترابه فبقى صلدا . وخرّج مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا يتصدّق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فيربّيها كما يربّى أحدكم فُلُوّه أو فَصِيله حتى تكون مثل الجبل أو أعظم" خرّجه الموطأ أيضا .

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعد ووعيد . وقرأ الزهرىّ «يعملون» بالياء كأنه يريد به الناس أجمع، أو يريد المنفقين فقط؛ فهو وعد محض .

---

(1) الفلو : بضم الفاء وفتحها مع ضم اللام، وبكسرها مع سكون (اللام) : المهر الصغير؛ وقيل : هو الفطيم من أولاد ذات الحافر .

قوله تعالى : أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ الآية . حكى الطبرى عن السدى أن هذه الآية مَثَلٌ آخر لنفقة الرياء ، ورجح هو هذا القول .

قلت وروى عن ابن عباس أيضا قال : هذا مثل ضربه الله للرائين بالأعمال يبطلها يوم القيامة أحوج ما كان إليها ، كمثل رجل كانت له جنة وله أطفال لا ينفعونه فكبر وأصاب الجنة إعصار أى ريح عاصف فيه نار فاحترقت ففقدها أحوج ما كان إليها . وحُكى عن ابن زيد أنه قرأ قول الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » الآية ، قال : ثم ضرب فى ذلك مثلا فقال : « أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ » الآية . قال ابن عطية : وهذا أبين من الذى رجح الطبرى ، وليست هذه الآية بمَثَلٍ آخر لنفقة الرياء ؛ هذا هو مقتضى سياق الكلام . وأما بالمعنى فى غير هذا السياق فتشبه حال كل منافق أو كافر عمل عملا وهو يحسب أنه يحسن صنعا فلما جاء إلى وقت الحاجة لم يجد شيئا .

قلت : قد روى عن ابن عباس أنها مَثَلٌ لمن عمل لغير الله من منافق وكافر على ما يأتى ، إلا أن الذى ثبت فى البخارى عنه خلاف هذا . خرج البخارى عن عُبيد بن عُمير قال قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيم ترون هذه الآية نزلت « أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ فغضب عمر وقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم ! فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين ؛ قال : يابن أخى قل ولا تحقر نفسك ؛ قال ابن عباس : ضربت مثلا لعملٍ . قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لعملِ رجلٍ غنىٍّ يعمل بطاعة الله ثم بعث الله عز وجل له الشيطان فعمل

فى المعاصى حتى أحرق عمله. فى رواية : فإذا فنى عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال الشقاء؛ فرضى ذلك عمر . وروى ابن أبى مُليكة أن عمر تلا هذه الآية . وقال : هــذا مَثَلٌ ضُرب للإنسان يعمل عملا صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء . قال ابن عطية : فهذا نَظَرٌ يحمل الآية على كل ما يدخل تحت ألفاظها ؛ وبنحو ذلك قال مجاهد وقتادة والربيع وغيرهم . وخصّ النّخيل والأعناب بالذكر لشرفهما وفضلهما على سائر الشجر . وقرأ الحسن «جَنَّاتٌ» بالجمع . ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـارُ ﴾ تقدّم ذكره . ﴿ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ يريد ليس شيء من الثمار إلا وهو فيها نابت .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ﴾ عطف ماضيا على مستقبل وهو «تَكُونَ» وقيل : «يَوَدُّ» فقيل : التقدير وقد أصابه الكِبَر . وقيــل إنه محمول على المعنى؛ لأن المعنى أيودّ أحدكم أن لو كانت له جنة . وقيل : الواو واو الحال، وكذا فى قوله تعالى « وَلَهُ » .

قوله تعــالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ قال الحسن : «إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ» ريح فيها برد شــديد . الزجاج : الإعصار فى اللغة الريح الشديدة التى تَهُبّ من الأرض إلى السماء كالعمود، وهى التى يقال لها : الزوبعة . قال الجوهرىّ : الزوبعة رئيس من رؤساء الجن؛ ومنه سُمّىَ الإعصار زوبعة . ويقال : أمّ زوبعة ، وهى ريح تُثير الغبار وترتفع إلى السماء كأنها عمود . وقيل : الإعصار ريح تثير سحابا ذا رعد وبرق . المَهْدَوىّ : قيل لهـا إعصار لأنها تلتفّ كالثوب إذا عُصر . ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل هو صحيح ؛ لأنه المشاهد المحسوس، فإنه يصعد عمودا مُلْتَفًّا . وقيل : إنما قيل للريح إعصار؛ لأنه يعصر السحاب، والسحاب مُعْصِرات إمّا لأنها حوامل فهى كالمعصر(١) من النساء . وإمّا لأنها تنعصر بالرياح . وحكى ابن سِيدَه : أن المعصرات فسرها قوم بالرياح لا بالسحاب . ابن زيد : الإعصار ريح عاصف وسَموم شــديدة ؛ وكذلك قال السدى : الإعصار الريح والنار السَّموم . ابن عباس : ريح فيها سموم شديدة . قال ابن عطية : ويكون

(١) المعصر : التى هى عرضة للحمل من النساء .

ذلك فى شدّة الحرّ و يكون فى شدّة البرد ، وكل ذلك من فَيْح (١) جهنم ونفَسها؛ كما تضمن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا اشتدّ الحرّ فأبردوا عن الصلاة فإن شدّة الحرّ من فَيْح جهنم" و"إن النار اشتكت إلى ربها" الحديث . وروى عن ابن عباس وغيره : أن هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكافرين والمنافقين، كهيئة رجل غرس بستانا فأكثر فيه من الثمر فأصابه الكِبَر وله ذرّية ضعفاء ـــ يريد صبيانا بنات وغلمانا ـــ فكانت معيشته ومعيشة ذرّيته من ذلك البستان، فأرسل الله على بستانه ريحا فيها نار فأحرقته ، ولم يكن عنده قوة فيغرسه ثانية، ولم يكن عند بنيه خير فيعودون على أبيهم . وكذلك الكافر والمنافق إذا ورد إلى الله تعالى يوم القيامة ليست له كرّة يُبعث فيرد ثانية ، كما ليست عند هذا قوة فيغرس بستانه ثانية ، ولم يكن عنده من افتقر إليه عند كِبَر سنه وضعف ذريته غِنًى عنه .

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ يريد كى ترجعوا إلى عظمتى وربوبيتى ولا تتخذوا من دونى أولياء . وقال ابن عباس أيضا : تتفكرون فى زوال الدنيا وفنائها و إقبال الآخرة وبقائها .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا ﴾ هذا خطاب لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم . واختلف العلماء فى المعنى المراد بالإنفاق هنا ؛ فقال علىّ بن أبى طالب وعبيدة السلمانىّ وابن سيرين : هى الزكاة المفروضة، نهى الناس عن إنفاق الردىء فيها بدل الجيّد . قال ابن عطية : والظاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أن الآية فى التطوع، ندبوا إلى

(١) الفيح : سطوع الحرّ وفورانه .

ألّا يتطوعوا إلا بمختار جيّد . والآية تعم الوجهين ؛ لكن صاحب الزكاة تعلّق بأنها مأمور بها والأمر على الوجوب ، وبأنه نهى عن الرديء وذلك مخصوص بالفرض ، وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بالقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر ، ودرهمٌ خير من تمرة . تمسك أصحاب النّدب بأن لفظة افْعَلْ صالح للنّدب صلاحيته للفرض ، والرديء منهيٌّ عنه في النفل كما هو منهيٌّ عنه في الفرض ، والله أحق من اختير له . وروى البراء أن رجلا علّق قِنْوَ حَشَفٍ(١) ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " بئسما علّق " فنزلت الآية ؛ خرّجه الترمذيّ وسيأتي بكماله . والأمر على هذا القول على الندب ، ندبوا إلى ألّا يتطوعوا إلا بجيّد مختار . وجمهور المتأولين قالوا : معنى « مِنْ طَيِّبَاتِ » من جيد ومختار « مَا كَسَبْتُمْ » . وقال ابن زيد : من حلال « مَا كَسَبْتُمْ » .

الثانيــة ــ الكسب يكون بتعب بدن وهي الإجارة وسيأتي حكمها ، أو مقاولة في تجارة وهو البيع وسيأتي بيانه . والميراث داخل في هذا ؛ لأن غير الوارث قد كسبه . قال سهل بن عبد الله : وسئل ابن المبارك عن الرجل يريد أن يكتسب وينوي باكتسابه أن يصل به الرحم وأن يجاهد ويعمل الخيرات ويدخلَ في آفات الكسب لهذا الشأن . قال : إن كان معه قَوام من العيش بمقدار ما يكفّ(٢) نفسه عن الناس فتركُ هذا أفضل ؛ لأنه إذا طلب حلالا وأنفق في حلال سئل عنه وعن كسبه وعن إنفاقه ؛ وترك ذلك زهد فإن الزهد في ترك الحلال .

الثالثــة ــ قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولهذه الآية جاز للوالد أن يأكل من كسبِ ولده ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أولادكم من طيّب أكسابكم فكلوا من أموال أولادكم هنيئا " .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يعني النبات والمعادن والرِّكاز ، وهذه أبواب ثلاثة تضمّنتها هذه الآية . أما النبات فروى الدّارَقُطْنِيّ عن عائشة رضي الله عنها قالت : جرت السُّنّة من رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس فيما دون خمسة

---

(١) القنو : العذق وهو عنقود النخلة ؛ الشماريخ مثمرة . والحشف : التمر يجف قبل النضج فيكون رديئا وليس له لحم .
(٢) في ج و ب : يكفي .

أَوْسُق زكاة". والوَسْق ستون صاعا، فذلك ثلاثمائة صاع من الحنطة والشعير والتمر والزبيب. وليس فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة . وقد احتج قوم لأبى حنيفة بقول الله تعالى : « وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » وإن ذلك عمومٌ فى قليل ما تُخرجه الأرض وكثيره وفى سائر الأصناف، ورأوا ظاهر الأمر الوجوب . وسيأتى بيان هذا فى «الأنعام»(١) مستوفًى . وأما المعدن فروى الأئمة عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العجماء(٢) جَرحها جُبَار والبئر جُبَار والمعْدن جُبَار وفى الرّكاز الخمس" . قال علماؤنا : لما قال صلى الله عليه وسلم : "وفى الرّكاز الخُمُس" دلّ على أن الحكم فى المعادن غير الحكم فى الركاز؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قد فصل بين المعادن والرّكاز بالواو الفاصلة، ولو كان الحكم فيهما سواء لقال والمعدن جُبَار وفيه الخمس، فلما قال "وفى الركاز الخمس" عُلم أن حكم الرِّكاز غير حكم المعدن فيما يؤخذ منه، والله أعلم .

والرّكاز أصله فى اللغة ما ارتكز بالأرض من الذهب والفضة والجواهر، وهو عند سائر الفقهاء كذلك؛ لأنهم يقولون فى النَّدْرة(٣) التى توجد فى المعدن مرتكزة بالأرض لا تُنال بعمل ولا بسَعْى ولا نَصب، فيها الخمُس؛ لأنها رِكاز. وقد رُوى عن مالك أن الندرة فى المعدن حكمها حكم ما يُتكلّف فيه العمل مما يُستخرج من المعدن فى الرّكاز؛ والأوّل تحصيل مذهبه وعليه فتوى جمهور الفقهاء . وروى عبد الله بن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرِىّ عن أبيه عن جده عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الركاز قال : "الذهب الذى خلق الله فى الأرض يوم خلق السموات والأرض". عبدالله بن سعيد هذا متروك الحديث ، ذكر ذلك ابن أبى حاتم . وقد رُوى من طريق أخرى عن أبى هريرة ولا يصح ، ذكره الدَّارَقُطْنِىّ . ودَفْن(٤) الجاهلية لأموالهم عند جماعة العلماء ركاز أيضا لا يختلفون فيه إذا كان

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٤٧ (٢) العجماء : البهيمة . وجبار : هدر . والمعدن : المكان من الأرض يخرج منه شىء من الجواهر والأجساد كالذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والكبريت وغيرها ؛ من عدن بالمكان إذا أقام به . ومعنى الحديث أن تنفلت البهيمة فتصيب من انفلاتها إنسانا أو شيئا فجرحها هدر، وكذلك البئر العادية يسقط فيها إنسان فيهلك فدمه هدر، والمعدن إذا انهار على من يحفره فقتله فدمه هدر . راجع معاجم اللغة وكتب السنة .
(٣) الندرة (بفتح فسكون) : القطعة من الذهب والفضة توجد فى المعدن . (٤) فى هـ : دفين .

دفنه قبل الإســلام من الأموال العادية ، وأما ما كان من ضرب الإسـلام فحكمه عندهم حكم اللُّقَطَــة .

الخامســة — واختلفوا فى حكم الركاز إذا وُجد، فقال مالك: ما وُجد من دَفْن الجاهلية فى أرض العرب أو فى فَيَافِى الأرض التى ملكها المسلمون بغير حرب فهو لواجده وفيه الخمس؛ وأما ما كان فى أرض الإسـلام فهو كاللقطة . قال : وما وُجد من ذلك فى أرض العَنْـوة فهو للجماعة الذين افتتحوها دون واجده ، وما وُجد من ذلك فى أرض الصُّلْح فإنه لأهل تلك البلاد دون الناس ، ولا شىء للواجد فيه إلا أن يكون من أهل الدار فهو له دونهم . وقيل : بل هو لجملة أهل الصلح . قال إسمعيل : وإنما حكم للركاز بحكم الغنيمة لأنه مالُ كافرٍ وجده مسلم فأنزل منزلة من قاتله وأخذ ماله ، فكان له أربعة أخماسه . وقال ابن القاسم : كان مالك يقول فى العُروض والجواهر والحديد والرصاص ونحوه يُوجد ركازًا : إنّ فيه الخمس ثم رجع فقال : لا أرى فيه شيئا ، ثم آخر ما فارقناه أن قال : فيه الخمس . وهو الصحيح لعموم الحديث وعليه جمهور الفقهاء . وقال أبو حنيفــة ومحمد فى الركاز يوجد فى الدار : إنه لصاحب الدار دون الواجد وفيه الخمس . وخالفه أبو يوسف فقال : إنه للواجد دون صاحب الدار، وهو قول الثورىّ . وإن وجد فى الفَلاة فهو للواجد فى قولهم جميعا وفيه الخمس . ولا فرق عندهم بين أرض الصلح وأرض العَنْوة ، وسواء عنـدهم أرض العرب وغيرها ، وجائز عندهم لواجده أن يحتبس الخمس لنفسه إذا كان محتاجا وله أن يعطيه للمساكين . ومن أهل المدينـة وأصحاب مالك من لا يفرق بين شىء من ذلك وقالوا : سواء وجد الركاز فى أرض العَنْوة أو فى أرض الصلح أو أرض العرب أو أرض الحـرب إذا لم يكن مِلْكا لأحد ولم يَدّعه أحد فهو لواجده وفيه الخُمُس على عموم ظاهر الحديث ، وهو قول اللّيث وعبد الله بن نافع والشافعىّ وأكثر أهل العـلم .

السادســة — وأما ما يوجد من المعادن ويخرج منها فاختلف فيه ؛ فقال مالك وأصحابه : لا شىء فيما يخرج من المعادن من ذهب أو فضة حتى يكون عشرين مثقالا ذهبا أو خمس

أواق فضة ، فإذا بلغتا هذا المقدار وجبت فيهما الزكاة ؛ وما زاد فبحساب ذلك ما دام في المعدن نَيْلٌ؛ فإن انقطع ثم جاء بعد ذلك نيل آخر فإنه تبتدأ فيه الزكاة مكانه . والرِّكَازُ عندهم بمنزلة الزرع تؤخذ منه الزكاة في حينه ولا يُنْتَظَر به حَوْلًا . قال سُحنون في رجل له معادن : إنه لا يضم ما في واحد منها إلى غيرها ولا يزكى إلا عن مائتي درهم أو عشرين دينارا في كل واحد . وقال محمد بن مسلمة : يضم بعضها إلى بعض ويزكى الجميع كالزرع . وقال أبو حنيفة وأصحابه : المعدن كالركاز، فما وجد في المعدن من ذهب أو فضة بعد إخراج الخمس اعتبر كل واحد منهما، فمن حصل بيده ما تجب فيه الزكاة زكّاه لتمام الحول إن أتى عليه حول وهو نصاب عنده؛ هذا إذا لم يكن عنده ذهب أو فضة وجبت فيه الزكاة. فإن كان عنده من ذلك ما تجب فيه الزكاة ضمه إلى ذلك وزكّاه . وكذلك عندهم كل فائدة تضم في الحول إلى النصاب من جنسها وتزكّى لحول الأصل؛ وهو قول الثوري. وذكر المُزَنِيّ عن الشافعي قال: وأما الذي أنا واقف فيه فما يخرج من المعادن. قال المُزَنِيّ: الأولى به على أصله أن يكون ما يخرج من المعدن فائدة يُزكّى بحوله بعد إخراجه. وقال اللّيث بن سعد: ما يخرج من المعادن من الذهب والفضة فهو بمنزلة الفائدة يستأنف به حولا ؛ وهو قول الشافعيّ فيما حصّله المُزَنِيّ من مذهبه، وقال به داود وأصحابه إذا حال عليها الحول عند مالك صحيح المِلْك ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: "من استفاد مالًا فلا زكاة عليه حتى يحول عليه الحول" أخرجه التّرمذيّ والدّارَقُطْنِيّ . واحتجوا أيضا بما رواه عبد الرحمن بن أَنْعُم عن أبي سعيد الخدري أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أعطى قوما من المُؤَلَّفة قلوبهم ذُهَيبة[1] في تربتها ، بعثها عليّ رضي الله عنه من اليَمَن . قال الشافعيّ : والمؤلّفة قلوبُهم حقّهم في الزكاة؛ فتبيّن بذلك أن المعادن سُنّتُها سُـنّة الزكاة . وحجة مالك حديثُ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أقطع بلالَ بنَ الحارث المعادنَ القَبَلِيّة[2] وهي من ناحية الفُرْع[2]، فتلك المعادن لا يؤخذ منها إلى اليوم إلا الزكاة . وهذا

---

(١) هي تصغير ذهب؛ وأدخل الهاء فيها لأن الذهب يؤنث، والمؤنث الثلاثي إذا صغر ألحق في تصغيره الهاء نحو شميسة . وقيل : هو تصغير على نية القطعة منها فصغرها على لفظها .
(٢) القبلية (بالتحريك) : منسوبة إلى قبل موضع من ساحل البحر على خمسة أيام من المدينة . والفرع (بضم فسكون) : قرية من نواحي الربذة عن يسار السقيا بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة، وقيل أربع ليال، بها منبر ونخل ومياه كثيرة .

حديث منقطع الإسناد لا يحتج بمثله أهل الحديث، ولكنه عمل يُعمل به عندهم في المدينة . ورواه الدَّرَاوَرْدِيّ عن ربيعة عن الحارث بن بلال المُزَنِيّ عن أبيه . ذكره البزّار، ورواه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أقطع بلالَ بنَ الحارث المعادنَ القَبَلِيّة جَلْسِيّها وغَوْرِيّها[(١)] . وحيث يصلُح للزرع من قُدْس[(٢)] ولم يُعطه حقّ مُسْلم ؛ ذكره البزار أيضا ، وكثير مجمَعٌ على ضعفه . هذا حكم ما أخرجته الأرض، وسيأتي في سورة « النحل » حكم ما أخرجه البحر إذ هو قَسيم الأرض[(٣)] . ويأتي في « الأنبياء » معنى قوله عليه السلام : "العَجْماء جَرْحها جُبار"[(٤)] كلّ في موضعه إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ تيمموا معناه تقصدوا، وستأتي الشواهد من أشعار العرب في أن التيمم القَصْد في « النساء »[(٥)] إن شاء الله تعالى . ودلّت الآية على أن المكاسب فيها طيب وخبيث . وروى النسائي عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف في الآية التي قال الله تعالى فيها : « وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » قال : هو الجُعْرور ولَوْن حُبَيق[(٦)] ؛ فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخذا في الصدقة . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة فجاء رجل من هذا السُّحُّل[(٧)] بكبائس — قال سفيان : يعني الشِّيص — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن جاء بهذا" ؟! وكان لا يجيء أحد بشيء إلا نُسب إلى الذي جاء به . فنزلت : « وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » . قال : ونَهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الجُعْرور ولَوْن الحُبَيق أن يؤخذا في الصدقة — قال الزهريّ : لونين من

---

(١) الجلس (بفتح فسكون) : كل مرتفع من الأرض . والغور : ما انخفض منها .

(٢) القدس (بضم القاف وسكون الدال) : جبل معروف . وقيل : هو الموضع المرتفع الذي يصلح للزراعة .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٨٥ (٤) راجع جـ ١١ ص ٣١٥ (٥) راجع جـ ٥ ص ٢٣١

(٦) الجعرور (بضم الجيم وسكون العين وراء مكررة) : ضرب رديء من التمر يحمل رطبا صغارا لا خير فيه . وحبيق (بضم الحاء المهملة وفتح الباء) : نوع رديء من التمر منسوب إلى ابن حبيق وهو اسم رجل .

(٧) السحل (بضم السين وفتح الحاء مشددة) : الرطب الذي لم يتمّ إدراكه وقوّته .

تمر المدينة ــ وأخرجه الترمذي من حديث البراء وصححه، وسيأتي . وحكى الطبري والنحاس أن في قراءة عبد الله « وَلَا تَأَمَّمُوا » وهما لغتان . وقرأ مسلم بن جُندب « وَلَا تُيَمِّمُوا » بضم التاء وكسر الميم . وقرأ ابن كثير « تَّيمموا » بتشديد التاء . وفي اللفظة لغات ، منها « أَمَمْتُ الشيء » مخففة الميم الأولى و « أممته » بشدها، و«يمَّمْته وتيَمَّمْته» . وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ « ولا تُؤَمِّموا » بهمزة بعد التاء المضمومة .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ قال الجُرجاني في كتاب « نظم القرآن » : قال فريق من الناس : إن الكلام تم في قوله تعالى « الْخَبِيثَ » ثم ابتدأ خبرا آخر في وصف الخبيث فقال : « مِنْهُ تُنْفِقُونَ » وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم أي تساهلتم ؛ كأن هذا المعنى عتاب للناس وتقريع . والضمير في « منـه » عائد على الخبيث وهو الدون والرديء . قال الجرجاني : وقال فريق آخر : الكلام متصل إلى قوله « مِنْهُ » ؛ فالضمير في « منه » عائد على « مَا كَسَبْتُمْ » ويجيء « تُنْفِقُونَ » كأنه في موضـع نصب على الحـال ؛ وهو كقولك : أنا أخرج أجاهد في سبيل الله .

التاســعة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ أي لستم بآخذيه في ديونكم وحقوقكم من الناس إلا أن تتساهلوا في ذلك وتتركوا من حقوقكم ، وتكرهونه ولا ترضونه . أي فلا تفعـلوا مع الله ما لا ترضـونه لأنفسكم ؛ قال معنـاه البراء بن عازب وابن عباس والضحاك . وقال الحسن : معنى الآية : ولستم بآخذيه ولو وجدتموه في السوق يبـاع إلا أن يهضم لكم من ثمنـه . وروي نحوه عن علي رضي الله عنه . قال ابن عطية : وهذان القولان يشبهان كون الآية في الزكاة الواجبة . قال ابن العربي : لو كانت في الفرض لمـا قال « وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ » لأن الرديء والمعيب لا يجوز أخذه في الفرض بحال، لا مع تقدير الإغماض ولا مع عدمه ، وإنمـا يؤخذ مع عدم إغماض في النفـل . وقال البراء بن عازب أيضا معناه : « وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ » لو أهدي لكم « إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيـهِ » أي تستحي من المُهدي فتقبل منـه ما لا حاجة لك به ولا قدر له في نفسه . قال ابن عطية : وهـذا يشبه كون الآية في التطوع . وقال ابن زيد : ولستم بآخذي الحرام إلا أن تغمضوا في مكروهه .

العاشـرة ـــ قوله تعـالى : ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ كذا قراءة الجمهور ، من أغمض الرجل فى أمر كذا إذا تساهل فيه ورضى ببعض حقه وتجاوز ؛ ومن ذلك قول الطِّرِمّاح :

لم يَفُتْنـا بالوِتْر قـومٌ وللـذُّ ... لِّ أناسٌ يَرضَوْنَ بالإغماضِ

وقد يحتمل أن يكون منتزعا إمّا من تغميض العين؛ لأن الذى يريد الصبر على مكروه يغمض عينيه ـــ قال :

إلى كَمْ وكَمْ أشـياءَ منك تُرِيبُنِى ... أُغَمِّضُ عنها لستُ عنها بذى عَمَى

وهذا كالإغضاء عند المكروه . وقد ذكر النقّاش هذا المعنى فى هذه الآية وأشار إليه مكّىّ ـ. وإمّا من قول العرب : أغمض الرجل إذا أتى غامضا من الأمر ؛ كما تقول : أعْمَن أى أتى عُمَان ، وأعْرَق أى أتى العراق، وأنجد وأغور أى أتى نجدا والغور الذى هو تِهامة؛ أى فهو يطلب التأويل على أخذه . وقرأ الزُّهرِىّ بفتح التاء وكسر الميم مخففا، وعنه أيضا « تُغَمِّضوا » بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم وشدّها . فالأولى على معنى تهضموا سومها من البائع منكم فيحطّكم . والثانية، وهى قراءة قتادة فيما ذكر النحاس، أى تأخذوا بنقصان . وقال أبو عمرو الدّانىّ : معنى قراءتَى(1) الزُّهرِىّ حتى تأخذوا بنقصان . وحكى مكّىّ عن الحسن « إلّا أنْ تُغَمَّضوا » مشدّدة الميم مفتوحة . وقرأ قتادة أيضا « تُغْمَضوا » بضم التـاء وسكون الغين وفتح الميم مخففا . قال أبو عمرو الدّانىّ : معنـاه إلا أن يغمض لكم ؛ وحكاه النحاس عن قتادة نفسه . وقال ابن جِنّى : معنـاها تُوجَدُوا قد غمضتم فى الأمر بتأوّلكم أو بتساهلكم وجريتم على غير السابق إلى النفوس . وهذا كما تقول : أحمدت الرجل وجدته محمودا ، إلى غير ذلك من الأمثلة . قال ابن عطيّة : وقراءة الجمهور تخرج على التجاوز وعلى تغميض العين ؛ لأن أغمض بمنزلة غمّض . وعلى أنها بمعنى حتى تأتوا غامضا من التأويل والنظر فى أخذ ذلك ؛ إما لكونه حراما على قول ابن زيد، وإما لكونه مُهْـدًى أو مأخوذا فى دَيْن على قول غيره .

---

(1) فى ب و جـ .

وقال المَهْدَوِيّ: ومن قرأ «تُغَمِّضُوا» فالمعنى تُغَمِّضُون أعينَ بصائركم عن أخذه. قال الجوهريّ: وغَمَّضْتُ عن فلان إذا تساهلت عليه فى بيع أو شراء وأَغْمَضْت، وقال تعالى: «وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ». يقال: أَغْمِض لى فيما بعتنى، كأنك تريد الزيادة منه لرداءته والحطَّ من ثمنه. و«أن» فى موضع نصب، والتقدير إلا بأن.

الحادية عشرة ــ قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ نبّه سبحانه وتعالى على صفة الغنى، أى لا حاجة به إلى صدقاتكم؛ فمن تقرب وطلب مثوبةً فليفعل ذلك بما له قَدْرٌ وبَالٌ، فإنما يقدّم لنفسه. و«حَمِيدٌ» معناه محمود فى كل حال. وقد أتينا على معانى هذين الاسمين فى «الكتاب الأسنى» والحمد لله. قال الزجاج فى قوله «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»: أى لم يأمركم أن تصدّقوا من عَوَز ولكنه بَلَا أخباركم فهو حميد على ذلك على جميع نِعَمه.

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ــ قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ (١) تقدّم معنى الشيطان واشتقاقه فلا معنى لإعادته. و«يَعِدُكُمُ» معناه يخوفكم «الفَقْر» أى بالفقر لئلا تُنفقوا. فهذه الآية متصلة بما قبلُ، وأن الشيطان له مدخل فى التثبيط للإنسان عن الإنفاق فى سبيل الله، وهو مع ذلك يأمر بالفحشاء وهى المعاصى والإنفاق فيها. وقيل: أى بأن (٢) لا تتصدّقوا فتعصوا وتتقاطعوا. وقرئ «الفُقْرَ» بضم الفاء وهى لغة. قال الجوهريّ: والفُقْر لغة فى الفَقْر، مثل الضُّعف والضَّعف.

الثانيــة ــ قوله تعــالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ الوَعْد فى كلام العرب إذا أطلق فهو فى الخير، وإذا قُيّد بالموعود ما هو فقد يقدّر بالخير وبالشر كالبشارة. فهذه الآية مما يقيد فيها الوعد بالمعنيين جميعا. قال ابن عباس: فى هــذه الآية اثنتان من الله تعالى واثنتان من الشيطان. وروى الترمذيّ عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع المسألة العاشرة جـ ١ ص ٩٠ (٢) فى ب.

عليه وسلم : " إن للشيطان لَمَّة(١) بابن آدم وللملك لَمَّة فأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيبٌ بالحق وأما لَمَّة المَلَك فإيعادٌ بالخير وتصديقٌ بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان — ثم قرأ — الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ". قال : هذا حديث حسن صحيح(٢) . ويجوز فى غير القرآن « ويأمركم الفحشاء » بحذف الباء ؛ وأنشد سيبويه :

أمرتُك الخيرَ فافعل ما أمرتَ به * فقد تركتك ذا مالٍ وذا نَشَب

والمغفرة هى السّتر على عباده فى الدنيا والآخرة . والفضل هو الرزق فى الدنيا والتوسعة والنعيم فى الآخرة ؛ وبكلٍّ قد وعد الله تعالى .

الثالثة — ذكر النقاش أن بعض الناس تأنّس بهذه الآية فى أن الفقر أفضل من الغنى؛ لأن الشيطان إنما يُبعد العبد من الخير، وهو بتخويفه الفقر يُبعد منه . قال ابن عطية : وليس فى الآية حجة قاطعة بل المعارضة بها قويّة . ورُوى أن فى التوراة "عبدى أنفق من رزقى أَبْسُطْ عليك فضلى فإن يدى مبسوطة على كل يد مبسوطة" . وفى القرآن مصداقه وهو قوله : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣) » . ذكره ابن عباس .
﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ تقدم معناه(٤) . والمراد هنا أنه سبحانه وتعالى يُعطى من سَعة ويعلم حيث يضع ذلك، ويعلم الغيب والشهادة . وهما اسمان من أسمائه ذكرناهما فى جملة الأسماء فى « الكتاب الأسنى » والحمد لله .

قوله تعالى : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

---

(١) اللمة (بفتح اللام) : الهمة والخطرة تقع فى القلب . أراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه ؛ فما كان من خطرات الخير فهو من الملك ، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان . (عن نهاية ابن الأثير).

(٢) كذا فى الأصول . والذى فى سنن الترمذى : « ... حسن غريب » .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧ . (٤) راجع المسألة الخامسة جـ ٢ ص ٨٤ .

قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يعطيها لمن يشاء من عباده . وٱختلف العلماء فى الحكمة هنا ؛ فقال السدّى : هى النبوّة . ابن عباس : هى المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدّمه ومؤخره . وقال قتادة ومجاهد : الحكمة هى الفقه فى القرآن . وقال مجاهد : الإصابة فى القول والفعل . وقال ابن زيد : الحكمة العقل فى الدِّين . وقال مالك بن أنس : الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتّباع له . وروى عنه ابن القاسم أنه قال : الحكمة التفكر فى أمر الله والاتّباع له . وقال أيضا : الحكمة طاعة الله والفقهُ فى الدِّين والعملُ به . وقال الربيع بن أنس : الحكمة الخشية . وقال إبراهيم النَّخَعِىّ : الحكمة الفهم فى القرآن ؛ وقاله زيد بن أسلم . وقال الحسن : الحكمة الورع .

قلت : وهذه الأقوال كلها ماعدا قول السُّدّى والربيع والحسن قريب بعضها من بعض ؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان فى قول أو فعل ؛ فكل ما ذُكر فهو نوع من الحكمة التى هى الجنس ؛ فكتاب الله حِكمة ، وسُنّة نبيّه حكمة ، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة . وأصل الحكمة ما يمتنع به من السَّفَه ؛ فقيل للعلم حكمة ؛ لأنه يُمتنع به ، وبه يعلم الإمتناع من السَّفه وهو كل فعل قبيح ، وكذا القرآن والعقل والفهم . وفى البخارى : "من يُرِد الله به خيرا يفقّهه فى الدين" وقال هنا : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » وكرر ذِكر الحكمة ولم يضمرها اعتناءً بها ، وتنبيها على شرفها وفضلها حسب ما تقدّم بيانه عند قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا »(١) . وذكر الدّارمىّ أبو محمد فى مسنده : حدّثنا مروان بن محمد حدّثنا رِفْدة الغسّانىّ قال أخبرنا ثابت بن عجلان الأنصارىّ قال : كان يقال : إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم المعلّم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم . قال مروان : يعنى بالحكمة القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ يقال : إن من أُعطِىَ الحكمة والقرآن فقد أُعطِىَ أفضل ما أعطى من جمع علم كتب الأوّلين

---

(١) راجع المسألة الثالثة جـ ١ ص ٤١٦

من الصحف وغيرها؛ لأنه قال لأولئك : « وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »(١) . وسمى هذا خيرا كثيرا ؛ لأن هذا هو جوامع الكلم . وقال بعض الحكماء : من أعطى العلم والقرآن ينبغى أن يعرف نفسه ، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم ؛ فإنما أعطى أفضل ما أعطى أصحاب الدنيا؛ لأن الله تعالى سمّى الدنيا متاعا قليلا فقال : «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ»(٢) . وسمى العلم والقرآن «خيرا كثيرا» . وقرأ الجمهور «وَمَن يُؤْتَ» على بناء الفعل للفعول . وقرأ الزهرى ويعقوب « ومن يؤتِ » بكسر التاء على معنى ومن يؤت الله الحكمة ، فالفاعل اسم الله عز وجل . و « مَنْ » مفعول أول مقدم ، والحكمة مفعول ثان . والألباب : العقول ، واحدها لُبّ وقد تقدّم(٣) .

قوله تعالى : وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

شرط وجوابه ، وكانت النذور من سيرة العرب تكثر منها ؛ فذكر الله تعالى النوعين ، ما يفعله المرء متبرعا ، وما يفعله بعد إلزامه لنفسه . وفى الآية معنى الوعد والوعيد ، أى من كان خالص النية فهو مُثاب ، ومن أنفق رياء أو لمعنًى آخر مما يكسبه المنّ والأذى ونحو ذلك فهو ظالم ، يذهب فعله باطلا ولا يجد له ناصرا فيه . ومعنى « يَعْلَمُهُ » يُحصيه ؛ قاله مجاهد . ووحّد الضمير وقد ذكر شيئين ، فقال النحاس : التقدير ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ ﴾ فإن الله يعلمها ، ﴿ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ ثم حذف . ويجوز أن يكون التقدير : وما أنفقتم فإن الله يعلمه وتعود الهاء على « ما » كما أنشد سيبويه [لامرئ القيس](٤) :

فتُوضِحَ فالمِقراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها ... لِما نَسَجَتْها من جَنُوبٍ وشَمْأَلِ(٥)

ويكون « أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ » معطوفا عليه . قال ابن عطيّة : ووحّد الضمير فى « يعلمه » ، وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذُكر أو نُصّ .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٣ (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨١ (٣) راجع المسألة الرابعة عشرة جـ ٢ ص ٤١٢
(٤) الزيادة فى ب . (٥) وتوضح والمقراة : موضعان ، وهما عطف على « حومل » فى البيت قبله .

قلت : وهـذا حسن : فإن الضمير قد يراد به جميع المذكور و إن كَثُر . والنَّذْر حقيقةُ العبارةِ عنه أن تقول : هو ما أوجبه المكلَّف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه؛ تقول : نذر الرجل كذا إذا التزم فعله، ينذر (بضم الذال) وينـذِر (بكسرها) . وله أحكام يأتي بيانها في غير هذا الوضع إن شاء الله تعالى(١) .

قوله تعـالى : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع ؛ لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار ، وكذلك سائر العبـادات الإخفاءُ أفضل في تطوعها لانتفاء الرياء عنها ، وليس كذلك الواجبات . قال الحسن : إظهار الزكاة أحسن، و إخفاء التطوع أفضل؛ لأنه أدلّ على أنه يراد الله عز وجل به وحده . قال ابن عباس : جعـل الله صدقة السر في التطوع تفضُل علانيتها يقال بسبعين ضِعفا ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سِرِّها يقال بخمسة وعشرين ضِعفا . قال : وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها .

قلت : مِثل هذا لا يقال من جهة الرأي و إنما هو توقيف ؛ وفي صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة(٢)" وذلك أن الفرائض لا يدخلها رِياء والنوافل عُرضة لذلك . وروى النّسائيّ عن عقبة بن عامر أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الذي يجهر بالقرآن كالذي يجهر بالصدقة والذي يُسِرّ بالقرآن كالذي يُسِرّ بالصدقة " . وفي الحديث : " صدقة السرّ تُطفِئ غضب الربّ " .

قال ابن العربيّ : « وليس في تفضيل صـدقة العلانية على السر، ولا تفضيل صدقة السر على العلانية حديث صحيح ولكنه الإجماع الثابت ؛ فأمّا صدقة النفل فالقرآن ورد مصرِّحا

(١) راجع جـ ١٩ ص ١٢٥ (٢) عبارة مسلم كما في صحيحه « ... فإن خير صـلاة المرء في بيتـه إلا الصلاة المكتوبة » .

بأنها فى السر أفضل منها فى الجهر، بَيْدَ أن علماءنا قالوا : إن هـذا على الغالب مخرجه ، والتحقيق فيه أن الحال [فى الصـدقة][1] تختلف بحال المُعْطِى [لهـا][1] والمعطَى إياها والناس الشاهدين [لهـا][1] . أما المعطِى فله فيها فائدة إظهار السُّنّة وثواب القدوة .

قلت : هذا لمن قَوِيت حاله وحسنت نيّته وأمِن على نفسه الرياء، وأما من ضعف عن هذه المرتبة فالسرّ له أفضل .

وأما المُعْطَى إياها فإن السرّ له أسلم من احتقار الناس له ، أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنَى عنها وتَرْك التعفّف ، وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم، من جهة أنهم ربمـا طعنوا على المعطِى لهـا بالرياء وعلى الآخذ لهـا بالاستغناء ، ولهم فيها تحريك القـلوب إلى الصدقة؛ لكن هذا اليوم قليل » .

وقال يزيد بن أبى حبيب : إنمـا نزلت هذه الآية فى الصـدقة على اليهود والنصارى ، فكان يأمر بقَسْم الزكاة فى السرّ . قال ابن عطيّة : وهذا مردود ، لا سيّما عند السلف الصالح؛ فقد قال الطبرى : أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل .

قلت : ذكر الكِيَا الطبرى أن فى هـذه الآية دلالة على قول إخفاء الصدقات مطلقا أوْلى، وأنها حق الفقير وأنه يجوز لرب المـال تفريقها بنفسه، على ماهو أحدُ قولى الشافعى. وعلى القول الآخر ذكروا أن المراد بالصدقات ها هنا التطوع دون الفرض الذى إظهاره أوْلى لئلا يلحقَه تُهمة؛ ولأجل ذلك قيل : صلاة النفل فُرَادَى أفضل، والجماعة فى الفرض أبعد عن التُّهَمة . وقال المَهْدَوِى : المراد بالآية فرض الزكاة وما تطوع به ، فكان الإخفاء أفضـل فى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم ساءت ظنون الناس بعد ذلك ، فاستحسن العلماء[2] إظهار الفرائض لئلا يُظَنَّ بأحد المنع. قال ابن عطيّة : وهذا القول مخالف للآثار ، ويشبه فى زماننا أن يحسن التستر بصدقة الفرض ، فقد كثر المـانع لها وصار إخراجها عُرضة للرياء . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: وقد يجوز أن يراد بالآية الواجبات من الزكاة والتطوع ؛ لأنه ذكر الإخفاء

(١) الزيادة عن ابن العربى . (٢) فى ب : الناس .

ومدحه والإظهار ومدحه ، فيجوز أن يتوجه إليهما جميعا . وقال النقاش : إن هذه الآية نسخها قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً » الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ ثناء على إبداء الصدقة، ثم حكم على أن الإخفاء خير من ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطُنع إليك فانشره . قال دِعْبِل الخُزَاعِيّ :

إذا انتقموا أعلنُوا أمرَهم * وإن أنعموا أنْعَمُوا باكْتِتام

وقال سهل بن هارون :

خِلٌّ إذا جِئْتَه يوما لتسألَه * أعطاك ماملكتْ كفّاه واعتذرَا

يُخْفِي صنائعَه واللهُ يُظْهِرها * إن الجميل إذا أخفيتَه ظهَرَا

وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : لا يتمّ المعروف إلا بثلاث خصال : تعجيلُه وتصغيرُه وستْرُه ؛ فإذا أعجلته هنيته ، وإذا صغّرته عظّمته ، وإذا سترته أتْمَمْته . وقال بعض الشعراء فأحسن :

زاد معروفُك عندى عظَماً * أنه عندك مستورٌ حقيرْ

تَتَنَاساه كأنْ لَمْ تأته * وهو عند الناس مشهور خطيرْ

واختلف القراء فى قوله « فَنِعِمَّا هِيَ » فقرأ أبو عمرو ونافع فى رواية ورش وعاصم فى رواية حفص وابن كثير «فَنِعِمَّا هِيَ» بكسر النون والعين . وقرأ أبو عمرو أيضا ونافع فى غير رواية ورش وعاصم فى رواية أبى بكر والمفضل « فنِعْمَا » بكسر النون وسكون العين . وقرأ الأعمش وابن عامر وحمزة والكسائى «فَنَعِمَّا» بفتح النون وكسر العين، وكلهم سكّن الميم . ويجوز فى غير القرآن فَنِعْمَ مَا هى . قال النحاس : ولكنه فى السّواد متصل فلزم الإدغام . وحكى النحويون فى « نِعْمَ » أربع لغات : نَعِمَ الرجلُ زيدٌ ، هذا الأصل . ونِعِمَ الرجل ، بكسر النون لكسر العين . ونَعْمَ الرجل ، بفتح النون وسكون العين، والأصل نَعِمَ حذفت الكسرة لأنها ثقيلة . ونِعْمَ الرجل، وهذا أفصح اللغات، والأصل فيها نَعِم . وهى تقع فى كل مدح، فخففت وقلبت كسرة العين على النون وأسكنت العين ، فمن قرأ «فَنِعِمَّا هِيَ» فله تقديران : أحدهما أن يكون جاء به على لغة من يقول نِعِم . والتقدير الآخر أن يكون على

اللغة الجيّدة، فيكون الأصل نِعْمَ، ثم كسرت العين لالتقاء الساكنين . قال النحاس : فأمّا الذى حُكى عن أبى عمرو ونافع من إسكان العين فمحال . حُكى عن محمد بن يزيد أنه قال : أمّا إسكان العين والميم مشدّدة فلا يقدر أحد أن ينطق به ، و إنما يَرُوم الجمع بين ساكنين ويحرّك ولا يأبه(١). وقال أبو علىّ : من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله؛ لأنه جمع بين ساكنين الأوّل منهما ليس بحرف مدّ ولين و إنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأوّل حرف مدّ، إذ المدّ يصير عوضا من الحركة، وهذا نحو دابّة وضَوَالّ ونحوه. ولعل أبا عمرو أخفى الحركة واختلسها كأخذه بالإخفاء فى « بَارِئِكُم ـ و ـ يَأْمُرُكُم » فظنّ السامع الإخفاء إسكانا للطف ذلك فى السمع وخفائه . قال أبو علىّ : وأمّا من قرأ « نَعِمّا » بفتح النون وكسر العين فإنما جاء بالكلمة على أصلها ومنه قول الشاعر :

ما أقلّتْ قَدَمايَ(٢) إنّهم * نَعِمَ السّاعون فى الأمر المُبِرّ

قال أبو علىّ : و « ما » من قوله تعالى : « نِعِمّا » فى موضع نصب ، وقوله «هى» تفسير للفاعل المضمر قبل الذكر، والتقدير نعم شيئا إبداؤها، والإبداء هو المخصوص بالمدح إلا أن المضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه . و يدلّك على هذا قوله «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» أى الإخفاء خير . فكما أن الضمير هنا للإخفاء لا للصدقات فكذلك، أوّلًا الفاعل هو الإبداء وهو الذى اتصل به الضمير، فحذف الإبداء وأقيم ضمير الصدقات مثله . ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ شرط، فلذلك حذفت النون . ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾ عطف عليه . والجواب ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ . ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ اختلف القراء فى قراءته ؛ فقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر وقَتَادة وابن أبى إسحاق « وَنُكَفِّرُ » بالنون ورفع الراء . وقرأ [نافع(٣)] وحمزة والكسائى بالنون والجزم فى الراء، ورُوى مثل ذلك أيضا عن عاصم . وروى الحسين بن علىّ الجُعْفِىّ عن الأعمش «يُكَفِّرَ» بنصب الراء . وقرأ ابن عامر بالياء ورفع الراء، ورواه حفص عن عاصم، وكذلك روى عن الحسن، ورُوى عنه بالياء والجزم . وقرأ ابن عباس « وتُكَفِّرْ » بالتاء وكسر الفاء وجزم الراء . وقرأ

---

(١) كذا فى النحاس ، والذى فى نسخ الأصل : ولا يأتيه . (٢) ويروى : قدمى . بالإفراد راجع جـ ٤ خزانه ص ١٠١ (٣) فى الأصول : الأعمش ، والصواب ما أثبتناه من البحر وابن عطيه وغيرهما .

عكرمة « وتُكَفَّرْ » بالتاء وفتح الفاء وجزم الراء . وحكى المَهْدَوِيّ عن ابن هُرْمُز أنه قرأ « وتُكَفِّرُ » بالتاء ورفع الراء . وحُكى عن عكرمة وشَهْر بن حَوْشب أنهما قرأا بتاء ونصب الراء . فهذه تسع قراءات أَبْيَنُهَا « ونُكَفِّرُ » بالنون والرفع . هذا قول الخليل وسيبويه . قال النحاس قال سيبويه : والرفع ها هنا الوجه وهو الجيد ؛ لأن الكلام الذى بعد الفاء يجرى مجراه فى غير الجزاء . وأجاز الجزم بحمله على المعنى؛ لأن المعنى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء يكن خيراً لكم ونكفر عنكم . وقال أبو حاتم : قرأ الأعمش « يُكَفِّرُ » بالياء دون واو قبلها. قال النحاس : والذى حكاه أبو حاتم عن الأعمش بغير واو جزما يكون على البدل كأنه فى موضع الفاء . والذى روى عن عاصم « ويُكَفِّرُ » بالياء والرفع يكون معناه ويُكَفِّرُ الله ؛ هذا قول أبى عُبيد . وقال أبو حاتم : معناه يكفِّر الإعطاء . وقرأ ابن عباس « وتُكَفِّرْ » يكون معناه وتكفِّر الصدقات . وبالجملة فما كان من هذه القراءات بالنون فهى نون العظمة، وما كان منها بالتاء فهى الصدقة فاعلمه ؛ إلا ما رُوى عن عكرمة من فتح الفاء فإن التاء فى تلك القراءة إنما هى للسيئات، وما كان منها بالياء فالله تعالى هو المكفِّر، والإعطاء فى خفاء مكفِّر أيضا كما ذكرنا، وحكاه مَكِّىّ . وأما رفع الراء فهو على وجهين : أحدهما أن يكون الفعل خبر ابتداء تقديره ونحن نكفِّر أو وهى تكفِّر، أعنى الصدقة ، أو والله يكفِّر . والثانى القطع والاستئناف لاتكون الواو العاطفة للاشتراك لكن تعطف جملة كلام على جملة . وقد ذكرنا معنى قراءة الجزم . فأما نصب « ونُكَفِّرَ » فضعيف وهو على إضمار أن وجاز على بُعْد . قال المَهْدَوِىّ : وهو مشبه بالنصب فى جواب الاستفهام ، إذ الجزاء يجب به الشىء لوجوب غيره كالاستفهام . والجزم فى الراء أفصح هذه القراءات ، لأنها تُؤْذن بدخول التكفير فى الجزاء وكونه مشروطا إن وقع الإخفاء . وأما الرفع فليس فيه هذا المعنى .

قلت : هذا خلاف ما اختاره الخليل وسيبويه . و « مِنْ » فى قوله ﴿ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ للتبعيض المحض . وحكى الطبرىّ عن فرقة أنها زائدة . قال ابن عطيّة : وذلك منهم خطأ. ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وعد ووعيد .

قوله تعالى : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ هذا الكلام متّصل بذكر الصدقات، فكأنّه بيّن فيه جواز الصدقة على المشركين . روى سعيد بن جبير مُرْسَلًا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدّقون على فقراء أهل الذمّة ، فلما كثُر فقراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تتصدّقوا إلا على أهل دينكم". فنزلت هـذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسـلام . وذكر النقّاش أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُتِىَ بصدقات فجاءه يهودىّ فقال: أعطنى. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " ليس لك من صدقة المسلمين شيء " . فذهب اليهودىّ غير بعيـد فنزلت : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ » فدعاه(١) رسول الله صلى الله عليه وسـلم فأعطاه، ثم نسخ الله ذلك بآية الصـدقات . وروى ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بنى قُرَيظة والنَّضير، وكانوا لا يتصدّقون عليهم رغبـة منهم فى أن يُسلموا إذا احتاجوا ، فنزلت الآية بسبب أولئـك . وحكى بعض المفسّرين أن أسماء ابنـة أبى بكر الصدّيق أرادت أن تصـل جدّها أبا قُحَـافة ثم امتنعت من ذلك لكونه كافرا فنزلت الآية فى ذلك . وحكى الطبرىّ أن مقصـد النبيّ صلى الله عليه وسلم بمنع الصدقة إنما كان ليُسلموا و يدخلوا فى الدين، فقال الله تعالى : «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ» . وقيل : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ » [ليس متّصلا(٢)] بمـا قبلُ ، فيكون ظاهرا فى الصدقات وصرفها إلى الكفار ، بل يحتمل أن يكون معناه ابتداء كلام .

الثانيـــة — قال علماؤنا : هذه الصدقة التى أُبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هى صدقة التطوّع، وأما المفروضة فلا يُجزئ دفعها لكافر، لقوله عليه السـلام : « أُمرتُ أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها فى فقرائكم" . قال ابن المُنْذِر: أجمع [كل(٣)] من أحفظُ عنه

(١) فى هـ : دعاه . (٢) فى ج و هـ و ب و ى : متصلا . دليل على سقوط : ليس ، أو غير متصل كباقى النسخ . (٣) فى ج .

من أهل العلم أن الذمي لا يُعطى من زكاة الأموال شيئا ؛ ثم ذكر جماعة ممن نص على ذلك ولم يذكر خلافا . وقال المَهْدَوِيّ : رُخِّص للسلمين أن يُعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة لهذه الآية . قال ابن عطيّة : وهذا مردود بالإجماع . والله أعلم . وقال أبو حنيفة : تصرف إليهم زكاة الفطر . ابن العربيّ : وهذا ضعيف لا أصل له . ودليلنا أنها صدقة طهرة واجبة فلا تصرف إلى الكافر كصدقة الماشية والعين؛ وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أغنوهم عن سؤال هذا اليوم " يعني يوم الفطر .

قلت : وذلك لتشاغلهم بالعيد وصلاة العيد وهذا لا يتحقق في المشركين . وقد يجوز صرفها إلى غير المسلم في قول من جعلها سُنّة، وهو أحد القولين عندنا، وهو قول أبي حنيفة على ما ذكرنا ، نظرا إلى عموم الآية في البرّ وإطعام الطعام وإطلاق الصدقات . قال ابن عطيّة : وهذا الحكم متصوّر للسلمين مع[1] أهل ذمتهم ومع المسترقّين من الحربيين .

قلت : وفي التنزيل «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا»[2] والأسير في دار الإسلام لا يكون إلا مشركا . وقال تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ»[3] . فظواهر هذه الآيات تقتضي جواز صرف الصدقات إليهم جملة ، إلا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خصّ منها الزكاة المفروضة؛ لقوله عليه السلام لمُعاذ : " خُذ الصدقة من أغنيائهم وردّها على فقرائهم " واتفق العلماء على ذلك على ما تقدّم . فيدفع إليهم من صدقة التطوع إذا احتاجوا ، والله أعلم . قال ابن العربيّ : فأما المسلم العاصي فلا خلاف أن صدقة الفطر تصرف إليه إلا إذا كان يترك أركان الإسلام من الصلاة والصيام فلا تدفع إليه الصدقة حتى يتوب . وسائر أهل المعاصي تصرف الصدقة إلى مرتكبيها لدخولهم في اسم المسلمين . وفي صحيح مسلم أن رجلا تصدّق على غنيّ وسارق وزانية وتُقبّلت صدقته، على ما يأتي بيانه في آية الصدقات[4] .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يرشد من يشاء . وفي هذا ردّ على القدرية وطوائف من المعتزلة، كما تقدّم .

(١) في ابن عطية : متصور للسلمين اليوم مع الخ . (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٥
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٥٨ (٤) راجع جـ ٨ ص ١٦٧

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ شرط وجوابه . والخير فى هذه الآية المال ؛ لأنه قد اقترن بذكر الإنفاق ؛ فهذه القرينة تدل على أنه المال، ومتى لم تقترن بما يدل على أنه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال؛ نحو قوله تعالى : « خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا »(١) وقوله : « مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ »(٢) . إلى غير ذلك . وهذا تحرّز من قول عكرمة : كل خير فى كتاب الله تعالى فهو المال . وحُكى أن بعض العلماء كان يصنع كثيرا من المعروف ثم يحلف أنه ما فعل مع أحد خيرا، فقيل له فى ذلك فيقول : إنما فعلت مع نفسى ؛ ويتلو « وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ » . ثم بيّن تعالى أن النفقة المعتدّ بقبولها إنما هى ما كان ابتغاء وجهه . و « ابتغاءَ »(٣) هو على المفعول له . وقيل : إنه شهادة من الله تعالى للصحابة رضى الله عنهم أنهم إنما ينفقون ابتغاءَ وجهه؛ فهذا خرج مخرج التفضيل والثناء عليهم . وعلى التأويل الأوّل هو اشتراط عليهم ، ويتناول الاشتراط غيرهم من الأمة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقّاص : " إنك لن تُنفق نفقةً تبتغى بها وجه الله تعالى إلا أُجرتَ بها حتى ما تجعل فى فى امرأتك "(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ « يُوَفَّ إِلَيْكُمْ » تأكيد وبيانٌ لقوله : « وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ » وأن ثواب الإنفاق يُوفَّى إلى المنفقين ولا يُبخسون منه شيئا فيكون ذلك البخس ظلما لهم .

قوله تعالى : لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ اللام متعلقة بقوله « وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ » وقيل: بمحذوف تقديره الإنفاق أو الصدقة للفقراء . قال السُّدّى ومجاهد وغيرهما : المراد بهؤلاء

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢١ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ١٥٠ (٣) كما فى السمين والبحر . وفى الأصول كلها : مفعول به . وليس بشىء . (٤) رواية البخارى : فى فم امرأتك .

الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقراء غابرَ الدهر . وإنما خصّ فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصُّـفّة وكانوا نحوا من أربعمائة رجل، وذلك أنهم كانوا يَقْدَمون فقراء على رسول الله صـلى الله عليه وسلم، وما لهم أهل ولا مال فبُنيت لهم صُفّة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسـلم، فقيل لهم : أهـل الصُّـفّة . قال أبو ذَرّ : كنت من أهل الصّـفة وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر كلَّ رجل فينصرف برجل ويبق مَن بق من أهل الصـفة عشرة أو أقل فيؤتَى النبيّ صلى الله عليه وسلم بعشائه ونتعشّى معه . فإذا فرغنا قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " ناموا فى المسـجد " . وخرّج الترمذيّ عن البَرَاء بن عازب « وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْـهُ تُنْفِقُونَ » قال : نزلت فينا معشر الأنصـار كنا أصحاب نخـل، قال : فكان الرجل يأتى من نخله على قدر كثرته وقلّتـه ، وكان الرجل يأتى بالقِنْو والقنـوين فيعلقه فى المسـجد ، وكان أهل الصـفّة ليس لهم طعام ؛ فكان أحدهم إذا جاع أتى القِنْوَ فيضربه بعصاه فيسـقط من البُسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب فى الخـير يأتى بالقنو فيـه الشِّيص والحَشَف، و بالقنو قـد انكسر فيعلقه فى المسجد، فأنزل الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّـا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُـوا الْخَبِيثَ مِنْـهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْـتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيـهِ » . قال : ولو أن أحدكم أُهْدِىَ إليه مثـل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض وحَياء . قال : فكنا بعد ذلك يأتى الرجل بصالح ما عنده. قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . قال علمـاؤنا . وكانوا رضى الله عنهم فى المسجد ضرورة، وأكلوا من الصدقة ضرورة؛ فلمـا فتح الله على المسلمين استغنَوْا عن تلك الحـال وخرجوا ثم ملكوا وتأمّروا. ثم بيّن الله سبحانه من أحوال أولئك الفقراء المهاجرين ما يوجب الحُنُوّ عليهم بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والمعنى حُبسوا ومُنعوا . قال قتادة وابن زيد : معنى «أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ» حبسوا أنفسهم عن التصرُّف فى معايشهم خوف العدو؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ ﴾ لكون البلاد كلها كفرا مُطْبِقا .

وهذا فى صدر الإسلام، فعلّتهم[1] تمنع من الاكتساب بالجهاد، وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنع من التصرف فى التجارة فبقوا فقراء . وقيل : معنى « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ » أى لِما قد ألزموا أنفسهم من الجهاد . والأوّل أظهر . والله أعلم .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ أى أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء . وفيه دليل على أن اسم الفقر يجوز أن يطلق على من له كسوة ذات قيمة ولا يمنع ذلك من إعطاء الزكاة إليه . وقد أمر الله تعالى بإعطاء هؤلاء القوم، وكانوا من المهاجرين الذين يقاتلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مَرْضَى ولا عُمْيَان . والتعفُّف تفعّل، وهو بناء مبالغة من عفّ عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزّه عن طلبه؛ وبهذا المعنى فسر قتادة وغيره . وفتح السين وكسرها فى « يَحْسِبهم » لغتان . قال أبو علىّ : والفتــح أقيس ؛ لأن العين من المـاضى مكسورة فبابها أن تأتى فى المضارع مفتوحة . والقراءة بالكسر حسنة، لمجيء السمع به وإن كان شاذا عن القياس . و « مِنْ » فى قوله « مِنَ التَّعَفُّفِ » لابتداء الغاية . وقيل لبيان الجنس .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ فيه دليل على أن للسِّيما أثرا فى اعتبار من يظهر عليه ذلك، حتى إذا رأينا ميتا فى دار الإسلام وعليه زُنّار[2] وهو غير مختون لا يدفن فى مقابر المسلمين، ويقدّم ذلك على حكم الدار فى قول أكثر العلماء، ومنه قوله تعـالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَــوْلِ[3] » . فدلّت الآية على جواز صرف الصدقة إلى من له ثيـاب وكسوة وزِىّ[4] فى التجمّل . واتفق العلمـاء على ذلك، وإن اختلفوا بعده فى مقدار ما يأخذه إذا احتاج . فأبو حنيفة اعتبر مقدار ماتجب فيه الزكاة، والشافعىّ اعتبر قوت سنة، ومالك اعتبر أربعين درهما؛ والشافعىّ لا يصرف الزكاة إلى المكتسب .

والسِّيَما (مقصورة) : العلامة، وقد تمدّ فيقال السيماء . وقد اختلف العلماء فى تعيينها هنا؛ فقال مجاهد : هى الخشوع والتواضع . السُّدّى : أثر الفاقة والحاجة فى وجوههم وقلّة

(١) كذا فى جـ . راجع الطبرى . وباقى الأصول : فعلّتهم . (٢) الزنار (بضم الزاى وتشديد النون) : ماىشدّه الذمى على وسطه . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٥١ . (٤) فى جـ : زين .

النّعمة . ابن زيد : رَثَاثة ثيابهم . وقال قوم وحكاه مَكِّيّ : أثر السجود . ابن عطيّة : وهذا حسن ، وذلك لأنهم كانوا متفرّغين متوكّلين لا شغل لهم فى الأغلب إلا الصلاة ، فكان أثر السجود عليهم .

• قلت : وهذه السِّيما التى هى أثر السجود اشترك فيها جميع الصحابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى فى آخر « الفتح » بقوله : « سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ »(١) فلا فرق بينهم و بين غيرهم؛ فلم يبق إلا أن تكون السيماء أثر الخصاصة والحاجة؛ أو يكون أثر السجود أكثر،فكانوا يعرفون بصفرة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار . والله أعلم . وأما الخشوع فذلك محله القلب ويشترك فيه الغنيّ والفقير، فلم يبق إلا ما آخترناه، والموفق الإلٰه .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ مصدر فى موضع الحال، أى ملحفين؛ يقال : ألحف وأحفى وألحّ فى المسألة سواء؛ ويقال :

* وليس لِلْمُلْحِف مِثلُ الرّد *(٢)

وآشتقاق الإلحاف من اللّحاف، سُمِّيَ بذلك لاشتماله على وجوه الطلب فى المسألة كاشتمال اللحاف من التغطية، أى هذا السائل يعم الناس بسؤاله فيُلحفهم ذلك؛ ومنه قول آبن أحمر :

فظَلّ يحُفُّهن بقَفْقَفَيْه(٣) * ويَلْحَفُهُنّ هَفْهافًا ثَخِينَا

يصف ذكر النعام يحضُن بيضا بجناحيه ويجعل جناحه لها كاللحاف وهو رقيق مع ثخنه . وروى النّسائيّ ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفِّف اقرءوا إن شئتم « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » " .

الخامسة ــ وآختلف العلماء فى معنى قوله « لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » على قولين؛ فقال قوم منهم الطبريّ والزجّاج : إن المعنى لا يسألون البتّة ، وهذا على أنهم متعففون عن

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٩٢ (٢) هذا عجز بيت لبشار بن برد وصدره كما فى ديوانه واللسان :
* الحر يلحى والعصا للعبد *

(٣) قفقفا الطائر : جناحاه .

المسألة عِفّة تامة؛ وعلى هذا جمهور المفسرين، ويكون التعفف صفة ثابتة لهم، أى لا يسألون الناس إلحاحا ولا غير إلحاح . وقال قوم : إن المراد نفى الإلحاف ، أى إنهم يسألون غير إلحاف، وهذا هو السابق للفهم، أى يسألون غير ملحفين . وفى هذا تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافا . روى الأئمة واللفظ لمسلم عن معاوية بن أبى سفيان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُلحِفوا فى المسألة فوالله لا يسألنى أحد منكم شيئا فَتُخرِج له مسألتُه منّى شيئا وأنا له كاره فيُبارَك له فيما أعطيتُه" . وفى الموطأ «عن زيد بن أسلم عن عطاء آبن يَسار عن رجل من بنى أسد أنه قال : نزلت أنا وأهلى ببقيع الغَرقَد[1] فقال لى أهلى : آذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله لنا شيئا نأكله؛ وجعلوا يذكرون من حاجتهم؛ فذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت عنده رجلا يسأله ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا أجد ما أُعطيك" فتولّى الرجل عنه وهو مُغْضَب وهو يقول : لَعَمْرِى إنك لَتُعطى من شئت ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنه يغضب علىّ ألّا أجد ما أعطيه من سأل منكم وله أُوقِيّة أو عِدْلُها فقد سأل إلحافًا[2]" . قال الأسدىّ : فقلت لَلِقحة[3] لنا خير من أوقيّة — قال مالك : والأوقيّة أربعون درهما — قال : فرجعت ولم أسأله ، فقُدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بشعير وزَبيب[4] فقسم لنا منه حتى أغنانا الله» . قال آبن عبد البر : هكذا رواه مالك وتابعه هشام بن سعد وغيره ، وهو حديث صحيح ، وليس حكم الصحابىّ[5] إذا لم يُسَمّ كحكم مَن دونه إذا لم يُسَمّ عند العلماء ؛ لآرتفاع الجُرحة عن جميعهم وثبوت العدالة لهم . وهذا الحديث يدل على أن السؤال مكروه لمن له أوقية من فضة ؛ فمن سأل وله هذا الحدّ والعدد والقدر من الفضة أو مايقوم مقامها ويكون عِدْلًا منها فهو مُلْحِف ، وما علمت أحدا من أهل العلم إلا وهو يكره السؤال لمن له هذا المقدار من الفضة أو عدلها من الذهب على ظاهر هذا الحديث . وما جاءه من غير مسألة فجائز له أن يأكله

(١) بقيع الغرقد : مقبرة مشهورة بالمدينة . (٢) الحديث كما فى الطبعة الهندية . وفى الأصول : فقد ألحف .

(٣) اللقحة (بفتح اللام وكسرها) : الناقة ذات لبن القريبة العهد بالنتاج .

(٤) فى ب : وزيت . (٥) فى الأصول : « الصاحب » .

إن كان من غير الزكاة ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافا ، فإن كان من الزكاة ففيه خلاف يأتي بيانه في آية الصدقات[1] إن شاء الله تعالى .

السادسة ـ قال ابن عبد البر : من أحسن ما رُوِي من أجوبة الفقهاء في معاني السؤال وكراهيته ومذهب أهل الوَرَع فيه ما حكاه الأثرم عن أحمد بن حنبل وقد سئل عن المسألة متى تحل قال : إذا لم يكن عنده ما يُغَدِّيه ويُعَشِّيه على حديث سهل بن الحَنْظَلِيَّة . قيل لأبي عبد الله : فإن اضطر إلى المسألة ؟ قال : هي مباحة له إذا اضطر . قيل له : فإن تعفف ؟ قال : ذلك خير له . ثم قال : ما أظن أحدا يموت من الجوع ! الله يأتيه برزقه . ثم ذكر حديث أبي سعيد الخُدْرِي "مَن استعف أعفه الله" . وحديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : "تعفف" . قال أبو بكر : وسمعته يسأل عن الرجل لا يجد شيئا أيسأل الناس أم يأكل الميتة ؟ فقال : أيأكل الميتة وهو يجد من يسأله ، هذا شنيع . قال : وسمعته يسأله هل يسأل الرجل لغيره ؟ قال لا ، ولكن يُعَرِّض ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه قوم حُفَاة عُراة مُجْتَابِي النِّمَار[2] فقال : "تصدّقوا" ولم يقل أعطوهم . قال أبو عمر : قد قال النبي صلى الله عليه وسلم "اشفعوا تُؤْجَرُوا" . وفيه إطلاق السؤال لغيره . والله أعلم . وقال : "ألا رجلٌ يتصدق على هذا" ؟ قال أبو بكر : قيل له ـ يعني أحمد بن حنبل ـ فالرجل يذكر الرجل فيقول : إنه محتاج ؟ فقال : هذا تعريض وليس به بأس ، إنما المسألة أن يقول أعطه . ثم قال : لا يعجبني أن يسأل المرء لنفسه فكيف لغيره ؟ والتعريض هنا أحبّ إليّ .

قلت : قد روى أبو داود والنَّسائي وغيرهما أن الفِراسي[3] قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أسأل يا رسول الله ؟ قال : "لا وإن كنتَ سائلا لا بُدّ فاسأل الصالحين" . فأباح صلى الله عليه وسلم سؤال أهل الفضل والصلاح عند الحاجة إلى ذلك ، وإن أوقع حاجته

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٧ (٢) اجتاب فلان ثوبا إذا لبسه . والنمار (بكسر النون جمع نمرة) وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض . أراد أنه جاء قوم لابسي أزر مخططة من صوف (عن نهاية ابن الأثير) .

(٣) هو من بني فراس بن مالك بن كنانة (عن الاستيعاب) .

بالله فهو أعلى . قال إبراهيم بن أدهم : سؤال الحاجات من الناس هي الحجاب بينك وبين الله تعالى ، فأنزل حاجتك بمن يملك الضرّ والنفع ، وليكن مفزعك إلى الله تعالى يكفيك الله ما سواه وتعيش مسرورا .

السابعــة — فإن جاءه شيء من غير سؤال فله أن يقبله ولا يردّه ، إذ هو رزق رزقه الله . روى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إلى عمر بن الخطاب بعطاء فردّه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم رددته " ؟ فقال : يا رسول الله ، أليس أخبرتنا أن أحدنا خير له ألا يأخذ شيئا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما ذاك عن المسألة فأما ما كان من غير مسألة فإنما هو رزق رزقكه الله " . فقال عمر بن الخطاب : والذي نفسي بيده لا أسأل أحدا شيئا ولا يأتيني بشيء من غير مسألة إلا أخذته . وهذا نصّ . وخرج مسلم في صحيحه والنسائي في سننه وغيرهما عن ابن عمر قال سمعت عمر يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه منّي ، حتى أعطاني مرّة مالًا فقلت : أعطه أفقر إليه منّي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذه وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك " . زاد النسائي — بعد قوله " خذه — فتموّله أو تصدّق به " . وروى مسلم من حديث عبد الله ابن السعدي المالكي عن عمر فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أعطيت شيئا من غير أن تسأل فكُل وتصدّق " . وهذا يصحح لك حديث مالك المرسل . قال الأثرم : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يسأل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أتاك من غير مسألة ولا إشراف " أي الإشراف أراد ؟ فقال : أن تستشرفه وتقول : لعله يبعث إليّ بقلبك . قيل له : وإن لم يتعرض ، قال نعم إنما هو بالقلب . قيل له : هذا شديد ! قال : وإن كان شديدا فهو هكذا . قيل له : فإن كان الرجل لم يعودني أن يرسل إليّ شيئا إلا أنه قد عرض بقلبي فقلت : عسى أن يبعث إليّ . قال : هذا إشراف ، فأما إذا جاءك من غير أن تحتسبه ولا خطر على قلبك فهذا الآن ليس فيه إشراف . قال أبو عمر : الإشراف في اللغة رفع الرأس إلى المطموع

عنده والمطموع فيه، وأن يهش الإنسان ويتعرض . وما قاله أحمد فى تأويل الإشراف تضييق وتشديد وهو عندى بعيد؛ لأن الله عز وجل تجاوز لهذه الأمة عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمله جارحة . وأما ما اعتقده القلب من المعاصى ما خلا الكفر فليس بشىء حتى يعمل به؛ وخطرات النفس متجاوز عنها بإجماع .

الثامنة ـ الإلحاح فى المسألة والإلحاف فيها مع الغنى عنها حرام لا يحل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سأل الناس أموالهم تكثُّرًا فإنما يسأل جمرًا فليستقلّ أو ليستكثر" رواه أبو هريرة خرّجه مسلم . وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مُزْعَةُ(١) لحم" رواه مسلم أيضا .

التاسعة ـ السائل إذا كان محتاجا فلا بأس أن يكرر المسألة ثلاثا إعذارا وإنذارا والأفضل تركه . فإن كان المسئول يعلم بذلك وهو قادر على ما سأله وجب عليه الإعطاء، وإن كان جاهلا به فيعطيه مخافة أن يكون صادقا فى سؤاله فلا يفلح فى ردّه .

العاشرة ـ فإن كان محتاجا إلى ما يُقيم به سُنّة كالتجمّل بثوب يلبسه فى العيد والجمعة فذكر ابن العربى: «سمعت بجامع الخليفة ببغداد رجلا يقول : هذا أخوكم يحضر الجمعة معكم وليس عنده ثياب يُقيم بها سُنّة الجمعة . فلما كان فى الجمعة الأخرى رأيت عليه ثيابا أخر، فقيل لى : كساه إياها أبو الطاهر البرسنى أَخْذَ الثناء(٢)» .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٧٤)

فيه مسألة واحدة :

رُوى عن ابن عباس وأبى ذرّ وأبى أمامة وأبى الدرداء وعبد الله بن بشر الغافقى والأوزاعى أنها نزلت فى علف الخيل المربوطة فى سبيل الله . وذكر ابن سعد فى الطبقات قال : أخبرت عن محمد بن شعيب بن شابور قال أنبأنا سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله بن عريب عن

(١) المزعة (بضم الميم وإسكان الزاى) القطعة . قال القاضى عياض : قيل معناه يأتى يوم القيامة ذليلا ساقطا لا وجه له عند الله . وقيل : هو على ظاهره، فيحشر ووجهه عظم لا لحم عليه، عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه .

(٢) فى أحكام ابن العربى : رأيت عليه ثيابا جددا فقيل لى كساه إياها فلان لأخذ الثناء بها .

أبيه عن جدّه عَريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى: « ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » قال: "هم أصحاب الخيل". و بهذا الإسناد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها وأبوالها وأرواثها [عند الله](1) يوم القيامة كذكيّ المسك". ورُوى عن ابن عباس أنه قال: نزلت فى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، كانت معه أربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرّا وبدرهم جهرا؛ ذكره عبد الرزاق قال: أخبرنا عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس. ابنُ جُريج: نزلت فى رجل فعل ذلك، ولم يُسمّ عليًّا ولا غيره. وقال قتادة. هذه الآية نزلت فى المنفقين من غير تبذير ولا تقتير. ومعنى « بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ » فى الليل والنهار، ودخلت الفاء فى قوله تعالى: « فَلَهُمْ » لأن فى الكلام معنى الجزاء. وقد تقدّم. ولا يجوز زيد فمنطلق.

قوله تعالى: ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

(1) الزيادة عن كتاب الطبقات.

الآيات الثلاث[1] تضمنت أحكام الربا وجواز عقود المبايعات ، والوعيد لمن استحل الربا وأصرّ على فعله . وفى ذلك ثمان وثلاثون مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا﴾ يأكلون يأخذون ، فعبر عن الأخذ بالأكل ، لأن الأخذ إنما يراد للأكل . والربا فى اللغة الزيادة مطلقا ؛ يقال : ربا الشىء يربو إذا زاد ، ومنه الحديث : "فلا والله ما أخذنا من لقمة إلا رَبَا من تحتها" يعنى الطعام الذى دعا فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم بالبركة ؛ خرّج الحديث مسلم رحمه الله . وقياس كتابته بالياء للكسرة فى أوله[2] ، وقد كتبوه فى القرآن بالواو . ثم إن الشرع قد تصرّف فى هذا الإطلاق فقصره على بعض موارده ؛ فمرّة أطلقه على كسب الحرام ؛ كما قال الله تعالى فى اليهود : «وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ»[3] . ولم يرد به الربا الشرعىّ الذى حكم بتحريمه علينا وإنما أراد المال الحرام ؛ كما قال تعالى : «سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ»[3] يعنى به المال الحرام من الرّشا ، وما استحلوه من أموال الأمّيين حيث قالوا : «لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ»[4] . وعلى هذا فيدخل فيه النهى عن كل مال حرام بأىّ وجه اكتُسب . والربا الذى عليه عُرف الشرع شيئان : تحريم النَّساء ، والتفاضل فى العقود[5] وفى المطعومات على ما نبينه . وغالبه ما كانت العرب تفعله ، من قولها للغريم : أتقضى أم تُرْبِى ؟ فكان الغريم يزيد فى عدد المال ويصبر الطالب عليه . وهذا كله محرّم باتفاق الأمة .

الثانيــة ــ أكثر البيوع الممنوعة إنما تجد منعها لمعنى زيادة إما فى عين مال ، وإما فى منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه . ومن البيوع ما ليس فيه معنى الزيادة ؛ كبيع الثمرة قبل بُدُوّ صلاحها ، وكالبيع ساعة النداء يوم الجمعة ؛ فإن قيل لفاعلها ؛ آكل الربا فتجوُّز وتشبيه .

الثالثــة ــ روى الأئمة واللفظ لمُسْلِم عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُرّ بالبُرّ والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مِثْلًا بِمثل يدًا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربَى الآخذ والمعطى فيه سواء" .

(١) كذا فى كل الأصول ، وقوله : ثمان وثلاثون مسألة ، تضمن الآيات الخمس . (٢) يريد الإمالة .
(٣) راجع جـ ٦ ص ١٨٢ ، وص ٢٣٦ . (٤) راجع جـ ٤ ص ١١٥ (٥) فى حـ و ب و جـ : النقود .

وفى حديث عُبادة بن الصّامت : " فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد " . وروى أبو داود عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الذهب بالذهب تِبْرها وعَيْنها والفضة بالفضة تبرها وعينها والبُرّ بالبرّ مُدْىٌ بمُدْيٍ [1] والشعير بالشعير مدى بمُدْى والتمر بالتمر مُدْىٌ بمُدْيٍ والملحُ بالملح مُدْىٌ بمُدْيٍ فمن زاد أو ازداد فقد أرْبَى ولا بأس ببيع الذهب بالفضة والفضةُ أكثرهما يدًا بيد وأما نَسِيئة فلا ولا بأس ببيع البرّ بالشعير والشعيرُ أكثرهما يدًا بيد وأما نسيئة فلا " . وأجمع العلماء على القول بمقتضى هذه السُّنّة وعليها جماعة فقهاء المسلمين إلا فى البرّ والشعير فإن مالكا جعلهما صنفا واحدا، فلا يجوز منهما اثنان بواحد، وهو قول الليث والأوزاعيّ ومعظم علماء المدينة والشام، وأضاف مالك إليهما السُّلْت [2] . وقال الليث : السلت والدُّخن والذرة صنف واحد؛ وقاله ابن وهب .

قلت : وإذا ثبتت السُّنّة فلا قول معها . وقال عليه السلام : " فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد " . وقوله : " البُرّ بالبُرّ والشعير بالشعير " دليل على أنهما نوعان مختلفان كمخالفة البُرّ للتمر؛ ولأن صفاتهما مختلفة وأسماؤهما مختلفة، ولا اعتبار بالمنبت والمحصد إذا لم يعتبره الشرع ، بل فصل وبيّن ؛ وهذا مذهب الشافعيّ وأبي حنيفة والثوريّ وأصحاب الحديث .

الرابعة — كان معاوية بن أبي سفيان يذهب إلى أن النهى والتحريم إنما ورد من النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الدِّينار المضروب والدرهم المضروب لا فى التِّبر من الذهب والفضة بالمضروب، ولا فى المَصُوغ بالمضروب . وقد قيل إن ذلك إنما كان منه فى المصوغ خاصة، حتى وقع له مع عُبَادة ما خرّجه مسلم وغيره، قال : غَزَوْنا وعلى الناس معاويةُ فغنمنا غنائمَ كثيرةً ، فكان مما غنمنا آنية من فضة فأمر معاوية رجلا ببيعها فى أَعْطِيَات الناس

---

(١) أى مكيال بمكيال . والمدى (بضم الميم وسكون الدال وبالياء) قال ابن الأعرابى : هو مكيال ضخم لأهل الشام وأهل مصر، والجمع أمداء . وقال ابن برى : المدى مكيال لأهل الشام يقال له الجريب يسع خمسة وأربعين رطلا . وهو غير المد (بالميم المضمومة والياء المشددة) . قال الجوهرى : المد مكيال وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز والشافعيّ، ورطلان عند أهل العراق وأبى حنيفة .

(٢) السلت : ضرب من الشعير ليس له قشر .

فتنازع الناس فى ذلك فبلغ عبادةَ بن الصامت ذلك فقام فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُرّ بالبُرّ والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح إلا سواءً بسواء عَيْنًا بعَيْن من زاد أو ازداد فقد أَرْبى ، فردّ الناس ما أخذوا » فبلغ ذلك معاويةَ فقام خطيبا فقال : ألَا ما بالُ رجالٍ يتحدّثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديثَ قد كنّا نشهده ونصحبه فلم نسمعها منه ! فقام عُبَادة بن الصامت فأعاد القصة ثم قال : لنحدّثنّ بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم و إن كَرِه معاويةُ ـ أو قال و إن رَغِم ـ ما أبالى ألّا أصحبَه فى جُنْده فى ليلةٍ سَوْداء . قال حمّادٌ[1] هذا أو نحوَه . قال ابن عبد البرّ : وقد رُوى أن هذه القصة إنما كانت لأبى الدرداء مع معاوية . ويحتمل أن يكون وقع ذلك لهما معه ، ولكن الحديث فى العُرْف محفوظ لعُبَادة ، وهو الأصل الذى عوّل عليه العلماء فى باب « الربا » . ولم يختلفوا أن فعل معاوية فى ذلك غير جائز ، وغير نكير أن يكون معاويةَ خَفِى عليه ما قد علمه أبو الدرداء وعُبادة فإنهما جليلان من فقهاء الصحابة وكبارهم ، وقد خَفِى على أبى بكر وعمر ما وُجد عند غيرهم ممن هو دونهم ، فمعاويةُ أحرى . ويحتمل أن يكون مذهبه كمذهب ابن عباس ، فقد كان وهو بحرٌ فى العلم لا يرى الدرهم بالدرهمين بأسا حتى صرفه عن ذلك أبو سعيد . وقصة معاوية هذه مع عبادة كانت فى ولاية عمر . قال قَبيصة بن ذُؤَيب : إن عُبادة أنكر شيئا على معاوية فقال : لا أُساكنك بأرض أنت بها ودخل المدينة . فقال له عمر : ما أقدمك؟ فأخبره . فقال : ارجع إلى مكانك ، فقبّح الله أرضا لست فيها ولا أمثالك ! وكتب إلى معاوية « لا إمارة لك عليه » .

الخامسة ـ روى الأئمة واللفظ للدّارَقُطْنِيّ عن علىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فَضْلَ بينهما من كانت له حاجة بورق فليَصرِفْها بذهب و إن كانت له حاجةٌ بذهب فليصرفها بورِق هَاءَ وهَاءَ"[2] . قال العلماء فقوله

---

(١) هو حماد بن زيد أحد رجال هذا الحديث .

(٢) قال ابن الأثير : « هو أن يقول كل واحد من البَيِّعين « ها » فيعطيه ما فى يده ، يعنى مقايضة فى المجلس . وقيل معناه هاك وهات ، أى خذ وأعط . قال الخطابى : أصحاب الحديث يروونه « ها وها » ساكنة الألف ، ـــ

عليه السلام : "الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما" إشارةً إلى جنس الأصل المضروب؛ بدليل قوله : "الفضة بالفضة والذهب بالذهب" الحديث . والفضة البيضاء والسوداء والذهب الأحمر والأصفر كل ذلك لا يجوز بيع بعضه ببعض إلا مثلا بمثل سواء بسواء على كل حال؛ على هذا جماعة أهل العلم على ما بيّنا . واختلفت الرواية عن مالك في الفلوس فألحقها بالدراهم من حيث كانت ثمنا للأشياء، ومنع من إلحاقها مرّة من حيث إنها ليست ثمنا في كل بلد وإنما يختص بها بلد دون بلد .

السادسة — لا اعتبار بما قد رُوى عن كثير من أصحاب مالك وبعضهم يرويه عن مالك في التاجر يحفزه الخروج وبه حاجة إلى دراهمَ مضروبةٍ أو دنانيرَ مضروبةٍ ، فيأتي دار الضرب بفضته أو ذهبه فيقول للضرّاب؛ خذ فضّتي هذه أو ذهبي وخذ قدر عمل يدك وادفع إليّ دنانير مضروبةً في ذهبي أو دراهمَ مضروبةً في فضّتي هذه لأني محفوز للخروج وأخاف أن يفوتني من أخرج معه، أن ذلك جائز للضرورة، وأنه قد عمل به بعض الناس . وحكاه ابن العربيّ في قبسه عن مالك في غير التاجر ، وأن مالكا خفّف في ذلك؛ فيكون في الصورة قد باع فضته التي زنتها مائة وخمسة دراهم أجره بمائة وهذا محض الربا . والذي أوجب جواز ذلك أنه لو قال له : إضرب لي هذه وقاطعه على ذلك بأجرة ، فلما ضربها قبضها منه وأعطاه أجرتها ؛ فالذي فعل مالك أوّلا هو الذي يكون آخرا ، ومالك إنما نظر إلى المآل فركّب عليه حكم الحال ، وأباه سائر الفقهاء . قال ابن العربيّ : والحجة فيه لمالك بيّنة . قال أبو عمر رحمه الله : وهذا هو عين الرِّبا الذي حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : "من زاد أو ازداد فقد أربى" . وقد ردّ ابن وهب هذه المسألة على مالك وأنكرها . وزعم الأبهريّ أن ذلك من باب الرفق لطلب التجارة ولئلا يفوت السوق، وليس الربا إلا على من أراد أن يُربي ممن يقصد إلى ذلك ويبتغيه . ونسي الأبهريّ أصله في قطع الذرائع ، وقوله

= والصواب مدها وفتحها ، لأن أصلها هاك ، أي خذ فحذفت الكاف وعوضت منها المدّة والهمزة؛ يقال للواحد هاء وللاثنين هاؤما وللجمع هاؤم . وغير الخطابي يجيز فيها السكون على حذف العوض وتنزله منزلة «ها» التي للتنبيه . وفيها لغات أخرى» .

فيمن باع ثوبا بنسيئة وهو لا نيّة له فى شرائه ثم يجده فى السوق يباع : إنه لا يجوز له ابتياعه منه بدون ما باعه به وإن لم يقصد إلى ذلك ولم يبتغه؛ ومثله كثير؛ ولو لم يكن الربا إلا على مَن قصده ما حُرّم إلا على الفقهاء . وقد قال عمر : لا يتّجر فى سوقنا إلا من فَقُه وإلّا أكل الربا . وهذا بيّن لمن رُزق الإنصاف وأُلهم رشده .

قلت : وقد بالغ مالك رحمه الله فى منع الزيادة حتى جعل المتوهَّم كالمتحقق؛ فمنع دينارا ودرهما بدينار ودرهم سَدًّا للذّريعة وحَسْمًا للتوهُّمات؛ إذ لولا توهُّم الزيادة لما تبادلا . وقد عُلّل منع ذلك بتعذر المماثلة عند التوزيع ؛ فإنه يلزم منه ذهب وفضة بذهب . وأوضح من هذا منعه التفاضل المعنوىّ؛ وذلك أنه منع دينارا من الذهب العالى ودينارا من الذهب الدون فى مقابلة العالى وألغى الدون؛ وهذا من دقيق نظره رحمه الله ؛ فدل أن تلك الرواية عنه مُنْكَرَة ولا تصح . والله أعلم .

السابعة ـ قال الخطّابىّ : التِّبْر قِطَع الذهب والفضة قبل أن تُضرَب وتُطبع دراهم أو دنانير، واحدتها تِبْرة . والعَيْن : المضروب من الدراهم أو الدنانير . وقد حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يباع مثقال ذهب عَيْنٍ بمثقالٍ وشىء من تِبْرٍ غيرِ مضروب . وكذلك حرّم التفاوت بين المضروب من الفضة وغير المضروب منها ؛ وذلك معنى قوله : "تِبْرُها وعَيْنُها سواء" .

الثامنة ـ أجمع العلماء على أن التمر بالتمر ولا يجوز إلا مثلًا بمثل . واختلفوا فى بيع التمرة الواحدة بالتمرتين ، والحبة الواحدة من القمح بحبّتين ؛ فمنعه الشافعىّ وأحمد وإسحاق والثّورىّ ؛ وهو قياس قول مالك وهو الصحيح ؛ لأن ما جرى الرِّبا فيه بالتفاضل فى كثيره دخل قليله فى ذلك قياسا ونَظَرا . احتجّ من أجاز ذلك بأن مستهلك التمرة والتمرتين لا تجب عليه القيمة ، قال : لأنه لا مَكيل ولا موزون فجاز فيه التفاضل .

التاسعة ـ اعلم رحمك الله أن مسائل هذا الباب كثيرة وفروعه منتشرة ، والذى يَربط لك ذلك أن تنظر إلى ما اعتبره كل واحد من العلماء فى عِلّة الربا ؛ فقال أبو حنيفة :

علة ذلك كونه مكيلا أو موزونا جنسا ، فكل مايدخله الكيل أو الوزن عنده من جنس واحد ، فإن بيع بعضه ببعض متفاضلا أو نسيئًا لا يجوز؛ فمنع بيع التراب بعضه ببعض متفاضلا ؛ لأنه يدخله الكيل ، وأجاز الخبز قرصا بقرصين؛ لأنه لم يدخل عنده في الكيل الذي هو أصله ، فخرج من الجنس الذي يدخله الربا إلى ما عداه. وقال الشافعي : العلة كونه مطعوما جنسًا . هذا قوله في الجديد ؛ فلا يجوز عنده بيع الدقيق بالخبز ولا بيع الخبز بالخبز متفاضلا ولا نسيئا ، وسواء أكان الخبز خميرا أو فطيرا . ولا يجوز عنده بيضة ببيضتين، ولا رمانة برمانتين، ولا بطيخة ببطيختين لا يدًا بيد ولا نسيئة؛ لأن ذلك كله طعام مأكول . وقال في القديم : كونه مكيلا أو موزونا . واختلفت عبارات أصحابنا المالكية في ذلك ؛ وأحسن ما في ذلك كونه مقتاتا مدخرا للعيش غالبا جنسا؛ كالحنطة والشعير والتمر والملح المنصوص عليها، وما في معناها كالأرز والذرة والدخن والسمسم ، والقطاني كالفول والعدس واللوبياء والحمص، وكذلك اللحوم والألبان والخلول والزيوت ، والثمار كالعنب والزبيب والزيتون ، واختلف في التين ، ويلحق بها العسل والسكر . فهذا كله يدخله الربا من جهة النساء . وجائز فيه التفاضل لقوله عليه السلام : " إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد " . ولا ربا في رطب الفواكه التي لا تبقى كالتفاح والبطيخ والرمان والكمثرى والقثاء والخيار والباذنجان وغير ذلك من الخضروات. قال مالك: لا يجوز بيع البيض بالبيض متفاضلا؛ لأنه مما يدخر، ويجوز عنده مثلا بمثل . وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : جائز بيضة ببيضتين وأكثر؛ لأنه مما لا يدخر، وهو قول الأوزاعي .

العاشرة — اختلف النحاة في لفظ « الربا » فقال البصريون : هو من ذوات الواو؛ لأنك تقول في تثنيته : ربوان؛ قاله سيبويه. وقال الكوفيون : يكتب بالياء، وتثنيته بالياء؛ لأجل الكسرة التي في أوله . قال الزجاج : مارأيت خطأ أقبح من هذا ولا أشنع !لايكفيهم الخطأ في الخط حتى يخطئوا في التثنية وهم يقرءون « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ »[1] قال محمد بن يزيد : كتب « الربا » في المصحف بالواو فرقا بينه وبين الزنا، وكان الربا أولى منه بالواو ؛ لأنه من ربا يربو .

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٦

الحادية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ الجملة خبر الابتداء وهو « الَّذِينَ » . والمعنى من قبورهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبير وقَتادة والربيع والضّحاك والسُّدّي وابن زيد . وقال بعضهم : يجعل معه شيطان يخنقه . وقالوا كلهم : يُبعث كالمجنون عقوبةً له وتمقيتاً عند جميع أهل المَحْشَر . ويُقوّي هذا التأويل المُجْمَع عليه أن في قراءة ابن مسعود « لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم » . قال ابن عطية : وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحِرْص وجَشَع إلى تجارة الدنيا (١) بقيام المجنون، لأن الطمع والرغبة تستفِزّه حتى تضطرب أعضاؤه؛ وهذا كما تقول لمسرع في مشيه يخلط في هيئة حركاته إما من فزع أو غيره: قد جُنّ هذا! وقد شبّه الأَعْشَى ناقته في نشاطها بالجنون في قوله :

وتُصبِح عن غِبّ السُّرَى وكأنّما ❊ أَلَمَّ بها من طائف الجنّ أَوْلَقُ (١)

وقال آخر :

❊ لَعَمْرُكَ بي من حُبّ أسماءَ أَوْلَقُ ❊

لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود وتظاهرت به أقوال المفسرين يضعّف هذا التأويل . و « يَتَخَبَّطُهُ » يتفعّله من خَبَط يخبِط ؛ كما تقول : تملّكه وتعبّده . فجعل الله هذه العلامة لأَكَلة الربا ؛ وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم ، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون . ويقال : إنهم يبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحُبَالَى، وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم . وقال بعض العلماء : إنما ذلك شِعارٌ لهم يُعرفون به يوم القيامة ثم العذاب من وراء ذلك ؛ كما أن الغالّ يجيء بما غَلّ يوم القيامة بشهرة يشهّر بها ثم العذاب من وراء ذلك . وقال تعالى : « يَأْكُلُونَ » والمراد يكسبون الربا ويفعلونه . وإنما خصّ الأكل بالذِّكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال؛ ولأنه دالّ على الجشع وهو أشدّ الحرص؛ يقال : رجل جَشِع بيّن الجَشَع وقوم جَشِعون؛ قاله في المُجْمَل . فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كلّه؛ فاللباس والسكنى والادّخار والإنفاق على العيال داخل في قوله : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ » .

(١) في ابن عطية : تجارة الربا . الأولق : شبه الجنون .

الثانية عشرة — فى هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصَّرْع من جهة الجنّ، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ولا يكون منه مَسّ، وقد مضى الردّ عليهم فيما تقدّم من هذا الكتاب . وقد روى النسائىّ عن أبى اليَسَر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : "اللّهم إنى أعوذ بك من التَّردِّى والهدم والغرق والحريق وأعوذ بك أن يتخبّطنى الشيطان عند الموت وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مُدْبِرا وأعوذ بك أن أموت لَدِيغا" . ورُوى من حديث محمد بن المُثَنَّى حدّثنا أبو داود حدّثنا همّام عن قَتادة عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : "اللّهم إنى أعوذ بك من الجنون والجُذام والبَرَص وسَيِّئ الأسقام" . والمس : الجنون؛ يقال: مُسَّ الرجُل وأُلِسَ؛ فهو ممسوس ومألُوس إذا كان مجنونا؛ وذلك علامة الربا فى الآخرة . وروى فى حديث الإسراء : "فانطلق بى جبريل فمررت برجال كثير كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضَّخْم متصدّين على سابلة آل فرعون وَآلُ فرعون يُعرضون على النار بُكْرَةً وَعَشِيًّا فيُقبِلون مثل الإبل المَهْيومة(١) يتخبّطون الحجارة والشجر لا يسمعون ولا يعقلون فإذا أحسّ بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع فلا يستطيعون بَرَاحاً حتى يغشاهم آل فرعون فيطئونهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم فى البَرْزَخ بين الدنيا والآخرة وآل فرعون يقولون اللهم لا تُقِم الساعة أبدا؛ فإن الله تعالى يقول : «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»(٢) — قلت — يا جبريل من هؤلاء؟ قال : "هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبّطه الشيطان من المسّ" . والمسّ الجنون وكذلك الأَوْلَق والأَلْس والرَّود(٣) .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ معناه عند جميع المتأوّلين فى الكفار، ولهم قيل : « فَلَهُ مَا سَلَفَ » ولا يقال ذلك لمؤمن عاص بل ينقض بيعه

(١) المهيوم : المصاب بداء الهيام، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فتهيم فى الأرض لا ترعى . وقيل : هو داء يصيبها فتعطش فلا تروى : وقيل : داء من شدّة العطش . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣١٨

(٣) كذا فى الأصول وابن عطية ولم يسدها وجه اللهم إلا ما ورد : إن الشيطان يريد ابن آدم بكل ريدة؛ أى بكل مطلب ومراد، والريدة اسم من الإرادة . النهاية .

ويرد فعله وإن كان جاهلا؛ فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : "مَن عمل عمَلا ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ". لكن قد يأخذ العصاة في الربا بطرف من وعيد هذه الآية.

الرابعة عشرة ـ قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي إنما الزيادة عند حلول الأجل آخرًا كمثل أصل الثمن في أول العقد، وذلك أن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك؛ فكانت إذا حلّ دَيْنها قالت للغريم : إما أن تَقْضِي وإما أن تُرْبِي، أي تزيد في الدَّين. فحرم الله سبحانه ذلك وردّ عليهم قولهم بقوله الحق : « وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » وأوضح أن الأجل إذا حلّ ولم يكن عنده ما يؤدّي أُنْظِر إلى المَيْسرة. وهذا الربا هو الذي نسخه النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله يوم عرفة لمّا قال : "ألا إن كل رِبًا موضوع وإن أول رِبا أضعه رِبانا رِبا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله". فبدأ صلى الله عليه وسلم بعمّه وأخص الناس به. وهذا من سنن العدل للإمام أن يُفيض العدل على نفسه وخاصته فيستفيض حينئذ في الناس.

الخامسة عشرة ـ قوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ هذا من عموم القرآن، والألف واللام للجنس لا للعهد إذ لم يتقدّم بيع مذكور يُرجع إليه؛ كما قال تعالى : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » ثم استثنى « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » (١). وإذا ثبت أن البيع عام فهو مخصّص بما ذكرناه من الربا وغير ذلك مما نُهي عنه ومنع العقد عليه؛ كالخمر والميتة وحَبَلَ الحَبَلة (٢) وغير ذلك مما هو ثابت في السُّنَّة وإجماع الأمة النَّهيُ عنه. ونظيره « اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ » (٣) وسائر الظواهر التي تقتضي العمومات ويدخلها التخصيص، وهذا مذهب أكثر الفقهاء. وقال بعضهم : هو من مجمل القرآن الذي فسرّ بالمحلّل من البيع وبالمحرّم فلا يمكن أن يُستعمَل في إحلال البيع وتحريمه إلا أن يقترن به بيانٌ من سُنّة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن دلّ على إباحة البيوع في الجملة دون التفصيل. وهذا فرق ما بين العموم والمُجْمَل.

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٧٨ (٢) الحبل (بالتحريك) مصدر سمي به المحمول كما سمي بالحمل ، وإنما دخلت عليه التاء للاشعار بمعنى الأنوثة فيه.؛ فالحبل الأول يراد به ما في بطون النوق من الحمل ، والثاني حبل ما في بطون النوق . وإنما نهي عنه لمعنيين : أحدهما أنه غرر، وبيع شيء لم يخلق بعد، وهو أن يبيع ما سوف يحمله الجنين الذي في بطن الناقة على تقدير أن تكون أنثى ؛ فهو بيع نتاج النتائج . وقيل أراد بحبل الحبلة أن يبيعه إلى أجل ينتج فيه الحمل الذي في بطن الناقة ؛ فهو أجل مجهول ولا يصح (عن نهاية ابن الأثير) . (٣) راجع جـ ٨ ص ٧١

فالعموم يدل على إباحة البيوع فى الجملة والتفصيل ما لم يخص بدليل . والمجمل لا يدل على إباحتها فى التفصيل حتى يقترن به بيان . والأول أصح . والله أعلم .

السادسة عشرة — البيع فى اللغة مصدر باع كذا بكذا ، أى دفع عوضا وأخذ معوّضا . وهو يقتضى بائعا وهو المالك أو من يُنزّل منزلته ، ومُبتاعا وهو الذى يبذل الثمن ، ومَبيعا وهو المثمون وهو الذى يُبذَل فى مقابلته الثمن وعلى هذا فأركان البيع أربعة : البائع والمبتاع والثمن والمُثَمَّن . ثم المعاوضة عند العرب تختلف بحسب اختلاف ما يضاف إليه ؛ فإن كان أحد المعوّضين فى مقابلة الرّقبة سُمّى بيعا ، وإن كان فى مقابلة منفعة رقبة فإن كانت منفعة بُضع سُمّى نكاحا ، وإن كانت منفعة غيرها سُمّى إجارة ، وإن كان عَيْنا بعين فهو بيع النقد وهو الصرف ، وإن كان بديْن مُؤَجّل فهو السَّلَم ، وسيأتى بيانه فى آية الدّين[1] . وقد مضى حكم الصَّرْف[2] ، ويأتى حكم الإجارة فى « القصص » وحكم المهر فى النكاح فى « النساء »[3] كلّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

السابعة عشرة — البيع قبولٌ وإيجاب يقع باللفظ المستقبل والماضى ؛ فالماضى فيه حقيقة والمستقبل كناية ، ويقع بالصّريح والكناية المفهوم منها نقل الملك . فسواء قال : بعتك هذه السِّلعة بعشرة فقال : اشتريتها ، أو قال المشترى : اشتريتها وقال البائع : بعتُكَهَا ، أو قال البائع : أنا أبيعك بعشرة فقال المشترى : أنا أشترى أو قد اشتريت ، وكذلك لو قال : خذها بعشرة أو أعطيتكها أو دونكها أو بُورك لك فيها بعشرة أو سلمتها إليك — وهما يريدان البيع — فذلك كلّه بيع لازم . ولو قال البائع : بعتك بعشرة ثم رجع قبل أن يقبل المشترى فقد قال[4] : ليس له أن يرجع حتى يسمع قبول المشترى أو ردّه ؛ لأنه قد بذل ذلك من نفسه وأوجبه عليها ، وقد قال ذلك له ؛ لأن العقد لم يتم عليه . ولو قال البائع : كنت لاعبا ، فقد اختلفت الرواية عنه ؛ فقال مرّة : يلزمه البيع ولا يلتفت إلى قوله . وقال مرّة : ينظر إلى قيمة السلعة .

---

(١) راجع ص ٣٧٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٢ فما بعد . (٣) راجع جـ ٥ ص ٢٣ وص ٩٩ . (٤) قوله فقد قال ؛ يعنى مالكا كما يأتى قوله : فقد اختلفت الرواية عنه الخ .

فإن كان الثمن يشبه قيمتها فالبيع لازم ، وإن كان متفاوتا كعبد بدرهم ودار بدينار ، عُلم أنه لم يُرد به البيع ، وإنما كان هازلا فلم يلزمه .

الثامنة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ الألف واللام هنا للعهد ، وهو ما كانت العرب تفعله كما بيّناه ، ثم تتناول ما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه من البيع الذي يدخله الربا وما فى معناه من البيوع المنهىّ عنها .

التاسعة عشرة ــ عقد الربا مفسوخ لا يجوز بحال ؛ لما رواه الأئمة واللفظ لمسلم عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال : جاء بلال بتمر بَرْنِىّ (١) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أين هذا" ؟ فقال بلال : من تمر كان عندنا ردئ ، فبعت منه صاعين بصاع لمَطْعَم النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : " أَوَّهْ (٢) عينُ الرِّبا لا تفعل ولكن إذا أردت أن تشترىَ التمر فبعه ببيع آخر ثم اشتر به " وفى رواية " هذا الرِّبا فردّوه ثم بيعوا تمرنا واشتروا لنا من هذا " . قال علماؤنا : فقوله : " أوه عين الربا " أى هو الربا المحرّم نفسه لا ما يشبهه . وقوله : " فردّوه " يدل على وجوب فسخ صفقة الربا وأنها لا تصح بوجه ؛ وهو قول الجمهور ؛ خلافا لأبى حنيفة حيث يقول : إنّ بيع الربا جائز بأصله من حيث هو بيع ، ممنوع بوصفه من حيث هو رِبًا ، فيسقط الربا ويصح البيع . ولو كان على ما ذُكر لما فسخ النبىّ صلى الله عليه وسلم هذه الصفقة ، ولأمره بردّ الزيادة على الصاع ولصحّح الصفقة فى مقابلة الصاع .

الموفية عشرين ــ كل ما كان من حرام بيّن فُسخ فعلى المبتاع ردّ السلعة بعينها . فإن تلفت بيده ردّ القيمة فيما له القيمة ، وذلك كالعقار والعُروض والحيوان ، والمِثْل فيما له مثل من موزون أو مكيل من طعام أو عَرَض . قال مالك : يُردّ الحرام البيّن فات أو لم يفت ، وما كان مما كره الناس رُدّ إلا أن يفوت فيترك .

---

(١) البرنى (بفتح الموحدة وسكون الراء وفى آخره ياء مشددة) : ضرب من التمر أحمر بصفرة كثير اللحاء (وهو ما كسا النواة) عذب الحلاوة .

(٢) راجع حاشية ٣ ص ٢٣٦ من هذا الجزء .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قال جعفر بن محمد الصّادق رحمهما الله : حرّم الله الربا ليتقارض الناس . وعن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "قَرْضُ مرّتين يعدل صدقة مرّة" أخرجه البزّار ، وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى . وقال بعض الناس : حرمه الله لأنه مَتْلَفة للأموال مَهْلَكة للناس . وسقطت علامة التأنيث فى قوله تعالى : « فَمَنْ جَاءَهُ » لأن تأنيث « الموعظة » غير حقيقى وهو بمعنى وعظ . وقرأ الحسن « فمن جاءته » بإثبات العلامة .

هذه الآية تلتها عائشة لمّا أخبرت بفعل زيد بن أَرْقَم . وروى الدّارَقُطْنِى عن العالية بنت أنفع قالت : خرجت أنا وأم مُحِبّة إلى مكة فدخلنا على عائشة رضى الله عنها فسلمنا عليها ، فقالت لنا : ممن أنتن ؟ قلنا من أهل الكوفة ، قالت : فكأنها أعرضت عنا ، فقالت لها أم مُحِبّة : يا أمّ المؤمنين ! كانت لى جارية وإنى بعتها من زيد بن أرقم الأنصارى بثمانمائة درهم إلى عطائه وإنه أراد بيعها فابتعتها منه بستمائة درهم نقدا . قالت : فأقبلت علينا فقالت : بئسما شريتِ وما اشتريت ! فأبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يتوب . فقالت لها : أرأيت إن لم آخذ منه إلا رأس مالى ؟ قالت : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ » . العالية هى زوج أبى إسحاق الهَمْدانى الكوفى السَّبِيعى أم يونس بن أبى إسحاق . وهذا الحديث أخرجه مالك من رواية ابن وهب عنه فى بيوع الآجال ، فإن كان منها ما يؤدّى إلى الوقوع فى المحظور منع منه وإن كان ظاهره بيعا جائزا . وخالف مالكا فى هذا الأصل جمهورُ الفقهاء وقالوا : الأحكام مبنيّة على الظاهر لا على الظنون . ودليلنا القول بسدّ الذرائع ؛ فإن سلّم وإلا استدللنا على صحته . وقد تقدّم . وهذا الحديث نصٌّ ؛ ولا تقول عائشة « أبلغى زيدا أنه قد أبطل جهاده إلا أن يتوب » إلا بتوقيف ، إذ مثله لا يقال بالرأى فإن إبطال الأعمال لا يتوصل إلى معرفتها إلا بالوحى كما تقدّم . وفى صحيح مسلم عن النُّعمان بن بَشِير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الحلالَ بيّن والحرامَ بيّن وبينهما أمورٌ مشتبهات لا يعلمهنّ كثيرٌ من الناس فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرْضه ومن وقع فى الشُّبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى

حول الحمى يُوشك أن يوقع فيه ألا وإن لكل ملك حمىً ألا وإن حمى الله محارمه"[(١)]. وجهُ دلالته أنه منع من الإقدام على المتشابهات مخافة الوقوع في المحرمات وذلك سدٌّ للذريعة . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن من الكبائر شتمَ الرجل والديه " قالوا : وكيف يشتم الرجل والديه ؟ قال : " يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه ويسبُّ أمّه فيسب أمه " . فجعل التعريض لسبّ الآباء كسب الآباء . ولعن صلى الله عليه وسلم اليهود إذ أكلوا ثمن ما نُهُوا عن أكله . وقال أبو بكر في كتابه : لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة . ونهى ابن عباس عن دراهم بدراهم بينهما جريرة[(٢)] . واتفق العلماء على منع الجمع بين بيع وسلف ، وعلى تحريم قليل الخمر وإن كان لا يُسْكِر ، وعلى تحريم الخَلْوة بالأجنبية وإن كان عِنّينا ، وعلى تحريم النظر إلى وجه المرأة الشابّة إلى غير ذلك مما يكثُر ويعلم على القطع والثبات أن الشرع حكم فيها بالمنع ؛ لأنها ذرائع المحرمات . والربا أحق ما حُمِيَتْ مراتعه وسُدّت طرائقه ، ومن أباح هذه الأسباب فليُبح حفر البئر ونصب الحبالات لهلاك المسلمين والمسلمات ، وذلك لا يقوله أحد . وأيضا فقد اتفقنا على منع من باع بالعِينة إذا عُرِف بذلك وكانت عادته ، وهي في معنى هذا الباب . والله الموفق للصواب .

الثانية والعشرون ــ روى أبو داود عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا تبايعتم بالعِينة وأخذتم أذنابَ البقر ورَضِيتم بالزَّرْع وتركتم الجهادَ سلّط الله عليكم ذُلّا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم " . في إسناده أبو عبد الرحمن الخَراساني[(٣)] . ليس بمشهور . وفسر أبو عُبيد الهَرَوِي العِينةَ فقال : هي أن يبيع من رجل سلعةً بثمن معلوم إلى أجلٍ مسمّى ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به . قال : فإن اشترى بحضرة طالب العِينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العِينة بثمن أكثر مما اشتراه إلى أجل مسمى ، ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن

(١) الحديث أثبتناه كما في صحيح مسلم طبع الآستانة ص ٥ جـ ٥ . وفي ب و د و جـ : يوشك أن يواقعه .

(٢) كذا في هـ و ا وفي حـ و ب و جـ : حريره ، والذي يبدو أن المعنى : دراهم بدراهم معها شيء قد يكون فيه تفاضل ، ولعل الأصل : بينهما جديدة . أي بينهما تفاضل لما بين الجديد والقديم منها من الفرق .

(٣) في ا على الهامش : في إسناده أبو عبد الرحمن الخراساني اسمه إسحاق بن أسيد نزيل مصر لا يحتج به ، وفيه أيضا عطاء الخراساني ، وفيه : فقال لهم لم يذكره الشيخ رضي الله عنه ليس بمشهور .

فهذه أيضا عِينةٌ، وهى أهون من الأولى، وهو جائز عند بعضهم. وسُمّيت عينةً لحضور النقد[1] لصاحب العينة، وذلك أن العَيْن هو المال الحاضر والمشترى إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضر يصل إليه من فوره ».

الثالثة والعشرون — قال علماؤنا : فمَنْ باعَ سلعةً بثمن إلى أجل ثم ابتاعها بثمن من جنس الثمن الذى باعها به ، فلا يخلو أن يشتريها منه بنقد ، أو إلى أجلٍ دون الأجل الذى باعها إليه ، أو إلى أبعد منه ، بمثل الثمن أو بأقل منه أو بأكثر؛ فهذه ثلاث مسائل: وأما الأولى والثانية فإن كان بمثل الثمن أو أكثر جاز ، ولا يجوز بأقل على مقتضى حديث عائشة ؛ لأنه أعطى ستمائة ليأخذ ثمانمائة والسلعة لغو ، وهذا هو الربا بعينه . وأما الثالثة إلى أبعد من الأجل ، فإن كان اشتراها وحدها أو زيادة فيجوز بمثل الثمن أو أقل منه ، ولا يجوز بأكثر ؛ فإن اشترى بعضها فلا يجوز على كل حال لا بمثل الثمن ولا بأقل ولا بأكثر . ومسائل هذا الباب حصرها علماؤنا فى سبع وعشرين مسألة ، ومدارها على ما ذكرناه ، فاعلم .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى :﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ أى من أمر الربا لا تِباعةً عليه منه فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ قاله السُّدّى وغيره . وهذا حكم من الله تعالى لمن أسلم من كفار قريش وثقيف ومن كان يَتجر هنالك . وسلف : معناه تقدّم فى الزمن وانقضى .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ فيه أربع تأويلات : أحدها أن الضمير عائد إلى الربا ، بمعنى وأمر الربا إلى الله فى إمرار تحريمه أو غير ذلك . والآخر أن يكون الضمير عائدا على « ما سلف » أى أمره إلى الله تعالى فى العفو عنه و إسقاط التَّبِعة فيه . والثالث أن يكون الضمير عائدا على ذى الربا ، بمعنى أمره إلى الله فى أن يثبته على الانتهاء أو يعيده[2] إلى المعصية فى الربا . واختار هذا القول النحاس ، قال : وهذا قول حسن بيِّن ، أى وأمرُه إلى الله فى المستقبل إن شاء ثبّته على التحريم و إن شاء أباحه . والرابع أن يعود الضمير على المنتهى؛ ولكن بمعنى التأنيس له و بسط أمله فى الخير؛ كما تقول: وأمره إلى طاعة وخير ، وكما تقول : وأمره فى نمو و إقبال إلى الله تعالى و إلى طاعته .

(١) فى هـ و ب و حـ : لحضول .

(٢) كذا فى ابن عطية وهـ و ب و جـ ، وفى حـ و ا : أمره إلى الله فى أن يثبه ... أو يعذبه على المعصية فى الربا .

ع السادسة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ يعنى إلى فعل الربا حتى يموت ؛ قاله سفيان . وقال غيره : مَنْ عاد فقال إنما البيع مثل الربا فقد كفر . قال ابن عطية : إن قدرنا الآية فى كافر فالخلود خلود تأبيد حقيقى ، و إن لحظناها فى مسلم عاص فهذا خلود مستعار على معنى المبالغة ، كما تقول العرب : مُلْكٌ خالد ، عبارةً عن دوام ما لا يبقى على التأبيد الحقيقى :

السابعة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ يعنى فى الدنيا أى يذهب بركته و إن كان كثيرا . روى ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الرِّبا و إن كَثُر فعاقبتُه إلى قُلّ " . وقيل : «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا» يعنى فى الآخرة . وعن ابن عباس فى قوله تعالى : « يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا » قال : لا يقبل منه صدقةً ولا حجًّا ولا جهادًا ولا صلةً . والمَحْقُ : النقص والذهاب ؛ ومنه مُحَاق القمر وهو انتقاصه . ﴿ وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ ﴾ أى يُنَمِّيها فى الدنيا بالبركة ويُكثر ثوابَها بالتضعيف فى الآخرة . وفى صحيح مسلم[(١)] : " إن صدقة أحدكم لتقع فى يد الله فيُربّيها له كما يُرَبِّى أحدُكم فَلُوَّه أو فصيلَه حتى يجيء يوم القيامة و إن اللّقمة لعلى قدر أُحُد " . وقرأ ابن الزبير « يُمْحِق » بضم الياء وكسر الحاء مشدّدة «يُرَبِّى» بفتح الراء وتشديد الباء ، ورُويت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم كذلك .

الثامنة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ ووصف كَفّار بأثيم مبالغة ، من حيث اختلف اللفظان . وقيل : لإزالة الاشتراك فى كَفّار ، إذ قد يقع على الزارع الذى يستر الحب فى الأرض : قاله ابن فُورَك .

وقد تقدّم القول فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ . وخص الصلاة والزكاة بالذكر وقد تضمّنها عمل الصالحات تشريفًا لها وتنبيها على قدرها إذ هما رأس الأعمال ؛ الصلاة فى أعمال البدن ، والزكاة فى أعمال المال .

التاسعة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضا و إن كان معقودا قبل

(١) كذا فى ج ، وفى سائر الأصول : فى صحيح الحديث .

نزول آية التحريم، ولا يتعقب بالفسخ ما كان مقبوضا . وقد قيل : إن الآية نزلت بسبب ثقيف ، وكانوا عاهدوا النبيّ صلى الله عليـه وسلم على أن مالهم من الربا على الناس فهو لهم ، وما للناس عليهم فهو موضوع عنهم ، فلمـا أن جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاء ، وكانت الديون لبنى عبدة وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف،وكانت على بنى المغيرة المخزوميين . فقال بنو المغيرة: لانعطى شيئا فإن الربا قد رُفـع . ورفعوا أمرهم إلى عتّاب بن أَسيد،فكتب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزلت الآية فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتّاب ؛ فعلمت بهـا ثقيف فكفّت . هـذا سبب الآية على اختصار مجموع ما رَوى ابن إسحاق وابن جريج والسُّدّى وغيرهم . والمعنى اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً بترككم ما بقى لكم من الربا وصفحكم عنه .

المُوفية ثلاثين ـــ قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرطٌ محض فى ثَقِيف على بابه ؛ لأنه كان فى أوّل دخولهم فى الإسلام . وإذا قدرنا الآية فيمن قد تقرر إيمـانه فهو شرط مجازىّ على جهة المبالغة ؛ كما تقول لمن تريد إقامة[1] نفسه : إن كنت رجلا فافعل كذا . وحكى النّقاش عن مُقَاتل بن سليمان أنه قال : إنّ «إنْ» فى هذه الآية بمعنى «إذ» . قال ابن عطيّة : وهذا مردود لا يعرف فى اللغة . وقال ابن فَوْرَك : يحتمل أن يريد «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» بمن قبل محمد عليه السلام من الأنبياء «ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بمحمد صلى الله عليه وسلم ! إذ لا ينفع الأوّل إلا بهذا . وهذا مردود بما روى فى سبب الآية .

الحادية والثلاثون ـــ قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا وعيد إن لم يَذَروا الربا، والحرب داعية القتل . وروى ابن عباس أنه يقال يوم القيامة لآكل الربا : خُذْ سلاحك للحرب . وقال ابن عبّاس أيضا: مَنْ كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع وإلا ضرب عنقه . وقال قتـادة : أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بَهْرجًا[2] أينما ثُقِفُوا[3] . وقيل : المعنى إن لم تنتهوا فأنتم حربٌ لله ولرسوله ، أى

(١) أى إثارة نفسه . (٢) البهرج : الشيء المباح . (٣) ثقفه : أخذه أو ظفر به أو صادفه .

أعداء . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالًا كانوا مرتدّين، والحكم فيهم كالحكم في أهل الرِّدّة ، وإن لم يكن ذلك منهم استحلالًا جاز للإمام محاربتُهم ؛ ألا ترى أن الله تعالى قد أذن في ذلك فقال : « فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ » . وقرأ أبو بكر عن عاصم « فآذِنوا» على معنى فأعلموا غيرَكم أنكم على حربهم .

الثانية والثلاثون ــ ذكر ابن بكير قال : جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله ، إني رأيت رجلا سكرانًا يتعاقر يريد أن يأخذ القمر ؛ فقلت : امرأتي طالق إن كان يدخل جوف ابن آدم أشرُّ من الخمر . فقال : ارجعْ حتى أنظر في مسألتك . فأتاه من الغد فقال له : ارجع حتى أنظر في مسألتك فأتاه من الغد فقال له : امرأتك طالق ؛ إني تصفحت كتاب الله وسنّة نبيه فلم أر شيئا أشرّ (1) من الربا ؛ لأن الله أذِن فيه بالحرب .

الثالثة والثلاثون ــ دلّت هذه الآية على أن أكل الربا والعمل به من الكبائر، ولا خلاف في ذلك على ما نبيّنه . ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يأتي على الناس زمانٌ لا يبقى أحد إلا أكل الربا ومن لم يأكل الربا أصابه غُباره " وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله ابن حنظلة (2) غسيل الملائكة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لَدرهمُ رِبًا أشدُّ عند الله تعالى من ستٍ وثلاثين زَنْيَة في الخطيئة " وروى عنه عليه السلام أنه قال : " الربا تسعةٌ وتسعون بابا أدناها كإتيان الرجل بأمّه " يعني الزنا بأمه . وقال ابن مسعود آكل الربا وموكّله وكاتبه وشاهده ملعون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وروى البخاريّ عن أبي جُحَيْفَة قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الدم (3) وثمن الكلب وكسب البغي ولعن آكل الربا وموكله والواشمة والمستوشمة والمصور (4) . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) في جـ و هـ و ب : أشد . (2) في الاستيعاب أن حنظلة الغسيل قتل يوم أحد شهيدا قتله أبو سفيان . كان قد ألم بأهله في حين خروجه إلى أحد ثم هجم عليه من الخروج في النفير ما أنساه الغسل وأعجله عنه ؛ فلما قتل شهيدا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته . (3) أي أجرة الحجامة ، وأطلق عليه الثمن تجوزا .

(4) اعتمدنا الحديث كما في صحيح البخاري راجع العسقلاني جـ ١٠ ص ٣٣٠

قال : " اجتنبوا السبع الموبقات ... - وفيها - وآكل الربا " . وفى مصنف أبى داود عن ابن مسعود قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده .

الرابعة والثلاثون - قوله تعالى : « وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ » الآية . روى أبو داود عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى حجة الوداع : " ألا إن كلّ رِبًا من ربا الجاهلية موضوعٌ لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلَمون " وذكر الحديث . فردّهم تعالى مع التوبة إلى رؤوس أموالهم وقال لهم : « لَا تَظْلِمُونَ » فى أخذ الربا « وَلَا تُظْلَمُونَ » فى أن يُتمَسّك بشىء من رؤوس أموالكم فتذهب أموالكم . ويحتمل أن يكون « لا تُظْلَمُونَ » فى مطل؛ لأن مطل الغنىّ ظلم؛ فالمعنى أنه يكون القضاء مع وضع الربا، وهكذا سُنّة الصلح، وهذا أشبه شىء بالصلح . ألا ترى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لما أشار إلى كعب بن مالك فى دَيْن ابن أبى حَدْرَد بوضع الشطر فقال كعب : نعم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للآخر : " قُم فاقْضِه " . فتلقّى العلماء أمره بالقضاء سنّة فى المصالحات . وسيأتى فى « النساء »(1) بيان الصلح وما يجوز منه وما لا يجوز، إن شاء الله تعالى .

الخامسة والثلاثون - قوله تعالى : « وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ » تأكيد لإبطال ما لم يُقْبَض منه وأخذ رأس المال الذى لا ربا فيه . فاستدل بعض العلماء بذلك على أن كلّ ما طرأ على البيع قبل القبض مما يوجب تحريم العقد أبطل العقد؛ كما إذا اشترى مسلم صيدا ثم أحرم المشترى أو البائع قبل القبض بَطَل البيع ؛ لأنه طرأ عليه قبل القبض ما أوجب تحريم العقد ؛ كما أبطل الله تعالى ما لم يقبض ؛ لأنه طرأ عليه ما أوجب تحريمه قبل القبض، ولو كان مقبوضا لم يؤثر . هذا مذهب أبى حنيفة، وهو قول لأصحاب الشافعىّ . ويستدل به على أن هلاك المبيع قبل القبض فى يد البائع وسقوط القبض فيه يوجب بطلان العقد خلافًا لبعض السلف ؛ ويروى هذا الخلاف عن أحمد . وهذا إنما يتمشّى على قول من يقول : إن العقد فى الربا كان فى الأصل منعقدا ، وإنما بطل بالإسلام الطارئ قبل

(1) راجع جـ ٥ ص ٤٠٥ ، ٣٨٥ .

القبض . وأمّا من منع انعقاد الربا فى الأصـل لم يكن هـذا الكلام صحيحا ؛ وذلك أن الربا كان محرما فى الأديان، والذى فعلوه فى الجاهليّـة كان عادة المشركين، وأن ما قبضوه منـه كان بمثابة أموال وصلت إليهم بالغصب[1] والسلب فلا يتعرض له . فعلى هذا لا يصح الاستشهاد على ما ذكروه من المسائل . واشتمالُ شرائع الأنبياء قبلنـا على تحـريم الربا مشهور مذكور فى كتاب الله تعالى؛ كما حكى عن اليهود فى قوله تعالى: «وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ»[2] . وذكر فى قصة شعيب أن قومه أنكروا عليه وقالوا : « أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُـدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ»[3] فعلى هذا لا يستقيم الاستدلال به . نعم، يفهم من هذا أن العقود الواقعة فى دار الحرب إذا ظهر عليها الإمام لا يعترض عليها بالفسخ إن كانت معقودة على فساد .

السادسة والثلاثون ـــ ذهب بعض الغلاة من أرباب الورع إلى أن المـال الحلال إذا خالطه حرام حتى لم يتميّز ثم أخرج منه مقـدار الحرام المختلط به لم يحلّ ولم يطب ؛ لأنه يمكن أن يكون الذى أُخرج هو الحلال والذى بقى هو الحرام . قال ابن العربى : وهـذا غلوٌّ فى الدين؛ فإن كل ما لم يتميز فالمقصود منه ماليّته لا عينه، ولو تلف لقام المِثْل مقامه والاختلاط إتلاف لتميزه ؛ كما أن الإهلاك إتلاف لعينه ، والمِثْل قائم مقام الذاهب ، وهـذا بيّنٌ حِسًّا بيّنٌ معنى . والله أعلم .

قلت : قال علماؤنا إنّ سبيل التوبة مما بيده من الأموال الحرام إن كانت من ربًا فليردّها على من أربى عليه، ويطلبه إن لم يكن حاضرا، فإن أَيِس من وجوده فليتصدّق بذلك عنه . وإن أخذه بظلم فليفعل كذلك فى أمر من ظلمه . فإن التبس عليـه الأمر ولم يدرِ كَمْ الحرام من الحلال مما بيده، فإنه يتحرى قدر ما بيده مما يجب عليه ردّه، حتى لا يشك أن ما يبقى قد خلص له فيردّه من ذلك الذى أزال عن يده إلى من عُرِف ممن ظلمه أو أربى عليـه . فإن أيس من وجوده تصـدّق به عنه . فإن أحاطت المظالم بذمّته وعلم أنه وجب عليه من ذلك ما لا يُطيق أداءه أبدًا لكثرته فتوبته أن يُزيل ما بيده أجمع إما إلى المساكين وإما إلى ما فيه

(١) فى أ : بالهبة فلا يتعرض له ، فلا معنى له ، وإنما لا يتعرض له لأن الإسلام يجب ما قبله . وفى جـ : بالنهب .
(٢) راجع جـ ٦ ص ١٢ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٨٦ و ٨٧

صلاح المسلمين، حتى لا يبقى فى يده إلا أقل ما يجزئه فى الصلاة من اللباس وهو ما يستر العورة وهو من سُرّته إلى ركبتيه، وقوتُ يومه ؛ لأنه الذى يجب له أن يأخذه من مال غيره إذا اضطر إليه، وإن كره ذلك من يأخذه منه . وفارق هاهنا المفلس فى قول أكثر العلماء، لأن المفلس لم يصر إليه أموال الناس باعتداء بل هم الذين صيروها إليه ، فيُتْرك له ما يواريه وما هو هيئة لباسه . وأبو عُبَيْد وغيره يرى ألّا يترك للفلس من اللباس إلا أقل ما يجزئه فى الصلاة وهو ما يواريه من سُرّته إلى ركبته ، ثم كلما وقع بيد هذا شىء أخرجه عن يده ولم يمسك منه إلا ما ذكرنا، حتى يعلم هو ومن يعلم حاله أنه أدّى ما عليه .

السابعة والثلاثون — هذا الوعيد الذى وعد الله به فى الربا من المحاربة، قد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثلُه فى المخابرة . وروى أبو داود قال : أخبرنا يحيى بن مَعين قال أخبرنا ابن رجاء[1] قال ابن خيثم حدثنى عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ لم يَذَرِ المخابرة فلْيُؤْذِنْ بحرب من الله ورسوله" . وهذا دليل على منع المخابرة وهى أخذ الأرض بنصف أو ثلث أو ربع ، ويسمّى المزارعة . وأجمع أصحاب مالك كلهم والشافعيّ وأبو حنيفة وأتباعهم وداود ، على أنه لا يجوز دفع الأرض على الثُّلث والرُّبع، ولا على جزء مما تُخرج ؛ لأنه مجهول؛ إلا أن الشافعى وأصحابه وأبا حنيفة قالوا بجواز كراء الأرض بالطعام إذا كان معلوما؛ لقوله عليه السلام : "فأما شىء معلوم مضمون فلا بأس به" خرّجه مسلم . وإليه ذهب محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، ومنعه مالك وأصحابه ؛ لما رواه مسلم أيضا عن رافع بن خَديج قال : كنا نُحاقل بالأرض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَنُكْرِيهَا بالثلث والربع والطعام المسمّى ، فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتى فقال : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر كان لنا نافعا، وطواعيةُ الله ورسوله أنفع لنا ، نهانا أن نُحَاقِل بالأرض فنكتريها على الثلث والربع والطعام المسمّى، وأمر ربَّ الأرض أن يزرعها أو يُزارعها[2] . وكره كِراءها وما سوى ذلك . قالوا :

(١) كذا فى جـ ، هـ . وهو الصواب كما فى سنن أبو داود، وفى ا ، ب ، جـ : أبو رجاء .

(٢) كذا فى ا : وهو ما نهى عنه ، والذى فى ب ، جـ ، سـ ، هـ : يزرعها أو يُزرعها . أى أمكن غيره من زرعها وهذا فى معنى الحديث "من كانت له فليزرعها أو ليمنحها أخاه" .

فلا يجوز كراء الأرض بشيء من الطعام مأكولا كان أو مشروبا على حال؛ لأن ذلك فى معنى بيع الطعام بالطعام نسيئا . وكذلك لا يجوز عنـدهم كراء الأرض بشيء مما يخرج منها وإن لم يكن طعاما مأكولا ولا مشروبا، سـوى الخشب والقصب والحطب ؛ لأنه عندهم فى معنى المُزَابنة[1] . هذا هو المحفوظ عن مالك وأصحابه . وقد ذكر ابن سُحْنون عن المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى المدنى أنه قال : لا بأس باكراء الأرض بطعام لا يخرج منها . وروى يحيى بن عمر عن المغـيرة أن ذلك لا يجوز ؛ كقول سائر أصحاب مالك . وذكر ابن حبيب أن ابن كنانة كان يقول :لا تكرى الأرض بشيء إذا أعيد فيها نبت ، ولا بأس أن تكرى بما سوى ذلك من جميع الأشياء مما يؤكل ومما لا يؤكل خرج منها أو لم يخرج منها؛ وبه قال يحيى بن يحيى، وقال: إنه من قول مالك . قال : وكان ابن نافع يقول : لا بأس أن تُكرى الأرض بكل شيء من طعام وغيره خرج منها أو لم يخرج، ماعدا الحِنْطة وأخواتها فإنها المحاقلة[2] المنهى عنها. وقال مالك فى الموطّأ : فأما الذى يعطى أرضه البيضاء بالثلث والربع مما يخرج منها فذلك مما يدخله الغَرَر؛ لأن الزرع يقل مَرّة ويكثر أخرى ، وربمـا هلك رأسًا فيكون صاحب الأرض قد ترك كراء معلوما؛ وإنما مثل ذلك مثل رجل استأجر أجيرًا لسفر بشيء معلوم، ثم قال الذى استأجر للأجير : هل لك أن أعطيك عشر ما أربح فى سفرى[3] هذا إجارةً لك . فهذا لا يحلّ ولا ينبغى . قال مالك : ولا ينبغى لرجل أن يؤاجر نفسـه ولا أرضـه ولا سفينته ولا دابّتـه إلا بشيء معلوم لا يزول. وبه يقول الشافعى وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال أحمد بن حنبل والليث والثورى والأوزاعى والحسن بن حى وأبو يوسف ومحمد : لا بأس أن يعطى الرجل أرضـه على جزء

---

(١) المزابنة : كل شيء من الجزاف الذى لا يعلم كيله ولا وزنه ولا عدده يبيع بشيء مسمى من الكيل أو الوزن أو العدد . وذلك أن يقول الرجل للرجل يكون له الطعام المصبر الذى لا يعلم كيله من الحنطة أو التمر أو ما أشبه ذلك من الأطعمة . أو يكون للرجل السلعة من الخبط أو النوى أو القضب أو العصفر أو الكرسف أو الكتان أو ما أشبه ذلك من السلع لا يعلم كيل شيء من ذلك ولا وزنه ولا عدده ؛ فيقول الرجل لرب تلك السلعة : كِل سلعتك هـذه أو مُر من يكيلها أو زن من ذلك بوزن أو أعدد منها ما كان يُعَد فما نقص عن كيل كذا وكذا صاعا ، لتسمية يسميها . أو وَزن كذا وكذا رطلا أو عدد كذا وكذا فما نقص من ذلك فعلى غرمه حتى أوفيك تلك التسمية ، وما زاد على تلك التسمية فهو لى أضمن ما نقص من ذلك ، على أن يكون لى ما زاد . وليس ذلك بيعا ولكنه المخاطرة ، والغرر والقمار يدخل هـذا . وقيل : المزابنة اسم لبيع التمر بالتمر كيلا ، ورطب كل جنس بيابسه ، ومجهول منه بمعلوم (عن الموطأ) .

(٢) المحاقلة : بيع الزرع قبل بدو صلاحه . وقيل : بيع الزرع فى سنبله بالحنطة . وقيـل : المزارعة على نصيب معلوم بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر . وقيل اكتراء الأرض بالحنطة . (٣) فى جـ : سفرك .

مما تخرجه نحو الثلث والربع؛ وهو قول ابن عمر وطاوس . واحتجوا بقصة خيبر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل أهلها على شطرِ ما تخرجه أرضهم وثمارهم . قال أحمد : حديث رافع بن خَديج في النهي عن كِراء المَزارع مضطربُ الألفاظِ ولا يصح، والقول بقصة خيبر أولى وهو حديث صحيح . وقد أجاز طائفة من التابعين ومن بعدهم أن يُعطى الرجل سفينتَه ودابّته، كما يُعطى أرضه بجزء مما يرزقه الله في العِلاج بها . وجعلوا أصلهم في ذلك القِراض[1] المجمَع عليه على ما يأتي بيانه في « المزَّمِّل » إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ »[2] وقال الشافعي في قول ابن عمر : كنا نُخابِر ولا نرى بذلك بأسا حتى أخبرنا رافع بن خَديج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها؛ أي كنا نكري الأرض ببعض ما يخرج منها . قال : وفي ذلك نسخٌ لسُنّة خيبر .

قلت : ومما يصحح قول الشافعي في النسخ ما رواه الأئمة واللفظ للدارَقطني عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن المُحاقَلَة والمُزابَنَة والمُخابَرة وعن الثُّنْيا[3] إلا أن تُعلم . صحيح . وروى أبو داود عن زيد بن ثابت قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المُخابَرة . قلت : وما المخابرة ؟ قال : أن تأخذ الأرض بنِصْف أو ثُلُث أو رُبُع .

* الثامنة والثلاثون — في القراءات . قرأ الجمهور « ما بَقِيَ » بتحريك الياء ، وسكنها الحسن؛ ومثله قول جرير :

هو الخليفةُ فارْضَوْا ما رَضِي لكُمُ * ماضِي العَزيمةِ ما في حُكْمِه جَنَفُ

وقال عمر بن أبي ربيعة :

كم قد ذكرتُك لو أُجْزَى بذكركُمُ * يا أشبَهَ الناسِ كُلِّ الناسِ بالقمرِ
إنّي لأجْذَلُ أن أُمسي مُقابِلَه * حُبًّا لرؤيةِ مَن أشْبَهتَ في الصُّوَرِ

---

(١) القراض (بكسر القاف) عند المالكية هو ما يسمى بالمضاربة عند الحنفية؛ وهو إعطاء المقارض (بكسر الراء وهو رب المال) المقارَض (بفتح الراء وهو العامل) مالا ليتجر به على أن يكون له جزء معلوم من الربح .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ٥٤ (٣) الثنيا : هي أن يستثنى في عقد البيع شيء مجهول فيفسده . وقيل : هو أن يباع شيء جزافا ؛ فلا يجوز أن يستثنى منه شيء قل أو كثر . وتكون « الثنيا » في المزارعة أن يستثنى بعد النصف أو الثلث كيل معلوم . (عن النهاية) .

أصله «ما رضيَ» و «أن أمضيَ» فأسكنها وهو في الشعر كثير . ووجهه أنه شبه الياء بالألف فكما لا تصل الحركة إلى الألف فكذلك لا تصل هنا إلى الياء . ومن هذه اللغة أُحبّ أن أدْعوك ، وأشتهي أن أقضيكْ(١)، بإسكان الواو والياء . وقرأ الحسن « ما بقَى » بالألف، وهي لغة طيء، يقولون للجارية : جاراة(٢)، وللناصية : ناصاة؛ وقال الشاعر :

لعمركَ لا أخشَى التَّصعْلُكَ ما بقَى * على الأرض قَيسيّ يسوق الأباعرا

وقرأ أبو السَّمال من بين جميع القراء «من الرِّبُوْ» بكسر الراء المشدّدة وضم الباء وسكون الواو. وقال أبو الفتح عثمان بن جني : شذّ هذا الحرف من أمرين، أحدهما الخروج من الكسر إلى الضم، والآخر وقوع الواو بعد الضم في آخر الاسم . وقال المهدوي . وجهها أنه فخّم الألف فانْتَحى بها نحو الواو التي الألف منها؛ ولا ينبغي أن يحمل على غير هذا الوجه؛ إذْ ليس في الكلام اسم آخره واو ساكنة قبلها ضمة . وأمالَ الكسائي وحمزة « الربا » لمكان الكسرة في الراء . الباقون بالتفخيم لفتحة الباء . وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة «فَآذِنُوا» على معنى فآذنوا غيركم ، فحذف المفعول . وقرأ الباقون « فَأْذَنُوا » أي كونوا على إذن؛ من قولك : إني على علم ؛ حكاه أبو عبيد(٣) عن الأصمعي . وحكى أهل اللغة أنه يقال : أذنت به إذْنًا ، أي علمت به . وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : معنى «فَأْذَنُوا» فاستيقنوا الحرب من الله تعالى ، وهو بمعنى الإذْن . ورجح أبو علي وغيره قراءة المدّ قال : لأنهم إذا أُمروا بإعلام غيرهم ممن لم ينته عن ذلك علموا هم لا محالة . قال : ففي إعلامهم علمُهم وليس في علمهم إعلامهم . ورجح الطبري قراءة القصر؛ لأنها تختصّ بهم . وإنما أُمروا على قراءة المد بإعلام غيرهم، وقرأ جميع القراء « لَا تَظْلِمُونَ » بفتح التاء « وَلَا تُظْلَمُونَ » بضمها . وروى المفضّل عن عاصم « لا تُظْلَمُونَ » « ولا تَظْلِمُونَ » بضم التاء في الأولى وفتحها في الثانية على العكس . وقال أبو علي : تترجح قراءة الجماعة بأنها تناسب قوله : «وَإِنْ تُبْتُمْ» في إسناد الفعلين إلى الفاعل؛ فيجيء « تَظْلِمُون » بفتح التاء أشْكَلَ بما قبله .

---

(١) في ج : أرضيك . (٢) في ج و ب : جاراه ، ناصاه . (٣) في ب : أبو علي .

قوله تعالى : وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ لما حكم جل وعز لأرباب الربا برءوس أموالهم عند الواجدين للمال، حكم فى ذى العسرة بالنظرة إلى حال الميسرة ؛ وذلك أن ثقيفا لما طلبوا أموالهم التى لهم على بنى المغيرة شكوا العسرة — يعنى بنى المغيرة — وقالوا : ليس لنا شىء، وطلبوا الأجل إلى وقت ثمارهم؛ فنزلت هذه الآية «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ» .

الثانيــة — قوله تعالى : «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ» مع قوله «وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ» يدل على ثبوت المطالبة لصاحب الدين على المدين وجواز أخذ ماله بغير رضاه . ويدل على أن الغريم متى امتنع من أداء الدين مع الإمكان كان ظالما؛ فإن الله تعالى يقول : «فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ» فجعل له المطالبة برأس ماله . فإذا كان له حق المطالبة فعلى من عليه الدين لا محالة وجوب قضائه .

الثالثــة — قال المهدوى وقال بعض العلماء : هذه الآية ناسخة لما كان فى الجاهلية من بيع من أعسر . وحكى مكى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به فى صدر الإسلام . قال ابن عطية: فإن ثبت فعل النبى صلى الله عليه وسلم فهو نسخ وإلا فليس بنسخ . قال الطحاوى : كان الحر يباع فى الدين أول الإسلام إذا لم يكن له مال يقضيه عن نفسه حتى نسخ الله ذلك فقال جل وعز : «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» . واحتجوا بحديث رواه الدارقطنى من حديث مسلم بن خالد الزنجى أخبرنا زيد بن أسلم عن ابن البيلمانى(١) عن سرق قال : كان لرجل على مال — أو قال دين — فذهب بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصب لى مالا فباعنى منه، أو باعنى له . أخرجه البزار بهذا الإسناد أطول منه . ومسلم ابن خالد الزنجى وعبد الرحمن بن البيلمانى لا يحتج بهما . وقال جماعة من أهل العلم :

(١) فى الأصول إلا نسخة : ب : «عن ابن السلمانى» وهو تحريف . راجع تهذيب التهذيب .

قوله تعالى : «فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» عامةٌ فى جميع الناس، فكل من أعسر أُنْظِر ؛ وهـذا قول أبى هريرة والحسن وعامة الفقهاء . قال النحاس : وأحسن ما قيل فى هذه الآية قول عطاء والضحاك والربيع بن خيثم . قال: هى لكل مُعْسِر يُنْظَر فى الربا والدَّيْن كله . فهذا قول يجمع الأقوال؛ لأنه يجوز أن تكون ناسخة عامة نزلت فى الربا ثم صار حكم غيره كحكمه، ولأن القراءة بالرفع بمعنًى و إن وقع ذو عسرة من الناس أجمعين . ولو كان فى الربا خاصـة لكان النصب الوجه ، بمعنى و إن كان الذى عليـه الربا ذا عسرة . وقال ابن عباس وشريح : ذلك فى الربا خاصةً؛ فأما الديون وسائر المعاملات فليس فيها نَظِرَةٌ بل يؤدى إلى أهلها أو يحبس فيه حتى يُوَفِّيَه؛ وهو قول إبراهيم . واحتجوا بقول الله تعـالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا(١)» الآية . قال ابن عطية : فكان هذا القول يترتب إذا لم يكن فقرٌ مُدْقِـع، وأما مع العُدْم والفقر الصريح فالحكم هو النظِرة ضرورة .

• الرابعـــة ــ من كثرت ديونه وطلب غرماؤه مالهم فللحاكم أن يخلعه عن كل ماله و يترك له ما كان من ضرورته . روى ابن نافع عن مالك أنه لا يترك له إلّا ما يُوارِيه . والمشهور أنه يترك له كسوته المعتادة ما لم يكن فيها فضل، ولا يُنْزَع منـه رداؤه إن كان ذلك مُزْرِيا به . وفى ترك كســوة زوجته وفى بيع كتبه إن كان عالمـا خلاف . ولا يترك له مسكن ولا خادم ولا ثوب جمعة ما لم تقلّ قيمتها ؛ وعند هذا يحرم حَبْسُـه . والأصل فى هـذا قوله تعالى : «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» . روى الأئمة واللفظ لمسلم عن أبى سعيد الخدرىّ قال : أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمـار ابتاعها فكثر دينُه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تصدقوا عليه" فتصدّق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه. فقال رســول الله صلى الله عليه وســلم لغرمائه : " خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك " . وفى مصنف أبى داود : فلم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم غرماءه على أن خلع لهم مالَه . وهذا نَصٌّ؛ فلم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبس الرجل، وهو معاذ بن جبل كما قال شُرَيْح، ولا بملازمته، خلافا لأبى حنيفة فإنه قال: يلازم لإمكان أن يظهر له مال، ولا يكلف أن يكتسب لمـا ذكرنا . و بالله توفيقنا .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥

الخامسة — ويحبس المفلس فى قول مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وغيرهم حتى يتبين عُدْمُه . ولا يحبس عند مالك إن لم يُتّهم أنه غيّب مالَه ولم يتبين لَدَدُه . وكذلك لا يحبس إن صحّ عُسْره على ما ذكرنا .

السادسة — فإن جُمِع مال المفلس ثم تلف قبل وصوله إلى أربابه وقبل البيع، فعلى المفلس ضمانُه ، ودَيْن الغرماء ثابت فى ذمته . فإن باع الحاكم ماله وقبض ثمنه ثم تلِف الثمن قبل قبض الغرماء له ، كان عليهم ضمانه وقد برئ المفلس منه . وقال محمد بن عبد الحكم : ضمانه من المفلس أبدا حتى يصل إلى الغرماء .

السابعة — العُسْرة ضيق الحال من جهة عدم المال؛ ومنه جيش العسرة . والنَّظِرة التأخير . والمَيْسَرة مصدر بمعنى اليسر . وارتفع « ذو » بكان التامة التى بمعنى وجد وحدث؛ هذا قول سيبويه وأبى علىّ وغيرهما . وأنشد سيبويه :

فِدًى لبنى ذُهْلِ بنِ شَيْبان ناقتى * إذا كان يومٌ ذو كواكبَ أشهبُ (١)

ويجوز النصب . وفى مصحف أبىّ بن كعب « وَإِنْ كَانَ ذَا عُسْرَةٍ » على معنى وإن كان المطلوب ذا عسرة . وقرأ الأعمش « وإن كان مُعْسِرا فنَظِرَةٌ » . قال أبو عمرو الدّانىّ عن أحمد بن موسى : وكذلك فى مصحف أبىّ بن كعب . قال النحاس ومكىّ والنقاش : وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الرِّبا، وعلى من قرأ « ذو » فهى عامة فى جميع من عليه دين، وقد تقدّم . وحكى المهدَوِىّ أن فى مصحف عثمان « فإن كان — بالفاء — ذو عسرة » . وروى المعتمر عن حجاج الورّاق قال : فى مصحف عثمان « وإن كان ذا عسرة » ذكره النحاس . وقراءة الجماعة « نَظِرَةٌ » بكسر الظاء . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن « فَنَظْرَةٌ » بسكون الظاء ، وهى لغة تميمية وهم الذين يقولون : [فى] (٢) كَرُم زيد بمعنى كَرُم زيد، ويقولون كَبْد فى كَبِد . وقرأ نافع

(١) البيت لمقاس العائذى، واسمه مسهر بن النعمان . أراد : وقع يوم أو حضر يوم ونحو ذلك مما يقتصر فيه على الفاعل . وأراد باليوم يوما من أيام الحرب ، وصفه بالشدّة يجعله كالليل تبدو فيه الكواكب ، ونسبه إلى الشهبة إما لكثرة السلاح الصقيل فيه ، وإما لكثرة النجوم . وذهل بن شيبان من بنى بكر بن وائل ، وكان مقاس نازلا فيهم ، وأصله من قريش من عائذة وهم حى منهم . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٢) عن ب .

وحده « مَيْسُرَة » بضم السين، والجمهور بفتحها . وحكى النحاس عن مجاهد وعطاء « فناظِرْهُ — على الأمر — إلى مَيْسُرِ هِى » بضم السين وكسر الراء و إثبات الياء فى الإدراج . وقرئ « فَنَاظِرَةٌ » قال أبو حاتم لا يجوز فناظرة، إنما ذلك فى « النمل »(١) لأنها امرأة تكلمت بهذا لنفسها، من نظرت تنظر فهى ناظرة؛ وما فى « البقرة » فمن التأخير، من قولك : أنظرتك بالدين، أى أخرتك به . ومنه قوله : « فأنظرنى إلى يوم يبعثون »(٢) . وأجاز ذلك أبو إسحاق الزجاج وقال : هى من أسماء المصادر؛ كقوله تعالى : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ »(٣) . وكقوله تعالى : « تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ »(٤) وكـ « خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ »(٥) وغيره .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا ﴾(٦) ابتداء، وخبره ﴿ خَيْرٌ ﴾ . ندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المعسر وجعل ذلك خيرا من إنظاره؛ قاله السدى وابن زيد والضحاك . وقال الطبرى : وقال آخرون : معنى الآية وأن تصدقوا على الغنى والفقير خير لكم . والصحيح الأول، وليس فى الآية مدخل للغنى .

التاسعة — روى أبو جعفر الطحاوى عن بُرَيْدَة بن الخَصِيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة " ثم قلت : بكل يوم مثله صدقة ؛ قال فقال : " بكل يوم صدقة ما لم يحل الدين فإذا أنظره بعد الحل فله بكل يوم مثله صدقة " . وروى مسلم عن أبى مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال قال الله عز وجل نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه " . وروى عن أبى قتادة أنه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال : إنى معسر . فقال : آلله؟ قال : أللهِ(٧) . قال : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه " ، وفى حديث أبى اليَسَر الطويل(٨) — واسمه

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٩٦ (٢) جـ ١٠ ص ٢٧ (٣) جـ ١٧ ص ١٩٤ (٤) جـ ١٩ ص ١٠٨
(٥) جـ ١٥ ص ٣٠٢ (٦) قراءة نافع الإدغام . (٧) قوله : « قال آلله قال ألله » قال النووى : « الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام ، والثانى بلا مد ، والهاء فيهما مكسورة . قال القاضى : ورويناه بفتحهما معا وأكثر أهل العربية لا يجيزون الكسر » . (٨) الطويل : صفة لحديث .

كعب بن عمرو — أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله " . ففي هذه الأحاديث من الترغيب ما هو منصوص فيها . وحديث أبي قتادة يدل على أن رب الدين إذا علم عسرة [غريمه][1] أو ظنها حرمت عليه مطالبته، وإن لم تثبت عسرته عند الحاكم . وإنظار المعسر تأخيره إلى أن يوسر . والوضع عنه إسقاط الدين عن ذمته . وقد جمع المعنيين أبو اليسر لغريمه حيث محا عنه الصحيفة وقال له : إن وجدت قضاء فاقض وإلا فأنت في حل[2] .

قوله تعالى : وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

قيل : إن هذه الآية نزلت قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بتسع ليال ثم لم ينزل بعدها شيء؛ قاله ابن جريج . وقال ابن جبير ومقاتل : بسبع ليال . وروى بثلاث ليال . وروي أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنه عليه السلام قال : "اجعلوها بين آية الربا وآية الدين" . وحكى مكي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "جاءني جبريل فقال اجعلها على رأس مائتين وثمانين آية" .

قلت : وحكي عن أبي بن كعب وابن عباس وقتادة أن آخر ما نزل : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخر الآية[3] . والقول الأول أعرف وأكثر وأصح وأشهر . ورواه أبو صالح عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فقال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : "يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومائتين من البقرة" . ذكره أبو بكر الأنباري في « كتاب الرد » له؛ وهو قول ابن عمر رضي الله عنه أنها آخر ما نزل، وأنه عليه السلام عاش بعدها أحدا وعشرين يوما، على ما يأتي بيانه في آخر سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ »[4] إن شاء الله تعالى . والآية وعظ لجميع

(١) زيادة في ه و ج و ب و ط .
(٢) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٩٤ طبعة بولاق .
(٣) راجع ج ٨ ص ٣٠١
(٤) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٩

الناس وأمر يخص كل إنسان . و « يَوْمًا » منصوب على المفعول لا على الظرف . « تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » من نعته . وقرأ أبو عمرو بفتح التاء وكسر الجيم ؛ مثل « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ »[1] واعتبارا بقراءة أبيّ « يوما تصيرون فيه إلى الله » . والباقون بضم التاء وفتح الجيم ؛ مثل « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ »[2] . « وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي »[3] واعتبارا بقراءة عبد الله « يوما تردون فيه إلى الله » وقرأ الحسن « يرجعون » بالياء، على معنى يرجع جميع الناس . قال ابن جني : كأن الله تعالى رفق بالمؤمنين على أن يواجههم بذكر الرجعة ، إذ هي مما ينفطر لها القلوب فقال لهم : « وَاتَّقُوا يَوْمًا » ثم رجع في ذكر الرجعة إلى الغيبة رفقا بهم . وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذّر منه هو يوم القيامة والحساب والتوفية . وقال قوم : هو يوم الموت . قال ابن عطية : والأول أصح بحكم الألفاظ في الآية . وفي قوله « إِلَى اللَّهِ » مضاف محذوف، تقديره إلى حكم الله وفصل قضائه . « وَهُمْ » ردّ على معنى « كُلُّ » لا على اللفظ ، إلا على قراءة الحسن « يرجعون » فقوله « وهم » ردّ على ضمير الجماعة في « يرجعون » . وفي هذه الآية نص على أن الثواب والعقاب متعلق بكسب الأعمال ، وهو رد على الجبرية ، وقد تقدم .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ج وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ج وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ صلى فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ج فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ج وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ صلى فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ج وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ج وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ج ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٣٧ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٦ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٤

ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً
تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ
وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

فيه اثنتان وخمسون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ الآية . قال سعيد بن المسيب[1] : بلغنى أن أحدث القرآن بالعرش آية الدَّيْن . وقال ابن عباس : هذه الآية نزلت فى السَّلَم خاصة . معناه أن سَلَم أهل المدينة كان سبب الآية ، ثم هى تتناول جميع المداينات إجماعا . وقال ابن خويزمنداد : إنها تضمنت ثلاثين حكما . وقد استدل بها بعض علمائنا على جواز التأجيل فى القروض ، على ما قال مالك ، إذْ لم يفصل بين القرض وسائر العقود فى المداينات . وخالف فى ذلك الشافعية وقالوا : الآية ليس فيها جواز التأجيل فى سائر الديون ، و إنما فيها الأمر بالإشهاد إذا كان دَيْنا مؤجّلا ، ثم يعلم بدلالة أخرى جواز التأجيل فى الدين وامتناعه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ بِدَيْنٍ ﴾ تأكيد ، مثل قوله « وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ »[2] . « فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ »[3] . وحقيقة الدَّيْن عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدا والآخر فى الذمّة نسيئةً ، فإن العَيْن عند العرب ما كان حاضرا ، والدَّيْن ما كان غائبا ، قال الشاعر :

وَعَدتْنا بِدِرْهَمَيْنَا طِلاءً * وشِواءً معجَّلا غيرَ دَيْنِ

وقال آخــر :

لِتَرْمِ بِىَ المنَايَا حيثُ شاءتْ * إذا لم تَرْمِ بى فى الحُفْرتَيْنِ
إذا ما أَوْقَدوا حطبا ونارا * فذاكَ الموتُ نَقْدا غيرَ دَيْنِ

وقد بيّن الله تعالى هذا المعنى بقوله الحق « إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » .

(١) كذا فى الطبرى والأصول ، إلا فى جـ : فسعيد بن جبير . (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٥

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال ابن المنذر: دل قول الله «إلى أجلٍ مسمًّى» على أن السَّلَم إلى الأجل المجهول غير جائز، ودلّت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على مثل معنى كتاب الله تعالى. ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهم يستلفون فى الثمار السنتين والثلاث ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أسلف فى تمر فليسلف فى كيلٍ معلوم ووزنٍ معلوم إلى أجلٍ معلوم" رواه ابن عباس. أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما. وقال ابن عمر : كان أهل الجاهلية يتبايعون لحم الجزور إلى حَبَل الحَبَلة. وحبل الحبلة : أن تنتج الناقة ثم تحمل التى نُتِجت . فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك. وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن السَّلَم الجائز أن يُسلِم الرجل إلى صاحبه فى طعام معلوم موصوف، من طعام أرض عامة لا يخطئ مثلها، بكيلٍ معلوم، إلى أجلٍ معلوم بدنانير أو دراهم معلومة، يدفع ثمن ما أسلم فيه قبل أن يفترقا من مقامهما الذى تبايعا فيه، وسمَّيا المكان الذى يُقبض فيه الطعام . فإذا فعلا ذلك وكان جائز الأمر كان سَلَمًا صحيحًا لا أعلم أحدًا من أهل العلم يبطله .

قلت : وقال علماؤنا : إن السَّلَم إلى الحَصاد والجَذاذ والنَّيْروز والمِهْرجان جائز؛ إذ ذاك يختص بوقت وزمن معلوم .

الرابعة ـ حدّ علماؤنا رحمة الله عليهم السَّلَم فقالوا : هو بيع معلوم فى الذمة محصور بالصفة بعَيْن حاضرة أو ما هو فى حكمها إلى أجلٍ معلوم . فتقييده بمعلوم فى الذمة يُفيد التحرز من المجهول، ومن السَّلَم فى الأعيان المعيَّنة؛ مثل الذى كانوا يستلفون فى المدينة حين قدم عليهم النبيّ عليه السلام فإنهم كانوا يستلفون فى ثمار نخيلٍ بأعيانها؛ فنهاهم عن ذلك لما فيه من الغَرر؛ إذ قد تُخلِف تلك الأشجارُ فلا تُثمر شيئا .

وقولهم «محصور بالصِّفة» تحرز عن المعلوم على الجملة دون التفصيل؛ كما لو أسلم فى تمر أو ثياب أو حيتان ولم يبيِّن نوعها ولا صفتها المعينة .

وقولهم «بعَيْن حاضِرة» تحرز من الدَّيْن بالدَّيْن. وقولهم «أو ما هو فى حكمها» تحرز من اليومين والثلاثة التى يجوز تأخير رأس مال السَّلَم إليه، فإنه يجوز تأخيره عندنا ذلك القدر، بشرط

و بغير شرط لقرب ذلك ، ولا يجوز اشتراطه عليها . ولم يُجز الشافعيّ ولا الكوفيّ تأخير رأس مال السّلَم عن العقد والافتراق ، ورأوا أنه كالصرف . ودليلنا أن البابين مختلفان بأخص أوصافهما ؛ فإن الصرف بابُه ضَيِّق كثُرت فيه الشروط بخلاف السَّلَم فإن شوائب المعاملات عليه أكثر . والله أعلم .

وقولهم « إلى أجل معلوم » تحرّز من السَّلَم الحالّ فإنه لا يجوز على المشهور وسيأتى . ووصف الأجل بالمعلوم تحرز من الأجل المجهول الذى كانوا فى الجاهلية يسلمون إليه .

الخامسة — السَّلَم والسَّلَف عبارتان عن معنًى واحد وقد جاءا فى الحديث ؛ غير أن الاسم الخاص بهذا الباب « السَّلَم » لأنّ السَّلَف يقال على القرض . والسلم بيع من البيوع الجائزة بالاتّفاق ، مستثنًى من نهيه عليه السلام عن بيع ما ليس عندك . وأرخص فى السَّلَم ؛ لأن السَّلَم لما كان بيعَ معلوم فى الذِّمة كان بيعَ غائب تدعو إليه ضرورة كل واحد من المتبايعين ؛ فإن صاحب رأس المال محتاج إلى أن يشترى الثمرة ، وصاحب الثمرة محتاج إلى ثمنها قبل إبّانها لِيُنفِقَه عليها ، فظهر أن بيع السَّلَم من المصالح الحاجيّة ، وقد سمّاه الفقهاء بيع المحاويج ، فإن جاز حالا بطلت هذه الحكمة وارتفعت هذه المصلحة ، ولم يكن لاستثنائه من بيع ما ليس عندك فائدة . والله أعلم .

السادسة — فى شروط السَّلَم المتفق عليها والمختلَف فيها وهى تسعة : ستة فى المُسْلَم فيه ، وثلاثة فى رأس مال السَّلَم . أمّا الستة التى فى المسلم فيه فأن يكون فى الذمة ، وأن يكون موصوفا ، وأن يكون مقدّرا ، وأن يكون مؤجّلا ، وأن يكون الأجل معلوما ، وأن يكون موجودا عند محل الأجل . وأما الثلاثة التى فى رأس مال السَّلَم فأن يكون معلوم الجنس ، مقدرا ، نقدا. وهذه الشروط الثلاثة التى فى رأس المال متفق عليها إلا النقد حسب ما تقدّم .

قال ابن العربىّ : وأمّا الشرط الأوّل وهو أن يكون فى الذمة فلا إشكال فى أن المقصود منه كونه فى الذمة ؛ لأنه مُدَايَنَة ، ولولا ذلك لم يُشرع دينًا ولا قصد الناس إليه ربحا ورفقا . وعلى ذلك القول اتفق الناس . بَيْد أنّ مالكا قال ؛ لا يجوز السلم فى المعين[1] إلا بشرطين :

(١) كذا فى ه و ج ، والذى فى ا و ح : العين .

أحدهما أن يكون قرْية مأمونة ، والثانى أن يشرع فى أخذه كاللبن من الشاة والرطب من النخلة ، ولم يقل ذلك أحد سواه . وهاتان المسألتان صحيحتان فى الدليل ؛ لأن التعيين امتنع فى السَّلَم مخافة المُزَابَنَة والغَرَر؛ لئلا يتعذّر عند المحلّ. وإذا كان الموضع مأمونا لا يتعذر وجود ما فيه فى الغالب جاز ذلك ؛ إذ لا يُتَيَقَّن ضمان العواقب على القطع فى مسائل الفقه؛ ولا بدّ من احتمال الغَرَر اليسير ، وذلك كثير فى مسائل الفروع ، تعدادها فى كتب المسائل . وأمّا السَّلَم فى اللبن والرطب مع الشروع فى أخذه فهى مسألة مَدَنيّة اجتمع عليها أهل المدينة ، وهى مبنية على قاعدة المصلحة ؛ لأن المرء يحتاج إلى أخذ اللبن والرطب مُيَاوَمَة ويشق أن يأخذ كل يوم ابتداء ؛ لأن النقد قد لا يحضره ولأن السعر قد يختلف عليه ، وصاحب النخل واللبن محتاج إلى النقد ؛ لأن الذى عنده عُروضٌ لا يتصرّف له . فلما اشتركا فى الحاجة رخص لهما فى هذه المعاملة قياسا على العَرَايَا وغيرها من أصول الحاجات والمصالح . وأمّا الشرط الثانى وهو أن يكون موصوفا فتفق عليه ، وكذلك الشرط الثالث . والتقدير يكون من ثلاثة أوجه : الكيل ، والوزن ، والعدد ، وذلك يَنْبَنِى على العُرْف ؛ وهو إمّا عرف الناس وإمّا عرف الشرع . وأما الشرط الرابع وهو أن يكون مؤجّلا فاختلف فيه ؛ فقال الشافعىّ : يجوز السَّلَم الحالّ ، ومنعه الأكثر من العلماء . قال ابن العربىّ : واضطربت المالكية فى تقدير الأجل حتى ردّوه إلى يوم ؛ حتى قال بعض علمائنا : السَّلَم الحالّ جائز. والصحيح أنه لا بدّ من الأجل فيه ؛ لأن المبيع على ضربين : معجّل وهو العين ، ومؤجّل . فإن كان حالاّ ولم يكن عند المُسْلَم إليه فهو من باب : بيع ما ليس عندك ، فلا بدّ من الأجل حتى يخلص كل عقد على صفته وعلى شروطه ، وتتنزل الأحكام الشرعية منازلها . وتحديده عند علمائنا مدّة تختلف الأسواق فى مثلها . وقول الله تعالى : « إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » وقوله عليه السلام : « إلى أجل معلوم » يغنى عن قول كل قائل .

قلت ــ الذى أجازه علماؤنا من السَّلَم الحالّ ما تختلف فيه البلدان من الأسعار ، فيجوز السَّلَم فيما كان بينه وبينه يوم أو يومان أو ثلاثة . فأمّا فى البلد الواحد فلا ؛ لأن سعره واحد ،

والله أعلم . وأمّا الشرط الخامس وهو أن يكون الأجل معلوما فلا خلاف فيه بين الأمة، لوصف الله تعالى ونبيه الأجل بذلك . وانفرد مالك دون الفقهاء بالأمصار بجواز البيع إلى الجَذَاذ والحَصاد؛ لأنه رآه معلوما . وقد مضى القول فى هذا عند قوله تعالى : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّة»(١) . وأما الشرط السادس وهو أن يكون موجودا عند المحل فلا خلاف فيه بين الأمة أيضا؛ فإن انقطع المبيع عند محل الأجل بأمر من الله تعالى انفسخ العقد عند كافة العلماء .

السابعة — ليس من شرط السَّلَم أن يكون المُسْلَم إليه مالكا للمُسْلَم فيه خلافا لبعض السَّلَف، لما رواه البخارى عن محمد بن المُجَالِد قال : بعثنى عبد الله بن شدّاد وأبو بُرْدَة إلى عبد الله بن أبى أوْفَى فقالا : سله هل كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم يُسْلفون فى الحنطة ؟ فقال عبد الله : كنا نُسْلِف نَبيط(٢) أهل الشام فى الحنطة والشعير والزيت فى كيل معلوم إلى أجل معلوم . قلت : إلى من كان أصله عنده ؟ قال : ما كنا نسألهم عن ذلك . ثم بعثانى إلى عبد الرحمن بن أَبْزَى فسألته فقال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يُسْلِفون على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم نسألهم ألهم حرث أم لا ؟ . وشرط أبو حنيفة وجود المُسْلَم فيه من حين العقد إلى حين الأجل ، مخافة أن يُطْلَب المُسْلَم فيه فلا يوجد فيكون ذلك غَرَرا؛ وخالفه سائر الفقهاء وقالوا : المُرَاعَى وجوده عند الأجل . وشرط الكوفيون والثوريّ أن يذكر موضع القبض فيما له حملٌ ومؤنة وقالوا : السَّلَم فاسد إذا لم يذكر موضع القبض . وقال الأوزاعيّ : هو مكروه . وعندنا لو سكتوا عنه لم يفسُد العقد، ويتعيّن موضع القبض؛ وبه قال أحمد وإسحاق وطائفة من أهل الحديث؛ لحديث ابن عباس فإنه ليس فيه ذكر المكان الذى يقبض فيه السَّلَم، ولو كان من شروطه لبيّنه النبيّ صلى الله عليه وسلم كما بين الكيل والوزن والأجل؛ ومثله حديث ابن أبى أوفى .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٤١ (٢) النبيط (بفتح النون وكسر الموحدة وآخره طاء مهملة) أهل الزراعة . وقيل : قوم ينزلون البطائح، وسموا به لاهتدائهم إلى استخراج المياه من الينابيع لكثرة معالجتهم الفلاحة . وقيل : نصارى الشام الذين عمروها . (عن القسطلانى) .

الثامنة ــ روى أبو داود عن سعد (يعنى الطائى) عن عطية بن سعد عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ أَسْلف فى شىء فلا يَصْرِفْه إلى غيره" . قال أبو محمد عبد الحق بن عطية : هو العَوْفِىّ(١) ولا يحتج أحد بحديثه ، وإن كان الأجلّة قد رَوَوْا عنه . قال مالك : الأمر عندنا فيمن أسلف فى طعام بسعر معلوم إلى أجل مسمًّى فحَلّ الأجل فلم يجد المُبتاع عند البائع وفاءً ممّا ابتاعه منه فأقاله ، أنه لا ينبغى له أن يأخذ منه إلّا ورِقَه أو ذَهَبه أو الثمن الذى دفع إليه بعينه ، وأنه لا يشترى منه بذلك الثمن شيئا حتى يقبضه منه ؛ وذلك أنه إذا أخذ غير الثمن الذى دفع إليه أو صرفه فى سلعة غير الطعام الذى ابتاع منه فهو بيع الطعام قبل أن يستوفى . قال مالك : وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام قبل أن يستوفى .

التاسعة ــ قوله تعالى : ﴿ فَاكْتُبُوهُ ﴾ يعنى الدَّيْن والأجل . ويقال : أمر بالكتابة ولكن المراد الكتابة والإشهاد ؛ لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة . ويقال : أُمِرنا بالكتابة لكيلا نَنْسى . وروى أبو داود الطيالسىّ فى مسنده عن حمّاد بن سَلَمة عن علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله عز وجل « إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » إلى آخر الآية : "إن أوّل من جحد آدم عليه السلام إن الله أراه ذرّيته فرأى رجلا أزهر ساطعًا نورُه فقال ياربِّ مَنْ هذا قال هذا ابنك داود قال يارب فما عمره قال ستون سنة قال يارب زده فى عمره فقال لا إلا أن تزيده من عمرك قال وما عُمرى قال ألف سنة قال آدم فقد وهبتُ له أربعين سنة قال فكتب الله عليه كتابا وأشهد عليه ملائكته فلما حضرته الوفاة جاءته الملائكة قال إنه بقى من عمرى أربعون سنة قالوا إنك قد وهبتها لابنك داود قال ما وهبت لأحد شيئا قال فأخرج الله تعالى الكتاب وشهد عليه ملائكته ــ فى رواية : وأتم لداود مائة سنة ولآدم عمره ألف سنة" . خرّجه الترمذىّ أيضا . وفى قوله « فاكتبوه » إشارة ظاهرة إلى أنه يكتبه بجميع صفته المبيّنة له

---

(١) العوفى : لقب عطية بن سعد .

المُعْرِبة عنه ، للاختلاف المتوهَّم بين المتعاملين، المعرِّفة للحاكم ما يحكم به عند ارتفاعهما إليه. والله أعلم .

العاشرة — ذهب بعض الناس إلى أن كَتْب الديون واجبٌ على أربابها، فرض بهذه الآية، بيعا كان أو قرضا، لئلا يقع فيه نسيان أو جُحود، وهو اختيار الطبري. وقال ابن جُريج: مَن ادّان فليكتب، ومَن باع فليُشهد . وقال الشعبي: كانوا يَرَوْن أن «قوله فإنْ أمِنَ» ناسخ لأمره بالكتْب . وحكى نحوه ابن جُرَيج ، وقاله ابن زيد ، وروى عن أبي سعيد الخدري . وذهب الرَّبيع إلى أن ذلك واجب بهذه الألفاظ ، ثم خفَّفه الله تعالى بقوله : « فإنْ أمِنَ بعضُكُمْ بعْضًا » . وقال الجمهور : الأمر بالكتْب ندبٌ إلى حفظ الأموال وإزالة الريب ، وإذا كان الغريمُ تَقِيًا فما يضرّه الكتاب ، وإن كان غير ذلك فالكتاب ثِقَافٌ[1] في دينه وحاجة صاحب الحق . قال بعضهم: إن أشهدت فحَزْمٌ، وإن ائتمنت ففي حِلٍّ وسَعةٍ . ابن عطية: وهذا هو القول الصحيح . ولا يترتب نسخٌ في هذا؛ لأن الله تعالى ندب إلى الكتاب فيما للمرء أن يهبه ويتركه بإجماع، فندْبُه إنما هو على جهة الحَيْطة للناس .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ قال عطاء وغيره : واجب على الكاتب أن يكتب؛ وقاله الشعبي، وذلك إذا لم يوجد كاتب سواه فواجب عليه أن يكتب . السدي : واجب مع الفَرَاغ . وحُذفت اللام من الأوّل وأُثبتت في الثاني ؛ لأن الثاني غائب والأوّل للمخاطَب . وقد ثبتت في المخاطب؛ ومنه قوله تعالى : «فلْتفرحُوا»[2] بالتاء . وتحذف في الغائب ؛ ومنه :

محمدُ تفدِ نفسَك كلُّ نَفْسٍ ⁕ إذا ما خِفْتَ من شيء تَبَالا

الثانية عشرة — قوله تعالى : « بِالْعَدْلِ » أي بالحق والمعدلة، أي لا يُكتب لصاحب الحق أكثر مما قاله ولا أقل. وإنما قال «بَيْنَكُمْ» ولم يقل أحدكم؛ لأنه لما كان الذي له الدَّيْن يَتّهِم في الكتابة الذي عليه الدَّيْن وكذلك بالعكس شرع الله سبحانه كاتبا غيرهما يكتب بالعدل لا يكون في قلبه ولا قلمه مُوادّةٌ[3] لأحدهما على الآخر . وقيل : إن الناس لما كانوا يتعاملون

---

(١) ثقاف : فطنة وذكاء . (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٥٤ (٣) في هـ و جـ و أ و ط : «هوادة» .

حتى لا يشذّ أحدهم عن المعاملة، وكان منهم من يكتب ومن لا يكتب، أمر الله سبحانه أن يكتب بينهم كاتبٌ بالعدل .

الثالثة عشرة ــ الباء فى قوله تعالى «بِالْعَدْلِ» متعلقة بقوله : «وَلْيَكْتُبْ» وليست متعلقة بـ« كَاتِبٌ » لأنه كان يلزم ألا يكتب وثيقة إلا العدل فى نفسه، وقد يكتبها الصبيّ والعبد والمتحوط[1] إذا أقاموا فقهها . أما المتصببون[2] لكتْبها فلا يجوز للولاة أن يتركوهم إلا عدولا مرضيين . قال مالك رحمه الله تعالى : لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارفٌ بها عدل فى نفسه مأمون ؛ لقوله تعالى : « وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ » .

قلت : فالباء على هذا متعلقة بـ« كاتب» أى ليكتب بينكم كاتب عدل؛ فـ «بالعدل» فى موضع الصفة .

الرابعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ نهى الله الكاتب عن الإباء. واختلف الناس فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد ؛ فقال الطبرى والربيع : واجب على الكاتب إذا أُمِر أن يكتب . وقال الحسن : ذلك واجب عليه فى الموضع الذى لا يُقدر على كاتب غيره ، فيضر صاحب الدين إن امتنع؛ فإن كان كذلك فهو فريضة ، وإن قُدِر على كاتبٍ غيره فهو فى سَعَة إذا قام به غيره . السدّى : واجب عليه فى حال فراغه ، وقد تقدّم . وحكى المهدوىّ عن الربيع والضحاك أنّ قوله « وَلَا يَأْبَ » منسوخٌ بقوله « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » .

قلت : هذا يتمشّى على قول من رأى أو ظَنّ أنه قد كان وَجَب فى الأوّل على كل من اختاره المتبايعان أن يكتب، وكان لا يجوز له أن يمتنع حتى نسخه قوله تعالى : « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» وهذا بعيدٌ، فإنه لم يثبت وجوبُ ذلك على كل من أراده المتبايعان كائنا من

(١) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة ، ففى ب : «والمتخوط» وفى حـ، هـ، جـ: «والمسخوط» وفى أ، «والمسحوط» وفى ط : المسحود . وأيضا اضطرب رسمها فى تفسير ابن عطية ؛ ففى التيمورية : «والمستحوط» وفى ز «والمسخوطة» ولعل صوابها «والمتحوط» .   (٢) وردت هذه الجملة فى الأصول وتفسير ابن عطية والبحر لأبى حيان هكذا : «أما أن المتصبين لكتبها لا يجوز... الخ». وهى بهذه الصورة غير واضحة .

كان . ولو كانت الكتابة واجبة ما صحّ الاستئجار بها؛ لأن الإجارة على فعل الفروض باطلة، ولم يختلف العلماء فى جواز أخذ الأجرة على كَتْب الوثيقة . ابن العربيّ : والصحيح أنه أمر إرشاد فلا يكتب حتى يأخذ حقه . وأَبَى يأبَى شاذّ، ولم يجئ إلا قَلَى يقلَى وأبَى يأبَى وغَسِى يغسَى(١) وجَبَى الخراج يجبَى ، وقد تقدّم .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ الكاف فى « كما » متعلقة بقوله « أَنْ يَكْتُبَ » المعنى كتبا كما علمه الله . ويحتمل أن تكون متعلقة بما فى قوله « وَلَا يَأْبَ » من المعنى ، أى كما أنعم الله عليه بعلم الكتابة فلا يأبَ هو وليُفْضِل كما أفضل الله عليه . ويحتمل أن يكون الكلام على هذا المعنى تاما عند قوله « أَنْ يَكْتُبَ » ثم يكون « كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ » ابتداء كلام، وتكون الكاف متعلقة بقوله « فَلْيَكْتُبْ » .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ وهو المديون المطلوب يُقِرّ على نفسه بلسانه ليُعلم ما عليه . والإملاء والإملال لغتان ، أمَلّ وأملَى ؛ فأملّ لغة أهل الحجاز وبنى أسد ، وتميم تقول : أمْلَيْت . وجاء القرآن باللغتين؛ قال عز وجل : « فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »(٢) . والأصل أمْلَلْتُ ، أُبدل من اللام ياء لأنه أخفّ . فأمر الله تعالى الذى عليه الحق بالإملاء؛ لأن الشهادة إنما تكون بسبب إقراره . وأمره تعالى بالتقوى فيما يُمِلّ، ونهى عن أن يبخس شيئا من الحق . والبخس النقص . ومن هذا المعنى قوله تعالى : « وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ »(٣) .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ﴾ قال بعض الناس : أى صغيرا . وهو خطأ فإنّ السفيه قد يكون كبيرا على ما يأتى بيانه . « أَوْ ضَعِيفًا » أى كبيرا لا عقل له . ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ ﴾ جعل الله الذى عليه الحق أربعة أصناف : مستقل بنفسه يُمِلّ، وثلاثة أصناف لا يُمِلّون وتقع نوازلهم فى كل زَمَن ، وكون الحق يترتب لهم فى جهات سوى المعاملات كالمواريث إذا قُسِمت وغير ذلك، وهم السَّفِيهُ والضَّعيفُ والذى لا يستطيع أن يُمِلّ . فالسفيه المُهَلْهَلُ الرأى فى المال الذى لا يُحسن الأخذَ لنفسه ولا الإعطاء

(١) غسى الليل أظلم . فى ج و هـ : غشى يغشى ؛ وفى أ و جـ : غسى يغسى . والتصويب من اللسان .
(٢) راجع جـ ١٣ ص ٣ (٣) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء .

منها، مشبّه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسج . والبذىء اللسان يسمّى سفيها؛ لأنه لا تكاد تتفق البذاءة إلّا فى جهال الناس وأصحابُ العقول الخفيفة . والعرب تطلق السفه على ضعف العقل تارة وعلى ضعف البدن أخرى؛ قال الشاعر :

تخافُ أن تَسْفَهَ أحلامُنا * ويجهلَ الدهرُ مع الحالم

وقال ذو الرُّمّة :

مَشَيْنَ كما اهتزّتْ رِماحٌ تَسَفَّهَتْ * أعاليَهـا مَرُّ الرياحِ النّـواسِم

أى استضعفها واستلانها فحركها. وقد قالوا: الضُّعف بضم الضاد فى البدن و بفتحها فى الرأى؛ وقيل : هما لغتان . والأوّل أصح ، لما روى أبو داود عن أنس بن مالك أنّ رجلا على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يبتاع وفى عقله ضَعْفٌ فأتى أهله نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبيّ الله، أحْجُرْ على فلان فإنه يبتاع وفى عقله ضعف . فدعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم فنهاه عن البيع ؛ فقال : يا رسول الله، إنى لا أصبر عن البيع ساعة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن كنت غير تاركِ البيع فقل هَا وهَا ولا خِلَابَة(١) " . وأخرجه أبوعيسى محمد بن عيسى السلميّ الترمذيّ من حديث أنس وقال : هو صحيح، وقال : إن رجلا كان فى عقله ضعف؛ وذكر الحديث . وذكره البخاريّ فى التاريخ وقال فيه : " إذا بايعت فقل لا خِلابة وأنت فى كل سلعة ابتعتها بالخيار ثلاث ليال " . وهذا الرجل هو حَبّان(٢) بن مُنْقذ بن عمرو الأنصاريّ والد يحيى وواسع ابنى حَبّان : وقيل : هو منقذ جدّ يحيى وواسع شيخى مالك ووالده حبان، أتى عليه مائة وثلاثون سنة ، وكان شُجّ فى بعض مَغازيه مع النبيّ صلى الله عليه وسلم مأمومةً(٣) خُبِل منها عقلُه ولسانه : وروى الدّارقطنيّ قال : كان حَبّان بن منقذ رجلا ضعيفا ضرير البصر وكان قد سُفِع(٤) فى رأسه مأمومةً، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم له الخيار فيما يشترى ثلاثة أيام؛ وكان قد ثَقُل لسانُه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بِعْ وقُلْ لا خِلَابةَ " فكنت

---

(١) الخلابة : المخادعة . وقوله عليه السلام : " هاوها " تقدّم الكلام عليه فى ص ٣٥٠ من هذا الجزء .

(٢) حَبّان بالفتح . (٣) شجة آمة ومأمومة : بلغت أم الرأس . (٤) سفع فلان فلانا : لطمه وضربه .

أسمعه يقول : لا خِذَابةَ لا خِذَابةَ . أخرجه من حديث ابن عمرو . الخلابة : الخديعة؛ ومنه قولهم : « إذا لم تَغلِبْ فاخْلُبْ »[1] .

الثامنة عشرة — اختلف العلماء فيمن يُخدَع في البيوع لقلّة خبرته وضَعف عقله فهل يُحجر عليه أولا ؛ فقال بالحجر عليه أحمد و إسحاق . وقال آخرون : لا يحجر عليه . والقولان في المذهب، والصحيح الأوّل؛ لهذه الآية، ولقوله في الحديث : "يا نبيّ الله أحجر على فلان" . و إنما ترك الحجر عليه لقوله : « يا نبيّ الله إني لا أصبر عن البيع » ؛ فأباح له البيع وجعله خاصاً به؛ لأن من يُخدَع في البيوع ينبغي أن يُحجَر عليه لا سيما إذا كان ذلك لخَبَل عقله . ومما يدل على الخصوصية ما رواه محمد بن إسحاق قال : حدّثني محمد بن يحيى بن حَبان قال : هو جدي منقذ بن عمرو وكان رجلا قد أصابته آمّةٌ في رأسه فكسرت لسانه ونازعته عقله ، وكان لا يدع التجارة ولا يزال يُغبَن، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ؛ فقال : " إذا بِعتَ فقل لا خِلابة ثم أنت في كل سِلْعة تبتاعها بالخيار ثلاث ليال فإن رضيت فأمسك و إن سَخِطت فأرددها على صاحبها " . وقد كان عُمِّر عمرا طويلا، عاش ثلاثين ومائة سنة؛ وكان في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه حين فشا الناس وكثروا، يبتاع البيع في السوق ويرجع به إلى أهله وقد غُبِن غَبْنا قبيحا ، فيلومونه ويقولون له تبتاع ؟ فيقول : أنا بالخيار، إن رضيتُ أخذتُ و إن سخطتُ رددتُ، قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلني بالخيار ثلاثا . فيردّ السلعة على صاحبها من الغد و بعد الغد؛ فيقول : والله لا أقبلها، قد أخذت سِلعتي وأعطيتَني دراهم ؛ قال فيقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعلني بالخيار ثلاثا . فكان يمرّ الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول للتاجر : ويحك ! إنه قد صدق؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان جعله بالخيار ثلاثا . أخرجه الدارقطني . وذكره أبو عمر في الاستيعاب وقال : ذكره البخاري في التاريخ عن عَيّاش بن الوليد عن عبد الأعلى عن ابن إسحاق .

(١) في لسان العرب : « من قاله بالضم فمعناه فاخدع . ومن قال بالكسر فمعناه فانتش قليلا شيئا يسيرا بعد شيء، كأنه أخذ من مخلب الجارحة . قال ابن الأثير : معناه إذا أعياك الأمر مغالبة فاطلبه مخادعة » .

التاسعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ الضعيف هو المدخول العقل الناقص الفطرة[(١)] العاجز عن الإملاء، إما لعيِّه[(٢)] أو لخَرَسه أو جهله بأداء الكلام ، وهذا أيضا قد يكون وليُّه أبًا أو وصيا . والذى لا يستطيع أن يُمِلّ هو الصغير، ووليّه وصيه أو أبوه والغائبُ عن موضع الإشهاد، إما لمرض أو لغير ذلك من العذر . ووليه وكيلُه . وأما الأخرس فيسوغ أن يكون من الضعفاء؛ والأولى أنه ممن لا يستطيع . فهذه أصناف تتميز؛ وسيأتى فى «النساء»[(٣)] بيانها والكلام عليها إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين ــ قوله تعالى : ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ ذهب الطبرى إلى أن الضمير فى « وَلِيُّهُ » عائد على « الْحَقُّ » وأسند فى ذلك عن الربيع، وعن ابن عباس . وقيل : هو عائد على « الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ » وهو الصحيح . وما روى عن ابن عباس لا يصح . وكيف تشهد البيِّنة على شىء وتُدخل مالا فى ذمّة السفيه بإملاء الذى له الدَّيْن! هذا شىء ليس فى الشريعة . إلا أن يريد قائله : إن الذى لا يستطيع أن يُمِلّ لمرض أو كبر سنّ لثقل لسانه عن الإملاء أو لخرس ، و إذا كان كذلك فليس على المريض ومن ثقل لسانه عن الإملاء لخرَس ولىّ عند أحد العلماء، مثل ما ثبت على الصبىّ والسفيه عند من يحجر عليه . فإذا كان كذلك فليُمِلّ صاحب الحق بالعدل ويُسمع الذى عجز ، فإذا كمل الإملاءُ أقرّ به . وهذا معنًى لم تَعنِ الآية إليه : ولا يصح هذا إلا فيمن لا يستطيع أن يُمِلّ لمرض ومن ذكر معه .

الحادية والعشرون ــ لما قال الله تعالى : ﴿ فَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ دل ذلك على أنه مؤتمَن فيما يُورده ويُصدره؛ فيقتضى ذلك قبول قول الراهن مع يمينه إذا اختلف هو والمرتهن فى مقدار الدَّين والرهنُ قائمٌ ، فيقول الراهن رهنت بخمسين والمرتهن يدّعى مائة ، فالقول قول الراهن والرهن قائم؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء : سفيان الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى؛ واختاره ابن المنذر قال : لأن المرتهن مدّعٍ للفضل؛ وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "البينة على المُدّعِى واليمينُ على المدّعَى عليه" . وقال مالك : القول قول المرتهن فيما بينه وبين قيمة الرهن ولا يصدّق على أكثر من ذلك . فكأنه يرى أن الرهن و يمينه شاهدٌ

---

(١) كذا فى ه و ج ، والفطرة : الطبيعة والجبلة . وفى ح و أ : الفطنة .

(٢) كذا فى ه و ج ، فى ح و أ : لعته .   (٣) راجع ج ٥ ص ٢٨

للمرتهن؛ وقوله تعالى «فَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ» ردٌّ عليه . فإن الذى عليه الحق هو الراهن .
وستأتى هذه المسألة . و إن قال قائل : إن الله تعالى جعل الرهن بدلًا عن الشهادة والكتاب،
والشهادة دالّة على صدق المشهود له فيما بينه و بين قيمة الرهن ، فإذا بلغ قيمته فلا وثيقة
فى الزيادة . قيل له : الرهن لا يدلّ على أن قيمته تجب أن تكون مقدار الدَّين؛ فإنه ربما رهن
الشىء بالقليل والكثير . نعم لا ينقص الرهن غالبا عن مقدار الدين ، فأمّا أن يطابقه فلا .
وهذا القائل يقول : يصدَّق المرتهِنُ مع اليمين فى مقدار الدَّين إلى أن يساوى قيمة الرهن .
وليس العرف على ذلك فربما نقص الدين عن الرهن وهو الغالب، فلا حاصل لقولهم هذا .

الثانية والعشرون — و إذا ثبت أن المراد الولىّ ففيه دليلٌ على أن إقراره جائز على يتيمه؛
لأنه إذا أملاه فقد نفذ قوله عليه فيما أملاه .

الثالثة والعشرون — وتصرُّف السَّفيه(١) المحجور عليه دون إذن وليه فاسدٌ إجماعاً مفسوخ
أبدا لا يوجب حكما ولا يؤثّر شيئا . فإنْ تصرّف سفيهٌ ولا حجر عليه ففيه خلاف يأتى بيانه
فى «النساء»(٢) إن شاء الله تعالى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ الاستشهاد
طلب الشهادة . واختلف الناس هل هى فرض أو ندب، والصحيح أنه ندب على ما يأتى
بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ رتّب الله سبحانه الشهادة بحكمته
فى الحقوق المالية والبدنية والحدود وجعل فى كل فنٍّ شهيدين إلا فى الزّنا، على ما يأتى بيانه
فى سورة «النساء»(٢) . وشهيدٌ بناءُ مبالغة؛ وفى ذلك دلالةٌ على من قد شهد وتكرر ذلك منه ؛
فكأنه إشارة إلى العدالة . والله أعلم .

السادسة والعشرون — قوله تعالى : ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ نصٌّ فى رفض الكفار والصبيان
والنساء، وأما العبيد فاللفظ يتناولهم . وقال مجاهد: المراد الأحرار، واختاره القاضى أبو إسحاق
وأطنب فيه . وقد اختلف العلماء فى شهادة العبيد ؛ فقال شُريح وعثمان البتّىّ وأحمد و إسحاق

(١) فى ﺣ و ا : الصبى . والصواب ما أثبتناه من ﻫ و ﺟ .
(٢) راجع ﺟ ٥ ص ٢٩ وص ٨٣ .

وأبو ثور : شهادة العبد جائزة إذا كان عدلا ؛ وغلّبوا لفظ الآية . وقال مالك وأبو حنيفة والشافعيّ وجمهور العلماء : لا تجوز شهادة العبد ؛ وغلّبوا نقص الرق ، وأجازها الشعبيّ والنخعيّ فى الشيء اليسير . والصحيح قول الجمهور ؛ لأن الله تعالى قال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ » وساق الخطاب إلى قوله « مِن رِجَالِكُمْ » فظاهر الخطاب يتناول الذين يتداينون ، والعبيد لا يملكون ذلك دون إذن السّادة . فإن قالوا : إن خصوص أول الآية لا يمنع التعلق بعُموم آخرها . قيل لهم : هذا يخصّه قوله تعالى : « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » على ما يأتى بيانه . وقوله «مِنْ رِجَالِكُمْ» دليل على أن الأعمى من أهل الشهادة ، لكن إذا علم يقينا ؛ مثل ما روى عن ابن عباس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشهادة فقال : " ترى هذه الشمس فاشهد على مثلها أو دع " . وهذا يدل على اشتراط معاينة الشاهد لما يشهد به ، لا من يشهد بالاستدلال الذى يجوز أن يخطئ . نعم يجوز له وَطْءُ امرأته إذا عرف صوتها ؛ لأن الإقدام على الوطء جائز بغلبة الظن ؛ فلو زُفّت إليه امرأة وقيل : هذه امرأتك وهو لا يعرفها جاز له وطؤها ، ويحل له قبول هدية جاءته بقول الرسول . ولو أخبره مخبر عن زيد بإقرار أو بيْع أو قَذْف أو غصب لما جاز له إقامة الشهادة على المخْبَر عنه ؛ لأن سبيل الشهادة اليقين ، وفى غيرها يجوز استعمال غالب الظن ؛ ولذلك قال الشافعيّ وابن أبى ليلى وأبو يوسف : إذا علمه قبل العمى جازت الشهادة بعد العمى ، ويكون العمى الحائل بينه وبين المشهود عليه كالغيبة والموت فى المشهود عليه . فهذا مذهب هؤلاء . والذى يمنع أداء الأعمى فيما تحمّل بصيرا لا وجه له ، وتصح شهادته بالنسب الذى يثبت بالخبر المستفيض ، كما يخبر عما تواتر حكمه من الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن العلماء من قبِل شهادة الأعمى فيما طريقه الصوت ؛ لأنه رأى الاستدلال بذلك يترقى إلى حدّ اليقين ، ورأى أن اشتباه الأصوات كاشتباه الصّوَر والألوان . وهذا ضعيف يلزم منه جواز الاعتماد على الصوت للبصير .

قلت : مذهب مالك فى شهادة الأعمى على الصوت جائزة فى الطلاق وغيره إذا عرف الصوت . قال ابن قاسم : قلت لمالك : فالرجل يسمع جاره من وراء الحائط ولا يراه ،

يسمعه يطلق امرأته فيشهد عليه وقد عرف الصوت؟ قال قال مالك : شهادته جائزة . وقال ذلك عليّ بن أبى طالب والقاسم بن محمد وشُرَيح الكندىّ والشّعبىّ وعطاء بن أبى رَبَاح ويحيى ابن سعيد وربيعة و إبراهيم النخعىّ ومالك واللّيث .

السابعة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ المعنى إن لم يأت الطالب برجلين فليأت برجل وامرأتين؛ هذا قول الجمهور . «فَرَجُلٌ» رفع بالابتداء، «وَامْرَأَتَانِ» عطف عليه والخبر محذوف . أى فرجل وامرأتان يقومان مقامهما . ويجوز النصب فى غير القرآن، أى فاستشهدوا رجلا وامرأتين . وحكى سيبويه : إنْ خنجرًا فخنجرًا . وقال قوم : بل المعنى فإن لم يكن رجلان ، أى لم يوجدا فلا يجوز استشهاد المرأتين إلا مع عدم الرجال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف، فلفظ الآية لا يعطيه، بل الظاهر منه قول الجمهور، أى إن لم يكن المستشهد رجلين، أى إن أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لعذر مّا فليستشهد رجلا وامرأتين . فجعل تعالى شهادة المرأتين مع الرجل جائزة مع وجود الرجلين فى هذه الآية، ولم يذكرها فى غيرها، فأجيزت فى الأموال خاصة فى قول الجمهور، بشرط أن يكون معهما رجل . و إنما كان ذلك فى الأموال دون غيرها؛ لأن الأموال كثّر الله أسباب تَوْثيقها لكثرة جهات تحصيلها وعموم البلْوَى بها وتكررها؛ فجعل فيها التَوَثّق تارة بالكَتْبَة وتارة بالإشهاد وتارة بالرّهن وتارة بالضمان، وأدخل فى جميع ذلك شهادة النساء مع الرجال . ولا يتوهّم عاقل أن قوله تعالى « إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ» يشتمل على دَيْن المهر مع البُضْع، وعلى الصلح على دم العمد، فإن تلك الشهادة ليست شهادة على الدَّيْن، بل هى شهادة على النكاح . وأجاز العلماء شهادتهنّ منفردات فيما لا يطّلع عليه غيرهنّ للضرورة . وعلى مثل ذلك أجيزت شهادة الصبيان فى الجراح فيما بينهم للضرورة .

وقد اختلف العلماء فى شهادة الصبيان فى الجراح وهى :

الثامنة والعشرون ــ فأجازها مالك ما لم يختلفوا ولم يفترقوا . ولا يجوز أقل من شهادة اثنين منهم على صغير لكبير ولكبير على صغير . وممن كان يقضى بشهادة الصبيان فيما بينهم من الجراح عبد الله بن الزبير . وقال مالك : وهو الأمر عندنا المجتمع عليه . ولم يجز الشافعىّ

وأبو حنيفة وأصحابه[1] شهادتهم؛ لقوله تعالى « مِنْ رِجَالِكُمْ » وقوله « مِمَّنْ تَرْضَوْنَ » وقوله « ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ »[2] وهذه الصفات ليست فى الصبى .

التاسعة والعشرون — لما جعل الله سبحانه شهادة امرأتين بدل شهادة رجل وجب أن يكون حكمهما حكمه؛ فكما له[3] أن يحلف مع الشاهد عندنا ، وعند الشافعى كذلك ، يجب أن يحلف مع شهادة امرأتين بمُطْلق هذه العِوَضيّة . وخالف فى هذا أبو حنيفة وأصحابه فلم يروا اليمين مع الشاهد وقالوا : إن الله سبحانه قسم الشهادة وعدّدها، ولم يذكر الشاهد واليمين ، فلا يجوز القضاء به ؛ لأنه يكون قسما زائدا[4] على ما قسمه الله ، وهذه زيادة على النص ، وذلك نسخ . وممن قال بهذا القول الثورى والأوزاعى وعطاء والحكم بن عُتَيْبة وطائفة . قال بعضهم : الحكم باليمين مع الشاهد منسوخ بالقرآن . وزعم عطاء أن أول من قضى به عبد الملك بن مروان، وقال الحَكَم : القضاء باليمين والشاهد بِدعةٌ، وأول من حكم به معاويةُ . وهذا كله غلط وظنٌّ لا يغنى من الحق شيئا، وليس مَن نَفى وجهل كمن أثبت وعلِم ! وليس فى قول الله تعالى : « وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » الآية، ما يُرَدّ به قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليمين مع الشاهد ؛ ولا أنه لا يُتوصّل إلى الحقوق ولا تستحق إلا بما ذكر فيها لا غير، فإن ذلك يبطل بنكول المطلوب ويمين الطالب، فإن ذلك يستحق به المال إجماعا وليس فى كتاب الله تعالى، وهذا قاطع فى الرد عليهم . قال مالك : فن الحجة على من قال ذلك القول أن يُقال له : أرأيت لو أن رجلا آدّعى على رجل مالا أليس يحلف المطلوب ما ذلك الحق عليه ؟ فإن حلف بطل ذلك الحق عنه ، وإن نَكَل عن اليمين حلف صاحب الحق، أن حقّه لحقٌّ، وثبت حقه على صاحبه . فهذا مما لا اختلاف فيه عند أحد من الناس ولا ببلد من البلدان ، فبأى شيء أخذ هذا وفى أى كتاب الله وجده ؟ فمن أقرّ بهذا فليُقرّ باليمين مع الشاهد . قال علماؤنا : ثم العجب مع شهرة الأحاديث وصحتها بَدّعوا من عمل بها حتى نقضوا حكمه واستقصروا رأيه[5]، مع أنه قد عمل بذلك الخلفاء الأربعة وأبَيّ بن كعب ومعاوية وشُريح وعمر بن عبد العزيز — وكتب به إلى عماله —

(١) فى هـ : أصحابهم . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ (٣) فى ط : اليمين .
(٤) فى حـ و هـ و جـ : قسما ثالثا . (٥) فى ط و جـ و هـ : عليه .

وإياس بن معاوية وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو الزِّناد وربيعة؛ ولذلك قال مالك: وإنه ليكفى من ذلك ما مضى من عَمَل السنّة، أترى هؤلاء تنقض أحكامهم، ويحكم ببدعتهم! هذا إغفال شديد، ونظر غير سديد. روى الأئمة عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قضى باليمين مع الشاهد. قال عمرو بن دينار: فى الأموال خاصة؛ رواه سيف بن سليمان عن قيس بن سعد عن عمرو بن دينار عن ابن عباس. قال أبو عمر: هذا أصح إسناد لهذا الحديث، وهو حديث لا مَطعن لأحد فى إسناده، ولا خلاف بين أهل المعرفة بالحديث فى أن رجاله ثقات. قال يحيى القَطّان: سيف بن سليمان ثَبْتٌ، ما رأيت أحفظ منه. وقال النسائىّ: هذا إسناد جيِّد، سيْف ثقة، وقيس ثقة. وقد خرّج مسلم حديث ابن عباس هذا. قال أبو بكر البزار: سيف بن سليمان وقيس بن سعد ثقتان، ومَن بعدهما يُستغنَى عن ذكرهما لشهرتهما فى الثقة والعدالة. ولم يأت عن أحد من الصحابة أنه أنكر اليمين مع الشاهد، بل جاء عنهم القول به، وعليه جمهور أهل العلم بالمدينة. واختلف فيه عن عُروة بن الزبير وابن شِهاب؛ فقال مَعْمَر(1): سألت الزهرىّ عن اليمين مع الشاهد فقال: هذا شىء أحدثه الناس، لا بدّ من شاهديْن. وقد روى عنه أنه أوّل ما وَلِى القضاء حكم بشاهد ويَمين؛ وبه قال مالك وأصحابه والشافعى وأتباعه وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور وداود بن علىّ وجماعة أهل الأثر، وهو الذى لا يجوز عندى خلافه، لتواتر الآثار به عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعمل أهل المدينة قَرْنا بعد قرن. وقال مالك: يُقضى باليمين مع الشاهد فى كل البلدان، ولم يحتجّ فى موطّئه لمسألة غيرها. ولم يُختلَف عنه فى القضاء باليمين مع الشاهد ولا عن أحد من أصحابه بالمدينة ومصر وغيرهما، ولا يعرف المالكيون فى كل بلد غير ذلك من مذهبهم إلا عندنا بالأندلس؛ فإن يحيى [بن يحيى(2)] زعم أنه لم ير الليث يفتى به ولا يذهب إليه. وخالف يحيى مالكا فى ذلك مع مخالفته السنة والعمل بدار الهجرة.

ثم اليمين مع الشاهد زيادة حكم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كنَهْيه عن نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قول الله تعالى: «وَأُحَلَّ(3) لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ». وكنهيه عن

(1) فى ه: الزبير. (2) فى ب و ه و ط. (3) على قراءة نافع، راجع جـ ٥ ص ١٢٤

أكل لحوم الحمر الأهلية، وكل ذى ناب من السباع مع قوله : « قُلْ لَا أَجِدُ »[1] . وكالمسح على الخفين ، والقرآن إنما ورد بغسل الرجلين أو مسحهما؛ ومثل هذا كثير . ولو جاز أن يقال: إن القرآن نسخ حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمين مع الشاهد، لجاز أن يقال: إن القرآن فى قوله عز وجل : « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » وفى قوله : « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ »[2] ناسخ لنهيه عن المُزَابَنَة وبيع الغَرَر وبيع مالم يُخْلَق، إلى سائر ما نهى عنه فى البيوع ، وهذا لا يسوغ لأحد ؛ لأن السنة مبيِّنة للكتاب . فإن قيل: إن ما ورد من الحديث قضية فى عَيْن فلا عموم . قلنا : بل ذلك عبارةٌ عن تَقْعيد هذه القاعدة؛ فكأنه قال : أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم باليمين مع الشاهد . ومما يشهد لهذا التأويل ما رواه أبو داود فى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بشاهد ويَمين فى الحقوق، ومن جهة القياس والنظر أنا وجدنا اليمين أقوى من المرأتين ؛ لأنهما لا مدخل لهما فى اللِّعان واليمين تدخل فى اللعان . وإذا صحّت السنة فالقول بها يجب، ولا تحتاج السنة إلى ما يتابعها[3]؛ لأن من خالفها محجوج بها . وبالله التوفيق .

الموفية ثلاثين ـــ وإذا تقرر وثبت الحكم باليمين مع الشاهد، فقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : ذلك فى الأموال وما يتعلق بها دون حقوق الأبدان؛ للإجماع على ذلك من كل قائل باليمين مع الشاهد . قال : لأن حقوق الأموال أخفض من حقوق الأبدان؛ بدليل[4] قبول شهادة النساء فيها . وقد اختلف قول مالك فى جراح العمد ، هل يجب القَوَد فيها بالشاهد واليمين ؟ فيه روايتان : إحداهما أنه يجب به التخيير بين القَوَد والدِّيَة . والأخرى أنه لا يجب به شىء؛ لأنه من حقوق الأبدان . قال : وهو الصحيح . قال مالك فى الموطأ : وإنما يكون ذلك فى الأموال خاصة؛ وقاله عمرو بن دينار . وقال المَازَرِى[5] : يقبل فى المال المَحْض من غير خلاف، ولا يقبل فى النكاح والطلاق المحضين من غير خلاف . وإن كان مضمون الشهادة

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ (٢) راجع جـ ٥ ص ١٥١ (٣) فى ط و هـ : من يتابعها .
(٤) فى هـ و ط : بدلالة . (٥) المازرى : أبو عبد الله محمد بن على بن عمر بن محمد التميمى الفقيه المالكى؛ توفى سنة ست وثلاثين وخمسمائة والمازرى بفتح الميم وبعدها ألف ثم زاى مفتوحة وقد كسرت أيضا ثم راء، هذه النسبة إلى « مازر» وهى بليدة بجزيرة صقلية . (عن ابن خلكان) .

ما ليس بمـال، ولكنه يؤدّى إلى المـال، كالشهادة بالوصية والنكاح بعد الموت، حتى لا يطلب من ثبوتها إلا المـال إلى غير ذلك، ففى قبوله اختـلاف؛ فمن راعَى المـال قَبِله كما يقبلـه فى المـال، ومن راعى الحال لم يقبله . وقال المهـدوىّ : شهادة النساء فى الحدود غير جائزة فى قول عامّة الفقهاء، وكذلك فى النكاح والطلاق فى قول أكثر العلماء؛ وهو مذهب مالك والشافعىّ وغيرهما؛ و إنمـا يشهدنَ فى الأموال . وكل ما لا يشهدْنَ فيه فلا يشهدن على شهادة غيرهنّ فيـه ، كان معهنّ رجل أو لم يكن ، ولا ينقلن شهادة إلا مع رجل نقلْنَ(١) عن رجل وامرأة . ويُقضَى باثنتَين منهنّ فى كل ما لا يحضره غيرهنّ كالوِلادة والاستهلال ونحو ذلك . هذا كله مذهب مالك، وفى بعضه اختلاف .

الحـادية والثلاثون — قوله تعـالى : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ فى موضع رفع على الصفة لرجل وامرأتين . قال ابن بُكَير وغيره : هذه مخاطبة للحكّام . ابن عطية : وهذا غير نبيل، و إنمـا الخطاب لجميع الناس، لكن المتَلَبِّس بهذه القضية إنمـا هم الحكام، وهذا كثير فى كتاب الله يعمّ الخطاب فيما يتلبس به البعض .

الثانيـة والثلاثون — لمـا قال الله تعـالى : « مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ » دل على أن فى الشهود من لا يُرْضَى، فيجيء من ذلك أن الناس ليسوا محمولين على العدالة حتى تثبت لهم، وذلك معنًى زائدٌ على الإسلام؛ وهذا قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : كل مسلم ظاهر الإسلام مع السلامة من فِسْق ظاهر فهو عَدْلٌ و إن كان مجهول الحـال . وقال شُرَيح وعثمان البَتّى وأبو ثور : هم عدول المسلمين و إن كانوا عبيدا .

قلت — فعمّمُوا الحكم؛ و يلزم منه قبول شهادة البَدَوِى على القَرَوِىّ إذا كان عدلاً مرضيا و به قال الشافعىّ ومن وافقه، وهو من رجالنا وأهل ديننا . وكونُه بَدَوِيا ككونه من بلد آخر والعمومات فى القرآن الدالة على قبول شهادة العدول تسوّى بين البَدَوِىّ والقروى؛ قال الله تعالى : « مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ » وقال تعالى : « وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ(٢) » فـ « منكم » خطاب للمسلمين . وهذا يقتضى قطعا أن يكون معنى العدالة زائدا على الإسلام ضرورةً؛ لأن الصفة زائدة

(١) فى ه : يقلن .
(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧

على الموصوف، وكذلك «ممن ترضون» مثله، خلاف ما قال أبو حنيفة، ثم لا يعلم كونه مرضيا حتى يختبر حاله، فيلزمه ألا يكتفى بظاهر الإسلام . وذهب أحمد بن حنبل ومالك فى رواية ابن وهب عنه إلى ردّ شهادة البدوِىّ على القروِىّ لحديث أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تجوز شهادة بدوِىّ على صاحب قرية" . والصحيح جواز شهادته إذا كان عدلا مرضيا، على ما يأتى بيانه فى «النساء» (1) و«براءة» (2) إن شاء الله تعالى . وليس فى حديث أبى هريرة فرق بين القروىّ فى الحضر أو السفر، ومتى كان فى السفر فلا خلاف فى [قبوله] (3) .

قال علماؤنا : العدالة هى الاعتدال فى الأحوال الدينية، وذلك يتمّ بأن يكون مجتنبا للكبائر محافظا على مروءته وعلى ترك الصغائر، ظاهر الأمانة غير مغفّل . وقيل : صفاء السريرة واستقامة السيرة فى ظن المعدّل، والمعنى متقارب .

الثالثة والثلاثون ــ لما كانت الشهادة ولايةً عظيمة ومرتبة منيفة، وهى قبول قول الغير على الغير، شرط تعالى فيها الرِّضا والعدالة . فمن حكم الشاهد أن تكون له شمائل ينفرد بها وفضائل يتحلّى بها حتى تكون له مزيةٌ على غيره، توجب له تلك المزيةُ رتبة الاختصاص بقبول قوله، ويُحكَم بشغل ذمّة المطلوب بشهادته . وهذا أدلّ دليل على جواز الاجتهاد والاستدلال بالأمارات والعلامات عند علمائنا على ما خفى من المعانى والأحكام . وسيأتى لهذا فى سورة «يوسف» (4) زيادة بيان إن شاء الله تعالى . وفيه ما يدل على تفويض الأمر إلى اجتهاد الحكام؛ فربما تفرّس فى الشاهد غفلةً أو ريبةً فيردّ شهادته لذلك .

الرابعة والثلاثون ــ قال أبو حنيفة : يُكتفى بظاهر الإسلام فى الأموال دون الحدود . وهذه مناقضة تُسقط كلامه وتُفسد عليه مَرامه؛ لأننا نقول : حقٌّ من الحقوق . فلا يُكتفى فى الشهادة عليه بظاهر الدين كالحدود؛ قاله ابن العربى .

الخامسة والثلاثون ــ وإذ قد شرط الله تعالى الرضا والعدالة فى المداينة كما بيّنا فاشتراطها فى النكاح أولى ، خلافا لأبى حنيفة حيث قال : إن النكاح ينعقد بشهادة فاسقين . فنفى

(1) راجع جـ ٥ ص ٤١٢ (2) راجع جـ ٨ ص ٢٣٢ (3) كذا فى ط . وفى باقى الأصول : فلا خلاف فى قوله . (4) راجع جـ ٩ ص ١٧٣ فما بعد وص ٢٤٥

الاحتياط المأمور به فى الأموال عن النكاح ، وهو أولى لما يتعلق به من الحل والحرمة والحدّ والنسب .

قلت : قول أبى حنيفة فى هذا الباب ضعيف جدا؛ لشرط الله تعالى الرضا والعدالة ، وليس يعلم كونه مرضيا بمجرد الإسلام، وإنما يعلم بالنظر فى أحواله حسب ما تقدّم . ولا يغترّ بظاهر قوله : أنا مسلم . فربما انطوى على ما يوجب ردّ شهادته ؛ مثل قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ » إلى قوله « وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ »(١) . وقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ »(٢) الآية .

السادسة والثلاثون — قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ قال أبو عبيد: معنى تضل تنسى. والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالا . ومن نسى الشهادة جملة فليس يقال: ضل فيها. وقرأ حمزة «إن» بكسر الهمزة على معنى الجزاء، والفاء فى قوله « فَتُذَكِّرُ » جوابه ، وموضع الشرط وجوابه رفع على الصفة للمرأتين والرجل ، وارتفع « تُذَكِّرُ » على الاستئناف، كما ارتفع قوله «وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ»(٣) هذا قول سيبويه . ومن فتح «أن» فهى مفعول له والعامل [فيها](٤) محذوف . وانتصب «فَتُذَكِّرَ» على قراءة الجماعة عطفا على الفعل المنصوب بأن . قال النحاس : ويجوز « تَضَلَّ » بفتح التاء والضاد، ويجوز تِضَلّ بكسر التاء وفتح الضاد . فمن قال : «تضل» جاء به على لغة من قال : ضَلِلْتَ تَضَلّ . وعلى هذا تقول تِضَل فتكسر التاء لتدلّ على أن الماضى فَعِلت . وقرأ الجحدرىّ وعيسى ابن عمر «أَنْ تُضَلَّ » بضم التاء وفتح الضاد بمعنى تُنْسى، وهكذا حكى عنهما أبو عمرو الدانىّ . وحكى النقّاش عن الجحدرىّ ضم التاء وكسر الضاد بمعنى أن تُضِلّ الشهادة . تقول: أضللْتُ الفرس والبعير إذا تلفا لك وذهبا فلم تجدهما .

السابعة والثلاثون — قوله تعالى : ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ خفف الذال والكاف ابن كثير وأبو عمرو ؛ وعليه فيكون المعنى أن تردّها ذكرا فى الشهادة؛ لأن شهادة المرأة نصف شهادة؛ فإذا شهدتا صار مجموعهما كشهادة ذكر(٥) ؛ قاله سفيان بن عيينة وأبو عمرو بن العلاء . وفيه

(١) راجع ص ١٤ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ١٨ ص ١٢٤ (٣) راجع ج ٦ ص ٣٠٢
(٤) كذا فى ط و ج . (٥) فى ج : رجل .

بعدُ، إذ لا يحصل فى مقابلة الضَّلال الذى معناه النسيان إلا الذِّكْر، وهو معنى قراءة الجماعة « فَتُذَكِّرَ » بالتشديد، أى تنبهها إذا غفلت ونَسِيت .

قلت : وإليها ترجع قراءة أبى عمرو، أى إنْ تنسَ إحداهما فتُذْكِرُها الأخرى ؛ يقال : تذكَّرت الشىء وأذكَرْته غيرى وذكَّرْته بمعنًى؛ قاله فى الصحاح .

الثامنة والثلاثون ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ قال الحسن : جمعت هذه الآية أمرين، وهما ألّا تأبَى إذا دُعيتَ إلى تحصيل الشهادة، ولا إذا دُعيت إلى أدائها؛ وقاله ابن عباس . وقال قتادة والربيع وابن عباس : أى لتحمّلها وإثباتها فى الكتاب . وقال مجاهد : معنى الآية إذا دُعيت إلى أداء شهادة وقد حَصَلَتْ عندك . وأسند النقاش إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه فسّر الآية بهذا ؛ قال مجاهد : فأما إذا دُعيت لتشهد أوّلا فإن شئت فاذهب وإن شئت فلا ؛ وقاله أبو مجلز وعطاء وإبراهيم وابن جبير والسدى وابن زيد وغيرهم[1] . وعليه فلا يجب على الشهود الحضور عند المتعاقدين، وإنما على المتداينين أن يحضرا عند الشهود؛ فإذا حضراهم وسألاهم إثبات شهادتهم فى الكتاب فهذه الحالة التى يجوز أن تراد بقوله تعالى : « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » لإثبات الشهادة فإذا ثبتت شهادتهم ثم دعوا لإقامتها عند الحاكم فهذا الدعاء هو بحضورهما عند الحاكم[2] ، على ما يأتى . وقال[3] ابن عطية : والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة الندب؛ فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم، فإذا كانت الفسحة لكثرة الشهود والأمن من تعطيل الحق[4] فالمدعوّ مندوب، وله أن يتخلّف لأدنى عُذْر ، وإن تخلّف لغير[5] عذر فلا إثم عليه ولا ثواب له . وإذا كانت الضرورة وخِيفَ تعطل الحق أدنى خوف قوِى النَّدب وقرب من الوجوب ، وإذا علم أن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة فواجب عليه القيام بها ، لا سيّما إن كانت مُحَصَّلة وكان الدعاء إلى أدائها ، فإن هذا الظرف آكد؛ لأنها قلادة فى العُنق وأمانة تقتضى الأداء .

قلت : وقد يستلوح من هذه الآية دليلٌ على أن جائزا للإمام أن يُقيم للناس شهودا ويجعل لهم من بيت المال كفايتهم، فلا يكون لهم شغل إلا تحمل حقوق الناس حفظا لها، وإن لم

(١) فى ب : وعطية فلا يجب الخ . (٢) فى ب : الحكام . (٣) فى ط وب : قاله ابن عطية . (٤) فى هـ : الحقوق . (٥) فى ط : لعذر .

يكن ذلك ضاعت الحقوق و بطلت . فيكون المعنى ولا يأب الشهداء إذا أخذوا حقوقهم أن يجيبوا . والله أعلم . فإن قيل : هذه شهادة بالأجرة؛ قلنا : إنمـا هى شهادة خالصة من قوم استوفوا حقوقهم من بيت المـال ، وذلك كأرزاق القضاة والوُلاة و جميع المصالح التى تعنّ (١) للسلمين وهذا من جملتها . والله أعلم . وقد قال تعالى : « وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا (٢) » ففرض لهم .

التاسعة والثلاثون — لمـا قال تعالى : « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا » دلّ على أن الشاهد هو الذى يمشى إلى الحاكم ، وهذا أمر بُنِى عليه الشرع وعُمِل به فى كل زمان وفهمته كل أمة ، ومن أمثالهم : « فى بَيْتِه يُؤْتَى الحَكَمُ » .

الموفية أربعين — و إذا ثبت هـذا فالعبد خارج عن جملة الشهداء ، وهو يخص عموم قوله : « مِنْ رِجَالِكُمْ » لأنه لا يمكنه أن يجيب ، ولا يصح له أن يأتى ؛ لأنه لا استقلال له بنفسه ، وإنمـا يتصرف بإذن غيره ، فانحط عن منصب الشهادة كما انحط عن منزل الولاية . نعم ! وكما انحط عن فرض الجمعة والجهاد والحج ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

الحادية والأربعون — قال علماؤنا : هـذا فى حال الدعاء إلى الشهادة . فأمّا من كانت عنده شهادة لرجل لم يعلمها مستحقُّها الذى ينتفع بها ، فقال قوم : أداؤها ندب لقوله تعالى : «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا» ففرض الله الأداء عند الدعاء ، فإذا لم يُدْعَ كان ندبا ؛ لقوله عليه السلام : " خير الشهداءِ الذى يأتى بشهادته قبل أن يسألهـا " رواه الأئمة . والصحيح أن أداءها فرض و إن لم يُسْألها إذا خاف على الحق ضياعه أو فوته ، أو بطلاق أو عتق على من أقام على تصرفه على الاستمتاع بالزوجة واستخدام العبـد إلى غير ذلك ؛ فيجب على من تحمل شيئا من ذلك أداءُ تلك الشهادة ، ولا يقف أداؤها على أن تسأل منه فيضيع الحق ؛ وقد قال تعالى : «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ (٣)» وقال : «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٤)» . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليـه وسلم : " انصر أخاك ظالمـا أو مظلوما " . فقد تعيّن عليـه نصره بأداء الشهادة التى له عنده إحياءً لحقه الذى أماته الإنكار .

---

(١) فى ج : تعين المسلمين . (٢) راجع ج ٨ ص ١٧٨ (٣) راجع ج ١٨ ص ١٥٩
(٤) راجع ج ١٦ ص ١٢٢

الثانيـة والأربعون ـ لا إشكال في أن من وجبت عليـه شهادةٌ على أحَدِ الأوْجُه التي ذكرناها فلم يؤدها أنها جُرحة في الشاهد والشهادة؛ ولا فرق في هذا بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميّين؛ هـذا قول ابن القاسم وغيره . وذهب بعضهم إلى أن تلك الشهادة إن كانت بحق من حقوق الآدميين كان ذلك جُرحةً في تلك الشهادة نفسها خاصةً، فلا يصلح له أداؤها بعد ذلك . والصحيح الأوّل ؛ لأن الذي يوجب جرحته إنمـا هو فسقُه بامتناعه من القيام بمـا وجب عليه من غير عذر، والفسق يسلب أهليّة الشهادة مطلقا ، وهذا واضح .

الثالثة والأربعون ـ لا تَعارُض بين قوله عليه السلام: "خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها" وبين قوله عليه السلام في حديث عِمران بن حصين: "إنّ خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ـ ثم قال عِمران : فلا أدري أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قرنه مرتين أو ثلاثا ـ ثم يكون بعدهم قوم يَشْهَدون ولا يُستَشْهَدون ويخونون ولا يُؤتَمنون ويَنْذِرون ولا يُوفون ويظهر فيهم السِّمَن"(1) أخرجهما الصحيحان. وهذا الحديث محمول على ثلاثة أوجه: أحدها أن يراد به شاهد الزور، فإنه يشهد بما لم يستشهد، أي بما لم يتحمّله ولا حُمّله . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بباب الجابية فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا كمقامي فيكم ثم قال : "يأيها الناس اتقوا الله في أصحابي ثم الذين يلونهـم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب وشهادة الزور" . الوجه الثاني أن يُراد به الذي يحمله الشَّرَه على تنفيذ ما يشهد به ، فيبادر بالشهادة قبل أن يُسألهـا ؛ فهذه شهادة مردودةٌ ؛ فإن ذلك يدل على هَوًى غالب على الشاهد . الثالث ما قاله إبراهيم النخعي راوي طرق(2) بعض هذا الحديث : كانوا يَنْهَوْنَنا ونحن غلمان عن العهد والشهادات .

الرابعة والأربعون ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِه ﴾ " تَسْأَمُوا " معناه تَمَلُّوا . قال الأخفش : يقال سَئِمْتُ أَسْأَمُ سَأْمًا وسَآمَةً وسَآمًا(3) [وسَأْمَةً] وسَأَمًا ؛ كما قال الشاعر :

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومَن يَعِش * ثمانين حَوْلًا ـ لا أبالك ـ يَسْأَمِ

(1) هذه رواية مسلم . (2) في ب و جـ و هـ و ط : بأثر طرق . (3) في جـ واللسان .

« أَنْ تَكْتُبُوهُ » فى موضع نصب بالفعل . «صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا» حالان من الضمير فى «تكتبوه» وقدّم الصغير اهتماما به . وهذا النهى عن السآمة إنما جاء لتردّد المداينة عندهم نخيف عليهم أن يَمَلُّوا الكَتْب، و يقول أحدهم : هذا قليل لا أحتاج إلى كَتْبِه ؛ فأكّد تعالى التحضيض(١) فى القليل والكثير . قال علماؤنا : إلا ما كان من قيراط ونحوه لنزارته وعدم تشوّف النفس إليه إقرارًا و إنكارا .

الخامسة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ معناه أعدل ، يعنى أن يُكْتَب القليل والكثير و يُشْهَد عليه . ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾ أى أصح وأحفظ . ﴿ وَأَدْنَىٰ ﴾ معناه أقرب . و﴿ تَرْتَابُوا ﴾ تَشُكُّوا .

السادسة والأربعون — قوله تعالى : « وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ » دليل على أن الشاهد إذا رأى الكتاب ولم يذكر الشهادة لا يؤدّيها لما دخل عليه من الريبة فيها، ولا يؤدّى إلّا ما يعلم ، لكنه يقول : هذا خطّى ولا أذكر الآن ما كتبتُ فيه . قال ابن المنذر : أكثر من يُحْفَظ عنه من أهل العلم يمنع أن يشهد الشاهد على خطه إذا لم يذكر الشهادة . واحتجّ مالك على جواز ذلك بقوله تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا »(٢) . وقال بعض العلماء : لمّا نسب الله تعالى الكتابة إلى العدالة وسعه أن يشهد على خطه و إن لم يتذكّر . ذكر ابن المبارك عن مَعْمَر عن ابن طاوس عن أبيه فى الرجل يشهد على شهادة فينساها قال : لا بأس أن يشهد إن وجد علامته فى الصكّ أو خطّ يده . قال ابن المبارك : استحسنتُ هذا جدًّا . وفيما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حكم فى أشياء غير واحدة بالدلائل والشواهد، وعن الرسل من قبله ما يدلّ على صحة هذا المذهب . والله أعلم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « الأحقاف »(٣) إن شاء الله تعالى .

السابعة والأربعون — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةٌ(٤) حَاضِرَةٌ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ «أن» فى موضع نصب استثناءً ليس من الأوّل . قال الأخفش [أبو سعيد](٥) : أى إلّا أن تقع تجارة، فكان بمعنى وقع وحدث . وقال غيره : «تُدِيرُونَهَا» الخبر . وقرأ عاصم وحده «تِجَارَةً»

(١) كذا فى ج و هـ ؛ وفى ب و أ و ح و ط : التحصين . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٤٤ .
(٣) راجع ج ١٦ ص ١٨١ فما بعد . (٤) قراءة نافع . (٥) من ب .

على خبر كان واسمها مضمر فيها .- « حَاضِرَةً » نعت لتجارة ، والتقـدير إلا أن تكون التجارةُ تجارةً، أو إلا أن تكون المبايعةُ تجارةً؛ هكذا قدّره مكّى وأبو علىّ الفارسىّ؛ وقد تقدّم نظائره والاستشهاد عليه . ولمّا علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نصّ على ترك ذلك ورفع الجناح فيه فى كل مبايعة بنقد،وذلك فى الأغلب إنما هو فى قليل كالمطعوم ونحوه لا فى كثير كالأملاك ونحوها . وقال السُّدّىّ والضّحاك : هذا فيما كان يدًا بيد .

الثامنة والأربعون ــ قوله تعـالى : ﴿ تُدِيرُونَهَـا بَيْنَكُمْ ﴾ يقتضى التقابض والبينـونة بالمقبوض . ولمّـا كانت الرِّباع والأرض وكثير من الحيوان لا يقبل البينونة ولا يغاب عليه، حَسُن الكَتْبُ فيها ولحقت فى ذلك مبايعـة الدَّين ؛ فكان الكِتاب توثُّقا لِمـا عسى أن يطرأ من اختلاف الأحوال وتغيُّر القلوب . فأما إذا تفاصـلا فى المعاملة وتقابضا وبان كل واحد منهما بما ابتاعه من صاحبه، فيقلّ فى العادة خوف التنازع إلا بأسباب غامضة. ونبّه الشرع على هذه المصالح فى حالتى النسيئة والنقد وما يغاب عليـه وما لا يغاب ، بالكتاب والشهادة والرهن . قال الشافعى :البيوع ثلاثة : بيع بكتاب وشهود، وبيع برِهان، وبيع بأمانة؛ وقرأ هذه الآية . وكان ابن عمر إذا باع بنقد أشهد، وإذا باع بنسيئة كتب .

التاسعة والأربعون ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ﴾ قال الطبرىّ : معناه وأشهدوا على صـغير ذلك وكبيره . واختلف الناس هل ذلك على الوجوب أو النـدب؛ فقال أبو موسى الأشعرى وابن عمر والضحّاك وسعيد بن المسيِّب وجابر بن زيد ومجاهد وداود بن علىّ وابنه أبو بكر: هو على الوجوب؛ ومِن أشدّهم فى ذلك عطاء قال : أَشْهِد إذا بعت وإذا اشتريت بدرهم أو نصف درهم أو ثلث درهم أو أقلّ من ذلك؛ فإن الله عزّ وجل يقول : ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾.وعن إبراهيم قال : أَشْهِدْ إذا بعتَ وإذا اشتريت ولو دَسْتَجَة[1] بقْل . وممن كان يذهب إلى هذا ويرجّحه الطبرىّ، وقال:لا يحلّ لمسلم إذا باع وإذا اشترى إلا أن يُشْهِد ، وإلا كان مخالفا كتاب الله عزّ وجل ، وكذا إن كان إلى أجل فعليه أن يكتُب ويُشْهِـد إن

(١) الدستجة : الحزمة .

وجد كاتبا . وذهب الشعبي والحسن إلى أن ذلك على النَّدْب والإرشاد لا على الحَتْم . ويُحكى أن هذا قول مالك والشافعيّ وأصحاب الرأى . وزعم ابن العربيّ أن هذا قول الكافّة ، قال : وهو الصحيح . ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك . قال وقد باع النبيّ صلى الله عليه وسلم وكتَب . قال : ونسخة كتابه : " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اشترى العدّاء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ اشترى منه عبدا — أو أمة — لا داءَ(١) ولا غائلةَ ولا خِبْثة بيعَ المسلم المسلم " . وقد باع ولم يُشهد ، واشترى ورَهَن دِرعَه عند يهوديّ ولم يُشهد . ولو كان الإشهاد أمرا واجبا لوجب مع الرهن لخوف المنازعة .

قلت : قد ذكرنا الوجوب عن غير الضحاك . وحديث العدّاء هذا أخرجه الدارقطنيّ وأبو داود . وكان إسلامه بعد الفتح وحُنَين ، وهو القائل : قاتلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنَين فلم يُظهرنا الله ولم ينصرنا ، ثم أسلم فحسن إسلامه . ذكره أبو عمر ، وذكر حديثه هذا ، وقال في آخره : « قال الأصمعيّ : سألت سعيد بن أبي عروبة عن الغائلة فقال : الإباق والسرقة والزنا ، وسألته عن الخِبْثة فقال : بيع أهل عهد المسلمين » . وقال الإمام أبو محمد بن عطية : والوجوب في ذلك قَلِقٌ ، أمّا في الدَّقائق(٢) فصعب شاقّ ، وأمّا ما كثُر فربما يقصد التاجر الاستئلاف بترك الإشهاد ، وقد يكون عادة في بعض البلاد ، وقد يستحيي من العالم والرجل الكبير الموقّر فلا يُشهد عليه ؛ فيدخل ذلك كله في الائتمان ويبقى الأمر بالإشهاد ندبا ؛ لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا . وحكى المهدويّ والنحاس ومكي عن قوم أنهم قالوا : « وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » منسوخ بقوله : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » . وأسنده النحاس عن أبي سعيد الخدريّ ، وأنه تلا « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » إلى قوله « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ » ، قال : نسخت هذه الآية ما قبلها . قال النحاس : وهذا قول الحسن والحكم وعبد الرحمن بن زيد . قال الطبريّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن هذا حكم غير

(١) الداء : ما دلس فيه من عيب يخفى أو علة باطنة لا ترى . والشك من الراوى كما فى الاستيعاب . وفيه : "بيع المسلم المسلم" . كما فى ه و ج و ب و ا ؛ وفى ح : "بيع المسلم للمسلم" .

(٢) كذا فى ط ، ه و ج و ب وابن عطية . وفى ا و ح : الوثائق .

الأول، و إنما هــذا حكم من لم يجد كاتبا قال الله عز وجل : « وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ـــ أى فلم يطالبه برهن ـــ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ » . قال : ولو جاز أن يكون هــذا ناسخا للأول لجــاز أن يكون قــوله عز وجل : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » (١) الآية ناسخا لقوله عز وجل : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » الآية و لجاز أن يكون قوله عز وجل : « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » ناسخا لقوله عز وجل : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » وقال بعض العلماء : إن قوله تعالى « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » لم يتبين تأخر نزوله عن صدر الآية المشتملة على الأمر بالإشهاد، بل وردا معا . ولا يجوز أن يرد الناسخ والمنسوخ معا جميعاً فى حالة واحدة . قال: وقد روى عن ابن عباس أنه قال لمــا قيل له : إن آية الدين منسوخة قال : لا والله إن آية الدين محكمة ليس فيها نسخ قال : والإشهاد إنمــا جعل للطمأنينة، وذلك أن الله تعالى جعل لتوثيق الدين طرقا، منها الكتاب، ومنها الرهن، ومنها الإشهاد. ولا خلاف بين علماء الأمصار أن الرهن مشروع بطريق الندب لا بطريق الوجوب . فيعلم من ذلك مثــله فى الإشهاد . وما زال الناس يتبايعون حضراً وسفرا و برا و بحرا وسهلا وجبلا من غير إشهاد مع علم الناس بذلك من غير نكير، ولو وجب الإشهاد ما تركوا النكير على تاركه .

قلت : هذا كله استدلال حسن، وأحسن منه ماجاء من صريح السنة فى ترك الإشهاد، وهو ما خرّجه الدارقطنيّ عن طارق بن عبد الله المحاربيّ قال : " أقبلنا فى ركب من الرَّبَذة وجنوب الربذة (٢) حتى نزلنا قريبا من المدينة ومعنا ظعينة لنا . فبينا نحن قعود إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلّم فرددنا عليه ، فقال : من أين [أقبل] (٣) القوم؟ فقلنا : من الربذة وجنوب الربذة . قال: ومعنا جمل أحمر، فقال : تبيعونى جملكم هذا؟ فقلنا نعم . قال بكم؟ قلنا : بكذا وكذا صاعا من تمر . قال : فما استوضعنا شيئا وقال : قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ وص ٨٠ وص ٢١٤ وص ٣٢٧ (٢) الربذة (بالتحريك) : من قرى المدينــة على ثلاثة أميال قريبــة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة؛ وبهــذا الموضع قبر أبى ذر الغفارى رضى الله عنــه ، وكان قــد خرج إليها مغاضبا لعثمان بن عفان رضى الله عنــه فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢ هـ (عن معجم البلدان لياقوت) . (٣) من الدارقطنيّ .

دخل المدينة فتوارى عنا، فتلاومنا بيننا وقلنا : أعطيتم جملكم من لا تعرفونه ! فقالت الظعينة :
لا تلاوموا فقد رأيتُ وجه رجل ما كان لِيَخْفِركم ، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر
من وجهه . فلما كان العشاء[1] أتانا رجل فقال : السلام عليكم، أنا رسول رسول الله صلى الله
عليه وسلم إليكم، و إنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا . قال :
فأكلنا حتى شبعنا ، واكتلنا حتى استوفينا ". وذكر الحديث الزهري عن عُمارة بن خُزَيْمة
أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا
من أعرابي؛ الحديث . وفيه : فطفق الأعرابي يقول : هَلُمَّ شاهدا يشهد أني بعتك — قال
خُزَيْمة بن ثابت : أنا أشهد أنك قد بعته . فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على خُزَيْمَة فقال :
" بم تشهد " ؟ فقال : بتصديقك يا رسول الله . قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
شهادة خزيمة بشهادة رجلين . أخرجه النسائي وغيره .

الموفية خمسين — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

الأول — لا يكتب الكاتب ما لم يُمَلّ عليه، ولا يزيد الشاهد في شهادته ولا ينقص منها[2] ؛
قاله الحسن وقتادة وطاوس وابن زيد وغيرهم .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء أن المعنى لا يمتنع الكاتب أن يكتب ولا الشاهد
أن يشهد . « وَلَا يُضَارَّ » على هذين القولين أصله يُضارِرَ بكسر الراء، ثم وقع الإدغام،
وفتحت الراء في الجزم لخفة الفتحة . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول؛
قال : لأن بعده « وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ » فالأولى أن تكون، من شهد بغير الحق أو حرف
في الكتابة أن يقال له : فاسق ، فهو أولى بهذا ممن سأل شاهدا أن يشهد وهو مشغول .
وقرأ عمر بن الخطاب وابن عباس وابن أبي إسحاق يُضَارِرَ بكسر الراء الأولى .

وقال مجاهد والضحاك وطاوس والسدي وروى عن ابن عباس : معنى الآية " وَلَا يُضَارَّ
كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ " بأن يُدعَى الشاهدُ إلى الشهادة والكاتبُ إلى الكتب وهما مشغولان ؛
فإذا اعتذرا بعذرهما أخرجهما[3] وآذاهما ، وقال : خالفتما أمر الله، ونحو هذا من القول

(١) كذا في الدارقطني ، وفي الأصول جميعا : العشي . (٢) الثاني قول ابن عباس والثالث قول مجاهد والضحاك . (٣) في جـ و ب و ط : حرج .

فيضرّ بهما : وأصل « يضارّ » على هذا يضارَرَ بفتح الراء، وكذا قرأ ابن مسعود « يضارَر » بفتح الراء الأولى؛ فنهى الله سبحانه عن هذا ؛ لأنه لو أطلقه لكان فيه شغل لهما عن أمر دينهما ومعاشهما . ولفظ المضارة، إذ هو من اثنين، يقتضى هذه المعانى . والكاتب والشهيد على القولين الأولين رفع بفعلهما، وعلى القول الثالث رفع على المفعول الذى لم يسم فاعله .

الحادية والخمسون ـ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَفْعَلُوا ﴾ يعنى المضارة، ﴿ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ أى معصية؛ عن سفيان الثورى . فالكاتب والشاهد يعصيان بالزيادة أو النقصان ، وذلك من الكذب المؤذى فى الأموال والأبدان، وفيه إبطال الحق ، وكذلك إذايتهما إذا كانا مشغولين معصية وخروج عن الصواب من حيث المخالفة لأمر الله . وقوله « بِكُمْ » تقديره فسوقٌ حالٌ بكم .

الثانية والخمسون ـ قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وعدٌ من الله تعالى بأن من اتقاه علّمه، أى يجعل فى قلبه نورا يفهم به ما يُلقى إليه؛ وقد يجعل الله فى قلبه ابتداء فرقانا، أى فيصلا يفصل به بين الحق والباطل؛ ومنه قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا »(1) . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

فيه أربع وعشرون مسألة(2) :

الأولى ـ لما ذكر الله تعالى النّدب إلى الإشهاد والكَتْب لمصلحة حفظ الأموال والأديان(3)، عقّب ذلك بذكر حال الأعذار المانعة من الكَتْب، وجعل لها الرهن، ونص من

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٩٦ (2) اعتمدنا أربع لما فى هـ و ا و جـ عند تمام الحادية والعشرين قوله : تعرضت هنا ثلاث مسائل تتمة أربع وعشرين . (3) كذا فى الأصول وابن عطية . والأديان : الطاعات، وعدم أداء الحقوق فسوق عن أمر الله . ولعله : الأبدان، راجع تفسير قوله تعالى : « فسوق بكم » .

أحوال العذر على السفر الذى هو غالب الأعذار، لا سيما فى ذلك الوقت لكثرة الغزو، ويدخل فى ذلك بالمعنى كلُّ عذر. فرُبّ وقت يتعذّر فيه الكاتب فى الحضر كأوقات أشغال الناس وبالليل، وأيضا فالخوف على خراب ذمّة الغريم عذرٌ يوجب طلب الرهن. وقد رهن النبىّ صلى الله عليه وسلم دِرْعه عند يهودى طلب منه سلف الشعير فقال: إنما يريد محمد أن يذهب بمالى. فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "كذب إنّى لأمينٌ فى الأرض أمينٌ فى السماء ولو ائتمنني لأدّيت آذهبوا إليه بدرعى" فمات ودِرعه مرهونة صلى الله عليه وسلم، على ما يأتى بيانه آنفًا.

الثانيــة — قال جمهور من العلماء[1]: الرّهْنُ فى السفر بنص التنزيل، وفى الحضر ثابت بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا صحيح. وقد بينّا جوازه فى الحضر من الآية بالمعنى؛ إذ قد تترتّب الأعذار فى الحضر، ولم يُروَ عن أحدٍ منعُهُ فى الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود، متمسّكين بالآية. ولا حجة فيها؛ لأن هذا الكلام وإن كان خرج مخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال. وليس كون الرهن فى الآية فى السفر مما يحظر فى غيره. وفى الصحيحين وغيرهما عن عائشة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودى طعاما إلى أجلٍ ورهنه دِرعًا له من حديد. وأخرجه النسائى من حديث ابن عباس قال: توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودِرْعُه مرهونةٌ عند يهودىّ بثلاثين صاعا من شعير لأهله.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ قرأ الجمهور «كاتبا» بمعنى رجل يكتب. وقرأ ابن عباس وأُبَىّ ومجاهد والضحاك وعكرمة وأبو العالية «ولم تجدوا كِتابا». قال أبو بكر الأنبارى: فسّره مجاهد فقال: معناه فإن لم تجدوا مدادا يعنى فى الأسفار. وروى عن ابن عباس «كُتّابًا». قال النحاس: هذه القراءة شاذّة والعامّة على خلافها، وقلّما يخرج شىء عن قراءة العامة إلا وفيه مَطْعَن؛ ونسق الكلام على كاتب؛ قال الله عز وجل قبل هذا: «وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» وكُتّابٌ يقتضى جماعة. قال ابن عطية: كُتّابًا يحسُن من حيث

(١) فى ب: «الجمهور من العلماء» وفى ج: «جمهور العلماء».

لكل نازلة كاتب، فقيل للجماعة : ولم تجدوا كتابا . وحكى المهدوىّ عن أبى العالية أنه قرأ « كُتُباً » وهذا جمع كِتاب من حيث النوازل مختلفة . وأمّا قراءة أُبَىّ وابن عباس « كُتَّاباً » فقال النحاس ومكىّ : هو جمع كاتب كقائم وقِيام . مكى : المعنى وإن عدِمتِ الدواة والقلم والصحيفة . ونفْىُ وجود الكاتب يكون بعدم أى آلة آتفق، ونفْى الكاتب أيضا يقتضى نفى الكتاب ؛ فالقراءتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير «فرُهُنٌ» بضم الراء والهاء، وروى عنهما تخفيف الهاء . وقال الطبرىّ : تأوّل قوم أن « رُهُنا » بضم الراء والهاء جمع رِهان، فهو جمعُ جمعٍ، وحكاه الزجاج عن الفرّاء . وقال المهدوى : « فرهان » إبتداء والخبر محذوف، والمعنى فرهان مقبوضة يكفى من ذلك . قال النحاس : وقرأ عاصم بن أبى النَّجُود « فَرْهُنٌ » بإسكان الهاء، و يروى عن أهل مكة . والباب فى هذا « رِهَانٌ »؛ كما يقال : بغل وبِغَال ، وكَبْش وكِبَاش؛ ورُهُنٌ سبيله أن يكون جمعَ رِهان؛ مثــل كِتَاب وكُتُب . وقيل : هو جمع رَهْن ؛ مثل سَقْف وسُقُف، وحَلْق وحُلُق، وفَرْش وفُرُش، ونَشْر ونُشُر[(١)]، وشبهه . « ورُهْن » بإسكان الهاء سبيله أن تكون الضمة حذفت لثقلها . وقيل : هو جمع رهن؛ مثل سَهْم حَشْرٌ أى دقيق، وسِهام حُشْرٌ . والأوّل أولى؛ لأن الأوّل ليس بنعت وهذا نعت . وقال أبو على الفارسى : وتكسير « رَهْنٌ » على أقل العــدد لم أعلمه جاء ، فلو جاء كان قياسه أَفْعُلا ككلب وأَكْلُب ؛ وكأنهم استغنوا بالقليل عن الكثير، كما استغنى ببناء الكثير عن بناء القليــل فى قولهم : ثلاثة شُسُوع ، وقد استغنى ببنــاء القليل عن الكثير فى رَسَن وأَرْسَان ؛ فرَهْن يجمع على بناءين وهما فُعُــل وفِعَال . الأخفش : فَعْل على فُعُــل قبيح وهو قليل شاذّ ، قال : وقد يكون « رُهُن » جمعا للرهان، كأنه يجمع رَهْن على رِهَان ، ثم يجمع رِهان على رُهُن؛ مثل فِراش وفُرُش .

(١) فى جـ : نشر ونشر وبه قرأ نافع « نُشُرا بين يدى رحمته » أو بشر وبشر : لأن السين غير منقوطة . وفى أ : نسر بالنون ومهملة ؛ وفى هـ : بهرا بالباء . والله أعلم .

الخامســـة — معنى الرَّهْن: احتباس العين وثيقةً بالحق ليُستوفَى الحق من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم؛ هكذا حدّه العلماء، وهو في كلام العرب بمعنى الدوام والاستمرار. وقال ابن سيده: ورهنه أي أدامه؛ ومن رهن بمعنى دام قول الشاعر:

الخُبْزُ واللَّحْمُ لهم راهِنٌ * وقَهْوَةٌ راوُوقها ساكِبُ

قال الجوهري: ورَهَن الشيءُ رَهْنا أي دام. وأرهنتُ لهم الطعامَ والشراب أدمتُه لهم؛ وهو طعام راهن. والراهن: الثابت، والراهن: المهزول من الإبل والناس؛ قال:

إمّا تَرَىْ جِسْمِيَ خَلًّا قد رَهَن * هزْلًا وما مَجْدُ الرجالِ في السِّمَنْ

قال ابن عطية: ويقال في معنى الرهن الذي هو الوَثيقَــةُ من الرَّهْن: أرْهنتُ إرهانا؛ حكاه بعضهم. وقال أبو علي: أرْهنتُ في المُغَالاة، وأما في القرض والبيع فرهنتُ. وقال أبو زيد: أرهنت في السلعة إرهانا: غاليت بها؛ وهو في الغلاء خاصة. قال:

* عِيدِيَّةٌ أُرْهِنَتْ فيها الدَّنانيرُ *

يصف ناقة. والعِيدُ بطن من مهرة (١) وإبِلُ مَهْرة موصوفة بالنجابة. وقال الزجاج: يقال في الرهن: رَهَنْت وأرهنت؛ وقاله ابن الأعرابي والأخفش. قال عبد الله بن همام السَّلُولي:

فلمّا خَشِيتُ أظَافيرَهُمْ * نَجَوتُ وأرْهَنُهُم مالكا

قال ثعلب: الرواة كلهم على أرهنتهم، على أنه يجوز رهنتُه وأرهنتُه، إلا الأصمعي فإنه رواه وأَرْهَنُهُم، على أنه عطفَ بفعل مستقبل على فعل ماض، وشبّهه بقولهم: قمتُ وأصُكّ وجهَه، وهو مذهب حسَنٌ؛ لأن الواو واو الحال، فجعل أصُكّ حالا للفعل الأوّل على معنى قمت صاكًّا وجهه، أي تركتُه مقيما عندهم؛ لأنه لا يقال: أرْهَنْت الشيء، وإنما يقال: رهَنْتُه. وتقول: رهنت لساني بكذا، ولا يقال فيه: أرهنت. وقال ابن السِّكّيت: أرهنت فيها بمعنى أسلفت. والمرتَهِن: الذي يأخذ الرهن. والشيء مرهون ورَهِين، والأنثى رَهِينة. وراهنت فلانا على كذا مُراهنةً: خاطرته. وأرهنت به ولدي إرهانا: أخطرتهم به خَطَرا. والرَّهِينَةُ واحدة

---

(١) هو مهرة بن حيدان أبو قبيلة وهم حيّ عظيم. وصدر البيت: * يطوى ابن سلمى بها من راكب بعدا *

الرهائن ؛ كله عن الجوهرى . ابن عطية : ويقال بلا خلاف فى البيع والقرض : رهنتُ رهْنا؛ ثم سُمّى بهذا المصدر الشىءُ المدفوع تقول : رهنت رهنا؛ كما تقول رهنت ثوبا .

السادسة ــ قال أبو على : ولما كان الرهن بمعنى الثبوت، والدوام فمن ثَمّ بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتهن إلى الراهن بوجه من الوجوه ؛ لأنه فارق ما جُعل [باختيار المرتهن][1] له .

قلت ــ هذا هو المعتمد عندنا فى أن الرهن متى رجع إلى الراهن باختيار المرتهن بطل الرهْن؛ وقاله أبو حنيفة، غير أنه قال : إن رجع بعارية أو وديعة لم يبطل . وقال الشافعى : إن رجوعه إلى يَد الراهن مطلقا لا يبطل حكم القبض المتقدّم ؛ ودليلنا « فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ » ، فإذا خرج عن يد القابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغةً ، فلا يصدق عليه حكما، وهذا واضح .

السابعة ــ إذا رهنَه قولا ولم يقبضه فعلا لم يوجب ذلك حكما؛ لقوله تعالى : « فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ » . قال الشافعى : لم يجعل الله الحكم إلّا برهن موصوف بالقبض، فإذا عُدمت الصفة وجبَ أن يعدم الحكم ، وهذا ظاهر جدًّا . وقالت المالكية : يلزم الرهن بالعقد ويجبر الراهن على دفع الرهن ليحوزه المرتهن؛ لقوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ »[2] وهذا عَقْدٌ ، وقوله « بِالْعَهْدِ »[3] وهذا عهد . وقوله عليه السلام : "المؤمنون عند شروطهم" وهذا شرط، فالقبض عندنا شرطٌ فى كمال فائدته . وعندهما شرط فى لزومه وصحته .

الثامنة ــ قوله تعالى : ﴿ مَقْبُوضَةٌ ﴾ يقتضى بينونة المرتهن بالرهن . وأجمع الناس على صحة قبض المرتهن، وكذلك على قبض وكيله . واختلفوا فى قبض عَدْل يوضع الرهن على يديه[4] ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وجمهور العلماء : قبض العَدْل قبضٌ . وقال ابن أبى ليلى وقتادة والحكم وعطاء : ليس بقبض، ولا يكون مقبوضا إلا إذا كان عند المرتهِن ، ورأوا ذلك تعبدًا . وقول الجمهور أصح من جهة المعنى؛ لأنه إذا صار عند العدل صار مقبوضا لغة وحقيقة؛ لأن العدل نائب عن صاحب الحق و بمنزلة الوكيل ؛ وهذا ظاهر .

التاسعة ــ ولو وُضع الرهنُ على يدىْ عَدْل فضاع لم يضمن المرتهن ولا الموضوع على يده؛ لأن المرتهن لم يكن فى يده شىء يضمنه . والموضوع على يده أمينٌ والأمين غير ضامن .

(١) الزيادة فى جـ . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣١ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٩٦ (٤) كذا فى هـ، وفى غيرها : يده .

العاشرة — لما قال تعالى : «مَقْبُوضَةٌ» قال علماؤنا : فيه ما يقتضى بظاهره ومطلقه جواز رهن المُشَاع (١) . خلافا لأبي حنيفة وأصحابه ؛ لا يجوز عندهم أن يرهنه ثُلُثَ دار ولا نصفا من عَبْد ولا سيف ، ثم قالوا : إذا كان لرجلين على رجل مالٌ هما فيه شريكان فرهنهما بذلك أرضا فهو جائز إذا قبضاها . قال ابن المنذر : وهذا إجازة رهن المشاع ؛ لأن كل واحد منهما مرتهن نصف دار (٢) . قال ابن المنذر : رهن المشاع جائز كما يجوز بيعه .

الحادية عشرة — ورهن ما في الذّمّة جائز عند علمائنا ؛ لأنه مقبوض خلافا لمن منع ذلك ؛ ومثاله رجلان تعاملا لأحدهما على الآخر دَيْن فرهنه دينه الذى عليه . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : وكل عرض جاز بيعه جاز رهنه ، ولهذه العلة جوّزنا رهن ما في الذمة ؛ لأن بيعه جائز ، ولأنه مال تقع الوَثيقة به فجاز أن يكون رهنا ، قياسا على سلعة موجودة . وقال من منع ذلك : لأنه لا يتحقق إقباضُه والقبض شرط في لزوم الرهن ؛ لأنه لا بدّ أن يستوفى الحق منه عند المحل ، ويكون الاستيفاء من ماليّته لا من عينه ولا يتصوّر ذلك في الدَّيْن .

الثانية عشرة — روى البخاريّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الظَّهْرُ يُرْكَب بنفقته إذا كان مرهونا ولبن الدّرّ يشرب بنفقته إذا كان مرهونا وعلى الذى يركب ويشرب النفقة " . وأخرجه أبو داود وقال بدل "يشرب" في الموضعين : "يحلب" . قال الخطّابيّ : هذا كلام مُبْهَم ليس في نفس اللفظ بيانُ مَن يركب ويحلب ، هل الراهن أو المرتهن أو العدل الموضوع على يده الرهن ؟ .

قلت : قد جاء ذلك مبيّنا مفسّرا في حديثين ، وبسببهما اختلف العلماء في ذلك ؛ فروى الدارقطنيّ من حديث أبي هريرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كانت الدابة مرهونة فعلى المرتهن علفها ولبن الدّرّ يشرب وعلى الذى يشرب نفقته " . أخرجه عن أحمد ابن عليّ بن العلاء حدّثنا زياد بن أيوب حدّثنا هشيم حدّثنا زكريا عن الشعبي عن أبي هريرة . وهو قول أحمد وإسحاق : أن المرتهن ينتفع من الرهن بالحلب والركوب بقدر النفقة . وقال أبو ثور : إذا كان الراهن ينفق عليه لم ينتفع به المرتهن . وإن كان الراهن لا ينفق عليه وتركه

(١) في هـ : المتاع . (٢) كذا في الأصول ؛ ينبغى : نصف أرض .

فى يد المرتهن فأنفق عليه فله ركوبه واستخدامُ العبد . وقاله الأوزاعىّ والليث . الحديث الثانى خرّجه الدار قطنىّ أيضا، وفى إسناده مقال ويأتى بيانه ـ من حديث إسماعيل بن عياش عن ابن أبى ذِئب عن الزهرىّ عن المَقْبُرىّ(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يَغْلَق الرهنُ(٢) ولصاحبه غُنْمه وعليه غُرْمه " . وهو قول الشافعى والشعبىّ وابن سيرين، وهو قول مالك وأصحابه . قال الشافعى : منفعة الرهن للراهن، ونفقته عليه، والمرتهن لا ينتفع بشىء من الرهن خَلَا الإحفاظ للوثيقة . قال الخطابى : وهو أولى الأقوال وأصحها، بدليل قوله عليه السلام : "لا يغلق الرهن من صاحبه الذى رهنه [له غنمه وعليه غرمه(٣)]". [قال الخطابى : وقوله : " من صاحبه أى لصاحبه(٣) "] . والعرب تضع « مِن » موضع اللام؛ كقولهم :

* أمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ *

قلت : قد جاء صريحا "لصاحبه" فلا حاجة للتأويل . وقال الطحاوى : كان ذلك وقتَ كونِ الرِّبا مباحا ، ولم يُنْهَ عن قرض جرَّ منفعة ، ولا عن أخذ الشىء بالشىء وإن كانا غير متساويين، ثم حرّم الربا بعد ذلك . وقد أجمعت الأمّة على أن الأَمَة المرهونة(٤) لا يجوز للراهن أن يطأها ؛ فكذلك لا يجوز له خدمتها . وقد قال الشعبىّ : لا ينتفع من الرهن بشىء . فهذا الشعبى روى الحديث وأفتى بخلافه، ولا يجوز عنده ذلك إلا وهو مَنْسُوخ . وقال ابن عبد البر وقد أجمعوا أن لبن الرهن وظهره للراهن . ولا يخلو من أن يكون احتلابُ المرتهن له بإذن الراهن أو بغير إذنه ؛ فإن كان بغير إذنه ففى حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم : " لا يحتلبنّ أحد ماشية أحد إلا بإذنه " ما يردّه ويقضى بنسخه . وإن كان بإذنه ففى الأصول المجتمع عليها فى تحريم المجهول والغَرَر وبيع ما ليس عندك وبيع ما لم يُخْلَق، ما يردّه أيضا ؛ فإنّ ذلك كان قبل نزول تحريم الرِّبا . والله أعلم .

---

(١) كذا فى كل الأصول، والصواب كما فى الدار قطنى : عن الزهرى عن سعيد بن المسيب . وستأتى قريبا .

(٢) غلق الرهن : من فعل الجاهلية أن الراهن اذا لم يؤد ما عليه فى الوقت المعين ملك المرتهن الرهن فأبطله الإسلام . (عن النهاية) .

(٣) الزيادة من ب و ح و هـ و ط . هذه رواية غير المتقدمة للدار قطنى .

(٤) فى هـ و ب و ح و ط : الرهن .

وقال ابن خويزمنداد : ولو شرط المرتهن الانتفاع بالرهن فلذلك حالتان : إن كان من قرض لم يجز، وإن كان من بيع أو إجارة جاز؛ لأنه يصير بائعا(١) للسلعة بالثمن المذكور ومنافع الرهن مدة(٢) معلومة فكأنه بيع وإجارة، وأما في القرض فلأنه يصير قرضا جرّ منفعةً؛ ولأن موضوع القرض أن يكون قُرْبَةً، فإذا دخله نفع صار زيادة في الجنس وذلك رِبا .

الثالثة عشرة — لا يجوز غلق الرهن، وهو أن يشترط المرتهن أنه له بحقه إن لم يأته به عند أجله . وكان هذا من فعل الجاهلية فأبطله النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : "لا يغلقُ الرهن" هكذا قيّدناه برفع القاف على الخبر، أي ليس يغلق الرهن . تقول : أغلقت الباب فهو مُغلَقٌ . وغَلَقَ الرهنُ في يد مرتهنه إذا لم يُفتَكّ(٣)، قال الشاعر :

أجارتَنا مَنْ يجتمع يتفرّقِ * ومَنْ يكُ رهنًا للحوادث يغلَقِ

وقال زهير :

وفارقتك برهنٍ لا فكاك له * يوم الوَداع فأمسى الرهنُ قد غَلِقَا

الرابعة عشرة — روى الدارقطني من حديث سفيان بن عيينة عن زياد بن سعد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يغلق الرهنُ له غنمه وعليه غرمه" . زياد بن سعد أحد الحفاظ الثقات، وهذا إسناد حسن . وأخرجه مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب مرسلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يغلق الرهن" . قال أبو عمر : وهكذا رواه كل من روى الموطأ عن مالك فيما علمت، إلا مَعْن بن عيسى فإنه وصله، ومَعْنٌ ثقة؛ إلا أني أخشى أن يكون الخطأ فيه من علي بن عبد الحميد الغضائري عن مجاهد بن موسى عن مَعْن بن عيسى . وزاد فيه أبو عبد الله عمروس(٤) عن الأبهري بإسناده : "له غنمه وعليه غرمه" . وهذه اللفظة قد اختلف الرواة في رفعها؛ فرفعها ابن أبي ذِئب ومَعْمَر وغيرهما . ورواه ابن وهب وقال : قال يونس قال ابن شهاب : وكان سعيد بن المسيب يقول : الرهن ممن رهنه، له غنمه وعليه غرمه؛ فأخبر ابن شهاب أن هذا من قول سعيد لا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . إلا أن مَعْمَرا ذكره عن

(١) في ه : تابعا . (٢) في ج : «ومنافع المرهون معلومة» . (٣) في ج : ينفك .
(٤) في ط : ابن عمروس والتصحيح من التهميد .

ابن شهاب مرفوعا، ومَعْمَر أثبت الناس فى ابن شهاب . وتابعه على رفعه يحيى بن أبى أُنَيْسة ويحيى ليس بالقوِىّ . وأصل هذا الحديث عند أهل العلم بالنقل مُرسلٌ، و إن كان قد وصل من جهات كثيرة فإنهم يعلّلونها . وهو مع هــذا حديث لا يرفعه أحد منهــم و إن اختلفوا فى تأويله ومعناه . ورواه الدارقطنىّ أيضا عن إسماعيــل بن عياش عن آبن أبى ذِئب عن الزهرىّ عن سعيد عن أبى هريرة مرفوعا . قال أبو عمر: لم يسمعه إسماعيل من آبن أبى ذئب وإنما سمعه من عَبَّاد بن كثير عن ابن أبى ذئب، وعبَّاد عندهم ضعيف لا يُحتج به . و إسماعيل عندهم أيضا غير مقبول الحديث إذا حدّث عن غير أهل بلده؛ فإذا حدّث عن الشاميين فحديثه مستقيم، و إذا حدّث عن المَدنيين وغيرهم ففى حديثه خطأ كثير واضطراب .

الخامسة عشرة ــ نَماء الرهن داخل معه إن كان لا يتميز كالسِّمَن، أوكان نَسْلًا كالولادة والنتاج؛ وفى معناه فَسِيل النخل ، وما عدا ذلك من غلّة وثمرة ولبن وصوف فلا يدخل فيه إلا أن يشترطه . والفرق بينهما أن الأولاد تبع فى الزكاة للأمهات، وليس كذلك الأصواف والألبان وثمر الأشجار؛ لأنها ليست تبعا للأمهات فى الزكاة ولا هى فى صُوَرها ولا فى معناها ولا تقوم معها ، فلها حكم نفسها لا حكم الأصل خلاف الولد والنتاج . والله أعلم بصواب ذلك .

السادسة عشرة ــ ورَهْنُ مَن أحاط الدينْ بماله جائز ما لم يُفلِس ، ويكون المرتَهِن أحق بالرهن من الغرماء؛ قاله مالك وجمــاعة من الناس . وروى عن مالك خلاف هذا ــ وقاله عبد العزيز بن أبى سَلَمة ــ أن الغرماء يدخلون معه فى ذلك وليس بشىء؛ لأن من لم يُحجر عليه فتصرفاته صحيحة فى كل أحواله من بيع وشراء ، والغرماء عاملوه على أنه يبيع ويشــترى ويَقضى ، لم يختلف قول مالك فى هذا الباب، فكذلك الرهن . والله أعلم .

السابعة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ الآية . شرطٌ رُبط به وصية الذى عليه الحق بالأداء وترك المطل . يعنى إن كان الذى عليه الحق أمينًا عند صاحب الحق وثقةً فَلْيُؤَدِّ له ما عليه ائْتُمن . وقوله ﴿ فَلْيُؤَدِّ ﴾ من الأداء مهموز، [وهو جواب الشرط](١) ويجوز تخفيف همزه فتقلب الهمزة واوا ولا تقلب ألفــا ولا تجعــل بَيْن بَيْن؛ لأن الألِفــ لا يكون

(١) من ط .

ما قبلها إلا مفتوحا . وهو أمر معناه الوجوب، بقرينة الإجماع على وجوب أداء الديون، وثبوت حكم الحاكم به وجبره الغرماء عليه، وبقرينة الأحاديث الصحاح فى تحريم مال الغير .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَمَانَتَهُ ﴾ الأمانة مصدر سمى به الشيء الذى فى الذمة، وأضافها إلى الذى عليه الدين من حيث لها إليه نسبة؛ كما قال تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ[1] » .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ أى فى ألّا يكتم من الحق شيئا . وقوله : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ تفسير لقوله : « وَلَا يُضَارِرْ » بكسر العين . نهى الشاهد عن أن يضر بكتمان الشهادة، وهو نهى على الوجوب بعدة قرائن منها الوعيد . وموضع النهى هو حيث يخاف الشاهد ضياع حق . وقال ابن عباس : على الشاهد أن يشهد حيثما استشهد، ويخبر حيثما استخبر، قال : ولا تقل أخبر بها عند الأمير بل أخبره بها لعله يرجع ويرعوى . وقرأ أبو عبد الرحمن « ولا يكتموا » بالياء، جعله نهيا للغائب .

الموفية عشرين — إذا كان على الحق شهود تعيّن عليهم أداؤها على الكفاية ، فإن أداها اثنان واجتزأ الحاكم بهما سقط الفرض عن الباقين، وإن لم يجتزأ بها تعيّن المشى إليه حتى يقع الإثبات . وهذا يعلم بدعاء صاحبها، فإذا قال له : أحي حقى بأداء ما عندك لى من الشهادة تعين ذلك عليه .

الحادية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ خص القلب بالذكر إذ الكتم من أفعاله، وإذ هو المضغة التى بصلاحها يصلح الجسد كله كما قال عليه السلام؛ فعبر بالبعض عن الجملة، وقد تقدم . [فى أول السورة[2]] وقال الكيا : لما عزم على ألّا يؤديها وترك أداءها باللسان رجع المأثم إلى الوجهين جميعا . فقوله : « آثِمٌ قَلْبُهُ » مجاز، وهو آكد من الحقيقة فى الدلالة على الوعيد، وهو من بديع البيان ولطيف الإعراب عن المعانى ، يقال : إثم القلب سبب مسخه، والله تعالى إذا مسخ قلبا جعله منافقا وطبع عليه، نعوذ بالله منه [وقد تقدم فى أول السورة[3]] . و « قلبه » رفع بـ « آثم » و « آثم » خبر

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧ (٢) الزيادة من ح و ط . راجع ج ١ ص ١٨٨ (٣) من ط .

«إنّ»، وإن شئت رفعت آثما بالابتداء، و«قلبه» فاعل يسدّ مسد الخبر والجملة خبر إن .
وإن شئت رفعت آثما على أنه خبر الابتداء تنوى به التأخير . وإن شئت كان « قَلْبُهُ » بدلا
من « آثِمٌ » بدل البعض من الكل . وإن شئت كان بدلا من المضمر الذى فى « آثم » .
وتعرضت هنا ثلاث مسائل تتمّة أربع وعشرين .

الأولى ـ اعلم أن الذى أمر الله تعالى به من الشهادة والكتابة لمراعاة صلاح ذات البَيْن
ونفى التنازع المؤدى إلى فساد ذات البَيْن؛ لئلا يسوّل له الشيطان جحود الحق وتجاوز ماحدّ له
الشرع، أو ترك الاقتصار على المقـدار(1) المستحق؛ ولأجله حرّم الشرع البياعات المجهولة التى
اعتيادها يؤدّى إلى الاختلاف وفساد ذات البين وإيقاع التضاغُن والتباين . فمن ذلك ماحرمه
الله من الميسر والقمار وشرب الخمر بقوله تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ»(2) الآية . فمن تأدّب بأدب الله فى أوامره وزواجره حاز صلاح
الدنيا والدّين؛ قال الله تعالى : «وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ»(3) الآية .

الثانيـــة ـ روى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "من
أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنــه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله" . وروى
النسائىّ عن ميمونة زوج النبىّ صلى الله عليــه وسلم أنها استدانت، فقيــل : يا أم المؤمنين،
تستدينين وليس عندك وفاء ؟ قالت : إنى سمعت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول :
"من أخذ دينا وهو يريد أن يؤدّيه أعانه الله عليه" . وروى الطحاوىّ وأبو جعفر الطبرىّ
والحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
"لا تُخيفوا الأنفس بعد أَمْنِها" قالوا : يا رســول الله، وما ذاك ؟ قال : "الدَّيْن" .
وروى البخارىّ عن أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى دعاء ذكره : "اللهم إنى أعوذ بك
من الهمّ والحَزَن والعجز والكَسَل والجُبْن والبُخْل وضَلَع الدَّيْن وغَلَبة الرجال" . قال العلماء :
ضَلَع الدَّيْن هو الذى لا يجد دائنه من حيث يؤدّيه . وهو مأخوذ من قول العرب: حِمْل مُضْلِع
أى ثقيل، ودابة مُضْلِع لا تقوى على الحَمْل؛ قاله صاحب العين . وقال صلى الله عليه وسلم :

(1) فى ط : المال . (2) راجع جـ ٦ ص ٢٨٥ (3) راجع جـ ٥ ص ٢٧٠

" الدَّيْن شَيْن الدِّين " . وروى عنه أنه قال : " الدَّيْن هَمٌّ بالليل ومَذَلَّةٌ بالنهار " . قال علماؤنا : وإنما كان شَيْنا ومذلّة لما فيه من شغل القلب والبال والهمّ اللازم في قضائه، والتذلّل للغريم عند لقائه، وتحمّل مِنّته بالتأخير إلى حين أوانه . وربّما يَعِد من نفسه القضاء فيُخلف، أو يحدّث الغريم بسببه فيكذب، أو يحلف له فيحنث؛ إلى غير ذلك . ولهذا كان عليه السلام يتعوّذ من المأثم والمَغْرَم، وهو الدَّيْن . فقيل له : يا رسول الله، ما أكثر ما تتعوّذ من المغرم؟ فقال : "إن الرجل إذا غَرِم حدّث فكذب ووعد فأخلف" . وأيضا فربما قد مات ولم يقض الدين فيرتهن به؛ كما قال عليه السلام : " نَسَمَة المؤمن مرتهنة في قبره بدَيْنه حتى يُقضى عنه " . وكل هذه الأسباب مَشائن في الدِّين تذهب جماله وتنقص كماله . والله أعلم .

الثالثة — لما أمر الله تعالى بالكَتْب والإشهاد وأخذ الرِّهان كان ذلك نَصًّا قاطعا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها، وردا على الجَهَلة المتصوّفة ورَعَاعها الذين لا يرون ذلك، فيخرجون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم؛ ثم إذا احتاج وافتقر عياله فهو إما أن يتعرض لِمِنَن الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظَلَمتهم، وهذا الفعل مذموم مَنْهِيّ عنه . قال أبو الفرج الجَوْزيّ : ولست أعجب من المتزهّدين الذين فعلوا هذا مع قلّة علمهم، إنما أتعجّب من أقوام لهم عِلم وعقل كيف حَثُّوا على هذا وأمروا به مع مضادته للشرع والعقل . فذكر المُحَاسِبيّ في هذا كلاما كثيرا، وشيّده أبو حامد الطُّوسيّ ونصره . والحارث[1] عندي أعذر من أبي حامد؛ لأن أبا حامد كان أفقه، غير أن دخوله في التصوّف أوجب عليه نصرة ما دخل فيه . قال المحاسبي في كلام طويل له : ولقد بلغني أنه لما توفي عبد الرحمن بن عَوْف قال ناسٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كَعْب[2] : سبحان الله ! وما تخافون على عبد الرحمن؟ كَسَبَ طيِّبا وأنفق طيبا وترك طيبا . فبلغ ذلك أبا ذَرٍّ فخرج مُغْضَبًا يريد كعبا، فمرّ بلَحْي[3] بعير فأخذه بيده، ثم انطلق يطلب كعبا؛ فقيل لكعب : إن أبا ذَرٍّ يطلبك . فخرج هاربا حتى

---

(١) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد الزاهد المحاسبي؛ وسمي المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه . (عن أنساب السمعاني) .

(٢) أراد كعب الأحبار بدليل قوله له : يابن اليهودية، وهذا غير صحيح على ما يأتي في ص ٤١٨ ؛ وربما تمسك به بعض الملاحدة الإباحيين . ﺣ (٣) اللحي : عظم الحنك وهو الذي عليه الأسنان .

دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر. فأقبل أبو ذر يقص الأثر فى طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من أبى ذر، فقال له أبو ذر: يابن اليهودية، تزعم ألا بأس بما تركه عبد الرحمن! لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال: "الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال[1] هكذا وهكذا". قال المحاسبى: فهذا عبد الرحمن مع فضله يوقف فى عرصة [يوم][2] القيامة بسبب ما كسبه من حلال، للتعفف وصنائع المعروف فيمنع السعى إلى الجنة مع الفقراء وصار يحبو فى آثارهم حبوا، إلى غير ذلك من كلامه[3]. ذكره أبو حامد وشيده وقواه بحديث ثعلبة، وأنه أعطى المال فمنع الزكاة. قال أبو حامد: فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم لم يشك فى أن فقد المال أفضل من وجوده، وإن صرف إلى الخيرات؛ إذ أقل ما فيه اشتغال الهمة بإصلاحه عن ذكر الله. فينبغى للمريد أن يخرج عن ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته، فما بقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو محجوب عن الله تعالى. قال الجوزى: وهذا كله خلاف الشرع والعقل، وسوء فهم المراد بالمال، وقد شرفه الله وعظم قدره وأمر بحفظه، إذ جعله قواما للآدمى وما جعل قواما للآدمى الشريف فهو شريف؛ فقال تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا»[4]. ونهى جل وعز أن يسلم المال إلى غير رشيد فقال: «فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ». ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال، قال لسعد: "إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس". وقال: "ما نفعنى مال كمال أبى بكر". وقال لعمرو بن العاص: "نعم المال الصالح للرجل الصالح". ودعا لأنس، وكان فى آخر دعائه: "اللهم أكثر ماله وولده و بارك له فيه". وقال كعب[5]: يا رسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله و إلى رسوله. فقال: "أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك". قال الجوزى: هذه الأحاديث مخرجة فى الصحاح، وهى على خلاف

(١) أى إلا من صرف المال على الناس فى وجوه البر والصدقة. قال ابن الأثير: «العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على الكلام واللسان؛ فتقول: قال بيده أى أخذ، وقال برجله أى مشى، وقال بثوبه أى رفعه. وكل ذلك على المجاز والاتساع». (٢) من ب. (٣) فى ب: كلامهم. (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٧
(٥) هو ابن مالك أحد الثلاثة الذين خلفوا راجع جـ ٨ ص ٢٨٦. فيه: إن من توبة الله على الخ.

ما تعتقده المتصوفة من أن إكثار المال حجاب وعقوبة، وأن حبسه ينافى التوكّل ، ولا ينكر أنه يخاف من فتنته ، وأن خلقا كثيرا اجتنبوه لخوف ذلك ، وأن جمعه من وجهه ليعز[1] ، وأن سلامة القلب من الافتتان به تقل ، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة يندر ؛ فلهذا خيف فتنته . فأما كسب المال فإن من اقتصر على كسب البُلْغَة من حلها فذلك أمر لا بدّ منه ، وأما من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال نُظر فى مقصوده ؛ فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان و إغناء الفقراء وفعل المصالح أُثيب على قصده؛ وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات . وقد كانت نيات خلق كثير من الصحابة فى جمع المال سليمةً لحسن مقاصدهم بجمعه؛ فحرصوا عليه وسألوا زيادته . ولما أقطع النبىّ صلى الله عليه وسلم الزّبير حُضْر[2] فرسه أجْرَى الفرس حتى قام ثم رمى سوطه، فقال : " أعطوه حيث بلغ سوطه " . وكان سعد بن عبادة يقول فى دعائه : اللهم وسع علىّ . وقال إخوة يوسف : « وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ[3] » . وقال شعيب لموسى : «فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ[4] » . وإن أيوبَ لما عوفى نُثِرَ عليه رِجْلٌ[5] من جَراد من ذهب؛ فأخذ يحْثِى فى ثوبه ويستكثر منه؛ فقيل له : أما شَبِعْتَ ؟ فقال : يا رب فقير يشبع من فضلك ؟ . وهذا أمر مَرْكُوز فى الطباع .

وأما كلام المُحَاسِبىّ فخطأ يدل على الجهل بالعلم، وما ذكره من حديث كَعْب وأبى ذرّ فمحال؛ من وضع الجهّال وخفيت عدم صحته عنه لِلُحُوقه بالقوم . وقد روى بعض هذا و إن كان طريقه لا يثبت ؛ لأن فى سنده ابن لَهِيعَة وهو مطعون فيه . قال يحيى : لا يحتج بحديثه . والصحيح فى التاريخ أن أبا ذرّ توفى سنة خمس وعشرين، وعبد الرحمن بن عوف توفى سنة اثنتين وثلاثين، فقد عاش بعد أبى ذرّ سبع سنين . ثم لفظ ما ذكروه من حديثهم يدل على أن حديثهم موضوع ، ثم كيف تقول الصحابة : إنا نخاف على عبد الرحمن ! أو ليس الإجماع منعقدا على إباحة [جمع][6] المال من حِلِّه ، فما وجه الخوف مع الإباحة ؟ أوَ يأذن الشرع فى شىء ثم يعاقب

---

(١) كذا فى ى وب و ا ، وفى جـ و هـ : يفر . (٢) الحضر (بضم فسكون) والإحضار : ارتفاع الفرس فى عدوه . (٣) راجع جـ ٩ ص ٢٢٣ (٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٦٧ (٥) الرجل (بكسر فسكون) : القطعة العظيمة من الجراد . (٦) من ب و جـ و هـ .

عليه ؟ هذا قلة فهم وفقه . ثم أينكر أبو ذر على عبد الرحمن ، وعبد الرحمن خير من أبى ذر بما لا يتقارب؟ثم تعلقه بعبد الرحمن وحده دليل على أنه لم [يسبُر](١) سيرَ الصحابة ؛فإنه قد خلف طلحة ثلاثمائة بُهار فى كل بُهار ثلاثة قناطير . والبُهار الحِمل . وكان مال الزبير خمسين ألفا ومائتى ألف . وخلّف ابن مسعود تسعين ألفا . وأكثر الصحابة كسبوا الأموال وخلّفوها ولم ينكر أحد منهم على أحد . وأما قوله : « إن عبد الرحمن يحبُو حَبْواً يوم القيامة » فهذا دليل على أنه ما عرف الحديث ، وأعوذ بالله أن يحبو عبد الرحمن فى القيامة ؛أفترَى من سبق وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ومن أهل بَدْر والشُّورَى يحبو ؟ ثم الحديث يرويه عُمارة ابن زَاذان ، وقال البخارى : ربما اضطرب حديثه . وقال أحمد : يروى عن أنس أحاديث مناكير ، وقال أبو حاتم الرازى : لا يحتج به . وقال الدارقطنى : ضعيف . وقوله : « تركُ المال الحلال أفضلُ من جمعه » ليس كذلك ، ومتى صَحّ القصد فجمعه أفضل بلا خلاف عند العلماء . وكان سعيد بن المسيب يقول : لا خير فيمن لا يطلب المال ، يقضى به دَيْنَه ويصونُ به عِرضه ؛ فإن مات تركه ميراثا لمن بعده . وخلف ابن المسيب أربعمائة دينار ، وخلف سفيان الثورى مائتين ، وكان يقول : المال فى هذا الزمان سلاح . وما زال السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء ؛ وإنما تحاماه قوم منهم إيثارا للتشاغل بالعبادات ، وجمع الهمّ فقنعوا باليسير . فلو قال هذا القائل: إن التقليل منه أولى قرب الأمر ولكنه زاحم به مرتبة الإثم .

قلت : ومما يدل على حفظ الأموال ومراعاتها إباحة القتال دونها وعليها ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "من قتل دون ماله فهو شهيد" . وسيأتى بيانه فى « المائدة »(٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

(١) فى جـ ، وب ، وا . وفى غيرها : لم يسر سير . وهو خطأ .
(٢) راجع جـ ٦ ص ١٥٦

قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — اختلف الناس في معنى قوله تعالى : « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » على أقوال خمسة :

الأول — أنها منسوخة ؛ قاله ابن عباس وابن مسعود وعائشة وأبو هريرة والشعبي وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عُبَيْدة وجماعة من الصحابة والتابعين ؛ وأنه بقي هذا التكليف حَوْلًا حتى أنزل الله الفرج بقوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » . [وهو قول ابن مسعود وعائشة وعطا ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وغيرهم[1]] وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت « وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ » قال : دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخل قلوبهم من شيء ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا " قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » [قال : " قد فعلت "[2]] رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا [قال : "قد فعلت"[2]] رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا [فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[3]] [قال : " قد فعلت "[2]] : في رواية فلما فعلوا ذلك نسخها الله ثم أنزل تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » وسيأتي .

الثاني — قال ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد : إنها مُحْكَمَة مخصوصة، وهي في معنى الشهادة التي نهى عن كتمها ، ثم أعلم في هذه الآية أن الكاتم لها المخفي ما في نفسه محاسب .

الثالث — أن الآية فيما يطرأ على النفوس من الشك واليقين ؛ وقاله مجاهد أيضا .

الرابع — أنها محكمة عامة غير منسوخة ، والله مُحاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى مالم يعملوه مما ثبت في نفوسهم وأضمروه ونووه وأرادوه ؛ فيغفر للمؤمنين و يأخذ به أهل الكفر والنفاق ؛ ذكره الطبري عن قوم ، وأدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا . روى عن علي

(١) الزيادة عن ج و ب و ط . (٢) الزيادة من صحيح مسلم .

(٣) هذا الجزء من الآية موجود في الأصول دون صحيح مسلم .

ابن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال: لم تنسخ، ولكن إذا جمع الله الخلائق يقول: "إنى أخبركم بما أكننتم فى أنفسكم" فأما المؤمنون فيخبرهم ثم يغفر لهم؛ وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوه من التكذيب؛ فذلك قوله: «يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ»(١) وهو قوله عز وجل: «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ»(٢) من الشك والنفاق. وقال الضحاك: يعلمه الله يوم القيامة بما كان يسره ليعلم أنه لم يخف عليه. وفى الخبر: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة هذا يوم تُبلى فيه السرائر وتخرج الضمائر وأن كُتَّابى لم يكتبوا إلا ما ظهر من أعمالكم وأنا المطّلع على ما لم يطلعوا عليه ولم يُخْبَرُوه ولا كتبوه فأنا أخبركم بذلك وأحاسبكم عليه فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء" فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين، وهذا أصح ما فى الباب، يدل عليه حديث النَّجْوَى على ما يأتى بيانه، [لا يقال](٣): فقد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم "إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به". فإنا نقول: ذلك محمول على أحكام الدنيا؛ مثل الطلاق والعتاق والبيع التى لا يلزمه حكمها ما لم يتكلم به، والذى ذكر فى الآية فيما يؤاخذ العبد به بينه وبين الله تعالى فى الآخرة. وقال الحسن: الآية محكمة ليست بمنسوخة. قال الطبرى: وقال آخرون نحو هـذا المعنى الذى ذكر عن ابن عباس؛ إلا أنهم قالوا: إن العذاب الذى يكون جزاء لمـا خَطَر فى النفوس وصحبه الفكر إنما هو بمصائب الدنيا وآلامها وسائر مكارهها. ثم أسند عن عائشة نحو هـذا المعنى؛ وهو (القول الخامس): ورجح الطبرى أن الآية محكمة غير منسوخة: قال ابن عطية: وهذا هو الصواب، وذلك أن قوله تعـالى: «وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ» معناه ممـا هو فى وُسعكم وتحت كسبكم، وذلك استصحاب المعتقَد والفكر؛ فلمـا كان اللفظ ممـا يمكن أن تدخل فيـه الخواطر أشفق الصحابة والنبىّ صلى الله عليه وسلم، فبين الله لهم ما أراد بالآية الأخرى، وخصصها ونص على حكمه أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها، والخواطر ليست هى ولا دفعها فى الوسع، بل هى أمر غالب وليست مما يكتسب؛ فكان فى هذا البيان فرَجُهم وكشف كُرَبهم، وباقى(٤) الآية محكمة لا نسخ فيها: ومما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر والأخبار لا يدخلها النسخ؛ فإن ذهب ذاهب إلى تقـدير النسخ فإنمـا يترتب له فى الحكم الذى لحق الصحابة حين فزعوا من الآية، وذلك أن قـول النبىّ صلى الله

(١) قراءة نافع كما يأتى. (٢) راجع ص ٩٩ من هذا الجزء. (٣) هذه الزيادة من ج وه وا.
(٤) فى ب وه وج وط وابن عطية: وتأتى الآية. وله وجه.

عليه وسلم لهم : " قولوا سمعنا وأطعنا " يجيء منه الأمر بأن يثبتوا[1] على هذا ويلتزموه وينتظروا لطف الله فى الغفران . فإذا قُرر هذا الحكم فصحيح وقوع النسخ فيه ، وتشبه الآية حينئذ قوله تعالى : « إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ[2] » فهذا لفظه الخبر ولكن معناه التزموا هذا واثبتوا[3] عليه واصبروا بحسبه، ثم نسخ بعد ذلك . وأجمع الناس فيما علمت على أن هذه الآية فى الجهاد منسوخة بصبر المائة للمائتين . قال ابن عطية : وهذه الآية فى «البقرة» أشبه شىء بها . وقيل : فى الكلام إضمار وتقييد، تقديره يحاسبكم به الله إن شاء؛ وعلى هذا فلا نسخ . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى الآية وأشبه بالظاهر قول ابن عباس : إنها عامة، ثم أدخل حديث ابن عمر فى النَّجْوى، أخرجه البخارىّ ومسلم وغيرهما، واللفظ لمسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يُدْنَى المؤمن [يوم القيامة][4] من ربه جل وعز حتى يضع عليه كَنَفَه فيُقَرِّره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول [أى][4] رب أعرف قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم فيُعطى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله " . وقد قيل : إنها نزلت فى الذين يتولّون الكافرين من المؤمنين ؛ أى وإن تعلنوا ما فى أنفسكم أيها المؤمنون من ولاية الكفار أو تسروها يحاسبكم به الله؛ قاله الواقدىّ ومقاتل . واستدلوا بقوله تعالى فى (آل عمران) « قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ — من ولاية الكفار — يَعْلَمْهُ اللَّهُ» يدلّ عليه ما قبله من قوله : «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ[5]» .

قلت : وهذا فيه بُعد؛ لأن سياق الآية لا يقتضيه، وإنما ذلك بيّن فى « آل عمران » والله أعلم . وقد قال سفيان بن عيينة : بلغنى أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يأتون قومهم بهذه الآية « لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ» .

قوله تعالى : ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى « فَيَغْفِرْ — وَيُعَذِّبْ » بالجزم عطف على الجواب . وقرأ ابن عامر وعاصم بالرفع

(١) فى ب و ط : ويثبتوا وفى عطية : يمسوا . (٢) راجع جـ ٨ ص ٤٤
(٣) كذا فى ابن عطية . وفى ب و جـ و هـ : وابنوا . (٤) الزيادة من صحيح مسلم . (٥) راجع جـ ٤ ص ٥٧

فيهما على القطع؛ أى فهو يغفرُ و يعذبُ. وروى عن ابن عباس والأعرج وأبى العالية وعاصم الجحدرىّ بالنصب فيهما على إضمار « أن » . وحقيقته أنه عطف على المعنى ؛ كما فى قوله تعالى : « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ »(١) وقد تقدم . والعطف على اللفظ أجود للمشاكلة؛ كما قال الشاعر:

ومتى مايَعِ منك كلامًا * يتكلم فيُجِبْك بعقل

قال النحاس : وروى عن طلحة بن مُصَرِّف « يحاسبكم به الله يغفر » بغير فاء على البدل . ابن عطية : وبها قرأ الجُعْفِىّ وخلّاد . ورُوى أنها كذلك فى مصحف ابن مسعود . قال ابن جِنّى : هى على البدل من « يحاسبكم » وهى تفسير المحاسبة؛ وهذا كقول الشاعر :

رُوَيْدًا بَنِى شَيْبانَ بعضَ وعيدِكم * تُلاقُوا غدًا خيلى على سَفَوانِ
تُلاقُوا جِيادًا لا تَحِيد عن الوَغَى * إذا ما غدت فى المأزِق المُتَدانِى

فهذا على البدل . وكرر الشاعر الفعل؛ لأن الفائدة فيما يليه من القول . قال النحاس: وأجود من الجزم لو كان بلا فاء الرفعُ، يكون فى موضع الحال؛ كما قال الشاعر :

متى تأته تعشو إلى ضَوْء ناره * تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

قوله تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

(١) راجع ص ٢٣٧ من هذا الجزء .

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . [روى عن الحسن ومجاهد والضحاك : أن هذه الآية كانت فى قصة المعراج ، وهكذا روى فى بعض الروايات عن ابن عباس ، وقال بعضهم : جميع القرآن نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم إلا هذه الآية فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم : هو الذى سمع ليلة المعراج ، وقال بعضهم : لم يكن ذلك فى قصة المعراج ؛ لأن ليلة المعراج كانت بمكة وهذه السورة كلها مدنية ، فأما من قال : إنها كانت ليلة المعراج قال : لما صعد النبيّ صلى الله عليه وسلم و بلغ فى السموات فى مكان مرتفع ومعه جبريل حتى جاوز سدرة المنتهى فقال له جبريل : إنى لم أجاوز هذا الموضع ولم يؤمر بالمجاوزة أحد هذا الموضع غيرك فجاوز النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الموضع الذى شاء الله ، فأشار إليه جبريل بأن سلم على ربك ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : التّحيّاتُ لله والصلواتُ والطيِّبات . قال الله تعالى: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله و بركاته ، فأراد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون لأمته حَظٌّ فى السلام فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فقال جبريل وأهل السموات كلهم : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال الله تعالى : «آمَنَ الرَّسُولُ» على معنى الشكر أى صدق الرسول «بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ» فأراد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يشارك أمته فى الكرامة والفضيلة فقال : « وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ » يعنى يقولون آمنا بجميع الرسل ولا نكفر بأحد منهم ولا نفرق بينهم كما فرقت اليهود والنصارى ، فقال له ربه كيف قبولهم بآى الذى أنزلتها ؟ وهو قوله : «إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير" يعنى المرجع . فقال الله تعالى عند ذلك «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» يعنى طاقتها و يقال : إلّا دُون طاقتها . « لَهَا مَا كَسَبَتْ » من الخير « وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » من الشر ، فقال جبريل عند ذلك : سل تُعْطَه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا » يعنى إن جهلنا «أَوْ أَخْطَأْنَا» يعنى إن تعمدنا ، و يقال : إن عملنا بالنسيان

والخطأ ، فقال له جبريل : قد أعطيت ذلك قد رفع عن أمتك الخطأ والنسيان . فسل شيئا آخر فقال : « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا » يعني ثقلا « كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » وهو أنه حرّم عليهم الطيّبات بظلمهم ، وكانوا إذا أذنبوا بالليل وجدوا ذلك مكتوبا على بابهم ، وكانت الصلوات عليهم خمسين ، فخفّف الله عن هذه الأمة وحطّ عنهم بعد ما فرض خمسين صلاة . ثم قال : « رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » يقول : لا تثقلنا من العمل ما لا نطيق فتعذّبنا ، ويقال : ما تشق علينا ؛ لأنهم لو أمروا بخمسين صلاة لكانوا يطيقون ذلك ولكنه يشق عليهم ولا يطيقون الإدامة عليه « وَاعْفُ عَنَّا » من ذلك كله « وَاغْفِرْ لَنَا » وتجاوز عنا ، ويقال : « واعف عنا » من المسخ « واغفر لنا » من الخسف « وارحمنا » من القذف ؛ لأن الأمم الماضية بعضهم أصابهم المسخ وبعضهم أصابهم الخسف وبعضهم القذف ثم قال : « أَنْتَ مَوْلَانَا » يعني ولينا وحافظنا « فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » فاستجيبت دعوته . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نصرت بالرعب مسيرة شهر" ويقال إن الغُزاة : إذا خرجوا من ديارهم بالنية الخالصة وضربوا بالطبل وقع الرعب والهيبة في قلوب الكفار مسيرة شهر في شهر ، علموا بخروجهم أو لم يعلموا ، ثم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما رجع أوحى الله هذه الآيات ؛ ليعلم أمته بذلك . ولهذه الآية تفسير آخر ؛ قال الزجاج : لما ذكر الله تعالى في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة وبيّن أحكام الحج وحكم الحيض والطلاق والإيلاء وأقاصيص الأنبياء وبين حكم الربا ، ذكر تعظيمه سبحانه بقوله سبحانه وتعالى : « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » ثم ذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم ثم ذكر تصديق المؤمنين بجميع ذلك فقال : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » أي صدّق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها وكذلك المؤمنون كلهم صدّقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله [(1)] .

(١) هذه الزيادة لا توجد في الأصول إلا في نسخة ب يوجد جزء منها ، وفي نخ ط توجد كلها وعليها اعتمدناها وهي كما يرى شاذة في مضمونها أول الكلام إذ المجمع عليه سلفا وخلفا أن القرآن نزل به الروح الأمين جميعا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم « نزل به الروح الأمين على قلبك » وهذا هو المتواتر وكون هذه الآية تلقاها نبينا صلوات الله عليه ليلة المعراج يجانب ما تواتر ، ويكون أشد مجافاة إذا علمت أن الإسراء كان في الخامسة بعد البعث ، وقيل : بسنة قبل الهجرة والبقرة مدنية بالإجماع . وقد وردت أحاديث في صحيح مسلم ، ومسندى أحمد وابن مردويه تؤيد ما ذكره القرطبي بيد أن التواتر يجعل تلك الروايات على ضرب من التأويل متى صحت سندا ومتنا . مصححه .

وقيل سبب نزولها الآية التي قبلها وهي « لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فإنه لما أنزل هذا على النبيّ صلى الله عليه وسلم اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الرُّكَب فقالوا: أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نُطيق: الصلاة والصيام والجهاد [والصدقة][1]، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نُطيقها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ». فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله عز وجل: « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ »[2] « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » قال: "نعم" « رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا » قال: "نعم" « رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ » قال: "نعم" « وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » قال: "نعم". أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

قال علماؤنا: قوله في الرواية الأولى[3] "قد فعلت". وهنا قال: "نعم" دليل على نقل الحديث بالمعنى، وقد تقدّم. ولما تقرّر الأمر على أن قالوا: سمعنا وأطعنا، مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، ورفع المشقّة في أمر الخواطر عنهم؛ وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى؛ كما جرى لبني إسرائيل ضدّ ذلك من ذمّهم وتحميلهم المشقّات من الذلّة والمسكنة والانجلاء إذ قالوا: سمعنا وعصينا؛ وهذه ثمرة العصيان والتمرّد على الله تعالى، أعاذنا الله من نقمه بمنّه وكرمه. وفي الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قيل له: إن بيت ثابت بن قيس بن شماس

(١) من صحيح مسلم. (٢) في الأصول بعد قوله: «ما اكتسبت» قال: نعم. وليست في صحيح مسلم.
(٣) ص ٤٢١.

يزهر كل ليلة بمصابيح . قال : " فلعله يقرأ سورة البقرة " فسئل ثابت قال : قرأت من سورة البقرة « آمَنَ الرَّسُولُ » نزلت حين شق على أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ما توعدهم الله تعالى به من محاسبتهم على ما أخفته نفوسهم ، فشكوا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " فلعلكم تقولون سمعنا وعصينا كما قالت بنو إسرائيل " قالوا : بل سمعنا وأطعنا ؛ فأنزل الله تعالى ثناء عليهم « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ » فقال صلى الله عليه وسلم : " وحق لهم أن يؤمنوا " .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ آمَنَ ﴾ أى صدّق ؛ وقد تقدّم . والذى أنزل هو القرآن . وقرأ ابن مسعود « وآمن المؤمنون كل آمن بالله » على اللفظ ، ويجوز فى غير القرآن « آمنوا » على المعنى . وقرأ نافع وابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر وابن عامر ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ على الجمع . وقرءوا فى « التحريم »[1] « كتابه » على التوحيد . وقرأ أبو عمرو هنا وفى « التحريم » « وَكُتُبِهِ » على الجمع . وقرأ حمزة والكسائىّ «وكتابه» على التوحيد فيهما . فمن جمع أراد جمع كتاب ، ومن أفرد أراد المصدر الذى يجمع كل مكتوب كان نزوله من عند الله . ويجوز فى قراءة من وحّد أن يراد به الجمع ، يكون الكتاب اسما للجنس فتستوى القراءتان ؛ قال الله تعالى : « فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ »[2] . قرأت الجماعة «وَرُسُلِهِ» بضم السين ، وكذلك « رسُلنا ورسُلكم ورسُلك » ؛ إلا أبا عمرو فروى عنه تخفيف « رسْلنا ورسْلكم » ، وروى عنه فى « رسلك » التثقيل والتخفيف . قال أبو علىّ : من قرأ « رسلك » بالتثقيل فذلك أصل الكلمة ، ومن خفف فكما يخفف فى الآحاد ؛ مثل عُنْق وطُنْب . وإذا خفف فى الآحاد فذلك أحرى فى الجمع الذى هو أثقل ؛ وقال معناه مكىّ . وقرأ جمهور النـاس « لَا نُفَرِّقُ » بالنون ، والمعنى يقولون لا نفرق ؛ فحذف القول ، وحذف القول كثير ؛ قال الله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ »[3] ؛ أى يقولون سلام عليكم . وقال : « وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلًا »[4] أى يقولون

---

(١) جـ ١٨ ص ٢٠٤ (٢) راجع ص ٣٠ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٩ ص ٣١٠ (٤) راجع جـ ٤ ص ٣١٣

وبنا ، وما كان مثله . وقرأ سعيد بن جبير ويحيى بن يعمر وأبو زرعة بن عمرو بن جرير ويعقوب «لا يفرق» بالياء ؛ وهذا على لفظ كل . قال هارون : وهي في حرف ابن مسعود «لا يفرقون» . وقال «بَيْنَ أَحَدٍ» على الإفراد ولم يقل آحاد ؛ لأن الأحد يتناول الواحد والجميع ؛ كما قال تعالى : «فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ»(١) ف «حاجزين» صفة لأحد ؛ لأن معناه الجمع . وقال صلى الله عليه وسلم : "ما أحلت الغنائم لأحد سود الرءوس غيركم" وقال رؤبة :

إذا أمورُ النـاس دِينَتْ دينكا * لا يرهبون أحدا مِنْ دونكا

ومعنى هـذه الآية : أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض .

الثالثـة ـ قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فيه حذف ، أي سمعنا سماع قابلين(٢) . وقيل : سمع بمعنى قَبِل ؛ كما يقال : سمع الله لمن حمده ، فلا يكون فيه حذف . وعلى الجملة فهذا القول يقتضي المدح لقائله . والطاعة قبول الأمر . وقوله ﴿ غُفْرَانَكَ ﴾ مصدر كالكفران والخسران ، والعامل فيه فعل مقدّر ، تقديره : أغفر غفرانك ؛ قاله الزجاج . وغيره : نطلب أو أسأل غفرانك . ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ إقرار بالبعث والوقوف بين يدي الله تعالى . وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه هذه الآية قال له جبريل : "إن الله قد أحل الثناء عليك وعلى أمتك فسل تُعْطَه" فسأل إلى آخر السورة .

الرابعـة ـ قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ التكليف هو الأمر بما يشق عليه . وتكلّفت الأمر تجشّمته ؛ حكاه الجوهريّ . والوُسْع : الطاقة والجِدَة . وهـذا خبرٌ جزمٌ(٣) . نصّ الله تعالى على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وُسع المكلَّف وفي مقتضى إدراكه وبِنْيَته ؛ وبهذا انكشفت الكُرْبَة عن المسلمين في تأوّلهم أمر الخواطر . وفي معنى هذه الآية ما حكاه أبو هريرة رضي الله عنه قال : ما وددت أن أحدا ولدتني أمه إلا جعفر بن أبي طالب ؛ فإني تبعته يوما وأنا جائع فلما بلغ

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٦ (٢) في ط : قائلين .
(٣) كذا في ابن عطية وهي عبارته . وفي الأصول : تم .

منزله لم يجد فيه سوى نِحْى سَمْنٍ قد بقى فيه أثارة فشقه بين أيدينا، فجعلنا نلعق ما فيه من السمن والرُّبّ (١) وهو يقول :

ما كلّف الله نفسًا فوق طاقتها ۞ ولا تجود يدٌ إلا بما تجدُ

الخامسة ــ اختلف الناس فى جَواز تكليف ما لا يطاق فى الأحكام التى هى فى الدنيا، بعد اتفاقهم على أنه ليس واقعا فى الشرع، وأن هذه الآية آذنت بعدمه ؛ قال أبو الحسن الأشعرى وجماعة من المتكلمين : تكليف ما لا يطاق جائز عقلا، ولا يخرم ذلك شيئا من عقائد الشرع، ويكون ذلك أمارةً على تعذيب المكلَّف وقطعا به ، وينظر إلى هذا تكليف المصوِّر أن يعقد شعيرة . واختلف القائلون بجوازه هل وقع فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أو لا ؟ فقالت فرقة : وقع فى نازلة أبى لهب، لأنه كلّفه بالإيمان بجملة الشريعة، ومن جملتها أنه لا يؤمن ؛ لأنه حكم عليه بتَبِّ اليدين وصُلِى النار، وذلك مُؤْذِنٌ بأنه لا يؤمن ؛ فقد كلّفه بأن يؤمن بأنه لا يؤمن . وقالت فرقة : لم يقع قطُّ . وقد حكى الإجماع على ذلك . وقوله تعالى : « سَيَصْلَى نَارًا (٢) » معناه إن وَافَى ؛ حكاه ابن عطية . « وَيُكَلِّفُ » يتعدى إلى مفعولين أحدهما محذوف ؛ تقديره عبادة أو شيئا . فالله سبحانه بلطفه و إنعامه علينا و إن كان قد كلّفنا بما يشق و يثقل كثبوت الواحد للعشرة، وهجرة الإنسان وخروجه من وطنه ومفارقة أهله ووطنه وعادته، لكنه لم يكلِّفنا بالمشقات المثقلة ولا بالأمور المؤلمة ؛ كما كلف مَن قبلَنا بقتل أنفسهم وقرض موضع البول من ثيابهم وجلودهم ؛ بل سهّل ورفّق ووضع عنا الإصْر والأغلال التى وضعها على من كان قبلنا . فلله الحمد والمنّة، والفضلُ والنّعمة .

السادسة ــ قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ يريد من الحسنات والسيئات . قاله السدى . وجماعة المفسرين لا خلاف بينهم فى ذلك ؛ قاله ابن عطية . وهو مثل قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » « وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا (٣) » . والخواطر ونحوها ليست من كسب الإنسان . وجاءت العبارة فى الحسنات بـ « لَهَا » من حيث هى مما

(١) الرب (بالضم) : دبس التمر إذا طبخ . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٤ (٣) راجع جـ ٧ ص ١٥٦

يفرح المرء بكسبه ويسر بهـا، فتضاف إلى مِلْكه . وجاءت فى السيئات بـ«عليها» من حيث هى أثقال وأوزار ومتحمَّلات صعبة؛ وهذا كما تقول: لى مال وعلىّ دَيْن . وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حُسْنا لِنَمَط الكلام؛ كما قال: « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا »[1] . قال ابن عطية : ويظهر لى فى هذا أن الحسنات هى مما تكتسب دون تكلُّف ، إذ كاسبها على جادّة أمر الله تعالى ورَسْم شرعه؛ والسيئات تكتسب ببناء المبالغة، إذ كاسبها يتكلّف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى و يتخطّاه إليها؛ فيحسن فى الآية مجىء التصريفين إحرازا لهذا المعنى .

السابعـــة — فى هذه الآية دليل على صحّة إطلاق أئمتنا على أفعال العباد كسبا واكتسابا؛ ولذلك لم يطلقوا على ذلك لا خَلْق ولا خالق؛ خلافا لمن أطلق ذلك من مُجْترئة المبتدعة . ومن أطلق من أئمتنا ذلك على العبـد ، وأنه فاعل فبالمجاز المحض . وقال المَهْدَوِىّ وغيره : وقيل معنى الآية لا يؤاخذ أحد بذنب أحد . قال ابن عطية : وهـذا صحيح فى نفسه ولكن من غير هذه الآية .

الثامنة — قال الكيا الطـبرىّ : قوله تعالى : « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » يستدل به على أن من قتـل غيره بمثقل أو بخنق أو تغريق فعليه ضمانه قصاصا أو دية؛ خلافا لمن جعل ديتـه على العاقلة[2] ، وذلك يخالف الظاهر ، ويدل على أن سـقوط القصاص عن الأب لا يقتضى سقوطه عن شريكه . ويدل على وجوب الحدّ على العاقلة[2] إذا مكّنت مجنونا من نفسها . وقال القاضى أبو بكر بن العربىّ : « ذكر علماؤنا هذه الآية فى أن القَوَد واجب على شريك الأب خلافا لأبى حنيفة ، وعلى شريك الخاطىء خلافا للشافعى وأبى حنيفـة ؛ لأن كل واحد منهما قد اكتسب القتل . وقالوا : إن اشتراك من لا يجب عليـه القصاص مع من يجب عليه القصاص لا يكون شُبْهةً فى دَرْء ما يُدْرأ بالشبهة » .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ المعنى: اعف عن إثم ما يقع منا على هذين الوجهين أو أحدهما؛ كقوله عليه السلام : " رفع عن أمتى الخطأ والنسيان

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٢ .
(٢) العاقلة أولا القبيلة ، وثانيا المرأة .

وما استكرهوا عليه" أى إثم ذلك . وهذا لم يختلف فيه أن الإثم مرفوع، وإنما اختلف فيما يتعلق على ذلك من الأحكام، هل ذلك مرفوع لا يلزم منه شيء أو يلزم أحكام ذلك كله؟ اختلف فيه . والصحيح أن ذلك يختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق كالغرامات والديات والصلوات المفروضات . وقسم يسقط باتفاق كالقصاص والنطق بكلمة الكفر . وقسم ثالث يختلف فيه كمن أكل ناسيا فى رمضان أو حنث ساهيا، وما كان مثله مما يقع خطأ ونسيانا؛ ويعرف ذلك فى الفروع .

العاشرة ـ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا ﴾ أى ثقلا . قال مالك والربيع: الإصر الأمر الغليظ الصعب . وقال سعيد بن جبير: الإصر شدة العمل، وما غلظ على بنى إسرائيل من البول ونحوه . قال الضحاك: كانوا يحملون أمورا شدادا؛ وهذا نحو قول مالك والربيع؛ ومنه قول النابغة :

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم * والحامل الإصر عنهم بعدما عرفوا (١)

عطاء : الإصر المسخ قردةً وخنازير؛ وقاله ابن زيد أيضا . وعنه أيضا أنه الذنب الذى ليس فيه توبة ولا كفارة . والإصر فى اللغة العهد؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي » (٢) . والإصر: الضيق والذنب والثقل. والإصار: الحبل الذى تربط به الأحمال ونحوها؛ يقال : أَصَر يأصِر أَصْرا حبسه . والإِصْر (بكسر الهمزة) من ذلك قال الجوهرى : والموضع مأصِر ومأصَر والجمع مآصر، والعامة تقول معاصر . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ويمكن أن يستدل بهذا الظاهر فى كل عبادة آدعى الخصم تثقيلها؛ فهو نحو قوله تعالى : «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» (٣) ، وكقول النبى صلى الله عليه وسلم: "الدين يسر فيسروا ولا تعسروا". اللهم شق على من شق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ونحوه قال الكيا الطبرى قال : يحتج به فى نفى الحرج والضيق المنافى ظاهره للحنيفية السمحة ، وهذا بين .

(١) كذا فى جميع الأصول ، إلا ط كما فى شعراء النصرانية : غرقوا .

(٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤ (٣) راجع جـ ١٢ ص ٩٩

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال قتادة : معناه لا تشدّد علينا كما شدّدت على من كان قبلنا . الضحاك : لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق ؛ وقال نحوه ابن زيد . ابن جُرَيْج : لا تمسخنا قردة ولا خنازير . وقال سلام بن سابور : الذى لا طاقة لنا به : الغُلْمة[1]؛ وحكاه النقاش عن مجاهد وعطاء . وروى أن أبا الدرداء كان يقول فى دعائه : وأعوذ بك من غُلْمَة ليس لها عدّة . وقال السدى : هو التغليظ والأغلال التى كانت على بنى إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا ﴾ أى عن ذنوبنا . عفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه . ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ أى استر على ذنوبنا . والغفر : الستر . ﴿ وَٱرْحَمْنَا ﴾ أى تفضل برحمة مبتدئا منك علينا . ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أى ولينا وناصرنا . وخرج هذا مخرج التعليم للخلق كيف يدعون . روى عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال : آمين . قال ابن عطية : هذا يُظَنّ به أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإن كان ذلك فكمال، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هنالك دعاء وهنا دعاء فحسن . وقال على بن أبى طالب : ما أظن أن أحدا عقل وأدرك الإسلام ينام حتى يقرأهما .

قلت : قد روى مسلم فى هذا المعنى عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة « البقرة » فى ليلة كفتاه " . قيل : من قيام الليل ؛ كما روى عن ابن عمر قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " أنزل الله علىّ آيتين من كنوز الجنة ختم بهما سورة البقرة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألف عام من قرأهما بعد العشاء مرتين أجزأتاه من قيام الليل «آمن الرسول» إلى آخر البقرة" . وقيل : كفتاه من شر الشيطان فلا يكون له عليه سلطان . وأسند أبو عمرو الدانىّ عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله جل وعز كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام فأنزل منه هذه الثلاث آيات

(١) الغلمة : (بضم الغين المعجمة) : هيجان شهوة النكاح وغلم يغلم من باب تعب أشتد شبقه .

التي ختم بهنّ البقرة من قرأهنّ في بيته لم يقرب الشيطان بيته ثلاث ليال". وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أوتيتُ هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهنّ نبيّ قبلي". وهذا صحيح. وقد تقدّم في الفاتحة نزول الملك بها مع الفاتحة. والحمد لله

مصححه

أبو إسحاق إبراهيم أطفيش

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿ الٓمٓ . ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ هذه السورة مدنيّة بإجماع . وحكى النقّاش أن اسمها في التوراة طَيْبة . وقرأ الحسن وعمرو بن عُبَيْد وعاصم بن أبي النَّجُود وأبو جعفر الرُّؤاسيّ[1] « الٓمٓ . أللّه » بقطع ألف الوصل، على تقدير الوقف على « الٓمٓ » كما يقدّرون الوقف على أسماء الأعداد في نحو واحد ، إثنان ، ثلاثة ، أربعة ، وهم واصلون . قال الأخفش سعيد : ويجوز « الٓمِ الله » بكسر الميم لالتقاء الساكنين . قال الزجّاج : هذا خطأ ، ولا تقوله العرب لثقله . قال النحّاس : «القراءةُ [الأولى قراءة][2] العامة، وقد تكلّم فيها النحويّون القدماء؛ فمذهب سيبويه أنّ الميم فُتحت لالتقاء الساكنين، واختاروا لها الفتح لئلّا يجمعوا بين كسرة وياء وكسرة قبلها . وقال الكسائيّ : حروف التهجّي إذا لقيتها ألف وصل فحُذفت ألف الوصل حرّكتها بحركة الألف فقلت : الٓمَ اللهُ، والٓمَ اذْكُرْ، والٓمِ اقتربت . وقال الفرّاء : الأصل «الٓمٓ أللّهُ» كما قرأ الرُّؤاسيّ فألقيت حركة الهمزة على الميم . وقرأ عمر بن الخطّاب «الحَيُّ القَيَّامُ» . وقال خارجة : في مصحف عبد الله «الحَيُّ القَيِّمُ» . وقد تقدّم ما للعلماء [من آراء][3] في الحروف التي في أوائل السور في أوّل « البقرة »[4] . [و][3] من حيث جاء في هذه السورة «ٱللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ» جملة قائمة بنفسها فتتصوّر تلك الأقوال كلها .

---

(١) في القاموس وشرحه (مادة رأس) : «و بنو رؤاس (بالضم) : حي من عامر بن صعصعة . قال الأزهري : وكان أبو عمر الزاهد يقول في أبي جعفر الرؤاسي أحد القرّاء والمحدثين أنه الرواسي ، بفتح الراء وبالواو من غير همز، منسوب الى رواس قبيلة من سليم؛ وكان ينكر أن يقول الرؤاسي بالهمزة كما يقوله المحدّثون وغيرهم . قلت : و يعني بأبي جعفر هذا محمد بن سادة الرواسي . ذكر ثعلب أنه أوّل من وضع نحو الكوفيين، وله تصانيف » .

(٢) التكملة عن إعراب القرآن للنحاس . (٣) زيادة يقتضيها السياق . (٤) راجع جـ ١ ص ١٥٤ طبعة ثانية أو ثالثة

الثانيــة ــ روى الكسائي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلى العشاء فاستفتح «آل عمران» فقرأ «الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحيُّ القيّام» فقرأ في الركعة الأولى بمائة آية، وفي الثانية بالمائة الباقية . قال علماؤنا : ولا يقرأ سورةً في ركعتين ، فإن فعل أجزأه . وقال مالك في المجموعة : لا بأس به، وما هو بالشأن .

قلت : الصحيح جواز ذلك . وقد قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم بالأعراف في المغرب فرّقها في ركعتين . خرّجه النّسائي أيضا، وصحّحه أبو محمد عبد الحق، وسيأتي .

الثالثــة ــ هــذه السورة ورد في فضلها آثار وأخبار؛ فمن ذلك ما جاء أنّها أمانٌ من الحيّات، وكنزٌ للصُّعلوك، وأنها تُحاجّ عن قارئها في الآخرة، ويُكتَب لمن قرأ آخرها في ليلةٍ كقيام ليلة ، إلى غير ذلك . ذكر الدّارميّ أبو محمــد في مسنده حدّثنا أبو عُبَيد القاسم بن سلاّم قال حدّثني عُبَيد الله الأشجعيّ قال : حدّثني مِسْعَر قال حدثني جابر[1]، قبل أن يقع فيما وقع فيه، عن الشَّعْبيّ قال قال عبد الله : نِعْمَ كنزُ الصُّعْلوك سورةُ «آل عمران» يقوم بها في آخر الليل . حدّثنا محمد بن سعيد حدّثنا عبد السلام عن الجُرَيْريّ[2] عن أبي السَّلِيل[3] قال: أصاب رجل دماً قال : فأوى إلى وادي مَجَنَّة : وادٍ لا يمشي فيه أحدٌ إلا أصابته حِيَّةٌ ، وعلى شَفِير الوادي راهبان ؛ فلمّا أمسى قال أحدهما لصاحبه : هلَكَ والله الرجل ! قال : فافتتح سورةَ «آل عمران» قالا : فقرأ سورة طَيْبَةَ لعله سينجو . قال : فأصبح سليما . وأسند عن مَكْحُول قال : مَن قرأ سورة « آل عمران » يوم الجمعــة صلّت عليه الملائكة إلى اللّيل . وأسند عن عثمان بن عفّان قال : مَنْ قرأ آخر سورة « آل عمران » في ليلةٍ كتب له قيامُ ليلة . في طريقه ابنُ لَهِيعــة . وخرّج مُسْلم عن النَّوّاس بن سِمْعان الكِلاَبِيّ قال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "يُؤْتَى

---

(١) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجُعْفِيّ . توفي سنة ١٢٨ هـ . قال ابن سعد : كان يدلس وكان ضعيفا جدا في رأيه وروايتــه . وقال العجليّ : كان ضعيفا يغلو في التشيع . وقال أبو بدر : كان جابر يهيج به مرّة في السنة مِرّة فيهذي ويخلط في الكلام . فلعل ما حكي عنه كان في ذلك الوقت . وقال الأشجعي مبينا ما وقع فيه بأنه ما كان من تغير عقله . (عن تهذيب التهذيب) . (٢) الجريري : بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، وهو ســعيد بن إياس . ينسب الى جرير بن عباد . (عن تهذيب التهذيب) . (٣) أبو السليل (بفتح المهملة وكسر اللام) هو ضريب (بالتصغير) بن نقير ، ويقال نفير، ويقال نقيل . (عن تهذيب التهذيب) .

بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران — وضرب لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد ، قال : — كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق (١) ، أو كأنهما حزقان (٢) من طير صواف تحاجان عن صاحبهما » .

وخرج أيضا عن أبي أمامة الباهلي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة " . قال معاوية (٣) : بلغني أن البطلة السحرة .

الرابعــــة — للعلماء في تسمية « البقرة وآل عمران » بالزهراوين ثلاثة أقوال :

الأول — أنهما النيرتان ، مأخوذ من الزهر والزهرة ؛ فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما أي من معانيهما .

وإما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة ، وهو القول الثاني .

الثالث — سميتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم ؛ كما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ والتي في آل عمران ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ " أخرجه ابن ماجه أيضا . والغمام : السحاب الملتف ، وهو الغياية إذا كانت قريبا من الرأس ، وهي الظلة أيضا . والمعنى : أن قارئهما في ظل ثوابهما ؛ كما جاء " إن المؤمن في ظل صدقته " . وقوله : " تحاجان " أي يخلق الله من يجادل عنه بثوابهما ملائكة كما جاء في بعض الحديث : " إن من قرأ ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية خلق الله سبعين ملكا يستغفرون له إلى يوم القيامة " . وقوله : " بينهما شرق " قيد بسكون الراء وفتحها ؛

(١) الشرق : الضوء . وسكون الراء فيه أشهر من فتحها . (٢) في الأصول : « فرقان » بالفاء . والتصويب عن صحيح مسلم . والفرق : القطعة . والحزق والحزيقة : الجماعة من كل شيء .

(٣) هو معاوية بن سلام أحد رجال سند هذا الحديث .

وهو تنبيه على الضياء؛ لأنه لمّا قال : " سَوْداوان " قد يُتوهّم أنهما مُظْلمتان، فنفى ذلك بقوله " بينهما شرق " . ويعني بكونهما سوداوان أي من كثافتهما التي من سببها حالتا بين مَنْ تحتهما وبين حرارة الشمس وشدّة اللهب . والله أعلم .

الخامسة — صَدْرُ هذه السورة نزل بسبب وفد نَجْران فيما ذكر محمد بن إسحاق عن محمد ابن جعفر بن الزُّبير، وكانوا نصارى وَفَدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في ستّين راكبا، فيهم من أشرافهم أربعةَ عشر رجلا، في الأربعةَ عشر ثلاثةُ نفر إليهم يرجع أمرُهم : العاقِبُ(١) أميرُ القوم وذو آرائهم واسمه عبد المسيح، والسيِّد ثِمَالُهم(٢) وصاحب مُجْتَمَعهم واسمه الأَيْهَم ، وأبو حارثة بن عَلْقمة أحدُ بكر بن وائل أُسْقُفُّهم وعالمهم؛ فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر صلاة العصر، عليهم ثياب الحِبَرات(٣) جُبَبٌ وأردية . فقال أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم : ما رأينا وفدًا مثلهم جمالًا وجلالة . وحانت صلاتُهم فقاموا فصلّوا في مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المَشْرق . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "دَعُوهم" . ثم أقاموا بها أيّاما يُناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى ويزعمون أنه ابن الله، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبصرون . ونزل فيهم صَدْرُ هذه السورة إلى نَيِّف وثمانين آية، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة(٤) ، حسب ما هو مذكور في سيرة ابن إسحاق(٥) وغيره .

قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ ﴾

(١) السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مراتبهم، والعاقب يتلو السيد . (٢) الثمال (بالكسر) : الملجأ والغياث والمطعم في الشدّة .

(٣) الحبرات (بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة) : ضرب من الثياب اليمانية .

(٤) باهل القوم بعضهم بعضا وتباهلوا وابتهلوا : تلاعنوا . ومعنى المباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا .

(٥) راجع سيرة ابن هشام ص ٤٠١ طبع أوروبا .

قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق، وقيل : بالحجة الغالبة . والقرآن نزل نجوما : شيئا بعد شيء؛ فلذلك قال « نَزَّلَ » والتنزيل مرّة بعد مرّة . والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة؛ فلذلك قال «أَنْزَلَ» . والباء فى قوله « بِالْحَقِّ» فى موضع الحال من الكتاب، والباء متعلقة بمحذوف، التقدير آتيا بالحق . ولا تتعلّق بنزّل؛ لأنه قد تعدّى الى مفعولين أحدهما بحرف جر، ولا يتعدّى الى ثالث. و «مُصَدِّقًا» حال مؤكدة غير متنقلة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدّق، أى غير موافق؛ هذا قول الجمهور . وقدّر فيه بعضهم الانتقال، على معنى أنه مصدّق لنفسه ومصدّق لغيره .

قوله تعالى : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى من الكتب المُنزلة . والتوراة معناها الضياء والنور؛ مشتقة من وَرَى الزَّند ووَرِىَ لغتان إذا خرجت ناره . وأصلها تَوْرَيَةٌ على وزن تَفْعَلة، التاء زائدة، وتحركت الياء وقبلها فتحة فقُلبت ألفا . ويجوز أن تكون تَفْعِلة فتنقل الراء من الكسر الى الفتح؛ كما قالوا فى جَارِيَة : جَارَاة، وفى نَاصِيَة ناصاة؛ كلاهما عن الفراء[1] . وقال الخليل : أصلها فَوْعَلة؛ فالأصل وَوْرَيَةٌ، قُلبت الواو الأولى تاء كما قُلبت فى تَوْلَج[2]، والأصل وَوْلَج فَوْعَلٌ من وَلَجت، وقُلبت الياء ألفا لحركتها وانفتاح ما قبلها . وبناء فَوْعَلة أكثر من تَفْعَلة. وقيل : التوراة مأخوذة من التَّوْرِية، وهى التعريض بالشيء والكتمان لغيره؛ فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح ؛ هذا قول المُؤَرِّج . والجمهور على القول الأوّل لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًى لِلْمُتَّقِينَ » يعنى التوراة . والإنجيل إفْعِيلٌ من النَّجْلِ وهو الأصل ، ويجمع على أَنَاجِيل ، وتوراة على تَوَارٍ ؛ فالإنجيل أصلٌ لعلوم وحِكَم . ويقال : لعن الله نَاجِلَيْه، يعنى والديه ، إذ كانا أصلَه . وقيل : هو من نَجَلْتُ الشيء إذا استخرجته ؛ فالإنجيل مستخرج به علوم وحِكَم ؛ ومنه سُمّى الولد والنسل نَجْلا لخروجه؛ كما قال :

إلى مَعْشَرٍ لم يُورِثِ اللؤمَ جَدُّهم * أصاغرَهم وكلُّ فَحْلٍ لهم نَجْلُ

(١) هى لغة طائية ، يقولون فى مثل جارية جاراة وناصية ناصاة وكاسية كاساة .

(٢) التولج : كناس الظبى أو الوحش الذى يلج فيه .

والنَّجْل الماء الذى يخرج من النز . واستنجلت الأرضُ ، وبها نِجَالٌ إذا خرج منها الماء ، فسمّى الإنجيلُ به ؛ لأن الله تعالى أخرج به دارِسًا من الحق عافيًا . وقيل : هو من النَّجَل فى العين (بالتحريك) وهو سَعَتُها ؛ وطعنة نَجْلاء، أى واسعة؛ قال :

رُبَّما ضَرْبةٍ بسيفٍ صَقيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نَجْلاء

فسمّى الإنجيل بذلك؛ لأنه أصلٌ أخرجه لهم ووسّعه عليهم نُورًا وضياء . وقيل : التَّناجُل التنازُع؛ وسمّى إنجيلًا لتنازُع الناس فيه . وحكى شَمِرٌ عن بعضهم : الإنجيلُ كلّ كتاب مكتوب وافر السطور . وقيل : نَجَل عَمِل وصنَع؛ قال :

* وأَنْجُلُ فى ذاك الصنيع كما نَجَلْ *

أى أعْمَل وأَصْنَع . وقيل : التوراة والإنجيل من اللغة السُّرْيانية . وقيل : الإنجيل بالسُّرْيانية انكليون ؛ حكاه الثعلبىّ . قال الجوهرىّ : الإنجيل كتاب عيسى عليه السلام يذكَّر ويؤنَّث ؛ فمن أنَّث أراد الصحيفة، ومن ذَكَّر أراد الكتاب . قال غيره : وقد يسمّى القرآنُ إنجيلا أيضا؛ كما رُوى فى قصة مُناجاة موسى عليه السلام أنه قال : " يا ربِّ أرى فى الألواح أقوامًا أناجيلُهم فى صدورهم فاجعلهم أمّتى". فقال الله تعالى له : "تلك أمّة أحمد صلى الله عليه وسلم" وإنما أراد بالأناجيل القرآن . وقرأ الحسن «والأَنْجيل» بفتح الهمزة، والباقون بالكسر مثل الإكليل ، لغتان . ويحتمل أن يكون مما عربته العرب من الأسماء الأعجمية؛ ولا مثال له فى كلامها .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن فُورَك[1] : التقدير هُدًى للناس المتّقين . دليلُه فى البقرة «هُدًى لِلمتَّقِينَ» فردّ هذا العامَّ الى ذلك الخاصّ . و «هُدًى» فى موضع نصب على الحال . ﴿ والفُرْقَانَ ﴾ القرآن . وقد تقدّم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾

(١) ابن فورك (بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء) هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك ، المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهانى ، توفى سنة ست وأربعمائة . (عن ابن خلكان) .

هذا خبرٌ عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل؛ ومثله فى القرآن كثير. فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهًا أو ابنَ إله وهو تخفَى عليه الأشياء!.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى — قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ أخبر تعالى عن تصويره للبشر فى أرحام الأمّهات. وأصل الرَّحِم من الرحمة، لأنها مما يُتَراحم به. واشتقاق الصُّورة من صَارَه إلى كذا إذا أمالَه؛ فالصورة مائلة إلى شَبَه وهيئة. وهذه الآية تعظيم لله تعالى، وفى ضمنها الرَّدُّ على نصارى نَجْرَان، وأنّ عيسى من المصوَّرين، وذلك مما لا يُنكره عاقل. وأشار تعالى إلى شرح التصوير فى سورة «الحجّ»[1] و«المؤمنين»[2]. وكذلك شرحه النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن مسعود، على ما يأتى هنالك إن شاء الله تعالى. وفيها الردّ على الطبائعيّين أيضا إذ يجعلونها فاعلةً مستبدّة. وقد مضى الردّ عليهم فى آية التوحيد[3]. وفى مُسْنَد ابن سَنْجَر — واسمه محمد بن سنجر — حديث "إنّ الله تعالى يخلق عِظام الجنين وغَضَاريفه[4] من مَنِيّ الرجل وشحمَه ولحمَه من مَنِيّ المرأة". وفى هذا أدلّ دليل على أن الولد يكون من ماء الرجل والمرأة، وهو صريح قوله تعالى: «يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى». وفى صحيح مسلم من حديث ثَوْبان وفيه: أنّ اليهوديّ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم: وجئتُ أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلان. قال: "ينفعك إنْ حدّثتُك"؟.

---

(١) فى قوله تعالى: «يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث ...» آية ٥

(٢) فى قوله تعالى: «ولقد خلقنا الانسان من سلالة ... » الآيات ١٢، ١٣، ١٤

(٣) فى قوله تعالى: «هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا» جـ ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية وثالثة.

(٤) الغضاريف: جمع غضروف (بضم الغين) وهو كل عظم رخص يؤكل، وهو مارن الأنف، ونغض الكتف (العظم الرقيق على طرفها)، ورءوس الأضلاع، ورُهابة الصدر (عُظَيم فى الصدر مشرف على البطن)، وداخل قوف الأذن.

قال : أسمع بأذنى ، جئت أسألك عن الولد . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ماءُ الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مَنِىُّ الرجل مَنِىَّ المرأة أذكرا بإذن الله تعالى وإذا علا مَنِىُّ المرأة مَنِىَّ الرجل آنثا بإذن الله " الحديث (١) . وسيأتى بيانه آخر «الشُّورَى» إن شاء الله تعالى.

الثانيــة ـ قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ يعنى من حُسْن وقُبْح وسَواد وبَياض وطُول وقِصَر وسَلامة وعاهة ، إلى غير ذلك من الشقاء والسعادة . وذُكر عن إبراهيم بن أدهم أن القراء اجتمعوا إليه ليسمعوا ما عنده من الأحاديث ، فقال لهم : إنى مشغولٌ عنكم بأربعة أشياء ، فلا أتفرغ لرواية الحديث . فقيل له : وما ذاك الشغل؟ قال : أحدها أنى أتفكر فى يوم الميثاق حيث قال : "هؤلاء فى الجنة ولا أُبالى وهؤلاء فى النار ولا أُبالى" . فلا أدرى من أىّ هؤلاء كنت فى ذلك الوقت . والثانى حيث صُوِّرتُ فى الرَّحِم فقال المَلَك الذى هو موكّل على الأرحام : "يا ربِّ شقىٌّ هو أم سعيد" فلا أدرى كيف كان الجواب فى ذلك الوقت . والثالث حين يقبض مَلَكُ الموت رُوحى فيقول : "يا ربِّ مع الكفر أم مع الإيمان" فلا أدرى كيف يخرج الجواب . والرابع حيث يقول : «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ» فلا أدرى فى أىّ الفريقين أكون . ثم قال تعالى : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا خالقَ ولا مصوِّر ؛ وذلك دليل على وحدانيته ، فكيف يكون عيسى إلٰهًا مصوَّرا وهو مصوَّر . ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يُغالَب . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة أو المُحْكِم ، وهذا أخصّ بما ذكر من التصوير .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

(١) راجع الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٩٩ طبع بلاق .

فيه تسع مسائل :

الأولى — خرّج مُسْلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحْذَروهم " . وعن أبي غالب قال : كنت أمشى مع أبي أمامة وهو على حمار له ، حتى إذا انتهى إلى دَرَج مسجد دمشق فإذا رءوس منصوبة ؛ فقال : ما هذه الرءوس ؟ قيل : هذه رءوس خوارج يجاء بهم من العراق . فقال أبو أُمامة : كِلابُ النار كلابُ النار كلاب النار ! شرُّ قتلَى تحت ظِلّ السماء ، طُوبَى لمن قتلهم وقتلوه — يقولها ثلاثا — ثم بكى . فقلت : ما يُبكيك يا أبا أُمامة ؟ قال : رحمة لهم ، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه ؛ ثم قرأ «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» إلى آخر الآيات . ثم قرأ «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» . فقلت : يا أبا أُمامة، هُمْ هؤلاء؟ قال نعم. قلت : أشىء تقوله برأيك أم شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : إنى إذًا لجرىء إنى إذًا لجرىء ! بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرّة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس ولا ستّ ولا سبع ، ووضع أصبعيه فى أذنيه ؛ قال : وإلّا فصُمّتا — قالها ثلاثا — ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تفرّقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقةً واحدةٌ فى الجنّة وسائرُهم فى النار ولتَزيدنّ عليهم هذه الأمّة واحدةً واحدةٌ فى الجنّة وسائرُهم فى النار " .

الثانيــة — اختلف العلماء فى المُحكَمات والمتشابهات على أقوال عديدة ؛ فقال جابر بن عبد الله، وهو مقتضَى قول الشَّعْبِيّ وسُفيان الثوري وغيرهما : المُحكَمات فى آى القرآن ما عُرِف تأويله وفُهِم معناه وتفسيره . والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه

دون خلقه . قال بعضهم : وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج والدجّال وعيسى، ونحو الحروف المقطّعة فى أوائل السور .

قلت : هـذا أحسن ما قيل فى المتشابه . وقد قدّمنا فى أوائل سورة البقرة عن الربيع ابن خيثم أنّ الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، الحديث . وقال أبو عثمان : المُحكَم فاتحة الكتاب التى لا تجزئ الصلاة إلا بها . وقال محمد بن الفضل : سورة الإخلاص، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط . وقيل : القرآن كله مُحكَم، لقوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » . وقيل : كله مُتشابه ؛ لقوله : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » .

قلت : وليس هذا من معنى الآية فى شىء ؛ فإن قوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » أى فى النظم والرصف وأنه حقٌّ من عند الله . ومعنى « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » أى يشبه بعضه بعضا ويصدّق بعضُه بعضا . وليس المراد بقوله «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» هذا المعنى؛ وإنما المُتشابه فى هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه ، من قوله «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا» أى التبس علينا، أى يحتمل أنواعا كثيرة من البقر . والمراد بالمُحكَم ما فى مقابلة هـذا، وهو مالا التباسَ فيـه ولا يحتمل إلا وجها واحدا . وقيـل : إنّ المتشابه ما يحتمل وجوها ، ثم إذا رُدّت الوجوه إلى وجه واحد وأُبطل الباقى صار المُتشابه مُحكَما . فالمُحكَم أبدًا أصلٌ تُرَدّ اليه الفروع؛ والمتشابه هو الفرع . وقال ابن عبّاس : المُحكَماتُ هو قوله فى سـورة الأنعام « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » إلى ثلاث آيات، وقـوله فى بنى إسرائيل : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » . قال ابن عطيّة : وهـذا عندى مثالٌ أعطاه فى المُحكَمات . وقال ابن عبّـاس أيضا : المُحكَمات ناسخـه وحرامه وفرائضـه وما يُؤمَن به ويعمل به ؛ والمتشابهات المنسوخات ومقـدّمه ومؤخّره وأمثـاله وأقسامه وما يُؤمَن به ولا يُعمَل به . وقال ابن مسعود وغيره : المحكمات الناسخات ، والمتشابهات المنسوخات؛ وقاله قَتادة والربيع والضّحاك . وقال محمـد بن جعفر بن الزبير : المحكمات هى التى فيها حُجّـة الربّ

وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ، ليس لهـا تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه .
والمتشابهات لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهن العباد ؛ وقاله مجاهد وابن إسحاق .
قال ابن عطيّة : وهـذا أحسن الأقوال فى هـذه الآية . قال النحّاس : أحسن ما قيـل فى المُحْكَمات والمتشابهات أنّ المحكمات ما كان قائمـا بنفسه لا يحتاج أن يُرْجَع فيـه إلى غيره ؛ نحو «لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ» . والمتشابهات نحو «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًـا » يُرْجَع فيـه إلى قوله جلّ وعلا : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » وإلى قوله عزّ وجل : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » .

قلت : ما قاله النحاس يبيّن ما آختاره آبن عطيّة ، وهو الجارى على وضع اللسان ؛ وذلك أن المحـكم اسم مفعول من أَحْكَمَ ، والإحكام الإتقـان ؛ ولا شك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردُّد ، إنمـا يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتقان تركيبهـا ؛ ومتى اختلّ أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . والله أعلم . وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : للتشابه وجوه ، والذى يتعلق به الحكم ما اختلف فيه العلمـاء أىّ الآيتين نسخت الأخرى ؛ كقول علىّ وابن عباس فى الحامل المتوفّى عنها زوجها تعتدّ أقصى الأجلين . فكان عمر وزيد بن ثابت وابن مسعود وغيرهم يقولون وَضْع الحمل ، ويقولون : سورة النساء القُصْرَى (1) نسخَتْ أربعةَ أشهر وعشرا . وكان علىّ وابن عباس يقولان لم تنسخ . وكاختلافهم فى الوصية للوارث هـل نُسِختْ أم لم تُنْسَخ . وكتعارض الآيتين أيهما أَوْلَى أن تُقَدَّم إذا لم يُعْرَف النسخ ولم توجد شرائطه ؛ كقوله تعالى : « وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ » يقتضى الجمع بين الأقارب من مِلْك اليمين ، وقوله تعالى : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » يمنع ذلك . ومنـه أيضا تعارُض الأخبار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وتعارُض الأقيسة ، فذلك المتشابه . وليس من المتشابه أن تقرأ الآية بقراءتين ويكون الاسم محتملا أو مجملا يحتاج الى تفسير ؛ لأن الواجب منه قدر ما يتناوله الاسم أو جميعه . والقراءتان كالآيتين يجب العمل بموجبهما جميعا ؛ كما قُرِئ :

---

(1) سورة النساء القصرى هى سورة الطلاق . ومراده منها «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن» آية ٤

« وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ » بالفتح والكسر، على ما يأتى بيانه « فى المائدة »(١) إن شاء الله تعالى .

الثالثة ــ روى البخارىّ(٢) عن سعيد بن جُبَير قال قال رجل(٣) لابن عباس : إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ . قال : ما هو؟ قال : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » وقال : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » وقال : وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » وقال : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فقد كتموا فى هذه الاية . وفى النازعات «أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ... الى قوله : دَحَاهَا » فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال « أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... الى : طائعين » فذكر فى هذا خلق الأرض قبل خلق السماء . وقال : « وكان الله غفورا رحيما » . « وكان الله عزيزا حكيما » . «وكان الله سميعا بصيرا » فكأنه كان ثم مضى . فقال ابن عبّاس : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » فى النفخة الأولى، ثم يُنْفَخ فى الصور فصعق مَنْ فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنسابَ بينهم عند ذلك ولا يتساءلون؛ ثم فى النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وأمّا قوله : « مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون : تعالَوْا نقول : لم نكن مشركين؛ فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم؛ فعند ذلك عُرِف أن الله لا يُكْتَمُ حديثا، وعنده يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين . وخلق الله الأرض فى يومين، ثم استوى الى السماء فسوّاهنّ سبع سماوات فى يومين، ثم دحا الأرض أى بَسَطها فأخرج منها الماء والمرعى ، وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينهما فى يومين آخرين ؛ فذلك قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » . فخلقت الأرضُ وما فيها فى أربعة أيام، وخُلقت السماء فى يومين . وقوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » سمّى نفسه(٤)

(١) فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة ... » آية ٦

(٢) ورد هذا الحديث فى صحيح البخارى فى كتاب التفسير (سورة السجدة) . وبين رواية صحيح البخارى وما ورد فى الأصول اختلاف فى بعض الكلمات .

(٣) هو نافع بن الأزرق الذى صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج . (عن شرح القسطلانى) .

(٤) هذه عبارة صحيح البخارى . وفى الأصول : « يعنى نفسه ذلك ... » .

ذلك، أى لم يزل ولا يزال كذلك ؛ فإن الله لم يُرِدْ شيئا إلا أصاب به الذى أراد . ويحك! فلا يختلف عليك القرآن؛ فإن كُلًّا من عند الله .

الرابعـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ لم تصرف « أُخَر» لأنها عُدِلتْ عن الألف واللام ، لأن أصلها أن تكون صفةً بالألف واللام كالكُبَر والصُّغَر ؛ فلما عُدلت عن مجرى الألف واللام مُنِعت الصرف. أبو عُبَيْد : لم يصرفوها لأنّ واحدها لا ينصرف في معرفة ولا نكرة . وأنكر ذلك المبرِّد وقال : يجب على هذا ألّا ينصرف غِضَابٌ وعِطَاش . الكسائى: لم تنصرف لأنهـا صفة . وأنكره المبرِّد أيضاوقال : إن لُبَدًا وحُطَمًا صفتان وهما منصرفان . سيبويه : لا يجوز أن تكون أُخَرُ معدولةً عن الألف واللام؛ لأنها لو كانت معدولة عن الألف واللام لكان معرفة، ألا ترى أن سَحَرَ(١) معرفة في جميع الأقاويل لمـا كانت معدولة [عن السحر] ، وأمس في قول من قال : ذهَب أمْسِ معدولًا عن الأمس ؛ فلوكان أُخَر معدولًا أيضا عن الألف واللام لكان معرفة، وقد وصفه الله بالنكرة .

الخامســـة ـــ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ ﴾ الذين رفع بالابتداء، والخبر « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْـهُ » . والزيغ الميـل ؛ ومنـه زاغت الشمس ، وزاغت الأبصار . ويقال : زاغ يزيغ زَيْغا إذا ترك القَصْد؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » . وهذه الآية تعمّ كل طائفة من كافر و زِنْديق وجاهل وصاحب بِدْعة، و إن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت الى نصارى نَجْران . وقال قَتَادة في تفسير قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ » : إن لم يكونوا الحَرُورِيّةُ(٢) وأنواعَ الخوارج فلا أدرى مَنْ هم .

قلت : قد مرّ هذا التفسير عن أبى أُمَامة مرفوعا، وحَسْبُك .

السادســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْـهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ قال شيخنا أبو العبّاس رحمة الله عليه : مُتّبعو المتشابه لايخلو أنْ يتّبعوه ويجمعوه طلبًا للتشكيك

---

(١) أى إذا أردت به سحر ليلتك . فان نكرته صرفته .

(٢) راجع الحاشية ٢ ج ٢ ص ١٢٥ طبعة ثانية .

فى القرآن وإضلال العوام ، كما فعلته الزنادقة والقرامطة[1] الطاعنون فى القرآن ؛ أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه ، كما فعلته المجسِّمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسُّنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسَّم وصورةٌ مصوَّرة ذاتُ وجه وعين ويد وجنب ورجل وأصبع ، تعالى الله عن ذلك ! ؛ أو يتّبعوه على جهة ابداء تأويلاتها وإيضاح معانيها ، أو كما فعل صَبيغٌ[2] حين أكثر على عُمَرَ فيه السؤال . فهذه أربعة أقسام :

الأول ــ لا شك فى كفرهم ، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة .

الثانى ــ القول بتكفيرهم ، إذ لا فرق بينهم وبين عُبّاد الأصنام والصُّوَر ، ويُستتابون فإن تابوا وإلا قُتلوا كما يفعل بمن ارتدّ .

الثالث ــ اختلفوا فى جواز ذلك بناء على الخلاف فى جواز تأويلها . وقد عُرف أنّ مذهب السلف تركُ التعرُّض لتأويلها مع قطعهم باستحالة ظواهرها ، فيقولون أمِرُّوها كما جاءت . وذهب بعضهم الى إبداء تأويلاتها وحملها على ما يصحّ حمله فى اللسان عليها من غير قطع بتعيين مُجْمَل منها .

الرابع ــ الحكم فيه الأدبُ البليغ ، كما فعله عمر بصَبيغ . وقال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمة من السلف يُعاقبون من يسأل عن تفسير الحروف المُشْكلات فى القرآن ، لأن السائل إن كان يبغى بسؤاله تخليد البِدْعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير ، وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب ، إذ أوجد للنافقين الملحدين فى ذلك الوقت سبيلاً الى أن يقصدوا ضَعَفَة المسلمين بالتشكيك والتضليل فى تحريف القرآن عن مناهج التنزيل وحقائق التأويل . فمن ذلك ما حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن صَبيغَ بن عِسْل

(١) القرامطة : فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوّة زرادشت ومزدك ومانى ؛ وكانوا يبيحون المحرّمات . (راجع عقد الجمان للعينى فى حوادث سنة ٢٧٨) .

(٢) صبيغ (وزان أمير) بن شريك بن المنذر بن قطن بن قشع بن عسل (بكسر العين) بن عمرو بن يربوع التيمى ، وقد ينسب الى جدّه الأعلى فيقال : صبيغ بن عسل . راجع القاموس وشرحه مادة « صبغ وعسل » .

قدم المدينة فجعل يسأل عن مُتشابه القرآن وعن أشياء ؛ فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فبعث اليه عمر فأحضره وقد أعدّ له عَرَاجين من عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صَبيغ . فقال عمر رضى الله عنه : وأنا عبد الله عمر ؛ ثم قام اليه فضرب رأسه بعُرجون فشجّه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمُه على وجهه ، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين ! فقد والله ذهب ما كنت أجد فى رأسى . وقد اختلفت الروايات فى أدبه، وسيأتى ذكرها فى « الذاريات » . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها فى قلبه فتاب وحسُنت توبته . ومعنى « ابتغاءَ الفتنة » طلب الشبهات واللّبْس على المؤمنين حتّى يُفسدوا ذات بينهم، ويردّوا الناس الى زَيْغهم . وقال أبو إسحاق الزجّاج : معنى «ابتغاء تأويله» أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم، فأعلم الله جلّ وعزّ أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ — أى يوم يرون ما يوعدون من البعث والنشور والعذاب — يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ — أى تركوه — قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » أى قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل . قال : فالوقف على قوله : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » أى لا يعلم أحد متى البعث إلا الله .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ يقال : إن جماعة من اليهود منهم حُيَيّ بن أخْطَب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بلغنا أنه نزل عليك « الٓمٓ » ، فان كنتَ صادقًا فى مقالتك فإن مُلْك أُمّتك يكون إحدى وسبعين سنة؛ لأن الألف فى حساب الجُمّل واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فنزل «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» . والتأويل يكون بمعنى التفسير ، كقولك : تأويل هذه الكلمة على كذا . ويكون بمعنى ما يؤول الأمر اليه . واشتقاقه من آلَ الأمرُ إلى كذا يؤول اليه، أى صار . وأوّلته تأويلا أى صيّرته . وقد حدّه بعض الفقهاء فقالوا : هو إبداء احتمال فى اللّفظ مقصود بدليل خارج عنه . فالتفسير بيان اللفظ، كقوله « لَا رَيْبَ فِيهِ » أى لا شك . وأصله من الفَسْر وهو البيان؛ يقال : فَسَرْتُ

الشئ (مخففا) أفسِره (بالكسر) فَسْرًا . والتأويل بيان المعنى ؛ كقوله لا شك فيه عند المؤمنين . أو لأنه حقٌّ فى نفسه فلا تقبل ذاتُه الشكّ ؛ وإنما الشكّ وصف الشاكّ . وكقول ابن عباس فى الجَدّ أبًا ؛ لأنه تأوّل قول الله عزّ وجلّ : « يَا بَنِى آدَمَ » .

الثامنــة ـــ قوله تعالى : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ اختلف العلماء فى «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» هل هو ابتداء كلام مقطوع مما قبله ، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع . فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع مما قبله، وأنّ الكلام تمّ عند قوله « إِلَّا اللَّهُ » هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعُرْوة بن الزُّبَير وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو مذهب الكِسائىّ والأخفش والفَرّاء وأبى عُبَيْد . قال أبو نَهِيك الأسدىّ : إنكم تَصِلون هـذه الآية وإنها مقطوعة . وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » . وقال مثلَ هذا عمر بن عبد العزيز ، وحكى الطبرىّ نحوه عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس . و « يَقُولُونَ » على هذا خبر الراسخين . قال الخَطّابىّ : وقد جعل الله تعالى آيات كتابه الذى أمرنا بالإيمان به والتصديق بما فيه قسمين : مُحْكَمًا ومُتَشابِهًا ؛ فقال عزّ من قائل : «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ... إلى قوله : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » فأعلم أنّ المتشابه من الكتاب قد استأثر الله بعلمه ، فلا يعلم تأويلَه أحد غيره ، ثم أثنى الله عزّ وجلّ على الراسخين فى العلم بأنهم يقولون آمنّا به . ولولا صحة الإيمان منهم لم يستحقّوا الثناء عليه . ومذهب أكثر العلماء أن الوقف التامّ فى هذه الآية إنما هو عند قوله تعالى : «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وأن ما بعده استئناف كلام آخر ، وهو قوله « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » . ورُوِى ذلك عن ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وابن عبّاس وعائشة . وإنما رُوِى عن مُجاهد أنه نَسَق « الراسخين » على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه . واحتجّ له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين آمنّا ، وزعم أن موضع « يَقُولُونَ » نصب على الحال . وعامة أهل اللغــة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا ، ولا تذكر حالًا إلا مع ظهور الفعل ؛ فإذا لم يظهر فعــل فلا يكون حال ؛ ولو جاز ذلك لجاز

أن يقال : عبد الله راكبا، بمعنى أقبل عبد الله راكبا؛ وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : عبد الله يتكلم يُصلح بين الناس ؛ فكان « يُصلح » حالا له ؛ كقول الشاعر — أنشدنيه أبو عمر قال أنشدنا أبو العبّاس ثعلب — :

أرسلتُ فيها قَطِمًا لُكَالِكَا[1] * يَقْصُرُ يَمْشِي ويطولُ بَارِكَا

أى يقصر ماشيا . فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده . وأيضا فإنه لا يجوز أن ينفى الله سبحانه شيئا عن الخلق ويُثبته لنفسه ثم يكون له فى ذلك شريك . ألا ترى قوله عزّ وجلّ : «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ» وقوله : «لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ» وقوله : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »، فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه بعلمه لا يَشْرَكه فيه غيره . وكذلك قوله تبارك وتعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » . ولو كانت الواو فى قوله : «والرَّاسِخُونَ»[2] للنسق لم يكن لقوله : « كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » فائدة . والله أعلم .

قلت : ما حكاه الخطّابى من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد رُوى عن ابن عبّاس أن الراسخين معطوف على اسم الله عزّ وجلّ، وأنهم داخلون فى علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنّا به؛ وقاله الرّبيع ومحمد بن جعفر بن الزُّبير والقاسم بن محمد وغيرهم . و «يقولون» على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين؛ كما قال :

الريح تبكى شجوها * والبرقُ يلمع فى الغمامه

وهذا البيت يحتمل المعنيين ؛ فيجوز أن يكون «والبرقُ» مبتدأ، والخبر «يلمع» على التأويل الأوّل، فيكون مقطوعا مما قبله . ويجوز أن يكون معطوفا على الريح، و«يلمع» فى موضع الحال على التأويل الثانى أى لامعا . واحتجّ قائلو هذه المقالة أيضا بأن الله سبحانه مدحهم

---

(١) فى الأصول : «أرسلت فيها رجلا» والتصويب عن اللسان وشرح القاموس . والقطم : الغضبان ؛ وفحل قَطِمٌ وقَطَمٌ وقَطِيمٌ : صؤول . والقطم أيضا : المشتهى اللحم وغيره . واللكالك (بضم اللام الأولى وكسر الثانية) : الجمل الضخم المرمى باللحم . ومعنى الشطر الثانى كما قال أبو على الفارسىّ : يقصر اذا مشى لانخفاض بطنه وضخمه وتقاربه من الأرض ؛ فاذا برك رأيته طويلا لارتفاع سنامه ؛ فهو باركا أطول منه قائما » . (عن لسان العرب مادة لكك) .

(٢) فى الأصول : « والراسخون معا للنسق » بزيادة كلمة «معا» .

بالرسوخ فى العلم، فكيف يمدحهم وهم جهّال! وقد قال ابن عباس : أنا ممن يعلم تأويله . وقرأ مجاهد هذه الآية وقال : أنا ممن يعلم تأويله، حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالى .

قلت ـ وقد ردّ بعض العلماء هذا القول إلى القول الأوّل فقال : وتقدير تمام الكلام «عند الله» أن معناه وما يعلم تأويله إلا الله يعنى تأويلَ المتشابهات، والراسخون فى العلم يعلمون بعضَه قائلين آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا بما نُصب من الدلائل فى المُحكَم ومكّن من ردّه اليه . فاذا علموا تأويلَ بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آمنّا بالجميع كلٌّ من عند ربّنا، وما لم يُحطْ به علمنا من الخفايا مما فى شرعه الصّالح فعلمُه عند ربّنا . فإن قال قائل : قد أشكل على الراسخين بعضُ تفسيره حتى قال ابن عباس : لا أدرى ما الأوّاه ولا ما غسلين، قيل له : هذا لا يلزم؛ لأن ابن عباس قد علم بعد ذلك ففسّر ما وقف عليه . وجوابٌ أقطع من هذا وهو أنه سبحانه لم يقل وكلُّ راسخ فيجب هذا، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر . ورجّح ابن فُورَك أن الراسخين يعلمون التأويل وأطنب فى ذلك؛ وفى قوله عليه السلام لابن عباس : "اللّهمّ فقّهْهُ فى الدّين وعلّمه التأويلَ" ما يُبيّن لك ذلك، أى علّمه معانى كتابك . والوقف على هذا يكون عند قوله «والراسخون فى العلم» . قال شيخنا أبو العبّاس أحمد بن عمر : وهو الصحيح؛ فإن تسميتهم راسخين يقتضى أنهم يعلمون أكثر من المُحكَم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب . وفى أىّ شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع! . لكن المتشابه يتنوع، فمنه ما لا يُعلَم البتّة كأمر الرُّوح والساعة مما استأثر الله بغيبه، وهذا لا يتعاطى علمَه أحدٌ لا ابنُ عباس ولا غيره . فمن قال من العلماء الحُذّاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع؛ وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة ومَناحٍ فى كلام العرب فيُتأوّل ويُعلَم تأويله المستقيم، ويزال ما فيه مما عسى أن يتعلق من تأويل غير مستقيم؛ كقوله فى عيسى : «وَرُوحٌ مِنْهُ» الى غير ذلك . فلا يسمّى أحدٌ راسخا إلا بأن يعلم من هذا النوع كثيرا بحسب ما قُدّر له . وأمّا من يقول : إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخالُ الراسخين فى علم التأويل؛ لكنّ تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح .

والرسوخ : الثبوت فى الشيء ؛ وكل ثابت راسخ . وأصله فى الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر فى الأرض . وقال الشاعر :

لقد رسخت فى الصدر منى مودةٌ * لليلى أبت آياتها أن تغيّرا

ورسخ الإيمان فى قلب فلان يرسخ رسوخا . وحكى بعضهم : رسخ الغدير : نضب ماؤه؛ حكاه ابن فارس فهو من الأضداد . ورسخ ورضخ ورصن ورسب كله ثبت فيه . وسئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الراسخين فى العلم فقال : "هو من برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه". فإن قيل : كيف كان فى القرآن متشابه والله يقول : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » فكيف لم يجعل كلّه واضحا ؟ قيل له : الحكمة فى ذلك — والله أعلم — أن يظهر فضل العلماء؛ لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضل بعضهم على بعض . وهكذا يفعل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا و بعضه مشكلا، ويترك للجثوة[1] موضعا ؛ لأن ما هان وجوده قلّ بهاؤه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى محكمه ومتشابهه؛ والتقدير كلّه من عند ربنا . وحذف الضمير لدلالة « كلّ » عليه ؛ إذ هى لفظة تقتضى الإضافة . ثم قال : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أى ما يقول هذا ويؤمن ويقف حيث وقف ويدع اتباع المتشابه إلا ذو لُبّ، وهو العقل . ولُبّ كل شيء خالصه؛ فلذلك قيل للعقل لُبّ . و « أولو » جمع ذو .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ فى الكلام حذف تقديره يقولون . وهذا حكاية عن الراسخين . ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد . ويقال : إزاغة القلب فساد

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى أكثر الأصول؛ وفى بعض الأصول وردت بهذا الرسم من غير إعجام .

وميل عن الدين، أفكانوا يخافون وقد هُدُوا أن ينقلهم الله الى الفساد ؟ فالجواب أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألا يبتليهم بما يثقُل عليهم من الأعمال فيَعْجِزوا عنه، نحو « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ » . قال ابن كيسان : سألوا ألا يَزِيغوا فيُزِيغ الله قلوبَهم، نحو «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» أى ثبِّتنا على هدايتك إذ هديتنا وألّا نزيغ فنستحق أن تُزيغ قلوبنا . وقيل : هو منقطع مما قبلُ؛ وذلك أنه تعالى لما ذكر أهل الزيغ عقّب ذلك بأنْ علّم عباده الدعاء إليه فى ألا يكونوا من الطائفة الذمية التى ذُكِرت وهى أهل الزيغ . وفى المُوَطَّأ عن أبى عبد الله الصُّنابحِى أنه قال : قَدِمتُ المدينة فى خلافة أبى بكر الصدِّيق فصلّيت وراءه المغرب ، فقرأ فى الركعتين الأُولَيين بأمّ القرآن وسورة من قصار المُفَصَّل ، ثم قام فى الثالثة، فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه ، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا » الآية . قال العلماء : قراءته بهذه الآية ضربٌ من القُنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردّة . والقنوت جائز فى المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفى كل صلاة أيضا اذا دهم المسلمين أمر عظيم يُفزعهم ويخافون منه على أنفسهم . وروى الترمذىّ من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال قلت لأُمّ سَلَمة : يا أُمّ المؤمنين، ما كان أكثرُ دُعاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه "يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبى على دِينك" . فقلت : يارسول الله ، ما أكثر دعائك يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبى على دينك ؟ قال : "يا أُمّ سَلَمة إنه ليس آدمىٌّ إلا وقلبُه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ". فتلا مُعاذ(١) «رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا» . قال : حديث حسن . وهذه الآية حجّة على المعتزلة فى قولهم : إن الله لا يُضِلّ العباد . ولو لم تكن الإزاغة من قِبَله لما جاز أن يُدْعَى فى دفع ما لا يجوز عليه فعلَه . وقرأ أبو واقد الجرّاح «لا تَزِغْ قُلُوبُنَا» بإسناد الفعل إلى القلوب ، وهذه رغبة إلى الله تعالى . ومعنى الآية على القراءتين ألّا يكون منك خلق الزيغ فيها فتزيغ .

---

(١) هو أحد رجال سند هذا الحديث .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أى من عندك ومن قِبَلك تفضُّلا لا عن سبب منّا ولا عمل . وفى هذا استسلامٌ وتطارح . وفى «لَدُن» أربع لغات : لَدُنْ بفتح اللام وضم الدال وجزم النون، وهى أفصحها؛ وبفتح اللام وضم الدال وحذف النون؛ وبضم اللام وجزم الدال وفتح النون؛ وبفتح اللام وسكون الدال وفتح النون . ولعل جُهّال المتصوّفة وزنادقة الباطنية يتشبثون بهذه الآية وأمثالها فيقولون : العلم ما وهبه الله ابتداء من غير كسب، والنظرُ فى الكتب والأوراق حجاب . وهـذا مردود على ما يأتى بيانه فى هـذا الموضع . ومعنى الآية : هب لنا نعيا صادرا عن الرحمة؛ لأن الرحمة راجعة الى صفة الذات فلا يتصوّر فيها الهبة . يقال : وَهَب يَهَبُ؛ والأصل يَوْهِبُ بكسر الهاء . ومن قال : الأصل يَوْهَبُ بفتح الهاء فقد أخطأ؛ لأنه لو كان كما قال لم تحذف الواو، كما لم تحذف فى يَوْجَل . وإنما حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة؛ ثم فتح بعد حذفها لأن فيه حرفا من حروف الحلق .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾

أى باعثهم ومحييهم بعد تفرّقهم . وفى هـذا إقرار بالبعث ليوم القيامة . قال الزجّاج : هذا هو التأويل الذى علمه الراسخون وأقرّوا به، وخالف الذين اتّبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه . والريب الشك، وقد تقدّمت محامله فى البقرة[1] . والميعاد مفعال من الوعد .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾

معناه بيِّن . أى لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقرأ السُّلَمى[2] «لَنْ يُغْنِىَ» بالياء لتقدّم الفعل ودخول الحائل بين الاسم والفعل . وقرأ الحسن «يُغْنِى» بالياء وسكون الياء الآخرة للتخفيف؛ كقول الشاعر :

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) السلمى (بضم السين) هو أبو عبد الرحمن محمد ابن الحسين الصوفى الأزدى . (عن تذكرة الحفاظ وأنساب السمعانى) .

كَفَى باليأسِ من أسماءَ كَافِ * وليس لِسُقْمِها إذ طال شافِ

وكان حقّه أن يقول كافيا، فأرسل الياء . وأنشد الفراء فى مثله :

كأنّ أيديهنّ بالقـاعِ القَرِقْ * أيدى جَوَارٍ يَتَعاطَيْنَ الوَرِقْ

القَرِقُ والقَرِقَةُ[(١)] لغتان فى القاع . و «مِن» فى قوله «مِنَ اللّهِ» بمعنى عند؛ قاله أبو عبيدة. ﴿ أولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ والوَقُود اسم للحطب ، وقد تقدّم[(٢)] فى «البقرة» . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف « وُقُود » بضم الواو على حذف مضاف تقديره حطب وُقُود النـار . ويجوز فى العربيـة إذا ضم الواو أن تقول أُقُود مثل أُقِّتَتْ . والوُقود بضم الواو المصـدر ؛ وَقَدت النارُ تَقِـدُ إذا اشتعلت . وخرّج ابن المبارك من حديث العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يظهر هذا الدِّين حتى يُجاوز البحارَ وحتى تُخاضَ البحارُ بالخيل فى سـبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوامٌ يقرءون القرآن فاذا قرءوه قالوا مَنْ أقرأُ منّا مَنْ أعلمُ منّا . ثم التفت الى أصحابه فقال : هل ترون فى أُولئكم من خير"؟ قالوا لا . قال : "أُولئك منكم وأُولئك من هذه الأمّة وأُولئك هم وقود النار" .

قوله تعـالى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

الدَّأْبُ العـادة والشأن . ودأب الرجلُ فى عمله يَدْأَبُ دَأْباً ودُءوبا إذا جدّ واجتهـد ، وأدْأبتُه أنا . وأدأب بعيره إذا جهدَه فى السير . والدائبان الليل والنهـار . قال أبو حاتم : وسمعت يعقوب يذكر « كَدَأَب » بفتح الهمـزة، وقال لى وأنا غُلَيِّم : على أىّ شىء يجـوز « كَدَأَب » ؟ فقلت له : أظنّه من دَئِب يَدْأَب دَأَباً . فقبِل ذلك منِى وتعجّب من جودة تقديرى على صِغرى؛ ولا أدرى أيقال أم لا . قال النحّاس : « وهذا القول خطأ، لا يقال

(١) كذا فى الأصول . والذى فى لسان العـرب وغيره من معجمات اللغة أنه القرق (بفتح القـاف وكسر الراء) والقرق (بفتح القاف والراء) والقرق (بكسر القاف وسكون الراء) . والقاع القرق : الطيب الذى لا حجارة فيه .

(٢) راجع جـ١ ص ٢٣٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

البتة دَئِبَ؛ وإنما يقال : دَأَب يَدْأَبُ دُءُوبا [وَدَأْبًا][1]؛ هكذا حكى النحويون ، منهم الفراء حكاه في كتاب المصادر؛ كما قال آمرؤ القيس :

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا * وجارتِها أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ[2]

فأمّا الدَّأَبُ فانه يجوز؛ كما يقال : شَعْرٌ وشَعَرٌ ونَهْرٌ ونَهَرٌ؛ لأن فيه حرفا من حروف الحلق . واختلفوا في الكاف؛ فقيل : هي في موضع رفع تقديره دَأْبُهم كدأب آل فرعون، أي صنيع الكفّار معك كصنيع آل فرعون مع موسى . وزعم الفراء أن المعنى : كفرت العربُ ككفر آل فرعون . قال النحّاس : لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا ، لأن كفروا داخلة في الصلة . وقيل : هي متعلّقة بأَخَذَهم الله، أي أخذهم أخذًا كما أخذ آل فرعون . وقيل : هي متعلّقة بقوله «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ» أي لم تُغْنِ عنهم غَنَاءً كما لم تُغْنِ الأموال والأولاد عن آل فرعون. وهذا جواب لمن تخلّف عن الجهاد وقال : شغلتنا أموالُنا وأهلونا . ويصح أن يعمل فيه فعلٌ مقدَّر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه في نفس الاحتراق . ويؤيّد هذا المعنى «... وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» . والقول الأوّل أرجح، واختاره غير واحد من العلماء . قال ابن عرفة : «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» أي كعادة آل فرعون . يقول : اعتاد هؤلاء الكفرة الإلحاد والإعنات للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما اعتاد آلُ فرعون من إعنات الأنبياء؛ وقال معناه الأزهريّ . فأمّا قوله في سورة (الأنفال) «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» فالمعنى جُوزِيَ هؤلاء بالقتل والأسر كما جُوزِيَ آلُ فرعون بالغرق والهلاك .

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوّة ، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدّلالة على الوحدانيّة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

---

(١) زيادة عن اعراب القرآن للنحاس .

(٢) أم الحويرث : هي «هر» أم الحارث بن حصين ابن ضمضم الكلابي ؛ وكان امرؤ القيس يشبب بها في أشعاره . وأم الرباب من كلب أيضا . ومأسل : موضع . يقول : لقيت من وقوفك على هذه الديار وتذكرك أهلها كما لقيت من أم الحويرث وجارتها . (عن شرح المعلقات) .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

يعني اليهود . قال محمد بن إسحاق : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر وقدم المدينة جمع اليهود فقال : "يامعشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم"، فقالوا : يامحمد، لا يغرنك أنك قتلت أقواما أغمارا[1] لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة ! والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس . فأنزل الله تعالى « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ» بالتاء يعني اليهود، أي تهزمون «وتُحشرون إلى جهنم» في الآخرة. فهذه رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس . وفي رواية أبي صالح عنه أن اليهود لما فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أحد نزلت . فالمعنى على هذا «سيغلبون» بالياء، يعني قريشا، «ويحشرون» بالياء فيهما، وهي قراءة نافع .

قوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ يعني جهنم ؛ هذا ظاهر الآية . وقال مجاهد : المعنى بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكأن المعنى : بئس فعلهم الذي أداهم إلى جهنم .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أي علامة . وقال « كان » ولم يقل « كانت » لأن « آية » تأنيثها غير حقيقي . وقيل : ردها الى البيان، أي قد كان لكم بيان ؛ فذهب الى المعنى وترك اللفظ؛ كقول امرئ القيس :

(١) الأغمار : جمع غمر (بالضم) وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور .

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ * كَخُرْعُوبَةِ البَانَةِ المُنْفَطِر[1]

ولم يقل المنفطرة؛ لأنه ذهب الى القضيب . وقال الفرّاء : ذكّره لأنه فرّق بينهما بالصفة ، فلما حالت الصفة بين الاسم والفعل ذُكِّر الفعل . وقد مضى هذا المعنى فى البقرة فى قوله تعالى : «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ»[2] .

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يعنى المسلمين والمشركين يوم بَدْر ﴿فِئَةٌ﴾ قرأ الجمهور «فئة» بالرفع، بمعنى إحداهما فئة . وقرأ الحسن ومجاهد « فِئَةٍ » بالخفض « وأُخْرَى كَافِرَةٍ » على البدل . وقرأ ابن أبى عَبْلَةَ بالنصب فيهما . قال أحمد بن يحيى : ويجوز النصب على الحال، أى التقتا مختلفتين مؤمنةً وكافرةً . قال الزجاج : النصب بمعنى أعنى . وسمّيت الجماعة من الناس فئة لأنها يُفَاء اليها، أى يرجع اليها فى وقت الشدّة . وقال الزّجاج: الفئة الفرقة ، مأخوذة من فَأَوْتُ رأسه بالسيف — ويقال : فأيته — إذا فلقته . ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هى الى يوم بَدْر . واختلف من المخاطب بها؛ فقيل : يحتمل أن يُخَاطَب بها المؤمنون، ويحتمل أن يخاطَب بها جميع الكفار، ويحتمل أن يخاطَب بها يهود المدينة؛ وبكل احتمال منها قد قال قوم . وفائدة الخطاب للؤمنين تثبيتُ النفوس وتشجيعُها حتى يُقْدِمُوا على مثليهم وأمثالهم كما قد وقع .

قوله تعالى : ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ قال أبو علىّ : الرؤية فى هذه الاية رؤية عين؛ ولذلك تعدّت الى مفعول واحد . قال مكىّ والمهدوىّ : يدلّ عليه « رَأْيَ الْعَيْنِ » . وقرأ نافع «تَرَوْنَهُمْ» بالتاء والباقون بالياء . ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾[3] نصب على الحال من الهاء والميم فى « ترونهم » . والجمهور من الناس على أن الفاعل بترون هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار . وأنكر أبو عمرو أن يُقْرأ

---

(١) البرهرهة : الرقيقة الجلد، أو هى الملساء المترجرجة . والرؤدة والرودة : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء . والرخصة : اللينة الخلق . والخرعوبة : القضيب الغض اللدن . والبانة : واحد شجر البان . والمنفطر : المتشقق . يقال : قد انفطر العود اذا انشق وأخرج ورقه . (عن شرح الديوان) . (٢) راجع آية ١٨٠ ج ٢ ص ٢٥٧ ، وآية ١٨١ ص ٢٦٨ طبعة ثانية . (٣) الذى فى تفسير غرائب القرآن للنيسابورى : « ترونهم بتاء الخطاب أبو جعفر ونافع وسهل و يعقوب الباقون بالياء » .

« تَرَوْنَهُم » بالتاء؛ قال : ولو كان كذلك لكان مثليكم . قال النحاس : وذا لا يلزم، ولكن يجوز أن يكون مِثْلَىْ أصحابكم . قال مكىّ : « ترونهم » بالتاء جرى على الخطاب فى « لكم » فيحسن أن يكون الخطاب للمسلمين، والهاء والميم للشركين . وقد كان يلزم مَنْ قرأ بالتاء أن يقرأ مثليكم بالكاف ، وذلك لا يجوز لمخالفة الخط ؛ ولكن جرى الكلام على الخروج من الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ »، وقوله تعالى: « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ » فخاطب ثم قال : « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » فرجع إلى الغيبة . فالهاء والميم فى «مِثْلَيْهِمْ» يحتمل أن يكون للشركين، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلى ما هم عليه من العَدَد؛ وهو بعيد فى المعنى؛ لأن الله تعالى لم يُكثّر المشركين فى أعين المسلمين بل أعلمنا أنه قلّلهم فى أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المؤمنون المشركين مِثْلَيْكم فى العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلّل الله المشركين فى أعين المسلمين فأراهم إيّاهم مِثْلَى عِدّتهم لتقوى أنفسهم ويقع التجاسر، وقد كانوا أُعْلِموا أنّ المائة منهم تغلب المائتين من الكفّار، وقلّل المسلمين فى أعين المشركين ليجترئوا عليهم فينفُذ حكمُ الله فيهم . ويحتمل أن يكون الضمير فى «مِثليهم» للسلمين، أى ترون أيها المسلمون المسلمين مِثْلَىْ ما أنتم عليه من العدد، أى ترون أنفسكم مثْلَىْ عَدَدكم ؛ فعل الله ذلك بهم لتقوى أنفسهم على لقاء المشركين . والتأويل الأوّل أولى ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا » وقوله : « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا » . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : قلت لرجل إلى جَنْبى: أتراهم سبعين؟ قال : أظنّهم مائة . فلما أخذنا الأسارى أخبرونا أنهم كانوا ألفا . وحكى الطبرىّ عن قوم أنهم قالوا : بل كثّر الله عدد المؤمنين فى عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضِعْفيهم . وضعّف الطبرى هذا القول . قال ابن عطية : وكذلك هو مردود من جهات . بل قلّل الله المشركين فى أعين المؤمنين كما تقدّم . وعلى هذا التأويل كان يكون « ترون » للكافرين، أى ترون أيها الكافرون المؤمنين مثليهم ، ويحتمل مثليكم، على ما تقدّم . وزعم الفرّاء أنّ المعنى ترونهم مثليهم ثلاثة أمثالهم . وهو بعيدٌ غير معروف فى اللغة . قال الزجّاج : وهذا باب الغلط،

فيه غلطٌ فى جميع المقاييس؛ لأنّا إنما نعقل مثلَ الشيء مساوياً له ، ونعقل مثليه ما يساويه مرّتين . قال ابن كَيْسان : وقد بيّن الفرّاء قوله بأن قال : كما تقول وعندك عبد : أحتاج إلى مثله ، فأنت محتاج إليه وإلى مثله . وتقول : أحتاج إلى مثليه ، فأنت محتاج إلى ثلاثة . والمعنى على خلاف ما قال واللغة . والذى أوقع الفرّاء فى هذا أن المشركين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين يوم بَدْر؛ فتوهّم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عِدّتهم . وهذا بعيد وليس المعنى عليه . وإنما أراهم الله على غير عِدّتهم لجهتين : إحداهما أنه رأى الصلاح فى ذلك؛ لأن المؤمنين تقوى قلوبهم بذلك . والأخرى أنه آية للنبيّ صلّى الله عليه وسلم . وسيأتى ذكر وقعة بدر[1] إن شاء الله تعالى . وأمّا قراءة الياء فقال ابن كيسان : الهاء والميم فى «يرونهم» عائدة على «وَأُخْرَى كَافِرَةٌ» والهاء والميم فى مثليهم عائدة على «فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ» وهذا من الاضمار الذى يدلّ عليه سياق الكلام، وهو قوله : «يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ» . فدلّ ذلك على أن الكافرين كانوا مِثْلَيِ المسلمين فى رأى العين وثلاثة أمثالهم فى العدد . قال : والرؤية هنا لليهود . وقال مكيّ : الرؤية للفئة المقاتلة فى سبيل الله ، والمرئيّة الفئة الكافرة؛ أى ترى الفئةُ المقاتلةُ فى سبيل الله الفئة الكافرة مثلى الفئة المؤمنة ، وقد كانت الفئة الكافرة ثلاثة أمثال المؤمنة ، فقلّلهم الله فى أعينهم على ما تقدّم . والخطاب فى «لكم» لليهود . وقرأ ابن عباس وطلحة «تُرَوْنَهُمْ» بضم التاء ، والسُّلَميّ بالتاء مضمومة على ما لم يسم فاعله .

﴿واللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ﴾ تقدّم معناه والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١٤)

---

(١) فى قوله تعالى : «ولقد نصركم الله ببدر ...» آية ١٢٣ من هذه السورة .

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ زينّ من التزيين . واختلف الناس مَن المزيِّن؛ فقالت فرقة : الله زيّن ذلك؛ وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ذكره البخاريّ . وفى التنزيل : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهَا »؛ ولمّا قال عمر : الآن يا ربّ حين زيّنتها لنا نزلت «قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ» . وقالت فرقة : المزيِّن هو الشيطان؛ وهو ظاهر قول الحسن، فإنه قال : مَنْ زَيَّنَهَا ؟ ما أحدٌ أشدّ لها ذمّا من خالقها . فتزيينُ الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجِبِلّة على الميل إلى هذه الأشياء . وتزيين الشيطان إنما هو بالوسوسة والخديعة وتحسين أخْذها من غير وجوهها . والآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفى ضمن ذلك توبيخٌ لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم . وقرأ الجمهور «زُيِّنَ» على بناء الفعل للمفعول، ورفع «حُبُّ» . وقرأ الضحاك ومجاهد «زَيَّنَ» على بناء الفعل للفاعل، ونصب «حُبَّ» . وحرّكت الهاء من «الشَّهَوَات» فرقًا بين الاسم والنعت . والشهوات جمع شهوة، وهى معروفة. ورجل شهوان للشيء،(١) وشيءٌ شهيٌّ أى مُشْتَهًى . واتّباعُ الشهوات مُرْدٍ وطاعتُها مهلكة . وفى صحيح مسلم : "حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكارِه وحُفَّت النار بالشَّهَوَات" رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تُنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها، وأن النار لا يُنجَى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها . وقد رُوى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "طريق الجنّة حَزْنٌ بربوة(٢) وطريقُ النار سهل بسَهْوة"؛ وهو معنى قوله : "حفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات" . أى طريق الجنة صعب المسلك فيه أعلى ما يكون من الروابى، وطريقُ النار سهل لا غِلظ فيه ولا وُعورة، وهو معنى قوله "سهل بسهوة" وهو بالسين المهملة .

---

(١) هذه عبارة الصحاح الذى يعتمد عليه المؤلف كثيرا . وفى الأصول : « الشهوان للشيء » .

(٢) الحزن (بفتح فسكون) : المكان الغليظ الخشن . والربوة (بالضم والفتح) : ما ارتفع من الأرض . والسهوة : الأرض اللينة التربة .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهن لكثرة تشوّف النفوس إليهن؛ لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما تركتُ بعدى فتنةً أشدّ على الرجال من النساء" أخرجه البخارىّ ومسلم . ففتنة النساء أشدّ من جميع الأشياء . ويقال : فى النساء فتنتان ، وفى الأولاد فتنة واحدة . فأمّا اللتان فى النساء فإحداهما أن تؤدّى إلى قطع الرّحم؛ لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأُمّهات والأخوات . والثانيـة يُبتلَى بجمع المـال من الحلال والحرام . وأمّا البنون فإن الفتنة فيهم واحدة، وهو ما آبتُلِى بجمع المـال لأجلهم . وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُسكِنوا نساءكم الغُرَف ولا تُعلّموهنّ الكِتَاب" . حذّرهم صلى الله عليه وسلم؛ لأن فى إسكانهن الغرف تطلُّعا إلى الرجال، وليس فى ذلك تحصين لهن ولا سترٌ؛ لأنهن قد يُشرِفن على الرجال فتحدُث الفتنة والبلاء، ولأنهن قد خُلِقن من الرجل؛ فهِمّتها فى الرجل والرجلُ خُلِق فيه الشهوة وجُعِلَتْ سَكَنًا له؛ فغيرُ مأمونٍ كل واحد منهما على صاحبـه . وفى تعلّمهن الكتاب هـذا المعنى من الفتنة وأشـدّ . وفى كتاب الشِّهاب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أَعْرُوا النساءَ يلزَمْنَ الحِجَالَ" . فعلى الإنسان إذا لم يصبر فى هذه الأزمان أن يبحث على ذات الدِّين ليسلَم له الدِّين . قال صلى الله عليـه وسلم : "عليكَ بذات الدِّين تَرِبَتْ(١) يداك" . أخرجه مسـلم عن أبى هريرة . وفى سُنَن آبن ماجه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَزوّجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يُرْدِيهن ولا تَزَوّجوهنّ لأموالهن فعسى أموالهن أن تُطغِيَهن ولكن تَزَوّجوهن على الدِّين ولأَمَةٌ سوداءُ خَرْماءُ(٢) ذاتُ دِينٍ أفضلُ" .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿وَالْبَنِينَ﴾ عطف على ما قبـله . وواحد البنين آبن . قال الله تعالى مخبرا عن نوح : "إِنَّ آبْنِي مِنْ أَهْلِي" . وتقول فى التصغير « بُنَىّ » كما قال لقمان . وفى الخبر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال للأشعث بن قيس : "هَلْ لك من آبنة حمزة من

(١) ترب الرجل : افتقر ، أى لصق بالتراب؛ وأترب إذا استغنى . وهـذه الكلمة جارية على ألسنة العرب ، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر به؛ كما يقولون : قاتله الله فى مقام الثناء والمدح .

(٢) خرماء : مقطوعة بعض الأنف ومثقوبة الأذن .

ولد"؟ قال؟ نعم، لى منها غلام ولوددتُ أنّ لى به جَفْنةً من طعام أُطعمها مَنْ بقِى من بنى جَبَلة.
فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: "لئن قلتَ ذلك إنهم لثمرةُ القلوب وقُرّة الأعين وإنهم مع ذلك لمجبنةٌ مبخلةٌ محزنةٌ (١) ".

الرابعــة ـ قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ القناطير جمع قنطار، كما قال تعالى: «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا» وهو العُقدة الكبيرة من المـال، وقيـل: هو اسم للعيار الذى يوزن به؛ كما هو الرطل والربع. ويقال لِمَـا بلغ ذلك الوزنَ: هذا قنطار، أى يعدل القنطار. والعرب تقول: قَنْطَرَ الرجلُ اذا بلغ مالُه [أن] يوزَنَ بالقنطار. وقال الزجّاج: القِنْطار مأخوذ من عَقْد الشىء وإحكامه؛ تقول العرب: قَنْطرتُ الشىء إذا أحكمته؛ ومنه سمِّيت القنطرةُ لإحكامها. قال طَرَفة:

كقنطرة الرومىّ أقسم رَبُّها * لَتُكْتَنَفَنْ حتى تُشَاد بقَرْمَدِ (٢)

والقنطرة المعقودة؛ فكأنّ القنطار عَقْدُ مال. واختلف العلماء فى تحرير حدّه كم هو على أقوال عديدة؛ فروى أُبَىّ بن كعب عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال: " القنطار ألفُ أُوقيّة ومائتا أُوقيّة"؛ وقال بذلك مُعاذ بن جَبَل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وجماعة من العلماء. قال ابن عطيّة: «وهو أصح الأقوال. لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد فى قدر الأوقيّة». وقيل: اثنا عشر ألف أُوقيّة؛ أسنده البُسْتىّ فى مسنده الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " القِنْطارُ اثنا عشر ألف أُوقيّة الأُوقيّة خيرٌ ممـا بين السماء والأرض ". وقال بهـذا القول أبو هريرة أيضا. وفى مسـند أبى محمد الدارمىّ عن أبى سعيد الخُدْرىّ قال: «من قرأ فى ليلة عشر آيات كُتِب من الذاكرين، ومن قرأ بمائة آية كُتب من القانتين، ومن قرأ بخمسمائة آية الى الألف أصبح وله قنطارٌ من الأجر. قيـل: وما القنطار؟ قال: ملء مَسْك ثَوْرٍ ذهبًا». موقوف؛ وقال به أبو نَضْرةَ العَبْدىّ. وذكر

---

(١) أى ان الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفا من الموت فيصيب أبناءهم اليتم وآلامه، ويجعلونهم يبخلون فلا ينفقون فى الجهاد خشية أن ينفق فيه إيثارا لهم بالمال، ويجعلونهم يحزنون عليهم ان أصابهم مرض ونحوه.
(٢) القرمد: الآجر والحجارة.

ابن سيده أنه هكذا بالسريانية . وقال النقاش عن ابن الكلبي أنه هكذا بلغة الروم . وقال ابن عباس والضحاك والحسن : ألف ومائتا مثقال من الفضة ؛ ورفعه الحسن . وعن ابن عباس : اثنا عشر ألف درهم من الفضة ، ومن الذهب ألف دينار دية الرجل المسلم ؛ وروى عن الحسن والضحاك . وقال سعيد بن المسيب : ثمانون ألفا . قتادة : مائة رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة . وقال أبو حمزة الثمالي[1] : القنطار بإفريقية والأندلس ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة . السدي : أربعة آلاف مثقال . مجاهد: سبعون ألف مثقال ؛ وروى عن ابن عمر . وحكى مكي قولا أن القنطار أربعون أوقية من ذهب أو فضة؛ وقاله ابن سيده في المحكم، وقال : القنطار بلغة بربر ألف مثقال . وقال الربيع ابن أنس : القنطار المال الكثير بعضه على بعض؛ وهذا هو المعروف عند العرب، ومنه قوله : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا » أي مالا كثيرا . ومنه الحديث : " إن صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطر أبوه " أي صار له قنطار من المال . وعن الحكم : القنطار هو ما بين السماء والأرض . واختلفوا في معنى «المقنطرة» فقال الطبري وغيره : معناه المضعفة، وكأن القناطير ثلاثة والمقنطرة تسع . وروى عن الفراء أنه قال : القناطير جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فيكون تسع قناطير . السدي : المقنطرة المضروبة حتى صارت دنانير أو دراهم . مكي : المقنطرة المكملة ؛ وحكاه الهروي ؛ كما يقال : بدر مبدرة ، وآلاف مؤلفة . وقال بعضهم . ولهذا سمي البناء القنطرة لتكاثف البناء بعضه على بعض . ابن كيسان والفراء : لا تكون المقنطرة أقل من تسعة قناطير . وقيل : المقنطرة إشارة إلى حضور المال وكونه عتيدا . وفي صحيح البستي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين " .

---

(١) الثمالي (بضم المثلثة وتخفيف الميم ولام) : نسبة الى ثمالة بطن من الأزد .

الخامسة ـ قوله تعالى : ﴿ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ ﴾ الذهب مؤنثة [(١)] ؛ يقال : هي الذهب الحسنةُ ، جمعها ذِهابٌ [(٢)] وذُهُوب . ويجوز أن يكون جمعَ ذهبة ، ويجمع على الأذهاب . وذَهَب فلان مذهبًا حسنًا . والذهب : مكيالٌ لأهل اليمن . ورجلٌ ذَهِبٌ إذا رأى مَعْدِنَ الذَّهَب فدَهِش . والفضّة معروفة ، وجمعها فِضَضٌ . فالذَّهَبُ مأخوذةٌ من الذَّهاب ، والفضّةُ مأخوذةٌ من انفضّ الشيءُ تفرّق ؛ ومنه فَضَضْتُ القوم فانفضّوا ، أي فرّقتهم فتفرّقوا . وهـذا الاشتقاق يُشعر بزوالها وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد في الوجود . ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قولُ بعضهم :

النـارُ آخرُ دينـارٍ نطقتَ به * والهَمّ آخرُ هذا الدِّرْهَمِ الجاري

والمرءُ بينهما إن كان ذا وَرَعٍ * مُعذَّبُ القلبِ بين الهَمِّ والنار

السادسة ـ قوله تعالى : ﴿ وَالخَيْلِ ﴾ الخيلُ مؤنثة . قال ابن كَيْسان : حُدِّثت عن أبي عُبيدة أنه قال : واحد الخيل خائل ، مثل طائر وطير ، وضائن وضَين ؛ وسُمّي الفرسُ بذلك لأنه يختال في مشيه . وقال غيره : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، واحده فرس ، كالقوم والرهط والنساء والإبل ونحـوها . وفي الخبر من حديث عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق الفرسَ من الرِّيح ولذلك جعلها تطير بلا جَناح" . وَهْبُ بن مُنَبِّه : خلقها من رِيح الجَنُوب ، قال وَهْب : فليس تسبيحةٌ ولا تكبيرةٌ ولا تهليلةٌ يكبّرها صاحبها إلا وهو يسمعها فيجيبه بمثلها " . وسيأتي لذكر الخيل ووصفها في سـورة «الأنفال» ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى . وفي الخبر : " إن الله تعالى عرَض على آدم جميع الدوابّ ، فقيل له : اخترْ منها واحدًا فاختار الفرس ؛ فقيل له : اخترتَ عِزّك ؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه . وسمّيت خيلًا لأنها موسومة بالعِزّ فمن ركبـه اعتزّ بنِحْلة الله له ويختال به على أعداء الله تعالى . وسمّي فرسًا

---

(١) هذا رأي المؤلف ، وقد ذكره شارح القاموس (في مادة ذهب) . والمشهور أن الذهب يذكر ويؤنث كما هو مفصل في معجمات اللغة .

(٢) هذا ما ورد في الأصول : والذي في معجمات اللغة أن الذهب يجمع على أذهاب وذهوب وذهبان (بكسر أوله) كبرق وبرقان وذهبان (بضم أوله) كحمل وحملان . فلعل «ذهاب» التي وردت في الأصول محرفة عن «ذهبان» .

لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا ، ويقطعها كالالتهام بيديه على شيء خبطًا وتناولًا . وسمى عربيًّا لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت؛ وإسماعيل عربي؛ فصارت نحلة من الله فسمى عربيًّا . وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل الشيطان دارا فيها فرس عتيق" . وإنما سمى عتيقا لأنه قد تخلص من الهجانة(١) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "خير الخيل الأدهم الأقرح الأرثم(٢) [ثم الأقرح المحجّل](٣) طلق اليمين فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية" . أخرجه الترمذي عن أبي قتادة . وفى مسند الدارمي عنه أن رجلا قال : يا رسول الله، إني أريد أن أشتري فرسا [فأيها أشترى](٤) ؟ قال : "اشتر أدهم أرثم محجلًا(٥) طلق اليمنى أو من الكميت على هذه الشية تغنم وتسلم" . وروى النسائي عن أنس قال : لم يكن أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل . وروى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر ولرجل وزر" الحديث بطوله ، شهرته أغنت عن ذكره . وسيأتي ذكر أحكام الخيل في «الأنفال» و «النحل» بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾ يعني الراعية في المروج والمسارح؛ قاله سعيد ابن جبير . يقال : سامت الدابة والشاة إذا سرحت تسوم سوما فهي سائمة وأسمتها إذا تركتها لذلك فهي مسامة . وسومتها تسويما فهي مسومة . وفى سنن ابن ماجه عن علي قال : نهى

---

(١) الهجين الذي ولدته برذونة من حصان عربي .

(٢) الأقرح : ما في جبهته قرحة ، وهي بياض يسير في وجه الفرس دون الغرة . والأرثم : أبيض الأنف والشفة العليا . والمحجل : أن تكون قوائمه الأربع بيضا يبلغ منها ثلث الوظيف (مستدق الذراع والساق أو ما فوق الرسغ إلى الساق) أو نصفه أو ثلثيه بعد أن يتجاوز الأرساغ ولا يبلغ الركبتين والعرقوبين . وطلق اليمين : لا تحجيل فيها . والكميت : ما لونه بين السواد والحمرة . والشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره .

(٣) زيادة عن سنن الترمذي .

(٤) زيادة عن مسند الدارمي .

(٥) في مسند الدارمي والأصول : « محجل » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السَّوْم[1] قبل طلوع الشمس، وعن ذبح ذوات الدَّرّ . السَّوْم هنا فى معنى الرَّعْى . وقال الله عز وجل : « فِيهِ تُسِيمُونَ » . قال الأخطل :

مثل ابنِ بَزْعة[2] أو كآخَرَ مثلِه * أَوْلَى لكَ[3] ابنَ مُسِيمةِ الأجمالِ

أراد ابن راعية الإبل . والسَّوَام : كل بهيمة ترعى ، وقيل : المُعَدّة للجهاد ؛ قاله ابن زيد . مجاهد : المُسَوَّمة المُطَهَّمة الحسانُ . وقال عِكرمة : سوّمها الحُسْنُ ؛ واختاره النحّاس ، من قولهم : رجلٌ وَسِيم . ورُوِى عن ابن عبّاس أنه قال : المُسَوَّمة المُعْلَمَةُ بشيات الخيل فى وجوهها، من السيما وهى العلامة . وهذا مذهب الكِسائىّ وأبى عبيدة .

قلت : كل ما ذُكر يحتمله اللفظ، فتكونُ راعيةً مُعَدَّةً حِسانًا مُعْلَمةً لتُعرَف من غيرها . قال أبو زيد : أصل ذلك أن تجعل عليها صوفة أو علامة تخالف سائر جسدها لتبين من غيرها فى المرعى . وحكى ابن فارس اللغوىّ فى مُجْمَله : المسوَّمة المُرْسَلَة وعليها رُكبانها . وقال المؤرِّج[4] : المسوَّمة المكْوِيّة . المبرّد : المعروفة فى البلدان . ابن كيسان : البُلْق . وكلها متقارب من السيما . قال النابغة :

بِضُمْرٍ كالقِدَاح مُسَوَّماتٍ * عليها مَعْشَرٌ أشباهُ جِنِّ

الثامنــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ قال ابن كيسان : إذا قلت نَعَمٌ لم تكن إلا للإبل، فإذا قلت أنعامٌ وقعت للإبل وكل ما يرعى . قال الفرّاء : هو مُذَكَّر ولا يؤنّث ؛ يقولون :

---

(١) فى حاشية السندى على سنن ابن ماجه واللسان (مادة سوم) عند الكلام عن هذا الحديث : « السوم : أن يساوم بسلعته ، ونهى عن ذلك فى ذلك الوقت لأنه وقت يذكر الله فيه فلا يشتغل بغيره . ويحتمل أن المراد بالسوم الرعى ؛ لأنها اذا رعت الرعى قبل شروق الشمس عليه وهو ندٍ أصابها منه داء قتلها ؛ وذلك معروف عند أهل المال من العرب » .

(٢) كذا فى ديوانه . ورواية الأغانى (ج ٨ ص ٣١٩ طبع دار الكتب المصرية) : « كابن البزيعة ... » والذى فى الأصول : « مثل ابن زرعة ... » . ويعنى بابن بزعة : شداد بن المنذر أخا حصين الذهلى . وقوله « كآخر مثله » يعنى حوشب بن رؤيم .

(٣) أولى لك : ويل لك ، فهى كلمة تقال فى مقام التهديد والوعيد . وقال الأصمعى : معناه قاربه ما يهلكه ، أى نزل به .

(٤) المؤرج (كمحدث) : أبو فيد عمرو بن الحارث السدوسى النحوى البصرى ، أحد أئمة اللغة والأدب .

هـذا نَعَمٌ وارِدٌ ، ويجمع أنعامًا . قال الهَرَوِىّ : والنَّعَم يذكّر ويؤنّث ، والأنعام المواشى من الإبل والبقر والغنم ؛ وإذا قيل : النعم فهو الإبل خاصة . وقال حسان :

وكانت لا يزال بها أنِيسٌ * خِلاَلَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشَاءُ

وفى سنن ابن ماجه عن عُرْوة البارِقِىّ يرفعه قال : " الإبلُ عِزٌّ لأهلها والغنم بركةٌ والخيرُ معقودٌ فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة " . وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشاة من دوابّ الجنّة " . وفيه عن أبى هُرَيرة قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأغنياء باتّخاذ الغنم ، والفقراءَ باتخاذ الدّجاج ، وقال : عند اتّخاذ الأغنياءِ الدَّجاجَ يأذَن الله بهلاك القرى . وفيه عن أُمّ هانِئ أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لها : "اتّخذِى غَنَمًا فإنّ فيها بركةً" . أخرجه عن أبى بكر بن أبى شَيْبة عن وكيع عن هِشَام بن عُرْوة عن أبيه عن أُمّ هانئ ، إسناد صحيـــح .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ الحرث هنا اسم لكل ما يُحْرَث ، وهو مصدر سُمِّى به ؛ تقـول : حَرَث الرجل حَرْثًا إذا أثار الأرض بمعنى الفِلاَحة ؛ فيقع اسم الحِرَاثة على زرع الحبوب وعلى الجنّات وعلى غير ذلك من نوع الفِلاَحة . وفى الحديث : " أُحْرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدا " . يقال حَرَثْتُ واحترثت . وفى حديث عبـد الله " أَحْرِثُوا هذا القرآنَ " أى فتّشوه . قال ابن الأعرابى : الحرث التفتيش . وفى الحديث : "أصدقُ الأسماء الحارثُ" لأن الحـارث هو الكاسب . واحترات المـال كسبُه . والمِحْرَاث مِسْعَر النار . والمحراث مجـرى الوَتَر فى القوس ، الجمع أَحْرِثَة . وأحرث الرجل ناقته هَزَلها . وفى حديث معاوية : ما فعلت نواضحكم[(1)] ؟ قالوا : حَرَثْناها يوم بدر . قال أبو عبيـد : يعنون هزلناها ؛ يقال : حرثْتُ الدابة وأحْرَثتها ، لغتان . وفى صحيح البخارى عن أبى أُمَامة الباهِلِىّ قال وقد رأى سِكّةً[(2)]

(١) النواضح من الإبل التى يستقى عليها ؛ واحدها ناضح . والخطاب للأنصار ؛ وقد قعدوا عن تلقيه لما حج ؛ وأراد معاوية بذكر نواضحهم تقريعا لهم وتعريضا ؛ لأنهم كانوا أهل زرع وحرث وسق ؛ فأجابوه بما أسكته ؛ فهم يريدون بقولهم « حرثناها يوم بدر » التعريض بقتل أشياخه يوم بدر . (عن نهاية ابن الأثير) .

(٢) السكة (بكسر السين وتشديد الكاف المفتوحة) : الحديدة التى تحرث بها الأرض .

وشيئاً من آلة الحرث فقال سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يدخلُ هـذا بيتَ قومٍ إلّا دخله الذُّلّ " . إنّ الذلّ هنا ما يلزَم أهلَ الشغل بالحرث من حقوق الأرض التى يطالبهم بها الأئمة والسلاطين . وقال المهلّب : معنى قوله فى هـذا الحديث والله أعلم الحضُّ على معالى الأحـوال وطلبُ الرزق من أشرف الصناعات ؛ وذلك لِـمَا خشى النبىّ صلى الله عليه وسلم على أُمّته من الاشتغال بالحَرْث وتضييع ركوب الخيل فى سبيل الله ؛ لأنهم إن اشتغلوا بالحرث غلبتهم الأُمَم الراكبة للخيل المتعيِّشة من مكاسبها ؛ فحضهم على التعيُّش من الجهاد لا من الخـلود[1] إلى عمارة الأرض ولزوم المِهْنة . ألَا ترى أنّ عمر قال : تمعددوا[2] واخْشَوشِنُوا واقطعوا الركب[3] وثِبُوا على الخَيْل وَثْبًا لا تغلبنّكم عليهـا رُعاة الإبل . فأمرهم بملازمة الخيل ، ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ما مِن مسـلم غرس غَرْسًا أو زَرَع زرعًا فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة " .

قال العلماء : ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المـال كل نوع من المـال يتموّل به صنفٌ من الناس . أمّا الذهب والفضة فيتموّل بها التجار . وأمّا الخيل المسوّمة فيتموّل بها الملوك . وأمّا الأنعام فيتموّل بها أهل البَوَادى . وأمّا الحَرث فيتموّل به أهل الرساتيق[4] . فتكونُ فتنة كل صنف فى النوع الذى يتموّل به . فأمّا النساء والبنون ففتنة للجميع .

العاشرة ــ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى ما يُمَتَّع به فيها ثم يذهب ولا يبقى . وهذا منه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة . روى ابنُ ماجه وغيره عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنمـا الدنيا متاعٌ وليسَ من متاع الدنيا شىء أفضل من المرأة الصالحة " . وفى الحديث : " ازْهَدْ فى الدنيـا يُحِبّك الله " أى فى متاعها من الجـاه والمـال الزائد على الضرورىّ . قال صلى الله عليه وسلم : " ليس لابن آدم حقٌّ فى سوَى هذه

(١) اللغة الفصحى « من الإخلاد » . (٢) يقال : تمعدد الغلام اذا شب وغلظ . وقيل : المراد تشبهوا بعيش معدّ بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقشف ؛ أى كونوا مثلهم ودعوا التنعم وزى العجم . (٣) فى مسند الامام أحمد بن حنبل = « وألقوا الركب » . ولم نوفق للمراد منه . (٤) الرساتيق : السواد والقرى واحدها رستاق .

الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجِلْف الخبز والماء"[1] أخرجه الترمذى من حديث المِقْدام بن مَعْدِيكَرِب . وسئل سهل بن عبد الله : بِمَ يسهُل على العبد تركُ الدنيا وكلِّ الشهوات؟ قال : بتشاغله بما أُمِر به .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ ابتداء وخبر . والمآب المرجع ؛ آب يؤوب إيابا إذا رجع . قال امرؤ القيس :

وقد طَوَّفْتُ فى الآفاق حتّى * رَضِيتُ من الغنيمة بالإياب

وقال آخر :

وكُلُّ ذى غَيبة يؤوبُ * وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

وأصل مآب مَأْوَب ، قُلبت حركة الواو إلى الهمزة وأُبدل من الواو ألف ، مثل مَقَال . ومعنى الآية تقليلُ الدنيا وتحقيرها والترغيب فى حسن المرجع إلى الله فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١٥)

منتهى الاستفهام عند قوله : « مِنْ ذٰلِكُمْ » . « لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا » خبر مقدم ، « وجَنَّاتٌ » رفع بالابتداء . وقيل : منتهاه « عِنْدَ رَبِّهِمْ » . و« جَنَّاتٌ » على هذا رُفع بإضمار مضمر تقديره ذلك جنّات . ويجوز على هذا التأويل « جنّاتٍ » بالخفض بدلًا من « خَيْرٍ » ولا يجوز ذلك على الأوّل . قال ابن عطيّة : وهذه الآية والتى قبلها نظير قوله عليه السلام : "تُنكَح المرأة لأربع لمالها وحَسَبها وجمالها ودينها فاظْفَرْ بذات الدِّين تَرِبت يداك"[2] خرّجه مسلم وغيره . فقوله "فاظفر بذات الدِّين" مثال لهذه الآية . وما قبلُ مثالٌ للأولى . فذكر تعالى هذه تسليةً عن الدنيا وتقويةً لنفوس تاركيها . وقد تقدّم فى البقرة معانى ألفاظ هذه الآية .

---

(١) الجلف (بكسر فسكون) : الخبز وحده لا أدم معه ، وقيل : هو الخبز الغليظ اليابس .

(٢) راجع حاشية ٤ ص ٣٩ من هذا الجزء .

والرِّضْوان مصدرٌ من الرِّضا، وهو أنه إذا دخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ يقول الله تعالى لهم "تُريدون شيئا أزيدُكم "؟ فيقولون : يا ربّنا وأىُّ شىء أفضل من هذا ؟ فيقول : " رضاى فلا أسْخَط عليكم بعده أبدا " خرّجه مسلم . وفى قوله تعالى : « وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ » وعدٌ ووعيدٌ .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿الذين﴾ بدل من قوله « لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا » وإن شئت كان رفعًا أى هم الذين، أو نصبا على المدح . ﴿ رَبَّنَا ﴾ أى يا ربّنا . ﴿ إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ أى صدّقنا . ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ دعاء بالمغفرة . ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ تقدّم فى البقرة[(١)] . ﴿ الصَّابِرِين ﴾ يعنى عن المعاصى والشهوات، وقيل : على الطاعات . ﴿ والصَّادِقِينَ ﴾ أى فى الأفعال والأقوال. ﴿ وَٱلْقَانِتِينَ ﴾ الطائعين . ﴿ والْمُنْفِقِينَ ﴾ يعنى فى سبيل الله . وقد تقدّم فى البقرة[(٢)] هذه المعانى على الكمال . ففسر تعالى فى هذه الآية أحوال المتّقين الموعودين بالجنّات .

واختُلف فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ فقال أنس بن مالك : هم السائلون المغفرة . قتادة : المصلّون .

قلت : ولا تناقض، فإنهم يصلّون ويستغفرون . وخُصّ السَّحر بالذكر لأنه مظّانّ القبول ووقت إجابة الدعاء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى مخبرًا عن يعقوب عليه السلام لبنيه : « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى » : "إنّه أخّرذلك الى السَّحَر" خرّجه الترمذىّ وسيأتى . وسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم جبريل "أىّ الليل أسْمع " ؟ فقال : " لا أدرى غير أنّ العرش يهتزّ عند السَّحَر " . يقال سَحَرٌ وسَحْرٌ، بفتح الحاء وسكونها . وقال الزجاج: السحر من حين يُدبر الليل الى أن يطلع الفجر الثانى . وقال ابن زيد : السحر هو سُدس الليل الآخر.

(١) راجع المسألة الثانية جـ ٢ ص ٤٣٣ طبعة ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٠٧٨، ١٠٧٩، ٢٢٣، ٣٧٦، وراجع المسألة الخامسة جـ ٣ ص ٢١٠٣

قلت : أصحّ من هذا ما روى الأئمة عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ينزل الله عزّ وجلّ الى سماء الدنيا كلّ ليلة حين يمضى ثلث الليل الأوّل فيقول أنا الملك أنا الملك مَنْ ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيه من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر" فى رواية « حتى ينفجر الصبح » لفظ مسلم . وقد اختلف فى تأويله؛ وأولى ما قيل فيه ما جاء فى كتاب النسائىّ مفسّرا عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ الله عزّ وجلّ يُمهل حتى يمضى شطرُ الليل الأوّل ثم يأمر مُناديا فيقول هل من داعٍ يستجاب له هل من مُستغفِر يُغفَر له هل من سائل يُعطَى" . صحّحه أبو محمد عبد الحقّ، وهو يرفع الإشكال ويوضح كلّ احتمال، وأنّ الأوّل من باب حذف المضاف؛ أى ينزل مَلَك ربّنا فيقول . وقد رُوى «يُنزِل» بضم الياء، وهو يبيّن ما ذكرنا؛ وبالله توفيقنا . وقد أتينا على ذكره فى «الكتاب الأسنَى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العُلَى» .

مسألة — الاستغفار مندوب إليه، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين فى هذه الآية وغيرها فقال : «وبِالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» . وقال أنس بن مالك : أمرنا أن نستغفر بالسحر سبعين استغفارة . وقال سُفيان الثَّورىّ : بلغنى أنه إذا كان أوّل الليل نادى مُنادٍ لِيقُمِ القانتون فيقومون كذلك يصلّون إلى السَّحر . فإذا كان عند السحر نادى منادٍ أين المستغفرون فيستغفر أُولئك و يقوم آخرون فيصلّون فيلحقون بهم . فإذا طلع الفجر نادى منادٍ : ألاَ ليقم الغافلون فيقومون من فُرُشهم كالموتى نُشِروا من قبورهم . ورُوى عن أنس سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله يقول إنّى لأهُمّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرتُ إلى عُمّار بيوتى وإلى المتحابّين فىّ وإلى المتهجّدين والمستغفرين بالأسحار صرفتُ عنهم العذاب بهم" . قال مكحول : إذا كان فى أُمّة خمسة عشر رجلا يستغفرون الله كل يوم خمسا وعشرين مرّة لم يؤاخذ الله تلك الأُمّة بعذاب العامّة . ذكره أبو نُعَيم فى كتاب الحِلْية له . وقال نافع : كان ابن عمر يقوم الليل ثم

يقول : يا نافع أسحرنا ؟ فأقول لا . فيعاود الصلاة ثم يسأل ، فإذا قلت نعم قعد يستغفر .
وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحية المسجد يقول :
يا ربّ، أمرتنى فأطعتك، وهذا سحر فاغفر لى . فنظرتُ فإذا ابن مسعود .

قلت : فهذا كله يدل على أنه استغفار باللسان مع حضور القلب ، لا ما قال ابن زيد أن المراد بالمستغفرين الذين يصلّون صلاة الصبح فى جماعة . والله أعلم . وقال لقمان لابنه : "يا بنىّ لا يكن الديك أكيس منك ، ينادى بالأسحار وأنت نائم" . والمختار من لفظ الاستغفار ما رواه البخارىّ عن شدّاد بن أوس ، وليس له فى الجامع غيره عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "سيّد الاستغفار أن تقول اللهمّ أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعتُ أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت — قال — ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة" . وروى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث ابن لهيعة عن أبى صخر عن أبى معاوية عن سعيد بن جبير عن أبى الصهباء البكرىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ثم قال : "ألا أعلّمك كلمات تقولهن لو كانت ذنوبك كَدَبّ النمل — أو كدبّ الذرّ — لغفرها الله لك على أنه مغفور لك : اللهمّ لا إله إلا أنت سبحانك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" .

قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية خرّرن سجّدا . وقال الكلبىّ : لمّا ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه

حَبْرَان من أحبارأهل الشام ؛ فلمّا أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ الذى يخرج فى آخر الزمان! . فلما دخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له : أنت محمد ؟ قال "نعم". قالا : وأنت أحمد ؟ قال "نعم". قالا : نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدّقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَلَانِى". فقالا : أخبرنا عن الأعظم شهادة فى كتاب الله . فأنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وسلم « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ » فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن المراد بأُولِى العلم الأنبياء عليهم السلام . وقال ابن كَيْسان : المهاجرون والأنصار . مُقَاتِل : مؤمنو أهل الكتاب . السُّدّى والكلبىّ : المؤمنون كلهم؛ وهو الأظهر لأنه عام .

الثانيــــة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء؛ فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهــم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلمــاء . وقال فى شرف العلم لنبيّه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » . فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم . وقال صلى الله عليه وسلم : "إنّ العلماء وَرَثةُ الأنبياء" . وقال : "العلماء أُمَناء الله على خَلْقه" . وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحل لهم فى الدِّين خطير . وخرّج أبو محمد عبد الغنىّ الحافظ من حديث بَرَكة ابن نَشِيط — وهو عنكل بن حكارك وتفسيره بركة بن نشيط —وكان حافظا، حدّثنا عمر بن المؤمّل حدّثنا محمــد بن أبى الخَصِيب حدّثنا عنكل حدّثنا محمــد بن إسحاق حدّثنا شَرِيك عن أبى إسحاق عن البَرَاء قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "العلماءُ ورثة الأنبياء يحبّهم أهل السماء و يستغفر لهم الحيتانُ فى البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة" . وفى هذا الباب [حديث] عن أبى الدرداء خرّجه أبو داود .

الثالثــــة — رَوى غالب القَطّان قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبًا من الأعمش فكنت أختلف اليه . فلما كان ليلة أردت أن أنحــدر الى البَصْرة قام فتهجّد من الليل فقرأ بهــذه الاية « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

العزيزُ الحكيمُ . إنّ الدّينَ عندَ الله الإسلامُ» ؛ قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هـذه الشهادة وهي لي وديعة ، وأن الدين عند الله الإسلام ــ قالها مرارا ــ فغدوت إليه وودّعته ثم قلت : إني سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدّثني به . قال : والله لاحدّثتك به سنةً . قال : فأقمت وكتبت على بابه ذلك اليوم . فلما مضت السـنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة . قال : حدّثني أبو وائل عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "يُجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى عبـدي عهد إليّ وأنا أحقّ مَنْ وَفّى أدْخلوا عبدي الجنة" . قال أبو الفرج الجَوْزي : غالب القطّان هو غالب بن خطّاف[1] يروى عن الأعمش حديث "شَهد الله" ، وهو حديث مُعضَل[2] . قال ابن عَدِيّ الضعف على حديثه بيّن . وقال أحمد بن حنبل : غالب بن خطّاف القطّان ثقة ثقة . وقال ابن مَعين : ثِقةٌ . وقال أبو حاتم : صَدُوقٌ صالح .

قلت : يكفيك من عَدالته وصدقه وثقته أنْ خرّج له البخاري ومسلم في كتابيهما ، وحَسْبُك . ورُوى من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ قرأ شَهد اللهُ أنه لا إلهَ إلّا هو والملائكةُ وأولو العـلم قائمًـا بالقسط لا إلهَ إلّا هو العزيز الحكيم عند مَنامه خلق الله له سبعين ألف مَلَك يستغفرون له إلى يوم القيامة" . ويقال : مَنْ أقرّ بهذه الشهادة عن عَقْد من قلبه فقـد قام بالعدل . ورُوى عن سعيد بن جُبَير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حيّ من أحياء العرب صنمٌ أو صنمان ، فلمّا نزلت هذه الآية أصبحت الأصنام قد خرّت ساجدةً لله .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ أي بيّن وأعلم ؛ كما يقال : شهد فلان عند القاضي إذا بيّن وأعلم لمن الحقّ أو على من هو . قال الزجّاج : الشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبيّنه ؛ فقد دلّنا الله تعالى على وحدانيته بمـا خلق وبيّن . وقال أبو عُبَيْدة : « شَهد اللهُ » بمعنى قضى الله ؛ أي أعلم . قال ابن عطيّة : وهذا مردود من جهات . وقرأ الكِسائيّ بفتح « أنّ » في قوله

(١) بضم الخاء ، وقيل بفتحها . (٢) المعضل من الحديث : ما سقط من إسناده اثنان فصاعداً .

« أنّه لا إلٰه إلّا هُوَ » وقوله « أنّ الدِّينَ » . قال المبرّد : التقدير : أنّ الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو ، ثم حذفت البـاء كما قال : أمرتُك الخيرَ أى بالخير . قال الكسائىّ : أنْصبهما جميعا ، بمعنى شهد الله أنه كذا ، وأنّ الدين عند الله . قال ابن كَيْسان : « أنّ » الثانية بدل من الأولى ؛ لأنّ الإسلام تفسير المعنى الذى هو التوحيد . وقرأ ابن عبّاس فيما حكى الكسائىّ « شَهِدَ اللهُ إنّهُ » بالكسر « أنّ الدين » بالفتح . والتقدير : شهد الله أن الدين الإسلام ، ثم ابتدأ فقال : إنّه لا إله إلا هو . وقرأ أبو المهلّب وكان قارئا — شُهَدَاءَ اللهِ بالنصب على الحال ، وعنه « شُهَدَاءُ الله » . وروى شُعْبة عن عاصم عن زِرّ عن أُبَىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ « أن الدِّين عند الله الحَنِيفيّةُ لا اليهودية ولا النّصْرانية ولا المَجُوسيّة » . قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا يخفى على ذى تمييز أنّ هذا كلام من النبىّ صلى الله عليه وسلم على جهة التفسير ، أدخله بعض من نقل الحديثَ فى القرآن . و ﴿ قَآئِمًا ﴾ نصب على الحال المؤكدة من اسمه تعـالى فى قوله « شَهِدَ اللهُ » أو من قوله « إِلّا هُوَ » . وقال الفـرّاء : هو نصب على القطع ، كان أصله القائم ؛ فلمّا قُطعت الألف واللام نُصب كقوله : « وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا » . وفى قراءة عبـد الله « القائمُ بالقِسْط » على النعت . والقِسـط العَدْل . ﴿ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ كرّر لأن الاولى حلّت محلّ الدعوى ، والشهادةُ الثانيـة حلّت محلّ الحكم . وقال جعفـر الصادق : الأُولى وصفٌ وتوحيد ، والثانيـةُ رسمٌ وتعليم ؛ يعنى قُولُوا لَآ إِلٰهَ إلا الله العزيز الحكيم .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلدِّينَ عِنـدَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْـدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾ الدِّين فى هذه الآية الطاعة والمِلّة ، والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ؛ قاله أبو العالية وعليـه جمهور المتكلمين . والأصل فى مسمّى الإيمان

والإسلام التغاير؛ لحديث جبريل[1] . وقد يكون بمعنى المرادفة، فيسمّى كل واحد منهما باسم الآخر؛ كما فى حديث وفد عبد القيس[2] وأنه أمرهم بالإيمان وحده وقال : "هل تدرون ما الإيمان"؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : "شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأن محمدا رسول الله وإقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة وصومُ رمضان وأن تؤدُّوا خُمُسًا من المغنم" الحديث . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "الإيمان بِضْعٌ وسبعون بابًا فأدناها إماطةُ الأذى وأرفعُها قولُ لا إله إلّا الله" أخرجه الترمذى . وزاد مسلم "والحياء شُعْبةٌ من الإيمان" . ويكون أيضا بمعنى التداخل، وهو أن يُطلَق أحدهما ويراد به مسمّاه فى الأصل ومسمّى الآخر، كما فى هذه الآية إذ قد دخل فيها التصديق والأعمال؛ ومنه قوله عليه السلام : "الإيمانُ معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان" . أخرجه ابن ماجه، وقد تقدّم . والحقيقة هو الأوّل وضعًا وشرعا، وما عداه من باب التوسّع . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ﴾ الآية . أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على علم منهم بالحقائق، وأنه كان بغيا وطلبا للدنيا؛ قاله ابن عمر وغيره . وفى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى : وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيًا بينهم إلّا من بعد ما جاءهم العلم؛ قاله الأخفش . قال محمد بن جعفر بن الزُّبَير : المراد بهذه الآية النصارى؛ وهو توبيخ لنصارى نَجْران . وقال الربيع بن أنس : المراد بها اليهود . ولفظُ الذين أُوتوا الكتاب يعمّ اليهود والنصارى؛ أى « وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب » يعنى فى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم « إلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءهمُ العلم » يعنى بيانَ صفته ونبوّته فى كتبهم . وقيل : أى وما اختلف الذين أوتوا الكتاب فى أمر عيسى وفرّقوا فيه القول إلا من بعد ما جاءهم العلم بأنّ الله إله واحد وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه . و « بَغْيًا » نصب على المفعول من أجله، أو على الحال من "الذين" . والله تعالى أعلم .

---

(١) راجع هذا الحديث فى صحيحى البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان الجزء الأول .

(٢) هو عبد القيس بن أفصى بن دعمى، أبو قبيلة، كانوا ينزلون البحرين وكان قدومهم عام الفتح وعلى رأسهم عبد الله بن عوف الأشج . (راجع كتاب الطبقات الكبير ج ١ قسم ثان ص ٥٤ طبع أوربا، وشرح القسطلانى ج ١ ص ١٩٢ طبع بلاق) .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى جادلوك بالأقاويل المزوّرة والمغالطات، فأسْنِدْ أمرك الى ما كُلِّفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرُك . وقوله «وَجْهِيَ» بمعنى ذاتى؛ ومنه الحديث "سَجَدَ وجهى للذى خلقه وصوّره" . وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد؛ كما تقول : خرج فلان فى وجه كذا . وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة[1] مستوفى؛ والأوّل أولى . وعبّر بالوجه عن سائر الذات إذ هو أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس . وقال :

أسلمتُ وَجْهِى لمن أسلمتْ * له المُزْنُ تحمِــل عَذْباً زُلالا

وقد قال حُذّاق المتكلمين فى قوله تعالى «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ» : إنها عبارة عن الذات؛ وقيل : العمل الذى يقصد به وجهه . وقوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » « مَنْ » فى محل رفع عطفا على التاء فى قوله « أَسْلَمْتُ » أى ومَنِ اتّبعن أسلم أيضا . وجاز العطفُ على الضمير المرفوع من غير تأكيد للفصل بينهما . وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء « اتّبعَنِى » على الأصل؛ وحذف الآخرون اتّباعا للمصحف إذ وقعت فيه بغير ياء . وقال الشاعر :

ليس تخفى يسارتى قدر يوم * ولقد تُخْفِ شيمتى إعسارى

قوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعنى اليهود والنصارى والأميّين الذين لا كتاب لهم وهو مشركو العرب . «أَأَسْلَمْتُمْ» استفهام معناه التقرير وفى ضمنه الأمر؛ أى أسلموا؛ كذا قال الطبرىّ وغيره . وقال الزجّاج : « أأسلمتم » تهديد . وهذا حسن؛ لأن المعنى أأسلمتم أم لا . وجاءت العبارة فى قوله « فَقَدِ اهْتَدَوا » بالماضى مبالغة فى الإخبار بوقوع الهدى لهم

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٥ طبعة ثانية .

وتحصُّله . و « البَلاغُ » مصدر بَلَغَ بتخفيف عين الفعل ، أى إنما عليك أن تبلغ . وقيل : إنه مما نُسخ بالجهاد . قال ابن عطيّة : «وهذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ؛ وأمّا على ظاهر نزول هذه الآيات فى وفد نَجْران فإنما المعنى فإنما عليك أن تبلّغ ما أُنزل إليك بما فيه من قتال وغيره » .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

فيه ستُّ مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ ﴾ قال أبو العبّاس المبرِّد : كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيّون يدعونهم الى الله عزّ وجل فقتلوهم ؛ فقام أُناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم ؛ ففيهم نزلت الآية . وكذلك قال مَعْقِل بن أبى مِسْكين : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجىء الى بنى إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم ، فيقوم قوم ممن ٱتّبعهم فيأمرون بالقسط ، أى بالعدل ، فيُقتَلون . وقد رُوى عن ابن مسعود قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "بئس القومُ قومٌ يقتلون الذين يأمرون الناس بالقسط من الناس بئس القومُ قومٌ لا يأمرون بالمعروف ولا يَنْهَوْنَ عن المنكر بئس القوم قومٌ يمشى المؤمن بينهم بالتَّقِيَّة" . وروى أبو عُبَيْدة بن الجرّاح أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أوّل النهار فى ساعة واحدة فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عبّاد بنى إسرائيل فأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر فقتِلوا جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية" . ذكره المَهْدَوىّ وغيره . وروى شُعْبة عن أبى إسحاق عن أبى عُبَيدة عن عبد الله قال : كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم سبعين نبياً ثم تقوم سُوقُ بَقْلهم من آخر

النهار. فإن قال قائل: الّذين وُعظوا بهذا لم يقتلوا نبياً. فالجواب عن هذا أنهم رَضُوا فعل من قَتَل فكانوا بمنزلته؛ وأيضا فإنهم قاتلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهمّوا بقتلهم؛ قال الله عزّ وجلّ: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ».

الثانيــة — دلّت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجبا في الأمم المتقدّمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوّة. قال الحسن قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفةُ الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه". وعن دُرّة بنت أبي لَهَب قالت: جاء رجل الى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال: مَنْ خيرُ الناس يارسول الله؟ قال: "آمَرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلُهم". وفي التنزيل: «وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ» ثم قال: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ». فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين؛ فدلّ على أن أخصّ أوصاف المؤمن الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء الى الإسلام والقتالُ عليه. ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان إذا كانت إقامةُ الحدود إليـه والتعزيرُ إلى رأيه والحبس والإطلاق له والنفي والتغريب؛ فيَنْصِب في كل بلدة رجلا صالحا قويّاً عالمـا أمينا ويأمره بذلك، ويُمضي الحدودَ على وجهها من غير زيادة. قال الله تعالى: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ».

الثالثــة — وليس من شرط الناهي أن يكون عدلًا عند أهل السنّة؛ خلافا للمبتدعة حيث تقول: لا يغيّره إلّا عدلٌ. وهذا ساقط؛ فإن العدالة محصورة في القليل من الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عامٌّ في جميع الناس. فان تشبّثوا بقوله تعالى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» وقوله: «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» ونحوه، قيل لهم: إنمـا وقع الذمّ هاهنا على ارتكاب ما نُهِي عنه لا على النهي عن المنكر. ولا شك في أن

النهى عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه، ولذلك يدور فى جهنم كما يدور الحمار بالرَّحَى ؛ كما بيّناه فى البقرة عند قوله تعالى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ »[1] .

الرابعــة ــ أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البرّ أنّ المنكر واجبٌ تغييرُه على كل من قدَر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللّوم الذى لا يتعـدّى إلى الأذى فإن ذلك لا ينبغى أن يمنعـه من تغييره؛ فإن لم يَقْدِرْ فبلسانه ، فان لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك . و إذا أنكر بقلبه فقد أدّى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك . قال : والأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى تأكيد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جدًّا ولكنها مقيَّدة بالاستطاعة . قال الحسن : إنما يُكَلَّمُ مؤمنٌ يُرْجَى أو جاهلٌ يُعَلَّم ؛ فأمّا من وَضَع سيفَه أو سوطه فقال : اتَّقِنِي اتَّقِنِي فما لك وله . وقال ابن مسعود : بِحَسْب المرء إذا رأى منكرًا لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلّبه أنه له كاره . وروى ابن لَهِيعة عن الأعرج عن أبى هُرَيرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يَحِـلّ لمؤمن أن يُذِلّ نفسَه" . قالوا : يارسول الله وما إذلالُه نفسه ؟ قال : "يتعرّض من البلاء لِمـا لا يقوم له" .

قلت : وخرّجه ابن ماجه عن علىّ بن زيد بن جُدْعان عن الحسن بن جُنْـدُب عن حُذَيفة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما قد تُكُلِّم فيه . ورُوى عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل اذا رأى منكرًا لا يستطيع النكيرَ عليه فليقل ثلاث مرات «اللّهم إنّ هذا مُنْكَرٌ» فاذا قال ذلك فقد فعـل ما عليه، وزعم ابن العربىّ أن من رجا زوالَه وخاف على نفسـه من تغييره الضربَ أو القتلَ جاز له عند أكثر العلماء الاقتحامُ عند هذا الغرر، وإن لم يرج زوالَه فأىّ فائدة عنده . قال : والذى عندى أن النيّة اذا خلَصت فليقتحم كيف ما كان ولا يُبَالِ .

قلت : هـذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع . وهـذه الآية تدلّ على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع خوف القتل . وقال تعالى : « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ » . وهذا إشارة إلى الإذاية .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٦٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

الخامســـة — روى الأئمة عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ رأى منكم مُنْكَرًا فلْيُغَيِّرْه بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمـان". قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء، يعني عوامّ الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهي فليفعله، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو القتل فليفعل، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل. وهـذا تُلُقِّيَ من قول الله تعالى: «فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ». وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائلَ على النفس أو على المـال عن نفسه أو عن ماله أو نفسِ غيره فله ذلك ولاشيءَ عليه. ولو رأى زيد عمرا وقد قصد مال بكر فيجب عليـه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المـال قادرا عليه ولا راضيًا به؛ حتى لقد قال العلماء: لو فرضنا (١)... وقيل: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء: إمامٌ عادل لا يظلم، وعالمٌ على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرصون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يتبرّجن تبرُّجَ الجاهليّة الأولى.

السادســـة — روى أنس بن مالك قال قيل: يا رسول الله، متى يُتْرَك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: "إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم". قلنا: يا رســول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: "المُلْكُ في صِغاركم والفاحشةُ في كِبَاركم والعلمُ في رُذَالتكم". قال زيد: تفسير معنى قول النبيّ صلى الله عليـه وسلم "والعلم في رُذَالتكم" إذا كان العـلم في الفسّاق. خرّجه ابن ماجه. وسيأتي لهـذا الباب مزيد بيان في «المـائدة» وغيرها إن شاء الله تعالى. وتقدّم معنى «فَبَشِّرْهُمْ» «وحَبِطَتْ» (٢) في البقرة فلا معنى للإعادة.

قوله تعـالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(١) بياض في أكثر الأصول. وفي نسخة: «لو فرضنا قودا». ولم نوفق للصواب فيه.

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة. وجـ ٣ ص ٤٨ طبعة أولى أو ثانية.

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قال ابن عبّاس : هذه الآية نزلت بسبب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيتَ المِدْرَاس على جماعة من يهود فدعاهم الى الله . فقال له نُعَيْم بن عمرو والحارث بن زيدٍ : على أىّ دين أنت يا محمد ؟ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إنى على مِلّة إبراهيم " . فقالا : فإن إبراهيم كان يهوديًّا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " فهلُمُّوا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم " . فأبَيَا عليه فنزلت الآية . وذكر النقّاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لهم النبىّ صلى الله علية وسلم : " هلمُّوا الى التوراة ففيها صفتى " فأبوا . وقرأ الجمهور « لِيَحْكُمَ » وقرأ أبو جعفر يزيد بن القَعْقَاع « لِيُحْكَمَ » بضم الياء . والقراءة الأولى أحسن ؛ لقوله تعالى : « هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » .

الثانيــة ــ فى هــذه الآية دليل على وجوب ارتفاع المدعو الى الحاكم لأنه دُعى الى كتاب الله ؛ فإن لم يفعل كان مخالفا يتعينّ عليــه الزجر بالأدب على قدر المخالِف والمخالَف . وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس وبلاد المغرب وليس بالديار المصرية . وهــذا الحكم الذى ذكرناه مبيَّن فى التنزيل فى سورة « النور » فى قوله تعــالى : « وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ــ الى قوله ــ بَلْ أُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »[1] . وأسند الزُّهْرىّ عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ دعاه خَصْمُه إلى حاكم من حكّام المسلمين فلم يُجِب فهو ظالم ولا حقَّ له " . قال ابن العربىّ : وهذا حديث باطل . أمّا قوله « فهو ظالم » فكلام صحيح . وأمّا قوله « فلا حَقّ له » فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد المالكىّ : واجبٌ على كل من دُعى إلى مجلس الحاكم أن يُجيب ما لم يعلم أنّ الحاكم فاسق أو يعلم عداوةً بين المُدَّعِى والمُدَّعَى عليه[2] .

الثالثــة ــ وفيهــا دليل على أن شرائع مَنْ قبلنا شريعةٌ لنا إلا ما عَلِمنا نسخَه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا ، على ما يأتى بيانه . وإنمــا لا نقرأ التوراة ولا نعمــل

(١) الآيات ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ (٢) تنتهى عبارة بن خويزمنداد فى تفسير البحر لأبى حيان عند قوله : « ما لم يعلم أن الحاكم فاسق » فما ورد فى الأصول بعد هذه الكلمة غير واضح .

بمـا فيها لأن من هي في يده غيرُ أمين عليها وقد غيّرها وبدّلها، ولو علمنا أن شيئا منها لم يتغيّر ولم يتبدّل جاز لنا قراءته . ونحو ذلك روى عن عمر حيث قال لكعب : إن كنتَ تعلم أنها التـوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران فاقرأها . وكان عليه السلام عالمـًا بما لم يُغيَّر منها فلذلك دعاهم إليها و إلى الحُكْم بهـا . وسيأتي بيان هـذا في « المـائدة » والأخبار الواردة في ذلك إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إن هذه الآية نزلت في ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّـارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْـدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

إشارة إلى التولّي والإعراض . واغترار منهم في قولهم : « نحن أبناء الله وأحبّاؤه » إلى غير ذلك من أقوالهم . وقد مضى الكلام في معنى قولهم : « لن تمسنا النار » في البقرة (١) .

قوله تعـالى : فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته على جهة التوقيف والتعجب، أي فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة واضمحلّت عنهم تلك الزخارف التي ادّعوها في الدنيا، وجُوزُوا بما اكتسبوه من كفرهم واجترائهم وقبيح أعمالهم . واللام في قوله «ليوم» بمعنى «في»؛ قاله الكسائي . وقال البصريون : المعنى لحساب يوم . الطبريّ : لمـا يحدث في يوم .

قوله تعـالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَـآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَـآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَـآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَـآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَـيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

(١) آية ٨٠ جـ ٢ ص ١٠ طبعة ثانية .

قال علىّ رضى الله عنه قال النبىّ صلىّ الله عليه وسلم : " لما أراد الله تعالى أن ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسى وشهد الله وقل اللّهمّ مالك الملك إلى قوله بغير حساب تعلّقن بالعرش وليس بينهن وبين الله حجاب وقلن يا ربّ تهبط بنا دارَ الذنوب وإلى من يعصيك فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا يقرأكنّ عبد عقِب كل صلاة مكتوبة إلّا أسكنته حظيرة القدس على ما كان منه وإلا نظرت إليه بعينِى المكنونة فى كل يوم سبعين نظرة وإلّا قضيت له فى كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرةُ وإلّا أعذته من كل عدوّ ونصرته عليه ولا يمنعه من دخول الجنة إلّا أن يموت " . وقال معاذ بن جبل : احتبست عن النبىّ صلى الله عليه وسلم يوما فلم أصلّ معه الجمعة فقال : " يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة " ؟ قلت : يا رسول الله، كان ليوحنا بن باريا اليهودىّ علىّ أُوقِيّة من تِبْر وكان على بابى يرصُدنى فأشفقت أن يحبسنى دونك . قال : " أتحب يا معاذ أن يقضى الله دينك " ؟ قلت نعم . قال : " قل كل يوم قل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب رَحْمٰنَ الدنيا والآخرة ورحيمَهما تُعطِى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء اقض عنى دينى فلو كان عليك ملء الأرض ذهبا لأدّاه الله عنك". خرّجه أبو نعيم الحافظ . أيضا عن عطاء الخُراسانىّ أن معاذ بن جبل قال : علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم آياتٍ من القرآن أو كلماتٍ ما فى الأرض مُسْلِمٌ يدعو بهن وهو مكروب أو غارم أو ذو دَيْن إلا قضى الله عنه وفرّج همّه، احتبست عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذكره . غريب من حديث عطاء أرسله عن معاذ . وقال ابن عباس وأنس بن مالك : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وواعد أمته مُلك فارس والروم قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ! من أين لمحمد ملك فارس والروم! هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكةُ والمدينةُ حتى طمع فى ملك فارس والروم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل : نزلت دامغةً لباطل نصارى أهل نجران فى قولهم : إن عيسى هو الله؛ وذلك أن هذه الأوصاف تبيّن لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس فى شىء منها . قال ابن إسحاق : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية بعنادهم وكفرهم . وأن عيسى صلى الله عليه وسلم وإن كان الله تعالى

أعطاه آياتٍ تدل على نبوّته من إحياء الموتى وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المنفرد بهذه الأشياء؛ من قوله : « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء» . وقوله : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق من تشاء بغير حساب» فلو كان عيسى إلهاً كان هذا إليه؛ فكان فى ذلك ٱعتبارٌ وآية بيّنة .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ ﴾ اختلف النحويون فى تركيب لفظة « اللهم » بعد إجماعهم أنها مضمومة الهاء مشدّدة الميم المفتوحة، وأنها منادى؛ وقد جاءت مخففة الميم فى قول الأعشى :

كدعوة من أبى رَبَاحٍ * يسمعها لَاهُمَ الكُبَارُ

قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم يا ألله ، فلما ٱستعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو «يا» جعلوا بدله هذه الميم المشدّدة فجاءوا بحرفين وهما الميمان عوضا من حرفين وهما الياء والألف ، والضمة فى الهاء هى ضمة الأسم المنادى المفرد . وذهب الفرّاء والكوفيون إلى أن الأصل فى اللهم يا ألله أُمَّنا بخير؛ فحذف وخلط الكلمتين، وأن الضمة التى فى الهاء هى الضمة التى كانت فى أُمَّنا لما حذفت الهمزة انتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطأ العظيم، والقول فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الزجاج : محال أن يترك الضم الذى هو دليل على النداء المفرد ، وأن يجعل فى ٱسم الله ضمة أُمّ ، هذا إلحاد فى ٱسم الله تعالى . قال ٱبن عطية : وهذا غلوّ من الزجاج، وزعم أنه ما سُمع قط يا أللهُ أُمّ، ولا تقول العرب يا اللهم . وقال الكوفيون : إنه قد يدخل حرف النداء على « اللهم » وأنشدوا على ذلك قول الراجز :

* غفرتَ أو عذّبت يا اللهُمّا * (١)

آخر :

وما عليك أن تقولى كلّما * سبّحتِ أو هلّلتِ يا اللهُمّا
أُرددْ علينا شيخنا مسلّما * فإننا من خيره أن نعدما

(١) ورد هذا الرجز فى لسان العرب (مادة أله) وليس فيه الشطر الأخير .

آخـر :

إنّى إذا ما حَـدَثٌ أَلَمّا * أقول يا اللّهُـمّ يا اللّهُمّا

قالوا : فلو كان الميم عوضاً من حرف النداء لما آجتمعتا . قال الزجاج : وهذا شاذ ولا يعرف قائله ، ولا يترك له ما كان فى كتاب الله وفى جميع ديوان العرب ؛ وقد ورد مثله فى قوله (١) :

هما نَفَثا فى فِيَّ من فَمَوَيْهما * على النابح العاوِى أشدَّ رِجامِ

قال الكوفيون : وإنما تزاد الميم مخففة فى فَمٍ وآبْنُمٍ ، وأما ميمٌ مشدّدةٌ فلا تزاد . وقال بعض النحويين : ما قاله الكوفيون خطأ ؛ لأنه لو كان كما قالوا كان يجب أن يقال : «اللهم» ويقتصر عليه لأنه معه دعاء . وأيضا فقد تقول : أنت اللهمّ الرزاق ، فلو كان كما آدّعوا لكنت قد فصلت بجملتين بين الآبتداء والخبر . قال النَّضْر بن شُميل : من قال اللهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه كلها . وقال الحسن : اللّهمّ تجمع الدعاء .

قوله تعالى : ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ قال قَتادة : بلغنى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل الله عز وجل أن يُعطى أمته مُلك فارس فأنزل الله هذه الآية . وقال مُقاتل : سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له مُلك فارس والروم فى أمته ؛ فعلّمه الله تعالى بأن يدعو بهذا الدعاء . وقد تقدم معناه . « ومالِكَ » منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ؛ ومثله قوله تعالى : « قلِ آللّهمّ فاطرَ آلسمواتِ والأرضِ » ولا يجوز عنده أن يوصف اللهم ؛ لأنه قد ضمّت إليه الميم . وخالفه محمد بن يزيد وإبراهيم بن السرىّ الزجاج (٢) فقالا : « مالكَ » فى الإعراب صفة لآسم الله تعالى ، وكذلك « فاطر السمواتِ والأرضِ » . قال أبو علىّ ؛ وهو مذهب

---

(١) القائل هو الفرزدق . وصف شاعرين من قومه نزع فى الشعر إليهما . وأراد بالنابح العاوى من هجاه ؛ وجعل الهجاء كالمراجمة لجعله المهاجى كالكلب النابح ؛ والرجام المراجمة . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٢) فى الأصول : « ... وابراهيم بن السرى والزجاج فقالوا » . ولا معنى لذكر الواو ؛ لأن الزجاج هو ابراهيم ابن السرى بن سهل أبو اسحاق الزجاج .

أبي العباس المبرد، وما قاله سيبويه أصوب وأبين؛ وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حدّ « اللّهمّ » لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت، والأصوات لا توصف؛ نحو غاق وما أشبهه . وكان حكم الاسم المفرد ألا يوصف وإن كانوا قد وصفوه في مواضع . فلما ضم هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمنزلة صوت ضم الى صوت؛ نحو حيّهل فلم يوصف . و﴿ المُلْكِ ﴾ هنا النبوّة؛ عن مجاهد . وقيل : الغلبة . وقيل : المال والعبيد . الزجاج : المعنى مالك العباد وما ملكوا . وقيل : المعنى مالك الدنيا والآخرة . ومعنى ﴿ تُؤْتِي المُلْكَ ﴾ أي الإيمان والإسلام . ﴿ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أي من تشاء أن تؤتيه إياه، وكذلك ما بعده ، لا بدّ فيه من تقدير الحذف ، أي وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه منه، ثم حذف هذا، وأنشد سيبويه .

ألا هل لهذا الدهر من متعلّل[1] * على الناس مهما شاء بالناس يفعل

قال الزجاج : مهما شاء أن يفعل بالناس يفعل . وقوله : ﴿ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يقال : عزّ إذا علا وقهر وغلب؛ ومنه « وعزّني في الخطاب » . ﴿ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ ذل يذل ذلًّا . قال طرفة :

بطيءٌ عن الجُلّى سريعٍ الى الخنا * ذليلٍ باجماع الرجال مُلَهَّدِ[2]

﴿ بِيَدِكَ الخَيْرُ ﴾ أي بيدك الخير والشر فحذف، كما قال: «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرّ» . وقيل : خص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة في فضله . قال النقاش : بيدك الخير ، أي النصر والغنيمة . وقال أهل الإشارات . كان أبو جهل يملك المال الكثير، ووقع في الرّسّ[3] يوم بدر، والفقراء صُهيب وبلال وخبّاب لم يكن لهم مال، وكان ملكهم الإيمان «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء» تقيم الرسول يتيم أبي طالب على رأس الرس حتى ينادي أبدانًا قد انقلبت

---

(١) البيت للأسود بن يعفُر النهشلي . يقول إن هذا الدهر يذهب ببهجة الإنسان وشبابه ، ويتعلل في فعله ذلك تعلل المتجني على غيره . (عن شرح الشواهد) . (٢) الجلى : الأمر العظيم الذي يدعى له ذوو الرأي . والخنا : الفساد والفحش في المنطق . والذليل : المقهور، وهو ضدّ العزيز . وأجماع : جمع جُمْع ، وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . والملهد : المضروب، وهو المدفع . (عن شرح المعلقات) . (٣) الرس : البئر المطوية بالحجارة .

إلى القَلِيب : يا عُتْبة، ياشَيْبة تعز من تشاء وتذل من تشاء. أىْ صُهَيب، أى بِلال، لا تعتقدوا أنّا منعناكم من الدنيا ببغضكم . بيدك الخير ما منعكم من عجز . إنك على كل شئ قدير، إنعام الحق عام يتولّى من يشاء .

قوله تعالى : ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

قال آبن عباس ومجاهد والحسن وقَتادة والسُّدِّى فى معنى قوله « تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ » الآية، أى تُدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر ، حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة وهو أطول ما يكون، والليل تسع ساعات وهو أقصر ما يكون، وكذا تولج النهار فى الليل؛ وهو قول الكَلْبى ، ورُوى عن آبن مسعود . وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار كأن زوال أحدهما ولوج فى الآخر. وآختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ فقال الحسن : معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافرَ من المؤمن، ورُوى نحوه عن سلمان الفارسى . وروى مَعْمر عن الزُّهْرِى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم دخل على نسائه فإذا بامرأة حَسَنة الهيئة قال : "من هذه" ؟ قلن : إحدى خالاتك . قال : "ومَن هى" ؟ قلن : هى خالدة بنت الأسود بن عبد يَغُوث . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "سبحان الذى يخرج الحىّ من الميت" . وكانت آمرأة صالحة وكان أبوها كافرا . فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن؛ فالموت والحياة مستعاران . وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت فى الآية حقيقتان؛ فقال عِكرمة : هى إخراج الدَّجاجة وهى حيّة من البيضة وهى ميّتة، و إخراج البيضة وهى ميتة من الدَّجاجة وهى حيّة . وقال آبن مسعود : هى النطفة تخرج من الرجل وهى ميتة وهو حىّ، ويخرج الرجل منها حيّا وهى ميتة . وقال عِكْرِمة والسُّدِّى : هى الحبة تخرج من السنبلة والسنبلة تخرج من الحبة، والنواة من النخلة والنخلة

تخرج من النواة؛ والحياة فى النخلة والسنبلة تشبيه. ثم قال: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى بغير تضييق ولا تقتير؛ كما تقول: فلان يُعطى بغير حساب؛ كأنه لا يحسب ما يعطى.

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى — قال ابن عباس: نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء؛ ومثله «لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ»[1] وهناك يأتى بيان هذا المعنى. ومعنى ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أى فليس من حزب الله ولا من أوليائه فى شئ؛ مثل «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ». وحكى سيبويه «هو منّى فرسخين» أى من أصحابى ومعى. ثم استثنى وهى:

الثانيــة — فقال: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد: كانت التَّقية فى جِدّة الإسلام قبل قوة المسلمين؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم. قال ابن عباس: هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتى مأثما. وقال الحسن: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة، ولا تقيّة فى القتل. وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضّحاك: «إلا أن تتّقوا منهم تقيّة» وقيل: إن المؤمن إذا كان قائما بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفا على نفسه وقلبهُ مطمئن بالإيمان. والتَّقِيّة لا تحلّ إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم. ومن أُكْرِه على الكفر فالصحيح له أن يتصلّب ولا يجيب إلى التلفظ بكلمة الكفر؛ بل يجوز له ذلك على ما يأتى بيانه فى «النحل»[2] إن شاء الله تعالى. وأمال حمزة والكسائى «تقاة»، وفخّم الباقون؛ وأصلُ «تقاة» وُقَيَة على وزن فُعَلَة؛ مثل

(١) آية ١١٨ من هذه السورة.

(٢) عند قوله تعالى: «من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ...» آية ١٠٦.

تُؤَدة وتُهَمة، قلبت الواو تاء والياء ألفا . وروى الضحاك عن ٱبن عباس أن هذه الآية نزلت في عُبَادة بن الصامت الأنصاري وكان بَدْرِيًّا تقيًّا وكان له حِلف من اليهود ؛ فلما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال عُبادة : يانبيّ الله، إن معي خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهرَ بهم على العدو . فأنزل الله تعالى : « لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » الآية . وقيل : إنها نزلت في عمار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون، على ما يأتي بيانه في « النحل »

قوله تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ﴾ قال الزجّاج : أي ويحذّركم الله إياه . ثم ٱستغنوا عن ذلك بذا وصار المستعمل ؛ قال تعالى : « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » فمعناه تعلم ما عندي وما في حقيقتي ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك . وقال غيره : المعنى ويحذركم الله عقابه؛ مثل « وٱسألِ القرية » . وقال : « تعلم ما في نفسي » أي مُغَيَّبي ؛ فجعلت النفس في موضع الإضمار لأنه فيها يكون . ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي وإلى الله جزاء المصير . وفيه إقرار بالبعث .

قوله تعالى : قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

فهو العالم بخفيات الصدور وما ٱشتملت عليه، وبما في السموات والأرض وما احتوت عليه . علّام الغيوب لا يعزُب عنه مثقال ذرة ولا يغيب عنه شيء، سبحانه لا إلٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة .

قوله تعالى : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يوم منصوب متصــل بقوله : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ يَوْمَ تَجِدُ » . وقيــل : هو متصل بقوله : « وإلى الله المصير . يوم تجد » . وقيــل : هو متصل بقوله : « والله على كل شيء قدير . يوم تجـد » ويجوز أن يكون منقطعا على إضمار اذكر؛ ومثله قوله : « إن الله عزيز ذُو انْتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ » . و « مُحْضَرًا » حال من الضمير المحذوف من صلة « ما » تقديره تجد كل نفس ما عملتــه من خير مُحضرا . هــذا على أن يكون « تجد » من وُجْدان الضّالّة . و « ما » من قوله « وما عملت من ســوء » عطف على « ما » الأولى . و « تودّ » فى موضع الحال من «ما» الثانيــة . وإن جعلت «تجد» بمعنى تعلم كان « مُحْضَرًا » المفعول الثــانى ، وكذلك تكون « تود » فى موضع المفعول الثانى ؛ تقديره يوم تجــد كل نفس جزاء ما عملت محضرا . ويجوز أن تكون « ما » الثانية رفعًا بالابتداء ، و « تود » فى موضع رفع على أنه خبر الابتداء ، ولا يصح أن تكون « ما » بمعنى الجزاء ؛ لأن «تود» مرفوع ، ولو كان ماضيا لجاز أن يكون جزاء ، وكان يكون معنى الكلام : وما عملت من سوء ودّت لو أن بينها وبينه أمدا بعيــدا ؛ أى كما بين المَشْرق والمَغْرب . ولا يكون المســتقبل إذا جعلت « ما » للشرط إلا مجزوما ؛ إلا أن تحمــله على تقدير حذف الفاء على تقدير : وما عملت من ســوء فهى تودّ . أبو علىّ : هو قياس قول الفرّاء عنــدى ؛ لأنه قال فى قوله تعــالى : « وإن أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ » : إنه على حذف الفاء . والأَمَد : الغاية ، وجمعه آماد . ويقال : استولى على الأَمَد ، أى غَلَب سابقا . قال النابغة :

إلّا لمِثْلِكَ أو مَنْ أنت سابِقُــه * سَبْقَ الجَوَادِ إذا آستولَى على الأَمَدِ

والأمد : الغضب . يقال : أمِد أمَدًا ، إذا غضب .

قوله تعــالى : قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

الحُبّ : المحبّة ، وكذلك الحِبّ بالكسر . والحِبّ أيضا الحبيب ؛ مثل الخِدْن والخَدِين ؛ يقال أحبّه فهو مُحِبّ ، وحَبّه يَحِبّه (بالكسر) فهو مَحْبُوب . قال الجوهرىّ : وهذا شاذّ ؛ لأنه

لا يأتى فى المضاعف يفعِل (بالكسر) . قال أبو الفتح : والأصل فيه حَبُبَ كظَرُف، فأسكنت الياء وأدغمت فى الثانية . قال ابن الدهان سعيد : فى حَبّ لغتان : حَبّ وأَحَبّ ، وأصل « حب » فى هذا البناء حَبُبَ كظرف؛ يدلّ على ذلك قولهم : حَبُبْت، وأكثر ما ورد فَعيل من فَعُل . قال أبو الفتح : والدلالة على أَحَبّ قوله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » بضم الياء . و « اتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ » و « حبّ » يرد على فَعُل لقولهم حبيب . وعلى فُعِل كقولهم محبوب : ولم يرد اسم الفاعل من حَبّ المتعـدى، فلا يقال : أنا حابٌّ . ولم يرد اسم المفعول من أَفْعَل إلّا قليلا؛ كقوله :

* مِنّى بمنزلة المُحَبّ المُكْرَمِ (١) *

وحكى أبو زيد حَبَبْته أَحِبّه . وأنشد :

فواللهِ لولا تَمْـرُه ما حَبَبْتُـه * ولا كان أدْنَى من عُوَيفٍ وهاشِم

وأنشـد :

لَعَمْرُكَ إنّنى وطِلَابَ مِصْرٍ * لَكَالْمُزْداد ممـا حَبّ بُعْـدَا

وحكى الأصمعىّ فتـح حرف المضارعة مع الياء وحدها . والحُبّ الخابيـة، فارسىّ مُعَرّب . والجمع حِبَاب وحِبَبَة ؛ حكاه الجوهرىّ . والآية نزلت فى وفد نَجْرَانَ إذ زعموا أن ما ادّعوه لعيسى حبّ لله عز وجل ؛ قاله محمـد بن جعفر بن الزبير . وقال الحسن وابن جُرَيج : نزلت فى قوم من أهل الكتاب قالوا : نحن الذين نُحِبّ رَبّنا . ورُوى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله، والله إنا لَنُحِبّ رَبّنا؛ فأنزل الله عز وجل : « قل إن كنتم تُحبّون الله فاتبعونى » . قال ابن عرفة : المَحَبّة عند العرب إرادة الشىء على قصد له . وقال الأزهرى : محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما؛ قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى » . ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغُفران ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » أى لا يغفر لهم . وقال سهل بن عبد الله : علامة حبّ الله حبّ القرآن . وعلامة حبّ

---

(١) هذا عجز بيت لعنترة فى معلقته وصدره : * ولقد نزلت فلا تظنى غيره *

القرآن حبُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . وعلامة حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حبُّ السُّنّة . وعلامة حبِّ الله وحبِّ القرآن وحبّ النبيّ وحبّ السُّنّة حبُّ الآخرة . وعلامة حبّ الآخرة أن يُحبّ نفسه . وعلامة حبّ نفسه أن يُبْغِض الدنيا . وعلامة بغض الدنيا ألّا يأخذ منها إلا الزاد والبُلْغَة . وروى أبو الدَّرْداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعونى يحببكم الله » قال : " على البِرّ والتقوى والتواضع وذِلّة النفس " خرّجه أبو عبد الله التِّرمِذيّ . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من أراد أن يُحِبّه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة وألّا يؤذى جاره" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله إذا أحبّ عبدا دعا جبريلَ فقال إنى أحِبّ فلانا فأحِبّه قال فيُحِبُّه جبريل ثم ينادِى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحِبوه فيُحِبُّه أهلُ السماء قال ثم يوضع له القَبُول فى الأرض . وإذا أبغض عبدا دَعَا جبريلَ فيقول إنى أبغض فلانا فأبْغِضْه قال فيُبْغِضُه جبريلُ ثم ينادِى فى أهل السماء إن الله يُبْغِض فلانا فأبْغِضُوه قال فيُبْغِضُونَه ثم تُوضع له البغضاءُ فى الأرض". وسيأتى لهذا مزيد بيان فى آخر سورة «مريم» إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو رَجَاء العُطارِدِىّ "فاتْبَعُونى" بفتح الباء؛ «و يغفر لكم» عطف على يحببكم . وروى محبوب عن أبى عمرو بن العَلاء أنه أدغم الراء من «يغفر» فى اللام من «لكم» . قال النحاس : لا يُجيز الخليل وسيبويه إدغام الراء فى اللام؛ وأبو عمرو أجلّ من أن يغلط فى مثل هذا، ولعلّه كان يُخْفِى الحركة كما يفعل فى أشياء كثيرة .

قوله تعالى : قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ يأتى بيانه فى « النساء » [1] .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ شرطٌ، إلا أنه ماض لا يُعْرَب . والتقدير فإن تولّوا على كفرهم وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم كما تقدّم .

(١) عند قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ... » آية ٥٩ .

وقال : « فإن الله » ولم يقل « فإنه » لأن العرب إذا عظّمت الشئ أعادت ذكره ؛ وأنشد سيبويه :

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شئٌ * نَغّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفَقيرا (١)

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ (٢) اصطفى اختار، وقد تقدّم فى البقرة . وتقدّم فيها اشتقاق آدم وكنيته (٣) . والتقدير إن الله اصطفى دينهم وهو دين الإسلام؛ فحذف المضاف . وقال الزجاج : اختارهم للنبوّة على عالمى زمانهم . « ونوحا » قيل إنه مشتق من ناح ينُوح ، وهو اسم أعجمى إلا أنه انصرف لأنه على ثلاثة أحرف، وهو شيخ المرسلين، وأوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام بتحريم البنات والأخوات والعمّات والخالات وسائر القرابات . ومن قال إن إدريس كان قبله من المؤرخين فقد وَهِم على ما يأتى بيانه فى «الأعراف» (٤) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ تقدم فى البقرة معنى الآل وعلى ما يُطْلَق مستوفًى (٥) . وفى البخارى عن ابن عباس قال : آل ابراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد ؛ يقول الله تعالى : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » وقيل : آل ابراهيم إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ والأسباطُ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم . وقيل : آل إبراهيم نفسه، وكذا آل عمران؛ ومنه قوله تعالى : « وبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ » . وفى الحديث : "لقد أعطى مِزْمارا مِن مزامير آل داود"؛ وقال الشاعر :

---

(١) البيت لسوادة بن عدىّ . وقيل : لأمية بن أبى الصلت . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٤) عند قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... » آية ٥٩ .

(٥) راجع جـ ٢ ص ٣٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

ولا تَبْكِ مَيْتًا بعد مَيْتٍ أَحَبَّه * عَلِيٌّ وعَبّاسٌ وآلُ أبي بكرِ [1]

وقال آخر :

يُلاَقِي من تَذَكُّرِ آلِ لَيْلَى * كما يَلْقَى السَّلِيمُ من العِدَادِ [2]

أراد من تذكُّر لَيْلَى نفسَها . وقيل : آلُ عمرانَ آلُ إبراهيم؛ كما قال : « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » . وقيل: المراد عيسى، لأن أمه ٱبنة عمران . وقيل: نفسه كما ذكرنا . قال مُقاتِل : هو عمران أبو موسى وهارون ، وهو عمران بن يَصْهر بن فاهاث بن لاوى بن يعقوب . وقال الكَلْبي: وهو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان عليه السلام . وحكى السُّهيلي : عمران ابن ماثان، وامرأته حَنّة (بالنون) . وخص هؤلاء بالذِّكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بقَضِّهم وقَضِيضهم من نسلهم . ولم ينصرف عِمْران لأن فى آخره ألفا ونونا زائدتين . ومعنى قوله : ﴿ على العالمين ﴾ أى على عالَمى زمانهم، فى قول أهل التفسير . وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن عليّ : جميع الخلق كلّهم . وقيل « على العالمين » : على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصُّور، وذلك أن هؤلاء رسل وأنبياء فهم صَفْوة الخلق؛ فأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جازت مرتبته الأصطفاء لأنه حبيب ورحمة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » . فالرسل خلقوا للرحمة، ومحمد صلى الله عليه وسلم خلق بنفسه رحمة، فلذلك صار أمانًا للخلق . لمّا بعثه الله أمن الخلقُ العذابَ إلى نفخة الصور . وسائر الأنبياء لم يحلّوا هذا المحل؛ ولذلك قال عليه السلام : " أنا رحمة مُهْداة " يخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله . وقوله "مهداة" أى هديّة من الله للخلق . ويقال : اختار آدم بخمسة أشياء : أولها أنه خلقه بيده فى أحسن صُورة بقدرته . والثانى أنه علمه الأسماء كلها . والثالث أمر الملائكة بأن يسجدوا له . والرابع أسكنه الجنة . والخامس جعله أبا البشر . وٱختار نوحا بخمسة

(١) فى الأصول : « ولا تنس » والتصويب من تفسير ابن عطية . والبيت لأراكة ابن عبد الله الثقفى فى رثاء النبي صلى الله عليه وسلم . أى أحبة على وعباس وأبو بكر، ويريد جميع المؤمنين (راجع تفسير ابن عطية) .

(٢) العداد : اهتياج وجع اللديغ، وذلك إذا تمت له سنة مذ يوم لدغ هاج به الألم . وقيل : عداد السليم أن تعد له سبعة أيام فان مضت رجوا له البرء، وما لم تمض قيل هو فى عداده .

أشياء : أولها أنه جعله أبا البشر؛ لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته هم الباقون . والثاني أنه أطال عمره؛ ويقال : طُوبَى لمن طال عمره وحسن عمله . والثالث أنه آستجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين . والرابع أنه حمله على السفينة . والخامس أنه كان أول من نسخ الشرائع ؛ وكان قبل ذلك لم يحرم تزويج الخالات والعمات . وآختار ابراهيم بخمسة أشياء : أولها أنه جعله أبا الأنبياء؛ لأنه رُوى أنه خرج من صُلبه ألفُ نبيّ من زمانه الى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم . والثاني أنه آتخذه خليلا . والثالث أنه أنجاه من النار . والرابع أنه جعله إماما للناس . والخامس أنه آبتلاه بالكلمات فوفّقه حتى أتمهنّ . ثم قال : « وآل عمران » فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما آختارهما على العالمين حيث بعث على قومه المنّ والسلوى وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء في العالم . وإن كان أبا مريم فإنه آصطفى له مريم بولادة عيسى بغير أب ولم يكن ذلك لأحد في العالم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٤)

تقدّم في البقرة معنى الذرية وآشتقاقها[1] . وهي نصب على الحال ؛ قاله الأخفش . أي في حال كون بعضهم من بعض، أي ذرية بعضها من ولد بعض . الكوفيون : على القطع . الزجاج : بدل، أي آصطفى ذرّية بعضها من بعض، ومعنى بعضها من بعض، يعني في التناصر في الدين؛ كما قال : « المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » يعني في الضلالة؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : في الاجتباء والآصطفاء والنبوّة . وقيل : المراد به التناسل، وهذا أضعفها .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (٣٦)

(١) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ قال أبو عبيد : « إذ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : التقدير اذكر إذ . وقال الزجاج : المعنى واصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران . وهي حَنّة (بالحاء المهملة والنون) بنت فاقود بن قنبل أم مريم جدّة عيسى عليه السلام؛ وليس باسم عربيّ ولا يعرف في العربية حَنّة اسم امرأة . وفي العربية أبو حَنّة البدريّ؛ ويقال فيه : أبو حبّة (بالباء بواحدة) وهو أصح؛ واسمه عامر . ودير حَنّة بالشأم . ودير آخر أيضا يقال له كذلك[1]؛ قال أبو نُوَاس :

يا دَيرَ حَنّةَ من ذات الأُكَيْرَاحِ[2] * مَن يَصْحُ عنكَ فإني لستُ بالصاحي

وحبّة في العرب كثير؛ منهم أبو حَبّة الأنصاري . وأبو السّنابل بن بَعْكك المذكور في حديث سُبَيعة[3] حَبّة . ولا يعرف خنّة بالخاء المعجمة [ونون][4] إلا بنت يحيى بن أكثم القاضي؛ وهي أم محمد بن نصر[5] . ولا يعرف جنة (بالجيم) إلا أبو جنة ، وهو خال ذي الرُّمّة الشاعر . كل هذا من كتاب ابن ماكولا .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ تقدّم معنى النذر[6] وأنه لا يلزم العبد إلا بأن يلزم نفسه . يقال : إنها لما حملت قالت : لئن نجّاني الله ووضعت

---

(١) هو «دير حنة» بالحيرة من بناء نوح (راجع مسالك الأبصار ج ١ ص ٣١٢ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) الأكيراح (بالضم ثم الفتح وياء ساكنة وراء وألف وحاء) : مواضع تخرج إليها النصارى في أعيادهم (عن القاموس) . وفي مسالك الأبصار : « أنها قباب صغار يسكنها رهبان يقال للواحد منها الكرح » .

(٣) هي سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت زوجة لسعد بن خولة فات عنها بمكة فقال لها أبو السنابل حبة : إن أجلك أربعة أشهر وعشر؛ وقد كانت وضعت بعد وفاة زوجها بليال ، قيل خمس وعشرون ليلة ، وقيل أقل من ذلك . فلما قال لها أبو السنابل ذلك أتت الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال لها : "قد حللت فانكحي من شئت" . روى عنها فقهاء أهل المدينة وفقهاء أهل الكوفة من التابعين حديثها هذا . وذكر ابن سعد أن أبا السنابل بن بعكك قد كان فيمن خطبها . وذكر ابن البرقي أنه تزوّجها وأولدها ابنه سنابل . (راجع كتاب الاستيعاب وتهذيب التهذيب وطبقات ابن سعد) . (٤) زيادة عن كتاب المشتبه للذهبي . (٥) الذي في المشتبه : « زوجة محمد » .

(٦) راجع ج ٣ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

ما في بطني لجعلته مُحَرَّرا . ومعنى « لك » أي لعبادتك . « محررا » نصب على الحال . وقيل : نعت لمفعول محذوف، أي إني نذرت لك ما في بطني غلاما محررا . والأول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإعراب . أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز في مواضع ويجوز على المجاز في أخرى . وأما التفسير فقيل إن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، وأنها كانت تحت شجرة فبصُرت بطائر يَزُقّ فرخًا فتحركت نفسُها لذلك، ودعت ربها أن يَهَبَ لها ولدا ، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها مُحَرَّرا، أي عتيقا خالصا لله تعالى، خادما للكنيسة حَبِيسا عليها، مُفَرَّغا لعبادة الله تعالى . وكان ذلك جائزا في شريعتهم ، وكان على أولادهم أن يطيعوهم . فلما وضعت مريم قالت : «رب إني وضعتها أنثى» يعني أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة . قيل : لما يصيبها من الحَيْض والأذى . وقيل : لا تصلح لمخالطة الرجال . وكانت ترجو أن يكون ذَكَرًا فلذلك حَرَّرت .

الثالثة — قال ابن العربي : « لا خلاف أن امرأة عمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرة، فلو كانت امرأته أَمَة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر في ولده كيفما تصرفت حاله؛ فإنه إن كان الناذر عبدا فلم يتقرر له قول في ذلك ؛ وإن كان حرًّا فلا يصح أن يكون مملوكا له ، وكذلك المرأة مثله ؛ فأي وجه للنذر فيه . وإنما معناه — والله أعلم — أن المرء إنما يريد ولده للأنس به والاستنصار والتسلي ، فطلبت هذه المرأةُ الولدَ أُنْسًا به وسُكونًا إليه ؛ فلما منّ الله تعالى عليها به نذرت أن حظها من الأُنس به متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف . وهذا نذر الأحرار من الأبرار . وأرادت به مُحَرَّرًا من جهتي، محررًا من رِق الدنيا وأشغالها ؛ وقد قال رجل من الصُّوفِيّة لأمّه : يا أُمّهْ : ذَرِيني لله أتعبّد له وأتعلم العلم . فقالت نعم . فسار حتى تبصّر ثم عاد إليها فدقّ الباب، فقالت مَنْ؟ فقال لها : ابنُك فلان . قالت : قد تركناك لله ولا نعود فيك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ مأخوذ من الحُرِّية التي هي ضد العبوديّة؛ من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد . وروى خُصَيف عن عِكرمة ومجاهد:

أن المحرر الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا . وهذا معروف فى اللغة أن يقال لكل ما خلص : حُر، ومحرّر بمعناه؛ قال ذو الرُّمة :

والقُرْط فى حُرّة الذِّفْرَى مُعَلَّقُهُ * تباعد الحبلُ منه فهو يضطربُ [1]

وطين حُرّ لا رمل فيه . وبانت فلانة بليلةٍ حُرّة إذا لم يصل إليها زوجُها أوّلَ ليلة؛ فإن تمكّن منها فهى بليلة شَيْباء .

الخامسة — قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ قال ابن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل فى النَّذْر إلا الذكور، فقبِل الله مريم . «وأنثى» حال، وإن شئت بدل . فقيل : إنها ربّتها حتى ترعرعت وحينئذ أرسلتها؛ رواه أشهب عن مالك . وقيل : لفتها فى خِرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوفّت بنذرها وتبرّأت منها . ولعل الحجاب لم يكن عندهم كما كان فى صدر الإسلام؛ ففى البخارىّ ومسلم أن امرأة سوداء كانت تَقُمّ المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . الحديث .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هو على قراءة من قرأ «وضعتُ» بضم التاء من جملة كلامها؛ فالكلام متصل . وهى قراءة أبى بكر وابن عامر، وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له . ولم تقله على طريق الإخبار لأن علم الله فى كل شىء قد تقرر فى نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله . وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل قُدّم، وتقديره أن يكون مؤخرا بعد «وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» والله أعلم بما وضعت؛ قاله المَهْدوىّ . وقال مكىّ : هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت فقال : والله أعلم بما وضعت أمّ مريم قالته أو لم تقله . ويقوّى ذلك أنه لو كان من كلام أمّ مريم لكان وجه الكلام : وأنتَ أعلم بما وضعتُ؛ لأنها نادته فى أوّل الكلام فى قولها : رب إنى وضعتها أنثى . ورُوى عن ابن عباس «بما وضعتِ» بكسر التاء، أى قيل لها هذا .

(١) الذفريان : ما بين يمين العنق ويساره . وتباعد الحبل منه، أى تباعد حبل العنق من القرط لأنها طويلة العنق ليست بوقصاء . ومعلقه، أى مكان تعليقه .

السابعـــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ استدل به بعض الشافعية على أن المطاوعة في نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه في وجوب الكفارة عليها . ابنُ العربيّ : وهذه منه غفلة، فإن هـذا خبر عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به . وهـذه الصالحة إنما قصدت بكلامها ما تشهد له به بيّنة حالها ومَقْطع كلامها، فإنها نذرت خدمة المسجد في ولدها، فلما رأته أنثى لا تصلح وأنها عورة اعتذرت إلى ربّها من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها . ولم ينصرف «مريم» لأنه مؤنث معرفة، وهو أيضا أعجمي؛ قاله النحاس . والله تعالى أعلم .

الثامنـــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ يعني خادم الربّ بلغتهم . ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ يعني مريم . ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ يعني عيسى . وهذا يدلّ على أن الذرّية قـد تقع على الولد خاصّة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مولود يولد إلا نَخَسه الشيطان فيستهلّ صارخا من نخسة [الشيطان] (1) إلا ٱبنَ مريم وأمّه" ثم قال أبو هريرة : إقرءوا إن شئتم وإني أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم . قال علماؤنا : فأفاد هـذا الحديثُ أن الله تعـالى استجاب دعاء أمّ مريم ، فإن الشـيطان ينخُس جميـع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وٱبنها . قال قتادة : كل مولود يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وأمّه جُعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شيء . قال علماؤنا : وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما . ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منـه إضلال الممسوس وإغواؤه فإن ذلك ظنّ فاسـد ؛ فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك عصمهم الله مما يَرُومه الشيطان؛ كما قال : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » . هذا مع أن كل واحد من بني آدم قد وُكِل به قرينه من الشياطين ؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فَمَرْيَمُ وٱبْنُهَا وإن عُصِما من نخسه فلم يُعْصما من ملازمته لهما ومقارنته " . والله أعلم .

---

(1) زيادة عن صحيح مسلم .

قوله تعالى : فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ المعنى : سلك بها طريق السعداء ؛ عن ابن عباس . وقال قوم : معنى التقبل التكفل فى التربيـة والقيامُ بشأنها . وقال الحسن : معنى التقبل أنه ما عذّبها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار . ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يعنى سوّى خَلْقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت فى اليـوم ما ينبت المولود فى عام واحد . والقبول والنبات مصدران على غير المصدر ، والأصل تقبُّلاً و إنباتا . قال الشاعر :

أكُفْرًا بعـد ردّ الموت عنّى * و بعدَ عطائكَ المـائةَ الرِّتاعا

أراد بعد إعطائك ، لكن لمـا قال « انبتها » دل على نَبَت ؛ كما قال آمرؤ القيس .

فصِرْنا إلى الحسـنى ورَقّ كلامُنا * ورُضْتُ فذلّت صـعبةٌ أىّ إذلالِ

و إنمـا مصدر ذَلّتْ ذُلٌّ ، ولكنه ردّه على معنى أذْلَلتْ ؛ وكذلك كل ما يَرِد عليك فى هـذا البـاب . فمعنى تقبّل وقَبِل واحد . فالمعنى فقبلها ربُّها بقبول حَسَن . ونظيره قول رُؤْبَة :

* وقد تَطَوّيتُ آنطواءَ الحِضْبِ[1] *

لأن معنى تَطَوّيتُ وآنطويت واحد ؛ ومثله قول القَطامىّ :

وخير الأمر ما استقبلت منـه * وليس بأن تَتَبّعَـه آتباعـا

لأن تَتَبّعت واتبعت واحد . وفى قراءة آبن مسـعود « وأَنْزَلَ الملائكةَ تنْزِيلاً » لأن معنى نزّل وأنزل واحد . وقال المُفَضّـل : معناه وأنبتها فنبتتْ نَبَاتًا حَسَنًا . ومراعاة المعنى أوْلى

(١) الحضب (بفتح الحاء وكسرها وسكون الضاد) : ضرب من الحيات .

كما ذكرنا . والأصل فى القبول الضم ؛ لأنه مصدر مثل الدخول والخروج ، والفتح جاء فى حروف قليلة؛ مثل الوَلوع والوَزوع ؛ هذه الثلاثة لا غيرُ . قاله أبو عمرو والكسائى والأئمة . وأجاز الزجاج « بقُبُول » بضم القاف على الأصل .

قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى ضمها إليه . أبو عبيدة : ضمِن القيام بها . وقرأ الكوفيون « وكفّلها » بالتشديد، فهو يتعدّى إلى مفعولين ؛ والتقدير وكفّلها ربُّها زكريا، أى ألزمه كفالتها وقدّر ذلك عليه ويسّره له . وفى مصحف أبىّ « وأكفلها » والهمزة كالتشديد فى التعدّى ؛ وأيضا فإن قبْله « فتقبلها ، وأنبتها » فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها؛ فجاء «كفّلها» بالتشديد على ذلك . وخففه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا . فأخبر الله تعالى أنه هو الذى تولّى كفالتها والقيامَ بها ؛ بدلالة قوله : « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » . قال مكّىّ : وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع الى التخفيف، لأن الله تعالى إذا كفّلها زكريا كفَلها بأمر الله ، ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان . وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كَثِير وأبى عبد الله المُزَنى «وكَفِلها» بكسر الفاء . قال الأخفش : يقال كَفَلَ يَكْفُلُ وكَفِلَ يَكْفَلُ ولم أسمع كَفُلَ ، وقد ذُكِرت . وقرأ مجاهد « فتقبّلْها » بإسكان اللام على المسألة والطلب . « ربَّها » بالنصب نداء مضاف . «وأنبتْها» بإسكان التاء « وكفلْها » بإسكان اللام « زكرياء » بالمدّ والنصب . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « زكريا » بغير مد ولا همز، ومدّه الباقون وهَمَزُوه . وقال الفرّاء : أهل الحجاز يمدّون « زكرياء » ويُقصرونه ، وأهل نجْد يحذفون منه الألف ويصرفونه فيقولون : زكرى . قال الأخفش : فيه أربع لغات : المد والقصر ، وزكرِيٌّ بتشديد الياء والصرف ، وزكَرٌ ورأيت زكريا . قال أبو حاتم : زكرى بلا صرف لأنه أعجمىّ وهذا غلط ؛ لأن ما كان فيه « يا » مثل هذا انصرف مثل كرسىّ ويحيى، ولم ينصرف زكرياء فى المد والقصر لأن فيه ألف تأنيث والعجمة والتعريف .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ المحراب فى اللغة أكرم موضع فى المجلس . وسيأتى له مزيد بيان فى سورة « مريم »(١) . وجاء فى الخبر : إنها كانت فى غرفة كان زكريا يصعد إليها بسلّم . قال وضّاح اليمن(٢) :

رَبَّةُ مِحرابٍ إذا جئتُها * لم أَلْقها حتى ٱرتَقِي سُلَّما

أى رَبّة غرفة . روى أبو صالح عن ٱبن عباس قال : حملت ٱمرأة عِمران بعد ما أسنّت فنذرت ما فى بطنها محررا فقال لها عمران : ويحك ! ما صنعت ؟ أرأيت إن كانت أنثى . فٱغتما لذلك جميعا . فهلك عِمران وحَنّة حامل فولدت أنثى فتقبلها الله بقبول حَسَن ، وكان لا يُحرّر إلا الغلمان فتساهم عليها الأحبار بالأقلام التى يكتبون بها الوَحى ، على ما يأتى . فكفلها زكريا وأخذ لها موضعا فلما أسنّت جعل لها محرابا لا يرتقى إليه إلا بسلم ، وٱستأجر لها ظئرا وكان يُغلق عليها بابا ، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبِرت ، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها ٱمرأة زكريا فى قول الكلبىّ . وقال مُقاتِل : كانت أختها ٱمرأة زكريا ، وكانت إذا طهرت من حيضتها وٱغتسلت ردّها الى المحراب . وقال بعضهم : كانت لا تحيض وكانت مطهَّرة من الحيض . وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء فى القَيْظ وفاكهة القيظ فى الشتاء فقال : يا مريم أنّى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله . فعند ذلك طمع زكريا فى الولد وقال : إن الذى يأتيها بهذا قادر أن يرزقنى ولدا . ومعنى « أنّى » من أين؛ قاله أبو عَبيدة . قال النحاس : وهذا

---

(١) عند قوله تعالى : « فخرج على قومه من المحراب » آية ١١

(٢) فى الأصول : «قال عدى بن زيد» والتصويب عن الأغانى ولسان العرب وشرح القاموس . وهذا البيت من قصيدة لوضاح اليمن أوّلها : ياابنة الواحد جودى فما * إن تصرمينى فبًا أو لمّا .

* راجع ترجمته فى الأغانى ج ٦ ص ٢٠٩ — ٢٤٠ طبع دار الكتب المصرية .

فيه تساهل؛ لأن « أين » سؤال عن المواضع و « أنّى » سؤال عن المذاهب والجهات . والمعنى من أى المذاهب ومن أىّ الجهات لكِ هذا . وقد فرق الكُمَيت بينهما فقال :

أنّى ومن أين إليك الطّرب * من حيث لا صَبْوة ولا رِيَب

و « كلما » منصوب بوجد، أى كلّ دَخْلة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قيل : هو من قول مريم، ويجوز أن يكون مستأنفا؛ فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ هنالك فى موضع نصب؛ لأنه ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصله للمكان . وقال المُفَضَّل بن سَلَمة : « هنالك » فى الزمان و « هناك » فى المكان ، وقد يجعل هذا مكان هذا . و﴿ هَبْ لِي ﴾ أعطنى . ﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ من عندك . ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أى نَسلا صالحا . والذُّرّية تكون واحدة وتكون جمعا ذكرا وأنثى ، وهو هنا واحد . يدل عليه قوله « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا » ولم يقل أولياء، وإنما أنّث « طَيِّبة » لتأنيث لفظ الذرية؛ كقوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنّث ولدته لتأنيث لفظ الخليفة . ورُوِى من حديث أنس قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أىّ رجل مات وترك ذُرّيّة طيبة أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئا " . وقد مضى فى « البقرة » اشتقاق الذرية (١) . و﴿ طَيِّبَةً ﴾ أى صالحة مباركة . ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ أى قابله؛ ومنه سمع الله لمن حمده .

الثالثــة ــ دلّت هذه الآية على طلب الولد وهى سُنّة المرسلين والصدّيقين، قال الله تعالى . « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتّل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أجاز له ذلك لاختصينا . وخرّج ابن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النكاح من سُنّتى فمن لم يعمل بسُنّتى فليس منّى وتزوجوا فإنى مكاثرٌ بكم الأمم ومن كان

(١) راجع المسئلة التاسعة عشرة جـ ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

ذا طَوْل فَلْيَنْكِح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وِجاء[(١)] ". وفى هذا ردّ على بعض جُهّال المتصوّفة حيث قال: الذى يطلب الولدَ أحمق، وما عَرَف أنه الغبيّ الأخرق. قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل: « وَٱجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ » وقال: « وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ». وقد ترجم البخارى على هذا « باب طلب الولد ». وقال صلى الله عليه وسلم لأبى طَلْحة حين مات ٱبنه: " أعرستم الليلة " ؟ قال نعم. قال: " بارك الله لكما فى غابر ليلتكما ". قال فحملت. فى البخاريّ: قال سفيان فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولادٍ كلهم قد قرءوا القرآن. وترجم أيضا « باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة » وساق حديث أنس بن مالك قال قالت أمّ سُلَيم: يارسول الله، خادمك أنس أدع الله له. فقال: " اللّهُمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته ". وقال صلى الله عليه وسلم: " اللّهُمّ ٱغفر لأبى سَلَمة وٱرفع درجته فى المهديّين وٱخلفه فى عَقِبه فى الغابرين ". خرّجه البخاريّ ومسلم. وقال صلى الله عليه وسلم: " تزوّجوا الوَلود الوَدود فإنى مكاثر بكم الأمم ". أخرجه أبو داود. والأخبار فى هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته وبعد موته. قال صلى الله عليه وسلم: " إذا مات أحدكم ٱنقطع عمله إلا من ثلاث " فذكر " أو ولد صالح يدعو له ". ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

الرابعة — فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرّع إلى خالقه فى هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا مُعِينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما فى أُولاه وأخراه؛ ألا ترى قول زكريا « وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ». وقال: « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ». وقال: « هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ». ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس فقال: " اللّهُمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيه ". خرّجه البخاريّ ومسلم، وحسبُك.

---

(١) الوجاء: أن ترض أنثيا الفحل رضا شديدا يذهب شهوة النكاح. أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء.

قوله تعالى : فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قرأ حمزة والكسائي « فناداه » بالألف على التذكير ، ويُميلانها لأن أصلها الياء ، ولأنها رابعة . وبالألف قراءة ٱبن عباس وابن مسعود ، وهو ٱختيار أبي عبيد . وروى عن جرير عن مُغيرة عن إبراهيم قال : كان عبد الله يذكّر الملائكة في [كلّ][1] القرآن . قال أبو عبيد : نراه ٱختار ذلك خلافا على المشركين لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله . قال النحاس : هذا احتجاج لا يُحصَّل منه شيء ؛ لأن العرب تقول : قالت الرجال ، وقال الرجال ، وكذا النساء . وكيف يحتجّ عليهم بالقرآن ، ولو جاز أن يحتج عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجّوا بقوله تعالى : « وإذ قالت الملائكة » ولكن الحجة عليهم في قوله عز وجل : « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ » أي فلم يشاهدوا؛ فكيف يقولون إنهم إناث فقد عُلم أن هذا ظنّ وهوًى . وأما « فناداه » فهو جائز على تذكير الجمع ، « ونادته » على تأنيث الجماعة . قال مكّيّ : والملائكة ممن يعقل في التكسير يجرى في التأنيث مجرى ما لا يعقل ، تقول : هي الرّجال، وهي الجذوع ، وهي الجمال ، وقالت الأعراب . ويقوّى ذلك قوله : « وإذ قالت الملائكة » وقد ذكّر في موضع آخر فقال : « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ » وهذا إجماع . وقال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ » فتأنيث هذا الجمع وتذكيره حَسَنان . وقال السُّدّي : ناداه جبريل وحده ؛ وكذا في قراءة ٱبن مسعود . وفي التنزيل « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » يعني جبريل . والروح الوَحْي . وجائز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع . وجاء في التنزيل « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » يعني نُعيم بن مسعود؛ على ما يأتي . وقيل : ناداه جميع الملائكة ، وهو الأظهر . أي جاء النداء من قِبَلهم .

---

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ «وهو قائم» ابتداء وخبره «يصلّى» فى موضع رفع، وإن شئت كان نصبا على الحال من المضمر. «أنّ الله» أى بأن الله. وقرأ حمزة والكسائى[١] «إن» أى قالت إن الله؛ فالنداء بمعنى القول. «يبشرك» بالتشديد قراءة أهل المدينة. وقرأ حمزة «يَبْشُرُك» مخففا؛ وكذلك حُميد بن قيس المكىّ إلا أنه كسر الشين وضم الياء وخفف الباء. قال الأخفش : هى ثلاث لغات بمعنًى واحد.

دليل الأولى وهى قراءة الجماعة أن ما فى القرآن من هذا من فعل ماض أو أمر فهو بالتثقيل؛ كقوله تعالى: «فَبَشِّرْ عِبَادِي» «فَبَشِّرْهُم بِمَغْفِرَةٍ» «فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ» «قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ». وأما الثانية وهى قراءة عبد الله بن مسعود فهى من بَشَرَ يَبْشُرُ[٢] وهى لغة تهامة؛ ومنه قول الشاعر[٣] :

بَشَرت عِيالى إذ رأيتُ صحيفةً * أتتك من الحجّاج يُتلى كتابُها

وقال آخر :

وإذا رأيتَ الباهشين[٤] الى النّدى * غُبْرًا أكُفُّهُمُ بِقاعٍ مُمْحِلِ

فأعِنْهُمُ وَابْشَرْ بما بَشِروا به * وإذا هُمُ نَزَلُوا بضَنْكٍ فانْزِلِ

وأما الثالثة فهى من أبشر يبشر إبشارا قال :

يا أمّ عَمْرو أبشِرى بالبُشْرَى * موتٌ ذريعٌ وجَرادٌ عَظْلَى[٥]

قوله تعالى : ﴿يَحْيَى﴾ كان اسمه فى الكتاب الأوّل حيا، وكان اسم سارة زوجة ابراهيم عليه السلام يسارة، وتفسيره بالعربية لا تلد، فلما بُشّرت بإسحاق قيل لها : سارة، سمّاها

---

(١) كذا فى الأصل وإعراب القرآن للنحاس. والذى فى البحر لأبى حيان وغرائب القرآن للنيسابورى وتفسير ابن عطية : «وقرأ ابن عامر وحمزة «إن الله» بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتح الهمزة».

(٢) كذا فى الأصول ومعالم التنزيل للبغوى. والذى فى تفسير البحر وابن عطية : «وفى قراءة عبد الله بن مسعود يبشرك بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة من أبشر، وهكذا قرأ فى كل القرآن».

(٣) هو عطية بن زيد، وقال ابن برّى هو عبد القيس بن خفاف البرجمى. (عن اللسان).

(٤) قال أبو عبيد : يقال للإنسان إذا نظر الى شىء فأعجبه واشتهاه فتناوله وأسرع نحوه وفرح به : بهش اليه.

(٥) جراد عاظلة وعظلى : لا تبرح. فى اللسان : «أراد أن يقول : يا أم عامر فلم يستقم له البيت فقال يا أم عمرو، وأم عامر كنية الضبع. ومن كلامهم للضبع : أبشرى بجراد عظلى، وكم رجال قتلى».

بذلك جبريل عليه السلام . فقالت : يا ابراهيم لم نقص من ٱسمى حرف ؟ فقال ذاك إبراهيم لجبريل عليهما السلام . فقال : " إن ذاك الحرف زيد فى ٱسم ٱبنٍ لهما من أفضل الأنبياء اسمه حيّ وسُمّى يحيى". ذكره النقاش. وقال قَتادة: سمّى يحيى لأن الله تعالى أحياه بالإيمان والنبوّة . وقال بعضهم : سُمّى بذلك لأن الله تعالى أحيا به الناس بالهُدَى . وقال مُقاتِل : ٱشتق ٱسمه من ٱسم الله تعالى حىّ فسمّى يحيى . وقيل : لأنه أحيا به رحم أمّه .

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ يعنى عيسى فى قول أكثر المفسرين . وسُمّى عيسى كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى التى هى « كن» فكان من غير أب . وقرأ أبو السَّمّال العَدَوىّ «بكِلْمَة» مكسورة الكاف ساكنة اللام فى جميع القرآن، وهى لغة فصيحة مثل كِتْف وفِخْذ . وقيل : سُمّى كلمة لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله تعالى . وقال أبو عبيد : معنى « بكلمة من الله » بكتاب من الله . قال : والعرب تقول أنشدنى كلمة أى قصيدة ؛ كما رُوى أن الحُوَيْدرة(1) ذُكر لحسّان فقال : لعن الله كلمته، يعنى قصيدته . وقيل غير هذا من الأقوال . والقول الأوّل أشهر وعليه من العلماء الأكثر . و «يحيى» أوّل من آمن بعيسى عليهما السلام وصدّقه ، وكان يحيى أكبرَ من عيسى بثلاث سنين . ويقال بستة أشهر . وكانا ابنى خالة ؛ فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمّه إليه وهو فى خِرَقه . وذكر الطبرىّ أن مريم لما حملت بعيسى حملت أيضا أختها بيحيى؛ فجاءت أختها زائرة فقالت : يا مريم، أشعرت أنى حملت ؟ فقالت لها مريم : أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى لأجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . وذلك أنه رُوى أنها أحست جنينها يخرّ برأسه الى ناحية بطْن مريم . قال السُّدّىّ : فذلك قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ » . « ومصدّقا » نصب على الحال .

﴿وسَيِّدا﴾ السيد : الذى يسود قومه ويُنْتَهَى إلى قوله . وأصله سَيْوِد يقال : فلان أسود من

---

(1) الحويدرة تصغير الحادرة وهو لقب غلب عليه، واسمه قطبة بن محصن بن جرول . و يعنى حسانُ بن ثابت رضى الله عنه قصيدته التى مطلعها :

بكرت سُمَيّة غدوة فتمتعى * وغدت غدوّ مفارق لم يربع

(راجع المفضليات ص ٤٨ طبع أوربا وكتاب الأغانى جـ ٣ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية) .

فلان، أفعل من السيادة؛ ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيّدا كما يجوز أن يسمى عزيزا أو كريما . وكذلك رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لبنى قُريظة : "قوموا إلى سيدكم" . وفى البخارىّ ومسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال فى الحَسَن : "إن ٱبنى هذا سيّدٌ ولعلّ الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين" . وكذلك كان، فإنه لما قُتل علىّ رضى الله عنه بايعه أكثر من أربعين ألفا وكثير ممن تخلّف عن أبيه وممن نَكث بيعته ، فبقى نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وما وراءها من خُراسان ، ثم سار إلى معاويةَ فى أهل الحجاز والعراق وسار اليه معاويةُ فى أهل الشام ؛ فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له « مَسْكِن » من أرض السّواد بناحية الأنبار كرِه الحَسَنُ القتالَ لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلب حتى تهلك أكثر الأخرى فيهلك المسلمون ؛ فسلّم الأمر الى معاوية على شروط شرطها عليه، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية ؛ فالتزم كل ذلك معاوية فصدَق قوله عليه السلام : "إن ٱبنى هذا سيّد" ولا أسْود ممن سوّده الله تعالى ورسوله . قال قَتادة فى قوله تعالى « وسيدا » قال : فى العلم والعبادة . ابن جُبير والضحاك : فى العلم والتُّقى . مجاهد : السيّد الكريم . ابن زيد : الذى لا يغلبه الغضب . وقال الزجاج : السيّد الذى يفوق أقرانه فى كل شىء من الخير . وهذا جامع . وقال الكِسائىّ : السيد من المَعز المسِنّ . وفى الحديث "ثَنِيٌّ من الضأن خير من السيّد من المعز" . قال :

سواءٌ عليه شاةُ عامٍ دَنتْ له * ليذبحها للضّيف أم شاةُ سيّد

(وحَصُورا) أصله من الحصر وهو الحبس . حَصَرنى الشىء وأحصرنى إذا حبسنى . قال ابن ميّادة :

وما هجرُ ليلَى أن تكون تباعدتْ * عليكَ ولا أن أحْصَرتكَ شُغولُ

وناقة حصور : ضيّقة الإحليل . والحَصُور : الذى لا يأتى النساء كأنه مُحجِم عنهن؛ كما يقال: رجل حصور وحصير إذا حبَس رِفده ولم يخرج ما يخرجه النّدامَى . يقال : شرِب القوم فحصِر عليهم فلان، أى بخِل؛ عن أبى عمرو . قال الأخطل :

وشاربٍ مُرْبِحٍ بالكأس نادمني * لا بالحَصُور ولا فيها بِسَوَّارِ (1)

وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » أى محبسا . والحصير الملك لأنه محجوب . قال لبيد :

وقَماقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنهم (2) * جِنٌّ لدى باب الحصير قِيامُ

فيحيى عليه السلام حصور ، فعول بمعنى مفعول لا يأتى النساء ؛ كأنه ممنوع مما يكون فى الرجال ؛ عن ابن مسعود وغيره . وفعول بمعنى مفعول كثير فى اللغة ، من ذلك حلوب بمعنى محلوبة ؛ قال الشاعر :

فيها آثنتان وأربعون حَلُوبةً * سُودًا كخافية الغراب الأسحمِ (3)

وقال ابن مسعود أيضا وابن عباس وابن جُبير وقَتادة وعطاء وأبو الشعثاء والحسنُ والسُّدّى وابن زيد : هو الذى يكُفّ عن النساء ولا يقربهن مع القدرة . وهذا أصح لوجهين : أحدهما أنه مَدْحٌ وثناءٌ عليه ، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسَب دون الجِبِلّة فى الغالب . الثانى أن فعولا فى اللغة من صيغ الفاعلين ؛ كما قال (4) :

ضَروبٌ بنصل السيف سُوقَ سِمانِها * اذا عَدِموا زادا فإنك عاقِرُ

فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات . ولعلّ هذا كان شرعَه ؛ فأما شرعُنا فالنكاح كما تقدّم . وقيل : الحصور العِنّين الذى لا ذَكَر له يتأتّى له به النكاح ولا يُنْزِل ؛ عن ابن عباس أيضا وسعيد ابن المسيب والضحاك . وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ”كلّ ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذّبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى

(1) سوار : معربد وثاب . وقد روى « سآر » بوزن سعّار ؛ أى أنه لا يسئر فى الاناء سؤرا بل يشتفه كله .

(2) القماقم من الرجال : السيد الكثير الخير الواسع الفضل . والقماقم العدد الكثير .

(3) البيت لعنترة العبسى فى معلقته . والخوافى : أواخر ريش الجناح مما يلى الظهر .

(4) البيت لأبى طالب بن عبد المطلب . مدح رجلا بالكرم فيقول : يضرب بسيفه سوق السمان من الإبل للأضياف اذا عدموا الزاد ولم يظفروا بجواد لشدة الزمان وكَلَبه ، وكانوا اذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها . (عن شرح الشواهد) .

ابن زكريا فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين" - ثم أهوى النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده الى قَذاة[1] من الأرض فأخذها وقال : "كان ذَكَره مثل هذه القذاة" . وقيل : معناه الحابس نفسَه عن معاصي الله جل وعز . «ونبيًّا من الصالحين» قال الزجاج : الصالح الذى يؤدّى لله ما ٱفترض عليه، وإلى الناس حقوقَهم .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

قيل : الرب هنا جبريل، أى قال لجبريل : ربِّ - أى يا سيدى - أنَّى يكون لى غلام؟ يعنى ولدا؛ وهذا قول الكلبيّ . وقال بعضهم : قوله «رب» يعنى اللهَ تعالى . «أنّى» بمعنى كيف، وهو فى موضع نصب على الظرف . وفى معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما أنه سأل هل يكون له الولد وهو وٱمرأته على حاليهما أو يُرَدّان الى حال مَن يَلِد؟ . الثانى سأل هل يُرزق الولد من ٱمرأته العاقر أو من غيرها . وقيل : المعنى بأىّ منزلة استوجب هذا وأنا وٱمرأتى على هذه الحال؛ على وجه التواضع . ويروى أنه كان بين دعائه والوقتَ الذى بُشِّر فيه أربعون سنة، وكان يوم بشر ابن تسعين سنة وٱمرأته قريبة السنّ منه . وقال ابن عباس والضحاك : كان يوم بشر ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة؛ فذلك قوله «وٱمرأتى عاقر» أى عَقيم لا تلد . يقال : رجل عاقر وامرأة عاقر بيّنة العقر . وقد عَقُرت وعَقُر (بضم القاف فيهما) تعقر عُقْرا صارت عاقرا؛ مثل حسنت تحسن حسنا؛ عن أبى زيد . وعُقارة أيضا . وأسماء الفاعلين من فعُل فعيلة؛ يقال : عظمت فهى عظيمة؛ وظرفت فهى ظريفة . وإنما قيل عاقر لأنه يراد به ذات عُقْر على النسب . ولو كان على الفعل لقال : عقرت فهى عقيرة كأن بها عقرا؛ أى كبرا من السنّ يمنعها من الولد . والعاقر : العظيم من الرمل لا ينبت شيئا . والعُقْر أيضا مهر المرأة اذا وُطئت على شُبهة . وبيضة العُقْر : زعموا هى بيضة الديك؛ لأنه يبيض فى عمره بيضة واحدة الى الطّول . وعُقْر النار أيضا

(١) القذاة : ما يقع فى العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وسطها ومعظمها . وعُقْر الحوض : مؤخّره حيث تقف الإبل إذا وردت؛ يقال : عُقْر وعُقُر مثل عُسْر وعُسُر، والجمع الأعقار فهو لفظ مشترك . والكاف فى قوله «كذلك» فى موضع نصب، أى يفعل الله ما يشاء مثل ذلك . والغلام مشتق من الغُلْمة وهو شدّة طلب النكاح. واغتلم الفحل غُلْمة هاج من شهوة الضِّراب . وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيّة :

شفاها من الداء العُضال الذى بها * غلامٌ إذا هَزَّ القنــاة ســقاها

والغــلام الطارّ الشارب . وهو بيّن الغُلُومة والغلوميّة ، والجمع الغِلْمة والغِلمان . ويقال : إن الغَيْلم الشابّ والجارية أيضا . والغَيْلم : ذكر السُّلَحْفاة . والغيلم موضع . واغتلم البحر هاج وتلاطمت أمواجه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِى آيَةً ﴾ «جعل» هنا بمعنى صيّر لتعديه إلى مفعولين . و « لى » فى موضع المفعول الثانى . ولمـا بُشِّر بالولد ولم يَبْعُد عنده هذا فى قدرة الله تعالى طلب آية ــ أى علامة ــ يعرف بها صحة هذا الأمر وكونَه من عند الله تعالى؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآيةَ بعد مُشافهة الملائكة إياه؛ قاله أكثر المفسرين . قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض خرس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب مّا . قال ابن زيد: إن زكريا عليه السلام لمـا حملت زوجه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدا، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله؛ فإذا أراد مقاولة أحد لم يطقه .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ الرمز فى اللغة الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل فى الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين؛ وأصله الحركة. وقيل: طلبَ تلك الآيةَ زيادة طمأنينة . المعنى: تمّم النعمة بأن تجعل لى آية، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة . فقيل له : آيتك

ألّا تكلم الناس ثلاثة أيام؛ أى تمنع من الكلام ثلاث ليال. دليل هذا القول قوله تعالى بعد بُشرى الملائكة له . « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » أى أوجدتك بقدرتى فكذلك أوجد لك الولد . واختار هــذا القول النحاس وقال : قول قَتادة إن زكريا عوقب بترك الكلام قول مرغوب عنه؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا أنه أذنب ولا أنه نهاه عن هــذا . والقول فيه أن المعنى اجعل لى علامة تدل على كون الولد، إذ كان ذلك مُغَيَّباً عنى . « ورمزا » نصب على الاستثناء المنقطع؛ قاله الأخفش . وقال الكسائىّ : رَمَز يَرْمُز ويَرمِز . وقرئ «إلا رَمَزا» بفتح الميم و « رُمُزا » بضمها وضم الراء، الواحدة رمزة .

الثالثــة — فى هذه الاية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود فى كثير من السُّنّة . وآكد الإشارات ما حكم به النبىّ صلى الله عليه وسلم من أمر السوداء حين قال لها : "أين الله"؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : "أعتقها فإنها مؤمنة". فأجاز الإسلامَ بالإشارة الذى هو أصل الديانة الذى يُحرز الدمَ والمالَ وتُستحق به الجنة ويُنجَى به من النــار . وحكم بإيمــانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك؛ فيجب أن تكون الإشارة عاملةً فى سائر الديانة، وهو قول عامة الفقهاء . وروى ابن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق أنه يلزمه . وقال الشافعىّ فى الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس فى الرَّجْعــة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف، وإن شُكّ فيها فهذا باطل، وليس ذلك بقياس وإنما هو استحسان. والقياس فى هذا كله أنه باطل لأنه لا يتكلم ولا تُعقل إشارته . قال أبو الحسن بن بَطّال : وإنمــا حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التى جاءت بجواز الإشارات فى أحكام مختلفة فى الديانة . ولعــل البخارىّ حاول بترجمته « باب الاشارة فى الطلاق والأمور » الردَّ عليــه . وقال عطاء : أراد بقوله « أَلّا تُكَلِّمَ النّاس» صوم ثلاثة أيام . وكانوا إذا صاموا لا يتكلمون إلا رمزا . وهذا فيه بُعد . والله أعلم .

الرابعـــة — قال بعض من يجيز نسخ القرآن بالسُّنّة: إن زكريا عليه السلامُ مُنع الكلامَ وهو قادر عليــه، وإنه منسوخ بقوله عليــه السلام : "لا صُمتُ يوما إلى الليل" . وأكثر

العلماء على أنه ليس بمنسوخ، وأن زكريا إنما مُنع الكلام بآفة دخلت عليه منعته إياه، وتلك الآفة عدم القدرة على الكلام مع الصحة؛ كذلك قال المفسرون . وذهب كثير من العلماء إلى أنه "لا صُمتُ يوما إلى الليل" إنما معناه عن ذكر الله . وأما عن الهذر وما لا فائدة فيه، فالصّمت عن ذلك حسن .

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أمره بألّا يترك الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه ؛ على القول الأول . وقد مضى في البقرة(١) معنى الذكر . قال محمد ابن كعب القُرَظيّ : لو رُخّص لأحد في ترك الذِّكْر لرُخّص لزكريا بقول الله عز وجل « ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا » ولرُخّص للرجل يكون في الحرب بقول الله عز وجل : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا » . ذكره الطبرى . « وسَبِّح » أى صلِّ ؛ سُمّيت الصلاة سُبْحة لما فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء . و « العشيّ » جمع عَشِيّة . وقيل: هو واحد . وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب؛ عن مجاهد . وفي الموطأ عن القاسم بن محمد قال : ما أدركتُ الناس إلا وهم يصلّون الظهر بعشيّ . « والإبكار » من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أى اختارك، وقد تقدّم(٢) . ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أى من الكفر ؛ عن مجاهد والحسن . الزجاج : عن سائر الأدناس من الحيض والنفاس وغيرهما . واصطفاك لولادة عيسى . ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعنى عالَمِي زمانها ؛ عن الحسن وابن جُريج وغيرهما . وقيل : على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور ؛ وهو الصحيح على ما نبينه، وهو قول الزجاج وغيره . وكرر الاصطفاء لأن معنى الأوّل الاصطفاء لعبادته ، ومعنى الثانى

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٣١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٦ طبعة ثانية .

لولادة عيسى . وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كَمُلَ من الرجال كثير ولم يَكْمُل من النساء غيرُ مريمَ بنتِ عمرانَ وآسيةَ امرأةِ فرعونَ وإنّ فضل عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد على سائر الطعام" . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : الكمال هو التناهي والتمام . ويقال في ماضيه «كَمُل» بفتح الميم وضمها، ويكمل في مضارعه بالضم . وكمال كل شيء بحَسَبه . والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصّةً . ولا شك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياءُ ثم يليهم الأولياء من الصدّيقين والشهداء والصالحين . وإذا تقرر هذا فقد قيل : إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوّة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيّتين ، وقد قيل بذلك . والصحيح أن مريم نبيّة ؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة المَلَك كما أوحى إلى سائر النبيين حسْب ما تقدّم ويأتي بيانه أيضا في « مريم » . وأمّا آسية فلم يَرِد ما يدل على نبوّتها دلالة واضحة بل على صدّيقيتها وفضلها، على ما يأتي بيانه في « التحريم » .

ورُوِي من طرق صحيحة أنه عليه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة : "خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسية بنتُ مُزاحم امرأةُ فرعون وخديجةُ بنتُ خويلد وفاطمةُ بنت محمد" . ومن حديث ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون" . وفي طريق آخر عنه : "سيّدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمةُ وخديجةُ" . فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حوّاء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلّغتها الوَحْيَ عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء ؛ فهي إذًا نبيّة والنبيّ أفضل من الوليّ فهي أفضل من كل النساء : الأولين والآخرين مطلقا . ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية . وكذلك رواه موسى بن عُقْبة عن كُرَيب عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سيّدة نساء العالمين مريمُ ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية" . وهذا حديث حسن يرفع الإشكال . وقد خصّ الله مريم بما لم يؤته أحدا من النساء؛ وذلك أن روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ في دِرعها ودنا منها للنفخة؛ فليس هذا لأحد من النساء . وصدّقت بكلمات

ربها ولم تسأل آية عند ما بُشِّرت كما سأل زكريا صلى الله عليه وسلم من الآية ؛ ولذلك سماها الله فى تنزيله صِدِّيقةً فقال : « وأمّه صدّيقة » . وقال : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » فشهد لها بالصدّيقية وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقنوت . وإنما بُشِّر زكريا بغلام فلحظ الى كبر سنّه وعقامة رحم امرأته فقال : أَنَّى يكون لى غلام وامرأتى عاقر ؛ فسأل آية . وبُشِّرت مريم بالغلام فلحظت أنها بِكْرٌ ولم يمسسها بشر فقيل لها : « كذلك قال ربك » فاقتصرت على ذلك ، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كُنْهَ هذا الأمر ، ومن لامرأة فى جميع نساء العالمين من نساء بنات آدم ما لها من هذه المناقب ! . ولذلك رُوى أنها سبقت السابقين مع الرسل الى الجنة ؛ جاء فى الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : "لو أقسمتُ لبرَرْتُ لا يدخل الجنة قبل سابق أمتى إلا بضعة عشر رجلا منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم بنتُ عمران" . وقد كان يحق على من انتحل علم الظاهر واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا سيّد ولد آدم ولا فخر" وقولَه حيث يقول : "لواء الحمد يوم القيامة بيدى ومفاتيح الكَرَم بيدى وأنا أوّل خطيب وأوّل شفيع وأوّل مُبَشِّر وأوّل وأوّل" . فلم ينل هذا السؤدد فى الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم فى الباطن . وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله فى التنزيل بالصدّيقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية . ومن قال لم تكن نبيّةً قال : إن رؤيتها للملَك كما رؤى جبريل عليه السلام فى صفة دِحْيَة الكَلْبىّ حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء . والأوّل أظهر وعليه الأكثر . والله أعلم .

قوله تعالى : يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أى أطيلى القيام فى الصلاة ؛ عن مجاهد . قَتادة : أَديمى الطاعة . وقد تقدّم القول فى القنوت[1] . قال الأوزاعىّ : لما قالت لها الملائكة ذلك قامت فى الصلاة حتى ورِمت

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ طبعة ثانية و جـ ٣ ص ٢١٣ طبعة أولى وثانية .

قدماها وسالت دما وقَيْحا عليها السلام . ﴿ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى ﴾ قدّم السجود ها هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب ؛ وقد تقدّم الخلاف فى هذا فى البقرة عند قوله تعالى : « إنّ الصفا والمروة من شعائر الله » . فإذا قلت : قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد ، فعلى هذا يكون المعنى واركعى واسجدى . وقيل : كان شرعهم السجود قبل الركوع . ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ قيل : معناه ٱفعلى كفعلهم و إن لم تُصلّى معهم . وقيل : المراد به صلاة الجماعة . وقد تقدّم فى البقرة[1] .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ أى الذى ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فيه دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب ؛ وأخبر عن ذلك وصدّقه أهل الكتاب بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « نوحيه اليك » فردّ الكناية الى ذلك فلذلك ذكّر . والإيحاء هنا الإرسال إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوحى يكون إلهاما وإيماء وغير ذلك . وأصله فى اللغة إعلام فى خفاء ؛ ولذلك صار الإلهام يُسمّى وحيا ؛ ومنه « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ » وقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » وقيل : معنى « أوحيت الى الحواريين » أمرتهم ؛ يقال : وَحَى وأَوْحَى ، ورَمَى وأَرْمَى بمعناه . قال العجّاج :

* أَوْحَى لها القرارَ فاستقرّتِ *

أى أمر الأرض بالقرار . وفى الحديث : " الوَحَى الوَحَى " وهو السرعة ؛ والفعل منه تَوَحّيت تَوَحِّيًا . قال ابن فارس : الوَحْى الإشارة والكتابة والرسالة ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك

(١) راجع المسألة الخامسة وما بعدها جـ ١ ص ٣٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

حتى يعلمه وَحْيُ كيف كان . والوَحِيّ السريع . والوَحى الصَّوْت ؛ ويقال : استوحيناهم أى استصرخناهم . قال :

* أوحيت ميمونا لها والأزرق *

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى وما كنت يامحمد لديهم ، أى بحضرتهم وعندهم . ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ جمع قلم ؛ من قَلَمه إذا قطعه . قيل : قداحهم وسهامهم . وقيل : أقلامهم التى كانوا يكتبون بهـا التوراة ، وهو أجود ؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال « ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ » . إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التى كانت عليها الجاهلية تفعلها . ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أى يحضنها ، فقال زكريا : انا أحقّ بهـا ، خالتها عنـدى . وكانت عنده أشياع بنت فاقود أختُ حَنّة بنت فاقود أمّ مريم . وقال بنو اسرائيل : نحن أحقّ بها ، بنت عالمنا . فاقترعوا عليها وجاء كل واحد بقَلَمه ، واتفقوا أن يجعلوا الأقلام فى المـاء الجارى فمن وقف قلمه ولم يُجره المـاء هو حاضنها . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فَجَرَت الأقلام وعال قلم زكريا " . وكانت آية له لأنه نبيّ تجرى الآيات على يديه . وقيل غير هذا . و « أيّهم يكفل مريم » ابتداء وخبر فى موضع نصب بالفعل المضمر الذى دل عليه الكلام ؛ التقدير : ينظرون أيهم يكفل مريم . ولا يعمل الفعل فى لفظ « أى » لأنها استفهام .

الثالثـــة ــ استدلّ بعض علمائنا بهذه الاية على إثبات القرعة ، وهى اصل فى شرعنا لكل من أراد العدل فى القسمة ، وهى سُنّة عند جمهور الفقهاء فى المستويين فى الحجـة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظِّنة عمن يتـولّى قسمتهم ، ولا يفضُل أحد منهم على صاحبه اذا كان المقسوم من جنس واحد اتّباعا للكتاب والسنة . وردّ العملَ بالقرعة أبو حنيفة وأصحابه ، وردّوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التى نهى الله عنها . وحكى ابن المنذر عن أبى حنيفة أنه جوّزها وقال : القرعة فى القياس لا تستقيم ، ولكنا تركنا القياس فى ذلك وأخذنا بالآثار والسُّنة . قال أبو عبيد : وقد عُمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن المنذر . واستعمال القرعة

كالإجماع من أهل العلم فيما يُقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردّها. وقد ترجم البخاريّ في آخر كتاب الشهادات (باب القُـرعة في المُشكلات وقولِ الله عزّ وجلّ « إذ يلقون أقلامهم») وساق حديث النعمان بن بَشِير : " مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن(١) فيها مثل قوم آستهموا على سفينة..." الحديث. وسيأتي في «الأنفال» إن شاء الله تعالى، وفي سورة «الزخرف» أيضا بحول الله سبحانه . وحديثَ أمّ العلاء وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهْمُه في السُّكْنَى حين اقترعت الأنصار سُكْنَى المهاجرين ، الحديث . وحديثَ عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها ؛ وذكر الحـــديث .

وقـد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك؛ فقال مرّة : يُقرع للحـديث . وقال مرّة : يسافر بأوفقهنّ له في السفر . وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لآستهموا " والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . وكيفية القُرْعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف . واحتج أبو حنيفة بأن قال : إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبيّ صلى الله عليه وسـلم كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز . قال ابن العربيّ : « وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاحّ(٢) ؛ فأمّا ما يخرجه التّراضي [فيـه(٣)] فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجرى مع موضع التّراضي، فإنها لا تكون أبدا مع التراضي» وإنما تكون فيما يَتَشاحّ الناس فيه ويُضَنّ به . وصفة القرعة عند الشافعيّ ومن قال بها : أن تُقطع رِقاع صغار مسـتوية فيكتب في كل رقعة آسم ذي السهم ثم تجعل في بنادق طين مسـتوية لا تفاوت فيهـا ثم تُجفّف قليلا ثم تلقى في ثوب رجل لم يحضر ذلك ويغطّى عليهـا ثوبه ثم يدخل يده ويخرج فإذا خرج اسم رجل أُعطى الجزء الذي أُقرع عليه .

(١) كذا في نسخ الأصل، وهو لفظ البخاري عن النعمان في « كتاب المظالم » . وروايتـه . في « كتاب الشهادات » : «... مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل ...» . والمدهن : الذي يرائي .

(٢) تشاح الخصمان : أراد كل أن يكون هو الغالب . (٣) زيادة عن أحكام القرآن لابن العربي .

الرابعــة ـ ودلت الآية أيضا على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدّة ؛ وقد قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ابنة حمزة ـ واسمها أمة الله ـ بجعفر وكانت عنده خالتها ، وقال : " إنما الخالة بمنزلة الأم " وقد تقدّمت فى البقرة هذه المسألة (١) . وخرّج أبو داود عن علىّ قال : خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بابنة حمزة فقال جعفر : أنا آخذها أنا أحقّ بها ابنة عمّى وخالتها عندى ، وإنما الخالة أمّ . فقال علىّ : أنا أحق بها ابنة عمى وعندى ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى أحقّ بها . وقال زيد : أنا أحق بها ، أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها . فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر حديثا قال : " وأما الجارية فأقضى بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخالة أمّ " . وذكر ابن أبى خَيْثمة أن زيد بن حارثة كان وَصىّ حمزة فتكون الخالة على هذا أحق من الوَصىّ ويكون ابن العمّ إذا كان زوجا غير قاطع بالخالة فى الحضانة وإن لم يكن مَحْرَمًا لها .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٤٦) ﴾

دليل على نبوّتها كما تقدّم . و « إذ » متعلقة بيختصمون . ويجوز أن تكون متعلقة بقوله : « وما كنت لديهم » . « بكلمة منه » قرأ أبو السَّمّال بكِلْمة منه ، وقد تقدّم . « اسمه المسيح » ولم يقل اسمها لأن معنى كلمة معنى ولد . والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصدّيق ؛ قاله إبراهيم النَّخعىّ . وهو فيما يقال معرّب وأصله الشين وهو مشترك . قال ابن فارس : المَسِيح العَرَق ، والمَسِيح الصدّيق ، والمَسِيح الدرهم الأطلس لا نقش فيه . والمَسْح الجماع ؛ يقال مسحها . والأَمْسح : المكان الأملس . والمسحاء المرأة الرسحاء التى لا أسْتَ لها . وبفلان مَسْحة من جمال . والمسائح قِسِىٌّ جياد ، واحدتها مَسِيحة . قال :

(١) راجع جـ ٣ ص ١٦٤ طبعة أولى وثانية .

لهــا مسائحُ زُورٌ فى مراكِضها * لِينٌ وليس بهـا وهْن ولا رَقَق[1]

واختلف فى المسيح آبن مريم ممـا ذا أخذ؛ فقيل : لأنه مسح الأرض، أى ذهب فيهـا فلم يستكِنّ بِكِنّ . ورُوى عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برِئ ؛ فكأنه سمى مسيحا لذلك، فهو على هــذا فعيل بمعنى فاعل . وقيــل : لأنه ممسوح بدُهن البركة، كانت الأنبيـاء تُمسح به طيِّبِ الرائحة ؛ فاذا مُسح به عُلم أنه نبىّ . وقيــل : لأنه كان ممســوح الأخمصين . وقيل : لأن الجمــال مسحه، أى أصابه وظهر عليه . وقيل : إنمـا سُمّى بذلك لأنه مُسح بالطُّهْر من الذنوب . وقال أبو الهَيْثم : المسيح ضِــد المسيخ ؛ يقال : مسحه الله أى خلقه خلقا حسنا مباركا . ومسخه أى خلقه خلقا ملعونا قبيحا . وقال آبن الأعرابى : المسيح الصــديق ، والمسيخ الأعور ، وبه سمى الدّجال . وقال أبو عبيد : المسيح أصــله بالعبرانية مِشيحا بالشين فعُرّب كما عُرّب موشى بموسى . وأما الدّجال فسُمّى مسيحا لأنه ممسوح العينين . وقد قيــل فى الدجال مِسّيح بكسر الميم وشد السين . وبعضهم يقــول كذلك بالخاء المنقوطة . وبعضهم يقول مَسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف؛ والأوّل أشهر وعليه الأكثر. سُمّى به لأنه يسيح فى الأرض أى يطوفهـا ويدخل جميع بُلدانها إلا مكّةَ والمدينــة وبيتَ المقدس ؛ فهو فعيل بمعنى فاعل . فالدجال يمسح الأرض مِحنة، وآبن مريم يمسحها مِنحة ، وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول . وقال الشاعر :

إنّ المَسيح يقتــل المسيخا *

وفى صحيح مســلم عن أنس بن مالك قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "ليس من بلد إلا سيطؤه الدّجال إلا مكّةَ والمدينــةَ " الحديث . ووقع فى حديث عبد الله بن عمــرو "إلا الكعبةَ وبيتَ المقدس" ذكره أبو جعفر الطبرى . وزاد أبو جعفر الطّحاوىّ "ومسجد الطور"؛ رواه من حديث جنادة بن أبى أميّــة عن بعض أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وفى حديث أبى بكر بن أبى شيبة عن سَمُرة بن جُنْدُب عن النبىّ

(1) زور: جمع زوراء وهى المائلة . والوهن والرقق : الضعف .

صلى الله عليه وسلم " وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرمَ و بيتَ المقدس وأنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس" وذكر الحديث . وفى صحيح مسلم : "فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقىَّ دمشق بين مَهْرُودتين (١) واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدّر منه جُمان (٢) كاللؤلؤ فلا يحلّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات؛ ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ (٣) فيقتله" الحديث بطوله (٤) . وقد قيل : إن المسيح اسم لعيسى غير مشتق سمّاه الله به . فعلى هذا يكون عيسى بدلا من المسيح من البدل الذى هو هو . وعيسى اسم أعجمى فلذلك لم ينصرف . وإن جعلته عربيًّا لم ينصرف فى معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف تأنيث . ويكون مشتقًّا من عاسه يعُوسه إذا ساسه وقام عليه . ﴿وَجِيهًا﴾ أى شريفا ذا جاه وقدر، وانتصب على الحال؛ قاله الأخفش . ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى وهو معطوف على « وجيها » أى ومقربا؛ قاله الأخفش . وجمع وجيه وُجَهاء ووِجاه . ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ عطف على « وجيها »؛ قاله الأخفش أيضا . و « المهد » مضجع الصبىّ فى رضاعه . ومهّدت الأمر هيأته ووطأته . وفى التنزيل « فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » . وامتهد الشىء ارتفع كما يمتهد سنام البعير . ﴿وَكَهْلًا﴾ الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة . وامرأة كهلة . واكتهلت الروضة إذا عمّها النَّور . يقول : يكلم الناس فى المهد آية ويكلمهم كهلا بالوحْى والرسالة . وقال أبو العباس : كلّمهم فى المهد حين برّأ أمه فقال : «إنى عبد الله» الآية . وأما كلامه وهو كهل فاذا أنزله الله تعالى [من السماء] (٥) أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم «إنى عبد الله» كما قال فى المهد . فهاتان آيتان وحجتان . قال المَهْدَوى : وفائدة الاية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم فى المهد و يعيش إلى أن يكلمهم كهلا، إذ كانت العادة أن من تكلم فى المهد لم يعش .

---

(١) قوله : مهرودتين ، أى فى شقتين أو حلتين . وقيل : الثوب المهرود الذى يصبغ بالورس ثم بالزعفران .

(٢) الجمان (بضم الجيم وتخفيف الميم) : حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار .

(٣) لد (بضم اللام وتشديد الدال) : قرية بيت المقدس من نواحى فلسطين .

(٤) راجع صحيح مسلم جـ ٢ ص ٣٧٦ طبع بلاق . (٥) الزيادة عن البحر لأبى حيان .

قال الزجاج : « وكهلا » بمعنى ويكلم الناس كهلا . وقال الفرّاء والأخفش : هو معطوف على « وجيها » . وقيل : المعنى ويكلم الناس صغيرا وكهلا . وروى ابن جُريج عن مجاهد قال : الكهل الحليم . النحاس : هذا لا يُعرف فى اللغة ، وإنما الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين . وقال بعضهم : يقال له حَدَث إلى ستّ عشرة سنة . ثم شابّ إلى اثنين وثلاثين . ثم يَكْتهل فى ثلاث وثلاثين ؛ قاله الأخفش . « ومن الصالحين » عطف على « وجيها » أى وهو من العباد الصالحين . ذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا عبد الله بن إدريس عن حُصين عن هلال بن يِسَاف . قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى وصاحب يوسف وصاحب جُريج ، كذا قال : «وصاحب يوسف» . وهو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جُريج ... وبينا صبيّ يرضع من أمّه" وذكر الحديث بطوله[1] . وقد جاء من حديث صُهيب فى قصة الأخدود "أن امرأة جيء بها لتُلْقَى فى النار على إيمانها ومعها صبيّ" . فى غير كتاب مسلم "يرضع فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أمّهْ اصبرى فإنك على الحق" .

وقال الضحاك : تكلم فى المهد ستة : شاهد يوسف وصبيّ ماشطة امرأة فرعون وعيسى ويحيى وصاحب جُريج وصاحب الجبّار . ولم يذكر الأخدود؛ فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة . ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : "لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة" بالحصر فإنه أخبر بما كان فى علمه مما أوحى إليه فى تلك الحال . ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به .

قلت : أما صاحب يوسف فيأتى الكلام فيه ، وأما صاحب جُريج وصاحب الجبّار وصاحب الأخدود ففى صحيح مسلم . وستأتى قصة الأخدود فى سورة « البروج » إن شاء الله تعالى . وأما صبيّ ماشطة [امرأة] فرعون ، فذكر البيهقيّ عن ابن عباس قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لما أسرى بى سرت فى رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة قالوا ماشطة

---

(١) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٧٦ طبع بلاق .

آبنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت بسم الله فقالت ابنة فرعون أبى قالت ربى وربك وربّ أبيك قالت أولك ربّ غير أبى قالت نعم ربّى وربكِ وربّ أبيكِ اللهُ ـ قال ـ فدعاها فرعون فقال ألك ربّ غيرى قالت نعم ربى وربكَ الله ـ قال ـ فأمر بنُقرة من نُحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها قالت إن لى إليك حاجةً قال ما هى قالت تجمع عظامى وعظامَ ولدى فى موضع واحد قال ذاك لكِ لما لكِ علينا من الحق فأمر بهم فألقوا واحدا واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم فقال قَعِى يا أمّه ولا تقاعسى فإنا على الحق ـ قال ـ وتكلم أربعة وهم صغار هذا وشاهد يوسف وصاحب جُريج وعيسى آبن مريم " .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

أى يا سَيّدى . تخاطب جبريل عليه السلام ؛ لأنه لما تمثّل لها قال لها : إنما أنا رسولُ رَبّكِ لِيَهب لكِ غلاما زكيا . فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد فقالت : أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ أى بنكاح . « وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا » ذكرت هذا تأكيدا ؛ لأن قولها « لم يمسسنى بشر » يشمل الحرام والحلال . تقول : العادة الجارية التى أجراها الله فى خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سِفاح . وقيل : ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد : أمِن قِبل زوج فى المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟ . فرُوى أن جبريل عليه السلام حين قال لها : « كذلك الله يخلق ما يشاء» « قال كذلكِ قال رَبّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ » . نفخ فى جَيب دِرعها وكُمّها ؛ قاله ابن جُريج . قال ابن عباس : أخذ جبريل رُدْنَ[1] قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه فى سورتها إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت

(١) الردن (بالضم) : أصل الكم .

بذلك . وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذُرِّيته بجعل بعض الماء فى أصلاب الآباء وبعضه فى أرحام الأمهات فإذا اجتمع الماءان صارا ولدا، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعا فى مريم بعضه فى رحمها وبعضه فى صُلبها فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها؛ لأن المرأة ما لم تَهِج شهوتها لا تحبل ؛ فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذى كان فى صُلبها فى رَحمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » يعنى إذا أراد أن يخلق خلقا فإنما يقول له كن فيكون . وقد تقدّم فى « البقرة » القول فيه مستوفًى [1] .

قوله تعالى : وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ والحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ ﴾ قال ابن جُريج : الكتاب الكتابة والخط . وقيل : هو كتاب غير التوراة والإنجيل علّمه الله عيسى عليه السلام . ﴿ وَرَسُولًا ﴾ أى ونجعله رسولا . أو يكلمهم رسُولا . وقيل : هو معطوف على قوله « وجيها » . وقال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو فى قوله « ورسولا » مُقْحَمة والرسول حالا للهاء، تقديره ويعلمه الكتاب رسولا . وفى حديث أبى ذرّ الطّويل "وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليهم السلام". ﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ ﴾ أى أصور وأقدر لكم. ﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر « كهيّة » بالتشديد . الباقون بالهمز .

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٧ طبعة ثانية .

والطير يذكر ويؤنث . ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ أى فى الواحد منه أو منها أو فى الطين فيكون طائرا . وطائر وطَيْر مثل تاجر وتَجْر . قال وَهْب : كان يطير ما دام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى . وقيل : لم يخلق غير الخُفَّاش لأنه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ فى القدرة ، لأن لهـا ثَدْيًا وأسنانا وأذنا ، وهى تحيض وتطهر وتلد . ويقال : إنما طلبوا خَلْق خُفَّاش لأنه أعجب من سائر الخلق ؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضَّرع يخرج منه اللبن ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما يرى فى ساعتين : بعد غروب الشمس ساعة وبعـد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جدا، ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة . ويقال : إن سؤالهم كان له على وجه التعنّت فقالوا : أخلق لنـا خُفّاشا واجعل فيه روحا إن كنت صادقا فى مقالتك ؛ فأخذ طينا وجعل منـه خفاشا ثم نفخ فيـه فاذا هو يطير بين السماء والأرض؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله .

قوله تعـالى : ﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾ الأكمه : الذى يولد أعمى ؛ عن ابن عباس . وكذا قال أبو عبيدة قال : هو الذى يولد أعمى ؛ وأنشد لرؤبة :

* فَارتَدّ ارتداد الأكمه *

وقال ابن فارس : الكَمَه العمَى يولد به الإنسان وقد يعرض . قال سُوَيد :

* كَمِهت عيناه حتى ابيضّتا *

مجـاهد : هو الذى يُبصر بالنهار ولا يُبصر بالليل . عكرمة : هو الأعمش ، ولكنه فى اللغة العمى؛ يقال كَمِه يَكْمَه كَمَها وكَمَّهتها أنا إذا أعميتها . والبَرَص معروف وهو بياض يعترى الجلد . والأبرص القمر . وسامٌ أَبْرَص معروف، ويجمع على الأبارص . وخُصّ هذان بالذكر لأنهما عياءان . وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطبّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك . ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾ قيل : أحيا أربعة أنفس : العاذر وكان صديقا له ، وابن العجوز

وابنة العاشر وسام بن نوح ؛ فالله أعلم . فأما العاذر فانه كان تُوفّى قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله وَوَدَكُه يقطر فعاش ووُلد له . وأما ابن العجوز فإنه مرّ به يُحمل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله . وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك ووُلد لها؛ فلما رأوا ذلك قالوا : إنك تحيي من كان موته قريبا فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتة فأحيي لنا سام بن نوح . فقال لهم : دُلّونى على قبره فخرج وخرج القوم معه حتى انتهى الى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه . فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن فى زمانكم شيب ؟ فقال : يا رُوحَ الله ، إنك دعوتنى فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله . فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول ذلك شاب رأسى . فسأله عن النزع فقال : يا روح الله ، إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتى ؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة . فقال للقوم : صدّقوه فإنه نبىّ ؛ فآمن به بعضهم وكذبه بعضهم وقالوا : هذا سحر . وروى من حديث إسماعيل ابن عيّاش قال : حدّثنى محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى ابن مريم كان إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين يقرأ فى الأولى «تبارك الذى بيده الملك» . وفى الثانية «تنزيل» السجدة؛ فإذا فرغ حمِد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم يا خفى يا دائم يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد؛ ذكره البيهقى وقال : ليس إسناده بالقوىّ[1] .

قوله تعالى : ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى بالذى تأكلونه وما تدخرون . وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا : أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندّخر للغد؛ فأخبرهم فقال : يا فلانُ أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وآدخرت كذا وكذا؛ فذلك قوله «أُنَبِّئُكُم» الآية . وقرأ مجاهد والزُّهرىّ والسَّخْتِيانى « وما تَذْخرون » بالذال المعجمة مخففا . وقال سعيد بن جبير وغيره : كان يخبر الصبيان فى الكُتّاب بما يدخرون حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه . قتادة : أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما آدخروه منها خِفية .

(١) ما كان للقرطبى رحمه الله أن يذكره .

قوله تعالى : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ عطف على قوله : « ورسولا » . وقيل : المعنى وجئتكم مصدقا . ﴿ لِمَا بين يديّ ﴾ لما قبلى . ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ ﴾ فيه حذف، أى ولأحل لكم جئتكم . ﴿ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعنى من الأطعمة . قيل : إنما أحلّ لهم عيسى عليه السلام ما حُرّم عليهم بذنوبهم ولم يكن فى التوراة نحو أكل الشحوم وكلّ ذى ظُفر . وقيل : إنما أحلّ لهم أشياء حرّمتها عليهم الأحبار ولم تكن فى التوراة محرّمة عليهم . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون « بعض » بمعنى كلّ ؛ وأنشد لبيد :

ترّاكُ أمكنــةٍ إذا لم أرضها * أو يرتبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

وهذا القول غلط عند أهل النّظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل فى هذا الموضع، لأن عيسى صلى الله عليه وسلم إنما أحلّ لهم أشياء مما حرّمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها ولم يحلّ لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشةً . والدليل على هذا أنه رُوى عن قَتادة أنه قال : جاءهم عيسى بألين مما جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا ؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها . وقرأ النَّخَعِيّ « بعض الذى حَرُم » مثل كرم، أى صار حراما . وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر (١) :

أبا منــذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَنا * حنانَيْكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

يريد بعض الشر أهون من كله . ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إنما وحّد وهى آيات لأنها جنس واحد فى الدّلالة على رسالته .

(١) هو طرفة بن العبد؛ خاطب به عمرو بن هند الملك، وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى من بنى إسرائيل . وأحسّ معناه علِم ووجد؛ قاله الزّجّاج. وقال أبو عبيدة : معنى «أحسّ» عرف، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة . والإحساس : العلم بالشيء؛ قال الله تعالى : « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ » والحَسّ القتل؛ قال الله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ » . ومنه الحديث فى الجراد "إذا حَسّه البرد". ﴿ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى الكفر بالله . وقيل : سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء : أرادوا قتله . ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ استنصرَ عليهم . قال السُّدّى والثورىّ وغيرهما : المعنى مع الله، فإلى بمعنى مع ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ » أى مع . والله أعلم . وقال الحسن : المعنى من أنصارى فى السبيل إلى الله؛ لأنه دعاهم إلى الله عز وجل . وقيل : المعنى من يَضُمّ نصرته إلى نصرة الله عز وجل . فإلى على هذين القولين على بابها، وهو الجيّد . وطلبَ النُّصرة ليحتمى بها من قومه ويظهر الدعوة ؛ عن الحسن ومجاهد . وهذه سنة الله فى أنبيائه وأوليائه . وقد قال لوط : « لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة وأصحاب ينصروننى . ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أى أنصار نبيّه ودينه . والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام، وكانوا اثنى عشر رجلا ؛ قاله الكلبى وأبو رَوْق .

واختلف فى تسميتهم بذلك ؛ فقال ابن عباس : سُمّوا بذلك لبياض ثيابهم ، وكانوا صيادين . ابن أبى نَجيح وابن أرْطاة : كانوا قصّارين فسُمّوا بذلك لتبييضهم الثياب . قال عطاء : أسلمتْ مريمُ عيسى إلى أعمال شتّى، وآخر ما دفعته الى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين ، فأراد معلّم عيسى السفر فقال لعيسى : عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فاصبغها . فطبخ عيسى جُبًّا واحدا وأدخل جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك . فقدم الحوارىّ والثياب كلها فى الجُبّ فلما رآها قال : قد أفسدتَها ؛ فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غيرذلك مما كان كلّ ثوب مكتوب عليه صبغه .

فعجب الحوارى ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به ؛ فهم الحواريون . قتادة والضحاك : سُمّوا بذلك لأنهم كانوا خاصّة الأنبياء . يريدان لنقاء قلوبهم . وقيل : كانوا ملوكا ، وذلك أن الملك صنع طعاما فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لاتنقص ، فقال الملك له : من أنت ؟ قال : عيسى آبن مريم . قال : إنى أترك مُلْكى هذا وأتبعك . فانطلق بمن آتبعه معه ، فهم الحواريون ؛ قاله ابن عون . وأصل الحَوَر فى اللغة البياض . وحوّرت الثياب بيضتها . والحُوَّارَى من الطعام ما حُوِّر ، أى بُيِّض . وآحور آبيض . والجَفْنة المحوّرة : المبيضة بالسنام . والحَوَارِىّ أيضا الناصر ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل نبىّ حوارىّ وحوارِىّ الزبير " . والحواريات : النساء لبياضهن ؛ وقال :

فقل للحواريات يبكين غيرنا * ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

قوله تعالى : رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ أى يقولون ربنا آمنا . ﴿ بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ يعنى فى كتابك وما أظهرته من حكمك . ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ يعنى عيسى . ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس . والمعنى أثبت أسماءنا مع أسمائهم وآجعلنا من جملتهم . وقيل : المعنى فاكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق .

قوله تعالى : وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ يعنى كفار بنى إسرائيل الذى أحس منهم الكفر ، أى قتله . وذلك أن عيسى عليه السلام لما أخرجه قومه وأمّه من بين أظهرهم عاد اليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهمّوا بقتله وتواطئوا على الفتك به ، فذلك مكرهم . ومكر الله : استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون ؛ عن الفراء وغيره . قال ابن عباس : كلما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة . وقال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرهم ؛ فسمى الجزاء باسم الابتداء ؛ كقوله :

«اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» ، «وَهُوَ خَادِعُهُمْ» . وقد تقدم فى البقرة . وأصل المكر فى اللغة الاحتيال والخداع . والمَكْر : خَدالة الساق . وامرأة ممكورة الساقين . والمكر ضرب من الثياب . ويقال : بل هو المَغَرة ؛ حكاه ابن فارس . وقيل : « مكر الله » إلقاء شبه عيسى على غيره ورَفْع عيسى إليه . وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرفعه جبريلُ من الكُوّة إلى السماء ، فقال مَلِكُهم لرجل منهم خبيث يقال له يهوذا : ادخل عليه فاقتله ، فدخل الخوخة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى ، فلما خرج رأوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه . ثم قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا ؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضا ؛ فذلك قوله تعالى : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ » . وقيل غير هذا على ما يأتى .

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ اسم فاعل من مَكَرَ يَمْكُرُ مكرا . وقد عدّه بعض العلماء فى أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به : يا خير الماكرين أمْكُرْ لى . وكان عليه السلام يقول فى دعائه : " اللَّهُمّ امكر لى ولا تمكر عليّ " . وقد ذكرناه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى . والله أعلم .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ العامل فى « إذ » مكروا ، أو فعل مضمر . وقال جماعة من أهل المعانى منهم الضحاك والفراء فى قوله تعالى : « إنى متوفيك ورافعك الىّ » على التقديم والتأخير ؛ لأن الواو لا توجب الرتبة . والمعنى : إنى رافعك الىّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ؛ كقوله : « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى » . والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما . قال الشاعر :

ألا يا نخلة من ذات عرق * عليك ورحمة الله السـلام

أى عليك السلام ورحمة الله . وقال الحسن وابن جُريج : معنى متوفّيك قابضك ورافعك الى السماء من غير موت ؛ مثل توفّيت مالى من فلان أى قبضته . وقال وهب بن مُنبّه : توفى الله عيسى عليه السـلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه الى السماء . وهذا فيه بُعد ؛ فإنه صح فى الأخبـار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزولُه وقتلُه الدّجال على ما بيناه فى كتاب التـذكرة وفى هـذا الكتاب حسب ما تقـدم، ويأتى . وقال ابن زيد : متوفّيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعدُ . وروى ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك مميتك . الربيع ابن أنس : وهى وفاة نوم ؛ قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ » أى ينيمكم لأن النوم أخو الموت ؛ كما قال صلى الله عليـه وسلم لـمـا سئل : أفى الجنة نوم قال : "لا، النومُ أخو الموت والجنةُ لا موت فيها" . أخرجه الدّارَقُطْنِيّ . والصحيح أن الله تعالى رفعه الى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد ، وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس ، وقاله الضحاك . قال الضحاك : كانت القصة لـمـا أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون فى غُرفة وهم اثنـا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مِشكاة الغرفـة ، فأخبر إبليسُ جمعَ اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة. فقال المسيح للحواريّين : أيكم يخرج ويُقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يانبى الله ؛ فألقى إليه مِدرعة(١) من صوف وعمامةً من صوف وناوله عُكّازه وألقى عليه شَبَه عيسى، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه . وأما المسيح فكساه الله الرّيش وألبسه النور وقطع عنه لذة المَطْعم والمَشْرب فطار مع الملائكة . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا أبو معاوية حدّثنا الأعمش عن المِنْهال عن سـعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : لـمـا أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى الى السّماء خرج على أصحـابه وهم اثنا عشر رجلا من عيْنٍ فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال لهم : أمَا إنّ منكم مَن سيكفر بى اثنتى عشرة مرّة بعـد أن آمن بى، ثم قال : أيكم يُلقَى عليه شبهى فيُقتل مكانى ويكون معى

(١) المدرعة (بالكسر) : الدراعة وهى ثوب من كتان .

فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم فقال أنا . فقال عيسى : إجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقـال عيسى : إجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال نعم أنت ذاك . فألقى الله عليه شَبَهَ عيسى عليه السلام . قال : ورفع الله تعالى عيسى من رَوْزَنَة (١) كانت فى البيت الى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرّة بعد أن آمن به ؛ فتفرقوا ثلاث فرق : قالت فرقة : كان فينا الله ما شاء ثم صعد الى السماء ، وهؤلاء اليَعْقُوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النَّسْطُورِيّة . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله و رسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليـه وسلم فقتلوا ؛ فأنزل الله تعـالى « فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَـةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُو » أى آمن آباؤهم فى زمن عيسى على عددهم بإظهار دينهم على دين الكفار « فأصبحوا ظاهرين » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلَنّ ابنُ مريم حَكَمًا عادلا فليَكْسِرَنّ الصليب وليَقْتُلَنّ الخنزير وليَضَعن الجزية ولَتُتْرَكَن القِلاص (٢) فلا يُسعى عليها ولَتَذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ولَيُدْعَوُنّ إلى المـال فلا يقبله أحد". وعنه أيضا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " والذى نفسى بيده ليُهلّنّ ابن مريم بفَجّ الرَّوْحاء (٣) حاجًّا أو مُعْتَمِرًا أو لَيَثْنِيَنَّهما ولا ينزل بشرع مبتدإ فينسخ به شريعتنا بل ينزل مجدِّدا لمـا دَرَس منها متبعها". كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم و إمامكم منكم" ؟ وفى رواية : "فأمّكم منكم" . قال ابن أبى ذِئب . تدرى ما أمّكم منكم؟ . قلت : تخبرُنى . قال : فأمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التذكرة) والحمد لله . و « مُتَوَفِّيكَ » أصله متوفِيُك حذفت الضمة استثقالا ،

---

(١) الروزنة : الكوة . (٢) القلاص (بالكسر) : جمع قلوص وهى الناقة .

(٣) فج الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ؛ كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر والى مكة عام الفتح وعام الحج . (عن معجم ياقوت) .

وهو خبر إنّ . «ورافعك» عطف عليه، وكذا «مُطَهِّرُكَ»، وكذا «وجَاعِلُ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ» .
ويجوز « وجاعل الذين » وهو الأصل (١) . وقيل : إن الوقف التام عند قوله : « وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » . قال النحاس : وهو قول حسن . « وجاعل الذين اتبعوك » يا محمد « فوق الذين كفروا » أى بالحجة و إقامة البرهان . وقيل بالعز والغَلَبة . وقال الضحاك ومحمد آبن أبان : المراد الحواريون . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ يعنى بالقتل والصَّلب والسَّبى والجزية ، وفى الآخرة بالنار . ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع بالابتداء وخبره « نتلوه » . ويجوز : الأمر ذلك، على إضمار المبتدأ .

قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ دليل على صحة القياس. والتشبيه واقع على أن عيسى خُلق من غير أب، كآدم، لا على أنه خُلق من تراب . والشيء قد يُشبَّه بالشيء و إن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا فى وصف واحد ؛ فإن آدم خُلق من تراب ولم يُخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبَّه ما بينهما أنهما خلقا من غير أبٍ ؛ ولأن أصل خلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يُخلق من نفس التراب ،

(١) كذا فى بعض الأصول وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفى البعض الآخر : « وجعل ... » .

ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالاً ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوّله من حال إلى حال، ثم جعله بشرا من غير أب . ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجرانَ حين أنكروا على النبيّ صلى الله عليه وسلم قولَه : "إنّ عيسى عبد الله وكلمته" فقالوا : أرِنا عبدا خُلق من غير أب؛ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: "آدم مَن كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب فآدم عليه السلام ليس له أبٌ ولا أمٌّ" . فذلك قوله تعالى : « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى فى عيسى « إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ » فى آدم «وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً» . ورُوى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك . فقال : "كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث قولكم اتخذ الله ولدا وأكلكم الخنزير وسجودكم للصليب" . فقالوا : مَن أبو عيسى ؟ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » إلى قوله : « فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ » . فدعاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا . فقالوا : أمَا تعرض علينا سوى هذا؟ فقال : "الإسلام أو الجزية أو الحرب" فأقروا بالجزية على ما يأتى . وتم الكلام عند قوله « آدم » . ثم قال : « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فكان . والمستقبل يكون فى موضع الماضى إذا عُرف المعنى . قال الفراء : « الحق من ربك » مرفوع بإضمار هو . أبو عبيدة : هو استئناف كلامٍ وخبره فى قوله « من ربك » . وقيل : هو فاعل، أى جاءك الحق . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكًّا فى أمر عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أى جادلك وخاصمك يا محمد فيه ، أى فى عيسى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأنه عبد الله ورسوله . ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا ﴾ أى أقبلوا . وُضع لمن له جلالة ورِفعة ثم صار فى الاستعمال لكل داع إلى الإقبال، وسيأتى له مزيد بيان فى « الأنعام » . ﴿ نَدْعُ ﴾ فى موضع جزم . ﴿ أَبْنَاءَنَا ﴾ دليل على أن أبناء البنات يُسمّون أبناء ؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء بالحسن والحسين وفاطمةُ تمشى خلفه وعليّ خلفها وهو يقول لهم: " إن أنا دعوت فأمّنوا " وهو معنى قوله ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أى نتضرع فى الدعاء ؛ عن ابن عباس . أبو عبيدة والكسائى : نلتعن . وأصل الابتهال الاجتهاد فى الدعاء باللّعن وغيره . قال لبيد :

فى كُهولٍ سادةٍ من قومه * نظر الدهر إليهم فابتهلْ

أى اجتهد فى إهلاكهم . يقال : بَهَله الله أى لعنه . والبَهْل اللّعن . والبَهْل الماء القليل . وأبهلته إذا خلّيتَه وإرادته . وبهلته أيضا . وحكى أبو عبيدة : بهله الله يبهله بَهْلَةً أى لعنه . قال ابن عباس : هم أهل نجران : السيّدُ والعاقبُ وابنُ الحارث رؤساؤهم . ﴿ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

الثانيــة ــ هذه الاية من أعلام نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبَوْا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرُهم العاقبُ أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادى نارا فإن محمدا نبيّ مرسل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى ؛ فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدّوا فى كل عام ألفَ حُلّة فى صَفَرَ وألفَ حُلّة فى رجب فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بدلا من الإسلام .

الثالثــة ــ قال كثير من العلماء : إن قوله عليه السلام فى الحسن والحسين لما باهل «ندع أبناءنا وأبناءكم» وقولَه فى الحسن : " إن ٱبنى هذا سيّدٌ " مخصوص بالحسن والحسين أن يُسَمَّيا ٱبنى النبيّ صلى الله عليه وسلم دون غيرهما؛ لقوله عليه السلام : " كلّ سَبَب ونَسَب

ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي » . ولهذا قال بعض أصحاب الشافعيّ فيمن أوصى لولد فلان ولم يكن له ولد لصلبه وله ولدُ ٱبنٍ وولدُ ٱبنةٍ إن الوصية لولد الأبن دون ولد الأبنة ؛ وهو قول الشافعيّ . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى « الأنعام والزخرف » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ الإشارة فى قوله « إن هذا » إلى القرآن وما فيه من الأقاصيص ، سميت قصصا لأن المعانى تتتابع فيها؛ فهو من قولهم : فلان يقص أثر فلان ، أى يتبعه . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ « من » زائدة للتوكيد ، والمعنى وما إله إلا الله ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أى الذى لا يُغلب . ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة . وقد تقدّم مثله والحمد لله .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ الخطاب فى قول الحسن وابن زيد والسُّدِّى لأهل نجْران . وفى قول قَتادة وابن جُريج وغيرهما ليهود المدينة، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم فى الطاعة لهم كالأرباب . وقيل : هو لليهود والنصارى جميعا . وفى كتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم الى هِرَقْل « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسولِ الله إلى هِرَقْل عظيم الروم سلامٌ على من ٱتبع الهدى [أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام][1] أَسْلِمْ تَسْلَم

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

[وأَسْلِم][1] يؤتك الله أجرك مرّتين وإن تولّيت فإنّ عليك إثمَ الأرِيسيّين[2]، و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ــ الى قوله : فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» .
لفظ مسلم . والسواء العدل والنَّصفة؛ قاله قتادة . وقال زهير :

أَرُونِى خُطَّةً لا ضيمَ فيها * يُسَوِّى بيننا فيها السَّواءُ

الفراء : و يقال فى معنى العدل سِوًى وسُوًى، فإذا فتحت السين مددت و إذا كسرت أو ضممت قصرت؛ كقوله تعالى : «مَكَانًا سُوًى» . قال : وفى قراءة عبد الله « إلى كلمة عدل بيننا و بينكم » . وقرأ قَعْنَب[3] « كِلْمة» بإسكان اللام، ألقى حركة اللام على الكاف؛ كما يقال كِبْد . فالمعنى أجيبوا الى ما دُعيتم إليه، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها مَيْل عن الحق؛ وقد فسّرها بقوله تعالى : « ألا نعبد إلا الله » فوضع « أن » خفض على البدل من «كلمة»، أو رفع على إضمار مبتدإ، التقدير هى أن لا نعبد إلا الله . أو تكون مفسرة لا موضع لها، ويجوز مع ذلك فى « نعبد » وما عطف عليه الرفع والجزم : فالجزم على أن تكون «أن» مفسرة بمعنى أى ؛ كما قال عز وجل : « أَنِ امْشُوا » وتكون « لا » جازمة . هذا مذهب سيبويه . ويجوز على هذا أن ترفع « نعبد » وما بعده يكون خبرا . ويجوز الرفع بمعنى أنه لا نعبد ؛ ومثله « أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » . وقال الكسائى والفراء : «ولا نشركْ به شيئا ولا يتخذْ» بالجزم على التوهم أنه ليس فى أول الكلام أن .

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى لا نتبعه فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلّله الله تعالى . وهو نظير قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم فى قبول تحريمهم وتحليلهم لمّا لم يحرمه الله ولم يحلّه الله . وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذى لا يستند الى دليل شرعى . قال الكِيَا الطبرى : مثل استحسانات أبى حنيفة فى التقديرات التى قدّرها دون مُسْتندات بيّنة . وفيه ردّ على الروافض الذين يقولون : يجب قبول [قول] الإمام دون إبانة

---

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) الأريس : الأكّار وهو الفلّاح . (٣) هو أبو السمال العدوى .

مستند شرعي، وأنه يحل ما حرّمه الله من غير أن يبين مستندا من الشريعة. وأرباب جمع رب. و « دُون » هنا بمعنى غير.

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عما دُعوا اليه . ﴿ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أى متّصفون بدين الإسلام منقادون لأحكامه معترفون بمـا لله علينا فى ذلك من المنن والإنعـام، غير متخذين أحدًا ربًّا لا عيسى ولا عُزيرا ولا الملائكة ؛ لأنهم بشر مثلنا محدَث كحدوثنا، ولا نقبل من الرهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرّمه الله علينا ، فنكون قد اتخذناهم أربابا . وقال عكرمة : معنى « يتخذ » يسجد . وقد تقدّم أن السجود كان إلى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعاذًا لـمّا أراد أن يسجد ؛ كما مضى فى البقرة بيـانه (١) . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسـول الله ، أينحني بعضنا لبعض ؟ قال "لا" قلنا : أيعانق بعضنا بعضا ؟ قال "لا ولكن تصافحوا" أخرجه ابن ماجه فى سننه. وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان فى سورة « يوسف » ، وفى « الواقعة (٢) » مس القرآن أو بعضه على غير طهارة إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : يَٰٓأَهْـلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الأصل « لِمـا » فحذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر . وهذه الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه ، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعـده ؛ فذلك قوله : « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ » . قال الزجاج : هذه الآية أبين حجـة على اليهود والنصارى؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعـده وليس فيها اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام فى كل كتاب . ويقال : كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى أيضا ألف سنة. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ دحوضَ حجتكم وبطلانَ قولكم. والله أعلم .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) إيراد هذه الجملة هنا غير واضح المناسبة .

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ ﴾ يعنى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم كانوا يعلمونه فيما يجدون من نعته فى كتابهم فحاجّوا فيه بالباطل . ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعنى دعواهم فى إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا . والأصل فى « ها أنتم » أأنتم فأبدل من الهمزة الأولى هاء لأنها أختها؛ عن أبى عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير « هأنتم » مثل هعنتم . والأحسن منه أن يكون الهاء بدلا من همزة فيكون أصله أأنتم . ويجوز أن تكون ها التنبيه دخلت على « أنتم » وحذفت الألف لكثرة الاستعمال . وفى « هؤلاء » لغتان المد والقصر ومن العرب من يقصرها . وأنشد أبو حاتم :

لعمرك إنا والأحاليف هاؤلا * لفى مِحْنة أظفارُها لم تُقَلَّمِ

وهؤلاء هاهنا فى موضع النداء يعنى ياهؤلاء . ويجوز هؤلاء خبر أنتم ، على أن يكون أولاء بمعنى الذين وما بعده صلة له . ويجوز أن يكون خبر « أنتم » حاججتم . وقد تقدّم هذا فى «البقرة»[(١)] والحمد لله .

الثانيــة ــ فى الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له ، والحظر على من لا تحقيق عنده فقال عز وجل : « هَا أَنْتُمْ هٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » . وقد ورد الأمر بالجدال لمن عَلِم وأيقن فقال تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال : يارسول الله ، إن امرأتى ولدت غلاما أسود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل لك من إبل" ؟ قال نعم . قال :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة ، ص ٢٧٤ من هذه الطبعة ثانية .

" ما ألوانها " ؟ قال حُمْر : قال . " هل فيها من أَوْرَق[1] " ؟ قال نعم . قال : " فمن أين ذلك " ؟ قال : لعلّ عِرْقًا نزعه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وهذا الغلام لعلّ عِرْقا نزعه " . وهذا حقيقة الجدال ونهايةٌ في تبيين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة، وبيّن أنه كان على الحنيفيّة الإسلاميّة ولم يكن مشركا . والحنيف : الذي يوحّد ويَحُجّ ويُضَحِّي ويختتن ويستقبل القبلة . وقد مضى في « البقرة » اشتقاقه[2] . والمسلم في اللغة : المتذلل لأمر الله تعالى المنطاع له . وقد تقدّم في «البقرة» معنى الإسلام مستوفًى[3] والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

قال ابن عباس : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمتَ أنّا أَوْلَى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك، فإنه كان يهوديًّا وما بك إلا الحسد؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ أَوْلَى ﴾ معناه أحق ، قيل : بالمعونة والنصرة . وقيل بالحجة . ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ على ملّته وسُنّته . ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ أفرد ذكره تعظيما له ؛ كما قال « فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » وقد تقدّم في « البقرة » هذا المعنى مستوفًى . و « هذا » في موضع رفع عطف على الذين ، و « النبيّ » نعت لهذا أو عطف بيان، ولو نصب لكان جائزا في الكلام عطفا على الهاء في « اتبعوه » . ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ناصرهم . وعن ابن مسعود أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

(١) الأورق : الذي لونه بين السواد والغُبرة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٩ طبعة ثانية .

(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ طبعة ثانية .

" إن لكل نبيّ وُلاةً من النبيّين وإن وليّي منهم أبي وخليلُ ربي — ثم قرأ — إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيّ " .

قوله تعالى : وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

نزلت فى معاذ بن جبل وحُذيفة بن اليَمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بنى النَّضير وقُريظة وبنى قَيْنقاع إلى دينهم . وهذه الآية نظير قوله تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً » . و «من» على هذا القول للتبعيض . وقيل : جميع أهل الكتاب ، فتكون « من » لبيان الجنس . ومعنى « لو يضلونكم » أى يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له . وقال ابن جُرَيج : «يضلونكم» أى يهلكونكم ؛ ومنه قول الأخطل :

كنتَ القذَى فى موجِ أكدرَ مُزْبِدٍ * قذفَ الأتيّ[1] به فضلّ ضلالا

أى هلك هلاكا . ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ نفيٌ وإيجاب . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى يفطنون أنهم لا يصلون إلى إضلال المؤمنين . وقيل : «وما يشعرون» أى لا يعلمون بصحة الإسلام وواجب عليهم أن يعلموا ؛ لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة ، والله أعلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

أى بصحة الآيات التى عندكم فى كتبكم ؛ عن قتادة والسُّدّى . وقيل : المعنى وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التى أنتم مقرّون بها .

قوله تعالى : يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

(١) الأتىّ : كل سيل يأتى من حيث لا تعلم .

اللبس الخلط، وقد تقدم في البقرة[1] . ومعنى هذه الآية والتي قبلها معنى ذلك . ﴿ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ ويجوز «تكتموا» على جواب الاستفهام . ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة في موضع الحال .

قوله تعالى : وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

نزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصّيف وغيرهما قالوا للسّفلة من قومهم : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، يعني أوله . وسُمّي وَجْهًا لأنه أحسنه، وأول ما يواجه منه أوله . قال الشاعر :

وتُضيء في وجه النهار منيرةً * كجُمَانة البحريّ سُلّ نظامها[2]

وقال آخر :

من كان مسرورا بمقتل مالكٍ * فليأت نسوتنا بوجه نهارِ

وهو منصوب على الظرف ، وكذلك « آخره » . ومذهب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليُشَكِّكُوا المسلمين . والطائفة الجماعة، من طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة . ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض : أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار ثم اكفروا به آخره ؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتّبعه ارتياب في دينه فيرجعون عن دينه إلى دينكم ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا . وقيل : المعنى آمنوا بصلاته في أول النهار إلى بيت المقدس فإنه الحق، واكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قِبْلتكم ؛ عن ابن عباس وغيره . وقال مقاتل : معناه أنهم جاءوا محمدا صلى الله عليه وسلم أول النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسّفلة هو حق فاتبعوه ، ثم قالوا : حتى ننظر في التوراة ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا : قد نظرنا في التوراة فليس هو به . يقولون إنه ليس بحق ، وإنما أرادوا أن يُلبسوا على السّفلة وأن يُشَكِّكوا فيه .

(١) راجع حـ ١ ص ٣٤٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) البيت للبيد . والجمانة : حبة تعمل من الفضة كالدرة .

قوله تعالى : وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

قولهُ تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ هذا نهى، وهو من كلام اليهود بعضهم لبعض، أى قال ذلك الرؤساء للسّفلة . وقال السُّدّى : من قوله يهودِ خَيْبَر ليهود المدينة . وهذه الآية أشكل ما فى السورة . فُروى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم فإنكم أصحّ منهم دِينا . و «أن» و «يحاجوكم» فى موضع خفض، أى بأن يحاجوكم أى باحتجاجهم ، أى لا تصدّقوهم فى ذلك فإنهم لا حجة لهم . ﴿ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ من التوراة والمنّ والسّلْوَى وفَرْق البحر وغيرها من الآيات والفضائل . فيكون «أن يؤتى» مؤخرا بعد « أو يحاجوكم » ، وقوله «إنّ الهُدَى هُدَى الله» اعتراض بين كلامين . وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدّقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب الى معطوف . وقيل : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالمد على الاستفهام أيضا تأكيد للإنكار الذى قالوه إنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أى لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالكلام على نَسَقه . و «أن» فى موضع رفع على قول من رفع فى قولك أزيد ضربته ، والخبر محذوف تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تصدّقون أو تقرون أى إيتاء موجود مصدَّق أو مُقَرّ به ، أى لا تصدّقون بذلك . ويجوز أن تكون « أن » فى موضع نصب على إضمار فعل ، كما جاز فى قولك أزيدا ضربته ، وهذا أقوى فى العربية لأن الاستفهام بالفعل أولى ، والتقدير أتقرون أن يؤتى أو أتشيعون ذلك أو أتذكرون ذلك ونحوه . و بالمد قرأ ابن كَثِير وابن مُحَيْصِن وحُمَيد . وقال أبو حاتم : « أنْ » معناه «لأن» ، فحذفت لام الجر استخفافا وأبدلت مدّة ؛ كقراءة من

قرأ « أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ » أى لأن . وقوله « أو يحاجوكم » على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين؛ أو تكون « أو » بمعنى «أَنْ» لأنهما حرفا شك وجزاء فوضع إحداهما موضع الأخرى . وتقدير الآية : وأن يحاجوكم عند ربكم يا معشر المؤمنين . وقيل : يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه . ومن قرأ بترك المد قال : إن النفى الأول دلّ على إنكارهم فى قولهم ولا تؤمنوا . فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم : لا تصدّقوا بأن يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أى لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمنّ والسّلوى وفلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات ، أى أنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم . فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة . ومن آستثنى ليس من الأول ، وإلا لم يجز الكلام . ودخلت « أحد » لأن أول الكلام نفى فدخلت فى صلة « أن » لأنه مفعول الفعل المنفى؛ فأن فى موضع نصب لعدم الخافض . وقال الخليل : أن فى موضع خفض بالخافض المحذوف . وقيل : إن اللام ليست بزائدة، و « تؤمنوا » محمول على تقرّوا . وقال ابن جريج : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم . وقيل : المعنى لا تخبروا بما فى كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لمن تبع دينكم لئلا يكون طريقا إلى عبدة الأوثان إلى تصديقه . وقال الفراء : يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل « إلا لمن تبع دينكم » ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم « قل ان الهدى هدى الله » . أى إن البيان الحق هو بيان الله عز وجل « أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » بيّن ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، و «لا» مقدرة بعد «أن» أى لئلا يؤتى؛ كقوله « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لئلا تضلوا، فلذلك صلح دخول «أحد» فى الكلام . و « أو » بمعنى « حتى » و « إلا أن » ؛ كما قال آمرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عينُك إنما * نحاول مُلكًا أو نموت فنُعذَرا

وقال آخر :

وكنتُ إذا غمزْت قناة قوم * كسرتُ كعوبَها أو تستقيما

ومثله قولهم: لا نلتقى أو تقوم الساعة، بمعنى «حتى» او «إلّا أن» ؛ وكذلك مذهب الكسائىّ .
وهى عند الأخفش عاطفة على « وَلَا تُؤْمِنُوا » وقد تقدّم . أى لا إيمان لهم ولا حجة؛ فعطف على المعنى . ويحتمل أن تكون الآية كلها خطابا للؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم والتشحيذ لبصائرهم؛ لئلا يشكّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم فى دينهم . والمعنى لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم ، ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدّين ، ولا تصدّقوا أن يحاجّكم فى دينكم عند ربكم مَن خالفكم أو يقدر على ذلك، فإن الهُدَى هدى الله وإن الفضل بيد الله . قال الضحّاك : إن اليهود قالوا إنا نحاجّ عند ربنا مَن خالفنا فى ديننا؛ فبيّن الله تعالى أنهم هم المُدْحَضُون المعذَّبون وأن المؤمنين هم الغالبون . ومحاجّتهم خصومتهم يوم القيامة . ففى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن اليهود والنصارى يحاجُّونا عند ربّنا فيقولون أعطيتنا أجْراً واحدا وأعطيتهم أجرين فيقول هل ظلمتكم من حقوقكم شيئا قالوا لا قال فإن ذلك فَضْلِي أُوتيه من أشاء " . قال علماؤنا : فلو علموا أن ذلك من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا؛ فأعلم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أنهم يحاجوكم يوم القيامة عند ربكم ثم قال قل لهم « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . وقرأ ابن كثير « آنْ يؤتى » بالمدّ على الاستفهام ؛ كما قال الأعشى :

أأن رأت رُجلاً أعشى أضَرَّبه ❊ رَيْبُ المَنُون ودهرٌ مُتبِلٌ خَبِلُ (١)

وقرأ الباقون بغير مدّ على الخبر . وقرأ سعيد بن جبير « إن يؤتى » بكسر الهمزة، على معنى النّفى؛ ويكون من كلام الله تعالى كما قال الفراء . والمعنى : قل يا محمد إن الهُدَى هدى الله إن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم — يعنى اليهود — بالباطل فيقولون نحن أفضل منكم . ونصب « أو يحاجوكم » يعنى بإضمار « أن » و « أو » تضمر بعدها « أن » إذا كانت بمعنى «حتى» و « إلّا أن » . وقرأ الحسن « أن يؤتِىَ بكسر التاء وياء مفتوحة، على معنى أن يؤتِىَ أحدٌ أحدًا مثل ما أوتيتم، فحذف المفعول .

---

(١) متبل : مسقم

قوله تعالى : ﴿ قُل إنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الهُدَى إلى الخير والدّلالة الى الله عز وجل بيد الله جل ثناؤه يؤتيه أنبياءه، فلا تنكروا أن يؤتى أحد سواكم مثل ما أوتيتم ، فإن أنكروا ذلك فقل لهم « إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » . والقول الآخر : قل إن الهدى هدى الله الذى آتاه المؤمنين من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لا غيره . وقال بعض أهل الإشارات فى هـذه الآية : لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم . والله أعلم .

قوله تعالى : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

أى بنبوّته وهدايته؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . ابن جُريج : بالإسلام والقرآن من يشاء . قال أبو عثمان : أجمل القول ليبقى معه رجاء الراجى وخوف الخائف ، والله ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى : وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ .

فيه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ مثل عبد الله بن سَلَام . ﴿ ومِنهُم مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وهو فنحاص بن عازوراء اليهودىّ، أودعه رجل دينارا فخانه . وقيل : كعب بن الأشرف وأصحابه . وقرأ ابن وثّاب والأشهب العقيلى « مَنْ إنْ تِيمَنْه » على لغة من قرأ نِستعين وهى لغة بكر وتميم . وفى حرف عبد الله « مالك لا تِيمَنّا على يوسف » . والباقون بالألف . وقرأ نافع والكسائى « يؤدِّهِى » بياء فى الإدراج . قال أبو عبيد : واتفق أبو عمرو والأعمش وعاصم وحمزة فى رواية أبى بكر

على وقف الهاء، فقرءوا « يؤدّهْ إليك » . قال النحاس : بإسكان الهاء لا يجوز إلا فى الشعر عند بعض النحويين، وبعضهم لا يجيزه ألبتّة ويرى أنه غلط ممن قرأ به، وأنه توهّم أن الجزم يقع على الهاء، وأبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه مثلُ هذا . والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء؛ وهى قراءة يزيد بن القَعْقاع . وقال الفرّاء : مذهب بعض العرب يجزمون الهاء إذا تحرك ما قبلها، يقولون : ضربتهْ ضربا شديدا؛ كما يسكنون ميم أنتم وقمتم وأصلها الرفع؛ كما قال الشاعر :

لمــا رأى ألّا دَعَهْ ولا شِبَعْ * مال إلى أرْطَاة حِقْفٍ(١) فَٱضطَجعْ

وقيل : إنمــا جاز إسكان الهاء فى هــذا الموضع لأنهــا وقعت فى موضع الجزم وهى الياء الذاهبة . وقرأ أبو المُنْذِر سلّام والزُّهرىّ « يؤدّهُ » بضم الهاء بغير واو . وقرأ قَتادة وحُميد ومجاهد « يؤدِّهُو » بواو فى الإدراج، اختير لها الواو لأن الواو من الشّفة والهاء بعيدة المَخْرَج. قال سيبويه : الواو فى المذكّر بمنزلة الألف فى المؤنّث ويبدل منها ياء لأن الياء أخف إذا كان قبلها كسرة أو ياء ، وتحذف اليــاء وتبقى الكسرة لأن الياء قــد كانت تحذف والفعل مرفوع فأثبتت بحالها .

الثانيــــة ــ أخبر تعالى أن فى أهل الكتاب الخائنَ والأمينَ والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغى ٱجتناب جميعهم . وخصّ أهل الكتاب بالذّكر وإن كان المؤمنون كذلك لأنّ الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب . والله أعلم . وقد مضى تفسير القنطار . وأما الدينار فأربعة وعشرون قيراطا والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير، فمجموعه اثنان وسبعون حبة، وهو مُجْمَع عليه . ومن حفِظ الكثير وأدّاه فالقليل أوْلى، ومن خان فى اليسير أو منعــه فذلك فى الكثير أكثر . وهــذا أدلّ دليل على القول بمفهوم الخطاب . وفيــه بين العلماء خلاف مذكور فى أصول الفقه . وذكر تعالى قسمين : من يؤدّى ومن لا يؤدّى إلا بالملازمة عليه ؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدّى وإن دُمت عليه قائما . فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب

(١) الأرطاة : واحدة الأرطى، وهو شجر من شجر الرمل . والحقف (بالكسر) : ما أعوج من الرمل .

والمعتاد والثالث نادر؛ فخرج الكلام على الغالب. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلمي وغيرهما «دِمت» بكسر الدال وهما لغتان، والكسر لغة أَزْد السَّراة؛ من «دِمْت تدام» مثل خفت تخاف. وحكى الأخفش دِمت تدوم، شاذًّا.

الثالثــة — استدلّ أبو حنيفة على مذهبه في ملازمة الغَرِيم بقوله تعالى: «إلا ما دمت عليه قائما» وأباه سائر العلماء، وقد تقدّم في البقرة[1]. وقد استدل بعض البَغداديّين على حبس المِديان بقوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْــهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً» فإذا كان له ملازمته ومنعه من التصرف جاز حبسه. وقيل: إن معنى «ما دمت عليه قائما» أي بوجهك فَيَهابُك ويستحي منك، فإن الحياء في العينين؛ ألا ترى إلى قول ابن عباس رضي الله عنه: لا تطلبوا من الأعمى حاجة فإن الحياء في العينين. وإذا طلبت من أخيك حاجة فانظر إليه بوجهك حتى يستحي فيقضيها. ويقال: «قائما» أي ملازما له؛ فإن أنظرته أنكرك. وقيل: أراد بالقيام إدامة المطالبة لا عين القيام. والدِّينار أصله دِنّار فعوّضت من إحدى النونين ياء طلبا للخفة لكثرة استعماله. يدل عليه أنه يجمع دنانير ويصغر دُنَيْنِير.

الرابعــة — الأمانة عظيمة القَدْر في الدِّين، ومن عِظم قدرها أنها تقوم هي والرَّحِم على جَنبَتَي[2] الصراط؛ كما في صحيح مسلم. فلا يُمَكَّن من الجواز إلا من حفظهما. وروى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، قال: "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه" الحديث. وقد تقدم بكماله أول البقرة[3]. وروى ابن ماجه حدّثنا محمد ابن المُصَفَّى حدّثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سنان عن أبي الزاهِريّة عن أبي شجرة كثير ابن مُرّة عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء فاذا نزع منه الحياء لم تَلقه إلا مَقِيتًا مُمَقَّتًا فإذا لم تلقه إلا مَقِيتًا مُمَقَّتًا نُزِعت منه الأمانة فاذا نزعت منه الأمانة لم تَلقه إلا خائنا مُخَوَّنًا فاذا لم تلقه إلا خائنا مخوّنا نُزعت منه

(١) في قوله تعالى: «وإن كان ذو عسرة فنظرة ...» حـ ٣ ص ٣٧١ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) جنبة الوادي (بفتح النون): جانبه وناحيته. والجنبة (بسكون النون): الناحية؛ يقال: نزل فلان جنبةً أي ناحية.

(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة؛ وصحيح مسلم جـ ١ ص ٥١ طبع بلاق.

الرحمة فإذا نُزعت منه الرحمة لم تَلقه إلا رجيما مُلَعنًا فإذا لم تَلقه إلا رجيما مُلَعنًا نزعت منه رِبْقة الإسلام ". وقد مضى فى البقرة معنى قوله عليه السلام : " أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك ". والله أعلم .

الخامســة ــ ليس فى هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافا لمن ذهب إلى ذلك ؛ لأن فُسّاق المسلمين يوجد فيهم من يؤدّى الأمانة و يؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولا . فطريق العدالة والشهادة ليس يجزئ فيه أداء الأمانة فى المال من جهة المعاملة والوديعة؛ ألا ترى قولهم : « ليس علينا فى الأُمّيّين سبيل » فكيف يعدل من يعتقد استباحة أموالنا وحَريمنا بغير حرج عليه ؛ ولو كان ذلك كافيا فى تعديلهم لسُمعت شهادتهم على المسلمين .

السادســة ــ قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ يعنى اليهود ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ قيل : إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون : ليس علينا فى الأُمّيين سبيل ــ أى حرج فى ظلمهم ــ لمخالفتهم إيانا . وادّعوا أن ذلك فى كتابهم؛ فأكذبهم الله عز وجل وردّ عليهم فقال : « بَلَى » أى بلى عليهم سبيل العذاب بكذبهم واستحلالهم أموال العرب . قال أبو إسحاق الزجاج : وتمّ الكلام . ثم قال « مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى » . ويقال : إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالا فلما أسلم أرباب الحقوق قالت اليهود : ليس لكم علينا شىء ، لأنكم تركتم دينكم فسقط عنا دَينكم . وادّعوا أنه حكم التوراة فقال الله تعالى : « بلى » ردّا لقولهم « ليس علينا فى الأُمّيين سبيل » . أى ليس كما تقولون ، ثم استأنف فقال : « مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى » الشركَ فليس من الكاذبين بل يحبه الله ورسوله .

السابعــة ــ قال رجل لابن عباس : إنّا نُصيب فى العَمْد من أموال أهل الذمّة الدجاجة والشاة ونقول : ليس علينا فى ذلك بأس . فقال له : هذا كما قال أهل الكتاب « ليس علينا فى الأُمّيين سبيل » إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طيب

أنفسهم ؛ ذكره عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحاق الهَمْدانيّ عن صَعْصعة أن رجلا قال لابن عباس، فذكره .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن الكافر لا يُجعل أهلا لقبول شهادته لأن الله تعـالى وصفه بأنه كذاب . وفيه ردّ على الكفرة الذين يحرّمون ويحلّلون غير تحريم الله وتحليله ويجعلون ذلك من الشرع . قال ابن العربي : ومن هذا يخرج الردّ على من يحكم بالاستحسان من غير دليـل ، ولست أعلم أحدا من أهل القِبْلة قاله . وفي الخبر : لمـا نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ إلا الأمانة فإنها مؤدّاة الى البرّ والفاجر " .

قوله تعـالى : بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

«من» رفع بالابتداء وهو شرط . و «أوفى» في موضع جزم . و « اتقى » معطوف عليه، أي واتقى الله ولم يكذب ولم يستحل ما حُرِّم عليه . ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ أي يُحب أولئك . وقد تقدّم معنى حب الله لأوليائه . والهاء في قوله « بعهده » راجعة إلى الله عز وجل . وقد جرى ذكره في قوله «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ويجوز أن تعود على الموفي ومتّقي الكفر والخيانة ونقض العهد . والعهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — روى الأئمة عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدّمته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل

لك بيّنة " ؟ قلت لا ، قال لليهودى : " احلف " قلت : إذا يحلف فيذهب بمالى؛ فأنزل الله تعالى « إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً " إلى آخر الآية . وروى الأئمة أيضا عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة " . فقال له رجل : و إن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال : " و إن كان قضيبا من أراك[(1)] " . وقد مضى فى البقرة معنى « لا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم[(2)] » .

الثانيــة ــ ودلّت هذه الاية والأحاديثُ أن حكم الحاكم لا يُحلّ المال فى الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانه . وقد روى الأئمة عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إلىّ و إنما أنا بشر ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض و إنمـا أقضى بينكم على نحوٍ مما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنمـا أقطع له قطعة من النار يأتى بها يوم القيامة " . وهذا لا خلاف فيه بين الأئمة، و إنما ناقض أبو حنيفة وغلا فقال : إن حكم الحاكم المبنىّ على الشهادة الباطلة يُحلّ الفرج لمن كان محرّما عليه؛ كما تقدّم فى البقرة[(3)] . وزعم أنه لو شهد شاهدا زور على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما فان فرجها يحل لمتزوجها ممن يعلم أن القضية باطل . وقد شُنّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح ، وبأنه صان الأموال ولم ير استباحتها بالأحكام الفاسدة ولم يصن الفروج عن ذلك ، والفروج أحقّ أن يحتاط لها وتُصان . وسيأتى بطلان قوله فى آية اللعان[(4)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنـدِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

(١) الأراك : شجر من الحمض يستاك بقضبانه ، الواحدة أراكة . (٢) آية ١٧٤ جـ ٢ ص ٢٣٤ طبعة ثانيــة . (٣) راجع المسئلة الثالثة جـ ٢ ص ٣٣٨ طبعة ثانية . (٤) آية ٦ سورة النور.

يعنى طائفة من اليهود . وقرأ أبو جعفر وشيبة « يلَوُّون » على التكثير . والمعنى يحرفون الكلم ويعدلون به عن القصد . وأصل اللَّيّ الميل . لَوى بيده ، ولَوى برأسه إذا أماله ؛ ومنه قوله تعالى : «لَيًّا بألسنتهم» أى عنادا عن الحق ومَيْلًا عنه إلى غيره . ومعنى «ولا تلوون على أحد » أى لا تَعرُجون عليه ؛ يقال لَوَى عليه إذا عرج وأقام . واللَّى المَطْل . لواه بدَينه يَلْوِيه لَيًّا ولِيَّانا مَطَله . قال :

قد كنت داينت بها حسّانا * مخافة الإفلاس والليّانا

* يحسن بيع الأصل والعيانا *

وقال ذو الرّمة :

تريدين ليّاني وأنتِ مَلِيّةٌ (١) * وأَحْسن يا ذات الوِشاح التّقاضيا

وفى الحديث " لَيُّ الواجِد يُحِلّ عِرضَه وعقوبته ". وألْسنة جمع لسان فى لغة من ذكّر، ومن أنّث قال ألسن .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧٩)

﴿ ما كان ﴾ معناه ما ينبغى ؛ كما قال : و «مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً » و « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ » . و «مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا » يعنى ما ينبغى . والبشر يقع للواحد والجمع لأنه بمنزلة المصدر ؛ والمراد به هنا عيسى فى قول الضحّاك والسُّدّى . والكتاب : القرآن . والحكم : العلم والفهم . وقيل أيضا الأحكام . أى أن الله لا يصطفى لنبوّته الكَذَبة ولو فعل ذلك بشر لسلبه آيات النبوّة وعلاماتها . ونصب « ثم يقولَ » على الاشتراك بين « أن يؤتيه » وبين « يقول » أى لا يجتمع لنبيّ إتيان النبوّة وقوله : « كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ » . ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ أى ولكن جائز أن يكون النبيّ يقول لهم

(١) فى ديوانه : « تطيلين » .

كونوا ربانيين . وهذه الآية قيل إنها نزلت في نصارى نجران . وكذلك رُوى أن السورة كلها إلى قوله : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ » كان سبب نزولها نصارى نجران ولكن مُزِج معهم اليهود ؛ لأنهم فعلوا من الجحد والعناد فعلهم .

والرَّبَّانيُّون واحدهم ربَّانيّ منسوب إلى الرَّبّ . والربّانيّ الذي يُرَبّي الناس بصغار العلم قبل كباره ؛ وكأنه يقتدى بالرب سبحانه في تيسير الأمور ؛ رُوى معناه عن ابن عباس . قال بعضهم : كان في الأصل رَبِّيّ فأدخلت الألف والنون للمبالغة ؛ كما يقال للعظيم اللحية : لِحيانيّ ولعظيم الجُمّة جُمّاني ولغليظ الرَّقَبة رَقَبانيّ . وقال المبرّد : الربّانيون أرباب العلم ، واحدهم ربّان ، من قولهم : رَبَّه يَرُبّه فهو رَبّان إذا دبّره وأصلحه . فمعناه على هذا يدبّرون أمور الناس ويصلحونها . والألف والنون للمبالغة كما قالوا رَيّان وعطشان ، ثم ضمت اليها ياء النسبة كما قيل : لِحيانيّ ورَقَبانيّ وجُمّانيّ . قال الشاعر :

لو كنتُ مُرتَهِنًا في الحق أنزلني * منه الحديث وربّانيُّ أحبارى

فمعنى الربّانيّ العالم بدين الربّ الذي يعمل بعلمه ؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم . وقد تقدم هذا المعنى في البقرة . وقال أبو رزين : الربانيّ هو العالم الحكيم . وروى شعبة عن عاصم عن زِرّ عن عبد الله بن مسعود «ولكن كونوا ربّانيين» قال : حكماء علماء . ابن جُبير : حكماء أتقياء . وقال الضحاك : لا ينبغي لأحد أن يدع حفظ القرآن جُهدَه فإن الله تعالى يقول : «ولكن كونوا ربّانيين» . وقال ابن زيد : الربانيُّون الولاة ، والأحبار العلماء . وقال مجاهد : الربانيون فوق الأحبار . قال النحاس : وهو قول حسن ؛ لأن الأحبار هم العلماء . والربّانيّ الذي يجمع الى العلم البصرَ بالسياسة ؛ مأخوذ من قول العرب : رَبَّ أمرَ الناس يَرُبّه إذا أصلحه وقام به ، فهو رابٌّ وربّانيّ على التكثير . قال أبو عبيدة : سمعت عالما يقول : الربانيّ العالمُ بالحلال والحرام والأمر والنهي ، العارفُ بأنباء الأمة وما كان وما يكون . وقال محمد بن الحنفيّة يوم مات ابنُ عباس : اليومَ مات ربانيُّ هذه الأمة . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حرّ ولا مملوك إلا ولله عز وجل

عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه فى دينه — ثم تلا هذه الآية — ولكن كونوا ربّانيين" الآية . رواه ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ قرأه أبوعمرو وأهل المدينة بالتخفيف من العلم . واختار هذه القراءة أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصديقها «تَدْرُسون» ولم يقل «تُدَرِّسون» بالتشديد من التدريس . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة «تُعلّمون» بالتشديد من التعليم؛ واختارها أبو عبيد . قال : لأنها تجمع المعنيين «تعلمون ، وتدرسون» . قال مَكّى : التشديد أبلغ؛ لأن كل معلّم عالمٌ بمعنى يَعْلم وليس كل من عَلِم شيئا مُعلِّمًا . فالتشديد يدل على العلم والتعليم، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط ؛ فالتعليم أبلغ وأمدح وغيره أبلغ فى الذم . احتج من رجح قراءة التخفيف بقول ابن مسعود «كونوا ربانيين» قال : حكماء علماء؛ فيبعد أن يقال كونوا فقهاء حكماء علماء بتعليمكم. قال الحسن : كونوا حكماء علماء بعلمكم . وقرأ أبو حَيْوة «تُدرِسون» من أدرس يدرس . وقرأ مجاهد «تَعلّمون» بفتح التاء وتشديد اللام، أى تتعلمون .

قوله تعالى : وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالنصب عطفا على «أَنْ يُؤْتِيَهُ» . ويقويه أن اليهود قالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نتخذك يا محمد ربًّا ؟ فقال الله تعالى : «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة — الى قوله : ولا يأمركم» . وفيه ضمير البشر ، أى ولا يأمركم البشر يعنى عيسى وعُزَيرا . وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأوّل ، وفيه ضمير اسم الله عز وجل ، أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقوّى هذه القراءة أن فى مصحف عبد الله «ولن يأمركم» فهذا يدل على الاستئناف ، والضمير أيضا لله عز وجل؛ ذكره مَكّى، وقاله سيبويه والزجاج . وقال ابن جُريج وجماعة : ولا يأمركم محمد عليه

السلام . وهذه قراءة أبى عمرو والكسائى وأهل الحرمين . ﴿ أَنْ تَتَّخِذُوا ﴾ أى بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا . وهذا موجود فى النصارى يعظّمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أربابا . ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ على طريق الإنكار والتعجب ؛ فحرّم الله تعالى على الأنبياء أن يتخذوا الناس عبادا يتألّهون لهم ولكن ألزم الخلق حرمتهم . وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم انه قال : " لا يقولنّ أحدكم عَبْدِى وأَمَتِى وليقل فَتاىَ وفَتاتِى ولا يقل أحدكم ربِّى وليقل سَيِّدِى " . وفى التنزيل « آذكرنى عند ربك »(١) . وهناك يأتى بيان هذا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

قيل : أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدّق بعضهم بعضا و يأمر بعضهم بالإيمان بعضا ؛ فذلك معنى النُّصرة بالتصديق . وهذا قول سعيد بن جُبير وقتادة وطاوس والسُّدى والحسن ، وهو ظاهر الآية . قال طاوس : أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر . وقرأ ابن مسعود « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب » . قال الكسائى : يجوز أن يكون « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » بمعنى وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين . وقال البصريون : إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقد أخذ ميثاق الذين معهم ؛ لأنهم قد اتبعوهم وصدّقوهم . و « ما » فى قوله «لَمَا» بمعنى الذى . قال سيبويه : سألت الخليل ابن أحمد عن قوله عز وجل : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة » فقال : لما بمعنى الذى . قال النحاس : التقدير على قول الخليل للذى آتيتكموه ، ثم حذف

---

(١) آية ٤٢ سورة يوسف .

الهاء لطول الاسم. و « الذى » رفع بالابتداء وخبره « من كتاب وحكمة » . و « من » لبيان الجنس . وهـذا كقول القائل : لزيد أفضل منك ؛ وهو قول الأخفش أنها لام الابتداء . قال المَهْدوِىّ : وقوله « ثم جاءكم » وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والعائد منها على الموصول محذوف ؛ التقدير ثم جاءكم رسول مصدّق به .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قول علىّ وابن عباس رضى الله عنهما . واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً — الى قوله : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ » . فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاقَ على أممهم . واللام من قوله «لتؤمنن به» جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف . وهو كما تقول فى الكلام : أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا، كأنك قلت استحلفتك، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذى هو « لما » فى قراءة ابن كثير على ما يأتى . ومن فتحها جعلها متلقيّة للقسم الذى هو أخذ الميثاق . واللام فى « لتؤمنن به » جواب قسم محذوف ، أى والله لتؤمنن به . وقال المبرّد والكسائى والزجاج: «ما» شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن، ومعناه لما آتيتكم ؛ فموضع «ما» نصب، وموضع «آتيتكم » جزم»، و « ثم جاءكم » معطوف عليه. ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ اللام فى قوله « لتؤمنن به » جواب الجزاء ؛ كقوله تعالى: «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ» ونحوه . وقال الكسائىّ : لتؤمنن به مُعْتَمَد القسم فهو متصل بالكلام الأول، وجواب الجزاء قوله « فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ » . ولا يحتاج على هـذا الوجه الى تقدير عائد . وقرأ أهل الكوفة « لِمَا آتيتكم » بكسر اللام، وهى أيضا بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ، أى أخذ الله ميثاقهم لأجل الذى آتاهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به من بعد الميثاق ؛ لأن أخذ الميثاق فى معنى الاستحلاف كما تقدم . قال النحاس : ولأبى عبيدة فى هـذا قول حَسَن . قال : المعنى و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

لتؤمنّ به لِمَا آتيتكم من ذكر التوراة . وقيل : فى الكلام حذف، والمعنى وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لَتُعَلِّمُنَّ الناس لِمَا جاءكم من كتاب وحكمة، ولتأخذنّ على الناس أن يؤمنوا . ودلّ على هذا الحذف « وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِى » . وقيل : إن اللام فى قوله « لِمَا » فى قراءة من كسرها بمعنى بعد، يعنى بعد ما آتيتكم من كتاب وحكمة؛ كما قال النابغة :

توهّمتُ آيات لهـا فعرفتهـا * لستّةِ أعوام وذا العـامُ سابعُ

أى بعد ستة أعوام . وقرأ سعيد بن جُبير « لَمّا » بالتشديد، ومعناه حين آتيتكم . واحتمل أن يكون أصلها التخفيف فزيدت «مِن» على مذهب من يرى زيادتها فى الواجب فصارت لمن ما، وقلبت النون ميما للإدغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الأولى منهن استخفافا . وقرأ أهل المدينة «آتيناكم» على التعظيم . والباقون «آتيتكم» على لفظ الواحد . ثم كلّ الأنبياء لم يُؤتوا الكتاب وإنما أوتى البعض؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب . والمراد أخذ ميثاق جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو فى حكم من أوتى الكتاب لأنه أوتى الحُكْم والنبوّة . وأيضا من لم يؤت الكتاب أُمِر بأن يأخذ بكتاب من قبله فدخل تحت صفة من أوتى الكتاب.

قوله تعالى : ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ « اقررتم » من الإقرار، والإِصْر والأَصْر لغتان، وهو العهد . والإصر فى اللغة الثِّقَل؛ فَسُمِّى العهد إِصْرا لأنه مَنْع وتشديد. ﴿ قَالَ فَاشْهَدُوا ﴾ أى اعلموا؛ عن ابن عباس. الزجاج : بيّنوا لأن الشاهد هو الذى يصحّح دعوى المدّعِى . وقيل : المعنى اشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم . ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عليكم وعليهم . وقال سعيد بن المسيّب: قال الله عز وجل للملائكة فاشهدوا عليهم، فتكون كناية عن غير مذكور .

قوله تعـالى : فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

«مَنْ» شرط . فمن تولّى من أمم الأنبياء عن الإيمان بعد أخذ الميثاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى الخارجون عن الإيمـان . والفاسق الخارج . وقد تقدّم[1] .

(١) راجع ج ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ قال الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيّنا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كِلَا الفريقين بريٌّ من دينه" . فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك ؛ فنزل «أفغير دين الله يبغون» يعني يطلبون . ونصبت «غير» بيبغون ، أي يبغون غير دين الله . وقرأ أبو عمرو وحده « يبغون » بالياء على الخبر « وإليه ترجعون » بالتاء على المخاطبة . قال : لأن الأول خاصّ والثانى عامّ ففرّق بينهما لافتراقهما فى المعنى . وقرأ حفص وغيره « يبغون ، ويرجعون » بالياء فيهما ؛ لقوله : « فأولئك هم الفاسقون » . وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب ؛ لقوله « لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ أى استسلم وانقاد وانخضع وذلّ ، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم ؛ لأنه مجبول على مالا يقدر أن يخرج عنه . قال قتادة : أسلم المؤمن طوعًا والكافر عند موته كرهًا ولا ينفعه ذلك ؛ لقوله : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » . قال مجاهد : إسلام الكافر كرها بسجوده لغير الله وسجود ظلّه لله ، « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ » . « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ » . وقيل : المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم ؛ فمنهم الحسن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم منقادون اضطرارًا ، فالصحيح منقاد طائع محبّ لذلك ، والمريض منقاد خاضع وإن كان كارها . والطوع الانقياد والاتباع

بسهولة . والكره بمـا كان بمشقة وإباء عن النفس . و ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ مصدران فى موضع الحال ، أى طائعين ومكرهين . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله عز وجل : « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » قال : " الملائكة أطاعوه فى السماء والأنصارُ وعبدُ القَيْس فى الأرض" . وقال عليه السلام : " لا تَسُبُّوا أصحابى فإن أصحابى أسلموا من خوف الله وأسلم الناس من خوف السيف". وقال عِكْرِمة : «طوعا» من أسلم من غير مُحاجّة «وكرها» من ٱضطرته الحجة إلى التوحيد . يدلّ عليه قوله عز وجل : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُـمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » . قال الحسن : هو عموم معناه الخصوص . وعنه : « أسلم من فى السموات» وتم الكلام . ثم قال : « والأرض طوعا وكرها» . قال : والكاره المنافق لا ينفعه عمله . و «طوعا وكرها » مصدران فى موضع الحال . عن مجاهد عن ابن عباس قال: إذا استصعبت دابّة أحدكم أو كانت شَمُوسًا[1] فليقرأ فى أذنها هذه الآية : « أفغير دين الله يبغون وله اسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها » إلى آخر الآية .

قوله تعـالى : وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

« غير » مفعول بيبتغ ، «دينا» منصوب على التفسير ، ويجوز أن ينتصب دينا بيبتغ ، وينتصب «غير» على أنه حال من الدِّين. قال مجاهد والسُّدّى: نزلت هذه الآية فى الحارث بن سُويد أخو الجُلَاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتدّ عن الإسـلام هو وٱثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفارا، فنزلت هذه الآية، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة. ورُوى ذلك عن ٱبن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . ﴿ وهو فى الاخرة من الخاسرين ﴾

(١) شمست الدابة : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

قال هشام : أى وهو خاسر فى الآخرة من الخاسرين؛ ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول . وقال المازنى : الألف واللام مثلها فى الرجل . وقد تقدّم هذا فى البقرة(١) عند قوله : «وإنه فى الآخرة لمن الصالحين» .

قوله تعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قال ابن عباس : إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتدّ ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه : سَلُوا لِى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لى من توبة ؟ فجاء قومُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل له من توبة؟ فنزلت «كَيْفَ يَهْدِى اللّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ» إلى قوله : «غفورٌ رَحِيمٌ» فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النّسائى . وفى رواية : أن رجلا من الأنصار ارتد فلحق بالمشركين ، فأنزل الله «كيف يهدى الله قوما كفروا» الى قوله : «إلا الذين تابوا» فبعث بها قومُه إليه، فلماقرئت عليه قال : والله ما كذّبنى قومى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أ كذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الله ، والله عز وجل أصدقُ الثلاثة ؛ فرجع تائبا ، فقَبِل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه . وقال الحسن : نزلت فى اليهود لأنهم كانوا يبشّرون بالنبىّ صلى الله عليه وسلم و يستفتحون على الذين كفروا ؛ فلما بُعث عاندُوا وكفروا ؛ فأنزل الله عز وجل «أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» . ثم قيل : «كيف» لفظة استفهام ومعناه الجَحْد ، أى لا يهدى الله . ونظيره قوله : «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ» أى لا يكون لهم عهد؛ وقال الشاعر :

كيف نومى على الفراش ولمّا * يشمل القومَ غارةٌ شعواءُ

أى لا نوم لى . ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقال : ظاهر الآية أنّ من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله، ومن كان ظالما لا يهديه الله؛ وقد رأينا كثيرا من المرتدّين قد أسلموا

(١) راجع ج ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية .

وهداهم الله ، وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم . قيل له : معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقبلون على الإسلام ؛ فأما إذا أسلموا وتابوا فقد وفقهم الله لذلك . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أُولَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

أى إن داموا على كفرهم . وقد تقدّم معنى لعنة الله والناس فى «البقرة»[1] فلا معنى لإعادته . ﴿ وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أى لا يؤخرون ولا يؤجلون ، ثم استثنى التائبين فقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » هو الحارث بن سُويد كما تقدم . ويدخل فى الآية بالمعنى كل من راجع الإسلام وأخلص .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

قال قتادة وعطاء الخراسانى والحسن : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم . وقيل : « ازدادوا كفرا » بالذنوب التى اكتسبوها . وهذا اختيار الطبرى ، وهى عنده فى اليهود . ﴿ لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ مشكل لقوله : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ » فقيل : المعنى لن تقبل توبتهم عند الموت . قال النحاس : وهذا قول حسن ؛ كما قال عز وجل : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ » . ورُوى عن الحسن وقتادة وعطاء . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٨٨ طبعة ثانية .

يقبل توبة العبد مالم يُغرغر»(١). وسيأتى فى «النساء» بيان هذا المعنى. وقيل: «لن تقبل توبتهم» التى كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر قد أحبطها . وقيل : «لن تقبل توبتهم» إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر؛ وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام . وقال قُطْرُب . هذه الآية نزلت فى قوم من أهل مكة قالوا : نتربص بمحمد رَيْب المَنُون، فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا . فأنزل الله تعالى : «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» أى لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر ؛ فسّماها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح من القوم عَزْم ، والله عن وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٩١)

المِلء (بالكسر) مقدار ما يملأ الشيء، والمَلء (بالفتح) مصدر ملأت الشيء؛ ويقال : أعطنى مِلأه ومِلأيه وثلاثةَ أملائه . والواو فى « ولو افتدى بِهِ » قيل : هى مقحمة زائدة؛ المعنى : فلن يقبل من أحدهم مِلء الأرض ذهبا لو افتدى به . وقال أهل النظر من النحويين : لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنها تدل على معنًى . ومعنى الآية : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا تبرعًا ولو افتدى به. و «ذهبا» نصب على التفسير فى قول الفراء . قال المفضّل : شرط التفسير أن يكون الكلام تامًّا وهو مُبْهَم ؛ كقولك عندى عشرون ؛ فالعدد معلوم والمعدود مبهم؛ فإذا قلت درهما فسّرت. وإنما نصب التمييز لأنه ليس له ما يخفضه ولا ما يرفعه، وكان النصب أخف الحركات فجُعل لكل ما لا عامل فيه . وقال الكسائىّ : نصب على إضمار مِن، أى من ذهب ؛ كقوله : « أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا » أى من صيام . وفى البخارىّ ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: «يُجاء بالكافر

(١) أى ما لم تبلغ روحه حلقومه ؛ فيكون بمنزلة الشيء الذى يتغرغر به المريض .

يوم القيامة فيُقال له أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقال له قد كنت سُئلت ما هو أيسر من ذلك". لفظ البخاري. وقال مسلم بدل "قد كنت، كذبت، قد سُئلت".

قوله تعالى : لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

فيه مسألتان :

الأولى ــ روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة : إن ربّنا ليسألُنا من أموالنا فأشهدك يارسول الله أنى جعلت أرضى لله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلها فى قرابتك فى حسان ابن ثابت وأُبَىّ بن كعب". وفى الموطّأ « وكانت أحبّ أمواله إليه بَيْرُحاء[1]، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب » . وذكر الحديث. ففى هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه ؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فَحْوَى الخطاب حين نزلت الآية غيرَ ذلك. ألا ترى أبا طلحة حين سمع « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا » الآية، لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذى يريد الله أن ينفق منه عبادُه بآية أخرى أو سُنّة مبيّنة لذلك فانهم يحبون أشياء كثيرة . وكذلك فعل زيد بن حارثة ، عَمَد مما يحب إلى فرس يقال له "سَبَل" وقال : اللّهُمّ إنك تعلم أنه ليس لى مالٌ أحبّ إلىّ من فرسى هذه ؛ فجاء بها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : هذا فى سبيل الله . فقال لأسامة بن زيد "اقبضه". فكأنّ زيدا وجد من ذلك فى نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد قبلها منك " . ذكره أسد بن موسى . وأعتق ابنُ عمرَ نافعًا مولاه، وكان أعطاه فيه عبدُ الله بن جعفر ألفَ دينار . قالت صفية بنت أبى عبيد : أظنه تأوّل قول الله عزّ وجلّ : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وروى شِبل عن أبى نجيح

(١) بيرحاء : موضع كان لأبى طلحة بالمدينة .

عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سَبْي جَلُولاء يوم فتح مدائن كِسْرَى ؛ فقال سعد بن أبي وقّاص : فدعا بها عمر فأعجبته، فقال إن الله عز وجل يقول: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» فأعتقها عمر رضي الله عنه . ورُوى عن الثورى أنه بلغه أن أمّ ولد الربيع بن خُثَيْم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لى : يا فلانة أعطى السائل سكّرا، فإن الربيع يحب السكّر . قال سفيان : يتأول قولَه جل وعز : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» . ورُوى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشترى أعدالا من سكّر ويتصدّق بها . فقيل له : هلّا تصدّقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكّر احبّ إلىّ فأردت أن أنفق مما أحبّ . وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تُدركون ما تؤمّلون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانيـــة — واختلفوا فى تأويل «البر» فقيل الجنة ؛ عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسُّدّى . والتقدير لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون . والنوال العطاءُ ، من قولك نوّلته تنويلا أعطيته . ونالنى من فلان معروف ينالنى ، أى وصل إلىّ . فالمعنى : لن تصلوا إلى الجنة وتُعطَوْها حتى تنفقوا مما تحبون . وقيل : البر العمل الصالح . وفى الحديث الصحيح : "عليكم بالصدق فإنه يدعو إلى البر وإن البر يدعو إلى الجنة" . وقد مضى فى البقرة (١) . قال عطية العَوْفى : يعنى الطاعة . عطاء : لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحّاء تأملون العيش وتخشون الفقر . وعن الحسن : «حتى تنفقوا» هى الزكاة المفروضة . مجاهد والكَلْبى : هى منسوخة، نسختها آية الزكاة . وقيل : المعنى حتى تنفقوا مما تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع . وروى النّسائىّ عن صَعْصعة بن معاوية قال : لَقِيت أبا ذرّ قال : قلت حدّثنى قال نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين فى سبيل الله إلا استقبلته حَجَبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده" . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن

(١) فى قوله تعالى : « أولئك الذين صدقوا ... » ج ٢ ص ٢٤٣ طبعة ثانية .

كانت إبلا فبعيرين وإن كانت بقرا فبقرتين . وقال أبو بكر الورّاق : دلّهم بهذه الآية على الفُتُوّة . أى لن تنالوا بِرّى بكم إلا ببرّكم بإخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم؛ فإذا فعلتم ذلك نالكم بِرّى وعطفى . قال مجاهد: وهو مثل قوله : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا » . « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أى وإذا عَلِم جازى عليه .

قوله تعالى : كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حِلًّا ﴾ أى حلالا، ثم استثنى فقال : ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وهو يعقوب عليه السلام . فى التّرمذىّ عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أخبرنا، ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال : "كان يسكن البدو فآشتكى عِرْق النَّسا[1] فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحومَ الإبل وألبانَها فلذلك حرّمها" . قالوا : صدقت . وذكر الحديث . ويقال : نَذر إن برأ[2] منه ليترُكَنّ أحبّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبّ الطعام والشراب إليه لحومُ الإبل وألبانُها . وقال ابن عباس ومجاهد وقَتادة والسُّدّى : أقبل يعقوب عليه السلام من حَرّان يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عِيصو، وكان رجلا بطشًا قويًّا ، فلقيَه مَلَك فظنّ يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه، فغمز المَلَكُ فخذ يعقوب عليه السلام، ثم صعد الملك إلى السماء ويعقوب ينظر إليه فهاج عليه عِرْق النَّسا، ولقِى من

(١) النسا (بالفتح مقصور) : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر ، فاذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان، واذا هزلت الدابة اضطربت الفخذان وماجت الربلتان (الربلة اللحمة الغليظة) وخفى النسا (عن الصحاح) .

(٢) برأ من المرض (بالفتح) لغة أهل الحجاز . وسائر العرب يقولون : برئت (بالكسر) .

ذلك بلاء شديدا ، فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله زُغاء أى صياح، فحلف يعقوب عليه السلام إن شفاه الله جل وعز ألّا يأكل عرقا ، ولا يأكل طعاما فيه عِرق فحرّمها على نفسه ؛ فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق يخرجونها من اللحم . وكان سبب غمز المَلَك فخذه أنه كان نذر إن وهب الله له اثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم فكان ذلك للمخرج من نذره ؛ عن الضحاك .

الثانيــة — واختُلف هل كان التحريم من يعقوبَ باجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى؟ والصحيح الأول ؛ لأن الله تعالى أضاف التحريم إليه بقوله تعالى : « إِلَّا مَا حَرَّمَ » وأن النبي إذا أدّاه اجتهادُه إلى شيء كان دِيناً يلزمنا اتباعه لتقرير الله سبحانه إيّاه على ذلك . وكما يوحَى إليه ويلزم اتباعُه ، كذلك يؤذن له ويجتهد ، ويتعيّن موجَب اجتهاده إذا قُدِر عليه ؛ ولولا تقدّم الإذن له فى تحريم ذلك ما تسوّر (١) على التحليل والتحريم . وقد حرّم نبيّنا صلى الله عليه وسلم العسل على الرواية الصحيحة ، أو خادمه مارية فلم يُقرّ الله تحريمه ونزل « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » على ما يأتى بيانه فى «التحريم» . قال الكِيَا الطبرى : فيمكن أن يقال: مطلق قوله تعالى : « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » يقتضى ألا يختص بمارية . وقد رأى الشافعيّ أن وجوب الكفارة فى ذلك غير معقول المعنى ، فجعلها مخصوصا بموضع النص . وأبو حنيفة رأى ذلك أصلا فى تحريم كل مباح وأجراه مجرى اليمين .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال ابن عباس: لمّا أصاب يعقوبَ عليه السلام عِرقُ النَّسا وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل فحرّمها على نفسه . فقالت اليهود : إنما نحرّم على أنفسنا لحوم الإبل لأن يعقوب حرّمها وأنزل الله تحريمها فى التوراة؛ فأنزل الله هذه الآية . قال الضحاك : فكذّبهم الله وردّ عليهم فقال يا محمد : « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فلم يأتوا . فقال عز وجل : ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال الزجاج : فى هذه الآية

(١) تسوّر : هجم .

أعظم دلالة لنبوّة محمد نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، أخبرهم أنه ليس فى كتابهم ، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة فأبَوْا ؛ يعنى عرفوا أنه قال ذلك بالوَحْى . وقال عطيّة العَوْفى : إنمـا كان ذلك حراما عليهم بتحريم يعقوب ذلك عليهم . وذلك أن إسرائيل قال حين أصابه عِرق النَّسا : والله لئن عافانى الله منه لا يأكله لى ولد ؛ ولم يكن ذلك محرّما عليهـم . وقال الكَلْبى : لم يحـرّمه الله عز وجل فى التوراة عليهم وإنمـا حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم ، وكانت بنو إسرائيـل إذا أصابوا ذنبـا عظيما حرم الله تعالى عليهـم طعاما طيّباً ، أو صَبّ عليهم رجزا وهو الموت ؛ فذلك قوله تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُم » الآية . وقوله : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ » الآية — إلى قوله : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » .

الرابعـــة — ترجم ابن ماجه فى سُنَنه « دواء عِرق النَّسا » حدثنا هشام بن عمار وراشد ابن سـعيد الرملى قالا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا هشام بن حسان حدّثنـا أنس بن سيرين أنه سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " شفاء عِرق النَّسا أَلْية شاة [أعرابية](1) تذاب ثم تُجزّأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الريق فى كل يوم جزء " . وأخرجه الثعلبى فى تفسيره أيضا من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِرق النسا : " تؤخذ أَلْيـة كبش عربى لا صغير ولا كبير فتقطع صغارا فتخرج إهالتـه(2) فتقسم ثلاثة أقسام فى كل يوم على ريق النفس ثُلثا " قال أنس : فوصـفته لأكثر من مائة فَبَرأ بإذن الله تعالى . شعبة : حدثنى شيخ فى زمن الحجاج بن يوسف فى عِرق النَّسا أقسم لك بالله الأعلى لئن لم تنته لأكوينّك بنار ولأحلقنّك بمُوسَى . قال شعبة : قد جربته بقوله ، ويمسح على ذلك الموضع .

قوله تعـالى : قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه . (٢) الإهالة (بالكسر) : الشحم المذاب ، أو كل ما ائتدم به من الأدهان .

أى قل يا محمد صدق الله؛ إنه لم يكن ذلك فى التوراة محرما. ﴿ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أمر باتباع دينه. ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ردّ عليهم فى دعواهم الباطل كما تقدم.

قوله تعالى : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوّل مسجد وضع فى الأرض قال : "المسجد الحرام". قلت : ثم أىّ؟ قال : "المسجد الأقصى". قلت : كم بينهما؟ قال : "أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاةُ فصلّ". قال مجاهد وقتادة : لم يُوضع قبلَه بيتٌ. قال علىّ رضى الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة، والمعنى أنه أوّل بيت وُضع للعبادة. وعن مجاهد قال : تفاخَرَ المسلمون واليهود فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة؛ لأنه مُهَاجَرُ[1] الأنبياء وفى الأرض المقدسة. وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل؛ فأنزل الله هذه الآية. وقد مضى فى البقرة[2] بيان البيت وأوّل من بناه. قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفى سنة، وأن قواعده لفى الأرض السابعة السُّفلَى. وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام؛ كما خرّجه النَّسائى بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو. وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالًا ثلاثة [سأل الله عز وجل][3] حُكمًا يصادف حكمه فأُوتيَه وسأل الله عز وجل مُلْكًا

(١) المهاجر (بفتح الجيم) : موضع المهاجرة. (٢) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ طبعة ثانية.
(٣) زيادة عن سنن النسائى.

لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألّا يأتيَهُ أحد لا ينهزه(١) إلا الصلاةُ فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه " . فجاء إشكال بين الحديثين؛ لأن بين إبراهيم وسليمان آمادا طويلة . قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة . فقيل : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدّدا ما كان أسسه غيرهما . وقد رُوى أن أوّل من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدّم . فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاما ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيتَ بإذن الله؛ وكلٌّ محتمَل . والله أعلم . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أمر الله تعالى الملائكةَ ببناء بيت فى الأرض وأن يطوفوا به ؛ وكان هذا قبل خلق آدم، ثم إن آدم بَنَى منه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده ، ثم آستتم بناءه إبراهيمُ عليه السلام .

الثانيــة ـــ قوله تعالى : ﴿ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ خبر « إن » واللام توكيد . و « بَكّة » موضع البيت ، ومكة سائر البلد؛ عن مالك بن أنس . وقال محمد بن شهاب : بكة المسجد، ومكة الحرم كله، تدخل فيه البيوت . قال مجاهد : بكة هى مكة . فالميم على هذا مبدلة من الباء؛ كما قالوا : طين لازب ولازم . وقاله الضحاك والمؤرّج . ثم قيل : بَكّة مشتقة من البَكّ وهو الآزدحام . تَبَاكّ القوم ازدحموا . وسُمِّيت بكة لازدحام الناس فى موضع طوافهم . والبَكّ دقّ العنق . وقيل : سُمِّيت بذلك لأنها كانت تدقّ رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم . قال عبدالله بن الزبير : لم يقصدها جبار قطّ بسوء إلا وَقَصه(٢) الله عز وجل . وأما مكة فقيل : إنها سُمِّيت بذلك لأنها تَمُكّ المخ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة؛ من قولهم : مَكَكْتُ العظم إذا أخرجت ما فيه . ومَكّ الفصيلُ ضَرع أمّه وامتكه إذا آمتص كل ما فيه من اللبن وشربه . قال الشاعر :

* مَكّت فلم تُبْق فى أجوافها دِرّرا *

وقيل : سُمِّيت بذلك لأنها تَمُكّ مَن ظلم فيها ، أى تهلكه وتنقصه . وقيل : سُمِّيت بذلك لأن الناس كانوا يَمُكّون ويضحكون فيها؛ من قوله : «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً

(١) النهز : الدفع . (٢) الوقص : الكسر والدق .

وَتَصْدِيَةً » أى تصفيقا وتصفيرا . وهذا لا يوجبه التصريف؛ لأن « مَكَّة » ثُنائىّ مضاعف، و «مكا» ثُلاثىّ معتل .

الثالثة — قوله تعالى . ﴿ مُبَارَكًا ﴾ جعله مُبَارَكًا لتضاعف العمل فيه ؛ فالبركة كثرة الخير . ونصب على الحال من المضمر فى « وُضِع » أو بالظرف من « بكة » . المعنى : الذى استقر ببكة مباركا . ويجوز فى غير القرآن «مبارك» ؛ على أن يكون خبرا ثانيا، أو على البدل من الذى، أو على إضمار مبتدأ . ﴿ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ عطف عليه، ويكون بمعنى وهو هُدًى للعالمين . ويجوز فى غير القرآن « مباركٍ » بالخفض يكون نعتا للبيت .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ رفع بالابتداء أو بالصفة . وقرأ أهل مكة وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير « آيَةٌ بَيِّنَةٌ » على التوحيد ، يعنى مقام إبراهيم وحده . قالوا : أثر قدميه فى المقام آية بينة . وفسر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله ؛ فذهب إلى أن من آياته الصفا والمَرْوة والرُّكن والمَقام . والباقون بالجمع . أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحَطِيم وزمزم والمشاعر كلّها . قال : أبو جعفر النحاس : من قرأ « آيات بينات » فقراءته أبين؛ لأن الصَّفا والمَرْوة من الايات . ومنها أن الطائر لا يعلو البيت صحيحا . ومنها أن الحاج يطلب الصيد فإذا دخل الحرم تركه . ومنها أن الغيث إذا كان ناحية الركن اليمانىّ كان الخِصْب باليمن، وإذا كان بناحية الشام كان الخصب بالشام، وإذا عمّ البيت كان الخِصْب فى جميع البلدان . ومنها أن الجِمَار على ما يُزاد عليها تُرى على قدر واحد . والمَقام من قولهم : قُمت مَقاما، وهو الموضع الذى يُقام فيه . والمُقام من قولك : أقمت مُقاماً . وقد مضى هذا فى البقرة[1]، ومضى الخلاف أيضا فى المقام والصحيح منه . وارتفع المقام على الابتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير منها مقام إبراهيم ؛ قاله الأخفش . وحكى عن محمد بن يزيد أنه قال : «مقام» بدل من «آيات» . وفيه قول ثالث بمعنى هى مقام إبراهيم . وقول الأخفش معروف فى كلام العرب . كما قال زهير :

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية .

لها مَتاعٌ وأعوانٌ غَدَوْنَ به * قِتْبٌ(١) وغَرْبٌ إذا ما أفرغ انْسَحَقا

أى مضى وبَعُدَ سيلانه. وقول أبى العباس : إن مقاما بمعنى مقامات؛ لأنه مصدر . قال الله تعالى : «خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِم» . وقال الشاعر :

* إن العيون التى فى طَرْفها مرض *

أى فى أطرافها . ويقوّى هذا الحديثُ المروى " الحج مقام ابراهيم " .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال قتادة : ذلك أيضا من آيات الحَرَم . قال النحاس : وهو قول حسن؛ لأن الناس كانوا يُتَخطَّفون من حواليه، ولا يصل إليه جبّار ، وقد وُصِــل إلى بيت المقدس وخُرّب، ولم يوصل إلى الحرم . قال الله تعالى : «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» . وقال بعض أهل المعانى : صورة الاية خبر ومعناها أمر، تقــديرها ومن دخله فأمّنوه؛ كقوله : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ» أى لا ترفُثوا ولا تفسُقوا ولا تجادلوا . ولهذا المعنى قال الإمام السابق النُّعمان بن ثابت : من اقترف ذنبًا واستوجب به حدًّا ثم لجأ إلى الحَرَم عَصَمه، [لقوله تعالى :] « ومَنْ دَخَلَهُ كان آمنًا »؛ فأوجب الله سبحانه الأمن لمن دخله . ورُوى ذلك عن جمــاعة من السلف منهم ابن عباس وغيره من الناس . قال ابن العربىّ : « وكلّ من قال هــذا فقد وهم من جهتين : إحداهما أنه لم يفهم من الآية أنها خبر عما مضى، ولم يقصد بها إثباتَ حُكم مستقبَل. الثانى أنه لم يعلم أنّ ذلك الأمر قدذهب وأن القتل والقتال قــد وقع بعد ذلك فيها، وخبر الله لا يقع بخلاف مُخْبَره؛ فدلّ ذلك على أنه كان فى المــاضى هذا . وقد ناقض أبو حنيفة فقال: إذا لجأ إلى الحَرَم لا يُطعَم ولا يُسْقَى ولا يُعامَل ولا يُكلَّم حتى يخــرج فاضطروه(٢) إلى الخروج وليس يصح معــه أمْنٌ . ورُوى عنه أنه قال : يقع القصاص فى الأطراف فى الحَرَم ولا أمْنَ أيضا مع هذا» .

---

(١) قوله : لها متاع، أى لهــذه الناقة التى يستقى عليها . والقتب (بالكسر) : جميع أداة السانيــة من أعلاقها وحبالها . والسانية : ما يسق عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره . والغرب : الدلو العظيمة .

(٢) عبارة ابن العربى فى أحكام القرآن له : « ... فاضطراره إلى الخروج ليس يصح معه أمن »

والجمهور من العلماء على أن الحدود تُقام فى الحرم ، وقد أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خَطَل(١) وهو متعلّق بأستار الكعبة .

قلت : وروى الثورىّ عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس : من أصاب حدًّا أقيم عليه فيه ، وإن أصاب فى الحِلّ ولجأ إلى الحَرَم لم يُكلَّم ولم يبايَع حتى يخرج من الحَرَم فيقام عليه الحدّ؛ وهو قول الشَّعبىّ . فهذه حجة الكوفيّين، وقد فهم ابن عباس ذلك من معنى الآية، وهو حَبْر الأمّة وعالِمُها . والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النّعم على كل من كان بها جاهلا ولها منكرا من العرب؛ كما قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ»؛ فكانوا فى الجاهلية من دخله ولجأ إليه أَمِن من الغارة والقتل؛ على ما يأتى بيانه فى «المائدة» إن شاء تعالى . قال قَتادة : ومن دخله فى الجاهلية كان آمنا . وهذا حسن . ورُوى أن بعض المُلْحدة قال لبعض العلماء : أليس فى القرآن «ومَن دخله كان آمنا» فقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا فلم يأمن من كان فيه ! قال له : ألستَ من العرب ! ما الذى يريد القائل من دخل دارى كان آمنا ؟ أليس أن يقول لمن أطاعه : كُفَّ عنه فقد أمّنته وكففت عنه ؟ قال بلى . قال : فكذلك قوله «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» . وقال يحيى بن جَعْدة : معنى «ومن دخله كان آمنا» يعنى من النار .

قلت : وهذا ليس على عمومه ؛ لأن فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخُدْرىّ حديثَ الشفاعة الطويل "فوالّذى نفسى بيده ما منكم من أحد بأشدَّ مُناشدةً لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار يقولون ربّنا كانوا يصومون معنا ويُصلّون ويَحجّون فيُقال لهم أخرجوا من عَرفتم" الحديثَ . وإنما يكون آمنًا من النار من دخله لقضاء النُّسك معظِّما له عارفًا بحقه متقرّبًا إلى الله تعالى . قال جعفر الصادق : من دخله على الصفاء

(١) ابن خطل (بالتحريك) هو عبد الله بن خطل ، رجل من بنى تيم بن غالب ، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلما فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقا وبعث معه رجلا من الأنصار وكان معه مولى يخدمه وكان مسلما فنزل منزلا وأمر المولى أن يذبح له تيسا فيصنع له طعاما فنام ؛ فاستيقظ ولم يصنع له شيئا فعدا عليه فقتله ثم ارتدّ مشركا . راجع تاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام .

كما دخله الأنبياء والأولياء كان آمنا من عذابه . وهـذا معنى قوله عليه السلام : " مَن حج فلم يَرفُث ولم يَفسُق خرج من ذنوبه كيومَ ولدته أمه والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " . قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . وأنشد :

يا كعبةَ الله دَعوةَ اللاجى * دعـوةَ مستشعرٍ ومحتـاج
ودّع أحبـابَه ومسكـنَه * فجاء ما بين خائف راج
إنْ يَقبل اللهُ سعيَه كرمًا * نجـا، وإلّا فليس بالنـاج
وأنت ممن تُرجَى شفاعته * فاعطف على وافد بن حجّاج

وقيل : المعنى ومن دخله عامَ عُمْرة القضاء مع محمد صلى الله عليـه وسلم كان آمنا . دليله قوله تعالى : «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » . وقد قيل : إن «مَن» هاهنا لمن لا يعقل، والآية فى أمان الصّيد؛ وهو شاذ . وفى التنزيل : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ » الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ اللام فى قوله «ولله» لام الإيجاب والإلزام، ثم أكّده بقوله تعالى : ﴿ عَلَى ﴾ التى هى من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربى : لفلان علىّ كذا؛ فقد وكّده وأوجبه . فذكر اللهُ تعالى الحج بأوكد ألفاظ الوجوب تأكيدًا لحقّه وتعظيما لحُرمته . ولا خلاف فى فريضته، وهو أحد قواعد الإسلام، وليس يجب إلا مرّة فى العمر . وقال بعض النـاس : يجب فى كل خمسة أعوام ؛ ورَوى فى ذلك حديثا أسـنده إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، والحديث باطل لا يصح، والإجماع صادّ فى وجوههم .

قلت : وذكر عبد الرزاق حدّثنا سفيان عن العلاء بن المسيّب عن أبيه عن أبى سـعيد الخُدرىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم قال : " يقول الربّ جل وعز إن عبدا أوسعتُ عليه فى الرزق فلم يَفِدْ إلىّ فى كل أربعة أعوام لمحرومٌ " مشهور من حديث العلاء بن المسيّب بن رافع الكاهلىّ الكوفىّ من أولاد المحدّثين، روى عنه غير واحد، منهم من قال : فى خمسة أعوام،

ومنهم من قال : عن العلاء عن يونس بن حبّان عن أبي سعيد في غير ذلك من الاختلاف . وأنكرت المُلحدةُ الحجّ فقالت : إن فيه تجريدَ الثياب وذلك يخالف الحياء، والسَّعيَ وهو يناقض الوَقار، ورَميَ الجمار لغير مَرْمًى وذلك يضادّ العقل ؛ فصاروا إلى أن هـذه الأفعال كلَّها باطلةٌ إذ لم يعرفوا لها حكمة ولا علّة ، وجَهلوا أنه ليس من شرط المَوْلَى مع العبد أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به ولا أن يطلع على فائدة تكليفه، وإنمـا يتعيّن عليه الامتثال، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود . ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول في تلبيته : "لَبَّيْكَ حَقًّا حقًّا تعبُّدًا ورِقًّا لبّيكَ إلهَ الحق" . وروى الأئمـة عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحُجُّوا". فقال رجل: كلّ عام يا رسول الله؟ فسكَتَ، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو قلتُ نعم لوجَبَتْ ولَمَا استطعتم" ثم قال: "ذَرُوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمْرٍ فأتُوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدَعُوه" لفظ مسلم. فبيّن هذا الحديثُ أن الخطاب إذا توجّه على المكلَّفين بفرضٍ أن يكفي منه فعلُ مرّة ولا يقتضي التّكرار ؛ خلافا للأستاذ أبي إسحاق الأسفرايِيني وغيره . وثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له أصحابه : يا رسول الله، أحجّنا لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال : "لا بل للأبد". وهـذا نصٌّ في الرّد على من قال : يجب في كل خمس سنين مرّة . وقد كان الحج معلوما عند العرب مشهورا لديهم ، وكان مما يُرغَب فيـه لأسواقها وتبَرُّرِها(1) وتَحنيفها ؛ فلما جاء الإسـلام خُوطبوا بما عَلموا وأُلزموا بما عَرفوا . وقد حجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل حج الفرض، وقد وقف بعَرفةَ ولم يُغيِّر من شَرْع إبراهيم ما غيّروا؛ حتى كانت قريش تقف بالمَشْعر الحرام ويقولون : نحن أهل الحَرَم فلا نخرج منه ؛ ونحن الحُمْس(2) حسب ما تقدّم بيانه في «البقرة»(3) .

قلت : من أغرب ما رأيته أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم حجّ قبل الهجرة مرّتين وأن الفرض سقط عنـه بذلك ؛ لأنه قـد أجاب نداء إبراهيم حين قيـل له : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

---

(1) التبرر : الطاعة . (2) الحمس جمع الأحمس ، وهم قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس ؛ سموا حمسا لأنهم تحمسوا في دينهم ، أي تشددوا . (3) راجع ج ٢ ص ٣٤٥ طبعة ثانية .

بالحج» . قال الكيا الطبرى: وهذا بعيد؛ فإنه إذا ورد فى شرعه: «وللهِ على الناسِ حِجُّ البيتِ» فلا بدّ من وجوبه عليه بحكم الخطاب فى شرعه . ولئن قيل : إنما خاطب من لم يحجّ ، كان تحكمًا وتخصيصا لا دليل عليه، ويلزم عليه ألّا يجب بهذا الخطاب على من حجّ على دين إبراهيم ، وهذا فى غاية البُعد .

الثانيـــة ــ ودلّ الكتاب والسُّنةُ على أن الحج على التّراخى لا على الفَوْر؛ وهو تحصيل مذهب مالك فيما ذكر ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد، وهو قول الشافعىّ ومحمد بن الحسن وأبى يوسف فى رواية عنه . وذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المـالكيين إلى أنه على الفور، ولا يجوز تأخيره مع القُدرة عليــه ؛ وهو قول داود . والصحيح الأول ؛ لأن الله تعالى قال فى ســورة الحج : «وأَذِّنْ فى النّاس بالحج يأتوكَ رِجالًا» وسورة الحج مكية . وقال تعالى: «ولِلهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ البيت» الآية . وهذه الآية نزلت عام أُحُد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سنة عشر . أما السُّنّة فحديث ضِمَام بن ثعلبة السَّعدىّ من بنى سعد بن بَكْر قدم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن الإسلام فذكر الشّهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج . رواه ابن عباس وأبو هريرة وأنس، وفيهـا كلها ذِكر الحج، وأنه كان مفروضا، وحديث أنس أحسنها سياقا وأتمها . واختُلف فى وقت فرضيته؛ فقيل: سنة خمس . وقيل : سنة سبع . وقيل : سنة تسع ؛ ذكره ابن هشام عن أبى عُبيدة الواقدىّ عامَ الخَنْدق بعد انصراف الأحزاب . قال ابن عبد البر : ومن الدليل على أن الحج على التراخى إجماعُ العلماء على ترك تَفْسِيق القادر على الحج إذا أخّره العامّ والعامين ونحوهما، وأنه إذا حج من بعــد أعوام من حين استطاعته فقــد أدّى الحج الواجبَ عليــه فى وقته . وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاةُ حتى خرج وقتُهـا فقضاها بعد خروج وقتها ، ولا كمن فاته صيام رمضان لمرض أو ســفر فقضاه ، ولا كمن أفسد حجه فقضاه . فلما أجمعوا على أنه لا يقـال لمن حجّ بعد أعوام من وقت استطاعته : أنت قاضٍ لِـمَا وجب عليـك ؛ عَلِمنا أن وقت الحج مُوَسَّع فيــه وأنه على التراخى لا على الفور . قال أبو عمر : كل من قال بالتراخى لا يحُدّ فى ذلك حدًّا؛ إلا ما رُوى عن سُحْنُون وقد سئل عن الرجل

يجد ما يحج به فيؤخّر ذلك إلى سنين كثيرة مع قدرته على ذلك هل يُفَسَّق بتأخيره الحجّ وتُرَدّ شهادتُه ؟ قال : لا وإن مضى من عمره ستون سنة، فاذا زاد على السّتين فُسّق ورُدّت شهادته. وهذا توقيف وحدٌّ، والحدودُ فى الشرع لا تُؤخذ إلا عمّن له أن يُشرّع .

قلت : وحكاه ابن خُوَيْزِمَنْداد عن ابن القاسم . قال ابن القاسم وغيره : إن أخّره ستين سنة لم يَحْرَج(١)، وإن أخره بعد الستين حَرِج؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وقلّ من يتجاوزها" فكأنه فى هذا العشر قد يتضايق عليه الخطاب . قال أبو عمر : وقد يحتج بعضُ الناس بقوله صلى الله عليه وسلم : " مُعْتَرَك أمتى من الستين إلى السبعين وقلّ من يجاوز ذلك " . ولا حُجة فيه ؛ لأنه كلام خرج على الأغلب من أعمار أمته لو صح الحديث . وفيه دليل على التّوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضا، ولا ينبغى أن يقطع بتفسيق من صحّت عدالته وأمانته بمثل هذا من التأويل الضعيف. وبالله التوفيق .

الثالثــة ـــ أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ عامٌّ فى جميعهم مُسترسل على جُملتهم . قال ابن العربىّ : « وإن كان الناس قد اختلفوا فى مطلق العمومات، بَيْدَ أنهم اتفقوا على حمل هذه الآية على جميع الناس ذَكَرهم وأُنثاهم، خَلَا الصّغير فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف، وكذلك العبد لم يدخل فيه؛ لأنه أخرجه عن مطلق العموم قولُه تعالى : « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » والعبد غير مستطيع؛ لأن السّيد يمنعه لحقوقه عن هذه العبادة. وقد قدّم الله سبحانه حقّ السيد على حقّه رِفقًا بالعباد ومصلحةً لهم. ولا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة، فلا نَهْرِف(٢) بما لا نَعرِف، ولا دليل عليه إلا الإجماع» . قال ابن المُنْذر : أجمع عامّة أهل العلم إلا من شَذّ منهم ممن لا يعدّ خلافا على أن الصبيّ إذا حج فى حال صغره والعبد اذا حج فى حال رِقّه ثم بلغ الصبيّ وعَتق العبد كان عليهما حَجّة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلا . وقال أبو عمر : خالف أبو داود جماعةَ فقهاء الأمصار وأئمةَ الأثر فى المملوك وأنه عنده مخاطَب بالحج، وهو عند جمهور العلماء خارجٌ من الخطاب العام فى قوله تعالى: « ولِلَّهِ عَلَى

(١) حرج (من باب طرب) : أثم . (٢) الهرف : شبه الهذيان من الإعجاب بالشيء .

النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» بدليل عدم التصرف، وأنه ليس له أن يحج بغير إذن سيّده؛ كما خرج من خطاب الجُمُعة وهو قوله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» الآية ــ عند عامّة العلماء إلا من شذ. وكذا من خطاب إيجاب الشهادة، قال الله تعالى: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا» فلم يدخل فى ذلك العبدُ. وكما جاز خروج الصبيّ من قوله: «وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهو من الناس بدليل رفع القلم عنه. وخرجت المرأة من قوله: «يأَيُّها الذين آمنُوا إذا نُودِىَ للصَّلاةِ» وهى ممن شَمِله ٱسم الإيمان، وكذلك خروج العبد من الخطاب المذكور. وهو قول فقهاء الحجاز والعراق والشام والمغرب، ومثلهم لا يجوز عليهم تحريف تأويل الكتاب. فإن قيل: إذا كان حاضرَ المسجد الحرام وأذِن له سيدُه فلِمَ لا يلزمه الحج؟ قيل له: هذا سؤال على الإجماع وربما لا يُعلّل ذلك، ولكن إذا ثبت هذا الحكم على الإجماع استدللنا به على أنه لا يُعتدّ بحجه فى حال الرقّ عن حِجّة الإسلام؛ وقد رُوى عن ٱبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أيُّما صبيّ حجّ ثم أدرك فعليه أن يحجّ حِجّة أخرى وأيُّما أعرابىّ حجّ ثم هاجر فعليه أن يحج حِجّة أخرى وأيُّما عبد حج ثم اعتق فعليه أن يحجّ حِجّة أخرى". قال ٱبن العربىّ: «وقد تساهل بعض علمائنا فقال: إنما لم يثبت الحج على العبد وإن أذِن له السيد لأنه كان كافرا فى الأصل ولم يكن حجّ الكافر معتدًّا به، فلما ضُرب عليه الرق ضَرْبًا مؤبّدًا لم يُخاطب بالحج؛ وهذا فاسد من ثلاثة أوجه فاعلموه. أحدها ــ أن الكفار عندنا مخاطَبون بفروع الشريعة، ولا خلاف فيه فى قول مالك. الثانى ــ أن سائر العبادات تلزمه من صلاة وصوم مع كونه رقيقا، ولو فعلها فى حال كفره لم يُعتدّ بها، فوجب أن يكون الحج مثلها. الثالث ــ أن الكُفر قد ارتفع بالإسلام فوجب ارتفاع حكمه. فتبيّن أن المعتَمد ما ذكرناه من تقدّم حقوق السيد». والله الموفق.

الرابعة ــ قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «مَن» فى موضع خفض على بدل البعض من الكل؛ هذا قول أكثر النحويين. وأجاز الكسائى أن يكون «من» فى موضع رفع بحجّ، التقدير ان يحج البيت مَن. وقيل هى شرط. و «استطاع» فى موضع جزم، والجواب

محذوف، أى من استطاع إليه سبيلا فعليه الحج . روى الدَّارَقُطْنيّ عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله، الحج كلّ عام؟ قال : "لا بل حجة"؟ قيل: فما السبيل؟ قال : "الزاد والراحلة". ورواه عن أنس وابن مسعود وابن عمر وجابر وعائشة وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال فسئل عن ذلك فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أن تجد ظَهر بَعير" . وأخرج حديثَ ابن عمر أيضا ابنُ ماجه فى سُننه، وأبو عيسى الترمذيّ فى جامعه وقال : «حديث حَسَن، والعمل عليه عند أهل العلم أنّ الرجل إذا ملك زادا وراحلة وجب عليه الحج . وإبراهيم بن يزيد هو الخُوزيّ المكيّ (١)، وقد تكلّم فيه بعض أهل الحديث من قِبَل حِفظه» . وأخرجاه عن وَكيع والدَّارَقُطْنيّ عن سفيان بن سعيد قالوا : حدّثنا إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عبّاد عن ابن عمر قال: قام رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما يوجب الحج؟ . قال: "الزاد والراحلة" قال: يا رسول الله، فما الحاج؟ قال : "الشَّعِث التَّفِل (٢)" . وقام آخر فقال : يا رسول الله وما الحج؟ قال : "العجّ والثّجّ" . قال وكيع : يعنى بالعج العجيج بالتلبية والثّج نحر البُدْن؛ لفظ ابن ماجه . وممن قال إن الزاد والراحلة شرط فى وجوب الحج : عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وعبد الله بن عباس والحسن البصرى وسعيد بن جُبير وعطاء ومجاهد . وإليه ذهب الشافعيّ والثّوريّ وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحاق وعبد العزيز بن أبي سلمة وابن حبيب ، وذكر عبدوس (٣) مثله عن سُحْنون . قال الشافعيّ: الاستطاعة وجهان: أحدهما أن يكون مستطيعا ببدنه واجدا من ماله ما يبلّغه الحج . والثانى أن يكون معضوبا (٤) فى بدنه لا يثبت على مَرْكَبه وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه بأجرة وبغير أجرة، على ما يأتى بيانه . أما المستطيع ببدنه فإنه يلزمه فرض الحج بالكتاب بقوله عز وجل : «مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» . وأما المستطيع بالمال فقد لزمه فرض الحج بالسُّنّة بحديث الخَثْعمية على ما يأتى . وأما المستطيع بنفسه وهو القويّ الذى لا تلحقه مشقّة غير محتملة

---

(١) هو أحد رجال سند حديث ابن عمر . (٢) الشعث: متلبد الشعر. والتفل: الذى قد ترك استعمال الطيب.
(٣) فى بعض الأصول : «ابن عبدوس» . (٤) المعضوب : الضعيف .

فى الركوب على الراحلة ؛ فان هذا إذا ملك الزاد والراحلة لزمه فرض الحج بنفسه ، وإن عدم الزاد والراحلة أو أحدهما سقط عنه فرضُ الحج ؛ فان كان قادرا على المشى مُطيقا له ووجد الزاد أو قدر على كسب الزاد فى طريقه بصنعة مثل الخرز والحجامة أو نحوهما فالمستحب له أن يحجّ ماشيا رَجلًا كان أو امرأةً . قال الشافعى : والرجل أقلّ عُذراً من المرأة لأنه أقوى . وهذا عندهم على طريق الاستحباب لا على طريق الإيجاب . فأما إن قدر على الزاد بمسألة الناس فى الطريق كَرِهت له أن يحجّ لأنه يصير كَلًّا على الناس . وقال مالك بن أنس رحمه الله : إذا قَدر على المشى ووجد الزاد فعليه فرض الحج ، وإن لم يجد الراحلة وقَدر على المشى نُظر ؛ فإن كان مالكا للزاد وجب عليه فرض الحج ، وإن لم يكن مالكا للزاد ولكنه يقدر على كسب حاجته منه فى الطريق نُظر أيضا ؛ فإن كان من أهل المروءات ممن لا يكتسب بنفسه لا يجب عليه ، وإن كان ممن يكتسب كفايته بتجارة أو صناعة لزمه فرض الحج ، وهكذا إن كانت عادته مسألة الناس لزمه فرض الحج . وكذلك أوجب مالكٌ على المطيق المشى الحجّ ، وإن لم يكن معه زاد وراحلة . وهو قول عبد الله بن الزبير والشَّعْبىّ وعكرمة . وقال الضحاك : إن كان شابًّا قويًّا صحيحا ليس له مال فعليه أن يؤجّر نفسه بأكله أو عقبه(1) حتى يقضى حجّه . فقال له قائل : كلّف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو أن لأحدهم ميراثا بمكة أكان تاركَه ؟ ! بل ينطلق إليه ولو حَبْوًا ، كذلك يجب عليه الحج . واحتج هؤلاء بقوله عز وجل : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا » أى مُشاةً . قالوا : ولأن الحج من عبادات الأبدان من فرائض الأعيان ، فوجب ألا يكون الزاد من شروط وجوبها ولا الراحلة كالصلاة والصيام . قالوا : ولو صح حديث الخُوزِىّ الزاد والراحلة لحملناه على عموم الناس والغالب منهم فى الأقطار البعيدة . وخروج مطلق الكلام على غالب الأحوال كثيرٌ فى الشريعة وفى كلام العرب وأشعارها . وقد روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب عن مالك أنه سئل عن هذه الآية فقال : الناس فى ذلك

---

(1) كذا فى جميع نسخ الأصل . والذى فى تفسير الطبرى : « بأكله وعقبه حتى ... » . وفى تفسير الفخر الرازى والبحر لأبى حيان : « ... بأكله حتى ... » .

على قدر طاقتهم ويُسرهمْ وجَلَدهم. قال أشهبُ لمـالكٍ : أهو الزاد والراحلة؟ . قال: لا والله، ما ذاك إلا على قدر طاقة الناس، وقد يجد الزادَ والراحلةَ ولا يقدر على السير، وآخر يقدر أن يمشي على رجليه .

الخامسـة — إذا وُجدت الاستطاعة وتوجه فرضُ الحج فعَرَض مانع كالغريم يمنعه عن الخروج حتى يؤدّىَ الدَّين؛ ولا خلاف فى ذلك . أو يكون له عيَال يجب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكوِّن لهم نفقتهم مدّةَ غيبته لذهابه ورجوعه، لأن هـذا الإنفاق فرض على الفَوْر والحجّ فرضٌ على التّراخى فكان تقديم العيال أوْلى . وقـد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كَفَى بالمرء إثما أن يُضيِّع من يقوت" . وكذلك الأَبَوان يخاف الضيعةَ عليهما وعَدَم العوض فى التلطّف بهما ، فلا سبيل له إلى الحج ؛ فإن مَنَعاه لأجل الشّوق والوَحْشة فلا يُلتفت إليه . والمرأة يمنعها زوجها، وقيل لا يمنعها . والصحيح المنع؛ لا سيما إذا قلنا إن الحج لا يلزم على الفَوْر. والبحر لا يمنع الوجوب إذا كان غالبه السلامة — كما تقدّم بيانه فى البقرة[1] — ويعلم من نفسه أنه لا يَمِيد[2] . فإن كان الغالب عليه العَطَب أو المَيْد حتى يعطل الصلاة فلا. وإن كان لا يجد موضعا لسجوده لكثرة الراكب وضيق المكان فقد قال مالك: إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه فلا يركبه. ثم قال: أيركب حيث لا يُصلّي! ويلٌ لمن ترك الصلاة! . ويسقط الحج إذا كان فى الطريق عدوّ يطلب الأنفس أو يطلب من الأموال ما لم يتحدد بحدّ مخصوص أو يتحدّد بقـدر مُجْحف . وفى سقوطه بغير المُجْحف خلاف . وقال الشافعيّ : لا يعطى حبة ويسقط فرض الحج . ويجب على المتسوّل إذا كانت تلك عادته وغلب على ظنه أنه يجد من يعطيه . وقيل لا يجب، على ما تقدّم من مراعاة الاستطاعة .

السادسـة — إذا زالت الموانع ولم يكن عنده من النّاضّ[3] ما يحج به وعنده عُروض فيلزمه أن يبيع من عُروضه للحج ما يُباع عليه فى الدَّين . وسئل ابن القاسم عن الرجل تكون له القرْية

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٥ طبعة ثانية .

(٢) المائد : الذى يركب البحر فتغثى نفسه من نتن ماء البحر حتى يدار به ويكاد يغشى عليه .

(٣) الناض : الدراهم والدنانير .

ليس له غيرها أيبيعها فى حجة الإسلام ويترك ولده ولا شىء لهم يعيشون به . قال: نعم، ذلك عليه ويترك ولده فى الصدقة . والصحيح القول الأوّل؛ لقوله عليه السلام : "كفى بالمرء إثما أن يُضيّع من يقوت" وهو قول الشافعى . والظاهر من مذهبه أنه لايلزم الحج إلا من له ما يكفيه من النفقة ذاهبا وراجعا ــ قاله فى الإملاء ــ وإن لم يكن له أهل وعيال . وقال بعضهم : لايعتبر الرجوع لأنه ليس عليه كبير مشقة فى تركه القيام ببلده؛ لأنه لا أهل له فيه ولا عيال وكلّ البلاد له وطن . والأوّل أصوب؛ لأن الإنسان يستوحش لفراق وطنه كما يستوحش لفراق سكنه . ألا ترى أن البكر إذا زنا جُلد وغُرِّب عن بلده سواء كان له أهل أولم يكن. قال الشافعى فى الأمّ: إذا كان له مسكن وخادم وله نفقة أهله بقدر غيبته يلزمه الحج . وظاهر هذا أنه اعتبر أن يكون مال الحج فاضلا عن الخادم والمسكن؛ لأنه قدّمه على نفقة أهله، فكأنه قال : بعد هذا كله . وقال أصحابه : يلزمه أن يبيع المسكن والخادم ويَكْتَرِى مسكنا وخادما لأهله . فإن كان له بضاعة يتجر بها وربحها قدر كفايته وكفاية عياله على الدوام، ومتى أنفق من أصل البضاعة اختلّ عليه ربحها ولم يكن فيه قدر كفايته، فهل يلزمه الحج من أصل البضاعة أم لا؛ قولان: الأوّل للجمهور وهو الصحيح المشهور؛ لأنه لا خلاف فى أنه لو كان له عقار تكفيه غلته لزمه أن يبيع أصل العقار فى الحج، فكذلك البضاعة . وقال ابن سُريج : لا يلزمه ذلك ويُبقى البضاعة ولا يحج من أصلها؛ لأن الحج إنما يجب عليه فى الفاضل من كفايته . فهذا الكلام فى الاستطاعة بالبدن والمال .

السابعة ــ المريض والمعضوب، والعضب القطع ومنه سُمّى السيف عَضْبا، وكأن من انتهى إلى ألّا يقدر أن يستمسك على الراحلة ولا يثبت عليها بمنزلة من قُطعت أعضاؤه إذ لا يقدر على شىء . وقد اختلف العلماء فى حكمهما بعد إجماعهم أنه لا يلزمهما المسير إلى الحج؛ لأن الحج إنما فرضه الله على المستطيع إجماعا، والمريض والمعضوب لا استطاعة لهما . فقال مالك : إذا كان معضوبا سقط عنه فرض الحج أصلا، سواء كان قادرا على من يحجّ عنه بالمال أو بغير المال لا يلزمه فرض الحج . ولو وجب عليه الحج ثم عُضِب وزَمِن سقط عنه فرض الحج؛

ولا يجوز أن يُحجّ عنه فى حال حياته بحال ، بل إن أوصى أن يُحجّ عنه بعد موته حُجّ عنه من الثلث ، وكان تطوعا ؛ واحتج بقوله تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى . فمن قال : إن له سَعى غيره فقد خالف ظاهر الآية . و بقوله تعالى : «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهذا غير مستطيع ؛ لأن الحج هو قصد المكلّف البيتَ بنفسه ، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة مع العجز عنها كالصلاة . وروى محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل ليُدخل بالحجّة الواحدة ثلاثةً الجنةَ الميّتَ والحاجَّ عنه والمنفذَ ذلك " . خرّجه الطبرانى أبو القاسم سليمان بن أحمد قال حدثنا عمرو بن (١) حصين السَّدوسى قال حدّثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر ، فذكره .

قلت : أبو معشر اسمه نَجيح وهو ضعيف عندهم . وقال الشافعىّ : فى المريض الزّمِن والمعضوب والشيخ الكبير يكون قادرا على من يطيعه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطيع استطاعةً مّا . وهو على وجهين : أحدهما أن يكون قادرا على ما يستأجر به مَن يحج عنه فإنه يلزمه فرض الحج ، وهذا قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، رُوى عنه أنه قال لشيخ كبير لم يَحجّ : جهّز رجلا يحجّ عنك . و إلى هذا ذهب الثّورى وأبو حنيفة وأصحابه وابن المبارك وأحمد و إسحاق . والثانى أن يكون قادرا على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحجّ عنه ، وهذا أيضا يلزمه الحج عند الشافعىّ وأحمد وابن راهَوَيه ، وقال أبو حنيفة : لا يلزم الحج ببذل الطاعة بحال . استدل الشافعىّ بما رواه ابن عباس أن امرأة من خَثْعم سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخًا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحجّ عنه ؟ قال : "نعم" . وذلك فى حجة الوداع . فى رواية : لا يستطيع أن يستوىَ على ظهر بعيره . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " فحُجّى عنه أرأيتِ لو كان على أبيك دَيْنٌ أكنتِ قاضيتَه " ؟ قالت نعم . قال : " فدَيْن الله أحق أن يقضى " . فأوجب النبىّ صلى الله عليه وسلم الحج بطاعة ابنته إياه و بذلها من نفسها له بأن تحجّ عنه ؛ فإذا وجب ذلك

(١) فى بعض الأصول : « عمر بن حفص » .

بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المال الذى يستأجر به أولى . فأما إن بذل له المال دون الطاعة فالصحيح أنه لا يلزمه قبوله والحج به عن نفسه ولا يصير ببذل المال له مستطيعا . وقال علماؤنا : حديث الخثعمية ليس مقصودُه الإيجابَ وإنما مقصوده الحثّ على برّ الوالدين والنظر فى مصالحهما دُنْيا ودِينًا وجلب المنفعة إليهما جِبِلّةً وشرعا؛ فلما رأى من المرأة انفعالا وطواعية ظاهرة ورغبةً صادقة فى برّها بأبيها وحرصًا على إيصال الخير والثواب إليه، وتأسّفت أن تفوته بركة الحج أجابها إلى ذلك . كما قال للأخرى التى قالت : إن أُمّى نذرت أن تحجّ فلم تحجّ حتى ماتت أفأحجّ عنها ؟ قال : "حُجّى عنها أرأيتِ لو كان على أمّك دَين أكنتِ قاضيتَه" ؟ قالت نعم . ففى هذا ما يدل على أنه من باب التطوعات وإيصال البرّ والخيرات للأموات . ألَا ترى أنه قد شبّه فعلَ الحج بالدَّين . وبالإجماع لو مات ميّت وعليه دَين لم يجب على وَلِيّه قضاؤه من ماله ، فإن تطوّع بذلك تأدّى الدَّين عنه . ومن الدليل على أن الحج فى هذا الحديث ليس بفرض على أبيها ما صرّحت به هذه المرأة بقولها « لا يستطيع » ومن لا يستطيع لا يجب عليه . وهذا تصريح بنفى الوجوب ومنع الفريضة؛ فلا يجوز ما انتفى فى أوّل الحديث قطعا أن يثبت فى آخره ظَنًّا . يحققه قوله : "فدَين الله أحقّ أن يقضى" فإنه ليس على ظاهره إجماعا؛ فإن دَين العبد أولى بالقضاء، وبه يبدأ إجماعا لفقر الآدمىّ واستغناء الله تعالى؛ قاله ابن العربىّ . وذكر أبو عمر بن عبد البر أن حديث الخثعمية عند مالك وأصحابه مخصوصٌ بها . وقال آخرون : فيه اضطراب . وقال ابن وهب وأبو مصعب : هو حق فى الولد خاصّةً . وقال ابن حبيب : جاءت الرخصة فى الحج عن الكبير الذى لا مَنْهض له ولم يحج وعمن مات ولم يحج أن يحج عنه ولده وإن لم يُوص به ويجزئه إن شاء الله تعالى . فهذا الكلام على المغضوب وشبهه . وحديثُ الخثعمية أخرجه الأئمة؛ وهو ردّ على الحسن قولَه : إنه لا يجوز حجّ المرأة عن الرجل .

الثامنة — وأجمع العلماء على أنه إذا لم يكن للمكلف قوت يتزوّده فى الطريق لم يلزمه الحج . وإن وهب له أجنبى مالًا يحجّ به لم يلزمه قبوله إجماعا؛ لما يلحقه من المِنّة فى ذلك . فلو كان رجل وهب لأبيه مالًا فقد قال الشافعىّ : يلزمه قبوله؛ لأن ابن الرجل من كسبه ولا مِنّة عليه

فى ذلك . وقال مالك وأبو حنيفة : لايلزمه قبوله ؛ لأن فيه سقوط حرمة الأبوة ، إذ يقال : قد جزاه وقد وفاه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس وغيره : المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا . وقال الحسن البصري وغيره : إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر . وروى الترمذي عن الحارث عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله يقول فى كتابه وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " . قال أبو عيسى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث يضعف » . وروى نحوه عن أبي أمامة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . وعن عبد الله بن جبير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته : " يأيها الناس إن الله فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء إن شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائر لا نصيب له فى شفاعتي ولا ورود حوضي " . وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحل فيه الزكاة فلم يزكه سأل عند الموت الرجعة " . فقيل يا بن عباس إنا كنا نرى هذا للكافرين . فقال : أنا أقرأ عليكم به قرآنا « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ » . قال الحسن بن صالح فى تفسيره : فأزكى وأحج . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا سأله عن الآية فقال : " من حج لا يرجو ثوابا أو جلس لايخاف عقابا فقد كفر به " . وروى عن قتادة عن الحسن قال قال عمر رضي الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له مال ولم يحج فيضربون عليه الجزية ؛ فذلك قوله تعالى : « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

قلت : هذا خرج مخرج التغليظ ؛ ولهذا قال علماؤنا : تضمنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجّه عليه ، ولا يجزئ أن يحج عنه غيره ؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد . والله أعلم . وقال سعيد بن جُبير : لو مات جارٌ لى وله ميْسرة ولم يحج لم أصلّ عليه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى تصرفون عن دين الله من آمن . وقرأ الحسن تُصِدون « ضم التاء وكسر الصاد » وهما لغتان : صَدّ وأصَدّ ؛ مثل صدّ اللحمُ وأصدّ إذا أنتن . وخَمّ وأخمّ أيضا إذا تغيّر . ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ تطلبون لها ، فحذف اللام ؛ مثل «وَإِذَا كَالُوهُمْ» . يقال : بغيت له كذا أى طلبته . وأبغيت له كذا أى أعنته . والعِوَج : المَيْل والزَّيغ (بكسر العين) فى الدِّين والقول والعمل وما خرج عن طريق الاستواء . و (بالفتح) فى الحائط والجدار وكل شخص قائم ؛ عن أبى عبيدة وغيره . ومعنى قوله تعالى : « يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ » أى لا يقدرون بألّا يَعُوجُوا عن مكان . وعاج بالمكان وعوّج أقام ووقف . والعائج الواقف ؛ قال الشاعر :

هــل أنتم عائجون بنــا لَعَنَّا[1] ‏ ‏* ترى العَرَصاتِ[2] أو أثرَ الخِيَام

والرجل الأعوج : السّيء الخلق ، وهو بيّن العَوَج . والعُوج من الخيل التى فى أرجلها تحنيب . والأَعْوجيّة من الخيل تُنسب إلى فرس كان فى الجاهلية سابقا . ويقال : فرسٌ مُحَنَّب إذا كان بعيد ما بين الرجلين بغير فَحَج ؛ وهو مَدْحٌ . ويقال : الحَنَب اعوجاجٌ فى السَّاقين . قال الخليل التَّحنيب يوصف فى الشدة ، وليس ذلك باعوجاج .

---

(١) لعنا : لغة فى لعل . (٢) العرصة : كل بقعة بين الدور ليس فيها بناء . وعرصة الدار : وسطها .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ أى عقلاء . وقيل : شهداء أن فى التوارة مكتوبا أن دين الله الذى لا يقبل غيره الإسلام، إذ فيه نعتُ محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

نزلت فى يهودىّ أراد تجديدَ الفِتنة بين الأَوْس والخَزْرَج بعد انقطاعها بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، فجلس بينهم وأنشدهم شِعْرًا قاله أحدُ الحَيَّين فى حربهم . فقال الحَىّ الآخر : قد قال شاعرنا فى يوم كذا وكذا ، فكأنهم دخلهم من ذلك شىء ، فقالوا : تعالَوْا نَرُدُّ الحربَ جَذَعًا كما كانت . فنادى هؤلاء : يا آلَ أَوْس . ونادى هؤلاء . يا آلَ خَزْرج ؛ فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية ؛ فجاء النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى وقف بين الصَّفين فقرأها ورفع صوته ، فلما سمعوا صوته أَنْصَتوا له وجعلوا يستمعون ، فلما فرغ ألقوا السّلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون ؛ عن عكرمة وابن زيد وابن عباس . والذى فعل ذلك شاس بن قيس اليهودىّ ، دَسّ على الأوْس والخَزْرج من يذكّرهم ما كان بينهم من الحروب ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أتاهم وذكّرهم ، فعرف القوم أنها نَزْعَةٌ من الشيطان ، وكَيْدٌ من عدوّهم ؛ فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم سامعين مُطيعين ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى الأوس والخزرج . ﴿ إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يعنى شاسًا وأصحابه . ﴿ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ قال جابر بن عبد الله : ما كان طَالِعٌ أكرهَ إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلينا بيده فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا ؛ فما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيتُ يوما أقبحَ ولا أَوْحَشَ أوّلًا وأحسنَ آخرًا من ذلك اليوم .

قوله تعالى : وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

قاله تعالى على جهة التعجب ، أى وكيف تكفرون . ﴿ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كان بين الأَوْس والخَزْرج قتالٌ وشرٌّ فى الجاهلية، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيوف؛ فأُتِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم فذُكر ذلك له فذهب إليهم ؛ فنزلت هذه الآية « وَكَيْفَ تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ الله وفيكم رسوله — إلى قوله تعالى : فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ويدخل فى هذه الآية مَن لم يَرَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم؛ لأن ما فيهم من سُنّته يقوم مقام رؤيته. قال الزجّاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصةً؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه . ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآنَ الذى أُوتِىَ فِينَا مكانَ النبىّ صلى الله عليه وسلم فِينَا وإن لم نشاهده. وقال قَتادة : فى هذه الآية عَلَمان بيِّنان : كتابُ الله ونبىّ الله؛ فأما نبىّ الله فقد مضى، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً؛ فيه حلالُه وحرامُه، وطاعته ومعصيته. ﴿وكَيْفَ﴾ فى موضع نصب، وفتحت الفاء عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين؛ واُخْتِير لها الفتح لأن ماقبل الفاء ياء فثَقُل أن يجمعوا بين ياء وكسرة. قوله : ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ أى يمتنع ويتمسّك بدينه وطاعته. ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾ وُفِّق وأرشد ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ . ابن جُريج « يعتصم بِاللَّهِ » يؤمن به . وقيل : المعنى ومن يعتصم بالله أى يتمسّك بحبل الله، وهو القرآن . يقال : أعصم به واعتصم، وتمسّك واستمسك إذا امتنع به من غيره . واعتصمت فلانا هيّأتُ له ما يَعتصم به . وكل متمسّك بشىء مُعصِم ومُعتصِم . وكلّ مانع شيئا فهو عاصم؛ قال الفرزدق :

أنا ابن العاصمينَ بَنِى تَمِيم ✽ إذا ما أَعْظَمُ الحَدَثان نَابَا

قال النابغة :

يَظَلّ من خوفه المَلّاح معتصمًا ✽ بالخَيْزُرانة بعد الأَيْن والنَّجَد[1]

---

(١) الخيزرانة : السُّكّان، وهو ذنب السفينة . والنجد (بالتحريك) : العرق من عمل أو كرب أو غيره .

وقال آخر[1] :

فأشرطَ فيها نفسَه وهو مُعصِمٌ * وألقى بأسبابٍ له وتوكّلا

وعصمه الطعامُ: منع الجوعَ منه؛ تقول العرب : عَصَمه الطعامُ أى منعه من الجوع؛ فكَنَوْا السّوِيق بأبى عاصم لذلك . قال أحمد بن يحيى : العرب تُسمّى الخبز عاصما وجابرا ؛ وأنشد :

فلا تلوميني ولُومِى جابِرًا * فجابرٌ كلّفَنى الهواجرَا

ويُسمّونه عامرا . وأنشد :

أبو مالك يعتادنى بالظّهائر * يجيء فيُلقِى رحلَه عند عامرِ

أبو مالك كنية الجوع .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١٠٢)

فيه مسألة واحدة :

روى النحاس عن مُرّة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حقّ تقاته » أن يطاع فلا يُعصَى وأن يُذكَر فلا يُنسَى وأن يُشكر فلا يُكفر" . وقال ابن عباس : هو ألا يُعصَى طَرْفةَ عَيْن . وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : يا رسول الله، من يَقوَى على هذا؛ وشقّ عليهم فأنزل الله عز وجل « فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ » ونسخت هذه الآيةَ ؛ عن قَتادة والرّبيع وابن زيد . قال مقاتل : وليس فى آل عمران من المنسوخ شيء إلا هذه الآية . وقيل : إن قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » بيانٌ لهذه الآية . والمعنى : فاتّقوا الله حق تُقاته ما استطعتم ، وهذا أصوب ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أوْلَى . وقد روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قول الله « يأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ حقّ تُقاته » لم تُنسخ ، ولكن « حقّ تُقاته » أن يُجاهد فى الله حق

---

(١) هو أوس بن حجر ؛ كما فى اللسان مادة « عصم » .

جهاده، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا بالقسط ولو على أنفسكم وأبنائكم. قال النحاس: وكلما ذُكر في الآية واجب على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ. وقد مضى في البقرة معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

قوله تعالى: وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا﴾ العصمة المَنَعة، ومنه يقال للبَذْرَقة: عِصْمة. والبَذْرَقة: الخفارة للقافلة، وذلك بأن يرسل معها من يحميها ممن يؤذيها. قال ابن أبي خالويه: البَذْرَقة ليست بعربية وإنما هي كلمة فارسية عرّبتها العرب؛ يقال: بعث السلطان بَذْرَقة مع القافلة.

والحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السَّبب الذي يوصل به إلى البُغية والحاجة. والحبل: حبل العاتق[2]. والحبل: مستطيل من الرمل؛ ومنه الحديث: والله ما تركتُ من حَبْل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؛ والحبل الرَّسَنُ. والحبل العَهْد. قال الأعشى:

وإذا تُجَوِّزها حِبالُ قبيلةٍ * أخذت من الأخرى إليك حِبالَها

يريد الأمان. والحِبْل الداهية؛ قال كُثيِّر[3]:

فلا تعجلي يا عزّ أن تتفهّمي * بنُصح أتى الواشون أم بحُبُول

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ طبعة ثانية. (٢) حبل العاتق: عصبة بين العنق والمنكب.

(٣) في الأصول: «لبيد». والتصويب عن اللسان وشرح القاموس مادة «حبل».

والحبال : حبال الصائد . وكلها ليس مرادا فى الآية إلا الذى بمعنى العهد ؛ عن ابن عباس .
وقال ابن مسعود : حبـل الله القرآن . ورواه علىّ وأبو سعيد الخدرىّ عن النبىّ صلى الله
عليه وسلم، وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك . وأبو معاوية عن الهَجَرى (١) عن أبى الأحوص عن
عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن هذا القرآن هو حبل الله" . وروى
تقىّ بن مَخْلَد حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هُشيم عن العوّام بن حوشب عن الشعبىّ عن
عبد الله بن مسعود « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا » قال : الجماعة؛ وروى عنه
من وجوه، والمعنى كله متقارب متداخل ؛ فإن الله تعالى يأمر بالأُلْفة و ينهى عن الفُرقة فإن
الفرقة هَلَكةٌ والجماعة نجاة . ورحم الله ابن المبارك حيث قال :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا * منه بعُروته الوُثْقَى لمن دانا

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ كما افترقت اليهود والنصارى فى أديانهم ؛
عن ابن مسعود وغيره . و يجوز أن يكون معناه ولا تفرّقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة،
وكونوا فى دين الله إخوانا؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر . ودلّ عليه ما بعده وهو
قوله تعالى : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ
إِخْوَانًا » . وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف فى الفروع ؛ فإن ذلك ليس اختلافا إذ الاختلاف
ما يتعذر معه الائتلاف والجمع وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج
الفرائض ودقائق معانى الشرع ؛ وما زالت الصحابة يختلفون فى أحكام الحوادث ، وهم مع
ذلك متآلفون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اختلاف أُمّتى رحمة" وإنما منع الله
اختلافا هو سبب الفساد . روى التّرمذىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : "تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة أو اثنتين وسبعين فِرقة والنصارى
مثلّ ذلك وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة" . قال الترمذى : هـذا حديث صحيح .
وأخرجه أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليأتينّ على أمتى ما أتى

---

(١) الهجرى : بهاء وجيم مفتوحتين ، نسبة الى هجر . وهو ابراهيم ابن مسلم العبدى . (عن تهذيب التهذيب) .

على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتى أمه علانية لكان من أمتى من يصنع ذلك وإن بنى إسرائيل تفرقت اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة " قالوا : من هى يارسول الله ؟ قال : " ما أنا عليه وأصحابى " . أخرجه من حديث عبد الله بن زياد الأفريقى عن عبد الله بن يزيد عن ابن عمر ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قال أبو عمر : وعبد الله الأفريقى ثقة وثقه قومه وأثنوا عليه ، وضعفه آخرون . وأخرجه أبو داود فى سننه من حديث معاوية بن أبى سفيان عن النبى صلى الله عليه وسلم : " قال ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة و إن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة و إنه سيخرج من أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَب (١) بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله " . وفى سنن ابن ماجه « عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة مات والله عنه راض " . قال أنس : وهو دين الله الذى جاءت به الرسل و بلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما نزل، يقول الله : « فَإِنْ تَابُوا » قال : خلعوا الأوثان وعبادتها « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ »، وقال فى آية أخرى : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » . أخرجه عن نصر بن على الجهضمى عن أبى أحمد عن أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أنس . قال أبو الفرج الجوزى : فإن قيل هذه الفرق معروفة ، فالجواب أنا نعرف الافتراق وأصول الفرق وأن كل طائفة من الفرق انقسمت إلى فرق و إن لم نحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها ، فقد ظهر لنا من أصول الفرق الحرورية والقدرية والجهمية والمرجئة والرافضة والجبرية . وقال بعض أهل العلم : أصل الفرق الضالة هذه الفرق الست ، وقد انقسمت كل فرقة منها اثنتى عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة .

(١) الكلب (بالتحريك) : داء يعرض للانسان من عض الكلب الكَلِب فيصيبه شبه الجنون ، فلا يعض أحدا إلا كَلِب ، وتعرض له أعراض رديئة ، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا .

اقتسمت الحَرُورِيّة اثنتى عشرة فرقة؛ فأولهم الأَزْرَقِيّة(١) — قالوا: لا نعلم أحدا مؤمنا؛ وكفّروا أهل القِبْلة إلّا مَن دان بقولهم. والأباضية — قالوا: من أخذ بقولنا فهو مؤمن، ومن أعرض عنه فهو منافق. والثعلبيّة — قالوا: إن الله عز وجل لم يقض ولم يُقَدِّر. والخازِميّة — قالوا: لا ندرى ما الإيمان، والخلق كلهم معذورون. والخَلَفية — زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر وأنثى كفر. والكوزية(٢) — قالوا: ليس لأحد أن يمسّ أحدا لأنه لا يعرف الطاهر من النّجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب و يغتسل. والكَنْزِيّة — قالوا: لا يسع أحدا أن يُعطى مالَه أحدا؛ لأنه ربما لم يكن مستحقا بل يكنزه فى الأرض حتى يظهر أهل الحق. والشِّمراخيّة — قالوا: لا بأس بمسّ النساء الأجانب لأنهم رياحين. والأَخْنَسية — قالوا: لا يلحق الميّت بعد موته خير ولا شر. والحكميّة — قالوا: مَن حاكم إلى مخلوق فهو كافر. والمُعْتزِلة — قالوا: اشتبه علينا أمر علىّ ومعاوية فنحن نتبرّأ من الفريقين. والميمونية — قالوا: لا إمام إلا برضا أهل محبّتنا.

وانقسمت القَدَرية اثنتى عشرة فرقة: الاحمرية — وهى التى زعمت أن فى شرط العدل من الله أن يملّك عباده أمورَهم، ويحولَ بينهم وبين معاصيهم. والثَّنَويّة — وهى التى زعمت أن الخير من الله والشرّ من الشيطان. والمعتزلة — وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا الرّبُوبيّة. والكَيْسانية — الذين قالوا: لا ندرى هذه الأفعال من الله أو من العباد، ولا نعلم أيثاب الناس بعدُ أو يعاقبون. والشيطانية — قالوا: إن الله تعالى لم يخلق الشيطان. والشّريكية — قالوا: إن السّيئات كلها مقدّرة إلا الكفر. والوهمية — قالوا: ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات، ولا للحسنة والسيئة ذات. والزِّبْرِيّة — قالوا: كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق، ناسخا كان أو منسوخا. والمسعدية — زعموا أن من عصى ثم تاب

(١) لم نجد بعض أسماء هذه الفرق التى سيذكرها المؤلف فى كتب الكلام التى بين أيدينا؛ ولذلك لم نوفق لتحرير هذا البعض.

(٢) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة ففى بعض «الكورية» بواو وراء. وفى بعض: «الكروية» براء وواو.

لم تقبل توبته . والناكثية ـ زعموا أن من نكث بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا إثم عليه . والقاسطية ـ تبعوا إبراهيم بن النّظام فى قوله : من زعم أن الله شيء فهو ليس بكافر .

وانقسمت الجَهْميّة اثنتى عشرة فرقة : المعطّلة ـ زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق، وأن من آدعى أن الله يُرى فهو كافر. والمريسية ـ قالوا: أكثر صفات الله تعالى مخلوقة . والملتزقة ـ جعلوا البارى سبحانه فى كل مكان . والواردية ـ قالوا لا يدخل النار من عرف ربّه ، ومن دخلها لم يخرج منها أبدا . والزنادقة ـ قالوا : ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربًّا؛ لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس، وما لا يُدرك لا يثبت . والحرقية ـ زعموا أن الكافر تحرقه النار مرّة ثم يبقى محترقا أبدا لا يجد حرّ النار . والمخلوقية ـ زعموا أن القرآن مخلوق . والفانية ـ زعموا أن الجنة والنار يفنيان، ومنهم من قال لم يُخلقا . والعبدية[1] ـ جحدوا الرسل وقالوا إنما هم حكماء . والواقفية ـ قالوا : لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق . والقبرية ـ ينكرون عذاب القبر والشفاعة . واللفظية ـ قالوا : لفظُنا بالقرآن مخلوق .

وانقسمت المرجئة اثنتى عشرة فرقة : التاركية ـ قالوا : ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به، فمن آمن فليفعل ما شاء . والسائبية ـ قالوا : إن الله سيّب خلقه ليفعلوا ما شاءوا . والراجية ـ قالوا : لا يُسمّى الطائع طائعا ولا العاصى عاصيا، لأنّا لا ندرى ماله عند الله تعالى . والسالبية ـ قالوا : الطاعة ليست من الإيمان . والبهيشية ـ قالوا : الإيمان علم ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر . والعملية ـ قالوا : الإيمان عمل . والمنقوصية ـ قالوا : الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمستثنية ـ قالوا : الآستثناء من الإيمان . والمشبّهة ـ قالوا : بصرٌ كبصرٍ ويدٌ كيدٍ . والحشوية ـ قالوا : حكم الأحاديث كلها واحد؛ فعندهم أن تارك النّفل كتارك الفرض . والظاهرية ـ الذين نفوا القياس . والبِدْعية ـ أوّل من ابتدع الأحداث فى هذه الأمة .

(١) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة؛ ففى بعضها « العبرية » وفى بعضها الآخر « العسرية » .

وانقسمت الرافضة اثنتى عشرة فرقة : العلوية — قالوا : إن الرسالة كانت إلى علىّ وإن جبريل أخطأ . والأمرية — قالوا : إن عليًّا شريك محمد فى أمره . والشيعة — قالوا : إن عليًّا رضى الله عنه وصىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووليّه من بعده، وإن الأمة كفرت بمبايعة غيره . والإسحاقية — قالوا : إن النبوّة متصلة إلى يوم القيامة، وكل من يعلم علم أهل البيت فهو نبىّ . والناووسية — قالوا : علىّ أفضل الأمة، فمن فضّل غيره عليه فقد كفر . والإمامية — قالوا : لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين، وأن الإمام يعلمه جبريل عليه السلام، فاذا مات بدّل غيره مكانه . والزيدية — قالوا : ولد الحسين كلهم أئمة فى الصلوات، فمتى وُجد منهم أحد لم تجز الصلاةُ خلف غيرهم، برّهم وفاجرهم . والعباسية — زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره . والتناسخية — قالوا : الأرواح تتناسخ؛ فمن كان محسنًا خرجت روحه فدخلت فى خلق يسعد بعيشه . والرّجعية — زعموا أن عليًّا وأصحابه يرجعون إلى الدنيا ، وينتقمون من أعدائهم . واللاعنة — يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشةَ وغيرَهم . والمتربّصة — تشبهوا بزىّ النُّسّاك ونصّبوا فى كل عصر رجلا ينسُبون إليه الأمر ؛ يزعمون أنه مَهدىُّ هذه الأمة ، فاذا مات نصّبوا آخر .

ثم انقسمت الجبرية اثنتى عشرة فرقة : فمنهم المضطربة — قالوا : لا فعل للآدمىّ ، بل الله يفعل الكل . والأفعالية — قالوا : لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها ، وإنما نحن كالبهائم نقاد بالحبل . والمفروغية — قالوا : كل الأشياء قد خُلقت، والآن لا يُخلق شىء . والنجارية — زعمت أن الله تعالى يعذّب الناس على فعله لا على فعلهم . والمنانية — قالوا : عليك بما يخطر بقلبك، فافعل ماتوسمت منه الخير . والكسبية — قالوا : لا يكتسب العبد ثوابا ولا عقابا . والسابقية — قالوا : من شاء فليفعل ومن شاء لم يفعل، فإن السعيد لا تضره ذنوبه والشقىّ لا ينفعه برّه . والحبية — قالوا : من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان . والخوفية — قالوا : من أحبّ الله تعالى لم يسعه أن يخافه لأن الحبيب لا يخاف حبيبه . والفكرية [1] — قالوا : من ازداد علما سقط عنه بقدر ذلك من العبادة .

(١) اضطربت الأصول فى رسم هذه الكلمة ؛ ففى بعض : « النكرية » بالنون، وفى بعض « الفركية » .

والحشبية[1] ـ قالوا : الدنيا بين العباد سواء، لا تفاضل بينهم فيما ورّثه أبوهم آدم . والمنية[2] ـ قالوا : منّا الفعل ولنا الاستطاعة .

وسيأتى بيان الفرقة التى زادت فى هذه الأمة فى آخر سورة « الأنعام » إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس لسماك الحنفى : يا حنفىّ ، الجماعةَ الجماعةَ ! ! فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها؛ أما سمعت الله عز وجل يقول : « وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ويكره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرةَ السؤال وإضاعة المال " . فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسُنّة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادا وعملا ؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشّتات الذى يتم به مصالح الدنيا والدّين، والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذى حصل لأهل الكتابين . هذا معنى الآية على التمام ، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور فى موضعه من أصول الفقه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ أمر تعالى بتذكّر نعمه وأعظمها الإسلام واتّباع محمد عليه السلام؛ فإن به زالت العداوة والفرقة وكانت المحبة والألفة . والمراد الأوس والخزرج ؛ والآية تعم . ومعنى « فأصبحتم بنعمته إخوانا » أى صرتم بنعمة الإسلام إخوانا فى الدّين . وكلما فى القرآن « أصبحتم » معناه صرتم؛ كقوله تعالى : « إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا » أى صار غائرا . والإخوان جمع أخ؛ وسُمّى أخا لأنه يتوخّى مذهبَ أخيه، أى يقصده . وشفا كلّ شىء حرفه، وكذلك شفيره؛ ومنه قوله تعالى : « وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ »[1] . قال الراجز:

نحن حفرنا للحجيج سَجْلَه[3] * نابتة فوق شفاها بقله

(١) فى بعض الأصول : «الحشبية» بالخاء المهملة ؛ وفى بعض «الجنبية» بالياء المثناة من تحت والثاء المثلثة .
(٢) فى بعض الأصول : «المنية» بالعين .   (٣) السجلة : الدلو الضخمة المملوءة ماء . والمراد هنا البئر .

١م ممد اسسن بنبيا نه عم شفا جرف هار

وأشفى على الشيء أشرف عليه ؛ ومنه أشفى المريض على الموت . وما بقي منه إلا شفًا أي قليل . قال ابن السِّكِّيت : يقال للرجل عند موته وللقمر عند انمحاقه وللشمس عند غروبها : ما بقي منه إلا شفًا، أي قليل . قال العجّاج :

وَمَرْبأٍ عالٍ لمن تشرّفا * أشرفتُه بلا شفًى أو بِشفى

قوله « بلا شفى » أي غابت الشمس . « أو بشفى » وقد بقيت منها بقيّة . وهو من ذوات الياء ، وفيه لغة أنه من الواو . وقال النحاس : الأصل في شفا شَفَو، ولهذا يكتب بالألف ولا يمال . وقال الأخفش : لمّا لم تجز فيـه الإمالة عُرِف أنه من الواو؛ ولأن الإمالة بين الياء، وتثنيته شفوان . قال المَهْدَوِيّ : وهذا تمثيل يراد به خروجهم من الكفر الى الإيمان .

قوله تعـالى : وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

قد مضى القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه السورة . و « من » في قوله « منكم » للتبعيض . ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علمـاء وليس كل الناس علماء . وقيل : لبيان الجنس . والمعنى لتكونوا كلكم كذلك .

قلت : القول الأوّل أصح ؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عيّنهم الله تعالى بقوله : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ » الآية . وليس كل الناس مُكّنوا . وقرأ ابن الزبير : « وَلْتَكُنْ مِنكم أُمَّةٌ يدعون إلى الخـير ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المُنكرِ ويَستعينونَ اللهَ على ما أصابهم » . قال أبو بكر الأنبارى : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه غَلِط فيه بعض الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن؛ يدلّ على صحة ما أصف الحديثُ الذى حدّثنيه أبي حدّثنا ابن عرفة حدّثنا وَكيع عن أبي عاصم عن ابن عون عن صبيح قال : سمعت عثمان بن عفّان يقرأ «ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المنكرِ ويستعينون الله على ما أصابهم » فمـا يشكّ عاقل في أن عثمان لا يعتقد هذه الزيادة من

القرآن ؛ إذ لم يكتبها فى مصحفه الذى هو إمام المسلمين ، وإنما ذكرها واعظًا بها ومؤكدا ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

يعنى اليهود والنصارى فى قول جمهور المفسرين . وقال بعضهم : هم المبتدعة من هذه الأمة . وقال أبو أمامة : هم الحَرُورِيَّة؛ وتلا الآية . وقال جابر بن عبد الله : « الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَات » اليهود والنصارى . « جاءهم » مذكر على الجمع ، وجاءتهم على الجماعة .

قوله تعالى : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

فيه ثلاث مسائل .

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعنى يوم القيامة ، حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة . ويقال : إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى فى كتابه حسناته آستبشر وآبيض وجهه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته آسود وجهه . ويقال : إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته آبيض وجهه ، وإذا رجحت سيئاته آسود وجهه . ويقال : ذلك عند قوله : « وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » . ويقال : إذا كان يوم القيامة يؤمر كل فريق بأن يجتمع إلى معبوده فإذا آنتهوا إليه حزِنوا وآسودت وجوههم ، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون؛ فيقول الله تعالى للؤمنين : "من ربكم"؟ فيقولون : ربنا الله عز وجل . فيقول

لهم . " أتعرفونه إذا رأيتموه" . فيقولون : سبحانه! إذا اعترف[1] عرفناه . فيرونه كما شاء الله . فيخر المؤمنون سُجّدًا لله ، فتصير وجوهُهم مثلَ الثلج بياضا ، ويبقى المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرون على السجود فيحزَنوا وتسودّ وجوههم ؛ وذلك قوله تعالى : « يومَ تَبيَضُّ وجوهٌ وتَسودُّ وجوهٌ » . ويجوز « تِبيضّ وتِسودّ » بكسر التائين ؛ لأنك تقول : ابيضت ، فتكسر التاء كما تكسر الألف . وهي لغة تميم وبهـا قرأ يحيى بن وثاب . وقرأ الزُّهْرِيّ « يوم تَبياضّ وتَسوادّ » ويجوز كسر التاء أيضـا . ويجوز « يوم يبيض وجوه » باليـاء على تذكير الجمع . ويجوز « أُجوه » مثل أُقِّتَت . وابيضاض الوجوه إشراقُها بالنعيم . واسـودادها هو مايرهقها من العذاب الأليم .

الثانيـــة — واختلفوا في التعيين ؛ فقال ابن عباس : تبيضّ وجوه أهلِ السُّنّة وتسودّ وجوه أهل البِدْعة .

قلت : وقول ابن عباس هذا رواه مالك بن سليمان الهَرَوِيّ أخو غسانَ عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى« يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» قال : " يعني تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة" ذكره محمد ابن عليّ بن ثابت الخطيب . وقال فيه : مُنكَرٌ من حديث مالك . قال عطاء : تبيضّ وجوه المهاجرين والأنصار، وتسودّ وجوه بني قُريظة والنَّضير. وقال أُبَيّ بن كعب : الذين اسودت وجوههم الكفارُ، وقيل لهم : أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أخرجتم من ظهر آدم كالذَّرّ. هذا اختيار الطبري . الحَسَنُ : الآية في المنافقين . قَتادةُ: في المرتدين . عِكْرِمة : هم قوم من أهل الكتاب كانوا مصدّقين بأنبيائهم مصدِّقين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث فلما بعث عليه السلام كفروا به ؛ فذلك قوله : « أكفرتم بعد إيمانكم » . وهو اختيار الزجاج . مالك بن أنس : هي في أهل الأهواء . أبو أُمامة الباهليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : هي في الحَرُورِيّة . وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال : " هي في القَدَرِية " . روى الترمذيّ عن

(١) هذه عبارة ابن الأثير ، أى إذا وصف نفسه بصفة نحققه بها عرفناه . وفى الأصول : إذا «عرّفنا» .

أبي غالب قال : رأى أبو أُمامة رءوسًا منصوبةً على باب دمشق[(1)]، فقال أبو أُمامة : كلابُ النار شرُّ قتلى تحت أديم السماء، خيرُ قتلى من قتلوه - ثم قرأ - «يوم تبيضُّ وجوهٌ وتَسودُّ وجوهٌ» إلى آخر الآية. قلت لأبي أمامة : أنت سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرّةً أو مرّتين أو ثلاثا حتى عدّ سبعًا ما حدّثتكموه. قال : هذا حديث حسن. وفي صحيح البخاريّ عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني فَرَطُكم[(2)] على الحوض من مرّ عليّ شرِب ومن شرِب لم يظمأ أبدا لَيَرِدَنّ عليّ أقوام أعرِفهم ويعرِفوني ثم يُحال بيني وبينهم ". قال أبو حازم[(3)] : فسمعني النُّعمان بن أبي عيّاش فقال : هكذا سمعتَ من سهل بن سعد؟ فقلت نعم. فقال : أشهدُ على أبي سعيد الخُدريّ لسمعتُه وهو يزيد فيها : " فأقول إنهم منّي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سُحْقًا سُحْقًا لمن غيّر بعدي ". وعن أبي هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يَرِد على الحوض يوم القيامة رَهْطٌ من أصحابي فيُجْلَوْن عن الحوض فأقول يا ربّ أصحابي فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم آرتدّوا على أدبارهم القَهْقَرَى ". والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. فمن بدّل أو غيّر أو آبتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المُبعَدين منه المُسْوَدّي الوجوه، وأشدّهم طَرْدًا وإبعادا من خالف جماعةَ المسلمين وفارق سبيلَهم؛ كالخوارج على اختلاف فرقها والروافض على تباين ضلالها والمعتزلة على أصناف أهوائها؛ فهؤلاء كلهم مبدِّلون ومبتدِعون. وكذلك الظَّلَمة المسرفون في الجَوْر والظُّلم وطَمْس الحق وقَتْل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخِفّون بالمعاصي، وجماعةُ أهل الزيغ والأهواء والبدع؛ كلٌّ يخاف عليهم أن يكونوا عُنُوا بالآية، والخبر كما بيّنا. ولا يُخلَّد في النار إلا كافرٌ جاحدٌ ليس في قلبه مثقالُ حبّة خردل من إيمان. وقد قال ابن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شرٌّ من أهل الأهواء. وكان يقول : تمام الإخلاص تجنُّبُ المعاصي.

(1) في صحيح الترمذي : « على درج مسجد دمشق ». (2) الفرط (بفتحتين) : الذي يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض. (3) أبو حازم هو سلمة بن دينار، أحد رجال سند هذا الحديث.

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فيقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم، يعنى يوم الميثاق وحين قالوا بلى . ويقال : هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث فلما بُعث كفروا به . وقال أبو العالية : هذا للمنافقين، يقال أكفرتم فى السّر بعد إقراركم فى العلانية . وأجمع أهل العربية على أنه لا بدّ من الفاء فى جواب « أما » لأن المعنى فى قولك : « أما زيد فمنطلق » مهما يكن من شيء فزيد منطلق . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ هؤلاء أهل طاعة الله عن وجل والوفاء بعهده . ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى فى جنته ودار كرامته خالدون باقون . جعلنا الله منهم وجنّبنا طريق البِدع والضلالات، ووفّقنا لطريق الذين آمنو وعملوا الصالحات . آمين .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر، يعنى القرآن . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ يعنى نُنَزّل عليك جبريل فيقرؤها عليك . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقال الزجاج : «تلك آيات الله» المذكورة حُجج الله ودلائله . وقيل : «تلك» بمعنى هذه ولكنها لما انقضت صارت كأنها بَعُدت فقيل «تلك» . ويجوز أن تكون «آيات الله» بدلا من «تلك» ولا تكون نعتا لأن المُبْهم لا يُنعت بالمضاف . ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعنى أنهم لا يعذبهم بغير ذنب . ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال المَهْدَوِى : وجه اتّصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظُلما للعالمين وصله بذكر اتّساع قدرته وغناه عن الظلم بكون ما فى السموات وما فى الأرض له حتى يسألوه و يعبدوه ولا يعبدوا غيره .

قوله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ (١١٠)

قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فيه ثلاث مسائل .

الأولى ــ رَوى الترمذيّ عن بَهْز بن حَكيم عن أبيه عن جدّه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله «كنتم خير أمة أخرجت للناس» قال : "أنتم تُتمّون سبعين أمّةً أنتم خيرها وأكرمها على الله" . وقال : هذا حديث حَسَن . وقال أبو هريرة : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام . وقال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بَدْرًا والحُدَيْبِية . وقال عمر بن الخطاب : من فعل فعلهم كان مثلهم . وقيل : هم أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى الصالحين منهم وأهلَ الفضل ؛ وهم الشهداء على الناس يوم القيامة؛ كما تقدم فى البقرة[(١)] . وقال مجاهد : «كنتم خير أمة أُخرجت للناس» على الشرائط المذكورة فى الآية . وقيل : معناه فى اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم مذ آمنتم خيرَ أمة . وقيل : جاء ذلك لتقدّم البشارة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته . فالمعنى كنتم عند من تقدّمكم من أهل الكُتُب خيرَ أمّة . وقال الأخفش: يريد أهل أمّة، أى خير أهل دين؛ وأنشد :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وهل يأثَمَنْ ذو أمةٍ وهو طائعُ[(٢)]

وقيل : هى كان التامة، والمعنى خلقتم ووُجدتم خير أمة . « فخير أمة » حال . وقيل : كان زائدة، والمعنى أنتم خير أمة . وأنشد سيبويه :

* وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ[(٣)] *

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية . (٢) البيت للنابغة الذبيانى .
(٣) هذا عجز بيت للفرزدق . وصدره : * فكيف إذا رأيت ديار قوم *

ومثله قوله تعالى: «كيف نُكَلِّم من كان في المَهْدِ صَبِيًّا» . وقوله: «وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ» . وقال في موضع آخر: «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ» . وروى سفيان بن مَيْسَرة الأشجعيّ عن أبي حازم عن أبي هريرة «كنتم خير أمة أخرجت للناس» قال: يجُرّون الناس بالسلاسل إلى الإسلام . قال النحاس: والتقدير على هذا كنتم للناس خير أمة . وعلى قول مجاهد: كنتم خير أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وقيل: إنما صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفْشَى . فقيل: هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قَرْني" أي الذين بُعثت فيهم .

الثانيــة — واذا ثبت بنصّ التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم فقد روى الأئمة من حديث عِمران بن حُصين عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "خير النّاس قَرْني ثم الذين يَلُونهم" . وهذا يدلّ على أن أوّل هذه الأمة أفضلُ ممن بعدهم، وإلى هذا ذهب معظم العلماء . وأن مَن صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرّة في عمره أفضلُ ممن يأتي بعده، وإن فضيلة الصحبة لا يَعْدلها عمل . وذهب أبو عمر بن عبد البرّ الى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضلُ ممن كان في جُملة الصحابة، وأن قوله عليه السلام: "خير الناس قَرْني" ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول . وقد جمع قَرْنه جماعةً من المنافقين المُظْهِرين للإيمان وأهلِ الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود، وقال لهم: ما تقولون في السارق والشارب والزاني . وقال مواجهةً لمن هو في قرنه "لا تَسُبُّوا أصحابي". وقال لخالد بن الوليد في عمّار: "لا تسبّ من هو خير منك" . وروى أبو أُمامة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "طُوبَى لمن رآني وآمن بي وطُوبَى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي" . وفي مسند أبي داود الطّيالِسيّ عن محمد بن أبي حُميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال: كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أتدرون أيُّ الخلق أفضل إيمانا" قلنا الملائكة . قال: "وحق لهم بل غيرهم" قلنا الأنبياء . قال: "وحقّ

لم بل غيرهم " ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الخلق إيمانا قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني يجدون ورقًا فيعملون بما فيها وهم أفضل الخلق إيمانا " . وروى صالح بن جُبير عن أبي جُمعة قال : قلنا يا رسول الله، هل أحد خير منّا ؟ قال : " نعم قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتابا بين لوحين فيؤمنون بما فيه و يؤمنون بي ولم يروني " . وقال أبو عمر : وأبو جُمعة له صحبة واسمه حبيب بن سِباع ، وصالح بن جبير من ثقات التابعين . وروى أبو ثعلبة الخُشَنيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن أمامكم أيّامًا الصابرُ فيها على دينه كالقابض على الجَمْر للعامل فيها أجر خمسين رجلا يعمل مثل عمله " قيل : يارسول الله، مَن هم ؟ قال : "بل منكم" . قال أبو عمر : وهذه اللفظة « بل منكم » قد سكت عنها بعض المحدّثين فلم يذكرها . وقال عمر بن الخطاب في تأويل قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » قال : مَن فعل مثل فعلكم كان مثلكم . ولا تعارُض بين الأحاديث لأن الأوّل على الخصوص، والله الموفق .

وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب : إن قَرْنه إنما فُضّل لأنهم كانوا غُرَباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسّكهم بدينهم ، و إن أواخر هذه الأمة إذ أقاموا الدِّين وتمسّكوا به وصبروا على طاعة ربّهم في حين ظهور الشرّ والفسق والهَرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غرباء ، وزَكَت أعمالهم في ذلك الوقت كما زَكَت أعمال أوائلهم . ويشهد له قوله عليه السلام "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطُوبَى للغرباء" . ويشهد له أيضا حديثُ أبي ثعلبة ويشهد له أيضا قولُه صلى الله عليه وسلم : " أمّتي كالمطر لا يُدرى أوّلُه خيرٌ أم آخرُه " ذكره أبو داود الطّيالسي وأبو عيسى الترمذي ، ورواه هشام بن عبيد الله الرّازي عن مالك عن الزُّهري عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمتي مِثلُ المطرِ لا يُدرى أوله خير أم آخره" . ذكره الدَّارَقُطْنيّ في مسند حديث مالك . قال أبو عمر : هشام بن عبيد الله ثقةٌ لا يختلفون في ذلك . وروى أن عمر بن عبد العزيز لما وَلى الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن اكتب إليّ سيرةَ عمر بنِ الخطّاب لأعمل بها ؛ فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمرَ فأنت أفضل من عمر، لأن زمانك ليس

كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر . قال : وكتب إلى فقهاء زمانه، فكلّهم كتب إليه بمثل قول سالم . وقد عارض بعض الجلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : " خيرُ الناس قرني " بقوله صلى الله عليه وسلم : " خيرُ الناس من طال عمره وحسُنَ عملُه وشرُّ الناس من طال عمرُه وساء عمَلُه " . قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التّسويةَ بين أوّل هذه الأمة وآخرها . والمعنى فى ذلك ما تقدّم ذكره من الإيمان والعمل الصالح فى الزمان الفاسد الذى يُرفع فيه من أهل العلم والدّين ، ويكثر فيه الفسق والهرج ، ويُذَلّ المؤمنُ ويَعزّ الفاجر ويعود الدّين غريبًا كما بدا، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر . فيستوى حينئذ أول هذه الأمة بآخرها فى فضل العمل إلا أهل بَدْر والحُدَيْبية . ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصواب، والله يؤتى فضله من يشاء .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ مَدْحٌ لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتّصفوا به؛ فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم ، وكان ذلك سببا لهلاكهم . وقد تقدّم الكلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أوّل السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبيّ صلى الله عليه وسلم خيرٌ لهم، وأخبر أنّ منهم مؤمنا وفاسقا، وأن الفاسق أكثر .

قوله تعالى : لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ يعنى كذبهم وتحريفهم وبُهْتهم ؛ لا أنه تكون لهم الغلبة ؛ عن الحسن وقتادة . فالاستثناء متصل ، والمعنى لن يضروكم إلا ضُرًّا يسيرا ؛ فوقع الأذى موقع المصدر . فالآية وَعْدٌ من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وأنّ أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام[1] إلا إيذاء بالبَهْت

(١) الاصطلام : الاستئصال .

والتحريف ، وأما العاقبة فتكون للؤمنين . وقيـل : هومنقطع ، والمعنى لن يضروكم ألبتة ، لكن يؤذونكم بمـا يُسمعونكم . قال مقاتل : إنّ رءوس اليهود : كعب وعَدىّ والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وابن صوريا عَمدوا إلى مؤمنيهم : عبدالله بن سَلَام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم ؛ فأنزل الله تعالى : « لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى » يعنى باللسان ، وتم الكلام . ثم قال : ﴿ وَ إِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ يعنى منهزمين ، وتم الكلام . ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ مستأنف ؛ فلذلك ثبتت فيه النون . وفى هذه الآية معجزة للنبىّ عليه السـلام ؛ لأنّ مَن قاتله من اليهود والنصارى ولّاه دُبُرَه .

قوله تعـالى : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُولَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (١١٥)

قوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ يعنى اليهود . ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ أى وُجدوا ولُقُوا ، وتمّ الكلام . وقـد مضى فى البقرة(١) معنى ضَرْب الذّلّة عليهم . ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ استثناء منقطع ليس من الأوّل . أى لكنهم يعتصمون بحبل من الله . ﴿ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ يعنى الذّمّة التى لهم . والناس : محمدٌ والمؤمنون يؤدّون إليهم الخراج فيؤمّنونهم . وفى الكلام

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

اختصار ، والمعنى : إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، فحذف ؛ قاله الفراء . ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي رجعوا . وقيل احتملوا . وأصله في اللغة أنه لزمهم ؛ وقد مضى في البقرة . ثم أخبر لِمَ فُعل ذلك بهم ؛ فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وقد مضى في البقرة مستوفًى . ثم أخبر فقال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ وتم الكلام . والمعنى : ليس أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم سواءً ؛ عن ابن مسعود . وقيل : المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواءً . وذكر ابو خيثمة زُهير بن حرب حدّثنا هاشم بن القاسم حدّثنا شَيبان عن عاصم عن زِرٍّ عن ابن مسعود قال : أخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ثم خرج الى الناس فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : " إنه ليس من أهل الأديان أحدٌ يذكر الله تعالى في هذه الساعة غيرُكم " قال : وأنزلت هذه الآية «ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة — الى قوله : والله عليم بالمتقين» وروى ابن وهب مثله . وقال ابن عباس : قول الله عز وجل «من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون» من آمن مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال ابن إسحاق عن ابن عباس : لما أسلم عبد الله بن سَلَام ، وثعلبة بن سَعْيَة[1] ، وأَسِيد بن سَعْيَة[2] ، وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود ؛ فآمنوا وصدّقوا ورغبوا في الإسلام ورسخوا فيه قالت أحبار يهودَ وأهلُ الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تَبِعه إلا شرارُنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دِين آبائهم وذهبوا إلى غيره ؛ فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . الى قوله : وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » . وقال الأخفش : التقدير من أهل الكتاب ذو أمّة ؛ أي ذو طريقة حسنة . وأنشد :

* وهل يأثمن ذو أُمّة وهو طائعٌ *

---

(١) سعية : بالسين والعين المهملتين و ياء باثنتين

(٢) في الاستيعاب في ترجمة أسيد هذا : «ورواه يونس بن بكير عن ابن اسحاق (أسيد) بفتح الهمزة وكسر السين ، وكذلك قال الواقدي . وفي رواية ابراهيم بن سعد عن ابن اسحاق (أسيد) بالضم . والفتح عندهم أصح» .

وقيل : فى الكلام حذف، والتقدير من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى؛ كقول أبي ذُؤيب :

عصاني إليها القلبُ إني لأمره * مطيعٌ فما أدري أرُشْدٌ طِلابُها (١)

أراد : أرُشْدٌ أم غَيٌّ، فحذف . قال الفَرّاء : « أمةٌ » رفع بسواء، والتقدير : ليس يستوى أمةٌ من أهل الكتاب قائمةٌ يتلون آيات الله وأمةٌ كافرة . قال النحاس : هذا قول خطأ من جهات : إحداها أنه يرفع «أمة» بسواء فلا يعود على اسم ليس شيء، و يرفع بما ليس جاريا على الفعل ويضمر مالا يحتاج إليه ؛ لأنه قد تقدم ذكر الكافرة فليس لإضمار هذا وجه . وقال أبو عبيدة : هذا مثل قولهم : أكلونى البراغيث ، وذهبوا أصحابك . قال النحاس : وهذا غلط لأنه قد تقدم ذكرهم ، وأكلونى البراغيث لم يتقدم لهم ذكر . و ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته . واحدها إنًى وأنًى وإنْيٌ، وهو منصوب على الظرف . و ﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ يصلّون؛ عن الفراء والزجاج؛ لأن التلاوة لا تكون فى الركوع والسجود . نظيره قوله : « وَلَهُ يَسْجُدُونَ » أى يصلّون . وفى الفرقان: « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ » وفى النجم : « فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » . وقيل : يراد به السجود المعروف خاصّةً . وسبب النزول يردّه ، وأن المراد صلاة العَتَمة كما ذكرنا عن ابن مسعود؛ فعبدة الأوثان ناموا حيث جَنّ عليهم الليل، والموحّدون قيامٌ بين يدى الله تعالى فى صلاة العشاء يتلون آيات الله؛ ألا ترى لمّا ذكر قيامهم قال « وهم يسجدون » أى مع القيام أيضا . الثورىّ : هى الصلاة بين العشاءين . وقيل : هى فى قيام الليل . وعن رجل من بنى شَيبة كان يدرس الكتب قال : إنا نجد كلاما من كلام الربّ عز وجل: أيُحسَب راعى إبل أو غنم إذا جَنّه الليل انخزل (٢) كمن هو قائم وساجد آناء الليل . ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ يعنى يقرّون بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قيل هو عموم . وقيل : يراد به الأمر بأتّباع النبىّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ والنهى عن المنكر النهى عن مخالفته . ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ التى يعملونها مُبادرين غير

(١) فى الأصول : * عصيت إليها القلب إنى لأمرها * والتصويب عن ديوان أبي ذؤيب . يقول : عصانى القلب وذهب إليها فأنا أتبع ما يأمرنى به .

(٢) انخزل : انفرد .

متثاقلين لمعرفتهم بقدر ثوابهم. وقيل: يبادرون بالعمل قبل الفوت. ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي مع الصالحين، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الجنة. ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ قرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي وحفص وخلف بالياء فيهما؛ إخبارا عن الأمة القائمة. وهي قراءة ابن عباس واختيار أبي عبيد. وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ». وهي اختيار أبي حاتم، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعا الياء والتاء. ومعنى الآية: وما تفعلوا من خير فلن تجحدوا ثوابه بل يشكر لكم وتجازون عليه.

قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اسم إن، والخبر «لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا». قال مقاتل: لما ذكر تعالى مؤمني أهل الكتاب ذكر كفارهم وهو قوله «إن الذين كفروا». وقال الكلبي: جعل هذا ابتداء فقال: إن الذين كفروا لن تغني عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئا. وخص الأولاد لأنهم أقرب أنسابهم إليهم. ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ابتداء وخبر، وكذا و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وقد تقدم جميع هذا.

قوله تعالى: مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ «ما» تصلح أن تكون مصدرية، وتصلح أن تكون بمعنى الذي والعائد محذوف، أي مثل ما ينفقونه. ومعنى «كَمَثَلِ رِيحٍ» كمثل مهب ريح. قال ابن عباس: والصر البرد الشديد. قيل: أصله من الصرير

الذى هو الصوت ، فهو صوت الريح الشديدة . الزجاج : هو صوت لهب النار التى كانت فى تلك الريح . وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة . وفى الحديث : إنه نهى عن الجراد الذى قتله الصِّرّ . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بُطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته فأهلكته ، فلم ينتفع أصحابه بشىء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومَنْع حق الله تعالى . وقيل : ظلموا أنفسهم بأن زرعوا فى غير وقت الزراعة أو فى غير موضعها فأدّبهم الله تعالى لوضعهم الشىء فى غير موضعه ؛ حكاه المَهْدَوِىّ .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١١٨)

فيه ست مسائل :

الأولى ــ أكّد الله تعالى الزجر عن الرُّكون إلى الكفار . وهو متصل بما سبق من قوله : « إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . والبطانة مصدر ، يُسمّى به الواحد والجمع . و بطانة الرجل خاصّتُه الذين يستبطنون أمرَه ، وأصله من البَطْن الذى هو خلاف الظهر . و بَطَن فلان بفلان يَبْطُن بُطونا و بطانة إذا كان خاصًّا به . قال الشاعر :

أولئك خُلْصانى نَعَمْ وبِطانتى * وهم عَيْبَتى من دون كلّ قريب

الثانية ــ نهى الله عزّ وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دُخلاءَ ووُلَجاءَ ، يفاوضونهم فى الآراء ، و يسندون إليهم أمورَهم . ويقال : كلُّ من كان على خلاف مذهبك ودينك لاينبغى لك أن تحادثه . قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "المرء على دين خليله فلينظر أحدُكم مَن يخالل" . وروى عن ابن مسعود أنه قال : اعتبروا الناس بإخوانهم . ثم بيّن تعالى المعنى الذى لأجله نهى عن المواصلة فقال: «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» يقول فسادا . يعنى لا يتركون الجهد فى فسادكم، يعنى أنهم وإن لم يقاتلوكم فى الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد فى المكر والخديعة ، على ما يأتى بيانه . ورُوى عن أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» قال: "هم الخوارج". ورُوى أن أبا موسى الأشعرى استكتب ذِمّيًّا فكتب إليه عمر يعنّفه وتلا عليه هذه الآية. وقدِم أبو موسى الأشعرىّ على عمر رضى الله عنه بحِسَاب فرفعه إلى عمرَ فأعجبه . وجاء عمر كتابٌ فقال لأبى موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد . فقال : لِمَ! أجُنب هو ؟ قال : إنه نصرانى؛ فانتهره وقال : لا تُدْنِهم وقد أقصاهم الله ، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم وقد خوّنهم الله. وعن عمر رضى الله عنه قال: لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا (1) ، واستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى . وقيل لعمر رضى الله عنه: إن ههنا رجلا من نصارى الحِيرة لا أحدَ أكتب منه ولا أخطّ بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ بِطانة من دون المؤمنين . فلا يجوز استكتاب أهل الذمة ، ولا غير ذلك من تصرّفاتهم فى البيع والشراء والاستنابة إليهم .

قلت : وقد انقلبت الأحوال فى هذه الأزمان باتّخاذ أهل الكتاب كَتَبةً وأمناء وتسوّدوا بذلك عند الجهلة الأغنياء من الوُلاة والأمراء . روى البخارىّ عن أبى سعيد الخُدْرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما بعث الله من نبىّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانةٌ تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشرّ وتحثّه عليه والمعصوم من عصَمه الله ". وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم غربيا ". فسّره الحسن بن أبى الحسن فقال : أراد عليه

---

(1) فى بعض الأصول : « ... الربا » بالباء .

السلام لا تستشيروا المشركين فى شىء من أموركم، ولا تنقشوا فى خواتيمكم محمدا . قال الحسن : وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » الآية .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِكُمْ ﴾ أى من سواكم . قال الفرّاء : « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ » أى سِوَى ذلك . وقيل : « من دُونِكم » يعنى فى السير وحسن المذهب . ومعنى « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا » لا يقصّرون فيما فيه الفسادُ عليكم . وهو فى موضع الصّفة لِبطانة من دونكم . يقال : لا آلُو جهدا أى لا أقصّر . وأَلَوْت أُلُوًّا قصّرت ؛ قال امرؤ القيس :

وما المرء ما دامت حُشاشة نفسه * بمُدْرِك أطرافِ الخُطوبِ ولا آلِ

والخَبال الخَبْل . والخَبْل الفسادُ ؛ وقد يكون ذلك فى الأفعال والأبدان والعقول . وفى الحديث : "من أصيب بدَمٍ أو خَبْل" أى جُرْح يفسد العضو . والخبل فسادُ الأعضاء، ورجلٌ خَبِلٌ ومُخْتَبَلٌ، وخَبله الحبّ أى أفسده . قال أَوْس :

أبنِي لُبَيْنَى لستمُ بيَدٍ * إلّا يدًا مخبولةَ العَضُدِ[1]

أى فاسدة العضد . وأنشد الفرّاء :

نَظَرَ ابنُ سعدٍ نظرةً وَبَّتْ[2] بها * كانت لصَحْبِك والمَطِيِّ خَبَالًا

أى فسادا . وانتصب « خبالا » بالمفعول الثانى ؛ لأن الأَلْو يتعدى إلى مفعولين، وإن شئت على المصدر، أى يخبلونكم خبالا ؛ وإن شئت بنزع الخافض، أى بالخبال؛ كما قالوا : أوجعته ضربا : « وما » فى قوله : « وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ » مصدرية، أى وَدُّوا عَنَتَكم . أى ما يشق عليكم . والعنت المشقة ، وقد مضى فى « البقرة »[3] معناه .

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعنى ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم . والبغضاء : البُغْض، وهو ضدّ الحُبّ . والبغضاء مصدرٌ مؤنّث . وخصّ تعالى الأفواه بالذّكْر دون الألسنة إشارةً إلى تشدّقهم وثرثرتهم فى أقوالهم هذه ، فهم

---

(١) الذى فى ديوانه : * إلّا يدا ليست لها عضد * (٢) الوَبّ : التهيؤ للحملة فى الحرب .

(٣) راجع حـ ٣ ص ٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

فوق المتستر الذى تبـدو البغضاء فى عينيه . ومن هـذا المعنى نَهْيُه عليه السـلام أن يشتحى الرجل فاه فى عِرض أخيه، معناه أن يفتح؛ يقال : شَحَى الحمار فاه بالنهيق، وشحى الفمُ نفسه . وشَحَى اللجامُ فَمَ الفرس شَحْيًا ، وجاءت الخيل شَوَاحِىَ: فاتحاتٍ أفواهَها . ولا يفهم من هـذا الحديث دليلُ خطاب على الجواز فيأخذ أحد فى عِرض أخيـه هَمْسًا؛ فإن ذلك يحرُم باتفاق من العلماء . وفى التنزيل « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » الآية. وقال صلى الله عليه وسلم : " إن دِماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ". فذكر الشَّحْو إنمـا هو إشارة إلى التشدق والانبساط . فٱعلم .

الخامســة — وفى هذه الآية دليل على أن شهادة العدوّ على عدوه لا تجوز، وبذلك قال أهل المدينة وأهـل الحجاز؛ ورُوى عن أبى حنيفـة جواز ذلك . وحكى ابن بطّال عن ابن شعبان أنه قال : أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة العدوّ على عدوه فى شىء وإن كان عدلا، والعداوة تزيل العدالة فكيف بعداوة كافر .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ إخبار وإعلام بأنهم يُبطنون من البغضاء أكثرَ مما يُظهِرون بأفواههم . وقرأ عبد الله بن مسـعود : « قد بدا البغضاء » بتذكير الفعل؛ لمـا كانت البغضاء بمعنى البُغْض .

قوله تعـالى : هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين . دليله قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا »؛ قاله أبو العاليـة ومقاتل . والمحبـة هنا بمعنى المصافاة، أى أنتم أيها المسلمون تصافونهم ولا يصافونكم لنفاقهم . وقيـل : المعنى تريدون لهم الإسـلام وهم يريدون لكم الكفر . وقيل : المراد اليهود؛ قاله الأكثر . والكتاب اسم جنس؛ قاله ابن عباس . يعنى

بالكتب، واليهودُ يؤمنون بالبعض؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ » . ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا خَلَوْا فيما بينهم عضُّوا عليكم الأنامل، يعني أطراف الأصابع من الغيظ والحنق عليكم؛ فيقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هؤلاء ظهروا وكثروا . والعَضّ عبارة عن شِدّة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه؛ ومنه قول أبي طالب :

* يعضّون غيظًا خَلْفَنا بالأنامل *

وقال آخر :

إذا رَأَوْنِي أطال اللهُ غيظَهم * عَضُّوا من الغيظ أطرافَ الأباهيم

يقال : عضّ يَعُضّ عَضًّا وعَضِيضا . والعُضّ (بضم العين) : علَف دوابّ أهل الأمصار مثل الكُسْب والنَّوَى المرضوخ؛ يقال منه : أعضّ القوم، إذا أكلت إبلُهم العُضّ . وبعير عُضَاضِيٌّ، أي سمين كأنه منسوب إليه . والعِضّ (بالكسر) : الدّاهي من الرجال والبليغ المنكر . وعَضُّ الأنامل من فعل المُغْضَب الذي فاته ما لا يقدر عليه، أو نَزل به ما لا يقدر على تغييره . وهذا العَضّ هو بالأسنان كعضّ اليد على فائت قريب الفوات . وكقرع السّن النادمة، إلى غير ذلك من عدّ الحصى والخط في الأرض للهموم . ويكتب هذا العَضّ بالضاد الساقطة، وعظّ الزمان بالظاء المشالة؛ كما قال :

وعَظُّ زمانٍ يابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ * من المـال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ (١)

وواحد الأنامل أَنْمُلة (بضم الميم) ويقال بفتحها، والضم أشهر . وكان أبو الجَوْزاء إذا تلا هذه الآية قال : هم الأَبَاضِيّة . قال ابن عطيّة : وهذه الصفة قد تترتب في كثير من أهل البدع إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن قيل : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء : كن فيكون . قيل عنه جوابان : أحدهما ــ قال فيه الطبري وكثير

---

(١) البيت للفرزدق . والرواية المعروفة كما في اللسان والنقائض : «وعض زمان» بالضاد بدل الظاء، وهذه الكلمة في هذا المعنى تقال بالضاد وبالظاء كما في القاموس . والمسحت : المستأصل . والمجلف : الذي جيت منه بقية .

من المفسرين : هو دعاء عليهم ، أى قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا . فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهة وغيرَ مواجهة بخلاف اللّعنة .

الثـانى — أن المعنى أخبرهم أنهم لا يُدركون ما يؤمِّلون ، فإن الموت دون ذلك . فعـلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقى معنى التقريع والإغاظة . ويجرى هذا المعنى مع قول مسافر ابن أبى عمرو :

وَيتَمنّى فى أرُومتنـا * ونفقأ عين من حَسَدَا

وينظر إلى هذا المعنى قولُه تعالى : « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ » .

قوله تعـالى : إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

قوله تعالى : « إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَـنَةٌ تَسُؤْهُمْ » قرأ السُّلَمى بالياء والباقون بالتاء . واللفظ عام فى كل ما يحسُن ويسوء . وما ذكره المفسرون من الخِصْب والجَدْب واجتماع المؤمنين ودخول الفُرْقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلةٌ وليس باختلاف . والمعنى فى الآية : أن من كانت هذه صفته من شدّة العداوة والحِقْد والفَرَح بنزول الشدائد على المؤمنين لم يكن أهلا لأن يُتخذ بطانة ، لا سيّما فى هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذى هو مِلاك الدنيا والآخرة . ولقد أحسن القائل فى قوله :

كلّ العداوة قد تُرْجَى إفاقتها * إلا عداوةَ من عاداك من حَسَد

﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا ﴾ أى على أذاهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين . ﴿ وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ يقال : ضاره يضُوره ويَضيره ضَيْرًا وضَوْرًا ، فشرط تعالى نَفْىَ ضررهم بالصبر والتقوى ، فكان ذلك تسليةً للمؤمنين وتقويةً لنفوسهم .

قراءات ـ قرأ الحرميّان وأبو عمرو « لا يَضِرْكم » من ضار يضير كما ذكرنا ؛ ومنه قوله «لا ضَيْرَ» ، وحذفت الياء لا لتقاء الساكنين ؛ لأنك لما حذفت الضمة من الراء بقيت الراء ساكنةً والياءُ ساكنة فحذفت الياء ، وكانت أولى بالحذف لأن قبلها مايدلّ عليها . وحكى الكسائيّ أنه سمع «ضاره يَضُوره» وأجاز «لايَضُرْكم» وزعم أن فى قراءة أُبَيّ بن كعب «لا يَضْرُرْكم» . ويجوز أن يكون مرفوعا على تقدير إضمار الفاء ؛ والمعنى : فلا يضركم . ومنه قول الشاعر[1] :

« مَن يفعلِ الحسناتِ اللهُ يَشْكُرُهَا »

هذا قول الكسائى والفَرّاء . أو يكون مرفوعا على نيّة التقديم ؛ وأنشد سيبويه :

« إنّك إن يُصرَعْ أخوك تُصرَعُ »[2]

أى لايضرّكم أن تصبروا وتتقوا . ويجوز أن يكون مجزوما ، وضمت الراء لالتقاء الساكنين على إتباع الضم . وكذلك قراءة من فتح الراء على أن الفعل مجزوم ، وفتح « يضرَّكم » لا لتقاء الساكنين لخفّة الفتح ؛ رواه أبو زيد عن المفضل عن عاصم ، حكاه المَهْدَوِيّ . وحكى النحاس : وزعم المفضّل الضّبيّ عن عاصم « لا يَضُرِّكم » بكسر الراء لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ العامل فى « إذ » فعل مضمر تقديره : واذكر إذ غدوت ، يعنى خرجت بالصباح . ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ من منزلك من عند عائشة . ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ هـذه غزوة أُحُد وفيها نزلت هذه الآية كلها . وقال مجاهـد والحسن ومُقاتل والكلبى : هى غزوة الخنـدق . وعن الحسن أيضا : يوم بَدْر . والجمهور على أنها غزوة أُحُد ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا » وهذا إنما كان يوم أحد، وكان المشركون قصدوا المدينة فى ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا بثأرهم

---

(١) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه . وتمامه : « والشر بالشر عند الله سيان »

(٢) هذا بجر بيت لجرير بن عبد الله . وصدره : « يا أقرع بن حابس يا أقرع »

في يوم بدر؛ فنزلوا عند أُحُد على شَفِير الوادي بقناة مُقابِل المدينة يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة على رأس أحد وثلاثين شهرا من الهجرة ، فأقاموا هنالك يوم الخميس والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه أن في سيفه ثُلمة وأن بقرا له تُذبح وأنه أدخل يده في دِرع حصينة؛ فتأولها أن نفرا من أصحابه يُقتلون وأن رجلا من أهل بيته يُصاب وأن الدرع الحصينة المدينةُ . أخرجه مسلم . فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الغزاة . وأصل التبوّء اتخاذ المنزل. بوأته منزلا إذا أسكنته إياه؛ ومنه قوله عليه السلام : "من كَذَب عليّ متعمّدا فليتبوّأ مقعدَه من النار". أي ليتخذ فيها منزلا . فمعنى تبوّئ المؤمنين تُتّخذ لهم مَصاف . وذكر البَيْهقِيّ من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت فيما يرى النائم كأني مُرْدِفٌ كبشا وكأن ضَبّة سيفي انكسرت فأوّلت أني أقتل كبش القوم وأوّلتُ كسر ضبة سيفي قتل رجل من عِترتي " . فقُتل حمزةُ وقتلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم طلحةَ، وكان صاحبَ اللواء . وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب : وكان حاملَ لواء المهاجرين رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا عاصمٌ إن شاء الله لما معي؛ فقال له طلحة بن عثمان أخو سعيد ابن عثمان الحَجَبيّ : هل لك ياعاصم في المبارزة؟ قال نعم؛ فبدَرَه ذلك الرجلُ فضرب بالسيف على رأس طلحةَ حتى وقع السيف في لحيته فقتله ؛ فكان قتلُ صاحب لواء المشركين تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم " كأني مردف كبشا " .

قوله تعالى : إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

العامل في «إذ» «تبوّئ» أو «سميع عليم» . والطائفتان : بنو سَلِمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وكانا جَناحي العسكر يوم أُحُد . ومعنى ﴿ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ أن تَجْبُنَا . وفي البخاريّ عن جابر قال : فينا نزلت « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا » قال نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سَلِمة، وما نُحِبّ أنها لم تنزل لقول الله عز وجل : « والله وليهما » . وقيل:

هم بنو الحارث وبنو الخزرج وبنو النَّبِيت ، والنَّبِيت هو عمرو بن مالك من بنى الأوس . والفشل عبارة عن الجبن ؛ وكذا هو فى اللغة . والهمّ من الطائفتين كان بعد الخروج لما رجع عبد الله بن أُبَىّ بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا؛ فذلك قوله تعالى : «واللهُ وَلِيُّهُمَا» يعنى حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهمّ . وقيل : أرادوا التقاعد عن الخروج وكان ذلك صغيرة منهم . وقيل: كان ذلك حديثَ نفس منهم خطر ببالهم وأطلع الله نبيّه عليه السلام عليه فازدادوا بصيرة؛ ولم يكن ذلك الجَوْر(١) مكتَسَباً لهم فعصمهم الله ، وذمّ بعضهم بعضا ، ونهضوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أطلّ على المشركين، وكان خروجه من المدينة فى ألف ، فرجع عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول بثلاثمائة رجل غاضبا ؛ إذ خُولف رأيُه حين أشار بالقعود والقتال فى المدينة إن نهض إليهم العدوّ، وكان رأيه وافق رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى ذلك أكثر الأنصار، وسيأتى . ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فآستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة . قال مالك رحمه الله : قُتل من المهاجرين يوم أُحُد أربعةٌ، ومن الأنصار سبعون رضى الله عنهم. والمَقاعِد: جمع مَقْعد وهو مكانُ القعود، بمنزلة مواقف، ولكن لفظ القعود دالّ على الثبوت؛ ولا سِيّمَا أن الرماة كانو قعودا . هـذا معنى حديثِ غَزاة أُحُد على الاختصار، وسيأتى من تفصيلها ما فيه شِفاء . وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد ولم يكن مع المسلمين يومئذ فرس . وفيها جُرِح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه وكُسِرت رَباعيته اليمنى السفلى بحجر وهُشِمت البَيْضةُ(٢) من على رأسه صلى الله عليه وسلم، وجزاه عن أُمّته ودينه بأفضل ما جزى به نبيًّا من أنبيائه على صبره . وكان الذى تولّى ذلك من النبيّ صلى الله عليه وسلم عمرو بن قَمِيئة اللّيثى ، وعُتبة بن أبى وقّاص . وقد قيل : إن عبد الله بن شِهاب جدّ الفقيه محمد بن مسلم بن شهاب هو الذى شجّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى جبهته . قال الواقِدىّ : والثابت عندنا أن الذى رمَى فى وجه النبيّ صلى الله عليه وسلم ابنُ قَمِيئة ، والذى

(١) هكذا فى الأصول. (٢) البيضة : الخوذة، وهى زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

أدمى شَفَته وأصاب رَباعِيَته عتبــةُ بنُ أبي وقّاص . قال الواقديّ بإسناده عن نافع بن جُبير قال : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدتُ أُحُدًا فنظرتُ إلى النَّبْل تأتى من كل ناحية ورسولُ الله صلى الله عليــه وسلم وَسَطُها كلُّ [ذلك](١) يُصرف عنــه . ولقد رأيت عبد الله بن شِهاب الزّهريّ يقول يومئذ : دُلّونِي على محمد دُلّوني على محمد، فلا نَجَوْتُ إن نَجا . [وإنّ](١) رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه؛ فعاتبه فى ذلك صَفْوان فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منّا ممنوع ! خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاقدنا على قتله [فلم نخلُص إلى ذلك](١). وأكبّت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط فى حُفْرة كان أبو عامر الراهب قــد حفرها مكيدةً للسلمين، فخرّ عليه السلام على جنبــه واحتضنه طلحة حتى قام؛ ومَصّ مالكُ بنُ سِنانٍ والدُ أبي سعيد الخُدْرِيّ من جُرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الدّمَ . وتشبّثت حلقتان من دِرْع المِغْفَر فى وجهه صلى الله عليــه وسلم فانتزعهما أبو عُبيدة بن الجرّاح وعضّ عليهما بثَنِيّته فسقطتا؛ فكان أهْتَمَ يَزِينه هتَمه رضى الله عنه . وفى هذه الغَزاة قُتل حمزةُ رضى الله عنــه ، قتله وَحْشِيٌّ، وكان وَحْشِيّ مملوكا لجبير بن مُطْعِم . وقد كان جُبير قال له : إن قَتلتَ محمدا جعلنا لك أَعِنّة الخيل، وإن أنت قَتلتَ عليّ بنَ أبي طالب جعلنا لك مائة ناقة كلّهــا سُود الحَدَق، وإن أنت قتلتَ حمزة فأنت حُرٌّ . فقال وَحْشِيّ : أمّا محمد فعليــه حافظٌ من الله لا يخلُص إليــه أحد . وأمّا عليّ ما برز إليه أحد إلا قتله . وأمّا حمزة فرجل شجاع ، وعسى أن أصادفه فأقتله . وكانت هِنْد كلما تهيأ وَحْشِيٌّ أو مَرّت به قالت : إيهًا أبا دَسْمَة اُشْفِ واسْتَشْفِ . فكَمَن له خلف صخرة وكان حمزة حمَل على القوم من المشركين؛ فلما رجع من حملته ومرّ بوَحْشِيّ زَرَقه بالمِزْراق فأصابه فسقط منها، رحمه الله ورضى عنــه . قال ابن إسحاق : فبقرت هِنْد عن كبد حمزة فلاكَتْها ولم تستطع أن تُسيغَها فلفَظتها ثم علَت على صخرة مُشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحن جَزَينــاكم بيوم بَــدْر * والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعُرْ

ما كان عن عُتْبَةَ لى من صَبْر * ولا أخى وعَمّــه وبَكْرى

(١) زيادة عن مغازى الواقدى .

شَفيتُ نفسى وقضيتُ نَذْرى * شَفيتَ وَحْشِيُّ غليلَ صدْرى
فشُكْرُ وَحْشِيٍّ علىَّ عُمْرى * حتى تَرِمّ أعظُمى فى قبرى

فأجابتها هند بنت أُثاثة بن عبّاد بن المطّلب فقالت :

خَزِيتِ فى بَدْرٍ وبعد بَدْر * يا بنتَ وَقّاعٍ عظيمِ الكُفْرِ
صبَّحكِ اللهُ غداةَ الفَجْرِ * مِلْهاشِمِيِّين الطِّوالِ الزُّهْرِ
بكُلِّ قطّاعٍ حُسامٍ يَفْرِى * حَمزةُ لَيْثِى وعلىٌّ صَقْرِى
إذ رامَ شَيْبُ(١) وأبوكِ غَدْرِى * فخضَبا منه ضَواحِىَ النَّحْر
* ونَذْرُكِ السُّوءَ فشَرُّ نَذْرِ *

وقال عبد الله بن رَواحة يبكى حَمزةَ رضى الله عنه :

بَكَتْ عينى وحُقَّ لها بُكاها * وما يُغنى البكاءُ أو العَويلُ
على أسَدِ الإلهِ غداةَ قالوا * أحمزةُ ذاكُمُ الرجلُ القتيلُ
أصيب المسلمون به جميعًا * هناكَ، وقد أُصيبَ به الرسولُ
أبا يَعْلَى لكَ الأركانُ هُدَّتْ * وأنتَ الماجدُ البَرُّ الوَصُولُ
عليكَ سلامُ رَبِّكَ فى جِنانٍ * مُخالِطُها نَعيمٌ لا يَزولُ
ألا يا هاشمَ الأخيارِ صَبْرًا * فكلُّ فِعالِكُم حسَنٌ جميلُ
رسولُ اللهِ مُصْطَبِرٌ كريمٌ * بأمرِ اللهِ يَنطِقُ إذ يقولُ
ألا مَنْ مُبلِغٌ عَنّى لُؤَيًّا * فبعدَ اليومِ دائلةٌ تَدُولُ
وقبلَ اليوم ما عَرَفوا وذاقوا * وقائِعَنا بها يُشْفَى الغَليلُ
نَسيتم ضَرْبَنا بقَليبِ(٢) بَدْرٍ * غداةَ أتاكُمُ الموتُ العَجيلُ
غداةَ ثَوَى أبو جَهْلٍ صريعًا * عليه الطيرُ حائمةً تَجُولُ
وعُتبةُ وابنُه خَرّا جميعًا * وشَيْبةُ عضّه السيفُ الصَّقيلُ

(١) أرادت شيبة بن ربيعة أخا عتبة بن ربيعة أبا هند . وقد رخم هنا فى غير النداء لضرورة الشعر .

(٢) القليب (بفتح أوله وكسر ثانيه) : البئر العادية القديمة التى لا يعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى ، يذكر ويؤنث .

ومـــتركنا أميــــة مُجْلَعِبًّا[1] * وفى حيزومه[2] لدنٌ نبيـــل

وهامَ بني ربيعـــة سائلوها * ففى أســـيافنا منهـــا فُلولُ

ألَا يا هنـــد لا تُبدى شماتًا * بحمزةَ إنّ عزّكم ذليـــلُ

ألَا يا هنـــد فأبكى لا تَمَلّى * فأنتِ الوالهُ العَـبْرى الهَبُولُ[3]

ورثته أيضا أختُه صفيّةُ، وذلك مذكور فى السيرة، رضى الله عنهم أجمعين .

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهى بيان التوكّل. والتوكّل فى اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير . وواكَلَ فلان إذا ضيّع أمره متّكلًا على غيره .

واختلف العلماء فى حقيقة التوكّل؛ فسئل عنه سَهْلُ بنُ عبد الله فقال : قالت فرقة الرِّضا بالضمان، وقَطْعُ الطمع من المخلوقين . وقال قوم : التوكُّلُ تركُ الأسباب والرُّكونُ إلى مُسبّب الأسباب؛ فإذا شغله السّبَب عن المسبِّب زال عنه اسم التوكّل. قال سهل: من قال التوكّلُ يكون بترك السّبب فقد طعن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل يقول : «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» فالغنيمة اكتساب . وقال تعالى : «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» فهذا عمل . وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "إنّ الله يحب العبد المحترف" . وكان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقرضون على السَّرِيّة[4] . قال غيره : وهذا قولُ عامّة الفقهاء . وأنّ التوكّلَ على الله هو الثّقةُ بالله والإيقانُ بأنّ قضاءه ماض، واتّباعُ سنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم فى السّعى فيما لابدّ منه من الأسباب من مَطْعم ومَشْرب وتحرّزٍ من عدوّ وإعدادِ الأسلحة واستعمالِ ما تقتضيه سُنّةُ الله تعالى المعتادة . وإلى هذا ذهب مُحقّقو الصّوفية، لكنه لا يُستحقّ اسم التوكل عندهم مع الطّمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب ؛ فإنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرّا بل السبب والمسبّب فعل الله تعالى، والكلُّ منه وبمشيئته؛ ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم . ثم المتوكّلون على

(١) المجلعب : المصروع إما ميتا وإما صرعا شديدا . (٢) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام. واللدن : الرمح . (٣) الهبول من النساء : الثكول . (٤) السرية : طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة؛ سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السريّ النفيس .

حالين : الأول ـ حال المتمكن في التوكل فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر . الثاني ـ حال غير المتمكن وهو الذي يقع إليه الالتفات إلى تلك الأسباب أحيانا غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحالية ؛ فلا يزال كذلك إلى أن يُرَقِّيه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين ، ويلحقه بدرجات العارفين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ كانت بَدْرٌ يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وبَدْرٌ ماء هنالك وبه سُمِّيَ الموضع . وقال الشَّعْبيّ : كان ذلك الماء لرجل من جُهينة يسمَّى بدرا ، وبه سُمِّيَ الموضع . والأول أكثر . قال الواقديّ وغيره : بَدْرٌ اسمٌ لموضع غيرُ منقول . وسيأتي في قصة بَدْرٍ في « الأنفال » إن شاء الله تعالى . و ﴿ أَذِلَّةٌ ﴾ معناها قليلون ؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا . وكان عدوّهم ما بين التسعمائة إلى الألف . و« أذلة » جمع ذليل. واسم الذّلّ في هذا الموضع مستعار ، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعِزّة ، ولكن نسبتهم إلى عدوّهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند المتأمل ذِلّتهم وأنهم يُغلبون . والنّصرُ العَوْنُ ؛ فنصرَهم اللهُ يوم بَدْرٍ وقتل فيه صناديدَ المشركين ، وعلى ذلك اليوم ٱبتُنِي الإسلام ، وكان أوّلَ قتال قاتله النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفي صحيح مسلم عن بُريدة قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة قاتل في ثمانٍ منهن . وفيه عن ابن إسحاق قال : لقيت

زيد بن أرقم فقلت له : كم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : تسع عشرة غزوة . فقلت : فكم غزوتَ أنت معه ؟ فقال : سبع عشرة غزوة . قال فقلت : فما أول غزوة غزاها؟ قال : ذات العُسَير أو العشير . وهذا كلّه مخالف لما عليه أهل التواريخ والسِّيَر . قال محمد بن سعد فى كتاب الطبقات له : إنّ غزواتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون غزوة، وسراياه ست وخمسون، وفى رواية ست وأربعون(١)، والتى قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأُحد والمُرَيْسيع والخَنْدق وخَيْبر وقُريظة والفتح وحُنين والطّائف . قال ابن سعد : هذا الذى اجتمع لنا عليه . وفى بعض الروايات : أنه قاتل فى بنى النَّضير وفى وادى القُرَى مُنْصَرَفه من خَيْبر وفى الغابة(٢) . وإذا تقرّر هذا فنقول : زيد وبريدة إنما أخبر كل واحد منهما بما فى علمه أو شاهده . وقول زيد «إن أول غزوة غزا ذات العشيرة» مخالف أيضا لما قال أهل التواريخ والسِّيَر . قال محمد بن سعد : كان قبل غزوة العشيرة ثلاثُ غزوات، يعنى غزاها بنفسه . وقال ابن عبد البر فى كتاب الدرر فى المغازى والسير . أول غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة وَدّان(٣) غزاها بنفسه فى صفر ؛ وذلك أنه وصل إلى المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل، أقام بها بقية ربيع الأول وباقى العام كلّه إلى صَفَر من سنة اثنتين من الهجرة ، ثم خرج فى صفر المذكور واستعمل على المدينة سعدَ بن عُبادة حتّى بلغ وَدّان فوادع(٤) بنى ضَمْرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حربًا ، وهى المسماة بغزوة الأبواء . ثم أقام بالمدينة إلى [شهر] ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خرج فيها واستعمل على المدينة السّائب بن عثمان بن مَظْعُون حتى بلغ بُوَاط(٥) من ناحية رَضْوَى(٦)، ثم رجع إلى المدينة

---

(١) الذى فى كتاب الطبقات لابن سعد : « وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وأربعين سرية » .

(٢) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام . (٣) ودان (بفتح الواو وشدّ المهملة) : قرية جامعة من أمهات القرى من عمل الفرع . وقيل : واد فى الطريق يقطعه المصعدون من حجاج المدينة . (عن شرح المواهب) .

(٤) الموادعة : المصالحة . (٥) بواط (بفتح الموحدة وقد تضم وتخفيف الواو وآخره طاء مهملة) : جبل من جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة بُرُد من المدينة . (٦) رضوى (بفتح الراء وسكون المعجمة مقصور) : جبل بالمدينة، وهو على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة .

ولم يلق حربا ، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى، ثم خرج غازيا واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وأخذ على طريق مِلْكٍ (١) إلى العسيرة .

قلت : ذكر ابن إسحاق عن عمّار بن ياسر قال : كنت أنا وعلىّ بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العشيرة من بَطْن يَنْبُع فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهرا فصالح بها بنى مُدلج وحلفاءهم من بنى ضَمْرة فوادعهم؛ فقال لى علىُّ بنُ أبى طالب : هل لك أبا اليقظان أن تأتى هؤلاء ؟ نَفَرٌ من بنى مُدْلج يعملون فى عَيْن لهم ننظر كيف يعملون . فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة ثم غشِينا النوم فعَمَدنا إلى صَوْرٍ (٢) بين النخل فى دَقْعاءَ من الأرض فنِمْنا فيه ؛ فوالله ما أَهَبَّنا إلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقَدمه ؛ فجلسنا وقد تتربّنا من تلك الدقعاء فيؤمئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "مالَكَ يا أبا تُرَاب"؛ فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال : "ألا أخبركم بأشقَى الناس رجلين" قلنا : بلى يارسول الله؛ فقال : "أُحَيْمِرُ ثمودَ الذى عقر الناقة والذى يضربك يا علىُّ على هذه — ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسه — حتى يَبُلَّ منها هذه" ووضع يده على لحيته . فقال أبو عمر : فأقام بها بقيّة جُمادى الأولى وليالِ من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مُدْلِج ثم رجع ولم يَلْقَ حَرْبًا . ثم كانت بعد ذلك غزوة بَدْرٍ الأولى بأيام قلائل ، هذا الذى لا يشكّ فيه أهلُ التواريخ والسِّير، وزيد بن أرقم إنما اخبر عما عنده . والله أعلم . ويقال : ذات العُسَير بالسين والشين، ويزاد عليها هاء فيقال : العشيرة .

ثم غزوة بَدْرٍ الكبرى وهى أعظم المشاهد فضلًا لمن شَهدها ، وفيها أمدّ الله بملائكته نبيّه والمؤمنين فى قول جماعة العلماء، وعليه يدلّ ظاهرُ الآية؛ لا فى يوم أُحد . ومن قال : إن ذلك كان يوم أُحد جعل قولَه تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ » إلى قوله : « تَشْكُرُونَ » اعتراضا بين الكلامين . هذا قول عامر الشّعبىّ ، وخالفه الناس . وتظاهرت الروايات بأنّ الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت؛ ومن ذلك قولُ أبى أَسِيد مالكِ بنِ ربيعة وكان شهِيدَ

---

(١) ملك (بالكسر ثم السكون والكاف) : واد بمكة .

(٢) الصور : جماعة النخل الصغار؛ لا واحد له من لفظه .

بَدْر : لو كنتُ معكم الآن بِبَدر ومعي بصري لأريتكم الشِّعب(١) الذي خرجت منه الملائكةُ، لا أشك ولا أَمْتَرِي. رواه عقيل عن الزُّهريّ عن أبي حازم سلمةَ بنِ دينار. قال ابن أبي حاتم: لايُعرف للزُّهريّ عن أبي حازم غيرُ هذا الحديث الواحد، وأبو أُسَيد يقال إنه آخر من مات من أهل بَدْر؛ ذكره أبو عمر في الاستيعاب وغيره. وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطّاب قال: «لما كان يومُ بَدْر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابُه ثلاثمائة وتسعةَ عشرَ رجلا، فاستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القبلةَ ثم مَدّ يديه فجعل يهتف بربّه: "اللّهمَّ أَنْجِزْ لِي ما وَعَدْتَنِي اللّهُمَّ آتِ ما وَعدتني اللّهُمّ إن تُهلِك هذه العصابةَ من أهل الإسلام لا تُعْبَدْ في الأرض" فما زال يهتف بربّه مادًّا يديه مستقبل القِبلة حتى سقط رداؤه عن مَنْكِبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على مَنْكِبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله، كفاك مُناشَدَتُك ربَّك، فإنه سيُنْجِز لك ما وعدَك؛ فأنزل الله تعالى: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَآئِكَةِ مُرْدِفِينَ» فأمدّه الله تعالى بالملائكة. قال أبو زُمَيل(٢): فحدّثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامَه إذ سَمِع ضربةً بالسوط فوقه وصوتَ الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ(٣)؛ فنظر إلى المشرِك أمامَه خرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفُه وشُقّ وجهُه [كضربة السوط](٤) فاخضَرّ ذلك أجمعُ. فجاء الأنصاريّ فحدّث ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: "صدقتَ ذلك من مَدَد السماء الثالثة" فقتلوا يومئذ سبعين وأَسَرُوا سبعين. وذكر الحديث. وسيأتي تمامه في آخر «الأنفال» إن شاء الله تعالى. فتظاهرت السُّنّة والقرآن على ما قاله الجمهور، والحمد لله. وعن خارجة بن ابراهيم عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: "مَنِ القائل يوم بدر من الملائكة أَقْدِمْ حَيْزُومُ"؟ فقال جبريل: "يا محمد ما كل سماء أعرف". وعن عليّ رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال: بينا أنا أمتح من قَلِيب بَدْر جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قطُّ، ثم ذهبت، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قطُّ إلا التي كانت

(١) الشعب (بالكسر): الطريق في الجبل. (٢) أبو زميل (بالتصغير) هو سماك بن الوليد. (تهذيب التهذيب).
(٣) حيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة. (٤) زيادة عن صحيح مسلم.

قبلها . قال : وأظنه ذكر : ثم جاءت ريح شديدة، فكانت الريح الأولى جبريل نزل فى ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر عن يمينه، وكانت الريح الثالثة إسرافيل نزل فى ألف من الملائكة عن مَيْسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى المَيْسرة . وعن سهل بن حُنيف رضى الله عنه قال : لقد رأيْتُنا يوم بَدْر وأنّ أحدَنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يصل إليه . وعن الرّبيع بن أنس قال : كان الناس يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سِمَة النار قد أُحرق به؛ ذكر جميعه البَيْهقِيّ رحمه الله. وقال بعضهم: إن الملائكة كانوا يقاتلون وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة؛ لأن كل موضع أصابت ضربتهم اشتعلت النار فى ذلك الموضع، حتى ان أبا جهل قال لابن مسعود: أنت قتلتنى؟! إنما قتلنى الذى لم يصل سِنانى إلى سُنْبُك فرسه وإن اجتهدتُ . وإنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين، ولأنّ الله تعالى جعل أولئك الملائكةَ مجاهدين إلى يوم القيامة ؛ فكلُّ عَسْكر صَبَرَ واحتسب تأتيهمْ الملائكة ويقاتلون معهم. وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عددا أو مددا . وقال بعضهم : إنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون ويسبّحون ، ويكثّرون الذين يقاتلون يومئذ . فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر وإنما حضروا للدعاء بالتثبيت، والأول أكثر. قال قَتادة : كان هذا يوم بدر، أمدّهم الله بألف ثم صاروا ثلاثةَ آلاف، ثم صاروا خمسةَ آلاف؛ فذلك قولُه تعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » وقولُه : « أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ » وقولُه : « بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » فصبر المؤمنون يوم بَدْر واتقوا الله فأمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم؛ فهذا كله يوم بدر . قال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف رِدْءٌ للمؤمنين إلى يوم القيامة . قال الشّعْبِيّ : بلغ النبيّ

صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كُرْز بن جابر المحاربيّ يريد أن يمدّ المشركين فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ؛ فأنزل الله تعالى «أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ — إلى قوله : مُسَوِّمِينَ» فبلغ كُرْزًا الهزيمةُ فلم يُمدّهم ورجع ، فأمدّهم الله أيضا بالخمسة آلاف ، وكانوا قد مُدّوا بألف . وقيل : إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته ، واتّقوا محارمه أن يمدّهم أيضا في حروبهم كلّها ، فلم يصبروا ولم يتّقوا محارمه إلا في يوم الأحزاب ، فأمدّهم حين حاصروا قُرَيظة . وقيل : إنما كان هذا يوم أُحُد ، وعدهم الله المَدَدَ إن صبروا ، فما صبروا فلم يُمَدّوا بملَك واحد ، ولو أُمِدّوا لما هُزِموا ؛ قاله عِكرمة والضّحاك . فإن قيل : فقد ثبت عن سعد ابن أبي وَقّاص أنه قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم بدر رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عليه أشدّ قتال ، ما رأيتهما قَبل ولا بَعد . قيل له : لعلّ هذا مختصّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، خصّه بملَكين يقاتلان عنه ولا يكون هذا إمدادا للصحابة . والله أعلم .

الثانيــة — نزول الملائكة سبب من أسباب النّصر لا يحتاج إليه الربّ تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوقُ فليعلّق القلبَ بالله ولْيَثِق به ، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ؛ «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» . لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التي قد خَلَت من قبلُ ، «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» ، ولا يقدح ذلك في التوكّل . وهو ردّ على من قال : إن الأسباب إنما سُنّت في حق الضعفاء لا للأقوياء ؛ فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء ؛ وهذا واضح . و«مدّ» في الشر و«أمدّ» في الخير . وقد تقدّم في البقرة (1) . وقرأ أبو حَيْوة «منزِلين» بكسر الزاى مخففا ، يعني منزِلين النّصر . وقرأ ابن عامر مشــدّدة الزاى مفتوحة على التكثير . ثم قال : «بَلَى» وتمّ الكلام . «إِنْ تَصْبِرُوا» شرط ، أي على لقاء العدوّ . «وَتَتَّقُوا» عطف عليه ، أي معصيته . والجواب «يُمْدِدْكُمْ» . ومعنى «مِنْ فَوْرِهِمْ» من وجههم . هذا عن عِكرمة وقَتادة والحسن

---

(1) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

والرّبيع والسُّدّى وابن زيد . وقيل : مِن غضبهم؛ عن مجاهد والضحاك . كانوا قد غضبوا يوم أُحُد ليَوم بَدْر مما لقوا. وأصل الفَوْر القصدُ إلى الشيء والأخذُ فيه بجد؛ وهو من قولهم: فارتِ القِدْر تفور فَوْرا وفَوَرَانا إذا غَلَت . والفَوْر الغَلَيانُ . وفار غضبُه إذا جاش . وفَعَلَه من فَوْره أى قبل أن يسكن . والفوّارة ما تفور من القِدْر . وفى التنزيل « وَفَارَ التَّنُّورُ » . قال الشاعر :

* تفور علينا قِدرهم فنديمها *

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ مُسَوَّمِينَ ﴾ بفتح الواو اسم مفعول، وهى قراءة ابن عامر وحمزة والكِسائى ونافع. أى مُعَلَّمين بعلامات. و«مُسَوِّمين» بكسر الواو اسم فاعل، وهى قراءة أبى عمرو وابن كَثير وعاصم؛ فيحتمل من المعنى ما تقدّم، أى قد أعلَموا أنفسهم بعلامة، وأعلموا خيلهم . ورجح الطبرىّ وغيرُه هذه القراءة . وقال كثير من المفسرين: مسوّمين أى مرسلين خيلهم فى الغارة . وذكر المَهْدَوِىّ هذا المعنى فى «مُسَوَّمين» بفتح الواو، أى أرسلهم الله تعالى على الكفار. وقاله ابن فُورَك أيضا . وعلى القراءة الأولى اختلفوا فى سِيما الملائكة؛ فرُوِى عن على بن أبى طالب وابن عباس وغيرهما أن الملائكة اعتَمّت بعمائم بِيض قد أرسلوها بين أكتافهم؛ ذكره البَيْهَقِىّ عن ابن عباس، وحكاه المَهْدَوِىّ عن الزجاج. إلا جبريل فإنه كان بعمامة صفراء على مِثال الزُّبير بن العوام، وقاله ابن إسحاق . وقال الربيع: كانت سِيماهم أنهم على خَيْل بُلْق.

قلت : ذكر البَيْهَقِىّ عن سُهيل بن عمرو رضى الله عنه قال : لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضا على خَيْلٍ بُلْق بين السماء والأرض مُعَلَّمين يقتلون ويأسرون. فقوله «معلَّمين» دلّ على أن الخيل البُلْق ليست السِّيما. والله أعلم. وقال مجاهد: كانت خيلهم مَجْزُوزة الأذناب والأعراف مُعلَّمة النواصى والأذناب بالصُّوف والعِهْن[1] . ورُوِى عن ابن عباس : تسومت الملائكة يوم بدر بالصوف الأبيض فى نواصى الخيل وأذنابها . وقال عباد بن عبد الله بن الزبير وهشام بن عُروة الكَلْبى: نزلت الملائكة فى سِيما الزبير عليهم عمائمُ صُفْر مرخاة على أكتافهم . وقال ذلك عبد الله وعروة ابنا الزُّبير . وقال عبد الله : كانت ملاءة صفراء اعتمّ بها الزبير رضى الله عنه.

(١) العهن : الصوف المصبوغ ألوانا .

قلت : ودلت الآية — وهي الرابعة — على اتخاذ العلامة للقبائل والكتائب يجعلها السلطان لهم لتتميز كل قبيلة وكتيبة من غيرها عند الحرب ، وعلى فضل الخيل البلق لنزول الملائكة عليها .

قلت : — ولعلها نزلت عليها موافقة لفرس المقداد، فإنه كان أبلق ولم يكن لهم فرس غيره، فنزلت الملائكة على الخيل البلق إكراما للمقداد؛ كما نزل جبريل معتجرا بعمامة صفراء على مثال الزبير . والله أعلم .

ودلت الآية أيضا — وهي الخامسة — على لباس الصوف وقد لبسه الأنبياء والصالحون. وروى أبو داود وابن ماجه واللفظ عن أبي بردة عن أبيه قال قال لي أبي : لو شهدتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء لحسبت أن ريحنا ريح الضأن. ولبس صلى الله عليه وسلم جبة رومية من صوف ضيقة الكمين؛ رواه الأئمة . ولبسها يونس عليه السلام؛ رواه مسلم . وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان في «النحل» إن شاء الله تعالى .

السادسة — قلت : وما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت مجزوزة الأذناب والأعراف فبعيد ؛ فإن في مصنف أبي داود عن عتبة بن عبد السلمي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تقصوا نواصي الخيل ولا معارفها ولا أذنابها فإن أذنابها مذابها ومعارفها دفاؤها ونواصيها معقود فيها الخير" . فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة . والله أعلم .

ودلت الآية على حسن الأبيض والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك ، وقد قال ابن عباس : من لبس نعلا أصفر قضيت حاجته . وقال عليه السلام : "البسوا من ثيابكم البياض فإنه من خير ثيابكم وكفنوا فيه موتاكم وأما العمائم فتيجان العرب ولباسها" . وروى ركانة وكان صارع النبي صلى الله عليه وسلم فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم، قال ركانة : وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس" أخرجه أبو داود . قال النحاس : إسناد مجهول لا يعرف سماع بعضه من بعض .

قوله تعالى : وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ﴾ الهاء للمدد، وهو الملائكة . أو الوعد أو الإمداد، ويدل عليه « يمددكم » أو للتسويم أو للإنزال أو العدد على المعنى ؛ لأن خمسة آلاف عدد . ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ اللام لام كى، أى ولتطمئن قلوبكم به جعله ؛ كقوله : «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا» أى حفظا لها جعل ذلك.﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ يعنى نصر المؤمنين، ولا يدخل فى ذلك نصر الكافرين؛ لأن ما وقع لهم من غلبة إنما هو إملاء محفوف بخذلان وسوء عاقبة وخُسْران . ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بالقتل . ونظم الآية : ولقد نصركم الله ببدر ليقطع . وقيل : المعنى وما النصر إلا من عند الله ليقطع . ويجوز أن يكون متعلقا بيمدكم، أى يمددكم ليقطع . والمعنى : من قتل من المشركين يوم بدر؛ عن الحسن وغيره . السُّدّى : يعنى به مَن قُتل من المشركين يوم أُحُد وكانوا ثمانيةَ عشرَ رجلا . ومعنى ﴿ يَكْبِتَهُمْ ﴾ يحزنهم، والمَكْبُوت المحزون . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبى طلحة فرأى ٱبنَه مَكْبُوتًا فقال : " ما شأنه " ؟ . فقيل : مات بعيره . وأصله فيما ذكر بعض أهل اللغة « يكبِدهم » أى يصيبهم بالحزن والغيظ فى أكبادهم ، فأبدلت الدال تاء ، كما قلبت فى سَبَت رأسَه وسَبَدَه أى حلقه . كَبَت الله العدوّ كَبْتًا إذا صرفه وأذلّه ، وكَبَده أصابه فى كبده؛ يقال : أحرق الحزن كبده، وأحرقت العداوة كبده . وتقول العرب للعدوّ : أسود الكبد؛ قال الأعشى :

فما أُجْشِمْتُ[1] من إتيانِ قومٍ * هُمُ الأعداء فالأكبادُ سُودُ

كأن الأكباد لما احترقت بشدة العداوة اسودت . وقرأ أبو مِجْلَز «أو يكبِدهم» بالدال . والخائب : المنقطع الأمل . خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب . والخيّاب : القَدْح لا يُورِى .

(١) أجشمت : كلفت على مشقة .

قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مُسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كُسرت رَباعِيَتُه يوم أُحُد ، وشُجّ فى رأسه ، فجعل يَسْلُت الدم عنه ويقول : "كيف يُفلح قوم شَجّوا رأس نبيّهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى" . فأنزل الله تعالى «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» . الضحاك : همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يَدْعُوَ على المشركين فأنزل الله تعالى: «ليس لك من الأمر شيء» . وقيل: استأذن فى أن يَدْعُوَ فى استئصالهم ، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيُسلم وقد آمن كثيرٌ منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاصي وعِكْرِمة بن أبي جهل وغيرهم . وروى التِّرمذيّ عن ابن عمر قال : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر فأنزل الله عز وجل « ليس لكَ من الأمر شيء » فهداهم الله للإسلام . وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هو معطوف على «لِيَقْطَعَ طَرَفًا» . والمعنى : ليقتل طائفة منهم أو يخزيهم بالهزيمة أو يتوب عليهم أو يعذّبهم. وقد تكون «أو» هاهنا بمعنى « حتى » و « إلا أن » . قال امرؤ القيس :

* ... أو نموتَ فنُعذَرَا *

قال علماؤنا : قوله عليه السلام : "كيف يفلح قوم شَجّوا رأس نبيهم" استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به . وقوله تعالى : «ليس لك من الأمر شيء» تقريب لما استبعده وإطماع فى إسلامهم ، ولما أطمع فى ذلك قال صلى الله عليه وسلم: "اللّهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" كما فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: كأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : "رَبِّ اغفر لقومي فإنهم

لا يعلمون" . قال علماؤنا : فالحاكي في حديث ابن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو المحكي عنه؛ بدليل ما قد جاء صريحا مبيَّنا أنه عليه الصلاة والسلام لما كسرت رباعيته وشُجّ وجهه يوم أُحُد شَقّ ذلك على أصحابه شقًّا شديدا وقالوا : لو دعوت عليهم ! فقال : " إني لم أبعث لعّانا ولكن بعثتُ داعيًا ورحمةً اللهُمّ اغفر لقومي فإنهم لايعلمون " . فكأنه عليه السلام أوحى إليه بذلك قبل وقوع قضيّة أُحُد، ولم يُعيَّن له ذلك الشيء؛ فلما وقع له ذلك تعيّن أنه المَعْنيُّ بذلك بدليل ماذكرنا . ويبيّنه أيضا ما قاله عمر له في بعض كلامه : بأبي أنت وأمي يارسول الله! لقد دعا نوح على قومه فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » الآية. ولو دعوتَ علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا ؛ فلقد وُطِئ ظهرك وأُدْمِي وجهك وكُسرت رَباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلتَ : "رَبِّ اغفر لقومي فإنهم لايعلمون" . وقوله : " اشتد غضب الله على قوم كسروا رَباعية نبيّهم" يعني بذلك المباشرَ لذلك ، وقد ذكرنا اسمه على اختلاف في ذلك ، وإنما قلنا إنه خصوص في المباشر لأنه قد أسلم جماعة ممن شهد أُحُدا وحَسُن إسلامهم .

الثانيـة ــ زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخةٌ للقنوت الذي كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع في الركعة الأخيرة من الصبح ، واحتجّ بحديث ابن عمر أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول في صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال : "اللهُمّ ربّنا ولك الحمد في الآخرة" ــ ثم قال ــ " اللهُمّ العن فلانا وفلانا " فأنزل الله عز وجل « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم » الآية . أخرجه البخاريّ ، وأخرجه مسلم أيضا من حديث أبي هريرة أتمّ منه . وليس هذا موضع نسخ وإنما نبّه الله تعالى نبيّه على أن الأمر ليس إليه ، وأنه لايعلم من الغيب شيئا إلا ما أعلمه ، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويعجّل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شيء ولله ما في السموات وما في الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء . فلا نسخ ؛ والله أعلم . وبيّن بقوله : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » أن الأمر بقضاء الله وقدره ردًّا على القَدَرِيّة وغيرهم .

الثالثة — واختلف العلماء في القنوت في صلاة الفجر؛ فمنع الكوفيون منه في الفجر وغيرها. وهو مذهب الليث ويحيى بن يحيى الليثي الأندلسي صاحب مالك، وأنكره الشّعبيّ. وفي الموطّأ عن ابن عمر: أنه كان لا يَقْنُت في شيء من الصلاة. وروى النّسائي أنبأنا قُتيبةُ عن خلف عن أبي مالك الأشجعيّ عن أبيه قال: صلّيت خَلْفَ النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يَقْنُت، وصلّيتُ خلف أبي بكر فلم يقنت، وصلّيت خلف عمرَ فلم يقنت، وصلّيت خلف عثمانَ فلم يقنت، وصلّيت خلف عليّ فلم يقنت؛ ثم قال: يا بنيّ إنها بدعة. وقيل: يقنت في الفجر دائما وفي سائر الصلوات إذا نزل بالمسلمين نازلة؛ قاله الشافعيّ والطّبريّ. وقيل: هو مستَحَب في صلاة الفجر، ورُوِي عن الشافعيّ. وقال الحسن وسُحْنُون: إنه سُنّة. وهو مقتضى رواية عليّ بن زياد عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمدا. وحكى الطبريُّ الإجماعَ على أن تَرْكه غيرُ مفسد للصلاة. وعن الحسن: في تركه سجود السّهو؛ وهو أحد قولي الشافعيّ. وذكر الدّارَقُطْنيّ عن سعيد ابن عبد العزيز فيمن نسِي القنوت في صلاة الصبح قال: يسجد سجدتي السّهو. واختار مالك قبل الركوع؛ وهو قول إسحاق. ورُوِي أيضا عن مالك بعد الركوع، ورُوِي عن الخلفاء الأربعة، وهو قول الشافعيّ وأحمد وإسحاق أيضا. ورُوِي عن جماعة من الصحابة التخييرُ في ذلك. وروى الدّارَقُطْنيّ بإسناد صحيح عن أنس أنه قال: ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْنُت في صلاة الغداة حتى فارق الدنيا. وذكر أبو داود في المراسيل عن خالد بن أبي عمران قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على مُضَر إذ جاءه جبريل فأومأ إليه أن اسْكُتْ فسكت؛ فقال: "يا محمد إن الله لم يبعثك سَبّابا ولا لعّانا وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك عذابا، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾" قال: ثم علّمه هذا القنوت فقال: "اللّهمّ إنّا نستعينُكَ ونَستغفِركَ ونؤمنُ بك ونَخْنَع (1) لك ونَخْلع ونترك من يَكْفُرك اللّهمّ إيّاكَ نعبد ولكَ نُصلّي ونَسْجُد وإليك نَسْعَى ونَحْفِد (2) نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجِدّ إنّ عذابك بالكافرين مُلْحِق (3)".

(1) الخنوع: الخضوع والذل. (2) الحفد (بفتح فسكون): الإسراع في العمل والخدمة.

(3) الرواية بكسر الحاء، أي من نزل به عذابك ألحقه بالكفار. وقيل: هو بمعنى لاحق؛ لغة في لحق. ويروى بفتح الحاء على المفعول، أي إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به. (عن ابن الأثير).

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ هذا النّهى عن أكل الربا اعتراض بين أثناء قصة أُحُد . قال ابن عطية : ولا أحفظ فى ذلك شيئا مَرْوِيًّا .

قلت : قال مجاهد : كانوا يبيعون البيع إلى أجل، فإذا حلّ الأجلُ زادوا فى الثمن على أن يُؤخّروا؛ فأنزل الله عز وجل «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضاعفةً» . وإنما خص الربا من بين سائر المعاصى لأنه الذى أذن فيه بالحرب فى قوله : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ» والحرب يؤذن بالقتل؛ فكأنه يقول: إن لم تتقوا الرِّبَا هُزِمتم وقُتلتم . فأمرهم بترك الربا لأنه كان معمولًا به عندهم . والله أعلم . و﴿أَضْعَافًا﴾ نصب على الحال و﴿مُضَاعَفَةً﴾ نعته . وقرئ «مضعّفة» ومعناه : الربا الذى كانت العرب تضعّف فيه الدّين، فكان الطالب يقول: أتقضى أم تُربى؟ كما تقدّم فى «البقرة»(1) . و ﴿ مُضَاعَفَةً ﴾ إشارة إلى تكرار التّضعيف عامًا بعد عامٍ كما كانو يصنعون ؛ فدلّت هذه العبارة المؤكّدة على شُنعة فعلهم وقُبحه ولذلك ذُكرت حالة التّضعيف خاصّة .

قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى فى أموال الربا فلا تأكلوها . ثم خوّفهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال كثير من المفسرين : وهذا الوعيد لمن استحلّ الرّبا، ومن استحلّ الرّبا فإنه يكفر . وقيل: معناه اتقوا العملَ الذى ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار؛ لأن من الذنوب ما يستوجب به صاحبهُ نَزْعَ الإيمان ويُخاف عليه؛ من ذلك عقوق الوالدين . وقد جاء فى ذلك أثرٌ: أن رجلا كان عاقاً لوالديه يقال له عَلْقَمة ؛ فقيل له عند الموت: قل لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمّه فرضيت عنه . ومن ذلك قطيعة الرّحم وأكلُ الربا والخيانة

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

فى الأمانة . وذكر أبو بكر الوراق عن أبى حنيفة أنه قال : أكثرُ ما ينزع الإيمانَ من العبد عند الموت . ثم قال أبو بكر : فنظرنا فى الذنوب التى تنزع الإيمان فلم نجد شيئا أسرعَ نزعًا للإيمان من ظلم العباد . وفى هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة ردًّا على الجَهْمِيّة لأن المعدوم لا يكون مُعَدًّا. ثم قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ فى السُّنَن. وقيل : «أطيعوا الله» فى تحريم الربا « والرَّسُولَ » فيما بلّغكم من التحريم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى كى يرحمكم الله . وقد تقـــدّم .

قوله تعـالى : وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر « سارعوا » بغير واو؛ وكذلك فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ باقى السبعة «وسارعوا» بالواو . وقال أبو علىّ : كِلَا الأمرين شائع مستقيم؛ فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجمـلة على الجملة، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانيـــة ملتبسةٌ بالأولى مستغنيةٌ بذلك عن العطف بالواو . والمسارعة المبادرة ، وهى المفاعلة . وفى الآية حذف، أى سارعوا إلى ما يوجب المغفرةَ وهى الطاعة . قال أنس ابن مالك ومكحول فى تفسير « سارِعوا إلى مغفرةٍ من ربكم » : معنـاه الى تكبيرة الإحرام . وقال علىّ بن أبى طالب : إلى أداء الفرائض . عثمان بن عفّان : إلى الإخلاص . الكلبىّ : إلى التوبة من الرِّبا . وقيل : إلى الثبات فى القتال . وقيل غير هذا . والآيةُ عامّة فى الجميع، ومعناها معنى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ »(١) وقد تقدّم .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تقـديره كعرض فحذف المضاف؛ كقوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » أى إلا كخَلْق نفس واحدة وبعثها . قال الشاعر :

(١) راجع جـ ٢ ص ١٦٥ طبعة ثانية .

حسِبتَ بُغَامَ راحلتى عَنَاقاً * وما هى وَيْبَ غيرِك بالعَنَاق (١)

يريد صوت عَناق . نظيره فى سورة الحديد « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

واختلف العلماء فى تأويله ؛ فقال ابن عباس : تُقرن السموات والأرض بعضُها إلى بعض كما تبسط الثياب ويُوصل بعضها ببعض ؛ فذلك عرْض الجنة ، ولا يعلم طولَها إلا الله . وهذا قول الجمهور ، وذلك لا يُنكر ؛ فإن فى حديث أبى ذرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "ما السموات السبع والأَرَضون السبع فى الكرسىّ إلا كدراهمَ أُلقيت فى فَلاةٍ من الأرض وما الكُرْسىّ فى العرش إلا كَحَلْقة أُلقيت فى فلاة من الأرض". فهذه مخلوقات أعظم بكثير جدًّا من السموات والأرض ، وقدرة الله أعظم من ذلك كله . وقال الكَلْبىّ : الجنان أربعة : جنةُ عَدْن وجنة المَأْوى وجنــة الفِرْدَوس وجنّة النَّعيم ، وكلّ جَنّة منها كعرض السماء والأرض لو وُصل بعضُها ببعض . وقال إسماعيل السُّدّى : لو كُسرت السموات والأرض وصِرْن خَرْدلا ، فبكلّ خَرْدَلة جنّةٌ عرضُها كعرض السماء والأرض . وفى الصحيح : " إن أَدْنَى أهل الجنة منزلةً من يتمنّى ويتمنّى حتى إذا انقطعت به الأمانى قال الله تعالى : لكَ ذلك وعشرةُ أمثاله " رواه أبو سعيد الخدرىّ ، خرّجه مسلم وغيره . وقال يَعْلَى بن أبى مُرّة : لَقِيت التَّنُوخىّ رسولَ هِرَقْل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم بحمص شيخا كبيرا قال : قدمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هِرَقْل ، فناول الصحيفةَ رجلا عن يساره ؛ قال : فقلت مَن صاحبكم الذى يقرأ ؟ قالوا : معاوية ؛ فاذا كتاب صاحبى : إنك كتبتَ تدعونى إلى جنّــة عَرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحانَ الله فأين الليل إذا جاء النهار " .

وبمثل هــذه الحجة استدلّ الفاروق على اليهود حين قالوا له : أرأيت قولكم « وجنّة عرضها السموات والأرض » فأين النار ؟ فقالوا له : لقد نَزَعت بما فى التوراة (٢) . ونبّه تعالى بالعَرْض على الطول لأن الغالب أن الطُّول يكون أكثر من العرض ، والطول إذا ذكر لا يدلّ على قدر

---

(١) بغام الناقة : صوت لا تفصح به . والعناق (بالفتح) : الأنثى من المعز . وويب ، بمعنى ويل . والبيت لذى الخِرَق الطُّهَوىّ يخاطب ذئبا تبعه فى طريقه . (عن اللسان) . (٢) نزعت بما فى التوراة : جئت بما يشبهها .

العرض . قال الزُّهْرِيّ : إنمـا وصف عَرْضَها ، فأما طُولها فلا يعلمه إلا الله؛ وهذا كقوله تعالى : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » فوصف البِطانة بأحسنَ ما يُعلم من الزينة، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسنَ وأتقنَ من البطائن . وتقول العرب : بلادٌ عريضـة ، وفلاة عريضة، أي واسعة؛ قال الشاعر :

كأنّ بلادَ الله وهي عريضـةٌ * على الخائف المطلوب كِفَّةُ(١) حابِلِ

وقال قوم : الكلام جارٍ على مَقْطع العرب من الاستعارة؛ فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غايةٍ قُصْوَى حسُنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض؛ كما تقول للرجل: هذا بحر، ولشخص كبير من الحيوان : هـذا جبل . ولم تَقْصِد الآيةُ تحديدَ العرض، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه . وعامّةُ العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة؛ لقوله « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » وهو نص حديث الإسراء وغيره في الصحيحين وغيرهما . وقالت المعتزلة: إنهما غير مخلوقتين في وقتنا، وإن الله تعالى إذا طَوَى السموات والأرضَ ابتدأ خلقَ الجنةِ والنارِ حيث شاء ؛ لأنهما دارُ جزاء بالثواب والعقاب ، فخلقتا بعـد التكليف في وقت الجزاء ؛ لئلا تجتمع دار التكليف ودار الجزاء في الدنيا، كما لم يجتمعا في الآخرة . وقال ابن فُورَك : الجنة يزاد فيها يوم القيامة . قال ابن عطيّة : وفي هذا متعلّق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال : إن الجنة لم تخلق بعدُ . قال ابن عطية وابنُ فُورَك : « يزاد فيها » إشارة إلى موجود، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العُذْر في الزيادة .

قلت : صدق ابن عطيّة رضي الله عنه فيما قال. وإذا كانت السموات السبع والأرَضون السبع بالنّسبة إلى الكرسي كدراهمَ أُلقيت في فلاة من الأرض ، والكرسيّ بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ؛ فالجَنـةُ الآن على ما هي عليه في الآخرة عرضُها كعرض السموات والأرض؛ إذ العرش سَقْفُها، حسب ما ورد في صحيح مسلم، ومعلوم أن السقف يحتوي على ما تحته ويزيد . وإذا كانت المخلوقات كلّها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذي يقدّره ويعلم طوله وعرضَه إلا الله خالقه الذي لانهاية لقدرته، ولا غاية لسَعة مملكته، سبحانه وتعالى .

(١) الكفة (بالكسر): ما يصاد به الظباء، يجعل كالطوق .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ هذا من صفة المتقين الذين أُعِدّت لهم الجنة . وظاهر الآية أنها مدحٌ بفعل المندوب إليه . و﴿السرّاء﴾ اليسر ﴿والضرّاء﴾ العسر ؛ قاله ابن عباس والكلبيّ ومُقاتل . وقال عبيد بن عُمير والضحاك : السراء والضَّراء الرَّخاءُ والشدّة . ويقال في حال الصحة والمرض . وقيل : في السراء في الحياة ، وفي الضراء يعني يوصي بعد الموت . وقيل : في السراء في العرس والولائم . وفي الضراء في النوائب والمآتم . وقيل : في السراء النفقة التي تسرّكم ؛ مثل النفقة على الأولاد والقرابات ، والضراء على الأعداء . ويقال : في السراء ما يضيف به الغنيّ ويُهْدَى إليه . والضراء ما ينفقه على أهل الضرّ ويتصدّق به عليهم .

قلت : — والآية تعمّ . ثم قال تعالى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ وهي المسألة :

الثانيــة — وكَظْمُ الغيظ ردّه في الجوف ؛ يقال : كَظَم غيظَه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوّه . وكَظمتُ السِّقاء أي ملأته وسددت عليه . والكِظَامة ما يُسدّ به مجرى المـاء ؛ ومنه الكِظام للسير الذي يُشدّ به فم الزِّقّ والقِرْبة . وكَظَم البعيرُ جِرّته[(١)] إذا ردّها في جوفه ؛ وقد يقال لحبسه الجِرّة قبل أن يرسلها إلى فيه : كظم ؛ حكاه الزجاج . يقال : كَظَم البعيرُ والناقةُ إذا لم يجترّا ؛ ومنه قول الراعي :

فأفضْنَ بعـد كُظومهنّ بجِـرّةٍ * من ذي الأبارق إذ رَعَيْنَ حَقيلا

الحقيل : موضع . والحقيل نَبْتٌ . وقد قيل : إنها تفعل ذلك عند الفزع والجَهْد فلا تجترّ . قال أعْشَى باهلةَ يصف رجلا نَحّارا للإبل فهي تفزع منه :

قد تَكْظِم البُزْلُ[(٢)] منه حين تُبصِره * حتى تَقَطّع في أجوافها الجِرَر

(١) الجرة (بالكسر) : ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه .

(٢) البزل (بضم فسكون) : جمع بازل ؛ وهو البعير الذي استكمل الثامنة وطعن في التاسعة ففطر نابه .

ومنـه : رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئا غمًّا وحُزنًا . وفى التنزيل : « وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » . «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ» . «إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ» . والغيظ أصل الغضب ، وكثيرا ما يتـلازمان لكن فُرقانُ ما بينهما أنّ الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر فى الجوارح مع فعـل مّا ولا بدّ؛ ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعـالى إذ هو عبارةٌ عن أفعاله فى المغضوب عليهم . وقد فسّر بعضُ الناس الغيظَ بالغضب؛ وليس بجيد . والله أعلم .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ العَفْوُ عن الناس أَجَلّ ضروبِ فعلِ الخير؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفُوَ حيث يتّجه حقّه . وكلُّ من استحق عقوبةً فتُرِكت له فقد عُفِيَ عنه . واختلف فى معنى «عنِ الناس»؛ فقال أبو العالية والكلْبِي والزّجاج: «والعافين عن الناس» يريد عن المماليك . قال ابن عطيّة: وهذا حسَن على جهة المثال؛ إذ هم الخدمة فهم يذنبون كثيرا والقُدْرة عليهم متيسّرة، وإنفاذ العقوبة سهل؛ فلذلك مثّل هذا المفسّر به . ورُوى عن ميْمون بن مهران أن جاريتـه جاءت ذات يوم بصحيفة فيها مَرَقة حارّة، وعنده أضياف فعَثَرت فصبّت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يامولاى، استعمل قول الله تعالى : «وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ» . قال لها : قد فعلتُ . فقالت : اعمل بما بعده «والعافين عن الناس» . فقال: قد عفوتُ عنك . فقالت الجارية : «والله يحب المحسنين» . قال ميمون : قد أحسنتُ إليك، فأنتِ حُرّة لوجه الله تعالى . ورُوى عن الأحنف مثلُه . وقال زيد بن أسلم : « والعافين عن الناس » عن ظلمهم وإساءتهم . وهذا عامٌّ، وهو ظاهر الآية . وقال مُقاتل بن حيان فى هـذه الآية : بلَغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك : " إنّ هؤلاء من أمّتى قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت " . فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال: «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ»، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله : « والعافين عن الناس »، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم فى ذلك . ووردت فى كَظْم الغيظ والعَفْو عن الناس وملك النفس عنـد الغضب أحاديثُ ؛ وذلك من

أعظم العبادة وجهادِ النفس ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " ليس الشديد بالصُّرَعَة[1] ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب " . وقال عليه السلام : " ما من جُرْعة يتجرعها العبدُ خيرٌ له وأعظم أجرا من جُرْعةِ غيظ في الله " . وروى أنس أن رجلا قال : يارسول الله ، ما أشدّ من كل شيء ؟ قال : " غضب الله " . قال فما يُنْجي من غضب الله ؟ قال : " لا تغضب " . قال العَرْجِيّ :

وإذا غَضِبتَ فكن وَقورًا كاظمًا * للغيظ تُبصر ما تقول وتَسمعُ
فكفَى به شرفًا تصَبُّرُ ساعةٍ * يرضى بها عنك الإلٰه وتُرفَعُ

وقال عروة بن الزّبير في العفو :

لن يبلغ المجدَ أقوام وإن شَرُفوا * حتى يُذَلّوا وإن عَزّوا لأقوام
ويُشتَموا فترَى الألوانَ مُشرِقةً * لا عَفْوَ ذُلّ ولكن عَفْوَ إكرامِ

وروى أبو داود وأبو عيسى التّرمذيّ عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنيّ عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مَن كظم غيظًا وهو يستطيع أن يُنفذَه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يُخيِّره في أيّ الحُورِ شاء" قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا كان يومُ القيامة نادَى مُنادٍ من كان أجره على الله فليَدْخُلِ الجنة فيقال مَن ذا الذي أجره على الله فيقوم العافُون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب " . ذكره الماوردي . وقال ابن المبارك : كنت عند المنصور جالسًا فأمر بقتل رجل؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يومُ القيامة نادَى مُنادٍ بين يدي الله عز وجل من كانت له يدٌ عند الله فليتقدّم فلا يتقدّم إلا مَن عفَا عن ذنب"؛ فأمر بإطلاقه.

الرابعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي يثيبهم على إحسانهم. قال سَرِيّ السَّقَطي: الإحسان أن تُحسِن وقت الإمكانِ، فليس كل وقت يمكنك الإحسان؛ قال الشاعر:

(1) الصرعة (بضم الصاد وفتح الراء) : المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب؛ فنقله إلى الذي يَغلب نفسه عند الغضب ويقهرها .

بادِرْ بخيرٍ إذا ما كنتَ مُقتدِرًا * فليس فى كل وقتٍ أنت مُقتدِرُ

وقال أبو العباس الجُمّانى فأحسن :

ليس فى كل ساعة وأوانٍ * تتهيّا صنائعُ الإحسانِ
وإذا أمكنتْ فبادِرْ إليها * حذرًا من تعذُّر الإمكانِ

وقد مضى فى «البقرة» (١) القول فى المحسن والإحسان فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ذكر الله تعالى فى هذه الآية صنفا دون الصّنف الأول فألحقهم به برحمته ومنّه ؛ فهؤلاء هم التوّابون . قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت هذه الآية فى نَبْهان التّمّار — وكنيته أبو مقبل — أتته آمرأة حسناء باع منها تمرا ، فضمها إلى نفسه وقبّلها فندم على ذلك ، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ؛ فنزلت هذه الآية . وذكر أبو داود الطّيالسيّ فى مسنده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : حدّثنى أبو بكر — وصدق أبو بكر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من عبد يُذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلّى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له — ثم تلا هذه الآية — والّذينَ إذا فَعَلُوا فاحشةً أو ظَلَمُوا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — الآية ، والآية الأخرى — ومَنْ يعمَلْ سُوءًا أوْ يظلِمْ نفسَهُ " . وخرّجه الترمذىّ وقال : حديث حسن . وهذا عام . وقد تنزل الآية بسبب خاصّ ثم تتناول جميعَ مَن فعل ذلك أو أكثر منه . وقد قيل : إن سبب نزولها أن ثقفيا خرج فى غزاة وخلّف صاحبًا له أنصاريًا على أهله ، فخانه فيها بأن

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

اقتحم عليها فدفعت عن نفسها فقبّل يدها ، فندم على ذلك فخرج يسيح فى الأرض نادما تائبا ؛ فجاء الثقفيّ فأخبرته زوجته بفعل صاحبه ، فخرج فى طلبه فأتى به إلى أبى بكر وعمر رجاءَ أن يجد عندهما فرجًا ؛ فوبّخاه فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعله ؛ فنزلت هذه الآية . والعموم أولى للحديث . ورُوى عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا : يارسول الله ، كانت بنو إسرائيل أكرمَ على الله منّا ، حيث كان المذنب منهم تُصبح عقوبته على باب داره . وفى رواية : كفّارة ذنبه مكتوبةٌ على عتبة داره : اجْدَع أنفك ، اقطع أذنك ، افعل كذا ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية تَوسعةً ورحمةً وعِوَضًا من ذلك الفعل ببنى إسرائيل . ويروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية . والفاحشة تطلق على كل معصية ، وقد كثر اختصاصها بالزنا حتى فسّر جابرُ بنُ عبد الله والسُّدِّيُّ هذه الآيةَ بالزنا . و « أو » فى قوله « أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » قيل هى بمعنى الواو ؛ والمراد ما دون الكبائر . ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ معناه بالخوف من عقابه والحياء منه . الضحاك : ذكروا العَرْض الأكبر على الله . وقيل : تفكروا فى أنفسهم أن الله سائلُهم عنه ؛ قاله الكلبيّ ومقاتل . وعن مقاتل أيضا : ذكروا الله باللسان عند الذنوب . ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ طلبوا الغُفران لأجل ذنوبهم . وكلّ دعاء فيه هذا المعنى أو لفظه فهو استغفار . وقد تقدم فى صدر هذه السورة سيّد الاستغفار ، وأن وقته الأسحار . فالاستغفار عظيم وثوابه جسيم ، حتى لقد روى الترمذيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فرّ من الزَّحْف " . وروى مَكْحول عن أبى هريرة قال : مارأيت أكثر استغفارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مَكْحول : مارأيت أكثر استغفارا من أبى هريرة . وكان مكحول كثير الاستغفار . قال علماؤنا : الاستغفار المطلوبُ هو الذى يَحُلّ عَقْد الإصرار ويثبت معناه فى الجنان ، لا التلفظ باللسان . فأما من قال بلسانه : أستغفر الله ، وقلبُه مُصِرٌّ على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار ، وصغيرته لاحقة بالكبائر . وروى عن الحسن البصريّ أنه قال : استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

قلت : هذا يقوله فى زمانه ، فكيف فى زماننا هذا الذى يُرى فيه الإنسان مُكِبًّا على الظلم ! حريصا عليه لا يُقلِع ، والسُّبْحَة فى يده زاعما أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف . وفى التنزيل « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً »(١) . وقد تقدّم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾ أى ليس أحد يغفر المعصية ولا يُزيل عقوبتها إلا الله . ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ أى ولم يثبتوا ويعزموا على ما فعلوا . وقال مجاهد: أى ولم يمضوا . وقال معبد بن صبيح: صلّيتُ خلف عثمانَ وعليٌّ إلى جانبى ، فأقبل علينا فقال : صلّيتُ بغير وضوء ثم ذهب فتوضأ وصلّى . « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » . الإصرار هو العزم بالقلب على ترك الأمر والإقلاع عنه . ومنه صَرُّ الدنانير أى الربط عليها ؛ قال الحُطَيئة يصف الخيل :

عوابس بالشُّعْثِ الكُماة إذا ابتغَوْا * عُلالتَها بالمُحْصَداتِ(٢) أَصَرَّت

أى ثبتت على عَدْوِها . وقال قَتادة : الإصرار الثبوت على المعاصى ؛ قال الشاعر :

يُصِرّ بالليل ما تخفى شواكله(٣) * يا وَيْحَ كلِّ مُصِرِّ القلبِ خَتّارِ(٤)

قال سهل بن عبد الله : الجاهل ميت ، والناسى نائم ، والعاصى سكران ، والمُصِرّ هالكٌ . والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول أتوب غدا ؛ وهذا دَعْوَى النفس ، كيف يتوب غدا وغدا لا يملكه ! . وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينوى ألّا يتوبَ فإن نوى التوبة خرج عن الإصرار . وقول سَهْلٍ أحسنُ . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا توبة مع الإصرار" .

الثالثــة — قال علماؤنا : الباعث على التوبة وحلّ الإصرار إدامةُ الفكر فى كتاب الله العزيز الغفار . وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعَدَ به المُطيعين ، وما وصفه من

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة ، جـ ٣ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) العلالة (بالضم) : بقية جرى الفرس . والمحصدات : السياط المفتولة . (٣) الشواكل : الطرق المتشعبة عن الطريق الأعظم . (٤) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . وقيل : هو أسوأ الغدر وأقبحه . و «ختار» للمبالغة .

عذاب النار وتهدّد به العاصين، ودام على ذلك حتى قَوِى خوفُه ورجاؤه فدعا الله رَغَبًا ورَهبًا؛ والرَّغْبةُ والرهبةُ ثَمرةُ الخوف والرجاء ، يخاف من العِقاب ويرجو الثواب ، والله الموفق للصواب . وقد قيل : إن الباعث على ذلك تنبيهٌ إلٰهيٌّ ينبّه به من أراد سعادته ؛ لِقُبْح الذنوب وضررها إذ هي سموم مهلكة .

قلت : وهذا خلاف فى اللفظ لا فى المعنى ؛ فإن الإنسان لا يتفكّر فى وعد الله ووعيده إلا بتنبيهه ؛ فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشحُونةً بذنوب ٱكتسبها وسيئات اقترفها، وٱنبعث منه النّدم على ما فرّط، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى صَدَق عليه أنه تائب . فإن لم يكن كذلك كان مُصِرًّا على المعصية وملازمًا لأسباب الهَلَكة . قال سهل بن عبد الله : علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب ؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا (1) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه أقوال . فقيل : أى يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها . قال النحاس : وهذا قول حَسَن . وقيل : « وهم يعلمون » أنى أعاقب على الإصرار . وقال عبد الله بن عُبيد بن عُمير : « وهم يعلمون » أنهم إن تابوا تاب الله عليهم . وقيل : « يعلمون » أنهم إن استغفروا غُفِر لهم . وقيل : « يعلمون » بما حرّمت عليهم؛ قاله ابن إسحاق . وقال ابن عباس والحسن ومُقاتل والكَلْبى : «وهم يعلمون» أن الإصرار ضارٌّ، وأن تَركه خيرٌ من التّمادى . وقال الحسن بن الفضل : «وهم يعلمون» أن لهم رَبًّا يغفر الذنب .

قلت : وهذا أخذه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يَحكِى عن ربّه عز وجل قال : "أذنب عبد ذنباً فقال اللّهمّ ٱغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا فعَلِم أن له ربًّا يَغفِر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أىْ ربِّ ٱغفر لى ذنبى — فذكر مثله مرتين، وفى آخره : ٱعمل ما شئت فقد غفرت لك" أخرجه مسلم .

(1) هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الرّبيع . تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه لا تكلمنّ أحدا من هؤلاء الثلاثة ؛ إلى أن نزل فيهم قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ... » آية ١١٨ سورة التوبة ، وراجع سيرة ابن هشام فى الكلام على غزوة تبوك (ص ٨٩٣ طبع أوربا) .

وفيه دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب؛ لأن التوبة الأولى طاعة وقد انقضت وصحّت، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبحَ من ابتدائه؛ لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعَوْدُ إلى التوبة أحسنُ من ابتدائها؛ لأنه أضاف إليها ملازمةَ الإلحاح بباب الكريم وأنه لا غافر للذنوب سواه. وقوله في آخر الحديث "اعمل ما شئت" أمرٌ معناه الإكرام في أحد الاقوال؛ فيكون من باب قوله: «ادخُلوها بسلام». وآخر الكلام أخبر عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه. ودلّتَ الآية والحديث على عظم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه؛ قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه" أخرجاه في الصحيحين. وقال: يستوجب العبدُ العفوَ إذا اعترف بما جَنَى من الذنوب واقترف. وقال آخر:

أقرِرْ بذنبك ثم اطلب تجاوزَه * إن الجحود جحودَ الذنب ذنبان

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تُذنِبُوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيُغفر لهم". وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفار والتواب، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

الخامسة — الذنوب التي يُتاب منها إما كُفر أو غيرُه؛ فتوبة الكافر إيمانُه مع ندَمه على ما سلف من كفره؛ وليس مجرّدُ الإيمان نفسَ توبة. وغير الكفر إمّا حَقٌّ لله تعالى، وإما حَقٌّ لغيره؛ فحَقّ الله تعالى يكفي في التوبة منه التركُ؛ غير أن منها مالم يكتف الشرع فيها بمجرّد الترك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاءً كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفّارةً كالحِنْث في الأيمان والظِّهار وغير ذلك. وأمّا حقوق الآدميّين فلا بُدّ من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجَدوا تُصدّق عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فعفو الله مأمول، وفضله مبذول؛ فكم ضَمِن من التَّبِعات وبدّل من السيئات بالحسنات. وسيأتي زيادة بيان لهذا المعنى.

السادســة ــ ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذنبه و يعلمه أن يتوب منه بعينه، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنبًا تاب منه . وقد تأول كثير من الناس فيما ذكر شيخُنا أبو محمد عبد المعطى الأسكندرانى رضى الله عنــه أن الإمام المُحاسبى رحمه الله يرى أن التو بة من أجناس المعاصى لا تصح، وأن الندم على جُملتها لا يكفى، بل لا بدّ أن يتوب من كل فعل بجارحته وكلّ عَقْد بقلبه على التّعيين . ظنوا ذلك من قوله، وليس هذا مراده، ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلّف إذا عرف حكم أفعاله، وعرف المعصية من غيرها صحّت منه التو بة من جملة ماعرف؛ فإنه إن لم يعرف كَوْنَ فعله الماضى معصية لا يمكنه أن يتوب منه لا على الجملة ولا على التفصيل . ومثاله رجل كان يتعاطى بابًا من أبواب الرّبا ولا يعرف أنه رِبًا فإذا سمع كلام الله عز وجل : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » عَظُم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا . فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لابَسَ منه شيئا كثيرا فى أوقات متقدمة، صحّ أن يندم عليه الآن جملةً، ولا يلزمه تعيين أوقاته . وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالغيبة والنميمة وغير ذلك من المحرمات التى لم يعرف كونها محرمة . فإذا فَقُه العبد وتفقد مامضى من كلامه تاب من ذلك جملةً، وندم على ما فرّط فيه من حق الله تعالى . و إذا استحلّ من كان ظلمه فحالّه على الجملة وطابت نفسه بترك حقه جاز؛ لأنه من باب هبة المجهول . هذا مع شُحّ العبد وحرصه على طلب حقه، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والعفو عن المعاصى صغارها وكبارها . قال شيخنا رحمه الله تعالى : هذا مراد الإمام، والذى يدلّ عليه كلامه لمن تفقده وما ظنه به الظانّ من أنه لايصح الندم إلا على فِعْلٍ فِعْلٍ وحركةٍ حركةٍ وسَكْنةٍ سَكْنةٍ على التعيين هو من باب تكليف ما لا يطاق، الذى لم يقع شرعًا و إن جاز عقلًا، و يلزم عنه أن يعرف كم جُرْعة جَرعها فى شرب الخمر، وكم حركة تحركها فى الزنا، وكم خطوة مشاها إلى مُحْرَم، وهــذا مالا يُطيقه أحد، ولا يتأتّى منه تو بة على التفصيل . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان من احكام التوبة وشروطها فى «النساء» وغيرها إن شاء الله تعالى .

السابعــة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ ودلالة قاطعة لما قاله سيفُ السُّنّة، ولسان الأمة القاضى أبو بكر بن الطيب : أن الانسان يؤاخذ بما وطّن عليه ضميرَه، وعزم عليه بقلبه من المعصية .

قلت : وفى التنزيل « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » وقال : « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » . فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم وسيأتى بيانه . وفى البخارى "إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار" قالوا : يارسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال : "إنه كان حريصا على قتل صاحبه". فعلّق الوعيدَ على الحرص وهو العزم وألغى إظهار السلاح . وأنصُّ من هذا ما خرّجه الترمذىّ من حديث أبى كَبْشة الأنمارىّ وصحّحه مرفوعا "إنما الدنيا لأربعة نفر رجل أعطاه الله مالًا وعلمًا فهو يتقى فيه ربّه ويصلُ فيه رَحِمَه ويعلم لله فيه حقًّا فهذا بأفضل المنازل. ورجل آتاه الله علما ولم يُؤته مالًا فهو [صادق النية][1] يقول لو أن لى مالًا لعملت فيه بعمل فلان فهو نيّته فأجرهما سواء . ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علما فهو [يخبط فى ماله بغير علم][1] لا يتّقى فيه ربّه ولا يَصِلُ به رَحِمَه ولا يعلم لله فيه حقًّا فهذا بأخبث المنازل. ورجل لم يؤته الله مالًا ولا علمًا فهو يقول لو أن لى مالًا لعملت فيه بعمل فلان فهو نيّته فوزرهما سواء" . وهذا الذى صار إليه القاضى هو الذى عليه عامّة السّلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين، ولا يُلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يَهُمّ الإنسانُ به وإن وطّن عليه [نفسه] لا يؤاخذ به . ولا حُجّة فى قوله عليه السلام : "مَن هَمّ بسيئة فلم يعملْها لم تُكتب عليه فإن عملها كُتبت سيئةً واحدةً" لأن معنى "فلم يعملها" فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا، ومعنى "فإن عملها" أى أظهرها أو عزم عليها بدليل ما وصفنا . وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

رتّب تعالى بفضله وكرمه غُفرانَ الذنوب لمن أخلص فى توبته ولم يُصرّ على ذنبه. ويمكن أن يتصل هذا بقصّة أُحُد، أى من فرّ ثم تاب ولم يُصرّ فله مغفرة الله .

(١) زيادة عن سنن الترمذى .

قوله تعالى : قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

هذا تسلية من الله تعالى للمؤمنين ، والسُّنن جمع سُنَّة وهى الطريق المستقيم . وفلان على السُّنَّة أى على طريق الاستواء لا يميل إلى شيء من الأهواء؛ قال الهُذَليّ :

فلا تَجْزَعَن من سُنّة أنت سِرْتَها * فأوّلُ راضٍ سُـنّةً من يسـيرها

والسُّنّة : الإمام المتّبع المؤتمّ به؛ يقال : سَنّ فلان سُنّةً حسنة وسيّئةً إذا عمل عملا اقتدى به فيه من خير أو شر؛ قال لبيد :

مِن مَعشرٍ سَنّت لهم آباؤهم * ولكلّ قـومٍ سُـنّةٌ وإمامُها

والسُّنّة الأمّة، والسُّنَن الأمَم؛ عن المفضّل . وأنشد :

ما عاين الناسُ من فضلٍ كفضلِهمُ * ولا رأوْا مثلَهـم فى سالِفِ السَّنَنِ

قال الزجاج : والمعنى أهل سنن، فحذف المضاف . وقال أبو زيد : أمثال . عطاء : شرائع . مجاهد : المعنى « قد خلت من قبلكم سـنن » يعنى بالهلاك فيمن كَذّب قبلكم كعادٍ وثمود . والعاقبة : آخر الأمر؛ وهـذا فى يوم أُحُد . يقول فأنا أمهلهم وأُملِي لهم وأستدرجهم حتى يبلغ الكتاب أجله . يعنى بنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين .

قوله تعالى : هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

يعنى القرآن ؛ عن الحسن وغيره . وقيل : هذا إشارة إلى قوله : « قد خلت من قبلكم سنن » . والموعظة الوعظ . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

عزّاهم وسلّاهم بما نالهم يوم أُحد من القتل والجراح، وحثّهم على قتال عدوّهم ونهاهم عن العجز والفشل فقال « وَلَا تَهِنُوا » أى لا تضعفوا ولا تجبُنوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لما

أصابكم . «ولا تحزنوا» على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة . «وأنتم الأعلون» أى لكم تكون العاقبة بالنصر والظفر «إن كنتم مؤمنين» أى بصدق وَعْدِى . وقيل : «إن» بمعنى «إذ» . قال ابن عباس : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد فبيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين، يريد أن يعلُوَ عليهم الجبل؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللهُمّ لا يَعْلُنّ علينا اللهمّ لا قُوّة لنا إلّا بِكَ اللّهمّ ليس يعبدك بهذه البلدة غيرُ هؤلاء النفر" . فأنزل الله هذه الآيات . وبات نفر من المسلمين رُماةٌ فصعدوا الجَبل ورَمَوا خيل المشركين حتى هزموهم؛ فذلك قوله تعالى : «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» يعنى الغالبين على الأعداء بعد أُحُد . فلم يُخرِجوا بعد ذلك عسكرا إلا ظَفِروا فى كلّ عسكر كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى كلّ عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيه واحد من الصحابة كان الظَّفَر لهم، وهذه البُلدان كلها إنما افْتُتِحَتْ على عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحُون فى ذلك الوقت . وفى هذه الآية بيانُ فضلِ هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه؛ لأنه قال لموسى : «إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» وقال لهذه الأمة : «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ». وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلى . وقال للؤمنين : «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» .

قوله تعالى : إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ القرح الجرح . والضم والفتح فيه لغتان عن الكسائى والأخفش؛ مثل عَقْر وعُقْر[1] . الفراء : هو بالفتح الجُرح، وبالضم ألمه . والمعنى: إن يمسسكم يوم أُحُد قَرْحٌ فقد مسّ القومَ يومَ بَدْرٍ قَرْحٌ مثلُه . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع «قَرَح» بفتح

(١) فى الأصول : «قفر وقفر» وهو تحريف .

القاف والراء على المصدر . ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ قيل : هذا فى الحرب ، تكون مرّة للمؤمنين لينصر الله دينَه ، ومرّة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويمحّص ذنوبهم؛ فأما إذا لم يعصُوا فإن حزب الله هم الغالبون . وقيل : « نداولها بين الناس » من فَرَح وغَمّ وصحة وسقم وغِنًى وفقر . والدَّولَة الكَرّة ؛ قال الشاعر :

فيومٌ لنا ويومٌ علينا * ويوم نُساءُ ويوم نُسَرّ

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ معناه وإنما كانت هذه المُداولة ليُرَى المؤمنَ من المنافق فيُمَيِّز بعضهم من بعض؛ كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » . وقيل : لِيَعلَم صبر المؤمنين، العلمَ الذى يقع عليه الجزاء كما علمه غَيْباً قبل أن كلّفهم . وقد تقدّم فى «البقرة»[1] هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : « وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ » أى يكرمكم بالشهادة ؛ أى لِيُقتل قوم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل لهذا : قيل شهيد . وقيل : سُمّى شهيدا لأنه مشهود له بالجنة . وقيل : سُمّى شهيدا لأن أرواحهم احتضرت دار السلام، لأنهم أحياءٌ عند ربهم، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة . وهذا هو الصحيح على ما يأتى . والشهادة فضلها عظيم ، ويكفيك فى فضلها قوله تعالى : « إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » الآية . وقولُه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » إلى قوله : « ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . وفى صحيح البُسْتىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يَجِدُ الشهيدُ من القَتْل إلا كما يجد أحدُكُم من القَرْحة " . وروى النَّسائىّ عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يارسول الله، مابال المؤمنين يُفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال : " كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة " . وفى البخارى : « مَن قُتل من المسلمين

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية .

يوم أحد» منهم حمزةُ واليمان والنضر بن أنس (١) ومُصعب بن عُمير، حدّثنى عمرو بن علىّ أن معاذ ابن هشام قال حدّثنى أبى عن قتادة قال : ما نعلم حيّاً من أحياء العرب أكثرَ شهيدا أعزّ يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحد سبعون ، ويومَ بئر معُونةَ سبعون، ويوم اليمامة سبعون . قال : وكان بئر معونة على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم، ويوم اليمامة على عهد أبى بكر يومَ مُسَيلِمَة الكذاب . وقال أنس: أُتِىَ النبىّ صلى الله عليه وسلم بعلىّ بن أبى طالب وبه نَيِّفٌ وستّون جِراحة من طعنةٍ وضربةٍ ورَمْيةٍ ، فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم يمسحها وهى تلتئم بإذن الله تعالى حتى كأن لم تكن .

الثانيـــة — فى قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ دليل على أن الإرادة غيرُ الأمر كما يقوله أهل السنة؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين حمزةَ وأصحابه وأراد قتلهم، ونهى آدمَ عن أكل الشجرة وأراده فواقعه آدم . وعكسه أنه أمر إبليسَ بالسجود ولم يُرِدْه فامتنع منه؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحقّ : «وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» . وإن كان قد أمر جميعَهم بالجهاد ولكنه خلق الكسل والأسبابَ القاطعةَ عن المَسير فقعَدُوا .

الثالثـــة — رُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر فقال له : "خيِّرْ أصحابَك فى الأسارى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يُقتل منهم عام المقبل مثلُهم فقالوا الفداء ويُقتل منّا" أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن . فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خيّرهم فاختاروا القتل . ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى المشركين، أى وإن أنال الكفارَ من المؤمنين فهو لا يحبّهم، وإن أحلّ ألمًا بالمؤمنين فإنه يحبّ المؤمنين .

قوله تعالى : وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤١)

---

(١) الذى فى شرح القسطلانى على صحيح البخارى : « وأنس بن النضر ، وهو عم أنس بن مالك كما ذكره أبو نعيم وابن عبد البر وغيرهما . ولأبى ذر «النضر بن أنس» وهو خطأ ، والصواب الأوّل » .

فيه ثلاثة أقوال : يُمَحّص يختبر. الثانى ــ يطهر؛ أى من ذنوبهم فهو على حذف مضاف. المعنى : وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا؛ قاله الفراء . الثالث ــ يُمَحّص يخلص؛ فهذا أغربها. قال الخليل يقال : مَحِص الحبل يَمْحَص مَحَصًا إذا انقطع وَبَرُه؛ ومنه "اللّهُمّ مَحِّص عنا ذنوبنا" أى خلصنا من عقوبتها . وقال أبو إسحاق الزجاج : قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل : التمحيص التخليص . يقال : مَحَّصَه مَحْصًا إذا خلّصه ؛ فالمعنى عليه ليبتلى المؤمنين ليُثيبهم ويخلّصهم من ذنوبهم . ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

«أم» بمعنى بل. وقيل: الميم زائدة، والمعنى أحسبتم يا من انهزم يوم أُحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم لا، حتى ﴿يَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أى علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء. والمعنى: ولم تجاهدوا فيعلم ذلك منكم ؛ فلما بمعنى لم . وفرّق سيبويه بين «لم» و «لما» ، فزعم أن «لم يفعل» نفى فَعَل، وأن «لما يفعل» نفى قد فَعَل . ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ منصوب بإضمار أن، عن الخليل. وقرأ الحسن ويحيى بن يَعْمَر «يعلمِ الصّابرين» بالجزم على النَّسَق . وقرئ بالرفع على القطع ، أى وهو يعلم . وروى هذه القراءة عبدُ الوارث عن أبى عمرو . وقال الزّجاج : الواو هنا بمعنى حتى ، أى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلم صبرهم كما تقدم آنفا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

أى الشهادة من قبل أن تلقوه . وقرأ الأعمش «من قبل أن تلاقوه» أى من قبل القتل . وقيل : من قبل أن تلقوا أسباب الموت ؛ وذلك أن كثيرا ممن لم يحضر بدرًا كانوا

يتمنون يوما يكون فيه قتال ؛ فلما كان يوم أُحُد انهزموا ، وكان منهم من تجلّد حتى قتل ، ومنهم أنس بن النّضر عمّ أنس بن مالك ؛ فإنه قال لما انكشف المسلمون : اللّهُمّ إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وباشر القتال وقال : إيها إنها ريح الجنة! إنى لأجدها، ومضى حتى ٱستُشْهِد . قال أنس : فما عرفناه إلا ببنانه ووجدنا فيه بِضْعا وثمانين جراحة. وفيه وفى أمثاله نزل «رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ». فالآية عتاب فى حق من ٱنهزم، لاسيّما وكان منهم حَمْلٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم على الخروج من المدينة، وسيأتى. وتمنّى الموت يرجع من المسلمين إلى تَمَنّى الشهادة المبنيّة على الثبات والصبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر ولا يجوز إرادة المعصية . وعلى هذا يُحمَل سؤالُ المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة ، فيسألون الصبر على الجهاد و إن أدّى إلى القتل .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ قال الأخفش : هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله : « فقد رأيتموه » مثل « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » . وقيل : معناه وأنتم بُصَراء ليس فى أعينكم عِلل؛ تقول : قد رأيت كذا وكذا وليس فى عينيك علّة؛ أى فقد رأيته رؤية حقيقية ؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد . وقال بعضهم : « وأنتم تنظرون » إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وفى الآية إضمار، أى فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلِمَ ٱنهزمتم .

قوله تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — رُوى أنها نزلت بسبب ٱنهزام المسلمين يوم أُحُد حين صاح الشيطان: قد قُتل محمد . قال عطية العَوْفى : فقال بعض الناس : قد أصيب محمدٌ فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم . وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيّكم حتى

تلحقوا به؛ فأنزل الله تعالى فى ذلك «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» إلى قوله: «فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» . وما نافية، وما بعدها ابتداء وخبر، وبطل عمل ما. وقرأ ابن عباس «قد خلت مِن قبلِهِ رُسُل» بغير ألِف ولام . فأعلم الله تعالى فى هذه الآية أن الرسل ليست بباقيةٍ فى قومها أبدا، وأنه يجب التمسّك بمـا أتت به الرسل وإن فُقِد الرسول بموتٍ أو قتلٍ . وأكرم نبيّه صلى الله عليه وسلم بآسمين مشتقين من آسمه : محمد وأحمد؛ تقول العرب : رجل محمود ومحمّـد إذا كثُرت خِصالهُ المحمودة؛ قال الشاعر :

* إلى المـاجد القَرْم الجوَاد المُحَمَّد * (١)

وقد مضى هذا فى الفاتحة (٢) . وقال عباس بن مِرداس :

يا خـاتِمَ النُّبآءِ إنّـك مُرْسَـلٌ * بالخير كلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُداكَا

إنَّ الإلٰه بَنَى عليـك مَحَبّـةً * فى خَلْقِـه ومُحَمَّـدًا سَمّـاكَا

فهذه الآية من تتمّة العِتاب مع المنهزمين، أى لم يكن لهم الآنهزام وإن قُتل محمد، والنبوّة لا تَدرأ الموت، والأديانُ لا تزول بموت الأنبياء . والله أعلم .

الثانيـــة ـــ هـذه الآية أدلّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته؛ فإن الشجاعة والجُرْأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظمُ من موت النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم بيانه فى «البقرة» (٣) فظهرت عنده شجاعته وعلمه . قال الناس : لم يَمُتْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؛ منهم عمر، وخرِس عثمانُ، وآستخفى علىّ، وآضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح (٤)، الحديث؛ كذا فى البخارى . وفى سنن ابن ماجه عن عائشة قالت : «لمـّا قُبض رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأبو بكر عند آمرأته آبنة خارجة بالعَوالى؛ فجعلوا يقولون : لم يَمُت النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا هو بعض ما كان يأخذه عند

(١) هذا عجز بيت للأعشى ، وصدره : * إليك أبيت اللعن كان كلالها *

(٢) راجع جـ ١ ص ١٣٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع المسئلة الثالثة جـ ٢ ص ١٧٦ طبعة ثانية .

(٤) السنح (بضم أوله وسكون النون وقد تضم) : موضع من أطراف المدينة ، وهى منازل بنى الحارث ابن الخزرج بعوالى المدينة ، و بينها و بين منزل النبى صلى الله عليه وسلم ميل .

الوَحْى . فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه وقال : أنت أكرمُ على الله أن يُميتك مرّتين . قد والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرُ فى ناحية المسجد يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يموت حتى يقطع أيدىَ أناس من المنافقين كثير وأرجلَهم . فقام أبو بكر فصعد المنبرَ فقال : من كان يعبد الله فإن الله حَىٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قدمات ، «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» . قال عمر : فلكأنى لم أقرأها إلا يومئذ» . ورجع عن مقالته التى قالها فيما ذكر الوائلى أبو نصر عبيد الله فى كتابه الإبانة . عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بُويع أبو بكر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآستوى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهّد قبل أبى بكر فقال : أمّا بعدُ فإنى قلت لكم أمس مقالةً وإنها لم تكن كما قلتُ ، وإنى والله ما وجدت المقالةَ التى قلتُ لكم فى كتاب أنزله الله ولا فى عهد عَهِده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنّى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرنا — يريد أن يقول حتى يكون آخرنا مَوْتاً — فآختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تَهْتَدُوا لما هَدَى له رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الوائلى أبو نصر : المقالةُ التى قالها ثم رجع عنها هى « أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يَمُت ولن يموت حتى يقطع أيدى رجال وأرجلَهم » وكان قال ذلك لعظيم ماورد عليه، وخَشِى الفتنة وظهورَ المنافقين ؛ فلما شاهد قوةَ يقين الصدّيق الأكبر أبى بكر وتَفَوّهه بقول الله عز وجل : « كلُّ نفس ذائقة الموت » وقوله : « إنك ميّت » وما قاله ذلك اليوم تنبّه وتثبت وقال : كأنى لم أسمع بالآية إلا من أبى بكر . وخرج الناس يتلونها فى سِكك المدينة كأنها لم تنزل قطُّ إلا ذلك اليوم . ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا اختلاف، فى وقت دخوله المدينةَ فى هجرته حين اشتدّ الضَّحاء، ودفن يوم الثلاثاء وقيل ليلة الأربعاء . وقالت صفيّة بنت عبد المطلب تَرْثِى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم

ألا يا رسولَ الله كنت رجاءنا * وكنتَ بنا بَرًّا ولم تكُ جافيا
وكنتَ رحيما هاديًا ومعلّمًا * ليَبْكِ عليك اليومَ مَن كان باكيا
لعَمْرُكَ ما أبكي النبيَّ لِفقده * ولكن لما أخشى من الهَرْج آتيا
كأنّ على قلبي لِذِكرِ محمدٍ * وما خِفتُ من بعد النبيّ المكاويا
أفاطم صلّى الله ربُّ محمدٍ * على جَدَثٍ أمسى بيثْرِبَ ثاويا
فِدًى لرسول الله أُمّي وخالتي * وعمّي وآبائي ونَفْسي وماليا
صَدقتَ وبلّغتَ الرسالةَ صادقًا * ومُتَّ صَليب العُودِ أبلَجَ صافيا
فلو أنّ رَبَّ الناس أبقى نبيَّنا * سَعِدْنا، ولكنْ أمرُه كان ماضيا
عليك من الله السلامُ تحيةً * وأُدخِلت جناتٍ من العَدْنِ راضيا
أرى حَسَنًا أيتمتَه وتركتَه * يبكي ويدعو جَدَّه اليومَ ناعيا

فإن قيل وهي :

الثالثة ــ فلِمَ أُخِّر دفنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال لأهل بيت أخّروا دفن ميّتهم: "عَجِّلوا دفنَ جيفتكم ولا تؤخروها". فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول ـ ماذكرناه من عدم اتفاقهم على موته . الثاني ــ لأنهم لايعلمون حيث يدفنونه . قال قوم في البَقيع . وقال آخرون في المسجد . وقال قوم : يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم . حتى قال العالِم الأكبر (١) سمعته يقول : " ما دُفن نبيّ إلا حيث يموت " ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما . الثالث ــ أنهم اشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيْعة ، فنظروا فيها حتى استتبّ الأمر وانتظم الشمل واستوت الحال ، واستقرت الخلافة في نصابها فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعةً أخرى عن مَلأ منهم ورضاً ؛ فكشف الله به الكُرْبة من أهل الرِّدّة، وقام به الدّين، والحمد لله رب العالمين. ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنظروا في دفنه وغسّلوه وكفنوه . والله أعلم .

---

(١) يريد به أبا بكر رضي الله عنه .

الرابعـــة — واختُلِف هل صُلِّيَ عليه أم لا؛ فمنهم من قال : لم يُصَلَّ عليه أحد، وإنمـا وقف كلّ أحد يدعو؛ لأنه كان أشرفَ من أن يُصَلَّى عليه . وقال ابن العربيّ : وهذا كلام ضعيف، لأن السُّنة تقوم بالصلاة عليه فى الجنازة، كما تقوم بالصلاة عليه فى الدعاء؛ فيقول : اللّهمّ صلّ على محمد إلى يوم القيامة . وذلك منفعة لنا . وقيل : لم يُصَلَّ عليـه لأنه لم يكن هناك إمام . وهذا ضعيف؛ فإن الذى كان يقيم بهم الصلاة الفريضةَ هو الذى كان يَؤُمّ بهم فى الصلاة . وقيل : صَلَّى عليه الناس أفرادا؛ لأنه كان آخر العهد به، فأرادوا أن يأخذ كل أحدٍ بَرَكته مخصوصا دون أن يكون فيها تابعا لغيره . والله أعلم بصحة ذلك .

قلت : قد خرّج ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه : فلمـا فرغوا من جَهازه يوم الثلاثاء وُضع على سريره فى بيته ، ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أَرْسالا[(١)] يُصلّون عليه، حتى إذا فرغوا أَدْخلوا النساء، حتى إذا فرغوا أدخلوا الصبيان، ولم يَؤُمّ الناسَ على رسول الله صلى الله عليه وسـلم أحد . خرّجه عن نصر بن على الجَهْضَميّ أنبأنا وهب بن جرير حدّثنا أبى عن محمد بن إسحاق قال حدّثنى حسين بن عبد الله عن عِكرمة عن ابن عباس؛ الحديث بطوله .

الخامســـة — فى تغيير الحال بعـد النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أنس قال : لـمـا كان اليومُ الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كلّ شىء ، فلمـا كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كلّ شىء، وما نَفَضْنا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الأيدى حتى أنكرنا قلوبنـا . أخرجه ابن ماجه وقال : حدّثنا محمد بن بشّار حدّثنا عبد الرحمن بن مهدىّ حدّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كنا نَتَّقِى الكلامَ والانبساط إلى نسائنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن ينزل فينا القرآن، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمنا . وأَسْنَد عن أمّ سلمة بنت أبى أُمَيّة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان الناس فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المُصَلِّى [يصلى][(٢)] لم يَعْدُ بصرُ أحدهم موضع قدميه،

(١) أرسالا : أفواجا وفرقا متقطعة بعضهم يتلو بعضا ؛ واحدهم رسل ، بفتح الراء والسين .
(٢) زيادة من ابن ماجه .

فتُوفّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر، فكان الناس إذا قام أحدُهم يصلى لم يَعْدُ بصَرُ أحدهم موضع جبينه، فتوفى أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يَعْدُ بصَرُ أحدهم موضع القِبْلة؛ فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فتلفّت الناس فى الصلاة يميناً وشمالا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ ﴾ شرط، « أو قتل » عطف عليه، والجواب «انقلبتم» . ودخل حرف الاستفهام على حرف الجزاء لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة وخبرا واحدا . والمعنى : أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل . وكذلك كل استفهام دخل على حرف الجزاء ؛ فإنه فى غير موضعه، وموضعُه أن يكون قبل جواب الشرط . وقوله : « انقلبتم على أعقابكم » تمثيل ، ومعناه آرتددتم كفّاراً بعد إيمانكم ؛ قاله قتادة وغيره . ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه : آنقلب على عَقِبَيه . ومنه نَكَص على عقبيه. وقيل : المراد بالانقلاب هنا الانهزام ؛ فهو حقيقة لا مجاز . وقيل : المعنى فعلتم فعل المرتدّين وإن لم يكن رِدّة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً ﴾ بل يَضُرّ نفسه ويعرّضها للعقاب بسبب المخالفة، والله لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية لغناه . ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أى الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا . وجاء « وسيجزى الله الشاكرين » بعد قوله : « فلن يضر الله شيئا » وهو اتصال وَعْد بوعيد

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ هذا حَضٌّ على الجهاد ، وإعلامٌ أن الموت لا بدّ منه، وأن كلّ إنسانٍ مقتولٍ أو غيرِ مقتولٍ ميّتٌ إذا بلغ أجله المكتوبَ له ؛ لأن معنى « مُؤَجَّلًا » الى أجل . ومعنى « بإذن الله » بقضاء الله وقَدَره . « وكِتَٰبًا » نصب على المصدر ، أى كتب الله كتابا مؤجلا . وأجلُ الموت هو الوقت الذى

في معلومه سبحانه ؛ لأن روح الحي تفارق جسده ، ومتى قُتل العبد علمنا أن ذلك أجله . ولا يصح أن يقال : لو لم يقتل لعاش . والدليل عليه قوله : « كِتَابًا مُؤَجَّلًا » « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » « إِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ » « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » . والمُعْتَزِلِيّ يقول : يتقدّم الأجل ويتأخر، وأن من قُتل فإنما يَهلك قبل أجله ، وكذلك كلما ذبح من الحيوان كان هلاكه قبل أجله ؛ لأنه يجب على القاتل الضَّمانُ والدِّيَة . وقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أنه لا تَهلِك نفس قبل أجلها . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « الأعراف » إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على كَتْب العلم وتدوينه . وسيأتي بيانه في « طه » عند قوله : «قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ» (١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ يعني الغنيمة . نزلت في الذين تركوا المركز طلبا للغنيمة . وقيل : هي عامّة في كل من أراد الدنيا دون الآخرة؛ والمعنى نُؤْتِه منها ما قُسم له . وفي التنزيل « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي نؤته جزاء عمله ، على ما وصف الله تعالى من تضعيف الحسنات لمن يشاء . وقيل : المراد بهذا عبد الله بن جُبير ومن لزم المركز معه حتى قُتلوا . ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ أي نؤتيهم الثوابَ الأبديّ جزاءً لهم على تركِ الانهزام؛ فهو تأكيد لما تقدّم من إيتاء مريد الآخرة . وقيل : « وسنجزي الشاكرين » من الرزق في الدنيا لئلا يُتوهّم أن الشاكر يُحرم مما قُسم له مما يناله الكافر .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(١) آية ٥٢

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ قال الزُّهرىّ : صاح الشيطان يوم أُحُد : قُتِل محمد، فانهزم جماعة من المسلمين . قال كعب بن مالك : فكنتُ أوّل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأيت عينيه من تحت المِغْفر تزهَران، فناديت بأعلى صوتى : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأومأ إلىّ أن أسكت، فأنزل الله عز وجل « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا » الآية . « وكأين » بمعنى كم . قال الخليل وسيبويه : هى أىّ دخلت عليها كاف التشبيه وبُنيت معها فصار فى الكلام معنى كم، وصُوِّرت فى المصحف نونا لأنها كلمةٌ نُقلت عن أصلها فغيِّر لفظها لتغيُّر معناها ، ثم كثر استعمالها فلَقّت بها العرب وتصرّفت فيها بالقلب والحذف فحصل فيها لغات أربع قُرئ بها . وقرأ ابن كثير « وكَائِنْ » مثل وكاعن، على وزن فاعل ، وأصله كَيْء فقلبت الياء ألفا، كما قلبت فى ييأس فقيل ياءس[1]؛ قال الشاعر :

وكائنْ بالأباطح من صَديقٍ * يَرَانى لو أُصبتُ هو المصابا

وقال آخر :

وكائنْ رَدَدْنا عنكمُ من مُدَجَّجٍ * يجىء أمام الرّكب يَرْدِى[2] مُقَنَّعا

وقال آخر :

وكائنْ فى المَعَاشِر من أناسٍ * أخوهم فوقهم وهمُ كِرامُ

وقرأ ابن مُحَيْصِن « وكَئِن » مهموزا مقصورا مثل وكَعِنْ ، وهو من كائن حذفت ألفه . وعنه أيضا « وكَأَيِّن » مثل وكَعَيِّن وهو مقلوب كَيْء المخفف . وقرأ الباقون « كأيّن » بالتشديد مثل كَعَيِّن وهو الأصل ؛ قال الشاعر :

وكأيِّن من أناسٍ لم يزالوا * أخوهم فوقهم وهُمُ كِرامُ

---

(١) القلب فى ذلك على لغة من يقلب حرف العلة الساكن المفتوح ما قبله ألفا ، وهى لغة بلحارث بن كعب وخثعم وزبيد وقبائل من اليمن ، كما ذكره الواحدى فى وسيطه فى تفسير قوله تعالى « إن هذان لساحران » .

(٢) يردى : يمشى الرديان (بالتحريك) وهو ضرب من المشى فيه تبختر . والمقنع : الذى تقنع بالسلاح ؛ كالبيضة والمغفر .

وقال آخر :

كأين أبدنا من عدو بعزنا * وكائن أجرنا من ضعيف وخائف

فجمع بين لغتين : كأين وكائن، ولغة خامسة كيئن مثل كيعن، وكأنه مخفف من كيء مقلوب كأين. ولم يذكر الجوهري غير لغتين: كائن مثل كاعن، وكأين مثل كعين؛ تقول: كأين رجلا لقيت ؛ بنصب ما بعد كأين على التميز . وتقول أيضا : كأين من رجل لقيت؛ وإدخال من بعد كأين أكثر من النصب بها وأجود. و بكأين تبيع هذا الثوب، أى بكم تبيع ؛ قال ذو الرمة :

وكائن ذعرنا من مهاة(١) ورامح * بلاد العدا ليست له ببلاد

قال النحاس : ووقف أبو عمرو «كأى» بغير نون ؛ لأنه تنوين . و روى ذلك سورة ابن المبارك عن الكسائي . ووقف الباقون بالنون اتباعا لخط المصحف . ومعنى الآية تشجيع المؤمنين، والأمر بالاقتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء ؛ أى كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثيرون ، أوكثير من الأنبياء قتلوا فما ارتد أممهم ؛ قولان : الأول للحسن وسعيد بن جبير . قال الحسن : ما قتل نبي في حرب قط . وقال ابن جبير : ما سمعنا أن نبيا قتل في القتال . والثاني عن قتادة وعكرمة . والوقف على هذا القول على «قاتل» جائز، وهي قراءة نافع وابن جبير وأبي عمرو و يعقوب . وهي قراءة ابن عباس واختارها أبو حاتم . وفيه وجهان : أحدهما أن تكون «قاتل» واقعا على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله «قاتل» ويكون في الكلام إضمار ، أي ومعه ربيون كثير؛ كما يقال : قاتل الأمير ومعه جيش عظيم . وخرجت معي تجارة ؛ أي ومعي . الوجه الثاني أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الربيين، ويكون وجه الكلام قتل بعض من كان معه ؛ تقول العرب : قتلنا بني تميم وبني سليم، وإنما قتلوا بعضهم . ويكون قوله « فما وهنوا » راجعا إلى من بقي منهم .

قلت : وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتل وقتل معه جماعة من أصحابه . وقرأ الكوفيون وابن عامر «قاتل» . وهي قراءة ابن مسعود، واختارها

---

(١) المهاة : البقرة الوحشية . والرامح : الثور الوحشي ؛ لأن قرنه بمنزلة الرمح فهو رامح ، والمعنى : لا يقيم مع الإنس في مكان . ويروى : « بلاد الورى ليست له ببلاد » .

أبو عبيد وقال : إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه ، و إذا حمد من قتل لم يدخل فيه غيرهم ؛ فقاتل أعم وأمدح . و « الرِّبِّيُّونَ » بكسر الراء قراءة الجمهور . وقراءة علي رضي الله عنه بضمها . وابن عباس بفتحها ؛ ثلاث لغات . والرِّبِّيُّون الجماعة الكثيرة ؛ عن مجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة . واحدهم رِبِّي بضم الراء وكسرها ، منسوب إلى الرِّبَّة بكسر الراء أيضا وضمها ، وهي الجماعة . وقال عبد الله بن مسعود : الرِّبِّيُّون الألوف الكثيرة . وقال ابن زيد : الربيون الأتباع . والأول أعرف في اللغة ؛ ومنه يقال للخرقة التي تجمع فيها القداح : رِبّة ورُبّة . والرِّباب قبائل تجمعت . وقال أبان بن ثعلب : الرِّبِّي عشرة آلاف . وقال الحسن : هم العلماء الصُّبَّر . ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسُّدِّي : الجمع الكثير ؛ قال حسان :

وإذا معشر تجافوا عن الحق حملنا عليهم رِبِّيا

وقال الزجاج : هاهنا قراءتان «رُبِّيون» بضم الراء «ورِبِّيون» بكسر الراء ؛ أما الربيون (بالضم) : الجماعات الكثيرة . ويقال : عشرة آلاف .

قلت : وقد روى ابن عباس « رَبِّيون » بفتح الراء منسوب إلى الرَّب . قال الخليل : الرِّبِّي الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء ، وهم الربانيون نسبوا إلى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية لله تعالى . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ « وهنوا » أي ضعفوا ، وقد تقدم . والوَهْن : انكسار الجد بالخوف . وقرأ الحسن وأبو السمال « وَهِنُوا » بكسر الهاء وضمها ، لغتان عن أبي زيد . وهَن الشيء يَهِن وَهْنًا . وأوهنته أنا ووهّنته ضعّفته . والواهنة : أسفل الأضلاع وقصارها . والوَهْن من الإبل الكثيف . والوَهْن ساعة تمضي من الليل ، وكذلك المَوْهِن . وأوهنّا صرنا في تلك الساعة ؛ أي ما وهنوا لقتل نبيهم أو لقتل من قُتل منهم ؛ أي ما وَهَن باقيهم ؛ فحذف المضاف . ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ أي عن عدوهم . ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ أي لما أصابهم في الجهاد . والاستكانة : الذلة والخضوع ؛ وأصلها « استكنوا » على افتعلوا ؛ فأشبعت فتحة الكاف فتولدت منها ألف . ومن جعلها من الكون فهي استفعلوا ؛

والأوّل أشبه بمعنى الآية . وقرئ « فما وَهْنُوا وما ضَعْفُوا » بإسكان الهاء والعين . وحكى الكسائي « ضعَفوا » بفتح العين . ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قُتِل منهم أو قتِل نبيهم بأنهم صَبَروا ولم يفِرّوا ووطّنوا أنفسهم على الموت ، واستغفَروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رُزقوا الشهادة ، ودَعَوا فى الثبات حتى لا ينهزموا ، و بالنصر على أعدائهم . وخصّوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها . يقول : فهلّا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحابَ محمد فأجاب دعاءهم وأعطاهم النّصر والظّفر والغنيمة فى الدنيا والمغفرةَ فى الآخرة إذا صاروا إليها . وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه ، الثابتين عند لقاء عدوّه بوعده الحق ، وقوله الصدق . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ يعنى الصابرين على الجهاد . وقرأ بعضهم « وما كان قولُهُمْ » بالرفع ، جعل القول اسما لكان ؛ فيكون معناه وما كان قولهم إلا قولهم : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا » . ومن قرأ بالنصب جعل القول خبر كان . واسمها « إلّا أن قالوا » . ﴿ ذنوبنا ﴾ يعنى الصغائر ﴿ وإسرافنا ﴾ يعنى الكبائر . والإسراف : الإفراط فى الشيء ومجاوزة الحدّ . وفى صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء " اللّهُمّ اغفرلى خطيئتى وجهلى و إسرافى فى أمرى وما أنت أعلمُ به منى " وذكر الحديث . فعلى الإنسان أن يستعمل ما فى كتاب الله وصحيح السُّنّة من الدعاء ويَدَع ما سواه ، ولا يقول أختار كذا ؛ فإن الله تعالى قد اختار لنبيّه وأوليائه وعلّمهم كيف يدعون

قوله تعالى : فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

أى أعطاهم ثواب الدنيا ، يعنى النّصر والظّفر على عدوهم . ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ يعنى الجنة . وقرأ الجحدرى « فأثابهم الله » من الثواب . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تقدم .

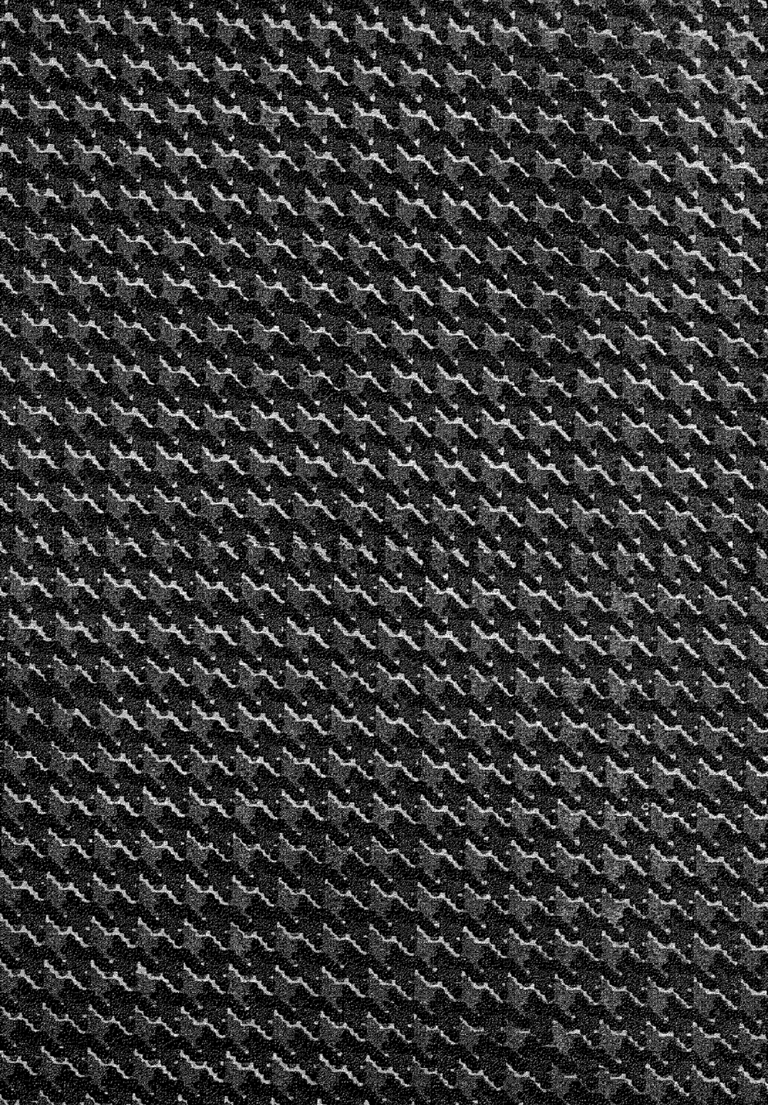
قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

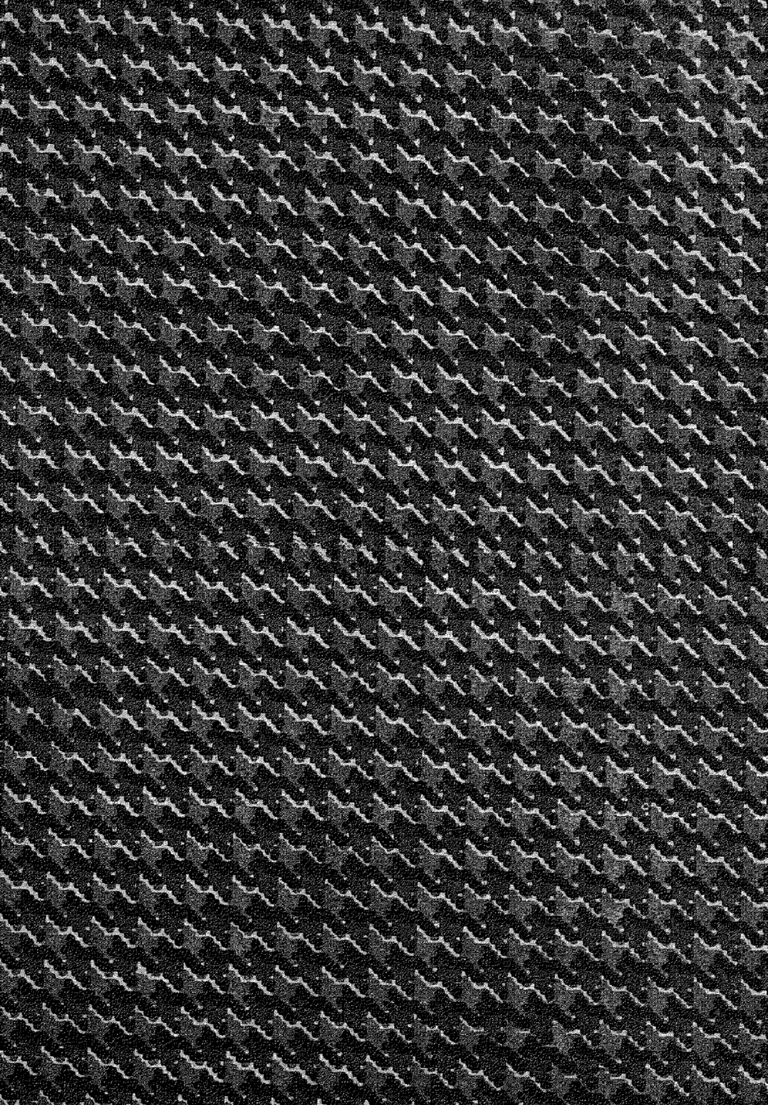
لما أمر الله تعالى بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذّر طاعة الكافرين ؛ يعنى مشركى العرب : أبا سفيان وأصحابه . وقيل : اليهود والنصارى . وقال علىّ رضى الله عنه : يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين آبائكم . ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ أى إلى الكفر . ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى فترجعوا مغبونين . ثم قال : ﴿ بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى مُتَوَلِّى نصركم وحفظكم إن أطعتموه . وقرئ « بل اللهَ » بالنصب ، على تقدير بل وأطيعوا الله مولاكم .

قوله تعالى : سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

نظيره « وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » . وقرأ ابن عامر والكسائى « الرُّعُب » بضم العين ؛ وهما لغتان . والرُّعب الخوف ؛ يقال : رَعَبْتُه رُعْبًا ورُعُبًا ، فهو مَرْعُوب . ويجوز أن يكون الرُّعُب مصدرا ، والرُّعْب الاسم . وأصله من الملء ؛ يقال : سيل راعب يملأ الوادىَ . ورَعَبْت الحوضَ ملأته . والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفا وفزعا . وقرأ السَّختيانى « سيلقى » بالياء ، والباقون بنون العظمة . قال السُّدِّى وغيره : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يومَ أُحُد متوجهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا ! قتلناهم حتى لم يبق منهم إلا الشَّريد تركناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرُّعب حتى رجعوا عما هَمُّوا به . والإلقاء يستعمل حقيقة فى الأجسام ، قال الله تعالى : « وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ » « فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ » « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ » . وقال الشاعر :

* فألقت عصاها واستقرّ بها النّوى *






Bibliotheca Alexandrina
0615381